

# دوستويفسكي

الاعمال الأدبية الكاملة المجلد ٢

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

نبوتشكا نرفانوفنا

الغالب الأبيض . بروخار تشين

جارية . المهرج

الشريف . البطل الصغير

ة في تسع رسائل

عيد الميلاد والزواج

روب، ربح، وزوج تحت السرير



0098634

Bibliotheca Alexandrina



الانعمال الأدبية الكاملة  
المجلد الثاني

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو

ص.ب: ٥٥٣٧/١٤ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

- نيتوتشكا نرقانوشا
- الليالى البيضاء
- بروخنارتشين
- اجمارة
- المحصن
- السارق الشريف
- البطال الصغير
- قصة في تسع رسائل
- شجرة عيد الميلاد والزواج
- زوجة آخر.. وزوج تحت السرير

جميع الحقوق محفوظة

# تقديم

يضم هذا المجلد الثاني من « أعمال دوستويفسكى الادبية » رواية واحدة هي « ليتولشكا نزانوفا » ، وقصصا تسعا تتفاوت طولا وقيمة .

## نيتولشكا نزانوفا

١٨٤٩

هذه الرواية التي كتبها دوستويفسكى فى عامى ١٨٤٧ و ١٨٤٩ ، كان مقدرها لها أن تكون رواية كبيرة تشتمل على ستة أجزاء ، غير أن ما نشر منها لا يضم الا ثلاثة أجزاء جعل لها دوستويفسكى العناوين الفرعية التالية : « طفولة » ، « حياة جديدة » ، « السر » . ذلك أن اعتقال دوستويفسكى فى الثالث والعشرين من شهر نيسان (ابريل) ١٨٤٩ قد قطع عليه عمله فلم ينجز كتابة روايته ، ثم لم يعد الى هذا العمل من أعمال شبابه بعد ذلك أبدا . وحين أعدها لطبعة أعماله سنة ١٨٦٠ ، حذف العناوين الفرعية ، وحذف فصلا من الجزء الثانى هو فصل التلقى فيه نيتولشكا ، فى بيت الأمير ، بصبى يتيم صغير اسمه لاريا كان الأمير قد ضمه اليه من باب الرأفة والبر والاحسان . ان مصير هذا الصبى البائس

الذى مات أبواه فى أسبوع ، يشبه مصير نيتوتشكا ، ولكن فكرة غريبة كانت تحاصر ذهنه وتستبد بعقله ، وهى أن أبويه قد ماتا حزنا وكمدا لأنه لم يكن يحبهما . ولعل هذا اليتيم كان سيعود الى الظهور فى نهاية الرواية على نحو ما تصورها دوستويفسكى قبل أن يعتقل فينقطع عن اتمامها ، فلما لم يتم الرواية عمد الى حذف هذا الفصل أصلا فى طبعة عام ١٨٦٠ .

تتألف رواية « نيتوتشكا نزالوفا » ، فى صورتها الحالية ، من ثلاث فصول فى الواقع ، لا تكاد تجمع بينها أو لا تجمع بينها فعلا الا شخصية البنت التى تروى ذكرياتها فيها . فاما القصة الأولى فهى قصة الموسيقى ، يافيموف ، وأما الثانية فهى قصة حياة الفتاة فى منزل الأمير وصادقتها مع ابنته كاتيا ، وأما الثالثة فهى قصة السر فى حياة الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهذه القصة الثالثة لم تكتمل .

يقول الكسندر سولوفيف : « ان قصة يافيموف ، العازف على الكمان ، تذكر بشخصية كرايزلر ، البطل الذى وصفه هوفمان تجسيدا للصورة الرومانسية عن الموسيقى المجنون الذى تسحره آلة شيطانية ؛ ولا شك أن شخصية باجانينى الشهيرة قد ساهمت مساهمة كبيرة فى رواج هذه الصورة ، وأغلب الظن ، عدا ذلك ، أن دوستويفسكى قد قرأ قصة بالزاك التى عنوانها « جامبارا » وفيها يصور بالزاك موسيقيا شبه مجنون يحاول أن يخلق موسيقى جديدة ، فيطوف أوروبا كلها فى صحبة زوجته الوفية ، ويظل الناس لا يفهمونه ، ثم تشتد عليه وطأة الفقر فيهبوى الى الجنون » . فكان سولوفيف يريد أن يقول ان دوستويفسكى قد تأثر ، فى كتابة هذه الرواية ، بقصة هوفمان أو قصة بالزاك ؟ . ولكن أبكفى أن يكون يافيموف والبطلان اللذان وصفهما هوفمان وبلزاك موسيقيين أشباه مجانين حتى نزعهم أن دوستويفسكى قد تأثر بهذين الكاتبين ؟ الحق ان يافيموف كان يمكن أن لا يكون موسيقيا ، ثم هو يبقى يافيموف نفسه بوجهه النفسى الخاص : بعذابه وتناقضاته ، بطموحه وشراسته ، بغروره وصلفه ، بزهره وعجزه ، بادمانه على الحمرة وعزوفه عن العمل تكبرا وكسلا ، وبالقائه ثعبا أخفاقه على غيره ، بحبه تعذيب الآخرين وتعذيب نفسه فى آن واحد ، مع وجود بعض بنور الخير فى قرارة ذاته . . . انه ، سواء آكان موسيقيا أم غير موسيقى ، هو الانسان الذى تمرقه المسافة الكبيرة بين ما يطمح اليه وما يقدر عليه ،

الانسان الذى يضمنه الشعور بالمقدرة والعجز مجتمعين ، ويمانى من عقدة النقص وعقدة التفوق فى آن واحد ، ثم لا يعرف كيف يحل التناقض أخيرا الا بالهروب . . . بالهروب الى الادمان على الحمرة يفرق فيها أحزانه ، والى القسوة يبرهن بها على قيمته ، ثم الى اليأس فالموت خاتمة للمطاف ونهاية للعذاب . . . الأحداث فى قصة يافيموف بسيطة ، ولكن الأغوار النفسية التى يهبط اليها دوستويفسكى فيها عميقة غاية العمق . البطل موسيقى يعزف على الكلارنيت فى أوركسترا خاصة يملكها سرى من سراة القوم ، ويلتقى يافيموف بإيطالى عجيب يورثه قبل موته كمانا شيطانية . وبطرفة ليس لها تعليل ظاهر ، يصبح العازف على الكلارنيت عازفا على الكمان من الطراز الأول ، ولكنه يصبح فى الوقت نفسه متكبرا سيء الطبع خبيث النفس وقحا سلميظ اللسان ، وما يلبث أن يهجر مولاه الذى أحسن اليه وأنعم عليه قائلا له اننى لم أعد أطيق الحياة عندك ، فان الشيطان قد سحرنى ، ولسوف أحرق بيتك اذا أنا مكثت فيه . . . وتستبد بالرجل قوة الزهو بنفسه والغيرة من غيره . . . وها هو ذا يبدد كل المال الذى نفحه اياه مولاه الطيب ، وها هو ذا يفقد جميع الوظائف التى يعين لها بعد ذلك ، وها هو ذا ينقطع عن العمل آخر الأمر انقطاعا تاما ، ويدمن على الشراب ادمانا يقضى على البقية الباقية من عافية روحه وجسمه . وتظل أحلام المجد تسكن رأسه رغم ذلك ، بل هى تزداد من ذلك قوة وعنف . ويتزوج يافيموف أرملة شابة تحمل اليه بائلة صغيرة ، فما يلبث أن يتلف المال . وتصبح الزوجة الشابة كبش الغداء للموسيقى التعيس ، فهو لا ينفك يلتقى عليها تبعة ما يلقاه من اخفاق ، فسلوها لآزدهرت عبقريته ، وذاع صيته ، وعرف نبوغه . والزوجة امرأة « حاملة كثيرة الحماسة » جملة النشاط مهدمة الروح من قسوة القدر ، وهى الى ذلك مصابة بالسل الذى سوف يقضى عليها .

نحن هنا أمام حالة من الحالات التى يمكن أن يتخذها عالم النفس أدلر مثلا على عقدة النقص كيف تفعل بصاحبها . هاهنا يسبق حدس دوستويفسكى دراسات أدلر سبعين عاما أو يزيد . ولكن دوستويفسكى لا يسبق أدلر فحسب ، بل يسبق فرويد أيضا . . . ولا عجب أن عده فرويد نفسه رائد التحليل النفسى قبله . وهو انما يسبق فرويد حين يصف لنا البنية نيتوتشسكا ، راوية هذه الذكريات . . . والحق أن



دوستويفسكى لا يسبق فرويد وأدلى كليهما فى هذه الرواية ، بل هو يصلح بينهما أيضا . ان من شأن النظرة العلمية أن تنظر الى الواقع من خارج ، فترى جانبا منه تضع له القوانين ، ولا كذلك الحدس الفنى والأدبى ، فانه يعايش الواقع من داخل ، ويراه لذلك دفعة واحدة بكل الحياة التى تنبض فيه ، الحياة الدافقة التى لا يمكن حصرها فى اطار قانون عام شامل يصدق على جميع الأفراد . ان الحدس الأدبى يرى الواقع كله جملة واحدة ، متداخلا متناغما متشابكا ، متعدد الجوانب على انسجام ، متكرر الوجوه على وحدة هى وحدة الحياة النفسية التى تترقق فيه .

قلنا ان دوستويفسكى يسبق فرويد حين يصف لنا هذه البنية نيتوتشكا ، رواية ذكرياتها . ان نيتوتشكا تحب أباه ( زوج أمها ) وتكره أمها . « شعرت نحوه بحب لا حدود له ، حب ليس فيه شىء من طفولة » . هذه عقدة أوديب . تكاد وأنت تقرأ قصة نيتوتشكا ان تتساءل : ماذا بقى لفرويد أن يقوله ؟ ولكن عقدة أوديب ليست تنفصل فى رواية دوستويفسكى عن مجرى التاريخ الفنى الحافل الذى تعيشه الصبية . هى تحب أباه وتبغض أمها ، كما قد يقول لنا فرويد . ولكنها تحل عقدة النقص فى الوقت نفسه ، يجرحها التناقض بين قعر المسكن الذى تقيم فيه مع أبويها وبين المنزل الغنى ذى الستائر الحر الذى يقابل هذا المنزل ، وتصدق أباه حين يزعم لها أن أمها هى السبب فيما هم فيه من ضعة الشأن وسوء الحال وادقاع الفقر وخمول الذكر . فيزداد كرهها لأمها ، حتى لتسرق مال أمها التى تدخره الأم لإقامة الأود وسد الرمق ، وتعطيه أباه يشتري به تذكرة حضور حفلة موسيقية يحييها موسيقى مشهور من العازفين على الكمان . وكان حضور هذه الحفلة هو الضربة القاضية على يافيموف ، فقد اكتشف يومئذ ما هى الموهبة الحقة اعاد من الحفلة مهدم النفس ، فوجد امرأته ميتة . وتناول كمانه وأخذ يعزف ، ولكن الموسيقى التى تخرج من الكمان لا تزيد على أن تكون آهات ونحيبا وعذابا وقلقا وحسرات . ويوافيه الجنون ، فيترك البيت مع البنية المسفيرة يطوف فى الشوارع المغطاة بالثلج ، ويظل يطوف الى أن تنهار قواه ، ثم يموت فى أحد المستشفيات . لقد قتله أن اكتشف الموهبة الصادقة ، وأن اكتشف أن أحلامه باطل كقبض

الريخ • كذلك يسبق الحدس الأدبي عند دوستوفسكى نظرية فرويد  
ونظرية آدلر ، بل ويصالح بين النظريتين فى ادراك للحياة من الداخل •

ويصالح دوستوفسكى بين فرويد وآدلر فى الجزء الثانى من  
الرواية حين ينقل نيتوتشكا الى بيت أمير يضمها اليه رحمة وشفقة •  
فهناك تتعرف الصبية بابنة الأمير •• وتنشأ بين الفتاتين عاطفة هى  
حب الفرد فردا من جنسه ، هى الحب المثلئ الذى يحدثنا عنه فرويد :  
قبلا وعناق ونجوى ومسارات •• وتنشأ بينهما فى الوقت نفسه  
صلات تصلح تجسيدها لنظرية آدلر فى « عقدة النقص » أو « مركب  
الدونية » •

وتشعر الأميرة زوجة الأمير بما قد يكون للصبية اليتيمة العجيبة  
من تأثير سييء على ابنتها ، فسرعان ماتفترق الحبيبتان : ترسل كاتيا  
بنت الأمير الى موسكو ، ويعهد بنيتوتشكا الى سيدة تمت الى الأمير بقربى  
هى الكسندرين ميخائيلوفنا • وهكذا ينتهى الجزء الثانى من الرواية على  
حين بقتة •

ويبدأ الجزء الثالث • انه « قصة جديدة » • ان السيدة التى تحسن  
الى الصبية اليتيمة فتضمها اليها ، تحب هذه الصبية حبا صادقا ،  
لتبادلها الصبية الحب • ولكن نيتوتشكا تشعر بوجود شيء ما وراء ذلك  
الهدوء الظاهر الذى يبدو على سيدة البيت • فانها تلاحظ أن السيدة  
تقترب من القلق والاضطراب والخوف كلما بدت أسعد حالا وأهدأ بالا •  
ثم تكتشف نيتوتشكا السر : تعثر فى كتاب لوالتر سكوت على رسالة  
قديمة أرسلها الى الكسندرين ميخائيلوفنا شباب يعترف لها بحبه ،  
ويشكر لها « عاطفتها الأخوية » ، ويتركها الى الأبد لأن الناس من حولهم  
أخذوا يروجون الأقاويل • وتفهم نيتوتشكا السر فى حزن « الخاطئة  
البريئة » • وكان بطرس الكسندروفتش ، زوج السيدة ، يتظاهر بأنه  
غفر لامراته ، ولكنه كان يضطهدها ويسومها سوء العذاب بتذكيرها  
بخطيئتها • وكان هذا الرجل الذى أحدث فى نفس نيتوتشكا منذ أول  
الأمم أثرا مؤلما يحاول أن يخفى نظراته عامدا بنظارتين زرقاوين •  
ونكتشف الفتاة فى الرجل الوقور الرصين أنسانا طاغية يعذب « القلب  
الضعيف » ، امراته • فكانت تسائل نفسها : ماهذا العذاب الذى لا مخرج  
منه ؟ ماهذا الخوف الذى لا نهاية له ؟ ماهذه التضحية تبذل فى مذلة

بلا تدمر ولا تملج ؟ ٠٠ وكانت الفتاة تحس أن هذه التضحية هدر ٠٠  
أمجرم يغفر خطايا يرى ؟ ٠٠ وكان ذلك يمزق نفسها تمزيقا ٠ وتنتهي  
القصة بمشهد ميلودرامي : يفاجيء بطرس الكسندروف فتش الفتاة وهي  
بسييل قراءة تلك الرسالة ، فيشتبه في أن تكون قد تلقت رسالة من  
عشيق ٠ ان نيتوتشكا مستعدة لأن تتحمل هذه التهمة ، كما فعلت ذلك  
من قبل في سبيل كاتيا ٠ ولكن هاهي ذى الكسندرين تعترف أثناء  
مناقشة حامية بينها وبين زوجها بأنها هي أيضا « خاطئة » ، وبأنها  
مستعدة لأن تترك المنزل مع نيتوتشكا ٠ وتكشف نيتوتشكا عن الحقيقة  
للزوج الغيور ، فتطلع على سر الرسالة ، وتأخذ تقرع فيه صلفه وكبرياه  
وأنايته وقسوته ونفاقه ، وتصفه بأنه انسان يحسب نفسه مبرأ من كل  
خطيئة ، فهو لا ينفك يعذب الآخرين ٠ وبهذا الانفجار الذي تلفجره  
نيتوتشكا تنتهي الرواية مبتورة ٠

## الليال البيضاء

١٨٤٨

ان هذه القصة التي كتبت سنة ١٨٤٧ ونشرت في كانون الأول  
ديسمبر ١٨٤٨ تكاد تروى فصلا من حياة كاتبها ٠ ان البطل الذي لا اسم  
له في هذه القصة ، والذي يروى أحلامه وانفعالاته وحب الرقيق الحنون ،  
يصف جانبها من طبع الكاتب الشاب دوستويفسكي ، ويقص حياته  
الانعزالية ومشاعره العنيفة وأحلامه الرومانسية ٠ بماذا يحلم هذا  
الكاتب الشاب ؟ ٠٠ انه يحلم بكل شيء ٠ يحلم بدور الشاعر المغمور  
أول الأمر ، المتوج بالكليل المجد بعد ذلك ، يحلم بصدقة مع هولمان (\*) ،  
بليلة سان بارتلمى ، بديان فرنون ، بالسلوك البطولي الذي أظهره ايفان  
سيليفيتش عند الاستيلاء على قازان ، بكلارا موفبراى ، بايفى دينز ،  
بأحبار المجمع البابوى وأمامهم هوس ، بيقظة الموتى فى « روبر  
الشيطان » ( ألا تتذكرين هذه الموسيقى التى تفوح فيها رائحة المقابر ؟ )  
بمينا وبرندا ، بمعركة بريزينا ، بقراءة قصيدة عند الكونتيسة ف ٠ د ،

بدانتون ، بكليوباترا وغرامها ، بيت صغير في كولومنا ، بركن صغير له  
تجلس الى جانبه فيه مخلوقة حبيبة تصغى الى كلامه في أماسى الشتاء . »  
... هذه هي التأملات الخلاقة التي كان يسترسل فيها الكاتب الشاب  
محوما حول الموضوعات التي يمكن أن تتناولها أعماله وقد تشبعت  
برومانسية تاريخية ونفسية . ان الكاتب يدرك أحيانا أن هذه الحياة  
الانزالية التأملية يجب أن تدان لأنها تفصله عن الحياة الواقعية وهو  
مع ذلك مفتون بهذه الأحلام لأنها ينبوع وحيه والهامة . ان حياة هذا  
الحالم بطل القصة الذي يعيش في بطرسبرج منذ ثماني سنين ( كالكاتب  
نفسه ) والذي لم يعقد فيها اثناء هذه السنين الثماني علاقة بأحد من  
الناس هي مزيج من خيال جامع ومثالية مسعورة وتفاهة مبتذلة عادية .  
انه في عزله في هذه العاصمة المتوحشة التي لا تكلمه يسترسل في  
دراسة وجوه المارة ليتخيل طباعهم حتى أن البيوت نفسها معارف له  
وأصدقاء ، وان له بينها ما هو أثير عليه حميم عنده . ان « الهة الخيال »  
تسج أمامه موكبها العجيب ولكنه في حاجة الى الخروج من هذه الحياة  
الخيالية ، انه في حاجة الى أن يجد صديقا حيا ( او صديقة ) ليستطيع  
أن يفضى بما في قلبه الفياض حبا وحنانا . وها هو ذا في ليلة من ليالى  
شهر أيار ( مايو ) البيضاء بينما كان الضياء الشمالى يضى على المدينة  
النائمة طابعا سحرى ، ها هو ذا يلتقى بفتاة بائسة فيحميها من عابر  
مزيج . انه يشعر نحوها بشفقة عميقة لأنه يرى أنها حزينة وأن ذكرى  
من الذكريات كانت تبكيها فيقدم لها صداقته . يلتقى الشاب والفتاة  
أربع ليال متتاليات في المكان نفسه فيقص كل منهما على صاحبه حياته  
القصيرة صادقا مخلصا لا يخفى منها شيئا . ان ناستنكا تنتظر الرجل  
الذى تحبه ، الرجل الذى ضرب لها موعدا في هذا المكان نفسه ولكنه  
لا يجيء فاذا هي تفرق في كمد عميق . ويعرض عليها البطل صداقته  
ويحاول أن يساعدها رغم أن هذه الصداقة سرعان ما استحالت حبا .

هكذا نرى أن دوستويفسكى يعود الى موضوع قصصته الأولى  
« الفقراء » . ولكن النغمة مختلفة هنا اختلافا كبيرا فالكاتب لا يقتفى  
هنا اثر المدرسة الطبيعية على طريقة جوجول ولسنا نجد ها هنا أى شىء  
يتصل بالمجتمع ، فلا مكاتب ولا دواوين ولا موظفين ولا « أصحاب معالي » .  
ولا يشير البطل الا اشارة عابرة الى عمل يتقاضى عليه أجرا مقداره مئة

روبل فى الشهر والى مكافاة سينالها قريبا . فى هذه القصة يحل محل  
ماكار (بطل قصة «الفقراء») الفقير المسن الأخرق المضحك القليل الثقافة،  
يحل محله شاب حالم يفيض حماسا وثقافة أدبية . كما أن فارنكا  
دوبروزيولوف المراض الحزينة قد استحالت هنا الى فتاة فى السابعة  
عشرة من عمرها طافحة الحيوية بارعة المكر على براءة . ثم ان الحب  
العاطفى الذى شعرت به فارنكا نحو الطالب بركوفسكى قد انتهى بمأساة  
هى موت الشاب . ثم هى بعد ان أذلها وهجرها السيد بيكوف قد ارتضت  
أن تزوجه دون أن تشعر نحوه بأى حب حين عاد اليها ليصلح خطاه .  
ولا كذلك فى قصة الليالى البيضاء فان الحب الذى يشبه أن يكون طفوليا  
ولكنه عميق أعنى حب ناستنكا للشباب الذى امتأجر غرفة فى بيت  
جدتها ، قد انتهى نهاية سعيدة ، وناستنكا قد تركها حبيبها أيضا فترة  
من الوقت ولكنه يعود اليها بعد ذلك فى الليلة الرابعة وتكون خاتمة القصة  
زواجا سعيدا . وأخيرا فان ماكار المسكين يبتقى حزينا منعزلا مهجورا قد  
هوى الى قاع اليأس ، اما فتى « الليالى البيضاء » فانه بعد أن رأى خطة  
زواجه تنهار يبارك قدره فى وثبة من انكار الذات فاذا هو يخاطب  
ناستنكا قائلا : « بوركت يامن وهبت لحظة من هدانة وسعادة لقلبي الممتن  
الذى يعيش فى وحشة العزلة لحظة بكاملها من سعادة رباة اهل تحتاج  
حياة انسان الى أكثر من هذا ؟ » . ان الحب شبه الأخوى الذى شعر به  
الحالم قد رفعه الى ذرى عالية من عاطفة الايثار وسوف نرى هذه الشخصية  
المثالية ذات القلب الحبار الحساس الخجول تظهر مرة أخرى عند  
دوستوفيسكى وذلك فى روايته «ملتون مهانون» . أليس ايفان بيتروفيتش  
فى هذه الرواية شبيها ببطل الليالى البيضاء ؟ . ان هذه الشخصية  
هى من أحب الشخصيات التى خلفها دوستوفيسكى وهى عند دوستوفيسكى  
نفسه أقربها الى قلبه وأثرها فى نفسه ولعل من الشائق أن نذكر فى  
هذه المناسبة أن دوستوفيسكى قد تصور فى عام ١٨٧٦ أن يكتب رواية  
برمتها يجعل عنوانها : « الحالم » .

## بروخارتشين

١٨٤٦

القصة الثالثة فى هذا المجلد « بروخارتشين » ، قد كتبها دوستويفسكى فى صيف عام ١٨٤٦ ، وفى مقال له ظهر سنة ١٨٦١ ، يروى لنا دوستويفسكى كيف نبتت فى خياله شخصية هذا « الفقير الغنى » بروخارتشين . قال انه كان قد قرأ فى احدى جرائد العاصمة خبرا صادقا عن بخيل غريب ، « يشبه هارباجون الذى وصفه مولير فى مسرحية البخيل ، مات فقيرا فوق آكوام من الذهب . انه موظف صغير محال على التقاعد اسمه س . كان لا يدفع الا ثلاثة روبلات اجرا لمبئته على سرير وراء حاجز فى بيت يسكنه عدد من المستأجرين ، وكان لا ينفك يشكو الفقر ، حتى أنه لم يدفع أجر المبيت ، فى السنة الأخيرة التى سبقت وفاته . فلما مات اكتشفوا بين أشياءه مائة وتسعة وستين ألف روبل ، نقودا فضية وأوراقا مالية . » لقد أثرت قراءة هذا النبأ فى نفس دوستويفسكى . وتابع دوستويفسكى يقول فى مقاله : « عندئذ لما تراهى لى بين جمهرة المارة فى الطريق رجل ليس له وجود فى الواقع ولكنه من ابتكار الخيال ، يرتدى معطفا لا شك أنه كان يتخلده غطاء لنفسه فى الليل ، وأدركت أنه هو نفس ذلك الهارباجون الذى مات راقدا فوق نصف مليون . وهماهى ذى شخصية قصصية تنبجس فى خيالى ، شخصية تشبه شخصية « الفارس البخيل » الذى وصفها بوشكين ، وسرعان ما رأيت ان امامى شخصا فذا : يهجر العالم ويهجر جميع ما فى العالم من مفريات ، ويمضى يعيش منزويا وراء الحاجز فى البيت الوضيع . ماله وللترف الباطل والرخاء السخيف والدعة الكاذبة والهناء المزعوم ؟ لا . ليس به الى ذلك حاجة قط . انه يملك تحت مخدته كل مايريد ، يملكه تحت كيس وسادته الذى لم يغيره منذ سنة بكاملها . ليس عليه الا أن يصفر ، حتى يأتبه كل ماهو فى حاجة اليه زاحفا اليه زحفا ! لو

شاء لا يتسم له واحتفل به الوف الناس .. ولكننى احسست وأنا احلم  
بهذه القصة أننى أسرق بوشكين . . . »

ويجب أن نذكر أن هناك شخصية بخيل آخر قد رستمها يراع  
جوجل فى كتابه « النفوس الميتة » ، وهى شخصية بليوشكين . وهل  
يجهل أحد أن هذين الكاتبين قد كانا نقطة انطلاق دوستويفسكى ا

وحين نشرت هذه القصة ، قسا الناقد بيلنسكى فى الحكم عليها ،  
فكتب يقول : « هذه قصة تالفة للسيد دوستويفسكى تثير الاستهجان  
حتى لدى المعجبين بموهبته . ان فيها بضع ومضات من موهبة ، ولكن  
هذه الومضات القليلة محاطة بظلمات تبلغ من الكثافة أن ضيائها لا يتيح  
للقارئ أن يميز شيئاً . ليس فى هذا الأثر شيء من الهام ، ليست هذه  
القصة ثمرة عمل حر يقوم به فنان منطلق على سجيته . ان فيها تصنعاً ..  
ان فيها ادعاء .. انها غير مفهومة . ولا شيء فى الفن يجب أن يكون مظلماً  
أو غير مفهوم . » والحق أن هذا الحكم قاس جداً . لقد كان بيلنسكى  
ناقدًا واقعيًا اجتماعيًا يسرف فى التبسيط ، ولم يكن قادرًا على أن يقدر  
عمق الأغوار النفسية التى يهبط اليها دوستويفسكى .

صحيح أن هذه القصة ليس فيها مافى « الفقراء » من غنى يشد  
القارئ ويجذبه اليها ، ولكن عالمها هو عالم « الفقراء » نفسه: الغرف الصغيرة  
المفروشة ، المؤجرات الجاهلات البسيطات ، سكان هذه الغرف على اختلاف  
أنواعهم ، السكارى الأشقياء .. الخ .. والقصة أكثر جفافًا من قصة  
« الفقراء » ، فالمؤلف لا يكاد يصف فيها الا شخصية واحدة ، غير جذابة .  
وهى - أى القصة - خالية من عمق العاطفة التى تحفل بها قصة الفقراء .  
ولكنها تشتمل على صفحات كاوية حقا ، ولا سيما الصفحات التى تصور  
هذيان البخيل فموته ، ذلك عدا الأحلام الرهيبة المشنومة التى يصفها  
دوستويفسكى وصفاً أخاذًا ، والتى لعله عانى هو نفسه مثلها ا

## الجمارة

١٨٤٧

بدأ دوستويفسكى كتابة هذه القصة « الجمارة » فى خريف عام ١٨٤٦ . وقد أرسل الى أخيه يقول له أيامئذ : « لسوف تكون هذه القصة الجديدة خيرا من رواية « الفقراء » . هى من ذلك النوع نفسه . وانما يقود قلمى فى كتابتها الهام ينبع من النفس رأسا . فلست أعانى فى كتابتها من العناء ما عانيت فى كتابة قصة « بروخارتشين » التى ارهقتنى طوال الصيف » .

فلما نشرت القصة ، كان بيلنسكى قد أصبح لا يطيق أى أدب يخرج على نطاق الواقعية ذات الاتجاه الاجتماعى ، لذلك لم يستطع أن يفهم شيئا من جمال هذه القصة الرومانسية التى تختلف فى حقيقة الأمر اختلافا كبيرا عن رواية « الفقراء » . فاذا هو يصفها فى دراسة تستعرض الأدب الروسى سنة ١٨٤٧ قائلا عنها انها لا تشتمل على كلمة واحدة أو عبارة واحدة يمكن أن تعد بسيطة حية ، فكل شئ فيها متكلف مبرقش مصطنع زائف .

والحق أن القصة على جانب عظيم من الجمال . وهى أول قصة يصور فيها دوستويفسكى شخصية « حالم » . أوردينوف فتى مثقف ، منفصل عن المجتمع ، منحسب فى عالم فكره الخيالى وأحلامه الكثيرة ، عاكف على كتابة تاريخ للكنيسة . ان هذه السمة الأخيرة فيه تربطه بالشباب التقى الرومانسى شدلوفسكى الذى كان لدوستويفسكى صديق صباه . وهو الى ذلك فتى شديد الحماسة تنتابه فى بعض الأحيان نوبات صرعة . هذه أول مرة يصف فيها دوستويفسكى مرضه هو ، والاحساسات الحادة التى كان يشعر بها . ان أوردينوف انسان منعزل، تفيض نفسه أهواء مكبوتة لا تنتظر الا أن تنبجس من قلبه طافحة عارمة . فها هو ذا يتوله حبا بجارته الجميلة التى استأجر فى بيتها غرفة ، والتي لا يعرف أمى ابنة الشيخ الذى تعيش معه أم هى زوجته ، وهو شيخ يشبه أن يكون لغزا ، وتوافيه نوبات صرعة هو أيضا . والقصة كلها تجرى فى جو هو الى الحلم أقرب منه الى اليقظة . . فى جو لا يكاد يستطيع البطل أن يميز فيه بين أحلامه وبين العالم الواقعى .



لا شك ان دوستويفسكى قد تأثر فى كتابة هذه القصة بجوجل .  
ان الجارة تشبه كاترين بطله « الانتقام الرهيب » ( حتى لقد استعار  
اسمها ) التى سحرها أبوها الساحر نفسه . ولكن دوستويفسكى قد  
نقل شخصو الجو الاكرانى الذين وصفهم فيه جوجل ، الى روسيا  
الكبرى ، فى غابات الفولجا التى يرتادها قطاع الطرق . وهو يتأثر  
ايضا بأسلوب سرد القصص الشعبية ، هذا الأسلوب الاخاذ الذى عرف  
كيف يقلده تقليدا بارعا موفقا .

دعك اذن من النقد المر الذى وجهه بيلنسكى الى هذه القصة ،  
وانظر اليها بقلب متفتح للجمال تجد فيها روعة اخاذه . ثم ان لهذه  
القصة مكانا هاما بين جملة أعمال الشباب التى أنتجها دوستويفسكى .  
ان كاترين « قلب ضعيف » مثل اوردينوف تماما . وها هى ذى نفسها  
تقول : « هب الحزينة لانسان ضعيف ، يرفضها هو نفسه ويردها اليك »  
ان هذه الفكرة سيعود اليها دوستويفسكى بعد سنين طويلة فى  
« الاخوة كارامازوف » فيعرضها بمزيد من القوة والعمق .

ان كاترين مأسورة مسحورة أفسدها مورين ، قاتل أبويها .  
وهى تهتف قائلة عنه : هو شيطاني الحبيث ، بعته روجى . فأنا له . .  
أنا ملك يمينه . ويدرك اوردينوف أن مورين على حق حين يصفها  
بانها « قلب ضعيف » . ان هذا القلب الضعيف خاضع لمشيئة مورين  
الشيطنانية . ان كاترين لا تستطيع أن تتمتع بالحرية التى يتظاهرها  
مورين بأنه يمنحها اياها ، فهى فى الفصل النهائى تعود الى الذى  
أغواها ، رغم انها تحب الفتى حبا قويا . هذه المرأة التى لها نفس حارة  
ملتهبة ، هذه المرأة التى تريد أن تهب الحب الصادق الحر لانسان  
جدير بها ، ثم هى لا تستطيع أن تتحرر من سلاسل خطيئتها ، أليست  
صورة لبطله رواية « الأهل » ، ناستازيا ، وبطله « الاخوة كارامازوف »  
جروشنيكا ؟ وأخيرا ، فلسوف نجد هذا الهوى المحموم المسعور الذى  
يستبد بمورين ، هذا الهوى الذى يعبر عن الظلم الى التسلط ، سوف  
نجده فى الروايات التى سيكتبها دوستويفسكى فى المستقبل . ان  
دوستويفسكى يعالج منذ الآن ، مشكلة الحرية والارادة ، فى هذه القصة  
التي لم يفهمها معاصروه .

## المهرج

١٨٤٨

لم ينشر دوستويفسكى قصة « المهرج » فى طبعة أعماله سنة ١٨٦٠ ، بعد أن نشرها عام ١٨٤٨ ، لقد عدها تافهة . ثم لم يعد نشرها إلا بعد وفاة دوستويفسكى ملحقه بالمجلد الأول الخاقا . على أن هذه القصة لا تخلو فى الواقع من طرافة ، كما أنها تشبه من بعض النواحي بعض قصص دوستويفسكى فى أيام شبابه ، ان المهرج بولزونكوف الذى يريد أن يسر الناس جميعا وأن يبهجهم هو المعادل المضحك لفاسيا شومكوف . فكلا الشابين ذو « قلب حار » ، وكلاهما طيب النيات ، يرمى أن يحب وأن يحب . ولكن الثانى يصبح كاريكاتورا للأول ، كما يحدث ذلك كثيرا لدى دوستويفسكى . ان بولزونكوف يقص علينا هو أيضا حكاية غرامية عن خطبة الفتاة ماريا المسكينة التى تشبه خطيبة فاسيا . ولكن هذه الحكاية الغرامية محاطة بأطار هزلى ، بمشهد منفرد يحاول فيه بولزونكوف أن يحمل حملاه على أن يغنى ، وفى آخر الأمر يظهر بولزونكوف مخدوعا قد غرر به حموه هذا . ان هذا التناوب بين النيات الطيبة والرغبات الحسية لهو من السمات البارزة التى تميز بعض أبطال دوستويفسكى .

## السارق الشريف

١٨٤٨

فى شهر نيسان أبريل ١٨٤٨ ، نشر دوستويفسكى « من أقاصيص شينخ عابر سبيل » ، وكان ما نشره يضم قصصتين ، احدهما هى : « الجندى المتقاعد » والثانية هى : « السارق الشريف » ، والقصتان كلتاهما يرويهما جندى متقاعد برتبة صف ضابط اسمه آستافى كان قد سكن عند دوستويفسكى بعض الوقت خادما .

فلما أعد دوستويفسكى إعادة طبع أعماله سنة ١٨٦٠ ، عدل هذا العمل من أعماله ، فأسقط القصة الأولى بأسرها ، وهى عن حرب عام ١٨١٢ ، وجعل عنوان الثانية للعمل كله .

ان دوستويفسكى يعرف كيف يتحدث باللسان البدائى البسيط الذى يتكلم به رجل من الشعب . والفكرة الأساسية فى هذه القصة هى ما يتصف به انسان بسيط من طيبة متواضعة صادقة . ان صف الضابط ، الفقير هو نفسه ، يؤوى فى غرفته سكيراً مدمناً ، هو ايميليان ، ويساعده ، ويعطف عليه ويشعر نحوه بحزن شديد حين يلاحظ أن هذا السكير الذى آواه وأطعمه من جوع وآمنه من خوف قد سرقه . ولكنه لما يتصف به من رهافة فى الطبع وذوق فى المعاملة لم يوجه اليه كلمة لوم واحدة .

ان السكير ايميليان الذى سبق أن التقينا به فى رواية «الفقراء» والذى كان يعرفه دوستويفسكى فعلاً ، هو انسان حساس مرهف الشعور . لقد ارتكب جريمة السرقة ضعفاً ، ولكن ضميره يعذبه أشد التعذيب ، وهو يحاول أن يسر الرجل الذى أحسن اليه وأنعم عليه وأن يبهجه ، ويتمنى لو يعمل ، ثم اذا هو من فرط عذاب الضمير تنهار صحته ، واذا هو يعترف بجريمته حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فيخفف ذلك عنه ويواسيه ، ويشعر أن صاحبه قد غفر له وصفح عنه .

ان هذين الانسانين اللذين يمتازان بالشهامة والبروة ، ويفيضان عاطفة وطيبة أقرب الى الواقع من أصحاب «القلوب الضعيفة» ومن «الحالمين» الذين وصلهم فى قصصه السابقة . ان ضابط الصف ، القادر على أن يحب وعلى أن يعفو ، هو «الانسان العادل» بين أبناء الشعب الروسى فى نظر دوستويفسكى . وسنقع عليه فى رواية «المراهق» بسمات شخصية دولجوروكى .

### البطل الصغير

١٨٤٩

اثناء الأشهر الثمانية التى قضاها دوستويفسكى فى سجن منفرد بقلعة بتروبافلوسكايا ، لم ينقطع عن التفكير فى تأليف قصص جديدة . وها هو ذا يكتب الى أخيه ميشيل ، فى ١٨ تموز ( يوليو ) ١٨٤٩ قائلاً : « اننى لا أضيع وقتى : فلقد تخيلت ثلاث قصص وروايتين ، وأنا عاكف الآن على كتابة احدها . ولكننى أخشى الاسراف فى العمل . ذلك أن

العمل ، لا سيما اذا قمت به فى حماسة ونشاط ( وأنا لم أعمل يوما  
كما أعمل الآن ) يهدم صحتى دائما بتأثيره فى أعصابى » . والحق أن  
دوستويفسكى لم ينجز أثناء تلك المدة الا قصة « البطل الصغير » ،  
اما الأعمال الأخرى التى تخيلها ووعد بها ، ولعله لم يزد على أن شرع  
فيها ، فلا نعرف عن مصيرها شيئا .

وبعد ذلك بزمن طويل قال دوستويفسكى للأستاذ فسيفواود  
سولوفييف ، المختص باللغات الرومانية : « حين وجدتنى فى السجن  
قدرت أن هذه هى النهاية ، وأنى لن أستطيع الاحتمال أكثر من ثلاثة  
أيام ، ولكننى لم البث أن هدأت هدوءا تاما على حين فجأة . فماذا  
فعلت ؟ كتبت قصة « البطل الصغير » . اقرأ هذه القصة ! هل تجد  
فيها شيئا من غضب أو حلق أو ألم ؟ وكنت وأنا فى سجنى أحلم  
أحلاما هادئة طيبة حلوة عذبة ، وكلما طال بقائى فى السجن ، ازداد  
حالى تحسنا . » . ان هذا التناقض بين الزنزانة الرطبة مع الانتظار  
الطويل لصدور الحكم وبين الأحلام الهادئة والذكريات المضيئة المشرقة  
لهو ظاهرة نفسية نادرة . وقد علل دوستويفسكى هذه الظاهرة فى تلك  
الرسالة نفسها قائلا : « ان فى طبيعة الانسان حيوية مدهشة ! حقا  
ما كان لى أن أصدق أن الانسان يملك مثل هذه الحيوية ولكننى أعرف  
الآن ذلك بالتجربة . » ان هذه الحالة النفسية التى ولدت هذه القصة  
الأخاذة التى تذكر بمثاليته الهادئة فى قصة « الليالى البيضاء » ، ولكنها  
لنقلنا من الجو الحياى ، جو الضياء المظلم الذى تعرفه العاصمة فى  
ليالىها البيضاء ، تنقلنا من هذا الجو الى جو البرية الغارقة فى الشمس ،  
الى جو الطبيعة التى أحبها دوستويفسكى جدا كثيرا ، ولكنه لم يصفها  
الا نادرا . ان دوستويفسكى يصور فى هذه الرواية حياة لاهية  
مرحة فى أطياف غنية قرب موسكو ، « حياة تشبه أن تكون  
عيدا لن ينتهى فى يوم من الأيام » ، حياة تتعاقب فيها  
المباهج : فمن رحلات على صوت الجياد ، الى نزهات فى الغابات ، الى  
رقص ، الى موسيقى ، الى غناء ، الى تمثيل . . . وفى هذه القصة نقع على  
موضوع من الموضوعات المألوفة التى يعالجها دوستويفسكى : يقظة العواطف  
فى نفس طفل لما يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، يقظة الحب بالفريزة على غير  
شعور فى قلب ملتهب . ان هذا الموضوع يربط بين « البطل الصغير » وبين

« نيتوتشكا نرفانوفا » ، ولكن البطل الصغير أملا بالحياة وأفيض بالحركة وأحفل بالنشاط وبروح المغامرة من نيتوتشكا الحجول التي عانت مذه الحياة منذ نعومة أظفارها . وإلى جانب البطل الصغير نرى شخصيتي امرأتين تقابلان كاتيا ( بنت الامير في قصة « نيتوتشكا نرفانوفنا » والكسندرين ميخائيلوفنا ) في تلك القصة نفسها ) . هاتان المرأتان هما : الشقراء الجميلة والسيدة م . ٠٠٠ أما الأولى فهي نشيطة خفيفة كالنصار ، تضطهد الصبى وتسومه سوء العذاب ، وتدعى أنها مولها بحبه ، وما تنفك تلاحقه بشيطناتها . حتى اذا برهن على شجاعة تشبه أن تكون تهورا ، وذلك حين زكب مهرا جامحا لا سبيل الى ترويضه ، أدركت ما فى عاطفته من جد ، وأصبحت صديقتة الرقيقة الوفية . وأما الثانية فهي التي من أجلها انما قام الصبى بمغامرته المتهورة . فالصبى انما يحب السيدة م . ٠٠٠ وقد راح يضع نفسه فى خدمتها فارسا مفتون اللب بسيدته على نحو ما تروى حكايات القرون الوسطى ، مستعدا لأن يخاطر بحياته فى سبيل معبودته التي لا سبيل اليها . ان الصبى يحب السيدة م . ٠٠٠ وحبه انما هو مزيج من اعجاب وشفقة معا . واذا كانت الشقراء الجميلة تشبه كاتيا ( فى قصة « نيتوتشكا نرفانوفا » ) ، كاتيا التي تحب تعذيب المحبوب ، فان السيدة م . ٠٠٠ تشبه الكسندرين ميخائيلوفنا . انها تبدو هي أيضا سعيدة مع زوجها الرصين المتكبر ، ولكنها تحمل هي أيضا حزنا خبيثا . ان نظرتها خجلة وجلة قلقة: « كان هذا الحجل الغريب يضى على قسماتها الناعمة العذبة الرقيقة التي تشبه قسمات مادونا ايطالية تعبيرا يبلغ من الحزن أنك تشعر بالحزن يغزو نفسك متى رأيتها » . والفتى مفتون بها بل مسحور . انه يريد أن يخدم هذه الانسانة الحزينة وأن يخفف عنها وأن يواسيها . وقد أصبح وصيفها . وهو يشعر نحو زوجها السيد م . ٠٠٠ بعداوة شديدة واضحة ، لأنه يدرك بحدسه أن هذا الرجل ليس طيب النفس ، وأنه غيور ، وأنه ربما كان قاسى القلب .

وبعد حادثة امتطائه صهوة المهر الجموح على ذلك النحو البطولى الذى جعل له شهرة كشهرة أبطال شيللر وفرسان دولورج وتوجنبرج ، يعثر الصبى مصادفة على رسالة يشعر أنها تضم بين ثناياها سر المرأة الشقية فى حبها الدفين العائر الحظ . فكل ذلك عثرت نيتوتشكا أيضا بالمصادفة على رسالة مرسلة الى صاحبيتها ، ولكن الفرق بين القصتين أن الفتاة الطلعة

قد قرأت الرسالة وأعدت قراءتها بل ونسختها ، أما البطل الصغير فإنه يحاول أن يرد الرسالة الى سيدته مختومة غير مفضوضة ، لا يريد أن يكشف عن سرها ، وكان قد شهد خفية ، مشهد الوداع بين السيدة م . . . وحبيبها : « لعل هذه القبله كانت قبله الوداع ، القبله الاخيره ، المكافاة اليسيرة على تضحية ستحمل اليها الهدوء وتحفظ لها حسن السمعة . وكان الحبيب ن . . . قد سافر . ولعله قد تركها الى الأبد » . وتظلل الرسالة بين يدي الصبي ، فلولا ذلك لاكتشف سر السيدة على حين فجأة ، ولنزل عليها ذلك نزول صاعقة رهيبه . ويتخيل الصبي خطة لرد الرسالة الى صاحبها ، فيمضى يجمع باقة من أزهار الحقول يدس فيها الرسالة ، ثم يقدم الباقة الى سيدته فرحا مبتهجا . ويتظاهر بالنوم منتظرا أن تقع السيدة على الرسالة ، ثم يحس بقبلة الشكر والعرفان تطبعها السيدة على شفتيه ، ويبقى هو ساكنا فى نشوة كأنها الوجد . ويتأمل الطبيعة فى روعة الصيف . انه ممتلئ سعادة . ويستسلم لهدهدات هذا الاكتشاف الأول لقلبه ، ويستسلم لهدهدات هذه اليقظة الأولى التى تتحقق فى طبيعته على غير شعور منه . « لقد انتهت طفولتى » . ما أروع وصف دوستويفسكى لهذه العواطف التى تضطرم فى قلب فتى ملتهب ا ان الأسطر الأخيرة من هذه القصة التى كتبها دوستويفسكى قبل سفره الى المعتقل بسبب رديا لهي من أصفى ماخطه قلبه من أحلام رومانسية . انها وداع للشباب قبيل الآلام التى ستكشف له عن قوة الشر فى أعماق النفس الانسانية .

### قصة فى تسع رسائل

١٨٤٧

قبل أن ينشر دوستويفسكى روايته الأولىين « الفقراء » و « المثل » كان قد كتب سنة ١٨٤٥ ، هذه القصة : « قصة فى تسع رسائل » . لقد كان دوستويفسكى فى ذلك العام يعانى نوعا من هوس العظمة : كان يقدر انه يستطيع أن ينجح فى الكتابة فى جميع الأنواع الأدبية ، ومنها القصص الهزلية المضحكة . وقد طلب اليه نكراسوف حين فكر فى اصدار مجلة ساخرة أن يكتب له قصة من هذا النوع ، فسر دوستويفسكى بهذا الطلب سرورا كبيرا ، ثم اذا هو يمضى الى بيته فى المساء ، فما يكاد يطلع عليه الصبح ، حتى يكون قد فرغ من كتابة قصته « قصة فى تسع رسائل » ،

وحمل القصة الى نكراسوف فقبل نكراسوف نشرها في مجلته . وكتب دوستوفسكي الى أخيه ميخايل يقول : « لقد قرئت القصة عند تورجنيف في ذلك المساء نفسه ، فأحدثت دويا . . وقال لي بيلنسكي انه واثق من موهبتي ، لاننى قادر على معالجة موضوعات متنوعة أكبر التنوع . . » . ولكن مجلة نكراسوف لم تصدر ، ولم تنشر القصة الا بعد سنة ، وكان بيلنسكي قد غير رأيه ، حتى لقد كتب الى تورجنيف يقول : « ان هذه الرسائل التى يتبادلها مخادعان فى قصة دوستوفسكي لم تعجبني بل لقد أثارت نفورى واشمئزأى . . على دهشة منى . . اننى لم أستطع أن أتم قراءتها الا فى كثير من العناء . ذلك كان شعورى بوجه عام » . والحق أن هذه القصة هى أضلح ما خط قلم دوستوفسكي . حتى أن دوستوفسكي نفسه لم يعد نشرها حين أعد طبعة أعمال الشباب سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٦٥ ، ثم لم يعد نشرها الا بعد وفاته . انها قصة اللذين من المقامرين يجتمعان على ابتزاز مال شباب غنى هو أوجين . وقد اقترض الأول ، بطرس ايفانوفتش ، مبلغ ثلاثمائة وخمسين روبلا من الثانى ليدبر أمر هذا الغش ، وهو يتحاشى أن يلتقى به ، فيكتب اليه الثانى رسائل طويلة متهما اياه بسوء الذمة . وترتبك الأمور فى النهاية ، فيرسل كل من الرجلين الى صاحبه رسالة لطيفة مكتوبة بخط زوجته . ونعرف عندئذ أن أوجين لم يكن الضحية التى خدعها المخاتلان ، بل كان هو الجانى الذى أوقع الرجلين كليهما فى شركه بسطوره أمرأتيهما . ويمكن القول ان هذه القصة القصيرة التى كتبت على أسلوب المهزلة الفرنسية ما تزال تصكس شيئا من تأثير جوجول : فان موضوعها قريب فى الواقع من موضوع المسرحية الهزلية الصغيرة التى كتبها جوجول بعنوان « المقامرين » ، وفيها يحاول اثنان من المقامرين بالورق أن يخدعا شابا غنيا ، ولكن حيلتهما تكتشف فى آخر الأمر ، ويرتد كيدهما الى نحرهما .

### شجرة عيد الميلاد والزواج

١٨٤٨

« شجرة عيد الميلاد والزواج » قصة صغيرة عميقة من الناحية النفسية . تتبدى هذه القصة بوصف احتفال بعيد الميلاد يبتهج فيه

الأطفال ويفرحون . لقد كان دوستويفسكى يحب الأطفال كثيرا ويعنى بمعرفة نفوسهم . كتب ذات مرة يقول : « اننى أحب ملاحظة الأطفال كثيرا . انه ليشوقنى كثيرا أن أفاجئ فيهم أولى تجليات الحياة » . وهو فى هذه القصة يصف بكثير من المحبة والتعاطف بنية فى الحادية عشرة من عمرها ستكون وريثة ثروة طائلة ، كما يصف بمزيد من المحبة والتعاطف أيضا صبيا صغيرا هو ابن الخادمة الذى يحتقره سائر الاولاد . ان صورة الطفل الصغير المضطهد ستعود الى الظهور فى روايات دوستويفسكى ( نيتوتشكا فى قصة « نيتوتشكا نرفانوف » ، واليوشا فى « الاخوة كارامازوف » ) .

وفى ما كان الأطفال يحتفلون مبهجين ، يدخل شخص من الكبراء ( يذكر بالمحسن الى فاسيا فى قصة « قلب ضعيف » ) . ان هذا الشخص هو هنا رجل ماهر طماع شره الى المال شهوانى . وهاهو ذا يطمع بينه وبين نفسه فى أن يتخذ من البنية زوجة له فى المستقبل ، متى آتت السادسة عشرة من عمرها . ان الزواج الذى يقوم بين رجل مسن وفتاة صغيرة - وكان هذا يحدث كثيرا فى ذلك الزمان الذى كان ينادى فيه « بالزواج القائم على العقل والحكمة » - كان يثير الاشمئزاز فى نفس دوستويفسكى . وسوف نرى دوستويفسكى يعالج هذا الموضوع نفسه فى روايته « حلم العم » . وقد تحقق للرجل المسن ما أراد . . فما بلغت الصبية السادسة عشرة من عمرها حتى رأيناها تزف اليه .

### زوجة آخر ، ورجل تحت السرير

١٨٤٨

الحق أن هذه القصة هى من أضعف أعمال دوستويفسكى . لقد أراد فى هذه القصة ، كما أراد ذلك فى « قصة فى تسع رسائل » ، أن يضحك القراء ، أن يقدم اليهم قصصا هزلية ، وعرة متشابكة بعض الشيء على طريقة روايات بول دو كوك الذى كان يحظى برواج كبير فى ذلك الوقت . ان موضوع هذه القصة أشبه بموضوع مسرحية من نوع « المسخرة » . وهى تتألف من جزأين ، فى الجزء الاول منهما نرى زوجا غيسورا ينتظر خروج زوجته من موعد غرامى ليقبض عليها متلبسة



بالجرم المشهود ، وها هو ذا يدخل في حديث مع شباب هو عشيق  
الزوجة كان ينتظرها هو أيضا . وتخرج الزوجة الخائنة أخيرا يصحبها  
شخص ثالث ، فلقد خانت زوجها وعشيقها الأول كليهما ، ولكنها حين  
تلتقي بهما تحافظ على رباطة جأشها وهدوء أعصابها . وفي الجزء الثاني  
من هذه القصة نرى هذا الزوج الغيور نفسه يريد أن يفاجيء امرأته  
متلبسة بالجرم المشهود ، ولكنه يضل طريقه الى الطابق الذي كان يجب  
أن يصعد اليه من العمارة فاذا هو يدخل بيتنا لا يعرفه ، فيختبئ تحت  
السريير حيث يجد شابا قد سبقه الى الاختباء تحت السريير أيضا لانه ضل  
طريقه الى الطابق المقصود كذلك . ان هذا الشاب هو عشيق زوجته ، ثم  
يجيء صاحب البيت وهو شيخ هرم ، فيسمع وشوشات مخلوطة تحت  
السريير ، وتدور بينه وبين زوجته الشابة أحاديث يقطعها سعاله .  
ويفتضح وجود الزوج وغريمه على اثر نباح كلب صغير يدخل تحت  
السريير هاجما عليهما ، فلا يسع الزوج الا أن يخنقه فيلفظ الكلب الصغير  
أنفاسه ويموت . ويلوذ الشاب بالفرار ، ولا يسع إيفان أندريفتشس الا  
أن يخرج من تحت السريير ، ويأخذ يبرىء نفسه أمام صاحب المعالي ،  
الشيخ زوج الشابة الجميلة . والحق أن هذا المشهد الذي يجرى بين  
إيفان أندريفتشس المسكين ، وبين الشيخ الذى يشبه أن يكون أصم  
لا يسمع ، هذا المشهد الذى نرى فيه إيفان يتدفق فى سيل من كلام  
مفكك لا ترابط فيه ، هو المشهد الوحيد المضحك حقا . وسوف يرسم  
لنا دوستويفسكى مرة أخرى صورة هذا الوجيه الشسيخ ، المريض  
الضعيف ، فى روايته « حلم العم » ، ولكن الصورة ستكون عندئذ أغنى  
وأحفل .

وإذا كان لهذه القصة الهزلية جانب يجعلها شائقة بعض الشيء ،  
فهذا الجانب هو شكلها : ان القسم الأكبر منها حوار حى ، حتى لتكاد  
تكون مسرحية ، وحتى ليتمكن أن توصف بأنها « قصة مسرحية هزلية » ،  
كرواية « حلم العم » . وسيكون طابع الحوار هذا غالبا على الروايات التى  
سيكتبها دوستويفسكى . وبفضل هذا انما كانت روايات دوستويفسكى  
سهلة الاخراج على المسرح .

نیتوتشکانزفانوفنا

۱۸۴۹

«نيتوتشكا \* نوفانوف» ، ظهرت  
في « حويات الوطن» ، اعداد كانون  
الثاني ( يناير ) وشباط ( فبراير )  
وأيار ( مايو ) سنة ١٨٤٩ ، وقد  
انقطع نشر هذه الرواية بسفر  
دوستويفسكي الى سيبيريا .

## الفصل الأول



أتذكر أبى • فقد كنت فى الثانية من عمرى حين مات • وتزوجت أمى مرة أخرى • الا أن زواجها الثانى هذا ، رغم انه قام على حب ، قد سبب لها كثيرا من الآلام • كان زوج أمى موسيقيا ، لقي مصيرا غريبا ، وكان بين جميع من عرفت من الناس أغربهم وأشدهم • وكان أثره فى مشاعرى الاولى ابان الطفولة من القوة بحيث ألقى ظله على حياتى كلها بعد ذلك • ولا بد لى أن أذكر هنا سيرة حياته لتكون قصتى مفهومة • وكل ما سأرويهِ عنه انما عرفته بعد ذلك من «ب» ، العازف على الكمان ، الذى كان فى شبابه رفيق عمى ( زوج أمى ) وصديقه الحميم •

كان عمى يدعى « يافيموف » • وقد ولد فى أرض أحد المالكين الأغنياء جدا • وكان أبوه موسيقيا فقيرا انتهى به المطاف الى هذه الارض ، بعد تغرب طويل ، فانخرط فى جوقة هذا المالك الغنى • وكان المالك يعيش حياة رخية ، وكان مولعا بالموسيقى الى حد الهوى الشديد ، حتى ليُروى عنه أنه ، وهو الذى لم يكن يترك أرضه يوما ، ولو للذهاب الى

موسكو ، قرر ذات يوم ، على حين غرة ، أن يسافر الى مدينة من مدن  
المياه فى الخارج يقضى بضعة اسابيع ، لا لشيء الا لسمع عازفا على الكمان  
شهيرا قالت الجرائد يومذاك انه سيحيى هنالك ثلاث حفلات •

وكان هذا السرى يملك جوقة ممتازة يقف عليها جميع موارده  
تقريبا \* • وقد انخرط عمى فى هذه الجوقة عازفا على الكلارنيت • وكان  
فى الثانية والعشرين من عمره حين صادق شخصا عجيبا • لقد كان يعيش  
فى تلك المقاطعة نفسها كونت غنى جدا يدمر ثروته لينفق على مسرح  
أقامه فى بيته • وقد طرد هذا الكونت رئيس جوقة ، وهو ايطالى ، لسوء  
سلوكه •

وكان رئيس الجوقة هذا انسانا سيء السلوك حقا ، فما كاد يطرد  
حتى فقد كل كرامة ، فاخذ يدمن على الشراب بل أخذ يتسول ، ولم يعد  
فى وسعه أن يجد عملا فى أى مكان بهذه المنطقة • هذا الرجل هو  
الذى صادفه عمى • ولم يلحظ أحد فى عمى أى تغير يمكن أن يعزى  
الى تأثير رفيقه فيه ، حتى أن المالك الذى منعه أول الأمر من معاشرته  
الايطالى انتهى أخيرا الى غض النظر عن ذلك • ثم مات الايطالى بفتنة ،  
ففى ذات صباح اكتشفت بعض الفلاحين جثته فى حفرة أحد السود •  
ودلّ التحقيق الذى تم فى هذا الامر أن الرجل انما مات بالسكتة القلبية •  
وكان كل ما يملكه الايطالى محفوظا عند عمى الذى لم يلبث أن بين أنه  
صاحب الحق فى تركته ، اذ أبرز ورقة كتبها الايطالى بخط يده ، يذكر  
فيها أن « يافيموف » هو وريثه • وكانت التركة بدلة سوداء عنى المتوفى  
بالاحتفاظ بها لأنه كان يأمل دائما أن يجد عملا ، وكمائا لا يدل مظهره  
على أنه ذو قيمة كبيرة • ولم يعترض أحد على هذا الميراث • ولكن بعد  
مدة قصيرة جاء كبير العازفين على الكمان لدى الكونت ، جاء الى المالك

يحمل كتابا من مولاه يرجوه فيه الكونت بل يلح فى الرجاء ان يبيعه  
يافيموف الكمان الذى تركه الايطالى ، ويظهر رغبته الشديدة فى  
الحصول على هذا الكمان لجوقته ، ويقدم ثمنا له ثلاثة الاف روبل ،  
ويضيف الى هذا انه قد ارسل يستدعى يافيموف غير مرة ، ليعقد الصفقة  
بينه وبينه شخصيا ، الا ان يافيموف كان يرفض دعواته هذه فى عناد .  
ويؤكد الكونت فى كتابه ان الثمن الذى يقدمه يساوى قيمة الآلة ، وانه  
لا ينوى أن يخدع أحدا ، وانه يعتبر رفض يافيموف اهانة له ، وان  
يافيموف ، أخيرا ، مخطيء فى الشك فيه ، فهو لا يريد أبدا أن يستغل  
بساطته وجهله . وخلاصة ذلك كله أن الكونت يطلب أن 'يرد' يافيموف  
الى صوابه .

واستدعى المالك زوج أمى على الفور فقال له :

- لماذا لا تريد أن تبيع كمانك ؟ انك لست فى حاجة اليه . ثم ان  
الكونت يقدم لك ثلاثة آلاف روبل . وهو الثمن الذى يستحقه الكمان .  
وتخطيء ان ظننت انك تستطيع أن تبيعه بأكثر من ذلك . ان الكونت  
لا يحاول أن يخدعك أبدا .

فأجاب يافيموف بأنه لن يذهب الى الكونت من تلقاء نفسه ، وانه ان  
أكره على الذهاب اليه ، فسيذعن لارادة سيده ، لكنه لن يبيع كمانه . على  
ان سيده يستطيع أن ينتزع منه الآلة ، ان كانت تلك مشيئته !

وواضح ان جوابا من هذا النوع لا بد أن يضرب على وتر حساس  
فى نفس المالك . لقد كان هذا السرى يزهو دائما بأنه يعرف كيف  
يعامل موسيقيه ، وكان يمدهم جميعا ، من أولهم الى آخرهم ، فنانيين  
حقيقيين ، وكان يعتقد أن جوقته ، بفضلهم ، لا تفوق جوقة الكونت  
فحسب ، بل تضارع جوقات العواصم .

فقال له المالك :

- حسنا • سأبلغ الكونت أنك لا تريد أن تبيع كمانك • سأبلغه أن هذا هو رأيك ، وأنتك تشمر أن لك الحق كله في أن تبيع كمانك أو ألا تبعها ، أليس كذلك ؟ ولكن قل لي - أنا الذي أطرح عليك السؤال الآن - ما فائدة احتفاظك بهذه الكمان ؟ ان آلتك هي الكلارينيت وأنت لا تجيد العزف حتى على الكلارينيت • تنازل لي عن هذا الكمان ، فأعطيك ثلاثة آلاف روبل ( من ذا الذي كان يظن ان هذه آلة ذات قيمة 19 )

فابتسم بايموف ، وأجاب :

- كلا يا سيدي ، لن أتنازل عن الكمان ، لكنك تستطيع طبعا أن • •  
- اننى لا أكرهك على شيء • • أترانى أعذبك لأحملك على ما لا تريد 19

قال المالك ذلك فى صراخ غاضب ، خاصة وأن المشهد كان يجرى على مرأى من « عازف » الكونت الذى يستطيع أن يستتج من ذلك أن حظ الموسيقيين لدى المالك ليس بالحظ السعيد • وأضاف المالك حانقا :

- اذهب ، يا ناكر الجميل ، ولا أحب أن أراك بعد الآن أبدا • ماذا كنت لولاي ، انت وآلتك ، الكلارينيت ، التى لا تكاد تعرف العزف عليها ؟ أنت هنا تأكل ، وتشرب ، وتلبس ، وتتقاضى أجرا ، وتعيش كما يعيش الوجهاء من الناس • أنت فنان ، ثم تأبى أن تفهم هذا كله وأن تقدره حق قدره • اذهب • لقد هيجت غضبي •

لقد كان المالك يطرد هكذا جميع من يثور عليهم ، لأنه كان يخشى نفسه ، ويخاف سوروات حنقه • وما كان ليحب أبدا أن يقسو فى معاملة « فنانيه » ، كما كان يسمى موسيقيه •

و'ظن' أن الأمر قد انتهى ، ما دامت الصفقة لم تتم . ولكن ها هو  
عازف الكونت ، بعد شهر من ذلك ، يخلق لعمى ، من تلقاء نفسه في هذه  
المرّة ، لا بوحى من الكونت ، مشكلةً جديدةً . وهى الآن مشكلة رهية .  
انه يشى بزواج أمى على أنه قاتل الايطالى ، وعلى أنه أقدم على قتله أملا فى  
الاستيلاء على ميراث ضخّم ، ويؤكد أن الوصية انما كتبت بضغط واكراه ،  
وانه مستعد للبرهان على ذلك بشهود . وعبنا حاول الكونت والمالك أن  
يدافعا عن زوج أمى وأن يتوسلا الى متهمه ، بكل الأساليب ، أن يكف  
عن اتهامه ، فقد أصر على الاتهام اصرارا قويا لم يتزحزح عنه . ثم بيّنا  
له أن تشريع جثة المتوفى ، رئيس الجوقة ، قد تم وفقا للأصول ، وان  
وشايته تخالف البداهة ، وانه انما أقدم على ما أقدم عليه جبا فى الانتقام  
أو بداعى الغضب ، لأنه لم يحصل على الآلة التى كان يريد الحصول عليها  
( فمن أجله اذن كان يريد الكونت أن يشتري الآلة ) . لكن الموسيقى  
ظل متمسكا برأيه ، وأخذ يقسم أنه على حق ، وأن السكتة القلبية لم  
يكن سببها السكر بل السم ، وطالب باجراء تحقيق جديد . وكان من  
الجد فى اتهامه بحيث لم يكن بد من استئناف التحقيق : فقُبض على  
يافيموف وأودع سجن المدينة . وبدىء تحقيق جديد شغل المنطقة كلها  
وأثار اهتمامها الشديد ، واتهى الى الحكم على الكمانى بتهمة الوشاية  
الكاذبة . . ومع ذلك فانه ظل مصرا على رأيه ، وظل يدافع عن هذا  
الرأى حتى النهاية . لكنه اضطر أن يعترف بأنه لم يكن يملك من الأدلة  
غير ما أمده به خياله ، وبأنه لفق القصة كلها من شكوكه واستدلالاته .  
ومع ذلك ، ورغم أن اختتام التحقيق برهن على براءة يافيموف برهانا



قاطما ، فقد ظل متهمه على يقين من أن يافيموف هو قاتل المسكين ، رئيس الجوقة ، وانه ربما لم يستعمل السم فى قتله ، لكنه قتله بوسيلة من الوسائل ! .. ولم يمكن تنفيذ الحكم الذى أصدر على العازف بالسجن ، فقد أصيب فجأة بنزيف فى الدماغ ، ففقد عقله ، ثم مات فى مستشفى السجن !

وكان المالك ، طوال المدة التى استغرقتها هذه القضية ، يعامل عمى أكرم المعاملة . لقد أتعب نفسه من أجله كأنه ابنه : مضى يراه غير مرة ليواسيه ، وأعطاه مالا ؛ وأتى له بأحسن سيجاره ، منذ علم أن يافيموف يحب التدخين . حتى اذا ظهرت براءة يافيموف أقام مأدبة للجوقة كلها . لقد كان يعتبر قضية يافيموف قضية الجوقة كلها ، لأنه كان يحترم الأخلاق الحسنة التى يتمتع بها موسيقيوه ، احترامه لمواهبهم ، بل وأكثر من ذلك .

وانقضت على ذلك سنة ، حين شاع فى المنطقة أن عازفا شهيرا على الكمان ، وهو فرنسى ، قد وصل الى مركز المنطقة ، وأنه ينوى إقامة بضع حفلات موسيقية . فلم يلبث المالك أن أخذ يسعى سعيا حثيثا ليدعوه الى بيته . وكان له ما أراد ، فوعده الفرنسى بالمجيء ، ووزعت الدعوات على جميع سكان المنطقة تقريبا ، وكان كل شئ معدا لاستقبال الفرنسى ، حين وقع فجأة مالم يكن فى الحسبان .

ففى ذات صباح ، علم ان يافيموف قد اختفى دون أن يترك أثرا يدل عليه ! .. وأخذوا يبحثون عنه دون أن يظفروا بطائل . لقد أصبحت الجوقة فى وضع حرج ، اذ تموزها الان كلارينت . ولكن بعد ثلاثة أيام تلقى المالك من الفرنسى رسالة يتحلل فيها من وعده بالمجيء ، ويقول ، بلهجة متعالية وان لم تكن مقنعة، انه سيكون بعد الآن شديدا الحذر

في علاقاته مع أشخاص يملكون جوقه موسيقية ، ويبدى أسفه على أن موهبةً عظيمة تعيش تحت رحمة انسان عاجز عن تقديرها حق قدرها ، ويذكر ان متال يافيموف ، وهو الفنان الموهوب وأحسن عازف على الكمان رآه في روسيا ، اوضح برهان على صدق كلامه .

'صعق المالك لدى قراءة هذه الرسالة . انه 'يطعن في الصميم . كيف ؟ كيف يمكن أن يفترى عليه يافيموف ، يافيموف نفسه ، هذا الذي عنى بأمره كل تلك العناية ، واسدى اليه كل ذلك المعروف ، فاذا هو يقول فيه هذا الكلام السيء لفنان أوروبى يحرص هو على حسن رأيه فيه أشد الحرص ؟

ثم ان الرسالة عجيبة من ناحية أخرى . ان الفرنسى يدعى ان يافيموف ، وهو الفنان الموهوب ، انما هو عازف على الكمان لم يعترف له بمواهبه ، وا دره على العزف على آلة اخرى . وبلغ تاثر المالك بهذه الرسالة أنه قرر الذهاب فوراً الى المدينة للقاء الفرنسى . لكنه فى تلك اللحظة نفسها تلقى كلمة من الكونت يدعوه فيها الى الذهاب اليه ، دون تأخر ، ويذكر له أنه على علم بالأمر ، وأن الفنان الفرنسى هو الآن فى بيته مع يافيموف ، وانه لاستيائه من وقاحة يافيموف وأكاذيبه ، قد أصدر أوامره بمنعه من الخروج . وأضاف الكونت الى ذلك أن لا بد من مجيء المالك اليه ، وأن الاتهام الذى لققه يافيموف قد أثر فيه شخصياً ، وان الأمر يبدو له من الخطورة بحيث لا بد من توضيحه بأسرع ما يمكن .

أسرع المالك الى الكونت ، فلقى عنده الفرنسى ، واذ ذلك شرح له المالك قصة يافيموف من أولها الى آخرها ، وأضاف أنه لم يكن ليدور فى خلد ان هذا الرجل يتمتع بموهبة رفيعة لأنه ، خلافا لما يقول الفرنسى ، قد كان عنده عازفا رديثا على الكلارنيت ، وأن هذه هى المرة

الأولى التى يسمع فيها أن الموسيقى الذى هجره عازف " على الكمان ،  
وأضاف الى ذلك أيضا أن يافيموف لم يكن عبدا ، وإنه كان يتمتع بحرية  
تامة ، وإنه كان فى وسعه دائما أن يتركه لو كان يسىء إليه حقا !

صُعقَ الفرنسي من الدهشة • ونودى على يافيموف الذى تبدلت  
معالم وجهه حتى ما يكاد يُعرف ، فاتخذ موقف التعالى ، وأخذ يجيب فى  
سخرية واستهزاء ، ويؤكد صدق ما أسلف للفرنسى • وقد أثار ذلك  
حفيظة الكونت الى أبعد حد ، فقال بلا لف ولا دوران ان يافيموف حقير،  
وإنه واثق كذاب يستحق أزدل العقاب • فأجابه عمى قائلا :

— مهلاً يا صاحب السعادة ، فإن لى معك شأننا منذ مدة طويلة ،  
واننى لأعرفك حق المعرفة ، فبفضلك أو شكت أن يُحكَم علىّ بتهمة  
القتل • انى لأعلم من ذا الذى دفع « الكسيس نيكيفوريتش » ، الموسيقى  
الذى كان يعمل عندك ، الى الوشاية بى !

وخرج الكونت عن طوره لدى سماعه هذا الاتهام الفظيع ، وكان  
هنالك ، عرضا ، موظف جاء لبعض الأمور ، فلما سمع هذا الكلام قال انه  
لا يمكن أن يترك هذا كله دون توضيح ، وان وقاحة يافيموف المهينة  
تستند الى تهمة باطلة وضيعة ، وإنه يرجو أن يسمح له بمحاسبة هذا  
الشخص على الفور فى البيت نفسه • وأظهر الفرنسي استياء شديدا وقال  
انه لا يفهم هذا النكران للجميل • فأجاب عمى غاضبا بأنه يفضل أن  
يحاكم ، وأن عودة أخرى الى القضاء آثر عنده من الحياة التى عاشها حتى  
ذلك الحين فى جوقه المالك ، وهى حياة لم يستطع أن يتركها قبل الآن  
لفقره الشديد • وما ان فرغ من كلامه حتى أوقفوه وقادوه الى خارج  
الصالة ثم سجنوه فى غرفة بعيدة ، على أن يقودوه فى اليوم التالى الى  
المدينة •

وفى حوالى منتصف الليل ، رأى السجين باب غرفته يُفتح ، ورأى  
المالك يدخل مرتديا ملابس البيت ومحتذيا نعل البيت وممسكا بيده قنديلا .  
كان واضحا انه لم يستطع أن ينام ، وأن عذابا مبرحا أخرجه من سريره  
فى مثل هذه الساعة . ولم يكن يافيموف نائما ، فجعل يحدق فيه دهشا .  
ووضع المالك قنديله ، وجلس الى مقعد أمام يافيموف ، وقد ظهرت عليه  
علامت التأثير العميق .

– « يا جور ، لماذا أهنتنى هكذا ؟ »

ولم يجب يافيموف . وكرر المالك سؤاله . وكان كلامه يختلج  
بعاطفة عميقة ، بضم غريب ا

وأخيرا أجاب عمى قائلا ، وهو يقوم بحركة تشير الى العجز :

– لا أدرى يا سيدى لماذا تجرأت عليك هكذا . لا شك أن الشيطان  
هو الذى أضلنى . لا أدرى أنا نفسى ما الذى دفعنى الى هذا كله . على  
أن حياتى عندك لم تكن بالحياة يا سيدى ، لم تكن بالحياة . . هذا هو  
السبب فى أن الشيطان تملكنى ودفعنى الى ما دفعنى اليه .

فأجاب المالك :

– يا جور ، عد الى ، سأنسى كل شيء ، سأغفر كل شيء ، اسمع :  
ستكون كبير العازفين على الكمان فى الجوقة ، وسأدفع لك أكثر مما أدفع  
للآخرين .

– كلا يا سيدى ، كلا ، لا تزدد على ما قلت ، ليس لى مكان عندك .  
قلت لك ان الشيطان قد تملكنى . سأوقد فى بيتك نارا ان بقيت فيه . تمر  
بى لحظات من القلق الخائق أوثر فيها أن لا أكون قد ولدت . والآن لن

أستطيع أن أجيب • الأفضل أن تتركنى يا سيدى • لقد ألم بي هذا كله منذ تعلق بى ذلك الشخص الجهنمى !

- من هو هذا الشخص ؟

- ومن عساه يكون غير ذلك الذى فطس كما يفطس كلب ضائع ، ذلك الايطالى المنحوس •

- أهو الذى علمك العزف على الكمان يا عزيزى يا جور ؟

- نعم ، وعلمنى أشياء أخرى ، ليزيد شقائى • لبتى لم أعرفه •

- وهل كان قديرا فى العزف الى هذا الحد يا عزيزى يا جور ؟

- كلا ، لم يكن يجيد العزف كثيرا ، لكنه كان يحسن التسليم • لقد علمت نفسى بنفسى • أما هو فلم يزد على أن يرشدنى • نعم ، لقد كان أفضل لى أن تكون ذراعى يابسة من أن أتعلم هذا الفن • لقد أصبحت الآن لا أعرف ماذا أريد • تستطيع أن تقول لى يا سيدى : « ماذا تريد يا يا جور ؟ يمكن أن أعطيك كل ماتريد » • أما أنا ، يا سيدى ، فلن أجيبك بكلمة ، لأننى لا أعلم أنا نفسى ماذا أريد • كلا ، يا سيدى ، الأفضل أن تتركنى • أقول لك هذا للمرة الثانية • أحب أن أتصرف تصرفا يرسلنى الى أبعد مكان ممكن ، فينتهى كل شىء •

فقال المالك بعد لحظة من صمت :

- لن أتركك هكذا يا يا جور \* • اذا كنت لاتبج أن تعود الى • فلك ذلك • أنت حر ، ولا أستطيع أن أحجزك ، لكننى لن أتركك الآن قبل أن تعزف لى شيئا ، يا يا جور • خذ كمانك ، أناشدك الله ، واعزف قليلا • افهمنى • اتنى لا أمرك أمرا ، ولا أحاول أن أكرهك اكراها ،

وانما أتوسل اليك يا كيا • أناشذك الله ، يا عزيزى يا جور ، أن تعزف لى ماعزفته للفرنسى • أطننى • انك عنيد مثلى • لكل منا طبعه ، يا عزيزى يا جور • لقد فهمت أنا عواطفك ، فحاول أن تفهم أنت عواطفى • لا أستطيع أن أعيش ما لم أسمعك تعزف مسرورا ما عزفته للفرنسى •

– ليكن ما تريد • لقد عاهدت نفسى على ألا أعزف أمامك ياسيدى ، على ألا أعزف أمامك أبدا • ولكنك أثرت فى قلبى الآن ، فسأعزف لك ، وحدك ، وهذه هى المرة الأولى والأخيرة يا سيدى ، ولن تسمعنى بعد ذلك أبدا ، فى أى مكان ، ولو دفعت من أجل ذلك ألف روبل !

عندئذ أمسك يافيموف بكمانه ، وأخذ يعزف مقطوعة من تأليفه كان قد استمد موضوعها من أغان روسية قديمة ( ويؤكد «ب» أن هذه المقطوعة هى أول وأحسن أثر ألفه عمى للكمان ، وانه لم يعزف فى حياته شيئا آخر يمثل هذه القوة ) – وكان المالك أثناء ذلك ، وهو من أولئك الذين لا يستطيعون أن يسمعوا موسيقى دون أن يتأثروا ، كان يبكى من فرط الانفعال • فلما انتهى يافيموف من عزف المقطوعة ، نهض المالك من مكانه، وأخرج من جيبه ثلاثمائة روبل ، فمدَّ يده بها الى عمى وهو يقول :

– الآن تستطيع أن تمضى ، يا يا جور • سأخرجك من هنا ، وسأتولى تسوية الأمر مع الكونت • ولكن اسمع جيدا : اياك أن تلقانى يوما ، ولو فى طريق • أمامك مستقبل واسع ، واذا التقينا يوما وجها لوجه ، فسيبى ذلك الينا كلينا • والآن وداعا ! •• بل اسمع : نصيحة أخرى أسديها اليك قبل أن تمضى ، نصيحة واحدة : لا تدمن على الشراب •• وخذ نفسك بالدراسة الدائمة ، والعمل المستمر ، ولا تغتر • أقول لك هذا نصيحة أب لابنه • أعود فأحذرك ! اعمل دائما ، واياك والحانات،

فانك ان ألم بك حزن ، أو أصابتك خيبة ( وما أكثر ما استصاب بخيبات )  
فأخذت تشرب ، مضيت الى دمارك ، وساءت حالك ، وكنت تعرض نفسك  
لأن تفتس في أى مكان ، فى قاع حفرة ، كصاحبك الايطالى • والآن  
وداعا • بل انتظر • عاتقنى •

وتعانق الرجلان • ثم مضى عمى حرا طليقا •

ولم يكده يتحرر حتى سارع الى تبديد روبلانه الثلاثمائة فى مركز  
المنطقة ، وأخذ يصاحب رواد أفذر الحانات وأحقرها ، وكانت نتيجة ذلك  
أن اضطر بعد قليل ، وقد أصبح وحيدا بلا مال ولا من يحميه ، أن  
ينخرط فى جوقة حقيرة لمسرح متجول ، وعين فى هذه الجوقة الكمانى  
الأول - ولعله كان الكمانى الوحيد ! - وطبيعى أن هذا لا يتفق مع  
أهدافه التى كان يرمى اليها فى أول الأمر • لقد كان يريد أن يمضى  
بأقصى سرعة الى بطرسبرج ، وأن يدرس هنالك ، وأن يجد عملا مناسباً ،  
وأن يصبح فى تلك المدينة العظيمة فناً مرموقاً • ولم تجر حياته فى  
المسرح المتجول بلا عقبات • فانه لم يلبث أن تخاصم مع رئيس الفرقة ،  
وترك المسرح المتجول ، وفقد عندئذ كل شجاعة ، واضطر تحت تأثير  
الأس ، أن يكتب الى سيده القديم يذكر له وضعه ويسأله بعض المال ،  
رغم أن ذلك يجرح كبريائه جرحاً عميقاً ، الا انه لم يتلق أى جواب على  
رسالته تلك ، وكان قد كتبها بلهجة عنيفة • فكتب رسالة أخرى ذليلة ،  
يعترف فيها بفضل سيده عليه ، ويسميه باسم حامى الفنون ، ويتوسل اليه  
مرة أخرى أن يهب الى نجدته • ووصله الجواب : أرسل اليه المالك أخيراً  
مائة روبل ، مع بضعة أسطر بخط خادمه ، يحذره فيها من طلب المعونة  
بعد الآن • وحين تلقى عمى هذا المبلغ اعتزم أن يسافر فوراً الى بطرسبرج ،  
لكنه بعد أن سدد ديونه كان ما بقى له من المال لا يفي بنفقات السفر •

وهكذا ظل في الأقاليم ، وانخرط مرة أخرى في جوقة صغيرة • وفي هذه المرة أيضا لم يتفاهم مع أفراد الجوقة • وأخذ ينتقل من عمل الى آخر ، وقد قر في رأسه أن يمضي الى بطرسبرج بأقصى سرعة ممكنة ، وبأية وسيلة من الوسائل • لكنه قضى على هذا في الأقاليم ست سنين طوالا • واخيرا استولى عليه اليأس • ولاحظ ، على رعب وهول ، انه كان يفقد موهبته شيئا فشيئا في هذه الحياة البائسة المشوشة التي لم يكن يلقي فيها الا ذل بعد ذل • وفي ذات صباح ترك عمله ، وحمل كمانه تحت ذراعه ، وسافر الى بطرسبرج وهو يكاد يتسول طوال الطريق • وهناك أقام في شونة ، ولم يلبث أن اتصل بـ « ب » الذي كان قد وصل من ألمانيا وكان يحلم هو الآخر بمستقبل عريض • وسرعان ما قامت بينهما صداقة • وما يزال « ب » حتى الآن يتحدث عن صداقتهما في ذلك الوقت بتأثر عميق • لقد كان كل منهما شابا ، وكانت تطوف في رأس كل منهما أحلام واحدة ، ويهدف الى عين الغاية التي يهدف اليها الآخر • الا أن « ب » كان لا يزال شابا في زهرة شبابه ، ولم يكن قد عانى حتى ذلك الحين كثيرا من الفقر والذل • وكان ألمانياً فوق كل شيء وقبل كل شيء ، يمضي الى غايته بعناد ومثابرة ، ويعرف قواه تمام المعرفة ، ويكاد يعرف مقدما ماسيصبحه ، في حين أن رفيقه الذي ناهز الثلاثين وبلغ منه الارهاق مبلغه ، كان قد فقد كل جلد ، وكان قد أتلف صحته وقواه خلال تلك الأعوام الستة التي اضطر أن يكسب فيها قوت يومه بالعمل تارة في مسرح صسغير بالعاصمة ، وتارة في جوقة حقيرة • لقد كانت الفكرة الثابتة التي تسيطر عليه أيامذاك هي أن يخرج من هذا الوضع الحقيير ، أن يدخر قليلا من المال ليلحق ببطرسبرج • الا أن هذه الفكرة الغامضة الغائمة كانت نوعا من نداء داخلي مبهم فقد سناه على مرّ السنين ، شيئا بعد شيء ، في نظر يافيموف نفسه ، حتى أصبح وصوله الى بطرسبرج أشبه بوصول انسان



يتحرك بلا ارادة ، أو انسان تحركه رغبة قديمة أصبحت عادة ، وكأنما قد أعتته الرحلة ، فأصبح لا يكاد يعرف ماذا جاء يعمل في بطرسبرج . كان في حماسه شيء من الكسل والمرارة ، فهي لا تزيد على أن تجعله يفتن بنفسه ، الى أن يستعيد الثقة بقواه الأولى ، بحمياة القديمة ، بالهامه الماضى الذى لم ينضب .

وكانت حماسه الدائمة هذه تبهر صاحبه البارد الرصين « ب » ، حتى بلغ من شدة اعجابه بمعنى أن اعتقد أنه سيصبح فنا عبقريا ، ولم يستطع أن يتصور مستقبل رفيقه على غير هذا النحو . ومع ذلك فإن « ب » لم يلبث أن فتح عينيه ، وأدرك الحقيقة ، ورأى بوضوح أن هذه الحماسة الفائرة المحمومة ليست الا بأسا لا شعوريا من موهبة ضائعة ، موهبة لعلها لم تكن ، حتى فى أول أمرها ، بالموهبة الخارقة . ورأى أن كل هذا لم يكن الا مزيجا من عماوة ، وغرور فارغ ، وزهو فى غير محله ، وخيال طائش ، وأحلام فى عبقرية يخال المرء أنه يحملها فى نفسه . وقد تحدث « ب » قائلا : « ولكننى لم أكن أستطيع أن أمتنع عن العجب لطبيعة رفيقى الغريبة . لقد ظل المسكين ، خلال سبع سنين طوال ، يجتر أحلام مجده المقبل دون أن يشعر أنه كان يفقد المبادئ الاولية فى

الموسيقى ، بل والتكنيك الذى لا بد منه لبتدىء . وكان ، مع ذلك ، يرسم للمستقبل فى خياله المضطرب ، أضخم المشاريع الوهمية . كان يريد أن يصبح أحد أوائل العازفين على الكمان فى العالم . وكان يعد نفسه منذ ذلك الحين عبقريا من هذا الطراز ، بل كان ، وهو الذى يجهل أبسط مبادئ الطباقي ، يعتقد أنه خلق ليكون مؤلفا موسيقيا . الا ان ما كان يدهشنى أكثر من أى شيء آخر هو أن هذا الرجل ، رغم ضعف المامه بالتكنيك الموسيقى ، كان يملك معرفة بالموسيقى واضحة ، معرفة «غريزية» ان صح التعبير . لقد كان احساسه بالموسيقى من القوة ، وكان فهمه

للموسيقى من العمق بحيث لا بد أن يخضع عن حقيقة قيمته ، وأن يعد نفسه لا ناقدا عميقا نافذ الحدس فحسب، بل أحد جهاذة الفن وعبقريا من عباقرته أيضا • وكان يتفق له ان يقول لى بلغته البسيطة الخشنة ، وهو الذى كان غريبا عن كل ثقافة ، حقائق تبليغ من العمق اننى كنت أقف حيا لها مشدوها ، لا أفهم كيف كان فى وسعه أن يدركها ، هو الذى لم يقرأ فى حياته شيئا ، ولا تعلم شيئا • ولا اكنم اننى استفدت منه كثيرا ، وانتفعت بنصائحه فيما حققت من تقدم • وكنت مطمئنا الى مصيرى • لقد كنت ، أنا أيضا ، شغوبا ببنى متعلقا به أشد التعلق ، رغم اننى كنت أعرف أن مواهبى ليست بالمواهب الغذة ، واننى سأكون عاملا من عمال الفن ، وكنت راضيا بذلك قانعا به ، ولكننى أستطيع أن أعتز بأننى لم أقبر ما حبتى به الطبيعة ، بل ضاعفته مائة مرة • ان الناس ليشون على مروتنى فى العزف وعلى ما حصلته من براعة تكنيكية مدهشة • لكننى أعترف بأننى أدين بهذا العمل المتواصل العنيد الذى أخذت به نفسى ، أدين به لمعرفةى الواضحة بقيمتى الحقيقية ، أدين به لنفورى من كل ما يمت بصلة الى الطمع والزهو ، الى القناعة الهينة والكسل ، الى كل هذه الصفات التى تنج عن رضى المرء عن نفسه • • «

وقد حاول « ب » أن يسدى النصح ، بدوره ، الى هذا الرفيق الذى طالما أصغى هو الى نصائحه باحترام ، الا أن رفيقه كان يضيق بنصائحه ذرعا ويفضب منها غضبا شديدا • ولم تلبث صداقتهما أن اعتراها الفتور • ولاحظ « ب » أن عمى يزداد استسلامه للخمول والحزن والضجر شيئا بعد شىء ، وأن ونبات حماسته أصبحت أندر من ذى قبل ، وأصبح يعقبها نوع من القلق القائم المحطم • وأخيرا هجر يافيموف كمانه أسابيع طويلة • ولم يكن السقوط النهائى بعيد • اذ لم يلبث أن انهيار المسكين انهيارا تاما • وتحقق كل ما تنبأ به المالك !

فها هو ذا يافيموف يدمن على السكر ادمانا لا يردعه عنه شيء • وكان « ب » ينظر الى ذلك وقد امتلأ قلبه رعبا • ولم يبق لنصائحه من أثر البتة ، حتى أصبح يتحاشى أن يوجه اليه أى نقد •

ووصل يافيموف من ذلك شيئا فشيئا الى استهتار لا يعرف الخجل : انه يعيش الآن عالة على « ب » ، ولكن ذلك لا يشعره بشيء من الاسف أو الندامة ، حتى لقد كان يتصرف كما لو كان من حقه أن يعيش عالة عليه !

وكانت أسباب الرزق تنضب شيئا بعد شيء • لقد كان « ب » يعطى بعض الدروس فى الموسيقى ، او كان يقوم بالعزف فى حفلات ساهرة لدى بعض أهل التجارة من الالمان ، أو لدى بعض الموظفين الفقراء ، وكان لا يتقاضى الا أجرا ضئيلا ، الا أنه أجبر على كل حال • وكان يافيموف يأبى أن يرى حالة الفقر التى يعانيتها رفيقه • وكان يعامله فى كثير من الصلف والكبرياء ، حتى لقد تمضى أسابيع طويلة دون أن يكلف نفسه عناء التحدث الى رفيقه بكلمة واحدة •

وفى ذات يوم قال « ب » لعمى ، فى كثير من الرقة والالطف ، ان من الأفضل له ألا يهمل كمانه كثيرا حتى لا يفقد مرونة أصابعه • لكن يافيموف غضب غضبا شديدا • وكأنما تخيل أن صاحبه سيركع متوسلا اليه أن يعود الى كمانه ، فقال انه هجر كمانه عمدا ، وانه لن يمسه بعد الآن أبدا • وفى مرة أخرى احتاج « ب » الى زميل يعزف فى حفلة ساهرة دعى اليها ، فطلب الى يافيموف أن يصحبه ، الا أن هذا العرض أثار فى يافيموف حنقا هائلا ، فقال لصاحبه فى احتقار وازدراء انه ليس ممن يعزفون فى الشوارع ، وانه ليس من التفاهة ، كصاحبه « ب » ، بحيث يرضى أن يدنس فنه النيل بالعزف لأناس من أصحاب « الدكاكين » وكان

تعلق أحدهما بالآخر قد بلغ من القوة أن تصرفات يافيموف الغريبة ،  
وعيوبه الواضحة كانت لا تزيد « ب » الا تعلقا بصديقه • لقد كان « ب »  
يفهم صديقه ويقراً ما فى نفسه • كان يوجس النهاية التى سيصير إليها  
كل هذا •

وقد تعانق الاثنان ساعة الانفصال ، بل وقع كل منهما فى ذراعى  
الآخر ، وأخذا يبكيان • وفى تلك الساعة صرخ يافيموف قائلاً ، من خلال  
الدموع والشهيق ، انه ليس الا انسانا شقياً ، ليس الا انسانا ضالاً ، وانه  
كان يعرف ذلك منذ مدة طويلة ، ولكنه فى هذه اللحظة انما يدرك أنه على  
شفا الهاوية ، كمختضر • وختم كلامه ، وقد امتنع لونه ، بقوله :

– اننى لا أملك أية موهبة •

وتأثر « ب » من ذلك تأثراً رهيباً • ثم قال لصديقه :

– اسمع يا يا جور بتروفتش • أنت مخطىء • انك بهذا اليأس  
تدفع بنفسك دائماً الى الانهيار • انك لا تملك جلداً ولا شجاعة • تدعى  
الآن أن ليس لك موهبة • لكن هذا يرجع الى حزنك • ليس صحيحاً انك  
لا تتمتع بموهبة • أنت تتمتع بالموهبة • أوكد لك أن الموهبة لا تعوزك •  
هذا واضح من قدرتك على فهم الموسيقى والاحساس بها • وأستطيع أن  
أبرهن لك على ذلك بالرجوع الى حياتك نفسها • لقد ذكرت لى أنك تأملت  
فى حياتك كثيراً ، وهذا يدل على انك منذ ذلك الحين ، تحمل فى نفسك  
هذا اليأس نفسه • فى ذلك الوقت ، أدرك فيك استاذك الاول ، ذلك  
الانسان الغريب الذى طالما حدثتني عنه والذى أيقظ فى نفسك حب  
الموسيقى ، أدرك فيك الموهبة الموسيقية • لكنك لم تكن تعرف أنت نفسك  
ماذا يجرى فى أعماق نفسك • لم تكن تشعر بالراحة والطمأنينة عند  
المالك ، وكنت تجهل ماذا تريد • ومات أستاذك قبل الأوان ، وتركك

لامال ومطامع غامضة مبهمة ، ولم يكشفك لنفسك ، وهذا أهم ما فى الامر  
•• كنت تشعر ان عليك ان تسلك سيلا أخرى ، سيلا أرحب • كنت  
تشعر ان حياة أخرى تنتظرك ، لكنك لم تكن تعرف الطريق اليها •  
ويشتت ، فصرت تكره كل ما حولك • ان السنين الست التى قضيتها فى  
بؤس متلاحق لم تذهب سدى ، فقد تعلمت فنك ، وفكرت ، وعرفت  
فواك ، حتى أصبحت تفهم فنك وقيمتك • يا صديقى لا بد من الصبر  
والشجاعة • ان ما خصتك به الطبيعة أعلى كثيرا مما خصتني به أنا • انك  
فنان أكثر منى مائة مرة ، ولكننى أسأل الله أن يهب لك جزءا مما وهب لى  
من صبر • اعمل ، ودع الشراب ، كما نصحتك بذلك صاحبك المالك  
الممتاز •• واستأنف من البداية ، استأنف من الالف باء • ما الذى يقعدك؟  
الفقر؟ العوز؟ ولكن الفقر هو الذى يصنع الفنان • وهو أمر لا بد منه  
فى البداية • انك الآن انسان مهمل ، لا يحتاج اليك أحد ، ولا يحتاج  
أحد أن يعرفك •• تلك هى الحياة • وسترى فى المستقبل قساة آخرين  
حين يُعرف من أنت ، وحين تُعرف قيمتك • سيخونك الحسد  
وستخونك النذالات وحماقات الناس أكثر مما يخونك الفقر • ان الموهبة  
فى حاجة الى حب ، انها فى حاجة لأن تُفهم ، وسترى كيف سياملونك  
حين تشارف على تحقيق غايتك • سيدوسونك بالأقدام ، سيحتقرون هذا  
الذى تكون قد اكتسبته بالعمل الشاق ، بالحرمان والجوع وسهر الليل ••  
لن يشجعك رفاقك الآتون ، ولن يواسوك • لن يدلوك على مافيك من  
عناصر الخير والصدق • بالعكس ، سيحصون عليك كل غلطة ، ولن يروا  
غير عيوبك ، ولن يبينوا لك الا ما أنت فيه مخطئ • سيفعلون ذلك وفى  
نفوسهم فرح خيث • واذا تظاهروا لك بأنهم لا يحفلون بأمرك بل يزدرون  
شأنك كانوا فى الحقيقة يفرحون لكل ما تقع فيه من أخطاء ( كأن الاسان  
معصوم من الخطأ ) ! •

ثم انك امرؤ لا تتحمل شيئاً ، انت انسان صلف فى غير داع الى  
صلف . وأنت لذلك معرض فى كل لحظة لأن تجرح كبرياء طبل  
منفوخ . . ذلك هو سر شقائك ، لانك ستظل وحدك ، وهم العدد الكبير .  
سيعذبونك بوخزات الابر . لقد بدأت أنا نفسى أشعر بذلك . هيا  
يا عزيزى ، انهض من كبوتك الآن . ولست أعزل من كل سلاح . انك  
تستطيع أن تكسب رزقك . لا تحقر التمارين اليدوية المبتدلة : ليس  
يضيرك أن يكون عزفك أول الأمر كنشر الخشب ثقلاً ، فلطالما نشرت  
أنا الخشب سهرات برمتها فى بيوت أولئك البائعين التافهين . الا انك  
لا تملك الجلد اللازم ، وانت لهذا مريض .

ثم انك تعوزك البساطة . انك تنتقد ، وتسرف فى التفكير : رأسك  
وحده هو الذى يعمل . انت جرىء فى الكلام ، حتى اذا كان عليك أن  
تمسك بقوسك ارتعشت خوفاً وهلعاً .

ان كبرياءك قوية ، ثم أنت لا تجرؤ على تحقيق شيء . كن شجاعاً  
وعليك بالصبر ، وخذ نفسك بالتمرين ، واذا أعوزتك القوة حقاً ، فليك  
يومئذ بالمغامرة : ان فيك حماسة ، وان نفسك لتفيض بالعاطفة ، وربما  
بلغت هدفك على هذا النحو . وهبك لم تبلغه ، فامض مع ذلك الى أمام .  
لن تخسر فى ذلك شيئاً ، بل سيزداد امتلاكك ناصية فنك . أجل  
يا صديقى ، ان « المغامرة » أمر عظيم ، بالنسبة الينا معشر الفنانين !



وقد أصغى يافيموف فى أول الأمر الى صديقه القديم منفلاً أعمق  
الانفعال . وحين كان « ب » يتكلم كانت وجنتا يافيموف الشاحبتان تنتعشان  
وتحمران شيئاً فشيئاً . والتهبت عيناه ببريق من الجرأة والامل غير  
معهود فيه .

ولكن سرعان ما انحدرت هذه الجرأة النبيلة مرة أخرى الى

الاستهتار ثم الى الوقاحة ، فلما أنهى «ب» كلامه كان يافيموف قد أخذ يتململ • ومع ذلك فقد شد على يد صاحبه بحرارة ، وشكره • الا انه انتقل فجأة من مشاعر الذل العميق والحزن الشديد الى التعالى والكبرياء والصلف ، فصرخ فى وجه صاحبه بلهجة متحدية ، قائلا : « لا تصدع رأسك بالاهتمام بمصيرى • اننى أعرف ما ينبغى لى أن أعمل ، وسترى قريبا عند من سأعمل ! سأحىي فى القريب حفلات موسيقية رائعة ، وسأحصل على المجد والمال معا » • ولم يعترض «ب» على هذا الكلام ، بل اكتفى بأن هز كتفيه • وعندئذ افترق الرفيقان القديمان • الى حين طبعاً ••

فان يافيموف سرعان ما بدد المال الذى تركه له رفيقه ، وعاد عبثاً عليه مرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة •• فعاشرة •• الى أن نفذ صبر «ب» • حتى اذا عاد يافيموف مرة ، أو عز «ب» أن يقال له ان صاحبه ليس فى البيت • ومنذ تلك اللحظة لم يعد يراه !



وانقضت على ذلك بضع سنين • وفى ذات يوم ، بينما كان «ب» عائداً من عمله ، اصطدم - فى زقاق صغير ، على باب احدى الخمارات المنحطة - بسكران رثّ الثياب يناديه باسمه • كان هذا السكران هو يافيموف ، ولكن وجهه كان قد تغير وشحب حتى لا يكاد يُعرف • واضح اذن انه لم يدع حياته المضطربة الفاسدة ، حتى لقد تركت هذه الحياة على وجهه طابعاً لا يمحو •

وشعر «ب» بكثير من السعادة لهذا اللقاء ، وهمّ أن يتكلم ، لكن يافيموف لم يدع له فرصة الكلام ، بل جرّه الى داخل الخمارة ، وهناك ، فى حجرة صغيرة مدخنة استطاع «ب» أن ينعم النظر فى يافيموف • لقد

كان صاحبه فى خرق بالية ، وكان حذاؤه ممزقا ، وكان سرواله ملطخا  
بأنار الشراب ، وكان شعره قد ابيض وقلت غزارة •

ابتدره «ب» قائلا :

– كيف أنت ؟ وأين أنت الآن ؟

وظهرت على وجه يافيموف علائم الاضطراب ، وبدا عليه الارتباك .  
وكانت أجوبته على أسئلة «ب» مفككة متقطعة ، حتى خيل الى «ب» انه  
أمام انسان مختل • واعترف يافيموف أخيرا انه لا يستطيع الكلام قبل أن  
يقدم له شىء من الشراب ، وان صاحب هذه الحانة أصبح يرفض أن يقدم  
له الشراب دينا منذ مدة طويلة •• احمر وجه « يافيموف » وهو يقول  
هذا الكلام ، رغم محاولته أن يتجلد •• وكان منظر هذا كله يثير الشفقة  
والحزن والألم ، فاهتزت نفس الصديق الطيب ، وفاضت حنانا ورحمة •  
لقد كانت مخاوفه اذن فى محلها • وأمر يافيموف بشراب •• فما ان  
احتساه حتى تغير وجهه !!

وكان من الهوان على نفسه بحيث تفجر الدمع من عينيه عرفانا  
بالجميل ، وحاول أن يقبل يد «ب» المحسن اليه • وصعق «ب» حين علم  
أثناء الغداء أن صاحبه البائس قد تزوج ! •• الا أن دهشته تجاوزت كل  
الحدود حين قال له « يافيموف » ان امرأته هى السبب فى انهياره ، وانها  
قتلت موهبته •

فسأله «ب» :

– وكيف ذلك ؟

فأجاب :

– انقضت سنتان ، يا عزيزى ، لم ألمس خلالهما كمانى • انها امرأة



من طبقة منحطة ، امرأة عامية تافهة .. قتلها الله ! .. ان كل ما نستطيع  
أن نعمله ما - أنا وهى - هو أن نتضارب !

- ولكن اذا كانت كذلك ، فلم تزوجتها ؟

- كنت أتضور جوعا حين عرفتها ، وكانت تملك ألف روبل .  
وفقدت عقلى ، فتزوجت . وهى التى تهالكت على ، وتمسكت بعنقى ..  
لم أذفعتها الى ذلك . وذهب المال بسرعة يا عزيزى ، أما بقية الموهبة ،  
فقد ضاعت هى الاخرى !

لاحظ « ب » أن يافيموف كان فى حاجة لأن ينتحل لنفسه الاعذار .  
وأردف يافيموف يقول :  
- لقد هجرت كل شىء ..

وهنا صرح بأنه فى المدة الأخيرة كاد يصل الى كمال امتلاكه ناصية  
فنه ، وانه لو شاء لما استطاع « ب » أن يلحق به ، رغم أنه أحد أوائل  
العازفين على الكمان فى العاصمة !

وفوجئ « ب » بهذا الكلام ، فسأله :

- ولماذا هجرت اذن كل شىء ؟ أما كان عليك أن تبحث عن عمل ؟  
فأجاب يافيموف ، وهو يحرك يده علامة الاحتقار

- عينا . أين منكم من يفهم الموسيقى ؟ ماذا تعرفون من الموسيقى ؟  
لا شىء .. لا شىء البتة .. قصاراكم ان تنفخوا لحنا راقصا فى باليه ..  
انكم لم تروا ولم تسمعوا عازفا على الكمان مجيدا . فعلام أفسد عليكم  
راحتكم ؟ ظلوا اذن حيث أنتم ، ما طاب لكم ذلك !

ودعم « يافيموف » كلامه مرة أخرى بحركة من يده ، وترنح على

مقعده ثملا ، ثم دعا « ب » ان يصحبه الى بيته ، وألح في الدعوة • الا أن « ب » رفض ، واكتفى بأن أخذ عنوانه ، مؤكدا انه سيأتي لزيارته في الغد • وأخذ يافيموف - وقد اكتظت معدته ودارت في رأسه الخمرة - ينظر الى رفيقه القديم نظرة ساخرة ، ويحاول أن يلدعه لدعا قويا بأية وسيلة • فلما نهض « ب » يريد الانصراف ، هب « يافيموف » فتناول فراءه الغالى وقدمه اليه ، كما يفعل الخادم مع عظيم من العظماء • وبينما كانا يجتازان القاعة ، توقف يافيموف ليقدم صاحبه للخادم وللجمهور ، قائلاً انه أول عازف على الكمان في العاصمة ، بل العازف الوحيد •• والخلاصة أنه كان في منتهى الوقاحة •

ومع ذلك ، مضى « ب » يزوره في صباح الغد ، في الغرفة الحظيرة الوحيدة التي كنا نسكنها جميعا •• كنت يومئذ في الرابعة من عمري ، وكان قد انقضى على زواج « يافيموف » بأمر سنتان • ولقد كانت أمي شقية حقاً • كانت قبل أن تتزوج أبي تعمل مربية ، وكانت على جانب من ثقافة ، الا أنها لفقرها تزوجت موظفاً عجوزاً هو أبي •• ولم تنش مع الا سبنة واحدة ، مات أبي بعدها فجأة • وبعد موته وزعت تركته الهزيلة بين واريه ، فأصاب أمي قدر زهيد من الدراهم ، وبقيت أمي وحيدة معي •• وكان من الصعب أن تجد من يستخدمها مربية بعد أن أصبحت تحمل على ذراعيها طفلاً •

وفي تلك الأثناء ، عرفت يافيموف صدقةً ، فأحبيته وافتننت به ، والحق يقال • ذلك انها امرأة شديدة الحماسة ، حاملة ، فصدقت ما كان يكيله يافيموف لنفسه من الثناء على مواهبه ، وما كان يتحدث به عن مستقبله اللامع •

وساعدها الخيال فانطلقت تداعبها آمال رائحة •• وراق لها أن تكون مرشداً وسندا لرجل عبقرى ، فتزوجته •

ولكن ما ان انقضى على زواجها به شهر واحد ، حتى تبددت جميع  
أحلامها وجميع امالها ، ليحل محلها الواقع المحزن • ذلك أن يافيموف  
– ولعله تزوجها من أجل روباتها الالف – تنكر لها منذ نفذ المال ! ••  
وكانما راق له أن يتعلل عن اخفاقه بهذه الحجة ، فطلق يعلن لكل من  
يلقاه أن زواجه قد قتل مواهبه ، وانه يستحيل ان يعمل في غرفة خائقة ،  
ومن حوله أسرة جائعة ، وانه ما من الهام موسيقى يمكن أن تواتيه في  
جو كهذا الجو ••• وأخيرا ، أن القدر قد تأمر عليه منذ طفولته وان ذلك  
كله واضح وضوح النهار •• ولعله انتهى – هو نفسه – الى تصديق  
شكاواه ، فلقد كانت هذه الحجة الجديدة تفرجه أيما اغراء •

ان هذه الموهبة الشقية ، هذه الموهبة المتعطلة ، كانت تبحث – على  
غير شعور – عن علة خارجية تلقى عليها تبعه كل ما تلقاه من اخفاق ، وكل  
ما تعانيه من بؤس ••

ولم يكن يافيموف قادرا على أن ينظر الى الحقيقة الرهيبة وجهها  
لوجه ، فيعرف انه فيما يتصل بفته قد انتهى الى الأبد ، ومنذ مدة طويلة  
•• كان يكابر ويتمزق تمزق المريض حاصرته أحلام الحمى •• كان  
في حرب مستمرة على الحقيقة المخيفة • فاذا اتفق له أن تفتحت عيناه  
لحظة من الزمن ، فاستشف هذه الحقيقة ، كان يدعر حتى يشعر انه على  
شفا الجنون •• كان يستحيل عليه أن يتنازل عن أحلامه التي كانت حيا ته  
نفسها خلال مدة طويلة ، فظل يعتقد – حتى لفظ أنفاسه الاخيرة – ان  
ساعته لم تحن بعد ، وان مجده آت لا ريب فيه •

وكان في الساعات التي يتضمضع فيها ايمانه هذا، يندفع الى الشراب،  
فاذا ضباب السكر يطرد همومه وينفى قلقه • ولعله لم يكن يدرى الى  
أى حد كانت حاجته الى امراته شديدة • لقد كان وجودها حجة يتعلل

بها عن اخفاؤه، حتى لقد رسخ في عقله أخيرا أن حياته لن تستأنف مجراها  
السليم الا بعد أن يقبر هذه المرأة التي ضيعته !  
ولم تكن أمى تفهمه •• فهي امرأة حاملة ، حتى انها لم تستطع أن  
تتحمل الصدمة الاولى حين تبدت لها الحقيقة المرة • وقد أصبحت سريعة  
الاهتياج ، كثيرة المزاج ، كثيرة التأييب والتقريع ، فكانت المشاجرات بينهما  
لا تنقطع ، وكان هو يجد لذة في تعذيبها ، وكانت لا تنى تحته على البحث  
عن عمل • الا أن عماوة عمى ، وطبعه الشاذ ، وما رسخ في عقله من ان  
امراته هى السبب فى ضياعه •• كل ذلك جعل منه انسانا لا يعرف الرحمة  
الانسانية ، فلا سبيل للعاطفة الى قلبه • فكان لا ينقطع عن الضحك عليها ،  
وكان يقسم بصراحة قاسية انه لن يميس كمانه مادامت امرأته على قيد الحياة •  
ولم تطق أمى هذه الحياة ، رغم انها كانت تحب زوجها حبا عنيفا ، ورغم  
أنها ظلت تحبه الى آخر لحظة من حياتها ، فاعتلت صحتها ، وأصبحت  
لا تفارقها الاوجاع ، ولا يفارقها الذعر والفرع • الا أن ذلك كله لم  
يعفها من تبعة اطعام الاسرة ، وحاولت أن تستضيف سكانا يطعمون عندها  
بأجر ، الا أن زوجها كان يسرق دراهمها خلسة ، وكثيرا ما اتفق لها ان  
وضعت الصحون فارغة أمام هذين الشخصين اللذين تناضل من أجلهما •  
وحين أتى « ب » لرؤيتنا ، كانت أمى منهمكة فى غسل الثياب  
وترقيع الملابس العتيقة •• تلك هى الحياة الشقية التى كنا نعيشها فى  
ظلمات غرفتنا الحقيرة •

وتأثر « ب » لرؤية شقائنا • فما كان منه الا أن قال لعمى :  
— اسمع • انك لا تقول الا هراء وسخفا •• فلا تعد على مسامعى  
قصة موهبتك الميتة •• ما عملك هنا ما دامت هى التى تطعمك ؟  
فأجاب عمى :  
— لا شىء !

الا أن « ب » لم يكن يتصور ، بعد ، كل ما تعانیه أمى .. فكثيرا ما كان أبى يعود الى البيت فى صحبة أناس حقيرين ممن لا عمل لهم الا التسكع فى الازقة .. ويالهول ما كان يجرى فى البيت عندئذ !

وأخذ « ب » يعظ رفيقه القديم طويلا . وصرح له - أخيرا - بأنه ان لم يرعو عن غيه ويسلك سلوكا شريفا ، فلن يمد له يد المعونة ، وقال له - بلا لف ولا دوران - انه لن يعطيه شيئا من المال ، ما دام سيئده فى الشراب . ثم طلب اليه أن يمسك بكمانه فيسمعه عزفه ليحكم على قدرته . ومضى عمى لاحضار كمانه ، فاتهز « ب » هذه الفرصة ، ومدّ الى أمى خلسة بعض المال ، الا أن أمى لم تشأ أن تقبله ، فتلك هى المرة الأولى التى تتلقى فيها صدقة ! .. عندئذ مد « ب » المال الىّ أنا ، فأخذته ، وانفجرت أمى المسكينه باكية .. وأتى عمى بكمانه، الا انه طلب أن يقدمّ اليه قليل من الخمر ، قائلا انه لا يستطيع أن يعزف بدون ذلك .

وجىء له بالخمر فشرب ، وسرعان ما انطلقت أساريره وانتعش . ثم قال متجها الى « ب » وهو يخرج من الدرج دفترا كبيرا غطاه الغبار :  
- باسم الصداقة ، سأعزف لك شيئا من تأليفى .

ثم قال وهو يشير الى الدفتر :  
- هل ترى ؟ .. هذا كله من تأليفى ! .. ولكنه من عجيبة أخرى غير ألحان « الباليه » التى تعزفونها .

وأخذ « ب » الدفتر ، وقلب بعض صفحاته صامتا . ثم أخرج من جيبه دفترا موسيقيا ، وطلب الى عمى أن يدع الآن مؤلفاته ، وأن يعزف له قطعة عيّنّها له من دفتره هو .  
وانزعج عمى من ذلك قليلا . الا انه لخوفه من أن يضع هذا

الحامى الجديد ، نفذ ما طلب اليه • وأدرك « ب » عندئذ أن رفيقه القديم الذى يتباهى بأنه لم يلمس كمانه منذ زواجه ، كان - فى الواقع - قد تمرن كثيرا أثناء ذلك ، فتحسن عزفه تحسنا واضحا خلال فقرة انفصالهما !

ليتكم ترون الفرح الذى فاض فى وجه أمى المسكينة فى تلك اللحظة ! •• لقد أخذت تتأمل زوجها فى كثير من التباهى والاعتزاز •• وسر الصديق الطيب « ب » سرورا صادقا هو الآخر ، ووعد أن يجد لعمى عملا • وكانت له - فى ذلك الحين - علاقات بنوى الشأن ، فمما لبث أن أعمل هذه العلاقات ، فأوصى بعمى خيرا ، بعد أن استقطعه عهدا على نفسه أن يصلح سيرته ويقوم سلوكه • واشترى « ب » لعمى ثيابا لائقة ، وقدمه لأشخاص من أصحاب النفوذ يتوقف عليهم ايجاد العمل الذى كان يريد أن يحصل له عليه • والحق أن « يافيموف » لم يكن يتصلف ويتكبر الا بالكلام ، أما فى أعماق نفسه ، فقد ملأه فرحا هذا العرض الذى تقدم به اليه صديقه القديم •

وقد روى « ب » - فيما بعد - كيف كان يشعر بخجل شديد حين كان عمى يطفق يتملقه ويتزلف اليه ويتذلل له ويفغره بسيل من عبارات التعظيم والاجلال ، خوفا على نعمه أن يقطعها عنه • والحق أن « يافيموف » فهم أنهم يريدون أن يردوه الى الطريق السوى ، ففرح لذلك حتى انقطع عن الشراب •• وأخيرا وجدوا له عملا فى جوقه أحد المسارح ، واجتاز المسابقة بنجاح باهر لأنه استطاع خلال شهر من الدأب والعمل ، أن يسترد كل ما كان فقده خلال ثمانية عشر شهرا من القعود عن العمل • وقطع على نفسه عهدا أن لا يكف عن العمل بعد ذلك ، وأن يقوم بواجباته الجديدة على نحو دقيق منظم • الا أن حالة أسرتنا لم

تحسن • فان عمى لم يعط أمى من روايته قرشا واحدا ، بل كان ينفقها كلها على موائد يدعو اليها أصحابه الكثيرين ، الذين لم يلبث عددهم أن أصبح كبيرا جدا •

ولكنه كان يتجنب الاشخاص الذين يتمتعون بموهبة حقيقية ، ويجالس خاصة موظفى المسرح وأفراد « الكورس » وغيرهم ممن يستطيع أن يسيطر عليهم •

واستطاع أن يوحى اليهم باحترام خاص لشخصه ، اذ بين لهم - منذ البداية - ان الناس لا يفهمونه وانه يتمتع بمواهب فذة ، وان امرأته هى السبب فى ضياعه ، وان رئيس جوقتهم - أخيرا - لا يفهم فى شئون الموسيقى شيئا البتة ! •• وكان يسخر من جميع فناني الجوقة ، ومن اختيار المسرحيات التى تمثل ، ومن مؤلفيها • وأخيرا ، أخذ يشرح نظرية جديدة فى الموسيقى • ثم تشاجر مع زملائه ومع رئيس الجوقة ، وكان فظا مع رؤسائه ، حتى اشتهر بين الجميع بأنه انسان مختل ، مزعج ، لا يصلح لشيء •• هكذا عرف يافيموف كيف يتصرف على النحو الذى يتعب جميع الناس ، فما يطيقون بعد ذلك احتماله !

والحق أن ثمة ما يثير الاستغراب فى هذه الادعاءات المتطرفة ، تصدر عن موسيقى فى مثل اهماله ، وعن عازف فى مثل عجزه ، لاسيما حين كان يمدح نفسه بمثل هذا الافتخار ، وبمثل تلك اللهجة الجازمة القاطمة •• ولم يستثن من اتهاماته صديقه «ب» ، بل أخذ يشيع عنه تهما حقيرة ووشايات وضيعة ، يتكرها ثم يذيعها على انها حقائق لا تقبل الشك • وانتهى ذلك كله الى أن تمكر الجو بين عمى وبين «ب» • ولم تنقض ستة أشهر على عمله فى الجوقة على هذا النحو الفوضوى المستهتر ، حتى اضطروا الى اخراجه • الا انه لم يدع أروقة المسرح بهذه السهولة

وسرعان ما أصبح يُرى من جديد ، بخرقه البالية القديمة ، بعد أن باع  
أو رهن ملابسه المناسبة ، وطفق يتردد على زملائه القدماء ، لا يعنيه أن  
يعرف هل يسرهم أو يزعجهم أن يستقبلوا زائرا مثله . فكان ينقل اليهم  
الأقاويل ، ويروج عندهم الحكايات السخيفة ، ويشكو اليهم حياته يوما  
بعد يوم ، ويدعو كلا منهم الى زيارته فى بيته للاعجاب بزوجه المجنونة .  
وطبيعى أنه كان يجد دائما بينهم من يسره أن يقدمَ لزميل له  
مطروود قدحا من الشراب ليسمعه يلفق أسوأ الأقاويل . ثم ان حديث  
ياقيموف كان بارعا يفيض ملاحظاتٍ مرةً لاذعة تفتن هذا النوع من  
المستمعين . وكانوا يعاملونه كمهريج شبه مجنون ، يحضونه على الترترة  
ترجية للوقت وملئا للفراغ . وكان يحلو لهم أن يستثيروا غضبه ،  
بالتحدث أمامه عن عازف جديد وصل الى العاصمة . فسرعان ما كان  
يتغير وجهه ، ويشرد لبه ، ويعضه الحسد ، ويسأل عن هذا العازف  
الجديد من هو وما هى مواهبه . وأعتقد أن ذلك الوقت كان بداية جنونه  
الحقيقى ، بداية الفكرة الثابتة التى حاصرت عقله واستبدت به ، أعنى  
ايمانه بأنه أول عازف على الكمان ، فى بطرسبرج على الاقل ، وأن الحظ  
هو الذى خانته ، وأنه مضطهد مهان، وأنه ضحية أنواع شتى من المؤامرات  
وان الناس لا يفهمونه ، وانه لذلك مجهول . وكانت هذه الفكرة الاخيرة  
تروق له وتملق غروره ، فهناك أناس يحبون أن يعتقدوا أنهم مضطهدون  
مهانون ، حتى يستطيعوا أن يتفجعوا جهارا ، وأن يتأسسوا فى سرهم  
بعبادة عبقريتهم المجهولة . وكان « ياقيموف » يعرف جميع العازفين من  
أولهم الى آخرهم ، ويزعم أنه ما من أحد منهم يستطيع أن يضارعه .  
وكان الهواة الذين يعرفون لوتته يحبون أن يشنوا أمامه على عازف من  
العازفين ليحضوه على ابداء رأيه .

وكانوا يستعذبون ضغينته ، ويستلطفون ملاحظاته المحكمة وكلماته



اللاذعة الفكهة التي كان يطلقها في التهكم على عزف خصمه الخيالي ! •  
وكانوا كثيرا ما لا يفهمونه ، الا انهم كانوا يعتقدون أنه ما من أحد في  
العالم يستطيع أن يصف مشاهير الموسيقيين في تلك الآونة وصفا  
« كاريكاتوريا » في مثل براعته وفكاهته ، حتى ان الفنانيين الذين كان  
يسلط عليهم لسانه المر كانوا يخشونه بعض الشيء ، لأنهم يعرفون السم  
الذي يقطر من أحاديثه ، ويشعرون بما في ملاحظاته من أحكام صائبة !  
•• واعتاد الناس أن يرووه في أروقة المسرح وكواليسه •• وكان  
المستخدمون يدعونه يدخل دون اعتراض ، كشخص لا غنى عنه • لقد  
أصبح « ترسيت » \* هذا المكان •

ودامت هذه الحياة سنتين أو ثلاث سنين ، الى أن سئمه جميع  
الناس ، حتى في هذا الدور الأخير ، وعندئذ طرد طرداً نهائياً • واخفى  
عمى بعد ذلك سنتين كاملتين اختفاء تاما ، لا يعلم أحد ممن يعرفونه الى  
أين مضى • الا ان « ب » صادفه مرتين على حال من البؤس والشقاء استدرت  
شفقته ، فتغلبت الرحمة في قلبه على الاشمئزاز ، فناداه مرة ، الا أن  
عمى ارتبك ، وتظاهر بأنه لم يسمعه وشد قبضته المشوهة الرثة على رأسه  
حتى غطت عينيه ، وتابع سيره • وفي صباح أحد الاعياد جاء خادم « ب »  
يقول له ان صديقه القديم على الباب أتى يقدم اليه تهانيه بالعيد وتمنياته •  
فخرج « ب » للقاءه • كان يافيموف في حالة سكر شديد ، فلما رأى  
« ب » خرقاً راکما حتى كاد يلامس الارض اظهارا لذلك ، وتمتم بضع  
كلمات ، وأبى أن يدخل • وكان لسان حاله طبعاً يقول : ليس من حقنا  
نحن أهل الشقاء أن نعاشر عظماء في مثل منزلتكم • و كل مايسمح لنا  
به ، نحن صغار الناس ، ان نفعل ما يفعله الخدم : تملق واقفين على

عتبة الباب ، ونخر راكعين ثم ننصرف . ذلك كان سلوكه المزرى . ولم  
يره «ب» منذ ذلك الحين الا بعد مدة طويلة ، أى يوم وقعت الواقعة التى  
اختتمت بها هذه الحياة الشقية المريضة الفاسدة . لقد كانت فاجعة فظيعة .  
انها لا ترتبط ارتباطا وثيقا بمشاعر طفولتى فحسب ، بل بحياتى كلها ،  
وسأروى لكم الآن كيف وقعت . ولكن لا بد لى ، قبل كل شىء ، أن  
أذكر ماذا كانت طفولتى ، وماذا كان بالنسبة الى ذلك الرجل الذى  
خلّف فى عواطفى الاولى أثرا مؤلما الى هذا الحد ، ذلك الرجل الذى  
سبب موت أمى المسكينة .

## الفصل الثاني



تبدأ ذكرياتي الا متأخرة جدا ، فى نحو التاسعة  
من عمرى • لأدرى كيف يمكن ذلك • الا أن  
كل ما انقضى قبل هذا العهد لم يدع فى نفسى أى  
أثر يمكن أن أذكره الآن • ولكننى فى مقابل

ذلك أستطيع أن أرى بوضوح تام كل ما وقع بعد الثامنة والنصف من  
من عمرى ، يوما بيوم ، دون أى انقطاع ، كأنه وقع بالامس • صحيح  
اننى أستطيع أن أتذكر بعض الحوادث التى سبقت هذه المرحلة ، الا أن  
ذكرياتي عن هذه الحوادث أشبه بأحلام مريض : ما زلت أرى - مثلا -  
سراجا صغيرا يمس فى ركن مظلم الى جانب أيقونة قديمة • وما زلت أعلم  
أننى كنت ذات يوم فى الشارع ، فداسنى حصان ، وقيل لى اننى بقيت  
بعد ذلك طريحة الفراش طوال أشهر ثلاثة • وما زلت أذكر أيضا أننى  
أثناء ذلك المرض استيقظت ذات مرة مذعورة ( وكنت أنام مع أمى على  
فراش واحد ) وان أوهامى والسكون وقرقرة فأر فى ركن الغرفة أربعتنى  
أشد الرعب ، فقضيت بقية الليل أرتعد منكمشة على نفسى تحت الغطاء ،

دون ان اجرؤ على ايقاظ امي ( وهذا ما يجعلني افترض انني كنت  
اخشاها اكثر مما اخشى سائر المخاوف مجتمعة ! ) •• الا انني منذ اللحظة  
التي شعرت فيها بذاتي ، أصبح نموي سريعا وعجيبا ، حتى أنني أحسست  
بكنبر من المشاعر التي ليست من الطفولة في شيء • لقد اضاء كل شيء امام  
نظري ، وسرعان ما اصبح كل شيء مفهوما • ان اللحظة التي بدأت فيها  
ذكرياتي الحقيقية قد تركت في نفسي اثرا حادا من الالم ، وكان هذا  
الاثر يزداد يوما بعد يوم ، حتى اضفى على جميع حياتي التي قضيتها  
بين عمي وأمي ، أعنى على طفولتي كلها ، لونا قانما غريبا ا

يخيل الى الان انني كأنما استيقظت فجأة من نوم ثقيل ، استيقظت  
في غرفة كبيرة منخفضة السقف ، قدرة ، تفوح منها روائح الاختناق ،  
جدرانها ملطخة بلون رمادي قذر ، وفي احدي زواياها تنتصب مدفأة  
روسية قديمة • والنوافذ تطل على الشارع ، او فل على سطح البيت  
المقابل ، وهي جميعها أشبه بشقوق ، لشدة ضيقها وامتدادها عرضا ،  
وحوافيها تبلغ من البعد عن أرض الغرفة أنني احتجت ، فيما أذكر ، الى  
أن أضع كرسي والى أن أضع فوق الكرسي مقعدا حتى أستطيع أن أصل  
الى هذا المكان الذي كنت أحب أن أجلس فيه حين لا يكون في البيت  
أحد • لقد كان المنظر يمتد من هذه النوافذ على نصف المدينة • لقد  
كنا نعيش تحت السقف من عمارة كبيرة تتألف من ستة طوابق ، وكان  
أثاث بيتنا كله لا يزيد على « ديوان » من قماش مشمع أصبح مزقا مغبرة  
باهتة ، وعلى طاولة كبيرة من خشب أبيض وكرسين ، وعلى سرير أمي ،  
وخزانة صغيرة ، وأخرى متداعية أسندت الى زاوية من زوايا الغرفة ،  
وحاجز من ورق تمزق •

اني أتذكر ذلك المساء ، عند الشفق • كان كل شيء قد تبشر على

أرض الغرفة : المقشة ، خرق المسح ، أوأينا التي من خشب ، زجاجة مكسورة ، وأشياء أخرى أيضا •• وأمي تبكى مرعدة من شدة الهيجان، وعمى جالس في أحد أركان الغرفة ، يرتدى رذنجوته السرمدى • وكان عمى يرد على كلام أمى هازئا ساخرا ، وكان ذلك يزيد غضب أمى •

وفجأة تعود المقشة والأواني الى رقصها العنيف • وأخذت 'أصرخ غارقة فى الدموع ، واندفعت الى أمام أحاول أن أباعد بينهما • كنت فى حالة ذعر هائل • وأحطت عمى بذراعى أريد أن أعطيه بجسمى لأحميه • كنت أعتقد ، لا أدرى لماذا ، ان أمى هى المخطئة فى غضبها عليه ، وانه ليس بمذنب • ووددت لو أتشفع له ، وأن أحتمل عنه كل قصاص •

كنت أخاف أمى خوفا شديدا ، فكان يترامى لى انه ما من أحد الا ويخشها كما أخشأها أنا •

وشدعت أمى فى أول الأمر ، ثم أمسكت بيدي وجزتني الى ماوراء الحاجز • واصطدمت يدي بالسريير فألمتني ألما شديداً ، الا أن الخوف كان أشد من الألم ، فلم أحرك ساكنا ، ولا ظهرت على وجهى علامة من علامات الألم •

وما زلت أذكر أن أمى خاطبت أبى بعد ذلك بلهجة عنيفة وهى تشير الى 'باصبعها ( سأسميه بعد الآن أبى فى قصتى هذه ، لأننى لم أعلم أنه ليس أبى الا بعد مدة طويلة ) • ودام هذا المشهد ساعتين طويلتين كنت أحاول عبثا خلالهما ، وأنا أرتجف من القلق ، أن أحرز كيف سينتهى الأمر •

وأخيراً هدأت المشاجرة ، وانصرفت أمى • وعندئذ نادانى أبى

فقبلنى ، وداعب رأسى ، وحملنى الى ركبتيه بينما كنت أشد جسمى اليه  
برفق وحب .

كانت تلك فيما أعتقد أول ملاطفة أبوية . ولعلها هى السبب فى أن  
ذكرياتى أصبحت منذ تلك اللحظة واضحة هذا الوضوح . ولاحظت  
بجلاء تام اننى اكتسبت عطف أبى بالتحزب له . ولعل هذه هى المرة  
الأولى التى قام فيها فى ذهنى أن امى كانت تجعل حياة أبى قاسية شاقة .  
ومنذ استقرت هذه الفكرة فى نفسى أصبحت تعذبى وتزيدنى عذابا يوما  
بعد يوم .

وشعرت نحو أبى ، منذ تلك اللحظة ، بحب ليس له حدود ، حب  
غريب ليس من الطفولة فى شيء . حتى لاستطيع أن أقول ان هذه العاطفة  
تشتمل على شيء مما تشعر به الام نحو ابنها من حب وقلق ، ان لم يكن  
مضحكا أن توصف عاطفة طفل يمثل هذا . كان يترامى لى أن أبى حقيق  
بالرثاء ، معذب ، مضطهد ، وأن من الظلم أن لا أحبه جدا قويا ، وأن  
لا أواسيه ، وأن لا أظهر له أية عاطفة ، وأن لا أحب له نفسى مخلصه  
صادقة . ومع ذلك فأننى لا أعرف الآن لم كانت الفكرة التى استقرت  
فى ذهنى يومئذ هى أن أبى أشقى الناس وأكثرهم عذابا . ما الذى ألهمنى  
هذه الفكرة ؟ كيف استطعت ، أنا الصغيرة ، أن أنفذ الى أعماق نفسه  
فأدرك الآلام التى كان يعانيها نمرة لاختفاقه ؟ لقد نفذت مع ذلك الى هذه  
الآلام ، وان كنت قد بدلت صورتها طبعاً ، وجعلتها فى مستوى خيالى .  
والى الآن لا أدرى من أين أتانى هذا الحدس . لعل قسوة أمى الشديدة  
علىّ هى التى دفعتنى الى التعلق بأبى ، تعلقى بانسان يعانى مثل الشقاء  
الذى أعانيه ، وفقا للصورة التى رسمتها نفسى له .

رويت الى الآن يقظتى الأولى من نوم الطفولة ، والحادث الأول فى

حياتي • وقد جرحني هذا الحادث جرحا عميقا ، ومنذ ذلك اليوم أخذ  
نموى يتم بسرعة عجيبة ، بسرعة مرهقة ، وأصبحت لا أكتفى بالمشاعر  
التي تصلني من الخارج بل صرت أفكر ، وأحكم ، وألاحظ • فإذا كل  
ما يحيط بي يرتسم في ذهني وفقا للصورة الخيالية التي كان يكررها أبى ،  
والتي كان لا بد أن أعدها الحقيقة الخالصة • وأدركت أشياء كثيرة عجيبة •  
أدركت مثلا ( لا أفهم الآن كيف تم لى ذلك ) اننى أعيش فى أسرة  
عجيبة ، وأن أبوى لا يشبهان الناس الذين كان يتفق لى أن ألقاهم •  
كنت أتساءل : « لماذا يختلف مظهر الناس الذين أراهم عن مظهر أبوى ؟  
لماذا أرى فى وجوههم فرحا •• على حين أنه ما من أحد يضحك يوما  
فى بيتنا ، فى ركننا الثانى ، ما من أحد يعرف الفرح سيلا الى نفسه !؟ »  
لست أدري الآن ما الذى كان يدفنى ، أنا الطفلة التي لم تتجاوز التاسعة  
من عمرها ، الى ملاحظة الناس بمثل هذا الاتباه الشديد ، والى الاستماع  
الى كل كلمة يقولونها بمثل هذه المرارة اللاذعة ، حين كنت ألقاهم عرضا  
على سلم البيت ، أو فى الشارع ، أو حين كنت أمضى الى أحد الحوانيت ،  
ملفمة بثوب أمى ، لأشترى بضعمة قروش قليلا من السكر أو الشاي  
أو الخبز ؟ •• وفهمت - لا أدري كيف - أن شقاء لا يحتمل يختبئ  
فى بيتنا ، فى هذا البيت الحقيقى • وكنت أعصر ذهني باحثة عن علة ذلك ،  
ولا أدري ما الذى ساعدنى على حل اللغز على النحو التالى : قلت فى  
نفسى أن أمى هى المسئولة ، انها سبب شقاء أبى • وهذا يضطرنى الى  
التساؤل مرة أخرى : كيف أمكن أن ترسخ هذه الفكرة الشيطانية فى  
نفسى • ومهما يكن من أمر فان تعلقى بأبى أخذ يزداد ، وأخذ يزداد  
كرهى لأمى ، وما زالت هذه الذكرى تحدث لى ألما عميقا حتى الآن •  
وهذا حادث آخر عجّل تعلقى بأبى أكثر من الحادث الأول : ذات

مرة ، فى نحو الساعة التاسعة من المساء ، أرسلتني أمى الى السوق لشراء  
قليل من الحميرة ، أثناء غياب أبى عن البيت . ووقعت فى الشارع وأنا  
عائدة الى البيت فانسفح على الارض كل ما كان يحويه الفنججان .  
وتصورت ، اول ما تصورت ، جام الغضب الذى ستصبه أمى على راسى ،  
وشعرت الى جانب ذلك بالم فظيع فى ذراعى اليسرى ، ولم استطع أن  
أنهض على قدمى ، وتجمع حولي « المتفرجون » . وحاولت امرأة أن  
تهضني ، ومر صبي وهو يركض فلكنني على رأسى ومضى ، وأنهضوني  
أخيرا ، فلملمت قطع فنجاني ، ومضيت مرتعشة مرتجفة لا أكاد أقوى على  
السير . وفجأة لمحت أبى . لمحته فى وسط جمهور تجمع أمام المنزل  
الجميل الذى يقابل بيتنا . كان هذا المنزل الذى يقطنه أناس أغنياء يتألق  
بضياء رائع . وأمام باب البيت كان يقف عدد من العربات . ومن خلال  
النوافذ كانت تخرج أصوات موسيقى . وأمسكت بطرف ثوب أبى ،  
وأريته فنجاني المكسور ، وذكرت له ، باكية ، اننى خائفة من العودة الى  
البيت . لا أدري الان لِم كنت على ثقة من أنه سيصحبني وأنه سيدافع  
عني ، لا أدري من أين أتاني هذا اليقين ، ومن ذا الذى أوحى اليّ بأنه  
سيحميني ، وأنه يحبني أكثر مما تحبني أمى كثيرا . لا أدري كيف  
اتجهت اليه دون أن يساورني أى خوف . وأمسك أبى يدي ، وأخذ  
يواسيني ، ثم قال لي انه سيريني شيئا . ورفعني بين ذراعيه . لم أستطع  
أن أرى شيئا ، لأنه شد ذراعى المجروحة ، فألمني ألما هائلا . غير أنني  
لم أصرخ ولم أتوجع ، لأنني كنت لا أحب أن أزعجه فى شيء . وسألني  
ملحا هل أرى شيئا . وحاولت ، جهد اليأس ، أن أجيبه بما يحب ،  
فقلت له اننى أرى ستائر حمرا . وحين أراد أن يحملني الى الجانب  
الآخر من الشارع ، بالقرب من البيت ، رأيته أبكي فجأة على رغم ارادتي  
وأخذت أتوسل اليه ، وقد أحطت عنقه بذراعى ، أن يصعد بي الى البيت



بسرعة • اننى أتذكر الان أن مداعبات أبى فى تلك اللحظة كانت تؤلمنى،  
فاننى لم احتمل ان يحبنى ويداعبنى احد هذين اللذين أود أن احبهما  
كل الحب ، فى وقت اخاف فيه الاخر وأخشى ان أمثل بين يديه • الا أن  
أمى لم تكذب تغضب ، وأمرتنى أن أمضى الى فراشى وأنا • وأذكر أن  
ألم ذراعى أخذ يشتد ويشد ، حتى سبب لى حمى شديدة • ورغم ذلك  
كانت سعادتى عظيمة جدا ، لأن الامر انتهى بسلام ، حتى لقد حلمت  
طوال الليل بالبيت الذى يقابل بيتنا وبستائه الحمر •

لذلك كانت صورة هذا البيت أول ما مثل فى خاطرى حين استيقظت  
فى صباح اليوم التالى • وما كادت أمى تنزل الى فناء المنزل ، حتى تسلمت  
حافة النافذة لاتامل ذلك البيت مرة أخرى ، وكنت أفكر فيه منذ زمان  
طويل ، وكنت أحب أن أنظر اليه فى المساء خاصة ، حين تضىء الأنوار  
فى الشارع ، فتصطبغ بلون الدم ، تحت الاشعة الخاصة التى تسقط عليها  
من خلال نوافذه العالية المغللة بالستائر الارجوانية ، والمضائة اضاءة  
قوية •

وأمام الباب ، تقف دائما عربات فاخرة شدت اليها خيول رائعة •  
كان كل شىء يثير فى نفسى حب الاستطلاع : الصراخ ، الازدحام ،  
القناديل المبرقشة ، النساء المتبرجات ينزلن من العربات • كان خيالى  
يخلع على هذا كله جوا سحرى مترفا كجوا الاساطير • وفى ذلك اليوم  
على وجه الخصوص ، بعد لقائى بأبى على عتبة هذا البيت ، ازداد البيت  
فى نظرى فتنة وسحرا • وكانت صور الروعة قد بدأت تتخاطر فى ذهنى  
الهائم • انى أعيش بين أناس شاذين كأبى وأمى ، فلا عجب أن أصبحت  
شاذة عجيبية ، أنا الأخرى ، فما من ذلك مهرب • من ذلك أن رؤية أمى  
وهى تتحمل هذا العناء كله فى سبيل اعالتنا ، وما كنت أسمعه من تقريرها  
أبى دون انقطاع على انها وحدها تعمل ، كل ذلك كان يشغل بالى

ويصدعه . فكنت أسأل ، بالرغم منى : لماذا لايساعدها أبى أبدا ، ولماذا يعيش بيننا كأنه غريب عنا ؟ ان بعض كلمات أمى أيقظت فى نفسى هذه الفكرة . وكانت لى مفاجأة كبيرة يوم فهمت أن أبى شخص « موهوب » ، انه « فان » . ورسخت هذه الكلمة فى ذاكرتى ، وسرعان ما استقر فى ذهنى ان الفنان مخلوق عجيب ، لا يشبه غيره من الناس . لعل سلوك أبى هو الذى انتهى بى الى هذه النتيجة ، أو لعل كلمة سمعتها ثم نسيتهاء ، هى التى رسّخت فى نفسى هذه الفكرة . ومهما يكن من أمر فان هناك عبارة قالها أبى ذات يوم بحرارة قوية ورسخت فى ذاكرتى لا تبرحها قال : سيأتى يوم لن يكون هو فيه انسانا رثا بل سيداً محترماً ورجلاً غنياً ، سيأتى يوم يعث فيه بثنا جديدا ، هو اليوم الذى تموت فيه أمى ! .. أذكر اننى ما ان سمعت هذه الكلمات حتى اتابنى فى أول الأمر رعب شديد ، فلم أستطع أن أبقى فى الغرفة . فهربت الى الممر البارد ، وانكملت الى جانب النافذة ، وقد اعتمدت وجهى بين يدى ، وأخذت أشهق وأنتحب . ثم لما فكرت فى الأمر مليا ، وهبّ الخيال الى نجدتى ، وجدتنى آلف رغبة أبى الكريهة هذه . وكنت ، من جهة أخرى ، لا أستطيع أن أظل مدة طويلة أمام سر لا يمكن فهمه ، وكان لا بد لى من أن أستقر على افتراض يرتاح اليه عقلى ، وهكذا وجدتنى أعتقد ( لا أدري كيف تم ذلك ) أنه متى ماتت أمى فسيترك أبى هذا البيت الحقيق ، ويمضى بى الى مكان آخر . أما أين يكون ذلك المكان ، فذلك ما لم أستطع أن أتخيله واضحا الى آخر لحظة . والذكرى الوحيدة التى بقيت لى عن المكان الذى سئمضى اليه ( وكنا سئمضى اليه من أجلى أنا طبعا ) هو أنه سيكون مكانا رائعا فخما عظيما . لقد خلقت من أحلامى الخيالية واقعا حيا . وتراوى لى اننا سنصحح أغنياء فى طرفة عين ، فما احتاج أن أذهب الى شراء بعض

الحاجات من الدكاكين ، وكان هذا العمل كريها جدا الى نفسى ، فقد كان أولاد البيت المجاور يتحرشون بى كلما خرجت ، وكنت أخشاهم خاصة حين أحمل قليلا من الحليب أو الزبدة ، فأسقط ما أحمل على الأرض ، وأتعرض لعقاب أمى القاسى . وتراوى لى أن أبى سيشتري لنفسه نيايا جميلة . وتخيلت أننا سنمضى بعد ذلك الى البيت الذى يقابل بيتنا ، فنقيم فيه . نعم ، ان البيت الغنى ذا الستائر الحمر الذى رفعت أبى أمام نوافذه ذات يوم من أجل أن يرى ما بداخله ، قد هباً كذلك لنجدة خيالى . وحللت المسألة على الفور : سيكون هذا البيت بيتنا ، وسنمكث فى حناياه فى عيد دائم ، فى سعادة أبدية . ومنذ تلك اللحظة صرت اذا جاء المساء أقف على نافذة بيتنا أتأمل القصر المسحور فى شوق ما بعده شوق : فأرى وصول العربات ، وأرى الزوار فى أجمل الحلى ، وأسمع أصوات موسيقى عذبة تخرج من خلال النوافذ ، وأتأمل الفلال التى تتخاطر على الستائر ، وأحاول أن أحرز ما يعمله الناس فى هذا البيت الذى كان فى نظرى جنة ، وعيدا أبديا ، وصرت أحتقر مسكننا الوضيع ، وأحتقر الخرق البالية التى أرتديها .



وذات يوم غضبت أمى فأمرتنى أن أنزل عن النافذة ، حيث أطلق لأحلامى العنان على عادتى . فما لبثت أن اعتقدت أن أمى انما تمنعنى من التفكير فى هذا البيت ومن النظر اليه لأن مستقبلنا لا يحلو لها ، ولأنها تريد أن تحول بيننا وبينه . وظللت طوال السهرة أرقب أمى بحذر . كيف أمكن أن أكون فى مثل هذه القسوة على امسان لقى من العذاب الأبدى ما لقيت أمى ؟ اليوم فقط أصبحت أدرك انها كانت تعيش فى جحيم ، اليوم فقط أدرك ، وقلبى يتمزق من الأسى ، أنها شهيدة . على اننى فى تلك الفترة القادمة من طفولتى الغريبة ، فى تلك الفترة من

حياتي التي كنت انمو فيها نموا غير طبيعي ، كثيرا ما كان ينقبض صدري  
الما ورحمه ، كثيرا ما كان يتور ضميري كلما تراءى لي اننى اظلم امي •  
الا ان القلق والخوف والريبة ظلت اقوى من كل شيء اخر • والحق  
اننا كنا بعيدين احدانا عن الاخرى • فلست اذكر اننى تمنيت فى يوم  
من الايام ان اخلو بها • لذلك كانت آية ذكرى من ذكرياتى تسمم الان  
نفسى وتجعلنى ارتعد من شدة الألم •

أذكر مرة ( ولا شك أن ما سأرويه أمر مبتذل ، الا أن ذكريات  
من هذا النوع هى التي تعاودنى الان وتعذبنى ) أن أمى أرادت ذات  
مساء ، اثناء غياب أبى ، ان ترسلنى الى الدكان اشترى لها قليلا من الشاي  
والسكر • ولكنها قبل أن ترسلنى فكرت طويلا ، ولم تعزم أمرها ،  
وجعلت تمد ، بصوت عال ، المبلغ الضئيل الذي كانت تملكه قطعاً نقدية  
صغيرة • اعتقد أنها ظلت تمد هذا المبلغ خلال نصف ساعة كاملة دون أن  
تفرغ من ذلك • لقد كانت المسكينة تصاب فى بعض اللحظات بنوع من  
التبدد ، نتيجة لما كانت تقاسيه من آلام • واذا صدقت ذاكرتى ، فقد  
تمتت أمى لا أدري بماذا ، دون أن تكف عن عد دراهمها ببطء وعناية  
كبيرة • كأن الكلمات كانت لاتوافيها • وكانت شفتها دكناوين ، ووجنتها  
كابيتين مكفهرتين ، ويدها مرتجفتين ، وكانت لا تنى تهز رأسها ، على  
عادتها حين تتخذ قرارا •

وأخيرا قالت وهى تنظر الى : • كلا • • • مستحيل • • • خير لى أن أنام  
• • • أليس كذلك ؟ هل تحيين أن تنامى يا نيتوتشسكا ؟ • • • ولم أجب •  
عندئذ رفعت أمى رأسى ، ونظرت الى فى رفق ولطف وحب ، وأشرقت  
فى وجهها ابتسامة صافية تفيض بحنان الأم ، فما رأيتى الا وقلبي يخفق •

لقد نادتنى بقولها نيتوتشكا ، وهذا يشير الى انها فى تلك اللحظة أحبتنى  
حبا خاصا . كانت هى التى تخيلت فيما مضى ان تغير اسمى ، وهو أنا ،  
فتنادينى بهذا الاسم المصغر الذى يشير الى الحب ، وحين كانت تنادينى بهذا  
الاسم المصغر كان ذلك يعنى أنها على استعداد لأن تلاطفنى وتداعبنى .  
وانفعلت انفعالا قويا حتى اشتهيت أن أطوق عنقها بذراعى ، وأن أشاركها  
البكاء .

وداعبت رأسى طويلا ، ولعلها فعلت ذلك على نحو آلى دون أن  
تسهر ، وظلت تكرر : « صغيرتى انا ، حبيبتى نيتوتشكا » . وتفجرت من  
عيني الدموع ، الا اننى تجللت لأحبسها . كابررت جهدى حتى لأدعها  
ترى انفعالى ، رغم ما يسبب ذلك لى من ألم .

كلا ! لا يمكن أن يكون هذا مجرد قسوة منى . لا يمكن أن أشعر  
نحو أمى بالعداوة لمجرد قسوتها على ! لقد كان يدفنى الى كرهاها هذا  
الحب الموحّد الشديد الذى اشعر به نحو أبى . لقد كان يتفق لى ، فى  
بعض الأحيان ، أن أستيقظ من نومى ليلا ، فى الركن الذى أنا فيه ، على  
حصيرتى البصغيرة ، تحت غطائى الرقيق ، وقد تملكنى شعور مخيف .  
كنت ما زلت أتذكر فى ذلك الحين ، وأنا شبه نائمة ، اننى قبل هذه  
المدة بقليل ، كنت أنام مع أمى ، وكنت أقل خوفا حين أستيقظ ، وكان  
يكفينى أن أشد نفسى اليها ، وأن أغمض جفنى ، وأن أعانقها بقوة ، حتى  
أنام على الفور . ثم لقد كنت أشعر اننى ، رغم كل شئ ، لا أستطيع أن  
أمنع نفسى عن حب أمى فى السر . وأدرت بعد ذلك أن كنتسيرا من  
الاطفال قد يفقدون مشاعر الرحمة فقداً رهيباً ، وأنهم اذا أحبوا شخصا  
أحبوه وحده ولم يعابوا بمن عداه . فكذلك كانت حالى أنا .

وكان يسطر على منزلنا الحقيق ، فى بعض الأحيان ، صمت رهيب

يدوم اسابيع برمتها ، وذلك حين يسام أبى وأمى مشاجراتهما . كنت أعيش بينهما حياتى كلها دون ان انبس بكلمة، غارقة فى افكارى وحزنى، ساعيه وراء خيالات أحلامى . وكنت ، لفرط ما تأملتهما ، افهم ما يكن كل منهما للآخر ، وأفهم هذا البنض الاصم المستمر الذى يرين بينهما ، وأفهم هذه الحياة الفاسدة التى يعيشانها فى كوخنا الحقيق .

وطبعى ان أفسر ذلك كله على النحو الذى أستطيعه ، ما دمت أجهل أسبابه ولا اعرف نتائجه . لقد كان يتفق لى خلال سهرات الشتاء الطويلة أن أظل قابضة فى ركنى ساعات كاملة أتأملهما . وكنت أحاول وأنا أطوّف بصرى فى وجه أبى ان أحزر مايفكر فيه ، وما يشغل باله . وكان وضع أمى يدهشنى فى بعض الاحيان ادهاشا يبلغ حد الفرع : كانت تسير فى الفرقة جيئة وذهابا خلال وقت لا ينتهى ، وكان يتفق لها ذلك حتى فى الليل ، حين يمضها الارق ، فكانت تدندن وتشير بيديها كأنها وحدها لا يراها أحد ، فهى تارة تضع يديها على صدرها ، وتارة تمسهما وقد تملكها يأس رهيب ، وتارة تجرى دموعها على وجهها ، ربما دون أن تعلم لذلك سببا ، فقد كانت تفقد وعيها فى بعض الاحيان . لقد كانت تعانى مرضا خطيرا أهملته اهمالا تاما .

وازدادت وطأة وحدتى وصمتى حتى أصبحت لا أجرو على أن أخرج منهما . وانقضت سنة كاملة على تيقظ شعورى ، وعلى استرسالى فى التأملات والاحلام ، وعلى تمزقى صامتة بين مطامح غامضة نشأت فى بقتة . وأصبحت متوحشة كأنما أنا عشت فى وسط غابة . وأخيرا اتبه أبى الى وضعى هذا ، فاستدعانى وسألنى لماذا أحدّق فيه كل هذا التحديق . ولا أدري الآن بم أجيته . الا أنه ، بعد لحظة من تفكير ، وعدنى ، وهو يداعب يدي ، أن يحضر لى كتاب الابهجدية فى الغد ، وأن يعلمنى القراءة .

وانتظرت هذا الكتاب بفارغ صبر ، وحلمت به الليل كله ، دون أن أدرك ما هي الابدجيدية على وجه الدقة . وفي اليوم التالي بدا أبى يعلمنى القراءة . وفهمت ما يُطلب الىّ فى طرفة عين ، وتقدمت فى دروسى بخطى سريعة ، لعلمى أن ذلك يسر أبى ، وكانت تلك أسعد مرحلة فى طفولتى البائسة . وحين كان أبى يثنى على سرعة فهمى ، ويداعب رأسى ويقبلنى ، كنت أطفق أبكى من شدة الفرح .

وازداد أبى حبا لى شيئا بعد شيء . وأصبحت أجروؤ على أن أكلمه ، وأصبحنا كثيرا ما نمضى نثرثر معا ساعات طويلا . وكان يتفق لى أن لآفهم شيئا مما يقول ، ولكننى كنت أتظاهر بفهم كل شيء ، خشية أن يظن أبى اننى أضيع بحديثه . واعتاد أن يقضى السهرة معى ، فأصبح يعود الى البيت عند الغروب ، فما ان يصل حتى أحمل أابدجيتى وألحق به ، فيجلسنى أمامه على المقعد ، حتى اذا فرغنا من الدرس أخذ يقرأ لى بصوت عال . وكنت لا أفهم شيئا مما يقرأ . الا اننى أضحك دون انقطاع ، لاعتقادى بأن ذلك يسره سرورا عظيما . ولم أكن مخطئة فى اعتقادى ذلك : فقد أولع بى حقا ، وكان يفرحه أن يسمنى مفرقة فى الضحك . وفى ذات مساء ، قص على ، بعد الدرس ، حكاية من حكايات الجن . كانت تلك أول حكاية أسمعها . وغمرتنى هذه الحكاية بفيض من الفتنة والسحر . على أن خيالى لم يكن فى حاجة الى مثلها ليفتن ويسحر . كل ما فى الأمر اننى تقبلت الآن هذه الحكاية على انها جسد ، وخلقت من الوهم واقفا . فاذا البيت ذو الستائر الحمر يترامى لى ، لا أدرى كيف ، واذا الشخصية الاساسية فى الحكاية تتقمص أبى وهو يقص علىّ الحكاية ، واذا أمى تظهر لتحول بيننا وبين السفر لا أدرى الى أين ، واذا أنا أعيش مع أحلامى الرائعة وقد حم رأسى وغلى برؤاه المعجبية المستحيلة . وتداخل

هذا كله وتشابك ، ثم لم يلبث أن كون سديما لاشكل له ، سديما جعلني ،  
خلال مدة من الوقت ، افقد صوابي وأفقد شعوري بالواقع ، واعيى بين  
السحب •

وأحرقنتى رغبة قوية فى أن أسأل أبى عما يخبئه لنا المستقبل ، عما  
ينتظر هو نفسه ، عن الامكنة التى سيفودنى اليها ، عن الموعد الذى سنترك  
فيه بيتنا الحقيق • كنت واثقة من جهتى ، ان هذا كله لن يتأخر كثيرا ،  
ولكن كيف وعلى أية صورة ؟ عبتا حاولت أن أبحث عن جواب على هذا  
السؤال المرهق • وكان يترامى لى فى بعض اللحظات ، ولا سيما أثناء  
السهرة ، ان ابى سيطلب الى فجأة ، بحركة خفية ، أن أمضى الى المر ،  
فاذا انا أنهض خلسة ، دون أن تلاحظ أمى ذلك ، فأتناول أبجديتى  
عابرة ، واتابط اللوحة ( وهى صورة مطبوعة لا قيمة لها كانت متدلية على  
جدار الغرفة بدون اطار منذ زمن لا أول له ، وكنت قد عزمت على أن  
أحملها معى ) ، ثم نمضى دون أن نحدث ضجة ، نمضى الى غير رجعة ،  
لا الى البيت ولا الى أمى • وذات مرة ، لم تكن أمى فى البيت ، فأردت  
انتهاز لحظة رأيت أبى فيها فرحا جدا ( يتفق له ذلك بعد أن يحسنى قليلا  
من الشراب ) ، فاقتربت منه لأدير الحديث حول هذا الموضوع الحبيب  
الىّ ، وسرعان ماظفرت باضحাকে • عندئذ أحطت عنقه بذراعى ، وشدت  
نفسى بقوة اليه ، ورحت أسأله ( وقد أخذ قلبى يخفق من شدة الخوف  
مما سأقوله من أمور سرية رهيبة ) رحت أسأله فى متممة وفى كلام  
متهدج ، عن المكان الذى سنمضى اليه ، وعن موعد السفر أهو قريب ،  
وعما سنحمله معنا ، وعن حياتنا كيف ستكون ، وعن البيت ذى الستائر  
الحمرة هل نسكنه ؟

— أى بيت ؟ أى ستائر حمرة ؟ ماذا تقولين أيتها الحمقاء الصغيرة ؟  
وشعرت برعب لم أشعر به من قبل ، وأخذت أشرح له اننا لن نبقى



هنا فى هذا البيت الحقيق بعد موت أمى ، وانه سيأخذنى بعد موتها الى مكان آخر نعيش فيه سعيدين ، غنيين • وأكدت له أخيرا أنه هو الذى وعدنى بذلك • وكنت على يقين ، وأنا أقول له هذا الكلام ، من أن أبى قد حدثنى عن هذه الاشياء ، أو اننى قدرتها تقديرا على الأقل •

وأردف أبى يقول :

— أملك ؟ تموت ؟ حين تموت ؟ ماذا تقولين أيتها البلهاء الصغيرة البائسة ؟

قال ذلك وهو ينظر الىّ مشدوها ، مقطبا ما بين حاجبيه الكثيفين المبيضين ، مكفهر الوجه على حين فجأة •

ثم وبخنى ، وظل مدة طويلة يقرعنى ويقول اننى طفلة بلهاء لا أستطيع أن أفهم شيئا •

لست أتذكر الآن ألفاظ التأييب التى صبها على رأسى ، ولكن استياءه كان شديدا جدا •

على أننى لم أفهم قوله ، ولا فهمت هذا الحزن الذى شعر به حين أدرك اننى أصغيت الى كلامه وترجمت الى لغتى الخاصة عبارات البغض التى كان يكيلها لأمى •

ومهما يكن من أمر سلوكه حينذاك ، ومهما تكن آراؤه الشخصية السيئة فى أمى ، فمما لا شك فيه أن كلامى قد شده • أما أنا فأنى لم أستطع أن أفهم غضبه ، وشعرت بحزن مر ، وانفجرت باكية ، واعتقدت أن ما ينتظرنا هو من الخطورة بحيث لا يجوز لى ، أنا الطفلة الغبية ، أن أتحدث عنه ولا أن أفكر فيه • على اننى ان لم أفهم شيئا من غضب أبى ، فقد شعرت اننى أهنت أمى ، ولو شعورا غامضا مبهما ، حتى أن الخوف

والارتياح بلغا منى مبلغا جعل الشك ينسب اظافره فى أعماق نفسى • وحين  
رأتى ابى باكية معذبة ، اخذ يواسينى ، ومسح دموعى بكفه ، وأمرنى  
أن اكف عن البكاء • وبقينا بعد ذلك جالسين مدة من الزمن صامتين ،  
وكان باديا على وجه أبى انه يفكر منقبض الاسارير • ثم اخذ يتكلم من  
جديد ، الا ان كل ما قاله بدا لى غير واضح ، رغم ما حاولته من تركيز  
انتباهى ؛ والكلمات القليلة التى بقيت فى ذاكرتى الى الان من حديثه  
تعلمنى أستنتج أنه يتحدث عن مواهبه العظيمة ، عن كونه فنانا كبيرا ، عن  
أن الناس لا يفهمونه ، الخ • وما زلت أذكر انه سألنى هل أفهم ما يقول ،  
فلما أجبته بما يرضيه حملنى على ان اكرر على مسامعه أنه موهوب فقلت  
« موهوب » • • وكاد يتسم لدى سماعه هذه الكلمة ، ولعله ابتسم لانه  
رأى من المضحك أن يتحدث معى فى موضوع خطير فى نظره الى هذا  
الحد • وانقطت محادثاتنا بوصول كارل فيودورفتش • فما لبثت أن استعدت  
مرحى وأخذت أضحك ، حين قال لى أبى مشيراً اليه :

– هل ترين ؟ هذا كارل فيودورفتش ! انه لا يملك ذرة من

موهبة !

كان كارل فيودورفتش انسانا عجيبا • مازلت أتخيله كأننى رأيت  
بالامس • ( ولا عجب ، فان الناس الذين عرفتهم فى حياتى حتى ذلك  
الحين كانوا قلة ) • وكان الرجل ألمانيا ، أتى الى روسيا تهزه رغبة شديدة  
فى الانتساب الى هيئة الباليه بپترسبرج • الا أن رقصه كان من الرداءة  
بحيث لم يمكن أن يسند اليه فى الفرقة أى دور مهما يكن ثانويا ، على  
انهم كانوا يستخدمونه أحيانا فى بعض الادوار الجماعية ، مع فرسان  
فيرون مثلا ، الذين يبلغ عددهم العشرين ويجب عليهم أن يصرخوا معا  
فى لحظة من اللحظات هاتفين وفى أيديهم خنجر من ورق مقوى :

« نمت فى سبيل الملك ، . ولكن لا شك فى انه ليس على وجه الارض  
ممثل واحد بلغ شغفه بدوره مثلما بلغ شغف كارل فيودروفتش بدوره ا

على أن أقطع تعاسة فى حياته كلها هى انه لم يستطع أن ينخرط  
فى هيئة الباليه . كان يعتقد ان فن الرقص يفوق جميع فنون الدنيا ، وهو  
من هذه الناحية يحرص على فنه حرص أبى على كمانه . وقد تصادق  
الرجالان حين كانا يعملان معا فى المسرح . ومنذ ذلك الحين لم يدع هذا  
الممثل البسيط أبى أبدا . فكانا يلتقيان فى كثير من الاحيان ، يتفجمان معا  
على حياتهما المحطمة ، ويشكوان غدر البشر . ولقد كان هذا الالماني أكثر  
الناس عاطفية ، فكان يحمل لأبى أعنف مشاعر الصداقة وأخلصها . الا  
ان أبى لم يكن يقدره كثيرا ، وانما يحتمله لانه لم يكن له صديق غيره  
فى ذلك الحين . ثم ان أبى كان يرفض ، لتعصبه ، أن يسلم بأن الرقص  
فن من الفنون . وكان ذلك يجرح كبرياء الالماني المسكين الى حد البكاء .  
فما يكاد هذا البائس يتحمس للرقص حتى يأخذ أبى يسخر منه ، ويهزأ  
بفنه ، فيمس بذلك وترا حساسا فيه . ولقد سمعت « ب » فيما بعد يتحدث  
كثيرا عن كارل فيودروفتش هنا ، وقد روى لى كثيرا من التفاصيل عن  
صداقة هذين الشخصين اللذين لم يخلق أحدهما للآخر ، واللذين كانا  
اذا احتسبا قليلا من الخمر معا ، يذرفان الدموع على حظهما العائر وعلى  
ان الناس لا يفهمونها !

وكنت اذا رأيتهما يبكيان آخذ فى الشهيق والنحيب ، أنا ايضا ،  
دون سبب يدعو الى ذلك . وكان ذلك يقع فى غياب أمى دائما . لقد  
كان الالماني يخافها خوفا كبيرا ، حتى أنه كان اذا جاء تبع فى الممر مدة ،  
الى أن يخرج أحدها فاذا علم ان أمى موجودة فى البيت ، طار ليه من  
الخوف وهرب يتدحرج على السلم بسرعة . وكان يأتينا دائما بقصائد

ألمانية تنال أعجابه ، وتثير حماسه ، فيأخذ ينشدنا اياها بصوت عال ، ثم يترجمها الى الروسية ترجمة خرقاء لفهمها • وكان ذلك يفرح ابى كثيرا ، ويجعلنى أضحك فى بعض الاحيان ضحكا قويا • وفى ذات مرة وقع بين ايديهما كتاب روسى أعجبا به كلاهما أيما اعجاب بل افتنا به افتنا ، حتى انهما كانا كلما وقعا عليه بعد ذلك يعيدان قراءته • وكان هذا الكتاب ، فيما أذكر ، درامة شعرية لمؤلف روسى شهير • وقد رسخت الأبيات الأولى من هذه الدراماة فى ذاكرتى رسوخا قويا ، حتى اننى بعد انقضاء سنين كثيرة على ذلك صرت كلما وقع هذا الكتاب بين يدى مصادفة أتعرف عليه بلا عناء • وكانت هذه الدراماة تدور حول رسام كبير ، يدعى « جرينارو أو لاكوبو » ، يشكو حظه الشقى ويصرخ فيما يصرخ قائلا : « ان الناس لا يعرفون قيمتى » ، ثم يصرخ فى موضع آخر قائلا : « ان الناس يعرفون قدرى » ، وفى موضع يقول : « ليس لى من موهبة » ، وفى موضع آخر يقول : « ان لى مواهب عظيمة » • وخاتمة الدراماة محزنة • لاشك أن هذا الكتاب ليس له من قيمة • غير أنه – وتلك هى المعجزة – كان يفعل فعل السحر فى هذين القارئين اللذين يجدان بينهما وبين بطله الرئيسى صفات مشتركة كثيرة • وكان كارل فيودوروفتش يبلغ من الانفعال انه يقفز من مكانه ، ويعدو الى الطرف الآخر من الغرفة ، ثم يتجه الى ( وكان ينادينى « مادموازيل » ) والى أبى ، متوسلا الينا ، وقد تفجر الدمع من عينيه ، أن نكون جمهورا له نرى رقصه ونحكم عليه • ثم يأخذ يقوم بأنواع شتى من خطوات الرقص ، صارخا فينا أن نعلن رأينا فى رقصه صراحة : أهو فنان أم لا ؟ هل يستطيع أحد أن يزعم أنه ليس بموهوب ؟ وكان أبى فى مثل هذه الأحوال يأخذه مرح مبالغ ، ويومى الى بعينه خلسة أنه سيسخر من الالماني ، وأن الامر سيكون مضحكا جدا • وكانت تتابنى رغبة فى الضحك مجنونة ، حتى يشير ابى

الى يده مهددا ، فأمسك عن الضحك • ومازلت حتى الآن لا أستطيع أن أتذكر هذه المشاهد دون أن أضحك • ومازلت أرى المسكين كارل فيودوروفتش كأنه أمامي : انه قصير القامة ، نحيل مفرط في النحول ، مبيض الشعر ، انفه كبير أحمر أشبه بمنقار الغراب ، اما ساقاه فمقوستان تقوسا بشعا جدا ولكنه كان يتباهى بشكلهما الجميل ، حتى لقد كان يرتدى سروالا ضيقا يلتصق بهما ابرازا لفتانتهما • وحين كان يتجمد على حركة أخيرة ، باسطة يديه نحونا ، مبتسما ابتسامة الراقصين على المسرح حين يفرغون من احدى رقصاتهم ، كان أبى يظل صامتا لحظة من الزمن ، كأنه عزم على ان لا يعلن رأيه • الا أنه كان يفعل ذلك عمدا ليدع الراقص في وضعه ذاك ، مترنحا على قدميه ، جاهدا أن يحافظ على توازنه في كثير من العناء • وأخيرا يلتفت أبى الى في في هيئة رزينة رصينة ، كأنما ليدعوني أن أكون شاهدا على حكمه الصادق الذي لا تحيز فيه ، وتلك هي اللحظة التي كان فيها الراقص يثبت بصره فيّ أنا أيضا ، وقد فاضت عيناه بمعاني الحياء والتوسل ، واخيرا يقول له أبى ، متظاهرا بالاستياء من الاعتراف بالحقيقة المرة :

— كلا ، ياكارل فيودوروفتش • لم تقننها بعد !

وعندئذ يطلق كارل فيودوروفتش من أعماق صدره آهة حرى ، الا أنه يتجلد ، ثم يطلب الينا بحركات سريعة ان نتبته اليه مرة أخرى ، زاعما ان الحظ لم يحالفه في المرة الأولى ، متوسلا ان نصبر عليه ونصدر حكمننا في هذه المرة الجديدة • ثم يركض من جديد الى الطرف الآخر من الغرفة • وكان في بعض الاحيان لفرط حماسه يبلغ من شدة الوثب ان رأسه يصطدم بالسقف ، فيحدث له ألما شديدا جدا ، الا انه كان يحتمل الألم ببطولة ، كاسبارطى ، ثم يتجمد مرة أخرى في وضع من الاوضاع ، مبتسما ، مادا يديه نحونا ، طالبا أن نصدر رأينا في رقصته هذه المرة •

ولكن أبى كان لا يعرف الرخمة ، فكان يجيب بنفس اللهجة الساخرة  
التي أجاب بها فى المرة الأولى ويقول :

- كلا ، يا كارل فيودوروفتش ، لم تحسنها بعد ، رغم كل ما عملت!  
وكنت عندئذ لا أستطيع ان أضبط نفسى ، فأطلقها فتهقهه مجلجلة  
يرد عليها أبى بتهقهه مثلها ، ويشعر كارل فيودوروفتش فجأة أننا انما  
نسخر منه ، فيحمر وجهه خجلا ، ويقول لآبى وقد فاضت عيناه بالدموع  
وسرت فى لهجته عاطفة عميقة مضحكة فى آن واحد ، عاطفة كانت  
تحملنى بعد ذلك على أن أرثى لحاله :

- انك لست بصديق •

ثم يتناول قبعته ، ويهرب وهو يقسم أغلظ الايمان انه لن يعود  
أبدا • الا أن هذا النوع من المخاصمات لم يكن يدوم طويلا ، فاذا  
بصاحبنا يعود بعد بضعة أيام ، واذا بالصديقين يستأنفان قراءة تلك الدراما  
التي يحبانها ، واذا بالدموع تترقرق من جديد ، واذا الساذج كارل  
فيودوروفتش يطلب الينا أن نكون حكما بين مواهبه وبين الجمهور ، ولكن  
بعد أن يتوسل الينا أن نكون جادين فى الحكم ، كما يليق بأصدقاء مخلصين  
بدلا من أن نسخر منه •

وفى ذات مرة أرسلتنى أمى الى الدكان اشترى لها شيئا من الأشياء ،  
وعدت ممسكةً بالنقود الصغيرة التي ردها لى البائع ، فلقيت أبى هابطا على  
السلم ، فابتسمت له كما كنت أبتسم كلما لقيته ، وكنت فى الواقع أعجز  
من ان لا أبتسم له • الا أنه وقد انحنى علىَّ يريد تقليلي ، لمح النقود التي  
أقبض عليها بيدي - ( نسيت أن اذكر اننى تعودت ان اقرأ فى وجهه ما  
يدور فى خلدته ، حتى أصبحت ادرك رغباته من أول نظرة • وكنت اذا

رأيته حزينا ينهشني الالم نهشا • وكان حزنه يزداد حين تفرغ يده من الدراهم فراغا تاما ، فما يستطيع أن يحسب قليلا من الحمر ، بعد أن أصبح الكحول حاجة لا يستغنى عنها ) - فى تلك اللحظة التى لقيته فيها على السلم لاحظت ان به شيئا خاصا • كانت نظرتة قاسية ، وكانت عيناه متجمدتين ، حتى أنه لم يرنى فى اللحظة الأولى • الا انه حين رأى النقود البراقة التى أمسكها بيدي ، احمر وجهه فجأة ، ثم شحب ، ثم مد يده ليأخذها ، ثم ما لبث ان كبح حركته هذه • واضح ان صراعا قام فى نفسه • وكأنما سيطر أخيرا على نفسه ، فأمرنى أن أصعد • وهبط هو بضع درجات على السلم ، الا انه توقف بعد ذلك فجأة ، ونادانى •

لقد كان فى حالة انزعاج فظيع •

- اسمعى يا نيتوتشكا • أعطينى هذه النقود • وسأردها اليك فيما بعد • ستعطين اباك هذه النقود يانيتوتشكا ، اليس كذلك ؟ انك ابنة طيبة ، اليس كذلك يا نيتوتشكا ؟

كنت كأنما أوجست أنه سيفعل ذلك • الا أن صورة الغضب الذى ستصبه أمدى على رأسى ، وخوفى ، ولاسيما خجلى عليه وعلى نفسى ، كل هذا صدنى عن ان أمد اليه المال • ولاحظ هو ذلك فورا فبادر الى القول :

- على كل حال ، لا داعى ، لا داعى ••

- بل خذ يا بابا ، سأقول لأمدى اننى أضعته ، سأقول ان أبناء الجيران اختطفوه !

- حسنا ، حسنا • كنت أعرف ذلك ، أعرف انك ابنة طيبة ذكية •

قال ذلك ، دون ان يكتف فرحه حين أحس بالدراهم فى يده ، وعادت الابتسامة الى شفتيه المرتعشتين ، وأضاف :

— انك ابنة صغيرة رائعة ، أنت ملاك صغير • أنت ملاكى الصغير ،  
هات يدك الصغيرة ••

وتناول يدي يريد ثقيلها ، غير اننى انتزعتها منه بقوة • واجتاحنى  
شعور غريب بالشفقة يمازجه شعور بالخجل والعار أخذ يعذبني ! •••  
فترلت ابى دون أن استأذنه ، وركضت ركضا حتى بلغت باب البيت ،  
كانما يدفعنى الخوف دفعا • ودخلت وقد تملكنتى ذعر ميجنون • كان خدائى  
كأنهما من جمر ، وكان قلبى يخفق خفقانا عنيفا • لم يكن شئ من هذا  
قد وقع لى قبل الآن • ومع ذلك زعمت لأمى ، بجرأة ، أن القطعة النقدية  
سقطت من يدي فى الثلج فلم أستطع أن أجدها • وكنت أتوقع أن تضربنى ،  
ولكنها لم تضربنى رغم انها استاءت استياء شديدا أخرجها عن طورها فى  
أول الأمر ، لشعورها بفقرنا الفظيع ، فأخذت تفرعننى وتؤبىنى ، لكنها  
ما لبثت أن استعادت رباطة جأشها ، واكتفت بأن تلومنى على اهمالى ،  
وقالت اننى لو كنت أحبها حقا لعرفت كيف أحافظ على دراهمها • وأمتنى  
هذه الملاحظة أكثر من الضرب • لقد كانت أمى تعرفنى حق المعرفة ،  
فلاحظت أن حساسيتى أصبحت مرهفة الى حد مرضى ، وانها ان لامتنى  
على هذا النحو المرير ، واتهمتنى بأننى لا أحبها ، كان ذلك أوقع فى  
نفسى ، وأولى بأن يجعلنى فى المستقبل أكثر تيقظا وانتباها •

وعند هبوط الليل ، فى الساعة التى يعود فيها أبى الى البيت ،  
مضيت الى المرر أنتظره على عادتى • كنت فى هذه المرة مضطربة أشد  
الاضطراب • كانت الندامة تملأ كيانى كله ، وتقلقنى أعنف القلق • وعاد  
أبى أخيرا ، فسرتت بعودته سرورا كبيرا ، كأنما هو يحمل الى العزاء  
والسلوى • وكان تملا بعض الشئ ، فقد نظر الى حين رأى نظرة حائرة  
وغريبة فى آن واحد ، وبعد أن قادنى الى ركن من المرر ألقى على باب



الغرفة نظرات خائفة ، وأخرج من جيبه قطعة من الحلوى اشتراها لي ،  
ثم حذرني من أن أسرق بعد الآن شيئا من نقود أمي ، قائلا ان هذا أمر  
سيئ ، معيب . وأضاف ان هذا حدث في هذه المرة لأن بابا كان في حاجة  
ماسة الى بضعة دراهم ، وان بابا سيعيد هذه الدراهم ذات يوم ، وانني  
أستطيع يومئذ أن أقول لأمي انني وجدت ما أضعته ، وأن سرقة الدراهم  
من ماما شيء فظيع ، ينبغي أن لا أعود اليه قط ، بل أضف انه سينتبه الى  
هذا الامر بعد الان ، وانني ان أعطته فسوف يأتيني بحلوى أخرى . بل  
ذهب الى أهد من ذلك وقال ان عليّ أن أرتي لحال أمي ، المريضة ،  
البائسة ، التي تعمل وحدها لتطعمنا نحن الثلاثة . واستمعت الى كلام  
أبي ، وأنا أرتجف من الخوف ، وقد فاضت دموعي . بلغ انفعالي من  
القوة أنني لم أستطع أن أجيء ولا أن أتحرك . ثم دخل البيت بعد أن  
أمرني بأن لا أبكي وبأن لا أذكر شيئا مما حدث . ولاحظت عندئذ أنه كان  
في حالة انزعاج هائل ، هو الآخر . وقضيت السهرة كلها فزعة ، كأنما  
أنا أترقب خطرا كبيرا ، ولأول مرة لم أجرؤ على أن أنظر الى أبي ، وعلى  
أن أقرب منه . وكانت أمي تسير في الغرفة جيئة وذهابا ، وتحدث نفسها  
كأنها غائبة عن وعيها ، على عادتها . كانت وطأة المرض عليها في ذلك  
اليوم أقسى ، كانت تعاني نوبة حادة من الاوجاع . وأخيرا اتابنتي حمى  
من شدة الانفعال الاصح الذي كنت أكابده . وحين أظلمت الغرفة لم أستطع  
أن أنام ، وهاجمتني أحلام مزعجة مخيفة ، فأخذت أشهق باكية .  
واستيقظت أمي على أصوات شهيقى ، فنادتني اليها وسألتني عما بي . وبدلا  
من أن أجيء ، ازداد شهيقى قوة . عندئذ أشعلت أمي الشمعة ، واقتربت  
منى تحاول تهدئتي ، لاعتقادها بأن حلما أفرغني ، وأخذت تقول : « كفى  
كفى ، أيتها الحمقاء . أتبيكين بسبب حلم ؟ كفى ، كفى . » ثم قبلتني  
وأرادت أن تأخذني الى سريرها أنام الى جانبها . ولكنني رفضت . لم

أستطع أن أضع ذراعى على عنقها ، ولا أن أتبعها • كان عذابي يتجاوز كل الحدود ، وودت لو أعرّف لها بالحقيقة ، وما كنت لأستطيع أن أمسك عن ذلك ، لولا اننى تذكرت أبى ، وتذكرت أنه حذرني من افشاء السر !

وقالت أمى ، وهى ترتب سريرى وتغطينى بمعطفها العتيق ، اذ لاحظت اننى أرتعش من الحمى :

– مسكينة أنت يانيتوتشكا ! أعتقد أنك مريضة مثل أمك •

ثم تأملتني بحزن شديد فلم أملك أن أحتمل نظرتها ، فأغمضت عيني ، واستدردت الى جهة الحائط • لا أدري متى نمت ، الا أن صورة أمى المسكينة وهى تكلمنى ظلت ماثلة أمامى وأنا بين النوم واليقظة • لم أكن شعرت قبل ذلك بألم ثقيل الى هذا الحد • كان صدري منقبضا انقباضا خانقا ، الا اننى شعرت بتحسن فى صباح اليوم التالى ، وأخذت أتحدث مع أبى دون أن أشير الى حوادث الامس ، لشعورى بأن اشارة كهذه لن تسره • وما لبث أن انبسطت أساريه ، فقد كان هو الآخر ينظر الىّ فى قلق أصم ، حتى اذا رآنى مسرورة ، عاد اليه صفاؤه بل عاد اليه مرح ساذج • وبعد قليل ، خرجت أمى من البيت فلم يستطع أبى أن يكبح جماح نفسه فأخذ يقبلنى بقوة حتى كدت أجن من شدة الفرح ، فصرت أبكى وأضحك فى آن واحد ! •• ثم أخبرنى أنه ، مكافأة على اننى كنت ابنة طيبة عاقلة ، سيربنى شيئا جميلا جدا ، شيئا يسرنى كثيرا أن أراه • ثم فك أزرار سترته فأخرج مفتاحا صغيرا كان معلقا على رقبته بخيط أسود ، وألقى علىّ نظرة غريبة كأنما يريد أن يقرأ فى عيني السرور الذى كان لا بد – فى رأيه – أن أشعر به • وفتح الصندوق فأخرج منه فى كثير من الحذر ، علبة سوداء ذات شكل غريب ، لم أرها قبل ذلك

أبدا • ولمس العلبة بنوع من الرهبة غير مألوف فيه ، وامحت الابتسامة من وجهه ليحل محلها فجأة مظهر الرصانة والجلال • وأخيرا فتح العلبة الغريبة بالمفتاح ، وأخرج منها شيئا غريب الشكل لم أره قبل ذلك أيضا • وتناول الشيء بيديه فى عناية أشبه بالاجلال قائلا : ان هذا هو كمانه • ثم حدثنى بصوت خافت رصين حديثا لم أفهمه • والشيء الوحيد الذى بقى فى ذهنى هو ما كنت أعرفه من قبل من أن أبى فنان ، ومن انه موهوب ، ومن انه سيعزف على كمانه فى يوم من الايام - بعد هذا اليوم أو قرب - ومن اننا سنصبح يومئذ أغنياء نعيش حياة سعيدة رخيصة لا يكدرها شيء • وسالت دموع أبى على خديه ، وتملكنى أنا انفعال شديد ، وأخيرا طبع على كمانه قبلة رقيقة تم مده الى لأفعل مثلما فعل • ثم لاحظت اننى أتمنى لو أرى الآلة عن كسب ، فأجلسنى على سرير أمى ، ووضع الآلة بين يدي • الا اننى شعرت أنه كان يرتجف خوفا على الآلة أن أكسرها ، ومع ذلك نقرت على الاوتار نقرا خفيفا ، فأخرجت صوتا ضعيفا ، فرفعت نظرى الى أبى قائلة :

- هذه موسيقى ••

فقال ، وهو يفرك يديه ، وقد أشرق وجهه فرحا :

- نعم ، نعم ، موسيقى • انك صغيرة ذكية ، شجاعة •

غير أننى لاحظت بوضوح ، رغم مدائحه وحماسته ، انه يرتعد خوفا على آله ، واستولى على الخوف أنا أيضا ، فبادرت أردعا اليه • فأعادها الى علبتها بعناية كبيرة ، وأغلق العلبة ثم أرجمها الى مكانها فى الصندوق • ووعدنى وهو يداعب رأسى أنه سيربى الكمان مرات أخرى كلما كنت عاقلة مطيعة مثلما أنا الآن •

هكذا طرد الكمان حزننا كلينا • ومع ذلك همس أبى فى أذنى ،  
حين أتى المساء ، أن لا أتسى ما أوصانى به أمس •

وعلى هذا النحو كبرت فى بيتنا البائس • وكان حبنى لأبى (والأفضل  
أن أقول « هيامى » بأبى ، لأننى لا أعرف كلمة قوية تستطيع أن تعبّر  
تعبيرا كاملا عن هذه العاطفة الجارفة التى كانت تعذبنى وتدفعنى نحو أبى  
دفعاً ) أقول : كان هيامى بأبى يشتد ويشتد حتى أصبح نوعاً من الهوى  
المرضى ! •• صرت لا أجد فى الحياة من متعة غير أن أفكر فيه ، وأن أحلم  
به •• صرت لا أفكر الا فى شيء واحد ، هو أن أعمل كل ما أستطيع  
عمله لأهيبه له ولو أقل مسرة • كم من مرة انتظرت عودته على السلم ،  
وأنا أرتجف من البرد ، لا لشيء الا أن أحس وجوده وأراه قبل الموعد  
بلحظة • وكنت أجن من الفرح حين يتفق له أن يمسنى بمداعبة عابرة •  
على ان فتور عاطفتى نحو أمى كثيرا ما كان يسبب لى حزناً أشبه بالعذاب •  
كنت اذا نظرت اليها امتلأت نفسى هولاً • الا اننى لم أكن أستطيع أن  
أظل محايدة فيما كان يقوم بين أبوى من خصومات لا تنقطع • كان لا بد  
لى أن أختار احدهما فأتحزب له • وقد تحزبت لهذا الانسان نصف  
المجنون ، لأنه كان فى نظرى انساناً بائساً مضطهداً ، ولأنه قد خاطب  
خيالى منذ البداية • ومع ذلك ، من يدري ؟ لعلى تحزبت له لغرابته  
الشديدة ، وحتى لغرابته مظهره ، فان هذا المجنون لم يكن صارم الوجه  
حزين الملامح كأمى ، بل كان يضحك ويهرج كأنه طفل ، ولعلنى أحببته  
لأننى لم أكن أخشاه كما كنت أخشى أمى ، ولأننى لم أكن أحترمه كما  
كنت أحترم أمى ، بل أنظر الـه نظرتى الى ندى من أندادى ، أو الى ترب  
من أترابى •• حتى لقد شعرت شيئاً فشيئاً اننى سيطرت عليه ، اننى

أخضعته ، واننى أصبحت له حاجة لا غنى عنها • ولم يصبنى زهو وغرور،  
ولكنه الشعور بالظفر • وكنت من شدة تقديرى لمنزلتى فى نفسه بحيث  
كدت فى بعض الأحيان أن أدل عليه ، وأتظرف له • الحق أن فى تعلقى  
الغريب هذا شيئًا يذكر بالروايات • الا أن هذه الرواية لم يقدر لها أن  
تدوم طويلًا ، فاننى ما لبثت أن فقدت أبى وأمى • لقد انتهت حياتهما  
بفاجعة فظيمة ما زالت ذكراها محفورة فى نفسى ترهقها وتمضها ، واليكم  
كيف وقعت الفاجعة :

## الفصل الثالث



تلك الفترة ، راج في بطرسبرج أن العازف الشهير على الكمان « س » سيصل الى العاصمة وشيكا ، فأحدث هذا النبأ في بطرسبرج ضجة كبيرة ، واهتز له العالم الموسيقى اهتزازا كبيرا ، وأقبلت المغنيات والشعراء والرسامون ومحبو الموسيقى يختطفون تذاكر الحفلة اختطافا ، بل وأقبل على ذلك أناس ممن يصرّحون في كبرياء متواضعة بأنهم لا يفهمون من الموسيقى شيئا ! .. كانت صالة الحفلة لا تتسع لعُشر هؤلاء المتحمسين الذين كانوا على استعداد لأن يدفعوا ثمن تذكرة الدخول خمسة وعشرين روبلا . ان شهرة « س » ، وشيخوخته التي يتوجها المجد ، وموهبته النضرة التي لم تجفها الايام ، وما ذكر عنه من أنه لم يمسك قوسه أمام الجمهور الا نادرا منذ زمن ، ومن انه يقوم بأخر جولة له في أوروبا قبل أن ينقطع عن العمل نهائيا ، كل ذلك كان له أثره في حفز الناس الى حضور الحفلة . الخلاصة : لقد اهتزت بطرسبرج لهذا النبأ اهتزازا قويا عميقا .

وقد سبق أن قلت أن وصول كل عازف جديد على الكمان، أو كل موسيقى شهير ، كان يولد في ابى شعورا مؤلما • كان دائما اول المقبلين على سماع اى فنان يمر بالمدينة ، ليحكم على موهبته • وكثيرا ما كان يمرضه التناء الكثير على القادم الجديد ، ثم لا يجد الراحة والطمأنينة الا حين يستطيع أن يأخذ على عزفه عينا من العيوب ، فاذا هو يطفق يذيع رايه فيه ، انما استطاع ذلك ، في سخيرية مرة لاذعة • لقد كان هذا المهووس المسكين لا يرى في الدنيا الا موهبة واحدة ، هي موهبته ، ولا يرى في الدنيا الا فنانا واحدا ، هو شخصه • ومع ذلك فان وصول « س » ، الموسيقى البقرى ، قد أحدث في نفسه نوعا من الرعب • وينفى ان نذكر هنا انه ليس بين الموسيقيين المشهورين الذين مروا بطرسبرج خلال السنين العشرة الاخيرة موسيقى واحد يمكن أن تقاس موهبته بعقرية « س » • كان أبى اذن لا يعرف شيئا البتة عما عسى أن يكون عزف موسيقى كبير عرف في أوروبا كلها بأنه من كبار الفنانين •

وقد رووا الى انه ما ان أذيع نأ وصول « س » الى بطرسبرج ، حتى ظهر أبى من جديد في كواليس المسرح ، وقالوا الى أيضا انه كان يبدو منفلا أشد الانفعال ، وانه كان يسأل الناس قلقاً عن « س » ، وعن الحفلة المزمع احيائها ، وهو أشد ما يكون اضطرابا • وكان ابى قد غاب عن هذه الامكنة منذ مدة طويلة ، فلما ظهر فيها من جديد أثار انتباه الناس والتفاتهم ، ثم ما لبث أن قال له أحدهم مستغزرا :

- اسمع يا يا جور بتروفتش ، لن نسمع في هذه المرة ، يا عزيزى ، موسيقى « باليه » • وانما ستسمع موسيقى تحرملك لذة الحياة !

وقد أكدوا الى ان لونه قد امتقع لدى سماع هذه الكلمة • الا انه حمل نفسه على الابتسام وقال :

- سنرى • ليس فى وسع غريب آت من بعيد أن يخدع الناس فى حقيقة أمره مدة طويلة • أظن أن « س » قد عزف فى باريس •  
والفرنسيون هم الذين أطاروا اذن صيته ، ونحن نعرف قيمة هؤلاء الفرنسيين !

على هذا النحو كان يتجمع حوله الناس ، ويأخذون فى الضحك •  
لقد كان المسكين يشعر بالحنق يعضه عضاً ، الا انه كان يتحامل على نفسه ، ويتجلد ، ويؤكد انه ليس فى نيته أن ينتقد ، وأن الانتظار لن يطول ، ما دامت الحفلة ستقام بعد غد •

وقد روى لى « ب » انه ، فى ذلك المساء نفسه ، لقي الامير « ك » ، وهو من هواة الموسيقى المعروفين الذين يفهمون الفن ويتذوقونه تذوقاً عميقاً ، وكان الاثنان يسيران معا وهما يتحدثان عن القادم الجديد ، فإذا « ب » يلمح أبى فجأة ، عند منعطف أحد الشوارع ، واقفاً أمام أحد المخازن يحرق فى اعلان ملصوق على البلور ، يعلن بأحرف كبيرة عن حفلة « س » •

فقال « ب » للامير وهو يدلّه على أبى :

- هل ترى هذا الشخص ؟

فسأله الامير :

- من هو هذا الشخص ؟

- انك تعرفه • هو يافيموف الذى حدثتك عنه غير مرة ، والذى

أردت أن تفضل عليه بحمايتك •

فهتف الامير قائلاً :



- آ ... أهذا هو ؟ نعم لقد حدثتى عنه كثيرا .. يقال انه انسان عجيب ، لكم يشوقنى أن أسمعہ .  
فأجاب « ب » :

- كلا ، ان ذلك لا يستحق العناء . ان الاستماع اليه مؤلم . لأدرى ما هو الاثر الذى يمكن أن يحدثه فى نفسك . أما أنا فانه يمزق قلبى تمزيقا . ان حياته مأساة محزنة . اننى أعرف حقيقة نفسه . ورغم انحداره الى الدرك الاسفل ، لم تمت عاطفتى نحوه موتا تاما . لقد قلت منذ هنيهة ، يا سيدى الامير ، ان سماعه لا بد أن يكون أمرا شائقا . هذا صحيح . الا انه يحدث فى النفس شعورا مؤلما قبل كل شئ . انه أولا انسان شاذ ، وهو عدا هذا مجرم ثلاث مرات : مجرم فى حق نفسه اذ أفسد حياته ، ومجرم فى حق امرأته وفى حق ابنته اللتين أفسد حياتهما أيضا . اننى أعرفه . لو أدرك جريمته لمات على الفور .. وهذا هو الامر الفظيع فى المأساة كلها : انه منذ ثمانى سنين يكاد يدرك ذلك ، وهو منذ ثمانى سنين فى صراع مع ضميره ا  
- وهو يعيش حياة بائسة ؟

- نعم . والبؤس سعادة له ، لأنه حجة يتعلل بها ، فهو يستطيع الآن أن يزعم لكل انسان ان الفقر هو الذى يحول بينه وبين الوصول الى قمة المجد ، وانه لو كان غنيا لاستطاع أن يتفرغ لفنه ، ولأمكن أن يعرف الناس عندئذ ، على الفور ، من هو وما قيمته . لقد تزوج يحدوه أمل عجيب هو أن تستطيع الروبلات الالف التى كانت تملكها زوجته أن تقيه من عشرته . لقد تصرف على هذا النحو كإنسان مجرد من الحس العملى ، كشاعر ، وكان هذا شأنه فى سائر حياته على كل حال . هل تعرف ماذا يردد فى كل يوم منذ ثمانى سنين ؟ انه يدعى أن امرأته هى المسئولة عن

جميع مبادئه ، انها هي التي تمنعه من الوصول الى المجد . ثم هو يتقد ذراهيه ويأبى أن يعمل ، ولو التزعت منه امرأته لأصبح بلا سلاح البتة . هذه سنين ثمان لم يلمس خلالها كمانه ، لماذا ؟ لأنه كلما أمسك بقوسه شعر في أعماق نفسه انه لا شيء . حتى اذا عاد فأراح قوسه في مكانه ، رجعت اليه آماله كلها ، وأصبح واقفا من انه موهوب . ذلك انسان حالم : انه يتخيل أن معجزة ستتحقق فجأة فتجعل منه موسيقيا شهيرا . شعاره : « اما أن أكون قيصر ، واما أن لا أكون شيئا ! » . كأنما يستطيع المرء أن يصبح قيصر في طرفة عين ! . . . . . وحين يصبح شعور كهذا الشعور هو الشاغل الوحيد الذي يملأ رأس فنان ، لا يبقى هذا الفنان فنانا ، لأنه يكون قد فقد الغريزة الفنية الامامية ، أعنى حب الفن للفن ، هذا الحب الذي لا شأن له بالمجد ولا بغير ذلك . أنظر الى « س » ، مثلا : انه متى أمسك بقوسه غاب عن كل شيء في الوجود الا الموسيقى ، والشئ الذي يحتل المكانة الاولى عنده بعد الموسيقى انما هو المال . أما المجد فانه لا يأتي الا في المرتبة الثالثة فيما أعتقد . انه آخر مشاغله . هل تعرف ما الذي يشغل بال هذا البائس ياقيموف في هذه اللحظة ؟ انه يكرر على نفسه هنا السؤال السخيف ، المضحك ، المحزن : « هو متفوق على « س » أم أن « س » متفوق عليه ؟ لا شيء غير هذا السؤال يشغل باله . لأنه يظن مقتنعا رغم كل شيء بأنه أعظم موسيقي في العالم ! . . . . . ولو برهنت له على انه ليس أعظم موسيقي في العالم فأنا كفيل لك بأنه سيموت على الفور ، كأن صاعقة سقطت على رأسه ؟ . . . . . لا شيء أقطع من التحرر من فكرة ثابتة ، وخاصة حين يكون المرء قد وقف عليها حياته كلها ، في ايمان خطير عميق . . . . . على أن ياقيموف قد بدأ بداية صادقة في الواقع .

فقاطمه الامير قاتلا :

- لا شك أن مشاهدة انفعاله لدى سماع « س » أمر شائق .

فأجاب « ب » سادرا :

- نعم . بل لا . انه سيستعيد ثقته بنفسه فورا . لأن جنونه أقوى  
من الحقيقة . سيجد لنفسه مهربا على الفور .  
- تعتقد ؟

وفي هذه اللحظة وصلا الى أبي الذي أراد أن يتوارى حالا . الا  
أن « ب » أمسك به وأخذ يكلمه . ساله هل ينوى أن يذهب الى الحفلة  
ليسمع « س » ، فأجاب أبي - بلهجة من لا يحفل بهذا الموضوع - قائلا  
انه لا يدرى هل يذهب أو لا يذهب ، وانه مشغول بأمر أهم من حفلات  
الموسيقيين الاجانب ، وانه سينظر في الامر على كل حال ، وانه لا مانع  
عنده من الذهاب اذا وجد في وقته ساعة من فراغ ، وانه قد يذهب مع  
ذلك . قال هذا ثم ألقى نظرة على « ب » وعلى الامير ، ثم ابتسم ابتسامة  
مصطنعة ، ورفع قبعته ، وحنى رأسه ، وتركهما زاعما أنه في عجلة من  
أمره ! ..

أما أنا فكنت قد لاحظت اضطراب أبي منذ الليلة البارحة .

كنت أجهل سبب هذا القلق الذي عصف به ، على وجه الدقة ، الا  
اننى رأيت ذلك القلق الفظيع يقضمه قضمًا . حتى ان أمى لاحظت ذلك .  
وكانت يومئذ مريضة جدا ، بل كانت لا تكاد تقوى على الوقوف على  
قدميها . وكان أبي لا ينى يدخل ويخرج بلا انقطاع . وفي الصباح جاء  
ثلاثة أشخاص أو أربعة من رفاقه القدماء ، فاستغربت ذلك ، ولا سيما انه  
لم يكن يشاننا أحد تقريبا ، عدا كارل فيودوروفتش ، بعد أن هجرنا جميع  
الناس منذ انقطع أبي عن التردد على كواليس المسرح . وأخيرا جاء كارل

فيودوروفتشس راكضا ، لاهتا ، يحمل في يده « برنامجا » . كنت اشهد هذه الحركة غير المألوفة ، وأصغى اليها ، باتتياه عميق ، وأنا في حالة تأثر وانفعال ؛ كأنني السبب في هذا القلق الذي أقرؤه في وجه أبي . وددت لو أعرف ما الأمر ، وسمعت لأول مرة اسم « س » ، ثم فهمت انه لا بد من خمسة عشر روبلا على أقل تقدير لمشاهدة حفلة « س » . وأذكر أيضا أن أبي لم يستطع أن يكبح سورة اضطرابه ، فكان يقوم بحركات كثيرة ، ويردد قائلا انه يعرف هذه العبقريات التي تأتي من البلاد الاجنبية ، انه يعرف هذه المواهب الفذة ، يعرف قيمتها ، ويعرف « س » أيضا ؛ يعرف انه يهودى بائس ، جاء الى روسيا - كثيره - باحثا عن المال ، وان الروسيين أناس سذج يصدقون جميع الاكاذيب ؛ لا سيما حين يكون الفرنسيون ملفقيها ! .. وكنت قد تعلمت معنى هذه الكلمات : « لاموهبة له » . وبعد أن ضحك الزائرون كثيرا ، اصرفوا الى شأنهم ، وتركوا أبي لهياجه العنيف . وأردت أن أسليه عن حزنه فاقتربت منه ، وأمسكت بالبرنامج وقرأت فيه بصوت عال اسم « س » . ثم نظرت الى أبي جالسا على الطرف الآخر من الطاولة مستغرقا في التفكير ، وقلت له ضاحكة : « لا شك أن هذا الرجل مثل كارل فيودوروفتشس ، لن يخرج منه نية حسن ، هو الآخر » .. فانتفض أبي كأنما استولى عليه خوف مفاجيء ، وانتزع البرنامج من بين يدي ، وأخذ يصرخ ويضرب الارض بقدمه ، ثم تناول قبته وهم بالخروج ، الا أنه ما لبث أن عدل عن ذلك ، والتفت الى ، ودعائى أن أوافيه في الممر . وهناك قبلنى وأخذ يردد لى ، بنوع من الارتباك ، بنوع من الخوف لم يستطع أن يكبحه ، اننى ابنة طيبة عاقلة ، واننى لأحبه له طبعاً أن يتألم ، وانه يعوّث على في أمر هام . ولكنه لم يقل لى ما هو هذا الامر الهام . على ان حديثه آلتني ، فقد

أدركت ان كلماته وملاطفاته ليست صادقة ، وكان هذا وحده كافيا لاشاعة  
الاضطراب فى نفسى ، وهكذا أصبح قلقي عليه عذابا ممضا .

وفى اليوم التالى - وهو اليوم الذى سبق موعد الحفلة - بدا لى ابنى  
أثناء الطعام منهك الاعصاب محطما . لقد حدث فى نفسه تفسير رهيب .  
كانت نظراته تنتقل بينى وبين أمى بغير انقطاع . ولشد ما كانت دهشتى  
كبيرة حين رأيتة يتحدث الى أمى ، لا سيما وانه كان لا يكاد يخاطبها  
بكلمة واحدة . وبعد أن فرغنا من الطعام لاطفنى كثيرا ، وجعل يدعونى  
فى كل لحظة الى المرر منتحلا مختلف الاعذار ، وهناك يأخذ ينظر من  
حوله كأنما هو يخشى أن يقبض عليه بالجرم المشهود ، فإذا اطمان الى انه  
ما من أحد يراه ، طفق يداعب رأسى ويقبلنى ويردد على مسامعى اننى ابنة  
طيبة ، واننى أحب بابا من غير شك ، واننى سأفعل كل ما يطلبه الى مافى  
ذلك ريب . فأسلمنى هذا الى قلق لا يطاق . حتى اذا دعانى الى المرر  
أخيراً ، للمرة العاشرة ، اتضح الامور : فى هذه المرة نظر أبى الى جميع  
الجهات نظرة مرتابة ، ثم سألتنى وقد تقبض وجهه ، هل أعرف أين خبأت  
أمى الخمسة والعشرين روبلا التى أتت بها فى صباح الامس ؟ . . فما ان  
سمعت هذا السؤال حتى شعرت كأنتى أموت من شدة الخوف ، الا أن أبى  
وقد سمع صوتا على السلم ، ارتاع فتركنى حيث أنا وهرب . ولم يعد  
الا فى المساء ، حيث جلس على كرسى وقد بدا عليه الاضطراب وانفعال  
البال ، وأخذ ينظر الى بنوع من الحياء الوجمل . وتملكنى خوف شديد  
حتى صرت أحاول أن أتخاشى نظراته . وأخيرا نادتنى أمى ، وكانت فى  
السريير طوال اليوم من وطأة المرض ، فأعطتنى قطعة نقدية ، وأرسلتنى  
أشترى لها من الدكان قليلا من الشاى والسكر . كان الشاى لا يشرب الا  
نادرا فى بيتنا ، اذ كانت أمى لا تسمح لنفسها بهذا الترف ، ونحن فيما  
نحن فيه من الفقر ، الا حين تشعر أنها مريضة محمومة . . فأخذت

الدراهم ، وما ان خرجت الى المر حتى جعلت أعدو ، خفية أن يلحق  
بى أبى • الا ان ما كنت أخشاه قد وقع : فقد أدركنى أبى فى الشارع  
وأعادنى الى السلم وهناك قال لى بصوت مرتعش :

– نيتوتشكا ، حبيبتى ، اسمعى ، أعطينى هذه الدراهم ، وغدا  
سوف \*\*\*

فارتيمت على ركبتيه وأخذت أتوسل اليه قائلة :

– بابا ، بابا ، لا أستطيع • لا يجوز • ان ماما فى حاجة الى الشباى •  
لا يجوز أن تسرق ماما • كلا لايجوز • مرة أخرى ••  
فدمدم كأنما هو يهنى :

– آ • لا تريدن ؟ لا تريدن ؟ حسنا •• الآن أترك •• ابقى  
مع ماما • أما أنا فسأذهب وحدى • هل تسمعين ، أيتها الابنة السيئة ؟  
هل تسمعين ؟

– بابا • خذ • ما العمل ؟ سبكى أمى أيضا • وستؤنبنى أيضا •

قلت هذا وأنا أرتعد من الخوف ، وأضرب كفا بكف ، وأتعلق  
بذيله •

لم يكن أبى يتوقع هذه المقاومة • على انه أخذ المال ، ولم يستطع  
أن يحتمل نحيبى ، فتركنى على السلم وهرب • وصعدت السلم • الا أن  
قواى خائنتى على باب مسكنتنا ، فلم أجرؤ على الدخول ، لم أستطع  
الدخول • كنت فى حالة ذعر شديد واضطراب فظيع • كان قلبى كأنما  
انخلع • ووضعت وجهى بين ذراعى كما فعلت فى المرة الاولى يوم سمعت  
أبى يتمنى موت أمى • وبلغ منى الذعر أن أقل صوت على السلم كان

يجعلنى كقطعة من الثلج ترتجف • وأخيرا سمعت وقع خطوات سريعه  
تصعد السلم فعرفت انه أبى •

قال أبى هامسا :

— هذا أنت ؟

وارتميت على عنقه •

— خذى • خذى دراهمك • ولست أباك بعد الآن • هل تسمعين ؟  
لا أريد أن أكون أباك • اذهبى الى أمك • لا أريد أن آخذك معى •

فلما أنهى هذا الكلام دفعنى عنه ، وهرب مرة أخرى هابطا السلم •  
فركضت وراءه باكية ، أريد أن أمسك به ، وصرخت محتجة :

— بابا • أبى العزيز • سأفعل كل ما تريد • أنت تعلم اننى أحبك •

خذ • خذ الدراهم • خذها !

الا انه كان قد غاب • بلغت من شدة الذعر أننى ظلمت السهرة  
كلها محمومة لا أستطيع حراكا • وأذكر أن أمى كلمتنى ، وجاءت بى  
الى جانبها ، الا اننى كنت أشبه بمن فقد وعيه ، فما أرى شيئا ولا أسمع  
شيئا • وأدى ذلك كله الى نوبة : فأخذت أبكى وأعول ، وارتميت أمى  
فلم تدر ماذا تصنع • ووضعتنى فى سريرها • وكنت خائفة مما أتوقع ان  
يقع بين دقيقة وأخرى ، فاذا أنا أنام ، لا أدرى كيف ، متشبثة بعنقها •  
وانقضى الليل على هذا النحو : فلم أستيقظ الا فى ضحى اليوم التالى ، بعد  
أن غادرت أمى البيت الى عملها • ورأيت مع أبى فى البيت رجلا غربيا ،  
وكان الاثنان يتحدثان بصوت عال جدا • وانتظرت أن يذهب الزائر بصبر  
فارغ ، حتى اذا مضى وأصبحنا وحدنا ، ارتميت على عنق أبى باكية منتحبة ،  
أتمسك اليه أن يغفر لى سلوك البارحة •

فسألني بلهجة قاسية :

- هل تصبحين عاقلة كما كنت في الماضي ؟

فأجبت :

' - نعم ، يا أبت • أعدك بذلك • سأقول لك أين تخبيء أمي دراهمها •  
• لقد وضعتها أمس مساء في هذه العلبة ، على الرف •

فصرخ أبى متفضا :

- أين ؟ أين ؟

وقفز من مكانه وسألني مرة أخرى :

- أين الدراهم ، تقولين ؟

- العلبة مغلقة بالمفتاح ، يا أبت • انتظر حتى هذا المساء • سترسلني  
أمي لتبديل الورقة النقدية بقطع صغيرة ، رأيت ذلك بنفسى •

- انتى فى حاجة الى خمسة عشر روبلا ، يانيتوتشكا • هل تسمعين؟  
خمسة عشر روبلا فقط ! هايتها اليوم ، وسأردها اليك غدا • وسامضى حالا  
أشترى لك حلوى ، وجوزا • • ولعبة أيضا • وغدا ، غدا على التأكيد ،  
أرد اليك الدراهم • • وسأشترى لك حلوى فى كل يوم ، اذا كنت عاقلة  
فاعطينى خمسة عشر روبلا !

- كلا ، يا بابا ، لا أريد حلوى • لن آكل الحلوى اذا جئتني بها ،  
سأردها اليك •

قلت ذلك محتجة باكية ، وقد تمزق قلبي من القلق •

أدركت فى تلك اللحظة أن ليس فى قلبه ذرة من رحمة بى ، وانه



لا يحبنى ما دام لا يقيم لعاطفتى نحوه وزنا ، وما دام يظن اننى اخضع لارادته طمعا فى الحلوى ! .. ومع اننى كنت طفلة ، استطعت ان انفذ الى أعماقه نفاذا بلغ من القوة اننى شعرت منذ تلك اللحظة ان عبادتى اياه قد تسمت الى الابد . شعرت اننى لن استطيع ان احبه بعد الان ! .. شعرت اننى فقدت بابا الحبيب القديم الى الابد . اما هو فقد سره وعدى ، بل سحره . لقد رأى اننى مستعدة من اجله لكل شيء ، ويعلم الله ماذا كانت تعنى كلمة « كل » هذه فى خيالى ! كنت اعلم قيمة هذه الدراهم عند أمى المسكينة ، وكنت أعرف العذاب الذى ستلقاه حين تفقدها ، فكان ضميرى يعول من اليأس . الا أن أبى لم يلحظ شيئا من ذلك . كنت أفهم كل شيء . غير أن أبى كان لا يرى فى الا طفلا فى الثالثة من عمره . وتملك أبى فرح هذيانى ، ففمرنى بالقبل ، وتوسل الى أن لا أبكى ، وأكد لى ، مداعبةً لخيالى ، انا سنسافر الى مكان بعيد عن ماما فى بحسر اليوم نفسه . ثم أخرج البرنامج من جيبه ، وذكر لى ان الرجل الذى سيمضى الى سماعه هذه الليلة انما هو عدوه ، بل أحد أعدائه الألداء ، الا أن عدوه لن يستطيع أن ينتصر عليه ، لا هو ولا غيره . لا شك أنه هو الطفل ، لا أنا ، ما دام يحدثنى بهذه اللهجة عن أعدائه ! .. ولما رأى أننى ظلت صامتة لا أجيب ولا أبسم كما أبسم عادة ، تناول قبعته ، ومضى ، كمن حان وقت ذهابه . الا انه قبل أن يتركنى ، قبلنى مرة أخرى . وبسم لى ، وأشار الى إشارة الاتفاق ، كأنه غير واثق منى كل الثقة ، فهو يريد أن يعمل ما ينبغى عمله ليمنعنى من التفكير والتردد .



سبق أن قلت انه تغير منذ أمس تغيرا كبيرا حتى لكأنه شخص آخر . كان لا بد له من الحصول على المال لشراء تذكرة ، مهما كلف

الأمر • فقد كان يعتقد أن هذه الحلقة سيكون لها فى حياته تاثير حاسم ، حتى انه حين أراد أن يستولى على الدراهم القليلة التى كنت أمسكها بالامس ، لم ينتبه من شدة اضطرابه الى أنها لا تكفى لشراء التذكرة • وقد تجلّى اضطراب عقله المحموم هذا ، على نحو أوضح ، اثناء الطعام • كان عاجزا عن أن يستقر فى مكانه ، ولم يلمس الطعام ابداً ، فكان ينهض ، ثم يعدل عن رأيه ، ثم يجلس مرة أخرى ، أو كان يبهم أن يمضى ، فيتناول قبعته ثم تستولى عليه حيرة غريبة ، فيبقى فى مكانه لا يتحرك ، ويدمدم بكلام يخرج من بين أسنانه ، أن يلقى على نظرة سريعة ، ويغمزنى بعينه ، ويقوم بحركات واشارات يظهر لى بها حرصه على الحصول على الدراهم الموعودة بسرعة ••••• لكأنه يحقد على لاننى لم أسرقها من أمى بعد • وأخيرا لاحظت أمى اضطرابه الشاذ ، وجعلت تنظر اليه نظرة استغراب • أما أنا فكنت أشعر بخوف كخوف شخص حكم عليه بالاعدام ! ••••• فلما نهضنا عن المائدة ، اخفيت فى ركن من أركان الغرفة وأنا أرتعد من الحمى ، وأخذت أعد الدقائق بانتظار اللحظة التى اعتادت أمى أن ترسلنى فيها الى السوق • رباه ! اننى لم أعان فى حياتى بعد ذلك تجربة قاسية هذه القسوة ، وستظل هذه الدقائق محفورة فى ذاكرتى الى الأبد • ان فى الحياة ساعات كأنها تتجمع فيها آلاف سنين طويلة برمتها ••••• كنت أعلم اننى قادمة على اقتراف عمل سيء • ألم يحاول أبى نفسه أن يوقظ فى نفسى غرائز الخير فى المرة الأولى حين دفعنى الى فعل الشر دون تفكير، ثم هاله عمله فين لى خطيئتى ، ونصحنى بأن لأعود اليها ؟ أليس فى وسعه اذن أن يدرك الآن ان من الصعب أن يعيش نفسا ظمأى الى المشاعر الواضحة ، نفسا أوجست الخير والشر وفكرت فيهما طويلا ؟ على اننى أدركت انه اذا كان يدفعنى الآن الى اقتراف الشر مرة أخرى ، فيضحى بطفلة بائسة لاجيلة لها فى الدفاع عن نفسها ، ويعرضنى

كذلك لفساد الضمير ، فلا شك انه خاضع لسلطان ضرورة هائلة ! ..  
ثم تساءلت من الركن الذي كنت مختبئة فيه : « لماذا يريد ان يكافئني  
على عمل ساقوم به طواعية ؟ » .. وهاجمتني احساسات جديدة ، وأمال  
جديدة - خرجت لا أدري من أين - وحاصرتني أسئلة جديدة . ثم اذ  
بى فجة لا افكر فى أمى ، ولا فى الالم الذى ستعانيه حين تفقد آخر  
درهم مما حصلته بعرق الجبين . وفجأة تركت أمى العمل الذى كانت  
أخذة نفسها به فى عشاء ، ونادتنى . فاقتربت منها وأنا أرتعد ارتعادا  
شديدا ، فأخذت الورقة النقدية من الخزانة الصغيرة وناولتنى اياها وهى  
تقول :

- اذهبى يا نيتوتشكا . ولكن أرجوك ، أناشدك الله ، أن تنتهى الى  
المبلغ الذى سيرده اليك البائع . اياك أن يسرقوك ، وحذار أن تضيعى  
شيئا .

فألقيت على أبى نظرة متوسلة . الا أنه هز رأسه ، وابتسم ابتسامة  
تشجيع ، وأخذ يفرك يديه من فراغ صبره ، فان الساعة تدق الآن  
السادسة ، وستبدأ الحفلة فى السابعة . لقد سبب له الانتظار ، هو الآخر ،  
ألما كثيرا .

ووقفت على السلم أنتظره . لقد بلغ انفعاله وتعجبه من القوة أنه  
أسرع ورائى دون أى احتياط أو تحفظ . وناولته الدراهم . كان السلم  
مظلمًا جدا ، فلم أستطع أن أتبين وجه أبى ، الا أتنى شعرت بأنه يرتجف  
وهو يتناول المال . وظلمت متجمدة فى مكانى لا أستطيع حراكا ، ولم  
أتبه الى نفسى الا حين طلب الى أن أصعد الى البيت لآتيه بقبعته . كان  
لا يريد أن يعود الى البيت .

فقلت له بصوت منقطع ، وكان أمي الاخير هو أن يدافع عني ،  
قلت :

- بابا ، لماذا لا تصمد معي ؟

- لا ،،،، اصمدى وحدك •

ثم هتف ، بعد تفكير ، قائلاً :

- انتظري انتظري • انتظري ريشا آتى اليك بالحلوى أولاً • ولكن  
اصمدى قبل ذلك ، وأتيني بقبعتي •

شعرت كأن يدا من جليد تبيض على قلبي • فانطلقت من صدري  
صرخة ، ثم هربت أصعد السلم ركضا • وحين دخلت الى البيت كنت من  
الانهيار بحيث لو قلت لأمي ان المال قد سرق لصدقتني • غير أنني كنت  
عاجزة عن الكلام • ونهالكت مهدمة على سرير أمي مخيطة وجهي بذراعي •  
فما انقضت دقيقة على ذلك حتى فتح الباب بهدوء ، وظهر أبي • • لقد  
جاء لأخذ قبعتي • وحزرت أمي فجأة أن شيئاً ما قد حدث ، فصرخت بي  
قائلة :

- أين الدراهم ؟ أين الدراهم ؟ قولي • قولي !

ثم حملتني بقبضة يدها ، ووضعتني على قدمي في وسط الغرفة •  
ولكنني أطرقت ، وسكت ، وأنا لا أكاد أفهم ما وقع لي ، ولا ما يراد مني •  
وصرخت أمي مرة أخرى قائلة :

- أين الدراهم ؟

الا انها اتجهت فجأة نحو أبي ، الذي تناول قبعتي ، وسألته :

- أين الدراهم ؟ آ آ آ .. لقد أعطتك اياها ! .. وضع \* مجرم \*  
مجنون \* تريد أن تشقيها هي أيضا ، هي الطفلة \* لا \* لا \* انتظر \* لن  
تذهب هكذا !

ورثبت الى الباب ، فأقفلته بالمفتاح ، ووضعت المفتاح في جيبها \*  
- هيا \* تكلمى \* قولى الحقيقة \* اعترفى بكل شيء \* تكلمى ،  
تكلمى ، والا فأنا أعرف ماذا أصنع بك !

قالت ذلك بصوت لا يكاد يسمع من شدة الانفعال ، وهي تقبض  
على ، وتهز ذراعى \* فأقسمت في هذه اللحظة لألزم الصمت ، ولا  
أتهم أبى \* ورفعت عيني نحوه ، مرة أخيرة ، فى حياء \* كان يكفينى منه  
عندئذ نظرة واحدة ، كلمة واحدة ، على نحو ما اتوقع ، على نحو ما أتمنى ،  
حتى أكون سعيدة ، رغم أى تمذيب ينالنى \* الا انه بدلا من ذلك  
- يا رباه ! - أمرنى أن أسكت ، بإشارة مهددة باردة .. كما لو كان  
يمكن أن أخشى شيئا من الأشياء فى مثل هذه اللحظة \* وشعرت بحلقى  
يتقبض ، وبأنفاسى تنقطع ، وبساقى تلتويان تحتى ، وسقطت الى الارض  
مشيا على ، واتبثتى مرة أخرى النوبة العصيبة التى صرعتنى بالامس \*

واستيقظت فجأة على طرق باب منزلنا \* وفتحت أمى الباب \* فرأيت  
رجلا يرتدى ثيابا موشاة مما يرتديه خدم النبلاء ، رأيته يدخل البيت ،  
ثم ينظر الينا نظرات تنم عن الدهشة ويسأل عن الموسيقى يافيموف ، فيتقدم  
أبى نحوه ، فيناوله الرجل عندئذ مظروفا ، وهو يقول انه رسول «ب»  
الموجود الآن فى منزل الأمير سيده \* كان المظروف يحتوى على تذكرة  
ممتازة لحضور حفلة الموسيقى «س» !

ان ظهور الخادم الأنيق الذى يأتى خصيصا من قبل سيده الامير

لدعوة الموسيقى البائس يافيموف ، قد أحدث في نفس أمى ، فبجأة ، تأميرا كبيرا • قلت فى أول هذه القصة ، ان هذه المرأة البائسة كانت تحب أبى حب العبادة • وكان قلبها ، فى هذه الدقيقة ، رغم السنين الثمانى التى قضتها معه فى شقاء دائم ، لم يتغير أبدا • كانت قادرة على أن تحب زوجها رغم كل شىء • ومن يدرى ! فلعلها اعتقدت فجأة بأن الحظ سيبتسم ، وان كل شىء على وشك أن يتغير • لقد كان يكفى خيالها ظل " من أمل ، حتى يسترسل فى أحلامه ! لعل عدوى الاحلام المعزونة التى كانت تملأ رأس زوجها قد سرت الى رأسها هى الأخرى ، ولعلها أصبحت مثله تثق بعقيرته ثقة لا تتزعزع ! ومهما يكن من أمر ، فمن المستحيل أن لا تتأثر امرأة ضعيفة بمثل هذه البادرة ، وأن لا تجعلها التفاتة الامير تتخيل فى طرفة عين ألف أمل وأمل • وفى طرفة عين أصبحت مستعدة لأن تلتفت الى زوجها ، لأن تغفر له الحياة البائسة التى قضتها معه ، لأن تغفر له حتى الجريمة الأخيرة التى اقترفها فى حقها وهى افساد طفلتها الوحيدة • لقد أصبحت مستعدة ، فى انطلاقة الحماسة وتجدد الامل ، لان تبرىء زوجها من تلك الجريمة ، فما ترى فيها الا خطيئة بسيطة ، ترجع الى قلة التبصر ، وتأثير البؤس ، وحياة الذل ، وضياع الأمل • الخلاصة : لقد كان كل ما فيها الآن سرورا وامتنانا ، وأصبحت مستعدة لأن تنسى كل شىء فى سبيل زوجها المسكين •

أما أبى فكان لا يستطيع أن يستقر فى مكانه من شدة فرجه • لقد سحرته التفاتة الامير وصديقه «ب» • واقترب من أمى غير متردد ، وهمس فى أذنها بضع كلمات خرجت أمى على أثرها من الغرفة ، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل نقودا استبدلتها بالورقة المالية •

فتناول أبى روبلا على الفور ، وقدمه للرسول • وانسحب هذا بعد

أظهار آيات الاحترام المهذب • وخرجت أمي من الغرفة مرة أخرى ،  
وعادت بعد لحظة « بمكواة » ، فأخذت تكوي قميصا هو أحسن قميصان  
زوجها ، وتولت بنفسها عقد ربطة عنقه البيضاء التي كانت قد حفظتها في  
خزانتها ، بعناية ، استعداداً للطوارئ ، مع الرداء الاسود الذي كان قد  
اشتراه لعمله في المسرح - وكان قد أصابه البلي بمعض الشيء - فلما  
انتهى أبي من زينتته ، تناول قبعته ، وهم أن يخرج ، الا أنه قبل أن يخرج  
طلب شيئاً يشربه • لقد كان ممتقع اللون ، ولم يستطع أن يظل واقفاً ،  
فارتقى على كرسي ، وأثيت له أنا بكأس من الماء • لعل شعور العداوة قد  
دب من جديد في قلب أمي ، فأخمد حماسها الاولي • ومضى أبي وبقينا  
وحدنا • ولطوت في أحد أركان الغرفة ، وأخذت أتأمل أمي مدة طويلة ،  
وأنا صامتة • لم أرها يوماً في مثل هذه الحالة : كانت شفاتها ترتجفان ،  
واحمر خذاها الشاحبان فجأة ، ورأيت جسمها يرتعد من حين الى حين •  
وأخيراً أخذ انفعالها يخرج آهات ، وكلاماً متقطعاً ، وشهقات صما •

- أنا المجرمة ، أنا وحدي المجرمة • ما أشقائي يا رباه ، ماذا  
ستصبح حين أموت !

قالت ذلك ، وهي واقفة في وسط الغرفة ، كأن صاعقة وقعت على  
رأسها حين فكرت في ذلك • ثم أردفت تقول ، وهي تضميني الى صدرها  
وتقبلني :

- نيتوتشكا ، صغيرتي البائسة ، من ذا الذي سيعني بأمرك بعد أن  
لم أحسن تربيتك ولا ملاحظتك في هذه الحياة التي نعيشها • آه • انك  
لا تفهمين • هل ستذكرين ما أقوله لك الآن ؟ نيتوتشكا ، قولي ، هل  
ستذكرينه ؟

فصرخت وأنا أضم يدي أحديهما الى الاخرى باشارة التوسل :

- نعم • نعم يا أماه ••

وضمتنى إليها فى قبلة طويلة ، قوية ، كأنما تعذبها فكرة الانفصال

• عنى •

شعرت كأن قلبى يتمزق •

وسألتها وأنا أبتلع دموعى :

- أماه ، أمى الحبيبة : لماذا •• لماذا •• لا تحيين أبى ؟

ولم يسمح لى الشهيقي بأن أتم كلامى •

وانطلقت من صدرها صرخة ، ثم استأنفت سيرها فى طول العرفة

وعرضها وقد أخذ حزنها الشديد بخناقها من جديد •

- صغيرتى ، صغيرتى المسكينة • رباه • لم ألاحظ أنها شبت من

دور الطفولة • انها تفهم الآن كل شىء ، كل شىء • رباه ! أى آثار

ستخلف فيها هذه المشاهدة ! وأية قدوة ترى !

ومرة أخرى ، ضربت كفا بكف ، علامة الألم واليأس • ثم عادت

الى وارتعت على ، تغمرنى بسيل من القبل • وأخذت تتناول يدى

وتقبلهما ، وتبللها بدموعها ، وتسالنى أن أصفح عنها ، وأن أغفر لها •

لم أر فى حياتى ألماً كهذا الألم • وبدت أخيراً منهوكة القوى ، فسقطت

فى نوع من الانهيار • وقضت على هذه الحال ساعة طويلة • ثم نهضت

محطمة ، وطلبت الى أن أمضى الى سريرى وأنا • فمضيت الى ركنى ،

وتدثرت بغطائى ، ولكنى لم أستطع أن أغفو • لقد كان يعذبنى التفكير

فيها ، والتفكير فى أبى • وكنت أنتظر عودة أبى بصبر نافذ يمازجه نوع

من الرعب • وبعد نصف ساعة تناولت أمى الشمعة واقتربت من سريرى



تريد أن تتأكد اننى قد غفوت • فأغمضت عيني تطمينا لها ، وتظاهرت  
بأننى غارقة فى سبات عميق • وبعد أن تأملتني بمض الوقت ، اقتربت من  
خزانتها سائرة على أطراف الأصابع ، ففتحتها وسكبت لنفسها قدحا من  
الخمير شربته ، ثم نامت ، تاركة الشمعة مشتعلة والباب مشقوقا ، على  
عادتها حين يعود أبى متأخرا •

كنت مستلقية على حال من الخدر ، مفتحة العينين رغم النعاس •  
كنت ما ان أغمض جفنى حتى تجتاحنى رؤى فظيمة ، فأنتفض مذعورة •  
وكان خوفى يشتد ويشند •

كنت أود لو أصرخ ، الا أن صوتى يخنق فى حلقي • وأخيرا ،  
فى ساعة متأخرة جدا من الليل ، سمعت أبى يدفع الباب • لقد كان  
شاحبا شحوبا فظيما • كان يهوم فى غرفتنا صمت الموت • وكانت الشمعة  
على وشك أن تذوب كلها ، وهى تضيء مسكنا بنور حزين •

نظرت الى أبى مدة طويلة ، وهو جالس على كرسيه مطرق الرأس ،  
مجهد اليدين على الركبتين فى سكون تام • حاولت عدة مرات أن أناديه ،  
الا اننى لم أستطع ، فكأننى مشلولة • وأخيرا ، تحول فجأة ، ورفع رأسه ،  
ونفض عن كرسيه ، وظل خلال لحظة من الوقت واقفا فى وسط  
الغرفة ، كأنه بسبيل اتخاذ قرار ما ، ثم تقدم بغثة من سرير أمى ، وانحنى  
عليها يتنصت ، فلما أيقن أنها نائمة ، اتجه نحو الصندوق الذى يرتاح  
فيه كمانه ، وفتحه ، وتناول العلبة السوداء ، ووضعها على الطاولة ، ثم  
نظر مرة أخرى حوله • كان ينظر دون أن يرى ، كانت عيناه فى  
اضطراب لم أعهد مثله فيهما من قبل •

وهمّ بتناول كمانه ، الا انه سرعان ما تركه ، وعاد الى الباب  
يقفله ، ثم لاحظ أن الخزانة مفتوحة ، فاتجه اليها بخطى كخطى الذئب ،

ورأى القدح ، فملاه خمرا وشربه • ثم عاد مرة ثانية الى كمانه ، فتناوله ،  
ليتركه من جديد ، ومضى الى سرير امي مرة اخرى • وقبعت انتظر  
ما سيقع ، وانا اشد ما اكون انهيارا ••

واصاخ السمع مدة طويلة جدا ، ثم رفع الغطاء فجأة عن وجه امي ،  
ومد اليه يده يجسه • ارتجفت • وازداد انخساؤه على رأس أمي حتى  
لامسه بوجهه • ولما نهض عنه رأيت ابتسامة صفراء رهية مرعبة تطوف  
في وجهه • ثم أرجع الغطاء على رأس النائمة وعلى قدميها المكشوفتين ،  
بهدوء ورفق وعناية • أخذت أرتعد ، وقد تضاعف خوفي وذعري :  
خفت من أمي ، من نومها العميق هذا العمق • خفت من الخطوط المتجمدة  
التي يرسمها جسمها تحت الغطاء • ودبت في نفسي فكرة فظيعة وقعت  
مني موقع الصاعقة •

ولما فرغ أبي من جميع أعمال التمهيد هذه ، عاد الى الخزانة ،  
وافرغ في جوفه باقى الزجاجة • كان يرتجف كورقة في مهب الريح ،  
حتى اذا عاد الى الطاولة كان من الشحوب بحيث لا يُعرف • وتنازل كمانه •  
لقد رايت هذه الالة من قبل ، وكنت أعرف فيم تستعمل ، ومع ذلك فقد  
كنت أتوقع أمرا رهيبا ، فظيما •• واتنفضت حين سمعت أول صوت •  
لقد أخذ أبي يعزف • الا أن الاصوات كانت تأتي متقطعة • كان يتوقف  
في كل لحظة ، كأنما هو يستجمع ذكرياته • وأخذ ينظر الى السرير  
نظرة غريبة • كان هناك ، على السرير ، شيء يزعجه • وعاد مرة أخرى  
الى السرير • وأخذت ألتهم بعيني كل حركة من حركاته ، وقد تملكني  
خوف لا اسم له !

وفجأة ، أخذت يدها تجسان النائمة ، بسرعة ، وراودتني الفكرة  
نفسها مرة أخرى كالصاعقة : لماذا تنام أمي نوما عميقا هذا العمق ؟ كيف  
لا تستيقظ على يدي أبي تجسانها هذا الجس ؟ وأخيرا رأيت أبي يجمع

كل الأشياء التي تقع تحت يديه : معطف أمى العتيق ، معطفه هو ، قميص نومه ، حتى الملابس التي خلعتها حين نمت ، ثم يضعها جميعا فوق أمى حتى اختفت تحتها تماما • وظلت أمى متمددة ، لم يخلج لها عضو !

لقد كانت تمام نوما عميقا •

وحين فرغ من ذلك ، أطلق آهة من يتخفف من عبء • الآن لن يزعجه أحد • ومع ذلك ما زال هناك شيء يقلقه • وغير مكان الشمعة • وجلس أمام الباب ، مديرا ظهره للسريز • وأخيرا تناول كمانه بحركة يائسة ، وأمست بقوسه ، وبدأت الموسيقى •

ان هذه الموسيقى لم تكن موسيقى •• ما زلت أتذكر كل شيء تذكرنا تماما ، حتى أبسط حركة • ما زلت أتذكر كل ما أسر انتباهي وقتئذ • كلا ، لم تكن تلك موسيقى شبيهة بما سمعت بعد ذلك من موسيقى •• لم تكن تلك أصوات كمان ، لقد كانت صراخا دوى فى منزلنا المظلم لأول مرة • من الممكن أن تكون حالتى المرضية وقتئذ قد ضخمت الأمور ، ومن الممكن أن تكون حواسى فى تلك اللحظة مضطربة مشوشة • الا أنني مقتنعة بأننى سمعت آهات وصرخات انسانية ، ونحيبا •• لقد كان يتفجر من هذه الأنغام ألم فظيع ، حتى اذا زمجرت نهاية اللحن ، بدت تلف كل شيء فى آن واحد : كل هول النحيب ، كل عذاب القلق ، كل الاحتضار اليائس •

ولم أستطع أن أتجلد أكثر مما تجلدت • فوثبت من مكاني مرتعدة • وقد أعرق الدمع وجهى ، فارتيمت على أبى ، وطوقته بذراعى ، وأنا أعول من الخوف • فأطلق أبى صرخة قوية ، ووضع كمانه على الارض • وكمن فقد صوابه ، أخذ يرسل نظراته التائهة الطائشة فى كل مكان باحشا عن

سلاح ما • ثم تناول كمانه فجأة ، وهمّ أن يهوى به على رأسى ••• ولو  
قد انقضت ثانية أخرى لهوى بالكمان على رأسى ، فحطمني فى مكانى •  
الا أننى صرخت متوسلة :

– بابا • بابا •

فتعرف صوتى ، وأخذ يرتجف كورقة ، وتراجع الى الورا •  
خطوتين •

ثم حملنى من كفى ، وقال :

– آ • أنت هنا • اذن لم ينته كل شىء • اذن سبتين معى •

فقلت متوسلة من جديد :

– أبت • أبت • لا تنظر الى هكذا • لو تعرف كم أنا خائفة !

آه ••

وأثرت فيه دموعى • فوضعتى برفق على الارض ، ونظر الى بضع  
نوان نظرة فاحصة تريد أن تعرف وأن تفهم • ثم كأن فكرة فظيعة راودته  
فجأة ، فتفجرت من عينيه المضطربتين دموع سخينة ، وانحنى على • وأخذ  
ينظر فى وجهى فاحصا • فكررت قائلة ، وأنا شبه مجنونة :

– بابا • بابا العزيز • لا تنظر الى هكذا • بابا ، لنذهب من هنا ،

لنذهب بسرعة • لنذهب •

– نعم • لنذهب • لنذهب • آن الأوان • لنذهب يا نيتوتشكا •

بسرعة ، بسرعة •

وتحرك حركة من فهم فجأة ما يقى عليه أن يملكه • فألتقى على  
الغرفة نظرة مستديرة ، ولح وشاح أمى ساقطا على الارض ، فرفعه ،

ووضعه فى جيبه ، ثم رأى قبعتها فحملها أيضا ، وخبأها تحت ثيابه ،  
كمسافر يجمع رحلة طويلة ، فيأخذ كل ما قد يحتاج اليه •

أما أنا ، فبعد أن ارتديت ثوبى بسرعة ، أخذت أجمع ما بدا لى  
ضروريا للرحلة • ثم سألتى أبى :

- هل انتهيت من أخذ كل ما يجب ؟ هل هذا كل شيء ؟ هل  
انتهيت من كل شيء ؟ اذن فلنذهب بسرعة •

وحزمت متاعى بسرعة ، ولفعت رأسى بوشاح • الا انى فى اللحظة  
التي أوشكت أن أخرج فيها ، تذكرت أن على أن أحمل اللوحة المعلقة  
على الحائط ، ووافق أبى على ذلك فورا • انه الآن هادىء ، يتكلم همساء  
ويردد أن علينا أن نمضى بسرعة • كانت اللوحة معلقة فى مكان عال جدا  
من الجدار • فتعاوننا معا على وضع كرسى أسندناه الى الحائط ووضعنا  
فوقه مقعدا صغيرا ، حتى استطعنا بفضل هذه السقالة وبفضل جهودنا  
المشتركة أن ننزل اللوحة من مكانها • وبعد ذلك لم يبق علينا الا أن نسير •  
وأمسك أبى بيدي ، الا انه استوقفنى حين أوشكنا أن نجتاز عتبة الغرفة •  
وحك جبينه مدة طويلة كمن يحاول أن يتذكر ما بقى عليه أن يعمله •  
وأخيرا وجد ما كان يبحث عنه : مضى الى سرير أمى ، فتناول من تحت  
مخدتها مفتاح الخزانة الصغيرة ، وراح ينبش فى هذه الخزانة على عجل ،  
ثم عاد يحمل الى بضعة دراهم وجدها فى قاع الدرج ، وقال لى مددما:  
- خذى هذا ، احتفظى به • لا تضيعيه • حذار أن تضيعيه •

وقد دس الدراهم ، أول الامر ، فى يدي ، الا انه غير بعد ذلك  
رأيه ، فاستردها منى ؟ ووضعها فى قميصى • ما زلت أتذكر الرعدة التي  
سرت فى جسمى حين شعرت ببرودة الدراهم على جسدى • أعتقد انى

فى تلك اللحظة انما أدركت قيمة المال • لقد اتهمت كل تحضيراتنا الآن •  
ومع ذلك استوقفنى أبى مرة أخرى •

قال وهو يستجمع أفكاره فى جهد :

– نيتوتشكا • اسمى يا بنتى الصغيرة • ولكن نسيت • ماذا ؟ ماذا  
يجب أيضا ؟ ها • نعم • نعم • تذكرت ، تعالى • هلمى يا نيتوتشكا •

وقادنى الى الركن الذى وضعت فيه الصور ، وأمرنى أن أركع •

– صلى يا بنتى • هذا أولى بك • هذا أولى بك • نعم هذا أولى

بك •

قال ذلك هامسا وهو يرينى الأيقونة ، ويلفنى بنظرة غريبة • ثم

أضاف بصوت متوسل :

– صلى • صلى •

فركعت ، وضممت يدى احديهما الى الاخرى ، ثم لم ألبث – وقد  
خنتنى الخوف – ان وقعت على الارض لا أعى ، وبقيت على هذه الحال  
بضع دقائق • ثم استجمعت قواى كلها ، ووجهت عاطفتى كلها الى الصلاة ،  
غير أن الخوف ظل أقوى من كل ذلك ، فنهضت وقد اجتاحنى حزن  
فظيع • وددت منذ تلك اللحظة أن لا أتبع أبى ، لقد كان يخيفنى ••  
وددت لو أبقى • ثم انفرجت شفقتى عن سبب عذابى الشديد فقلت وقد  
تفجر دمعى غزيرا :

– وماما ؟ ماذا بها ؟ أين هى •• أين ماما ؟

ولم أستطع أن أتم كلامى من شدة الانتحاب •

فلما رآنى أبكى ، أخذ يبكى هو الآخر •

ثم أمسك بيدي ، وقادني الى السرير ، فرفع كومة الملابس • ورفع  
الغطاء • رياه • انها ترقد ، باردة ، صفراء الوجه •• فارتيمت عليها  
كالجنونة ، لأطوقها بذراعي • وأمرني أبي أن أركع مرة أخرى ، وهو  
يقول هامسا :

— اتحنى يا بنتي ، قولى لها وداعا ••

انحنيت باحترام عميق ، وانحنى أبي في الوقت نفسه • لقد كان  
شاحبا شحوبا رهيبا ، وكانت شفاته تتحركان بهمس • قال وهو يشير الى  
الجثمان بيد مرتعشة :

— لست أنا ، يا نيتوتشكا ، لا ، لست أنا • هل تسمعين ؟

لست أنا الذي فعلت هذا • لست بمجرم • تذكرى هذا ، يا نيتوتشكا •  
دمدمت ، وقد بلغ بهي الذعر حدًا لم أعرفه من قبل :

— لنمض ، يا أبي ، آن الأوان ••

قال :

— نعم ، آن الأوان ، آن الأوان •

ثم أمسك ذراعي بقوة ، وقادني الى خارج الغرفة •

— هلمى يا نيتوتشكا • لقد انتهى كل شيء ، الحمد لله •

وهبطنا السلم ، واستيقظ البواب ، ففتح لنا الباب وهو ينظر الينا  
نظرة ارتياب • واجتاز أبي العتبة بسرعة كبيرة ، تحاشيا لأسئلته ، ولم  
أستطع أن ألق به الا بصعوبة • وبعد أن سرنا في الشارع حتى آخره ،  
وقفنا عند ضفة القناة • كان الثلج ، خلال الليل ، قد غطى أرض الشارع ،

وكانت خطاى ترتعد ؛ وكنت أركض وراء أبى منهوكة ، متعلقة بأذيال  
ردائه • كان يحمل كمانه تحت ابطه ، يتوقف فى كل لحظة ليرفعه ، وهو  
يوشك أن يسقط من الانزلاق •

مشينا هكذا قرابة ربع ساعة • وأخيرا هبط أبى على الرصيف  
المنحدر ، فلما وصل الى ضفة الماء ، جلس على حافته ، فكان الماء يهدر  
على خطوتين منا ، وليس حولنا أى مخلوق • ان الذعر الذى تملكنى فى  
تلك اللحظة سيقى منقوشا فى نفسى الى الأبد ! •• ان ما حلمت به خلال  
السنة الماضية قد تحقق • ها نحن قد هجرنا منزلنا الحقيق • ولكن أين  
هذا مما كنت أتوقه ، مما كنت آمله ، مما صورته لى خيال الطفلة ، من  
أجل سعادة هذا الانسان الذى كنت أحبه حبا عنيفا كل هذا العنف ،  
عميقا كل هذا العمق ؟ •• ثم ان ذكرى أمى كانت تلاحقنى ، فكنت  
أُتساءل : « لماذا تركناها هنالك وحدها ؟ لماذا تركنا جثمانها كما يترك  
نوى لا فائدة فيه ؟ » • كان هذا التفكير يعذبنى •

ولم أستطع أن أحتفظ لنفسى بهذه الأفكار التى تشغل بالى ، فناديت  
أبى :

— أبى • أبى الحبيب ••

— ماذا ؟ ( قال ذلك بلهجة صارمة ) •

— أبى الحبيب ، لماذا تركنا أمى هناك ، لماذا تركناها ؟ أبى الحبيب •

لنعد الى البيت ، فندعو أحدا يبقى الى جانبها !

فصرخ فجأة وهو ينهض مرتعدا ، كمن وافته فكرة تحل جميع

مشاكله :



- نعم يا نيتوتشكا • لا يمكن أن نفعل هكذا • يجب الرجوع الى جوار ماما • ان الجو بارد عليها هناك • اذهبي اليها يا نيتوتشكا ، اذهبي اليها • ليست الغرفة مظلمة • فهناك شمعة مشتعلة • لا تخافى • ادعى اليها أحدا ، وارجمى • اذهبي وحدك • انى منتظر • لن اتحرك من هذا المكان قبل أن ترجمى •

ومضيت فورا ، الا اننى لم أكد أصل الى الرصيف حتى شعرت كأن ضربة تصيب قلبى ، فالتفت الى الورا ، فاذا أنا أرى أبى يهرب فى الجهة الأخرى • لقد تركنى • تركنى فى لحظة كهذه ! • • فصرخت بكل قواى ، وأخذت أعدو وراءه عدوا سريعا ، وقد تملكنى خوف مبحون • • الا انه كان أسرع منى ركضاً فما لبث أن غاب عن بصرى ، وأنا ألهت مهدودة القوى خائفة • • ووجدت قبته فى الطريق • لقد سقطت عن رأسه وهو يركض • فحملت القبعة ، وتابعت عدوى • شعرت بأنفسى تنقطع ، وبساقى تترنحان تحتى • أحسست أن ما يقع لى الآن ليس أمرا طبيعيا ، وأنه لا بد أن يكون أضغاث أحلام • • ان ما أعانيه لشييه جدا بما يشعر به الحالم ، حين يريد الأفلات من شخص يلاحقه ، فتأبى أقدامه السير ، وينتهى به الامر الى الأغماء • كانت تمزقنى مشاعر فظيعة • كنت أشفق على أبى : كان صدرى يخفق اذ أتذكر أنه بلا معطف ، وبلا قبعة ، بعيدا عنى ، بعيدا عن طفلته الحبيبة • كنت أود أن أدركه ، حتى أستطيع أن أعاقه ، مرة واحدة على الأقل ، عناقا قويا ، وحتى أستطيع أن أقول له أن لا يخاف منى • • حتى أستطيع أن أطمئنه • • حتى أستطيع أن أؤكد له اننى لن أعدو وراءه اذا كان يريد ذلك ، واننى عائدة وحدى الى جانب أمى • ولمحته من بعيد يدخل فى أحد الشوارع • وحين دخلت فى هذا الشارع فى أعقابه كنت أراه أمامى • الا أن قواى خائتتى عندئذ فأخذت أجهش بالبكاء وأصرخ • وما زلت أذكر اننى ، أثناء ركضى ، اصطدمت

بشخصين ، وقفا فى وسط الرصيف ، وأخذنا ينظران إلينا ، أنا وأبى ،  
دهشين • وصرخت مرة أخيرة :

– بابا • بابا •

الا أن قدمى زلت على الرصيف ، فسقطت أمام عتبة أحد البيوت •  
وأحسست بالدم يسيل على وجهى •• ثم أغمى على ، فلم أشعر بعد ذلك  
بشئ ••



وحين فتحت عيني ، وجدتنى على سرير دافئ • جميل ، ورأيت الى  
جانبى وجوها لطيفة أفرحتها يقظتى • ورأيت سيدة مسنة على عينيها  
نظارتان ، وسيدا طويلا ينظر الى وقد ظهرت على وجهه امارات شفقة  
عميقة ، ورأيت امرأة شابة جميلة ، ورأيت كذلك عجوزا أشيب يمسك  
بيدى وهو ينظر فى ساعة • لقد بعثت الى حياة جديدة •

ان أحد الأشخاص الذين صادفتهم فى طريقى أثناء ركضى المسور  
كان هو الامير «ك» ، وقد سقطت على عتبة منزله • فقرر هذا الامير الذى  
أرسل الى أبى تذكرة حضور الحفلة التى أقامها الموسيقى «س» ، قرر  
– حين عرف من أنا ، بعد بحث طويل متعب – أن يسكننى فى بيته ، وأن  
يرينى مع أبنائه ، متأثرا من هذه المصادفة العجيبة •. وبحثوا عن المصير  
الذى آل إليه أبى ، فعرفوا أنه عُثر عليه فى ركن من أركان احدى  
الضواحي ، وهو فى نوبة هذيان شديد فقادوه الى أحد المستشفيات ، حيث  
مات بعد يومين •

الموت ! مثل هذه النهاية تشبحة طبيعية ، حتمية ، للحياة التى عاشها •  
كان لا بد أن يموت هكذا ، حين غاب عنه – فى طرفة عين ، كما يقبب

سراب مبهم فارغ - كل ما كان يشاهده الى الحياة .. حين تسدد أمله العظيم ، حين أدرك ادراكا واضحا باهرا انه قد خدع في حقيقة قيمته ، خلال حياته كلها . لقد تجلت له الحقيقة ساطعة تظهره على مدى ضلاله . لقد سمع ، فى ساعته الاخيرة ، عبقرية رائعة فتحت عينيه وأعلنت له أنه لا شيء ، فحكمت عليه هكذا بالموت .. حين سمع أبى اللحن الاخير الذى فجره « س » من أوتاره ، أدرك ما هو الفن الرائع ، الغنى دائما ، الصادق القوى أبدا ، وعرف ما هى العبقرية . ان كل ما كان يقلقه فى غياهب نفسه ، خلال حياته كلها ، كل ما لم يكن حتى هذه اللحظة الا رؤى غائمة وخيالات متهرية ، كل ما أوجسه فى بعض اللحظات ثم دفعه عن نفسه خائفا ، كل ما لفع به حياته من كذب عنيد ، كل ما كان يراه مقبلا ، ويخشى أن يراه ، كل ذلك بدا أمام عينيه الآن فجأة ، أمام عينيه اللتين كانتا تصران على أن لا تريا أن النور نور ، وأن الظلمات ظلمات . الا أن الحقيقة كانت أقوى من أن يحتملها نظره : انه مضطر ، لأول مرة ، أن ينظر الى الأمور ، على حقيقتها ، وجهها لوجه ؛ وأن يرى المصير الذى رسمه لنفسه . فلما رأى ذلك كله بلغ من الاضطراب حداً أفقده عقله ، لقد وقعت الحقيقة على عقله موقع الصاعقة .. على أن الحقيقة التى أدركها كان ينتظرها ، بالرغم منه ، خلال حياته كلها ، وهو يرتعد من الخوف . كأن فأسا كانت مسلطة على رأسه خلال حياته كلها ، فكان ينتظر الضربة القاضية فى كل لحظة ، وها هى ذى الضربة القاضية قد أتت ! نعم انها ضربة قاضية . كان يريد أن يهرب من محكمة ضميره ولكنه أصبح الآن لا يستطيع أن يجد ملجأ يهرب اليه . زال آخر أمل له ، وتبددت آخر حجة يمكن أن يتعلل بها .. ان تلك التى ضاق بوجودها ذرعا خلال مدة طويلة ، تلك التى كانت تسمم حياته ، والتى كان يعتقد أن من حقه أن

يتمنى موتها منقذا له ، قد مانت أخيرا .. ها هو ذا الآن حر ، لا يزعبه  
أحد ؛ وقد زالت عماوته ؛ وتملكه حزن مهلك . أراد أن يحكم على  
نفسه بقسوة لا ترحم ، بقسوة من يحكم حكما لا تحيز فيه . الا أن  
قوسه الضعيف لم يستطع أن يفعل شيئا غير أن يردد النغمات الاخيرة التي  
عزفها الموسيقى العبرى «س» .. !

لقد كان الجنون يتربص به منذ عشر سنين .. وها هو ذا الآن  
ينقض عليه بقتة !

## الفصل الرابع



استرد صحتي الا بعد مدة طويلة \* وحين  
استطعت أن أترك سريري نهائيا ، كانت ذاكرتي  
ما تزال من الوهن بحيث ظلمت مدة طويلة لأفهم  
ما صرت اليه \* كنت في بعض اللحظات أحسب

أنني في حلم ، وتمنت أن يكون كل ما وقع لي حلما من الأحلام \* كنت ،  
إذا جاء المساء ، وهمت أن أنام ، أمل أن أستيقظ فجأة فإذا أنا في مسكننا  
البائس ، بين أمي وأبي \* \* الا أنني أدركت شيئا فشيئا انني وحدي ،  
وانني أعيش عند غرباء \*

شعرت أخيرا انني يتيمة \*

وأخذت أتأمل ، في كثير من الشراة ، ما يحيط بي من أشياء  
جديدة على كل الجدة ، فبدأ لي كل شيء ، في أول الأمر ، غريبا عجيبا  
محيروا : هذه الوجوه الجديدة ، هذه العادات الجديدة ، هذه الحجرات  
الفخمة في قصر قديم من قصور الامراء \* ما زلت أرى هذه الحجرات

واسعة ، عالية ، مترفة ، وما زلت أراها كذلك حزينة ، كئيبة ، يتملكني  
الخوف حين أجتاز احداها ؛ وأشعر اننى لا بد ضائعة فيها . لم آكن قد  
شفيت تماما بعد . كان خوفى المستسر منسجما تمام الاسجرام مع هذا  
المسكن الحزين ، على روعته وجلاله . ثم ان حينا قويا غيفا كان ما يننى  
ينفذ عميقاً الى قلبى الفتى . كنت أتسمر خائفة أمام لوحة من اللوحات ،  
أو مرآة من المرايا ، أو مدفأة من المدافئ الأنيقة الصنع ، أو تمثال يخيل  
الى أنهم دفعوه خصيصا الى قاع ركن من الاركان ليحسن التحديق الى  
تخويها لى . كنت أتسمر ، ثم أنسى فجأة لم وقفت وماذا أريد ، وفيما  
أفكر ، حتى اذا عادت الى ذاكرتى رأيتنى من الخوف بحيث يخفق قلبى  
خفقانا عنيفا .

بين الذين كانوا يعودونى أيام كنت مريضة جدا ، فيما عدا الطبيب  
المعجوز ، كان هنالك شخص أثر وجهه فى نفسى تأثيرا كبيرا . كان وجهه  
رصينا وطيبا ، وكان ينظر الى فى كثير من الشفقة والمحبة . كنت أوثر  
وجهه على جميع الوجوه الاخرى ، وكنت أشعر برغبة قوية فى مخاطبته ،  
الا اننى لم أجرؤ على ذلك . كان يبدو دائما حزينا جدا ، وكان يتحدث  
قليل ، وبصوت منقطع ، دون أن تطوف فى شفتيه يوما أضعف ابتسامة .  
كان ذلك الشخص هو الامير «ك» نفسه ، الذى حملنى من الشارع  
وأسكننى فى بيته . كانت زيارته تقل شيئا فشيئا مع تقدمى فى مرحلة  
النقاهاة . وفى آخر مرة زارنى فيها حمل الى حلوى وكتاب صور . ثم  
قبلنى ، ورسم على إشارة الصليب ، وطلب منى أن أحاول المرح ، وأبأبى  
- على سبيل التشجيع - انه سيكون لى بعد قليل صديقة من سننى ، هى  
ابنته « كاتيا » التى كانت يومئذ فى موسكو . ثم التفت الى فرنسية متقدمة  
فى السن هى مربية أبنائه ، والى فتاة تعنى بشئونى ، فأوصاهما بشئ .  
يتعلق بى . ثم خرج ، ولم أره الا بعد ثلاثة أسابيع من تلك اللحظة .

كان الامير يعيش حياة خاصة ، فى عزلة تامة عن الناس • وكانت الاميرة تشغل نصف القصر ، وكانت هى نفسها ، خلال أسابيع طويلة ، لا ترى زوجها • ولاحظت بعد ذلك أن سكان هذا المنزل لا يتحدثون عن الامير كثيرا ، كانما هو غائب • الا أن كلا منهم كان يحترمه • ان المرء يشعر أنهم يحبونه ، ولكنهم يعدونه انسانا شادا بعض الشيء • وكانما كان يدرك هو نفسه انه ليس كثيره ، فكان لهذا السبب لا يظهر الا نادرا • (ولسوف اتحدث عنه تفصيلا فيما بعد ) •

وفى ذات صباح ، جاءونى بملابس داخلية بيضاء جميلة ثم بتوب من الصوف الاسود مزين ، اخذت ارمقه دهشة فلققة ، ثم أنزلونى ، بعد ان اتموا زينتى ، الى جناح الاميرة • طاش لى حين رأيتنى أمامها • لم يسبق لى فى حياتى أن رأيت نفسى فى جو مترف رائع الى هذا الحد • غير ان انشدهاى لم يدم طويلا • سمعت الاميرة تطلب الى أن اقترب ، وامتقع لونى • لقد قدرت ، وهم يلبسونى ، أنهم انما يهيئونى لامتحان خطير • لا أدرى كيف راودتنى فكرة كهذه ، على أننى كنت قد دخلت حياتى الجديدة وفى نفسى حذر غريب من كل من يحيطون بى • ولاطفتنى الاميرة كثيرا ، بل قبلتنى ، فتجاسرت عندئذ أن أنظر اليها • كانت هى السيدة الجميلة التى رأيتها واقفة الى سريرى حين أفقت من الاعماء • وارتعش جسمى كله وأنا أقبل يدها ، ولم أستطع أن أجد فى نفسى من القوة ما يكفى للإجابة على أسئلتها بشئ • وأجلستنى قريبا منها على مقعد صغير ، وكان هذا المكان قد أعد لى خصيصا • كان واضحا ان الاميرة كان يسعدها أن تحبنى حبا صادقا ، وأن تغمرنى بالقبل ، وأن تكون لى أما ، غير أننى لم أفهم هذه السعادة التى تهبط على ، فلم أحظ بتقدير الاميرة كثيرا • وأعطيت كتابا جميلا من صور ، أمرت أن أنظر

فيه ، بينما أخذت الاميرة تكتب ، وكانت تترك قلمها من حين الى حين ،  
لتحدثني ، فكنت أضطرب وأجيب اجابات طائشة •

والخلاصة : اننى تصرفت تصرف طفل تافه ، مذعور ، خائف ، بل  
غبي • وان غباوتى خاصة هى التى سامت الاميرة ، ولئن ضاقت بى ذرعا  
بعد مدة قصيرة ، فلا شك اننى مسئولة وحدى عن ذلك •

وفى نحو الساعة الثالثة بدأت الزيارات ، ولم تلبث الاميرة ان  
أصبحت أكثر عناية بى ، وأكثر رقة معى من ذى قبل • وأجابت على  
أسئلة الزوار عنى بأن قصتى قصة غريبة جداً ، ثم أخذت تتحدث بالفرنسية  
حالا • فكان الزائرون أثناء حديثها ينظرون الىّ وهم يهزون رموسهم ،  
ويطلقون من أفواههم صرخات التعجب • حتى ان شاباً من الحاضرين أدار  
نظارته ليحديق فى • وحاول عجوز أشيب أن يقبلنى • وكنت أنا أرتجف ،  
واصفر ، واحمر ، وظللت قابضة فى مكائى مطرقة ، لا أجرؤ على القيام  
بحركة • وكان قلبى منقبضاً يؤلمنى • أخذت أفكر فى منزلنا البائس ••  
فى أبى •• فى سهراتنا الطويلة الصامتة •• فى أمى •• فلما تذكرت  
أمى فاضت عينى بالدموع ، وانقبض حلقى ، ووددت لو أهرب ، لو  
أختفى ، لو أختبئ •• وما ان انتهت الزيارات حتى استعاد وجه الاميرة  
قسوته • فكانت لا تنظر الىّ نظرة رقيقة ، بل تخاطبني بخشونة • الا أن  
ما كان يرعبنى أكثر من ذلك انما هو شفها المشدودتان ، وعيناها  
السوداوان اللتان تحمقان فى أحيانا ، خلال ربع ساعة •

ولما أتى المساء ، أعادونى الى فوق • وعند منتصف الليل استيقظت  
محمومة ، وأخذت أبكى مذعورة من أحلامى المخيفة • وفى صباح اليوم  
التالى ، تكررت الحفلة نفسها ، وقادونى مرة أخرى الى جناح الاميرة •  
ولعل الاميرة قد ملت قص منامراتى لزوارها ، واستنفذ الزوار ، من



جهتهم ، اهتمامهم بى وعطفهم على • ثم اننى طفلة عادية جدا ، ليس فى  
شئ من « براءة الطفولة » ( هكذا قالت الاميرة ذات يوم لسيدة مسنة  
سالتها هل يمكن أن لا يزعجها وجودى ) •• وفى ذات مساء ، ارجعونى  
الى فوق مرة أخيرة ، ولم يقودونى بعد ذلك الى الاميرة قط • انتهى الامر •  
لم يبق لى من حظوة لديها • الا انه كان يسمح لى أن أطوف حيث اشاء  
من أرجاء البيت • ولما كنت لا أستطيع أن أستقر فى مكان ، لفسرط  
اضطرابى وقلقى ، فقد كنت أشعر أننى من أسعد الناس طرا حين كنت  
أستطيع ان أنزل فى الطابق الأدنى ، فى أعماق الحجرات الواسعة •  
وأذكر أننى شعرت برغبة قوية فى أن أكلم سكان البيت ، ولكنى كنت  
من خوفى أن أزعجهم أوثر تجنبهم • والذى كنت أحبه أكثر من كل  
شئ آخر هو أن أنطوى فى ركن من الاركان لا يرانى فيه أحد ، وراء  
قطعة من الاثاث مثلا ، غارقة فى ذكرى ما وقع لى • ولكن العجيب فى  
الأمر اننى كنت كأنما نسيت النهاية الفظيعة لما وقع فى بيت أبوى • كانت  
تخطر أمامى صور ووقائع •• والحق اننى كنت أتذكر كل شئ ، كنت  
أتذكر الليلة الاخيرة ، والكمان ، وأبى • كنت أتذكر كيف دبرت له  
المال •• أما التفكير فى هذه الاشياء ، أما تحليل هذه الاشياء ، فقد كنت  
عاجزة عنه كل العجز • لقد كانت هذه الذكريات تقبض صدرى ، وحين  
كنت أصل منها الى ذكرى أمى ، الى اللحظة التى ركعت فيها أمام جثمانها  
أصلى ، كانت تسرى فى ظهرى قشعريرة باردة كالثلج ، فأرتجف ،  
وأطلق صرخة ضعيفة ، وتختنق أنفاسى ؛ ويبلغ انقباض صدرى ، وخفقان  
قلبى ، وذعرى ، حدا لا يسعنى معه الا أن أهرب من مخبئى •

لقد أسأت التعبير حين قلت انهم كانوا يتركوننى وحدى ، فالحق  
أنهم كانوا يراقبوننى مراقبة دقيقة ، دون أن يظهر عليهم ذلك • لقد

كانوا ينفذون فى هذا وصايا الامير ، الذى أمر أن لا يزعبونى فى شىء  
وأمر مع ذلك ان لا أعيب عن بصرهم دقيقة واحدة . . فكنت ، من حين  
الى حين ، أرى أحد سكان البيت أو احد الخدم ، يلقي نظرة على العرفه  
التي آكون فيها ، ثم ينسحب دون أن يقول كلمة واحدة . ولقد أدهشنى  
هذا الاتباه وأقلقنى ، ولم أستطع ان أفهم له سببا ، كنت أعتقد انهم  
يراقبونى لقصد خفى مبيت ، يريدون أن يصنعوا بى شيئا فيما بعد ،  
لذلك كنت أجهد أن أكتشف فى المنزل ركنا مخبأ أخفى فيه عند  
الضرورة . وفى ذات مرة غامرت فصعدت السلم الكبير . انه سلم واسع  
من رخام فرش بالسجاد ، وزين بالازهار ، وبروائح الخزف . وفى نهاية  
كل طبقة منه جلس حارسان طويلان ، يرتديان ثيابا موشاة وقفازات  
بيضاء ، وربطة عنق ناصعة البياض . نظرت اليهما قلقة ، ولم أستطع أن  
أفهم لم يجلسان هنالك ، ينظر أحدهما الى الآخر ، دون أن يقول شيئا ،  
ودون أن يعمل شيئا !

وكنت أزداد سرورا ، يوما بعد يوم ، بهذا الطواف وحدى . ثم  
ان هناك سببا آخر كان يحدونى الى الهرب من الطابق الأعلى . كانت  
تعيش هنالك عمه للاميرة عجوز ، انقطعت عن الخروج ، ولا تقابل أحدا .  
لقد تركت هذه المرأة العجوز فى نفسى أثرا واضحا جدا . وشعرت أنها  
ان لم تكن أهم شخصيات المنزل ، فهى قريبة من ذلك . كان جميع من فى  
الدار يخضعون فى صلاتهم بها لمراسم فخمة ، بل ان الاميرة نفسها ،  
ذات النظرة الشامخة الأمرة ، كانت مضطرة أن تصعد فى زيارة خاصة  
لعمتها مرتين فى الاسبوع ، فى يومين معينين . كانت تزورها عادة فى  
الصباح ، فيدور بين السيدتين حديث رصين كثيرا ما تقطعه فقرات من  
الصمت ، تملؤها العجوز بدمدمة صلواتها ، أو عد أورادها على سبحتها .  
وكانت الزيارات تطول أو تقصر وفقا لمشيئة العمه ، اذ كانت العمه ،

تنهض فجأة ، فتقبل الاميرة على شفيتها ، مشيرة بذلك الى أن الزيارة قد انتهت . ولقد كان على الاميرة فى أول الأمر ، أن تزور عمتهما مرة كل يوم ، الا أن هذه المراسم قد تراخت بعد ذلك بموافقة السيدة العجوز ، وصار يكتفى من الاميرة أن ترسل أحدا فى كل صباح يستفسر عن أبناء العممة . ثم ان العممة ، وقد طعنت فى السن كثيرا ، كانت تعيش منزوية . لقد كانت عذراء . وقد أرادت فى الخامسة والثلاثين من عمرها أن تدخل الدير ، الا أنها بعد أن قضت فيه سبعة عشر عاما دون أن تقطع عهد الترهيب ، تركت الدير وعادت الى موسكو . أرادت أن تعيش هنالك مع أختها ، أرملة الكونت «ل» ، التى كانت صحتها تسوء سنة بعد سنة . وأن تتصالح مع أختها الأخرى ، الاميرة «ك» ، بعد خصومة بينهما دامت عشرين عاما على أقل تقدير : الا أن هاته المجازر لم يستطعن ، فيما يقال ، أن يتفاهمن يوما واحدا ، وأردن ألف مرة أن ينفصلن دون أن ينفذن ذلك ، اذ كن فى كل مرة يشعرن فى آخر لحظة بحاجة بعضهن الى بعض ، لدفع الملل ومزعجات الشيخوخة . ورغم أن حياتهن المائلية هذه لم تكن جميلة ، ورغم الضجر الوقور الذى كان يخيم على مسكنهن النسوى بموسكو ، فقد كان المجتمع الراقى كله فى المدينة يشعر بأنه مضطر الى زيارة المنزويات الثلاث . كان الناس يعتبرونهن حارسات التقاليد الارستقراطية كلها ، ويرون فيهن الصورة الحية للنبالة القديمة . كانت الكونتة امرأة ممتازة ، خلّفت كثيرا من الذكريات الجميلة . كان جميع الذين يصلون من بطرسبرج يُخصون السيدات بأولى زياراتهم . وكان جميع الذين يستقبلون فى منزلهن يستقبلون بعد ذلك فى كل مكان . الا أن الأختين انفصلتا ، بعد موت الكونتة . أما الاميرة «ك» ، وهى الكبرى ، فقد بقيت فى موسكو ، لكى تصفى حساب نصيبها من تركة الكونتة التى توفيت عن غير ولد . وأما الصغرى ، المترهبة ، فقد مضت

الى بطرسبرج تقيم عند ابن أخيها ، الامير «ك» • وبسبب هذا الحداد ،  
يقيم ولدا الأمير ، كاتيا والكسندر ، عند عمتهما الكبيرة بوسكو ، يواسيانها  
فى وحدتها • ورغم أن الاميرة كانت تحب ولديها جبا هائما ، فانها لم  
تسمح لنفسها بأن تعترض على انفصالهما عنها طوال مدة الحداد • نسيت  
أن أقول ان الحداد كان ما يزال قائما يوم دخلت منزل الامير ، الا انه كان  
مشرفا على الانتهاء •

وكانت الاميرة المعجوز ترتدى دائما ثوبا من صوف أسود تزينه  
ياقة صغيرة بيضاء تضى عليها حقا هيئة راهبة • ولم تكن تترك سبحتها،  
وكانت تضى الى الصلاة فى كثير من الفخامة والجلال ، وتصوم كل  
يوم ، وتستقبل رجالا من أهل الوقار ، وسدنة الكنيسة ، وتقرأ الكتب  
المقدسة ، أى كانت على الجملة تعيش حقا حياة رهبنة • وكان الصمت  
فى الطابق الأعلى رهيبا • كان لا يمكن أن يسمع فيه صرير باب يفتح  
أو أى صوت آخر ضئيل دون أن ترسل الأنسة المعجوز أحد الخدم  
تسأل عن سبب هذه الضجة ( كانت أذنها مرفعة السمع كأذن صبية فى  
الخامسة عشرة ! ) • وكان الجميع يتحدثون هنالك همسا ، ويمشون على  
رؤوس الاصابع • وحتى الفرنسية المسكينة اضطرت ، رغم سنها ، أن  
تتنازل عن حدائها المفضل ، ذى الكعب : ان الاحذية ذات الكعب ممنوعة  
فى الطابق العلوى • وقد أرسلت الاميرة ، بعد دخولى البيت بأسبوعين ،  
تسأل عن أمرى : من أنا ؟ وما وجودى فى البيت ؟ النخ • • فأسرعوا فى  
الاجابة على سؤالها باحترام عظيم • عندئذ أرسلت تسأل الفرنسية مرة  
أخرى عن السبب فى انها لم ترى بعد • فأدى ذلك الى حركة كبيرة فى  
البيت : أخذوا يسرحون شعرى ، ويفسلون وجهى ويدي ، دون ما داع  
الى ذلك ، ويعلمونى كيف أمشى ، وكيف أقدم لها احترامى واجلالى ؛  
وأوصونى بأن أكون ألطف وأرق ، وكالوا لى كل أنواع التآئيب

والتقريع • ثم أرسلوا رسولا يسأل الاميرة العجوز هل تود أن ترى  
الييمة • فقيل للرسول كلا ، وأمر بأن أحضر اليها فى الند بعد الصلاة •  
لم يغمض لى جفن طوال الليلة كلها ، وقيل لى فيما بعد اننى هذيت •  
كنت أرانى أصلى بلا انقطاع ، أمام السيدة ، استرحم عفوها وأتمس  
غفرانها !

وأخيرا ، جاءت لحظة المثل بين يديها • • فرأيتنى أمام عجوز نحيلة  
قصيرة ، غارقة فى مقعد كبير • أشارت الىّ أن أتقدم ، ووضعت نظارتها  
على عينيها ، لترانى من كتب • أذكر أننى لم أفز باعجابها أبدا • وتفضلت  
فقال اننى متوحشة حقا ، لا أعرف كيف أركع ولا كيف أقبل اليد •  
وانهالت علىّ بأسئلتها ، فكنت لأؤكد أجيب ، حتى اذا سألتنى عن أبوى ،  
انفجرت باكية • وساء السيدة العجوز أن ترانى حساسة الى هذا الحد •  
وظنت مع ذلك أنها تواسينى اذ أمرتى أن أفوض أمرى الى الله ، وأن  
أضع أملى فيه • ثم سألتنى عن آخر مرة ذهبت فيها الى الكنيسة ، فلما لم  
أكد أعرف ما معنى هذا ، لأن تربيتى الدينية كانت مهملة جدا ، ظهر  
على العجوز امتعاض لا يوصف • واستدعيت الاميرة الشابة ، وعقد  
اجتماع قرروا فيه أن يقودونى الى الكنيسة فى يوم الاحد القادم ، وتمهدت  
الاميرة العجوز بأن تدعو لى فى صلواتها • الا أنها أمرت فى الوقت نفسه  
بأن أنصرف ، لأن رؤيتى ، فيما قالت ، تؤلمها كثيرا • لم أر فى كل هذا  
شيئا خارقا ، وأنا فيما أنا فيه • الا أن الشيء المحقق الذى لا ريب فيه  
هو أنها كرهتني جدا • وفى هذا اليوم نفسه أرسلت تقول اننى أكثر من  
الحركة ، وان حركتى مسموعة من أول البيت الى آخره ، مع اننى فى  
الواقع ظلت طيلة اليوم تابعة فى مكائى لم أتحرك • لقد خلقت السيدة  
العجوز هذه الفكرة من خيالها ، وثبت ذلك فى اليوم التالى حين أرسلت  
تبدى هذه الملاحظة عينها • الا اننى فى ذلك اليوم نفسه سقط من يدي

فنجان ، فتحطم على الارض ، فذعرت الفرنسية وجميع الوصيفات ذعرا شديدا ، وأقصيننى فورا الى أبعد غرفة ، ولحقن بى مذعورتين ذعرا هائلا •

لا أتذكر الآن كيف انتهت هذه القضية • ولكننى سعدت جدا بالنزول الى الحجرات الكبيرة السفلى ، والطواف فيها وحدى ، مطمئنة الى أننى لا أزعج أحدا •

وفى ذات مرة ، كنت جالسة فى احدى هذه الحجرات السفلى ، مطرقة الرأس ، مسندة وجهى الى يدى ، منذ ساعات ، أفكر ، وأفكر • لم يكن عقلى من النضج ولا من القوة بحيث أستطيع أن أعرف حزنى ، الذى كان مع ذلك يزداد حتى ليخفقنى خنقا • وفجأة سمعت صوتا رقيقا ينبعث أمامى :

ـ ما بك ، أيتها الصغيرة المسكينة ؟

كان ذلك الصوت هو صوت الامير • وكان وجهه يعبر عن رحمة عميقة • فلما رفعت اليه بصرى ، ولمح فى نظرتى الهلاك والبؤس ، تفرقت فى عينيه الزرقاوين دمعة •

قال وهو يداعب رأسى :

ـ مسكينة أيتها اليتيمة !

فصرخت وأنا أشهق :

ـ كلا • كلا • كلا • لست يتيمة •

ونهدت ، ووثبت اليه فأمسكت بيده ، وأخذت أغرقها بالقبل والدموع ، وأنا أقول :

ـ كلا • كلا • لست يتيمة •

ـ ولكن ماذا بك ؟ ماذا بك يا عزيزتى الصغيرة ؟ يانيتوتشكا

المسكينة ؟ ماذا بك ؟

صرخت وقد ازداد شهيقى :

- أين أمى ؟ أين أمى ؟

ولم أستطع أن أخفى حزنى ، فهويت على ركبتيه ، وأنا أقول :

- أين أمى ؟ قل لى أين هى !

- سامحيني يا صغيرتى ! آه . يا بنيتى المسكينة . . فيها اذن كنت

تفكرين . . ماذا صنعت ! تعالى معى ، يا نيتوتشكا ، اسرعى .

وأسك ييدى ، وجرنى بخطى سريعة . كان متأثرا الى أعماق

نفسه . ودخل بى أخيرا فى غرفة لم أكن أعرفها بعد .

كانت تلك الغرفة هى غرفة المصلى . انها مظلمة ، فيما عدا القناديل

الصغيرة تنعكس أضواؤها الخفيفة على الاطر المذهبة ، وعلى الاحجار

الكريمة فى الايقونات . وكان القديسون ، من قلب الاطر اللامعة ،

ينظرون الى فى غموض . لا شىء فى هذا المكان يشبه الحجرات الأخرى .

ان جوها جو سرى ، وقور ، حتى ان نفسى تملكها شعور قريب من

الخوف . وهذا ، على كل حال ، أمر طبيعى فى الحالة الصحية التى كنت

فيها . وبادر الامير فأركننى أمام صورة للعذراء ، وركع هو الى جانبي ،

وهو يقول بصوت ناعم متهدج :

- صلى ، يا صغيرتى ، صلى ، سنصلى معا .

ولكن لم يسعبنى أى دعاء . كنت منغلة جدا ، خائفة جدا كذلك .

تذكرت كلمات أبى ، فى تلك الليلة الاخيرة ، أمام جنمان أمى ، وانتابتنى

أخيرا نوبة عصبية . ورجعت الى السرير مريضة . وكدت أموت أثناء

هذه النكسة . واليكم كيف جرت الامور :

فى ذات صباح قرع سمعى اسم معروف هو اسم «س» ، لفظه أحد الى جانب سريرى ، فارتعدت • وهاجمتنى الذكريات تترى ، وقضيت ساعات من الهذيان أبحث فى ذاكرتى ، وأحلم ، وأتعذب • وحين استيقظت ، بعد مدة طويلة ، كان الظلام يخيم فى الغرفة • كان القنديل قد انطفأ ، وكانت الحاديات قد مضين ، مع أن العادة أن يبقين الى جانبي • وفجأة سمعت أصوات موسيقى آتية من بعيد • كانت هذه الاصوات تخف أحيانا حتى لا تسمع ، وتدوى أحيانا أخرى كأنها تأتي الى • لا أدري أى شعور اجتاحتني فى تلك اللحظة ، ولا أفهم هذا القرار الذى انبجس فى دماغى المريض على حين غرة : رأيتنى أنهض من سريرى ، وأرتدى ثوبى الاسود ، ثوب الحداد ، بسرعة ، دون أن أملك القوة لذلك ، ثم أترك الغرفة وأنا أتحسس طريقي • لم ألق أحدا ، لا فى الغرفة المجاورة ، ولا فى الغرفة التى دخلتها بعد ذلك • ووجدتنى أخيرا فى الممر • اقتربت الاصوات • فى وسط الدهليز كان يقع السلم الذى اعتدت أن أهبط عليه الى القاعات الكبيرة • ان الأنوار تتلألا فيه ساطعة • وسمعت وقع أقدام فى أسفل ، فلطوت فى ركن حتى أرى • ولم أدخل فى الدهليز الا حين اعتقدت أن أحدا لن يرانى • كانت الموسيقى تنبعث من حجرة مجاورة • وكانت ضجة الاصوات هنالك تنبئ بوجود عدد من الناس كبير • كان أحد أبواب القاعة ، وهو الباب المطل على الدهليز ، مغطى بستار مزدوج من مخمل قرمزى • رفعت أحد ذيول الستار الاول ، واختبأت وراءه • كان قلبى يخفق خفقانا قويا ، وكنت لا أكاد أقوى على الوقوف على قدمي • غير اننى استطعت ، بعد بضع دقائق ، أن أملك زمام انفعالى ، وجازفت فرفقت ذيل الستار الثانى • يا الهى ! تلك القاعة الواسعة المظلمة التى كنت أخاف أن أدخلها ، تسطع الآن بألوف المصابيح ! بحر من النور أغرقتنى • وعشيت عيناي من شدة النور ، فقد تمودتا على الضوء الخفيف •



وهب على وجهى هواء عطر ، دافىء • كان الناس فى داخل الحجرة  
يذهبون ويحيئون ، وكان الفرح باديا فى وجوههم جميعا • والنساء  
يرتدين أثوابا ناصعة مترفة • لم أر الا نظرات مشرقة بالسرور • وتجمدت  
فى مكاني من فرط الدهشة • كان يبدو لى مع ذلك أن قد سبقت لى رؤية  
هذا كله ، فى مكان ما ، فى الحلم • • وتراعى لى بيتنا الحقيق ، عند  
المساء ، والنافذة العالية ، والشارع العميق يفوانيسه المتلاثلة ، والنوافذ  
المقابلة يستأثرها الحمر ، والعربات المصطفة أمام درجات الباب ، والخيول  
الشامخة تكدف وتسهل ، والطيوف على النوافذ • • وسمعت صراخا ،  
وضوضاء ، والموسيقى خافتة لبعدها • قلت فى نفسى : « آه • هذه هى  
الجنة • هنا الجنة اذن • هذا هو المكان الذى كنت أريد أن أمضى اليه مع  
أبى المسكين • لم يكن ذلك حلما • • لقد رأيته هكذا تماما ، فى الماضى ،  
فى خيالى ، فى أضغاثى • • وازدادت نفسى التهابا ، على التهابها بحمى  
المرض • • وتفجرت من عيني دموع حماسة لا توصف • • وطفقت أبحث  
بنظري عن أبى • قلت فى نفسى ، وقد وثب قلبى ، وتقطعت أنفاسى :  
« لا بد أن أبى هنا • • انه هنا حتما • • وفجأة سكنت الموسيقى ، وماجت  
القاعة • وسمعت همسا من كل صوب • وأخذت أهدق فى كل الوجوه  
التي كانت تمر أمامى ، جاهدة أن أعرف أحدا • وفجأة اجتاح القاعة  
اضطراب شديد جدا • فلمحت على المنبر شيخا نحىلا طويلا يمسك بكمان •  
كان وجهه الشاحب يتسهم ، وكان ينحنى الى جميع الجهات فى تحية  
لطيفة • وعاد الصمت • انه صمت عميق ، حتى لكأن الناس قد حبسوا  
أنفاسهم • كل واحد ينظر الى الشيخ ، كل واحد ينتظر • تناول الشيخ  
كمانه ، وهز الأوتار بقوسه • بدأت الموسيقى • ولكنى لم ألبث أن شمرت  
بأبنى أختنق • ان هذه الاصوات تزيد اضطرابى الى حد لا يوصف •  
أصبحت لا أستطيع أن أتنفس • اننى أعرف هذه الاصوات • لقد سمعتها

من قبل • ان فيها انذارا ، انذارا بشئ رهيب ، غريب ، يتضح الآن في  
أعماق نفسى • وانطلقت الاصوات أسرع وأعنف • ثم جاءت الآهات  
والزفرات وشهقات النحيب • انها صلاة تهوى الى اليأس •

كان كل ذلك يصبح مألوفاً لدى أكثر فأكثر • الا أن قلبى كان  
يأبى أن يصدق • وشدت أسناني بعضها الى بعض حتى لا أعول من  
الالم ، وتمسكت بالباب حتى لا أقع • وكنت فى بعض الاحيان أععض  
عيني ثم أفتحهما ، أمله اننى سأخرج من حلم لأجد نفسى فى منزلنا ،  
حيث سمعت هذه الموسيقى ، فى تلك الليلة الفظيعة • وكنت اذا فتحت  
عيني ، أهدق فى الجمهور لأتيقن • كلا • هؤلاء أناس آخرون ، هذه  
وجوه أخرى • وبدا لى أن كل واحد من الجمهور ينتظر - مثلى -  
حدثا ، وانهم جميعا ، مثلى ، غارقون فى غم عميق • بدا لى انهم جميعا  
يودون لو يصرخون مع هذه الآهات ، وهذه الأناث ، ليخففوا العبء عن  
نفوسهم • الا ان الآهات والأناث تزداد حدة ، وألما ، وعمقا • وفجأة ،  
انفجر الصوت الاخير ، صرخة طويلة ملحة ، فاتفقت • لم يبق من  
شك • انها تلك الصرخة عينها • اننى أعرفها • لقد سمعتها • هى الصرخة  
التي صعقتنى فى تلك الليلة • ومر برأسى خاطر كالبرق : « بابا • بابا •  
انه هنا • هو الذى يدعونى • وهذا كمانه ! » • وأطلق الجمهور زفرة  
طويلة واسعة • وانطلق التصفيق محموما يهز القاعة هزا • وانشق  
صدرى عن شهقة قوية صارخة • لم أطق أن أحبس نفسى ، فرفت  
الستار ، وانطلقت فى الصالة مسرعة ، وأنا أصرخ :

- بابا • بابا • أهذا أنت ؟ أين أنت ؟

لا أدرى كيف وصلت الى الشيخ الطويل • لقد تركونى أمر ،  
وأنسحوا الطريق أمامى • وارتيمت عليه بصرخة هائلة • كنت أعتقد

اننى أقبل أبى • وفجأة شعرت بيدين نحيلتين طويلتين تمسكان بى •  
ورأيت عينين سوداوين تحدقان فى عيني ، كأنهما تحرقانى بلهيهما •  
نظرت الى الشيخ ، فاذا بى أقول فى نفسى فجأة : « كلا • ليس هذا  
بابا • هذا قاتله ! » وتملكتنى حميا هائلة • وخيل الى أننى أسمع ضحكا  
فوق رأسى ، وان هذا الضحك يترجع فى القاعة كلها • ثم لم أشعر  
بشيء • ! •

## الفصل الخامس



تلك نكسنى الثانية والاخيرة •  
حين فتحت عيني رأيت وجه طفلة منحنية على ،  
وجه صبية فى سنى ، فما ان رأيتها حتى مددت  
لها ذراعى • منذ أول نظرة شاعت فى نفسى كلها  
عاطفة رقيقة فرحة • تصور وجه طفلة هى فى الجمال آية • جمال مشرق  
يأسر البصر • وجه من تلك الوجوه التى تفعل أمامها اعجابا ، من تلك  
الوجوه التى اذا رأيتها وقفت مشدوها لا تستطيع حراكا من فرط افتنائك •  
ذلك هو وجه « كاتيا » ابنة الامير التى عادت من موسكو • فلما مددت اليها  
ذراعى طافت على نقرها ابتسامة ، فشعرت بارتياح كبير ينفذ الى أعماق  
• كيانى

ونادت الاميرة الصغيرة أباه ، وكان على بعد خطوتين يتحدث مع  
• الطبيب

قال ، وقد أمسك يدي ، وأشرق وجهه اشراق الفرح الصادق :

— الحمد لله !

ثم أردف يقول بكلمات سريعة ، على عادته :

- اننى سعيد ، سعيد جدا ، جدا . هذه كاتيا ابنتى . لتعرف كل منكما الى الاخرى . هل ترين ؟ ستكون هذه صديقتك ! هيا استميدى صحتك بسرعة ، يا نيتوتشكا ، أيتها الصغيرة الشيطانة التى أخافتى كل ذلك الخوف !

تحسنت صحتى بسرعة كبيرة . وما انقضت أيام قليلة حتى استطعت أن أنهض . وكانت كاتيا تأتى الى قرب سريرى ، كل صباح ، باسمه مرحه . كان الضحك لا يستطيع أن يهجر ثمرها . وكان ظهورها هو السعادة عينها لى . آه ! كم وددت لو أقبلها . الا أن هذه الشيطانة الصغيرة لم تكن تبقى أكثر من دقائق . انها لا تستطيع أن تستقر فى مكان . لا بد أن تتحرك ، أن تركض ، أن تثب ، أن تحدث صخبا ، أن ترجع الاصداء فى البيت كله . كان ذلك حاجة لها ملحة . لذلك أوضحت لى منذ زيارتها الأولى أنها لا شىء يزعجها كالجلوس الى جانب سريرى ، وانها لهذا لن تأتى الا نادرا ، وانها ستأتى مع ذلك لأنها تشعر بحوى بالشفقة ، واننى سأرى ، على كل حال ، حين أبل من مرضى ، اننا سنتفاهم تفاهما أعمق وأكمل . كانت الكلمة الاولى التى توجهها الى كل صباح هى هذا السؤال السريع :

- هيه ؟ شفيت ؟

ولما كنت شاحبة نحيلة رغم كل شىء ، وكانت الابتسامة لا تجد سبيلها الى وجهى الحزين الا بصعوبة ، فسرعان ما كانت الاميرة تقطب حاجبيها ، وتهز رأسها ، وتضرب الارض بقدميها ، مستاءة مقناظة .

- غريب • مع اننى قلت لك بالامس أن تبلى من مرضك • فلماذا لم تشفى ؟ لعلهم لا يطعمونك كثيرا ؟

فأجبت أجاريتها ، لأننى كنت أشعر أمامها بخجل شديد :

- كلا • لا يطعمونى كثيرا •

لم يكن بى الا رغبة واحدة ، هى أن أفوز برضاها • لذلك كنت أخشى كل كلمة ، وكل حركة • • وكان افتتاني بوصولها يزداد قوة وعنفا ، يوما بعد يوم • فاذا جاءت لم يفارقها نظرى لحظة ، بل لقد كان ينفق لى - حين تمضى الى سبيلها - أن أظل أتأمل الجهة التى غابت فيها ، مشدوهة مفتونة ! • • كنت أثناء غيابها أتحدث اليها طويلا ، أتصور أنها صديقى ، فألعب معها وأخاطبها ، ونبكى معا اذا أبنا أحد على خطيئة ما • الخلاصة : كنت أحلم بها حلم العاشق بممشوقه • وكنت أرغب رغبة جنونية فى أن أعافى وأن أسمن بأقصى سرعة ممكنة ، عملا بنصيحتها ونزولا على أمرها • •

حين كانت كاتيا تصل عند الصباح لتصرخ قبل كل شئ : « مازلت مريضة ؟ ما زلت نحيلة ؟ » كنت أرتاع كأننى مجرمة • كانت كاتيا تسمر بدهشة صادقة حين ترى أن يوما كاملا من أربع وعشرين ساعة لم يكن كافيا لشغائى • • حتى لقد انفجرت غاضبة أخيرا :

- هل تريدان أن آتيك ببطيرة ؟ ستأكلينها ، فشمئنى بسرعة !

أجبت ، وقد ملأنى سرورا أنها ستعود مرة ثانية :

- نعم • هاتى •

وكانت الاميرة الصغيرة بعد أن تسألني عن صحتي ، تجلس الى جانبي وتأخذ تحديق فيّ بعينيها السوداوين • وفي أول الأمر كانت تفحصني هكذا في كل لحظة ، من أخمص القدم الى قمة الرأس ، وقد بدت على وجهها دهشة ساذجة • الا أن حديثنا لم يكن يجرى متصلا هينا • فقد كنت أظل وجلة وجلة خجلة ، وكنت رغم تحرقى شوقا الى التحدث معها ، أخاف تأنيبها • • فكانت بعد فترة من الصمت ، تبادرنى قائلة :

- لماذا لا تقولين شيئا ؟

فأجيب ، سعيدة جدا بوجود عبارة يمكن دائما أن يُبدأ بها الحديث:

- وأبوك ، كيف حاله ؟

- حاله حسنة • شربت اليوم فنجانين من الشاي بدلا من فنجان

واحد • وأنت ؟

- فنجاناً واحداً •

ويعود الصمت •

- اليوم أراد « فالستاف » أن يعضني •

- أهو كلب ؟

- نعم • كلب • • أما رأيته ؟؟

- بلى • رأيته ؟

- اذن لماذا تسألين هل هو كلب ؟

ولا أعرف بم أجيب ، فتنظر الى الاميرة الصغيرة دهشة :

- قولى هل تسرين حين أكلمك ؟

- جدا • أكرى معيئك !

- قالوا لى ان مجيئى يسرك • ولكن غادرى فراشك بسرعة •  
سآتلك اليوم بقطيرة • هذا وعد أكيد • ولكن ماذا بك حتى تصمتى  
هكذا ؟

- لا أعرف •

- ألا تنقطعين عن التفكير ؟

- أفكر فى أشياء كثيرة •

- أما أنا فيقولون عنى اننى أتكلم كثيرا ولا أفكر فى شىء • هل  
الكلام اساءة ؟

- أبدا • أبدا • اننى أسر حين تتكلمين •

- يجب أن نسأل عن هذا مدام ليوتار • انها تعرف كل شىء • ولكن  
فيم تفكرين ؟

قلت بعد صمت :

- فيك أنت •

- هل يسرك هذا ؟

- نعم •

- اذن فأنت تحيئنى !

- نعم •

- أما أنا فلا أجهك بعد • انك بحيلة جدا • انتظرى ، سآتلك  
بقطيرة • الى اللقاء • الى اللقاء •

وبعد أن قبلتى الاميرة الصغيرة ، تقيلا خاطفا ، غابت عن الغرفة •



ومع ذلك فقد أتتني بعد الغداء بالفطيرة التي وعدتني بها • جاءت  
الى كالمجنونة ، تضحك من شدة الفرح ، لأنها تطعمنى طعاما منع عنى •  
- كلى • انه طعامى احتفظت به لك • والآن الى اللقاء •

وغابت بمثل السرعة التي أتت بها !

وفى مرة أخرى ، وثبت الى جانبي ، فى ساعة غير منتظرة أيضا ،  
بعد الغداء • كان شعرها منفوشا ، وخداها محمرين ، وعيناها تضيئان •  
ببريق قوى • لا شك أنها كانت تركزض وتقفز منذ ساعة أو ساعتين •

صرخت بسرعة ، وهى تلهث ، وقد بدت عليها الرغبة فى العودة الى  
ألعابها على الفور :

- هل تحسنين اللعب بالكرة الطائرة ؟

- كلا •

قلت ذلك وأنا أشعر بأسف مر على اننى لا أستطيع أن أقول نعم •  
- طفلة عجيبة حقا ! هيا • ابلى من مرضك ، وسأعلمك • جئت  
لأسألك هذا فحسب • اننى ألعب الآن مع مدام ليوتار • الى اللقاء • انها  
تنتظرنى •

واستطعت أخيرا أن أترك سريرى رغم ضعفى • فكانت أول  
فكرة راودتني عندئذ هى أننى لن أنفصل بعد الآن أبدا عن كاتيا • ان  
عاطفة لا تقاوم تدفعنى نحوها • كنت ألتهمها بعينى التهاما ، وكان هذا  
يشير دهشتها كثيرا • كان انجذابى اليها من القوة بحيث اننى استسلمت  
لعاطفتى الجديدة هذه فى حماسة لم تخف أخيرا على كاتيا • وبدا لها  
ذلك فى أول الأمر شيئا غريبا بل عجيبا • وأذكر أننى ، ذات مرة ، وكنا

نلعب معا ، رأيتنى أرتدى على عنقها وأقبلها دون أن أستطيع كبح هذه الرغبة الجامحة ، فما كان الا أن تخلصت منى وأمسكت يدي ، وقطبت حاجبيها كأننى أهنتها ، وسألتنى :

– ما بك ؟ لماذا تقبلينى هكذا ؟

وانتفضت لهذا السؤال المبالغ ، وخجلت خجلا شديدا ، ولم أستطع أن أجيب بكلمة • فهزت الاميرة الصغيرة كنفها علامة الحيرة والدهشة ( وكانت هذه حركة مألوفة فيها ) وعضت شفتيها المثلثتين ، فى جد ، وانقطعت عن اللعب ، ثم مضت الى ركن من الاركان فجلست على أحد المقاعد • وظلت فى ركنها ذاك مدة طويلة تتأملنى ، وتفكر ، كأنها تحل لغزا عرض لفكرها فجأة • وهذا أيضا كان عادة من عاداتها فى اللحظات المخرجة ، بحيث لم أستطع خلال مدة طويلة أن أتلام مع ونبات طبعها المفاجئة •

واعتقدت أننى أخطأت ، وأيقنت على كل حال ان هذا لا بد أن يبدو غريبا • على اننى ظللت أتعذب ، فكنت أتساءل : لماذا لم أستطع أن أفوز منذ اللحظة الاولى ، والى الأبد ، برضى كاتيا •• وأن أصبح صديقتها •

كان اخفاقى هذا يحرقنى حرقا ، وكنت أشعر أننى على وشك أن أجهش باكية كلما وجهت الى كلمة قاسية ، أو كلما نظرت الى نظرة حذرة • وكان حزنى يزداد يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة ، لأن الأمور لا تجرى مع كاتيا سهلة يسيرة • وشعرت بعد قليل من الوقت أنها بدلا من أن تحببى أخذت تكرهنى • ان كل شىء ، لدى هذه البنية، يتم بصورة سريعة ، مفاجئة ، بل كان يمكن أن نقول وحشية ، لولا أن لطفًا مفلورا كان يثوى وراء هذه الاندفاعات السريعة البارقة التى تصدر عن طبع متحمس صادق •

والواقع ان ما شعرت به نحوى فى أول الامر كان نوعا من الشك  
لم يلبث ان انقلب الى احتقار ، والسبب فى هذا الاحتقار ، فيما يخيل الى ،  
هو اننى لم أستطع أن أشاركها ألعابها المختلفة • كانت الاميرة الصغيرة  
تحب الحركة والركض ، كانت صحتها قوية ، وكانت نشيطة ، حاذقة ،  
بينما كنت أنا نقيض هذا تماما • لقد ظللت بعد مرضى ضعيفة ، هادئة ،  
غارقة فى التفكير والصمت • لم يكن يشوقنى أى نوع من أنواع اللعب ••  
أى لم أكن أملك أى شىء يتيح لى الفوز بقلب كاتيا • ثم اننى بطبعتى  
لا أطيق أن أشعر أن أحدا غير راض عنى • واذا شعرت بشىء من ذلك  
فسرعان ما يتنابى حزن شديد ، وسرعان ما أفقد كل شجاعة ، وتخوننى  
قواى ، فما أستطيع أن أصلح أخطائى وأن أبدل الأثر السيء الذى تركته  
فى نفس غيرى بأثر حسن • ومعنى هذا أنه متى كرهنى أحد ، كان  
كرهه الى غير رجعة •• وهذا ما لم تستطع كاتيا أن تفهمه !

وحين لاحظت° ، بعد أن ظلت ساعة طويلة تشرح لى لعبة الكرة  
الطائرة بغية أن تعلمنيها ، حين لاحظت أننى لم أفهم شيئا البتة ، أدهشها  
ذلك الى حد الخوف ، وأخذت تنظر الىّ على عاداتها نظرة استغراب• أما  
أنا فشعرت أننى أوشك أن أجهش فى البكاء • وبعد أن فكرت فى أمرى  
مرتين أو ثلاثا دون أن تصل الى نتيجة ، هجرتنى تماما ، وأصبحت تلعب  
وحدها ، دون أن تدعونى الى مشاركتها أبدا ، ودون أن توجه الىّ كلمة  
واحدة خلال أيام طويلة ! •• وكان تأثير ذلك فى نفسى قويا لا أكاد  
أطبق احتمالاه • وثقلت علىّ وحدتى الجديدة أكثر من وحدتى القديمة•  
ثم لم ألبث أن عدت الى حزنى ، واجتاحتنى أفكار سود •••

ولاحظت° مدام ليوتار ، وكانت تراقبنا ، هذا التغير الذى طرأ على  
علاقتنا ، وانتهت خاصة الى صد كاتيا وهجرها اياى • لذلك اتجهت اليها

رأساً ، فأبنتها على ذلك ، وطلبت اليها أن تحسن سلوكها معي • الا أن الاميرة الصغيرة قطبت حاجيها ، وهزت كنفها ، وصرحت بأنها لا تعرف ماذا تصنع بي ، وقالت اننى أظل طوال الوقت أفكر ، وأن الأفضل لها أن تنتظر أختها « ساشا » الذى سيعود من موسكو قريباً ، وأن الحياة معه ستكون أحفل بالسرور وأمتع •

غير أن مدام ليوتار لم تقنع بهذا الجواب • فنبهت كاتيا الى اننى ما زلت مريضة ، واننى لا أستطيع ان اكون فى مثل مرحها وصخبها • بل اضافت الى ذلك أن هدوتى خير من حركتها ، لان كاتيا تتجاوز الحدود : ليست ترتكب كثيراً من الحماقات ؟ ألم توشك ، اول امس ، ان يقرسها الكلب ؟ الخلاصة أن مدام ليوتار قرعت الاميرة الصغيرة بلا رحمة ، وارسلتها الى المصالحتى فوراً •

اصغت كاتيا الى مدام ليوتار فى انتباه شديد ، كأنما هى تدرك شيئاً جديداً وصحيحاً من وراء هذا التأنيب • ثم ما لبثت أن تركت العجلة التى كانت تعجزى وراءها فى القاعة ، واقتربت منى ، وسالتنى دهشة ، وهى تنظر الى نظرة رصينة :

– هل تريدان حقاً أن تلعبى ؟

– لا ••

قلت ذلك من فرط خوفى عليها وعلى من تأنيبات مدام ليوتار •

– اذن ماذا تريدان ؟

– أفضل أن أظل جالسة • اننى لا أستطيع أن أركض • ولكن

لا تنفضى يا كاتيا ، اننى أحبك كثيراً •

– حسنا ، اذن سألعب وحدي ••

قالت ذلك فى رقة ونعومة ، وفى لهجة من يكتشف ، دهشا ، انه  
ليس بمذنب • ثم أضافت :

– والآن ، الى اللقاء • ولن أنضب منك •

فأجبت وأنا أنهض وأمد لها يدي :

– الى اللقاء •

– لعلك تريدان أن تقبلينى ؟

قالت ذلك بعد لحظة من تفكير ، لعلها تذكرت فيها المشكلة التى  
قامت بيننا بصدد ذلك • وكان واضحا أنها تريد أن تفعل كل ما تستطيع  
فله لادخال السرور الى نفسى ، بغية أن تتخلص منى بأقصى سرعة ممكنة  
وعلى أحسن نحو •

قلت فى رجاء خجول :

– اذا شئت •

فأقربت منى ، وقد اكتسى وجهها طابع الجد ، ولم تختلج شفتها -  
بابتسامة ، ومنحتنى قبلة • فلما أنهت هكذا كل ما طلب منها ، بل أكثر  
مما طلب منها ؟ اسعادا لهذه البنية الصغيرة التى أرسلت اليها ، هربت  
راضية مطمئنة • وسرعان ما أخذت تدوى من جديد فى أرجاء الغرف  
جميعا ضحكاتها الصاخبة وصرخاتها • ودام الأمر على هذا الحال الى أن  
عادت من لعبها لاهثة ، وارتمت على أحد المقاعد تستريح وتستجمع قواها  
النفثة • وظلت طوال السهرة تنظر الى فى ارتياح وحذر • كان واضحا  
اننى أبدو لها طفلة عجيبة شاذة ، وكان واضحا انها تود أن تسألنى  
مستوضحة أمرى • ولكن لا أدري لم أمسكت فى هذه المرة !

وكانت دروس كاتيا عادة تتم في الصباح • وكانت مدام ليوتار تعلمها الفرنسية • على أن تعليم الفرنسية هذا كان لا يمدو تكرار قواعد النحو ، وقراءة أفاصيص لافوتتين • ولم تتعلم كاتيا شيئا كثيرا ، اذ كان من الصعوبة بمكان حملها على الجلوس والقراءة ساعتين في كل يوم • لكنها قررت أخيرا أن تتعلم نزولا على رغبة أبيها ، واطاعة لأوامر أمها : كانت اذا قطعت على نفسها عهدا تلتزمه وتحققه بدقة • وقد أوتيت كاتيا مواهب ممتازة ، فكانت تفهم سريعا ، غير انه كان لها ، مع ذلك ، بعض العيوب : كانت اذا استعصى عليها فهم أمر من الأمور ، تحاول أن تفهمه وحدها ، ولا تطبق أن تسأل أحدا شرحا ، لانها تشعر أن السؤال عار ! •••••  
وقيل انها كانت في بعض الاحيان تظل أياما بأكملها تصارع سؤالا لا تستطيع حله ••••• وكان يفضيها أن لا تقدر على حله وحدها ، دون الاستعانة بأحد ، لكنها لم تكن تمضي الى مدام ليوتار لتستجد بها ، الا في أحوال نادرة ، حين تعجز عجزا تاما • وكان أمرها يجري على هذا النحو في كل ما تصنع : تفكر وتتأمل أكثر مما يظن فيها لأول وهلة • ولكنها في الوقت نفسه مسرفة في السذاجة بالنسبة الى سنها • وكانت في بعض الاحيان تطرح أسئلة غبية حقا ، وفي أحيان أخرى كانت اجاباتها لا تخلو من براعة وفطنة •••••

وأخيرا أصبحت صحتي تسمع لي بأن أتعلم شيئا أنا الاخرى ، فامتحننتي مدام ليوتار لتعرف مقدرتي ، فاكشفت انني أقرأ قراءة حسنة جدا ، لكنني أكتب كتابة سيئة جدا ، وان من الضرورة بمكان أن تعلمني الفرنسية حالا •

لم أحتج على ذلك ••••• وذات صباح ، رأيتني جالسة مع كاتيا جنبا الى جنب ، الى منضدة الدرس • وأظهرت كاتيا ، في هذه المرة ، كأنما عن

قصده ، كسلا وغباء ، حتى أنكرتها مدام ليوتار ! .. أما أنا فقد تعلمت الألفباء الفرنسية في هذه الجلسة وحدها ، وجهدت أن أرضى معلمتي بكل ما أوتيت من قوة . وفي نهاية الدرس كانت مدام ليوتار غاضبه جدا من كاتيا ، فقالت لها وهي تشير الى :

- انها مريضة تدرس لأول مرة ، ومع ذلك فقد بذلت عشرة أضعاف ما بذلت أنت . ألا تشعرين بالحجل لهذا ؟

فسألتها كاتيا دهشة :

- اذن فهمي تعرف أكثر مما أعرف ! ولكن كيف ؟ انها ما زالت تتعلم الألفباء ..

- كم درسا استغرقت انت في تعلمها ؟

- ثلاثة ..

- أما هي فقد استغرقت درسا واحدا . معنى هذا انها أسرع منك في التعلم ثلاث مرات ، وانها ستتفوق عليك بعد قليل . أليس كذلك ؟

ففكرت كاتيا لحظة ، ثم احمر وجهها احمرارا شديدا حين أدركت أن مدام ليوتار على حق . هكذا كان حالها دائما : حين تؤنب ، سواء لذنوب اقترفتها أو لاختفاق في الدرس أصابته ، فانها تحمر ، ويحرقها الشعور بالعار ، أو الحزن ، أو الكبرياء الجريحة . وفي هذه المرة كادت الدموع تنفجر من عينيها ، غير أنها حبستها ، ونظرت الى كأنها تريد أن تصعقني ..

وفهمت فورا ما بها : لقد كان كبرياء الطفلة المسكينة عظيما . وحين

بعدنا عن عيني مدام ليوتار أردت. أن أسرع فأقول لها ، تخفيفا عنها ، انه ليس ذنبي ان الفرنسية خاطبتها بهذه اللهجة ، غير أن كاتيا تظاهرت بأنها لا تسمع ما أقول ، وظلت صامتة •

وبعد ذلك بساعة ، دخلت الى الغرفة التي كنت جالسة فيها أقرأ ، ولا ينصرف تفكيري الا اليها • كان يعذبنى ويخيفنى أن أتصور أنها ، مرة أخرى ، لا تريد أن تكلمنى • ونظرت الى ساهمة ، وجلست على الديوان كعادتها ، ولم تحول نظرها عنى خلال نصف ساعة • ثم لم أتمالك نفسى ، فأرسلت اليها نظرة مستفهمة •

فسألتنى كاتيا :

- هل تحسنين الرقص ؟

- كلا •

- أنا أحسنه ••

صمت ••

- هل تحسنين العزف على البيانو ؟

- كلا ••

- أنا أحسنه • والواقع أن تعلمه عسير ••

صمت ••

- تقول مدام ليوتار انك أذكى منى •

- كانت مدام ليوتار مستاءة منك ، فقالت ذلك •

- وبابا هل يستاء أيضا ؟

- لا أدرى •

صمت جديد ••



وضربت الاميرة الصغيرة الارض بقدمها الصغيرة ، وقد فرغ صبرها  
•• ثم لم تستطع أن تخفى مضضها ، فسألت :

- اذن ستهزئين بى لأنك أسرع فهما منى !  
فصرخت وأنا أثب من مكاني لأسرع اليها وأقبلها :  
- أبدا • أبدا •

وفجأة ، قالت مدام ليوتار ، وكانت تصغى الى حديثنا منذ خمس  
دقائق ، مخاطبة كاتيا :

- ألا تخجلين من هذا القول ، ومن طرح أسئلة كهذه ؟ •• أسفى  
عليك يا آنسة • تحسدن هذه الطفلة البائسة وتدلين عليها بأنك تحسنين  
الرقص والعزف على البيانو • أسفى عليك يا آنسة • سأروى هذا  
لأبيك !

والتهب خد الاميرة الصغيرة بحمرة قانية • بينما استطردت المربية :  
- هذا لا يليق • انك تعذبينها بأسئلتك هذه • كان أهلها أناسا  
فقراء ، فلم يستطيعوا أن يستأجروا لها مربية تعنى بتعليمها • وما تعرفه  
انما تعلمته وحدها لأن لها قلبا نيلا وفؤادا ذكيا • يجب عليك أن تحييها  
بدلا من أن تحقدى عليها • عيب • عيب • اذكرى أنها يتيمة ، وان ليس  
لها أحد فى هذا العالم • لم يبق الا أن تُدلى عليها بأنك أميرة ، وانها  
ليست بشيء ، سأتركك وحدك • فكرى فيما قلته لك ، وأصلحى  
نفسك •

وفكرت الاميرة الصغيرة ، يومين كاملين ! •• خلال يومين كاملين  
لم تدو قهقهاتها وصرخاتها فى البيت • وكنت اذا استيقظت فى الليل ،  
أسمعها تتم فى المنام حديثا مع مدام ليوتار • لقد ضعفت خلال هذين

اليومين ، وفقد وجهها الزاهر شيئا من ألوانه • وأخيرا ، فى اليوم الثالث ،  
التقىنا فى القاعة الكبرى ، فى أسفل • كانت الاميرة الصغيرة خارجة من  
غرفة أمها ، فلما راتنى ، توقفت ، ثم جلست أمامى ، قريبة منى :  
وانتظرت ما سيقع ، مرتاعة ، مرتجفة ، وأخيرا سألتنى :

- يتوتسكا ، لماذا أبونى بسبيك ؟

فأجبت أبرىء نفسى :

- لم يكن ذلك بسببى •

- ألم تقل مدام ليوتار اننى أسأت اليك ؟

- كلا يا كاتيا ، كلا ، لم تسيئى الى •

فهزت الاميرة الصغيرة كتفيها ، علامة الشك فيما أقول • ثم سألت  
بعد لحظة من الصمت :

- ولماذا تبكين طوال الوقت ؟

فأجبت من خلال دموعى :

- لن أبكى اذا شئت •

ومرة أخرى هزت كتفيها •

- ولكن هل كنت تبكين فى بيتكم دائما مثلما تفعلين الآن ؟

لم أجب •

ثم سألتنى فجأة ، بعد صمت جديد :

- ولماذا أنت فى بيتنا ؟

فظرت اليها دهشة ، وكأن طعنة نفذت فى قلبى • ولم أستطع أن  
أجيب الا بعد أن استعدت أنفاسى • قلت :

- لأننى يتيمة •
- وكان لك بابا وماما ؟
- نعم •
- وكانا لا يحبناك ؟
- بلى • كانا يحبناى •
- قلت ذلك بصعوبة •
- وكانا فقيرين ؟
- نعم •
- فقيرين جدا ؟
- نعم •
- ولم يعلماك شيئا ؟
- بلى • علمناى القراءة •
- هل عندك لعب ؟
- لا •
- هل كنت تأكلين فطائر ؟
- لا •
- ما عدد حجرات بيتكم ؟
- حجرة واحدة •
- حجرة واحدة ؟
- واحدة •
- والخدم ، هل كان عندكم خدم ؟

- لا •

- ومن كان يخدمكم اذن ؟

- كنت أنا أشتري الاشياء من السوق •

كانت أسئلة كاتيا تؤلمني أكثر فأكثر • ثم ان هذه الذكريات ،  
ووجدتني ، ودهشة الاميرة الصغيرة ، كل ذلك كان يسدو لي انه رتب  
خصيصا لي جرحني ، لي دمي قلبي ، كنت أرتعش من أحمص قدمي الى قمة  
رأسي ، واخنتقت بدموعي •

- اذن فأنت سعيدة بوجودك في بيتنا •

لم أجب •

- وهل كان لك ملابس جميلة ؟

- لا •

- كانت ملابسك بشعة ؟

- نعم •

- لقد رأيت فستانك •

فما ان سمعت هذا حتى رأيتني أنهض من مكاني تحت تأثير احساس  
غريب ، وأقول :

- لماذا تسأليني اذن كل هذه الاسئلة ؟

ثم أضفت وقد احمر وجهي حنقا :

- لماذا تستجوبيني هكذا ؟ لماذا تسخرين مني ؟

وتخضب وجه الاميرة بحمرة قانية ، ونهضت من مكانها هي  
الاخرى ، الا انها لم تلبث أن سيطرت على انفعالها ، وقالت :

- كلا لست أسخر منك • وانما أردت أن أعرف هل كان أبواك  
حقا فقيرين •

فقلت وأنا أبكى ألما :

- لماذا تسأليني عن أبي وأمي ؟ لماذا تسأليني عنهما على هذا النحو ؟  
فيم أساء إليك يا كاتيا ؟

واضطربت كاتيا اضطرابا شديدا ، ولم تعرف بم تجيب • وفي هذه  
اللحظة دخل الامير •

فلما رأى أبكى ، قال :

- ماذا بك يا نيتوتشكا ؟

ثم التفت الى كاتيا ، وكانت بلون الجمر احمرارا ، وكرر على  
سؤاله :

- ماذا بك ؟ ماذا هنالك ؟ لماذا اختصمتما يا نيتوتشكا ؟ فيم  
تشاجرتما ؟

ولكننى لم أكن أستطيع جوابا ، ورأيتنى أرتدى على يده أقبليها  
باكية •

- كاتيا ، لا تكذبي • قولى ماذا جرى !

ولم تكن كاتيا تعرف الكذب فقالت :

- قلت لها اننى رأيت فستانها الرديء الذى كانت تلبسه يوم كانت  
تعيش مع أبيها وأمها •

- من أراك الفستان ؟ من ذا الذى سمح لنفسه بأن يريك اياه ؟

فأجابت كاتيا بلهجة جازمة :

- رأيتُه بنفسى ، لم يرينه أحد •

- حسن ، حسن • لا تريدن أن تشى بأحد • أنا أعرفك • اكملى كلامك •

- أخذت تبكى وسألتنى لماذا أسخر من أبيها ومن أمها •

- اذن فقد سخرت منهما •

لئن لم تسخر كاتيا من أبوى ، لقد كان ذلك فى نيتها قطعاً ، كما شعرت •

لهذا لم تجب على سؤال أبيها بكلمة ، ومعنى صمتها انها تقر بخطئها  
فقال لها الامير مشيراً الى :

- ستعذرين لها حالا •

الا ان الاميرة الصغيرة ، وقد امتنع لونها ، لم تقم بأية حركة • فقال  
الأمير :

- انى أنتظر •

فما كان منها الا أن صرخت فجأة ، وقد التمعت عيناها بالشر ،  
وضربت برجلها الارض :

- كلا • لا أريد • لا أريد • لا أريد أن أعذر لها • يا بابا •  
انى لا أحبها • ولا أحب أن أبقى معها بعد الآن • ليس ذنبى أنها تظل  
تبكى طوال النهار • لا أريد • لا أريد !

- تعالى معى •

قال الامير ذلك ، ثم أخذ يدها ، وقادها نحو حجرته •

والتفت الى قائلا :

- اصعدى ، يا نيتوتشكا •

وددت لو أرتمى على الامير أطلب اليه أن يفض لكاتيا ، الا أنه كرر أمره بلهجة صارمة ، فصعدت الى الجناح الاعلى من المنزل ، وأنا أشبه بالميتة • فما ان بلغت غرفتنا حتى سقطت على « الديوان » مخفية وجهي بين ذراعي • وأخذت أعد الدقائق • كنت أنتظر كاتيا بفارغ صبر ، لارتمى على قدميها • وأخيرا عادت كاتيا • ولكنها مرت بجانبى دون أن تقول كلمة واحدة ، ومضت الى ركن من أركان الغرفة تجلس فيه • كانت عيناها حمراوين ، وكان خذاها مبللين بالدموع • فما ان رأيتها على هذه الحال حتى خارت قواى وفقدت كل شجاعة ، وأخذت أنظر اليها فى رعب لم أستطع من فرطه أن أتحرك •

واتهمت نفسى بكل قواى ، وبكل قواى جهدت أن أقنع نفسى بأننى وحدى المذنب • وهممت ، ألف مرة ، أن أقرب من كاتيا ، ولكننى كنت أتوقف ، خشية أن تسيء استقبالى •

وفى مساء اليوم التالى لاحت كاتيا أكثر مرحا ، وطفقت تطارد عجلتها فى الغرفة ، ولكنها لم تلبث أن تركت لعبها ، وعادت تجلس فى ركنها وحيدة • وقبل أن تمضى الى سريرها بلحظة واحدة ، التفتت الى ، بل تقدمت نحوى خطوتين ، وانفرجت شفتاها تريد أن تكلمنى ، الا انها توقفت فجأة ، وأشاحت بوجهها عنى ، ومضت الى سريرها •

وانقضى على هذا يوم آخر ، واستغربت مدام ليوتار حالة كاتيا ، وبدا لها أن تسألها : ماذا بها ؟ هل هى مريضة حتى تغدو هادئة كل هذا

الهدوء ؟ فأجابتها كاتيا بوضع كلمات ، ثم تناولت كرتها الطائرة • ولكن ما ان انصرفت مدام ليوتار حتى انفجرت باكية ، وهربت من الغرفة ، بعيدة عن أنظارى • وأخيرا حزمت كاتيا أمرها • فهاهى ذات مساء ، بعد مشاجرتنا بثلاثة أيام ، تصل الى غرفتنا على حين غرة ، وتقرب منى خجلة ، وتقول :

- أمرنى بابا أن أعتذر لك • هل تريدن أن تصفحى عنى ؟

وأمسكت كاتيا بكلتا يديّ ، فقلت لها ، وأنا ألهمت من شدة الانفعال :

- نعم ، نعم •

- وأمرنى بابا بأن أقبلك • هل تريدن أن تقبلينى ا

وكان جوابى على هذا انى أخذت أقبل يديها وأغرقهما بالدموع • وحين رفعت بصرى الى كاتيا ، لاحظت أنها لم تكن فى حالتها المعتادة : ان عينيها مبللتان بالدموع ، وان شفيتها لترتجفان ، الا انها سرعان ما كبتت انفعالها ، وعادت الابتسامة فجأة الى ثغرها •

قالت فى هدوء ، كأنما هى تحدث نفسها :

- سأمضى أقول لبابا اننى اعتذرت لك واننى قبلتك •

وأردفت ، بعد لحظة من الصمت :

- منذ ثلاثة أيام لم أره • لقد منعنى من المجيء اليه قبل أن أنفذ

أمره •

ثم نزلت الى لقاء أبيها ساهمة وجلة •



وما انقضت على ذلك ساعة حتى دوى فى البيت ، فجأة ، الصراخ والصخب والضحك وعواء « فالستاف » ، وسمعت شيئا يتدحرج ويتحطم . . . وطارت كتب الى الارض . وانطلقت العجولة تدور من غرفة الى أخرى . ففهمت أن الصلح قد تم بين الاب وابنته ، ووئب قلبي من مكانه فرحا بذلك .

الا أن كاتيا لم تقترب منى . كان واضحا أنها تجهد أن لا تكلمنى . على انها كانت تستغرب أمرى استغرابا شديدا ، وتتحرق شوقا الى فهمى ، فكان ذلك يربكنى ويؤلمنى . أصبح جلوسها أمامى متفرسة ، يزداد يوما بعد يوم . وأصبحت الملاحظات التى تبديها بصددي أكثر سداجة ممسا كانت ! ان الشيء الذى لم تستطع أن تفهمه هذه الطفلة الرقيقة التى كان كل من فى البيت يدللها ، ويمبدها ويحتضنها ككنز جميل ، هو انها لقيتني فى طريقها عدة مرات فى وقت لم تكن تحرص فيه على أن ترانى أبدا . على أنه كان لها قلب صغير رائع يعرف بغيريزته ، دوما ، كيف يجد الطريق القويم . كان أبوها أكثر الناس تأثرا فيها ، وكانت هى تحبها حبا عظيما ، كما كانت أمها تحبها حبا جنونيا . غير أنها كانت تعاملها فى قسوة شديدة . ولقد ورثت كاتيا عن أمها الزهو والكبرياء والعناد وقوة الارادة . الا أن هذا لم يكن يمنحها من احتمال جميع نزوات أمها التى تبلغ أحيانا حد الاستبداد والتعذيب الروحى . وكانت الاميرة الأم تفهم الترية فهما غريبا : كانت تربيتها لكاتيا مزيجا عجيبا من دلال لا حد له ومن قسوة لا يشفى لها غليل ! . . . فما كان مسموحا به أمس ، يصبح اليوم ممنوعا . . . وهكذا كان الشعور بالعدل يفسد لدى هذه الطفلة بلا انقطاع . على اننى سأعود الى هذا فيما بعد . وانما أحب أن أذكر الآن أن كاتيا عرفت كيف تنظم علاقتها بأبويها : اما مع أبيها فكانت تبقى على طبيعتها حرة منطلقه لا تلف ولا تدور . وأما مع أمها فكانت منطوية على

نفسها ، حذرة ، مطواعة • غير أن هذه الطاعة لم تكن تجرى على سجيته  
صادقة منطلقة ، وإنما كانت مبدأ وخطة • وسأشرح هذا أيضا فيما بعد •  
على انه لا بد من القول - وذلك أمر يشرف كاتيا - انها انتهت أخيرا الى  
فهم أمها : فلئن كانت تطيعها ، فلأنها شعرت شعورا قويا بما تكنه لها أمها  
من حب لا حد له ، من حب يبلغ أحيانا حد الهوى المرضى ! • • لقد  
كانت الاميرة الصغيرة التي لا يعوزها نبل النفس تحسب حساب هذه  
الناحية • الا أن هذا الحساب ، واأسفاه ، لم يسعف رأسها الصغير ، فيما  
بعد ، الا قليلا •

وكنت أنا لا أفهم ماذا بنفسى • كان كياني يجيش باحساس جديد  
لا سبيل الى فهمه ، ولست أبالغ اذا قلت ان ذلك كان يعذبني كثيرا •  
والأفضل أن أعترف بأن عاطفتي نحو كاتيا كانت هي العشق • • اغفروا  
لى استعمال هذه الكلمة • نعم كانت هي العشق بعينه ، بدموعه ، وأفراحه ،  
العشق الهائم الجامح • ما الذي كان يجذبني اليها ؟ لماذا نشأ في نفسي  
هذا الحب ؟ لقد بدأ من النظرة الأولى ، لقد اهترت جميع عواطفى اهترازا  
لذيذا حين رأيت ، فجأة ، هذه البنية الجميلة جمال الملائكة • كل شيء  
فيها جميل ، ما من عيب من عيوبها أصيل فيها ، جميع عيوبها دخيلة  
عليها ، لا تنفك تصطرع مع نفسها الاصيله • كل شيء فيها يلتمع برجاء  
مشرق ، كل شيء فيها يشتر بمستقبل رائع •

ولم أكن أحبها وحدي • كان كل انسان يحبها • كان يتفق لنا أن  
نخرج في نحو الساعة الثالثة في نزهة ، فما ان تقع علينا أبصار المارة حتى  
يتوقفوا في أماكنهم متجمدين • وكثيرا ما كانت صرخات الاعجاب تنطلق  
وراء هذه الصبية السعيدة متلاحقة : « لقد خلقت للسعادة ، وهي تعيش  
لها • • » • ذلك كان لسان حال كل من يراها • أما أنا فلعل الاحساس  
الجمالى هو الذى أثر في نفسى قبل كل شيء آخر • لعل الشعور بالجمال

هو الذى أثر فى نفسى قبل كل شىء آخر فما ينبغي أن نبحث عن غيره  
علةً لحيى كاتيا .

•• على أن آفتها الأساسية كانت هى الزهو •• هذا الزهو الذى  
يدفع بصاحبه دفعا الى الرجوع الى طبيعته الخاصة ، ويجعله بذلك مقانلا •  
كان الزهو يتجلى حتى فى سذاجات صيانية ، ويختلط بالانانية اختلاطا  
يلبغ من القوة ان أى معارضة ، مهما تكن صورتها ، كانت تدهشها أكثر  
مما كانت تسوءها أو تفضيها • كانت لا تستطيع أن تقبل أن يتم أمر من  
الأمور لم ترده • ومع ذلك كان احساسها بالعدل يسيطر على كل شىء •  
فما ان تدرك أنها كانت على خطأ ، حتى تدعن لتأنيب ضميرها دون مواربة  
أو تعلق • ولئن ساء سلوكها معى حتى تلك اللحظة ، فانى أسند ذلك الى  
نفور كانت تشعر به نحوى ، دون أن تستطيع له دفعا ! •• كان سلوكها  
هذا أمراً لا مفر منه • كانت تستسلم لاندفاعاتها فى كثير من الجموح ،  
وكان لا بد لها ، دوماً ، من أمثلة ومن تجارب حتى تعود الى الطريق  
القويم • ورغم أن نتائج كل ما تقوم به من أعمال كانت نتائج جميلة  
وصادقة فانها لم تكن تصل الى هذه النتائج الجميلة الصادقة الا بعد  
انحرافات مستمرة ، وأخطاء متواصلة •

ولم تلبث كاتيا أن شبت من ملاحظتى والتفرس فى ، وقررت أخيراً  
أن تدعنى وشأنى •• وأصبح سلوكها سلوك من لا يشعر بوجودى ، فما  
من كلمة توجهها الى ، الا فيما مست اليه ضرورة •• وأبعدتني عن  
العابها ، ولكن بدون قسوة • اقصتني عنها ببراعة ، حتى لكأن هذا  
الاقصاء تم بارادتي !

وكانت الدروس تسير فى مجراها • ولكننى فقدت شرف الاساءة  
الى كبرياتها باتخاذى مثلاً يضربونه لها على الذكاء والرقه ، مع أن هذه

الكبرياء كانت من سرعة التأثر بحيث أنه كان لكلبنا ، « سير جون فالستاف » ، سلطان كبير عليها . كان فالستاف ذا مزاج بارد ، إلا أنه كان شريرا كئيبا . فاذا اهتاج ، أصبح وحشا كاسرا ، فلم تستطع كاتيا أن تملك زمامه . وأكثر من ذلك انه كان لا يحب أحدا . إلا أن عدوه الأول ، عدوه الطبيعي ، كان هو الاميرة العجوز من غير ريب - وسوف تأتي قصة ذلك في حينها - أما كاتيا المتكبرة فكانت تستعمل كل الوسائل للتغلب على عداوة فالستاف . كانت لا تطيق أن يكون هذا الحيوان الكائن الحي الوحيد الذي يستطيع ، في هذا المنزل ، أن يتجاهل سلطتها وقوتها ، فلا يخضع لها ، ولا يحبها ! .. لذلك قررت أن تهاجم الكلب . ان كاتيا تريد الآن أن تفرض سيطرتها على هذا الحيوان . كيف يجزؤ فالستاف ان يقاومها ؟

غير أن الكلب العاصي لم يخضع .. ففي ذات مرة ، بعد العشاء ، بينما كنا جالسين في القاعة الكبرى ، في الطابق الاسفل ، جاء الكلب واستقر في وسط القاعة ، ليستمتع بقبولته . عندئذ قررت الاميرة الصغيرة أن تشرع في تنفيذ خطتها . فتركت لعبها ، واقتربت منه ، حذرة .. على رموس الأصابع ، وهي تناديه بأرق الأسماء ، وتدعوه اليها بالطف الحركات والاشارات . إلا أن « فالستاف » كثر عن أنيابه الفظيعة ، من بعد ، فتوقفت الاميرة الصغيرة . ان ما كانت تريده هو أن تأتي اليه ، أن تداعبه ، أن تحمله على اللحاق بها ، وهذا ما لم يكن يسمح به لأحد غير الاميرة الأم ، التي كان أميرا لديها .

وكانت الخطة عسيرة ، تقتضي كثيرا من البراعة ، بل تشتمل على خطر كبير ، لأن فالستاف لن يزعجه أن يعض يدها ، ولا أن يمزق يدها اربا ، اذا بدا له ذلك . انه قوى ، كاللب .

وكنت أرقب محاولة كاتيا ، قلقة ، خائفة • الا ان صرفها عن فكرة بدت لها لم يكن بالامر السهل • ان الأنياب التي كشر عنها فالستاف لم تستطع أن تحولها عن عزمها ، فلما أدركت أنها لا تستطيع أن تقترب من عدوها على خط مستقيم ، أخذت تدور حوله ، محاذرة • ولم يتحرك فالستاف • وبعد أن أنهت دورتها الأولى ، دارت دورة أضيق ، وما زالت تضيق دورتها حتى أصبحت من فالستاف على المسافة التي يراها معقولة ، فلما همت أن تتجاوزها كشر عن أنيابه مرة أخرى ، فما كان من الاميرة الا أن ضربت الارض بقدميها ، وابتعدت ساخطة ، وجلست على «الديوان» تفكر •

وما هي الا عشر دقائق حتى اهتدت الى وسيلة للاغراء جديدة : فاذا هي تخرج من الغرفة ثم تعود وفي يدها مكسرات وحلوى • لقد غيرت سلاحها • الا أن فالستاف لم يبال هذا الاغراء الجديد ، ربما لأنه لم ينظر الى قطعة الحلوى التي رمتها اليه • ولكن حين دخلت الاميرة الصغيرة حدود الدائرة التي يدها أرضه ، أظهر الكلب معارضة أبلغ وأقوى من معارضته في المرة الاولى ، فرفع رأسه ، وكشر عن أنيابه ، وأخذ يهمهم ، وهمّ بحركة تدل على أنه مستعد لأن يشب من مكانه • فالتهب وجه كاتيا غضبا ، ورمت قطعة الحلوى التي كانت تمسكها ، وعادت تجلس في مكانها ••

انها مضطربة أشد الاضطراب ، ان خديها كالجمر احمرارا ، بل ان دموعها لتتفجر من عينيها • ولما رأت اننى أنظر اليها ، غلى الدم في رأسها ، فاذا هي تشب من مكانها فجأة في اتجاه الحيوان الكاسر !

ولعل فالستاف قد تجمد في هذه المرة من الدهشة ، فترك عدوته تجتاز الحدود ، ولم يحيى البنت الطائشة بهممة مخيفة الا حين رآها

قريبة جدا منه • فتوقفت كاتيا ثانيةً أو أقل من ثانية ، ثم تابعت سيرها  
بخطى ثابتة • تجمد الدم فى عروقى من شدة الذعر • كانت الاميرة  
الصغيرة فى حالة من الهياج ما رأيتها فى مثلها يوما • لقد كان اليقين من  
الانتصار يلهب عينيها • لم تحول نظرها عن الكلب الكاسر وهو يرمقها  
بنظرات غاضبة ، ولم ترتجف أبدا أمام أنيابه المهسدة • • بينما انتصب  
الكلب • وانطلق من صدره الكيف هدير رهيب ، فقلت فى نفسى : لن  
تنقضى دقيقة واحدة الا ويمزقها اربا اربا ! • • الا ان الاميرة الصغيرة وضعت  
يدها الصغيرة عليه فجأة فى اعتزاز ، وداعبت ظهره ثلاث مرات وقد بدت  
عليها خيلاء الظفر • وظهر على الكلب نوع من التردد • كانت تلك أسوأ  
اللحظات • لكن الكلب لم يلبث أن نهض متاقلا ، وتمطى ، ولعله قال فى  
نفسه انه لا يليق به أن يقتل مع طفلة ، ثم ترك الغرفة فى هدوء ووقار •  
وبقيت الاميرة الصغيرة سيدة المكان ، فرمقتنى بنظرة خاصة ، نظرة مفعمة  
بالنشوة ، نظرة من أسكرها الشعور بالنصر • وكنت أنا شاحبة شحوبا  
كبيرا • ولاحظت هى ذلك فابتسمت • الا أن وجنتيها أخذتا تشعجان ،  
وما استطاعت أن تعود الى « الديوان » الا فى كثير من العناء • فتهاككت  
عليه فاقدة الوعى تقريبا •

منذ ذلك اليوم أصبح هواى لا يعرف الحدود • أصبحت أخاف على  
كاتيا خوفا شديدا ، وأصبح الحزن يحرقنى حرقا • ألفت مرة أو شكت  
أن أرتعى على عنقها وسمرنى الوجمل فى مكائى • وكنت أحاول أن  
أتحاشاها حتى لا ترى انفعالى ، فاذا اتفق أن دخلت الغرفة التى كنت أظن  
أننى مخبئة فيها ، أخذ قلبى يدق دقا قويا حتى لأرى الاشياء أمامى تدورا  
• • • وأعتقد أن هذه البنية الشيطانية لاحظت الأمر ، لأنها ظلت خلال يومين  
بادية التمللم • الا انها لم تلبث أن اعتادت على ذلك •

وانقضى شهر • كنت أتعذب فى سرى • ويجب أن أذكر أننا ، أنا  
وكاتيا ، لم تبادل خلال هذه المدة كلها خمس كلمات • الا اننى أدركت  
شيئا فشيئا ، من بعض القرائن الصغيرة ، ان سلوك كاتيا نحوى لا يمليه  
عليها أنها نسيتهى أو انها لا تحفل بأمرى ، وانما يمليه عليها قرار ارادى ،  
كانما هى آلت على نفسها أن لا تدعى أتجاوز بعض الحدود ، ومع ذلك  
بلغت من العذاب أننى أصبحت لا أستطيع أن أنام ، وأصبحت لا أستطيع  
أن أخفى انفعالى حتى عن مدام ليوتار • أصبح جيبى لكاتيا مرضا ! ••  
اذكر اننى ذات مرة سرقت أحد مناديلها خلسة ، وفى مرة أخرى سرقت  
أحد أشرطة شعرها ، وقضيت ليلالى برمتها أقبلهما باكية !

## الفصل السادس



اعراض كاتيا عنى فى أول الامر قد أرهقنى ، الا  
ان كل شىء قد اختلط الآن فى أعماق نفسى ،  
حتى صرت لا أعرف ما أشعر به . وهكذا أخذت  
مشاعرى الجديدة تمحو مشاعرى القديمة ،  
وأصبحت ذكرى ماضى الحزين تفقد من قوتها ومن ألبها ، لتحل محلها  
آلام حياتى الجديدة .

كان ينفق لى أن أستيقظ فى الليل ، فانهض من سريرى ، وأقرب  
من سرير الاميرة الصغيرة على رهوس الاصابع ، ثم أظلم الى جانب سريرها  
ساعات طويلة أنظر اليها على ضوء المصباح الشاحب . وكنت فى بعض  
الأحيان أجلس على حافة سريرها ، وأنحنى على وجهها أتشم أنفاسها  
الدافئة . وفى رفق ، وأنا أرتعد خوفاً ، أقبل يديها ، وكتفيها ، وشعرها ،  
وقدميها - حين تبرز قدميها من تحت الفطاء - ولاحظت شيئاً فشيئاً ( وكان  
نظري لا يفارقها منذ شهر ا ) ان كاتيا تزداد وجوماً ، يوماً بعد يوم ، وان  
مزاجها يزداد تقلباً ساعة بعد ساعة ، فما هى اليوم تقضى النهار كله



لا يسمع لها صوت ، وهاهي في الغد تحدث صخباً أقوى من كل ما أحدثت قبل ذلك من صخب ! .. وهي الآن سريعة الاهتياج ، كثيرة المطالب ، تحمر وتغضب في كل لحظة ، ولا يخلو سلوكها نحوى من شراسة وقسوة . وفجأة ، أصبحت ترفض أن تتناول الطعام معي ، وأن تجلس الى جانبي ، كأنما هي تشمئز مني !

ثم صار يتفق لها أن تمضي الى غرفة أمها تقضي معها النهار كله ، ربما لانها تشعر انني أتخطم حزنا في غيابها . وفجأة ، أصبحت تهتق في ساعات طويلة ، فيصرعني الاضطراب صرعا ، وأحمر وأصفر ، ثم لا أدري ماذا أصنع بنفسى ، ولا أجرؤ أن أدع الغرفة .

وانتابت الحمى كاتيا مرتين ، وهي التي لم تمرض قبل ذلك أبدا ! وأخيرا ، ذات صباح ، انتهت الى قرار لم يكن في الحسبان : قررت كاتيا ، على حين غرة ، أن تقيم في الطابق الاسفل مع أمها . وكادت امها تموت خوفا حين علمت أن ابنتها مريضة تنتابها الحمى . وينبغي أن أذكر أن الأم كانت حانقة على ، فهي تعزو الى جميع التغيرات التي لاحظتها في سلوك ابنتها ، وترى أن مزاجي الحزين الكئيب قد انعكس على مزاج ابنتها . ولئن لم تفصل احدانا عن الاخرى منذ زمان طويل فما ذلك الا تحاشيا لما قد يقوم بينها وبين زوجها من نقاش بهذا الصدد . كان زوجها يسايرها عادة في كل أمر ، الا انه كان في بعض الاحيان صلبا عنيدا لا سبيل الى صرفه عن رأيه .. وكانت الاميرة تفهم الامير حق الفهم . وهكذا كان لانتقال كاتيا الى الطابق الاسفل مثل وقع الصاعقة على نفسى ، فقضيت أسبوعا كاملا في لوعة مبرحة . وأخذت أحطم رأسي بحثا عن سبب الكره الذي تحمله كاتيا لي ! ..

كان الحزن يمزقني تمزيقا ، ثم أخذت فكرة العدالة تذر قرنهما في نفسى الجريحة ، وأخذ يجتاحني شعور بالاستياء والاستنكار . وخالجنى

فجأة نوع من الغزة • حتى اذا خرجت مع كاتيا فى ساعة نزهتنا ، رأيتنى أنظر إليها فى كبرياء وجد لم تعهدهما فى من قبل ، فأدهشها ذلك أشد الدهشة • طبعى أن هذا التبدل لم يكن يظهر الا ليروز ، فسرعان ما كان قلبى يخفق خفقانا شديدا ، فاذا أنا أشد ضعفا وخجلا منى فى أى وقت مضى |

وأخيرا ، ذات صباح ، ظهرت كاتيا فى الطابق الأعلى ، فأذهلنى ظهورها هذا ، وأشاع فى نفسى اضطرابا فرحا • انها تسرع الى التعلق برفبة مدام ليوتار ، وهى تضحك ضحكا صاخبا ، وتنبئها بأنها عائدة الينا • ثم ترجوها أن تعفيها من الدراسة فى هذا الصباح ، وتنطلق تركض وتلمب • • لم أرها يوما فى مثل هذا الفرح والمرح •

غير أنها هدأت فى المساء ، فاذا هى واجمة تفكر ، ثم اذا بالحزن يلقي ظلله على وجهها الجميل • وحين صعدت الاميرة تريد أن تراها ، لاحظت أن كاتيا تحاول جهدها أن تظهر مرحة • وما ان مضت أمها ، حتى انفجرت باكية • وتأثرت أنا بمنظرها تأثرا شديدا ، واذا لاحظت كاتيا تأثرى ، انصرفت • ان أزمة لم تكن فى الحسبان تتهيا فى نفسها • واستدعت الاميرة الطبيب ، وطلبت الى مدام ليوتار أن توافيها بتقرير يومى عن كل ما يتصل بابنتها تفصيلا • وأمرت بأن تراقب كاتيا مراقبة دقيقة |

لكنى كنت أنا وحدى التى أوجست الحقيقة ، وقلبى ينبض أملا ورجاء • ان روايتنا الصغيرة تشارف على نهايتها • • فبعد ثلاثة أيام من عودة كاتيا الى جناحها ، رأيتها تنظر الى طويلا بينيها الرائتين • والتقى بصرى ببصرها عدة مرات ، فكنا فى كل مرة نحمر خجلا ، كأن كلاً منا يشعر بأنه مذنب فى حق الآخر • وأخيرا انصرفت كاتيا ، وهى تضحك •

ودقت الساعة الثالثة ، وألبسونا ثياب النزهة ، فاذا بكاتيا تقترب منى فجأة  
وتقول :

- لم يُربط حذاؤك جيدا • دعيني أربطه ••

فاحمر وجهي احمرارا شديدا ، لأن كاتيا كلمتني أخيرا ، وأردت  
ان أبحني لأتولى ربط حذائي بنفسى ، فقالت كاتيا وهى تضحك :

- دعيني أربطه ••

ثم انحنت ، وأمسكت قدمي رغما عنى ، فوضعتهما على ركبتيها وأخذت  
تربط الحذاء •• فاجتاحنى خوف عذب ، جعلنى ألث ، ولا أستطيع  
لانفعالى حبسا •• فلما نهضت كاتيا بعد أن فرغت من ربط الحذاء ،  
أخذت تنظر الىّ من الرأس الى القدمين •

ثم قالت وهى تلمسنى بأطراف أصابعها :

- والعنق غير مغطى • دعيني أصلح ربط الوشاح ••

ولم أحتج ، فحلت كاتيا وشاحى ، ثم لفت به عنقى على طريقتها ،  
واعادت ربطه •• ولم تلبث أن استطرقت :

- والا فقد تصايين بزكام •

قالت ذلك وهى تبسم ، وتنظر الىّ بعينين سوداوين مفرورقتين •  
أما أنا فكنت فى حالة اضطراب شديد ، لا أفهم شيئا مما يقع لى ،  
ولا أفهم شيئا مما يجيش فى نفس كاتيا • وكانت نزهتنا قصيرة لحسن  
الحظ ، والا لما استطعت أن أمنع نفسى عن الارتماء على عنقها وتقييلها فى  
عرض الشارع ! •• واستطعت مع ذلك ، ونحن نصد السلام ، أن أختلس  
قبلة على كتفها • ولاحظت هب ذلك فارتعشت ، الا انها لم تقل شيئا • ولما  
أتى المساء ألبسوها أجمل حلة • وأنزلوها الى جناح الاميرة أمها ، لثشترك  
فى استقبال الزائرين •

غير أن البيت انقلب رأسا على عقب أثناء الاستقبال • ذلك أن نوبة عصبية ألمت بكاتيا ، فاضطربت الاميرة اضطرابا شديدا ، واستدعت الطبيب • وظهرت على الطبيب علائم الحيرة والارتباك ، وأرجع هذه النوبة ، طبعا ، الى اضطراب السن ، الا اننى كنت أعلم أن حالة كاتيا ترجع الى سبب آخر • وعادت كاتيا فى صباح اليوم التالى الى طبيعتها ، متوردة الخدين ، مرحة المزاج ، تفيض صحة ونشاطا ونزوات •

ورفضت كاتيا طوال فترة الصباح أن تطيع مدام ليوتار ، ثم أرادت فجأة أن تزور الاميرة العجوز • ووافقت الاميرة العجوز أن تأتى اليها كاتيا ، على خلاف عاداتها - فقد كانت العجوز لا تطيق كاتيا ، وكانت تشاجرها بلا انقطاع وترفض أن تراها ! - وبدا الانسجام بين العجوز وكاتيا على أحسن ما يرام ، خلال الساعة الاولى من لقاتهما ، فان الشيطانة الصغيرة أخذت تستغفر العجوز عن أخطائها ، عن كثرة حركتها وصخبها ، عن تعكيرها صفاء الأنسة عمتها • فترقرقت الدموع فى عيني الاميرة العجوز ، وغفرت لها أخطاها فى لهجة رصينة وقورة • ومضت كاتيا الى أبعد من هذا ( وكانت تعتر بشقاوتها ) فزعمت للعجوز أنها نادمة على خطاياها ، تريد أن تصلى وأن تصوم وأن تضرع الى الله • فارتاحت الاميرة التقية لهذه التوبة ، وشعرت فى أعماقها بكثير من الزهو • لقد استطاعت أن تسيطر على هذه الطفلة التى هى كنز البيت ومعبودته ، هذه الطفلة التى كانت أمها نفسها ترضع لجميع نزواتها وتحقق كل رغباتها !

عندئذ اعترفت الشيطانة الحبيثة أنها كانت تنوى أن تعلق بطاقة على ثوب السيدة العجوز ، وأن تسكن الكلب « فالستاف » تحت سريرها ، وأن تكسر لها نظاراتها ، وأن تأخذ جميع كتبها لتضع فى مكانها روايات

فرنسية من مكتبة أمها ، وأن تشتري متفجرات ترميها على أرض غرفتها ،  
وان تدس في جيبيها مجموعة من ورق اللعب •• اعترفت بأنها كانت  
تنوى القيام بسلسلة من الاعمال الخبيثة • فما ان سمعت الانسة العجوز  
هذا الكلام حتى خرجت عن طورها ، واصفرت واحمرت سخطا وغضبا ،  
ولم تستطع كاتيا أن تمتنع عن اظهار فرحها ، فهربت وهى تنفجر ضاحكة •  
ولم تلبث العجوز أن استدعت ابنة أخيها على الفور • وكانت قصة • ظلت  
الاميرة ، خلال ساعتين ، تتوسل الى عمتها ، والدموع فى عينيها ، أن  
تصفح عن كاتيا ، وأن لا تأمر بمعاقبتها ، وأن تنظر بعين الاعتبار الى أن  
الطفلة مريضة • غير أن الاميرة العجوز لم تشأ فى أول الامر أن تسمع  
شيئا ، وصرحت أنها ستعادر البيت فى الغداة ، ولم تهدأ الا حين قطعت  
الاميرة عهدا على نفسها أن تنزل بكاتيا العقاب الشديد الذى تستحقه ، متى  
اهلت من مرضها • وفى انتظار ذلك أنبت كاتيا ثأنيا شديدا ، واقيدت  
الى تحت ، الى جناح أمها • غير أن المذنبه الصغيرة استطاعت أن تفر بعد  
العشاء • فقد لقيتها على السلم بينما كنت أهبط ، ورأيتها تشق الباب ،  
وتدعو « فالستاف » • ففهمت على الفور أنها تدبر انتقاما فظيما • واليكم  
التفاصيل :

لم يكن للاميرة العجوز من عدو ألد من « فالستاف » • وكان  
فالستاف لا يسمح لأحد بمداعبته ، ولا يحب أحدا • انه حيوان مغرور  
صلف الى أبعد حدود الغرور والصلف • كان اذن لا يحب أحدا ، ولكنه  
كان يقتضى الجميع احتراما يراه من حقه • والواقع ان كل من فى البيت  
كان يوفيه حقه هذا من الاحترام ، خوفا ورهبة • ولكن الوضع اختلف  
كل الاختلاف حين وصلت الاميرة العجوز • لقد أهين فالستاف عندئذ  
أفزع اهانة ، اذ منع من الوصول الى الجناح الأعلى !  
وغضب فالستاف فى أول الامر غضبا شديدا ، وظل أسبوعا كاملا

يخدش باب السلم المؤدى الى مدخل الجناح الأعلى ، الا انه لم يلبث أن فهم سبب أقصائه ، حتى اذا جاء يوم الأحد ، ورأى العجوز خارجة الى الكنيسة ، هجم عليها وهو يهمهم ويعوى ، ولم يمكن تخليصها من انتقامه الا بشق الأنفس • وأصبحوا لا يمتنعونه منعا باتا من الصعود الى الجناح الأعلى فحسب ، بل أصبحوا كلما نزلت الاميرة العجوز يقصونه الى أبعاد مكان ممكن • لقد صدرت للخدم أوامر قاسية بهذا الصدد • ومع ذلك استطاع الحيوان الحاقد الحائق أن يصعد الى الجناح الاعلى ثلاث مرات، وكان فى كل مرة يعدو خلال الحجرات انسلالا حتى يصل الى مخدع الاميرة العجوز ، دون أن يقدر أحد على وقفه ، الا أن الباب يكون مغلقا لحسن الحظ ، فما يستطيع فالستاف أن يزيد على الزئير وراءه زئيرا مرعبا الى أن يسارع الخدم فينزلوه الى أسفل • أما الاميرة العجوز فكانت ، طوال زيارته الوقحة ، تصرخ صراخ من يسلمج جلده ، ثم تقع مريضة من شدة الذعر • وأرسلت العجوز عدة مرات انذارا الى ابنة أخيها تقول فيه ان هذه هى المرة الاخيرة ، وان على فالستاف أن يخرج من البيت أو تخرج هى منه ، الا أن الاميرة لم تقرر أن تنفصل عن كلبها •

ذلك أن فالستاف كان أحب سكان البيت الى قلب الاميرة بعد أبنائها،  
واليكم السبب :

ذات يوم ، منذ ست سنين ، جاء الامير الى البيت ، فى عودته من نزهته ، بكلب قدر مريض يرثى لحاله ، وان كان ينتمى الى فصيلة ممتازة من فصائل الكلاب • لقد أنقذ الامير هذا الكلب من الموت • ولما كان القادم الجديد شرس الطبع فظا ، فقد أمرت الاميرة بأن يربط فى فناء المنزل • ولم يعترض الامير على ذلك ••

وبعد سنتين ، بينما كانت الاسرة كلها فى الريف ، سقط «ساشا»

- أخو كاتيا - فى نهر ( نيفا ) على حين غرة • فاخذت الاميرة تصرخ ،  
ورمت بنفسها فى النهر • ولم ينقذوها من موت عاجل محقق الا بعد كثير  
من العناء • أما الطفل ، وقد جرفه تيار النهر السريع ، فقد ظل عائما  
على سطح الماء بفضل تيابه الطافية • وأسرعوا الى قارب ففكوه محاولين  
أن يمشوا به الى الطفل • ولكن كان لا بد من معجزة للعودة بالطفل  
حيا • • وفيما هم كذلك اذا بكلب ضخم يرتدى فى الماء ، ويمضى قدما  
نحو الامير الصغير الذى يوشك أن يغرق ، فيقبض عليه بأسنانه ، ويعدو  
به الى الشاطئ ظافرا • وترتمى الاميرة على الكلب المبلل تقبله ، الا أن  
فالسنتاف ( وكانوا يطلقون عليه حتى ذلك الحين اسما شعبيا هو «فريسكا» )  
كان فى ذلك الحين لا يطيق المداعبات ، فرد على مداعبات الاميرة وعلى  
قبلاتها بعضه فى كتفها عميقة جدا • وقد ظلت الاميرة تحس هذا الجرح  
خلال حياتها كلها ، الا ان ذلك لم يقلل من شعورها نحو الكلب بعواطف  
الشكر والامتنان • وبعد هذه الحادثة أصبح يسمح لفالسنتاف بالتجول  
فى أجنحة المنزل ، ويعتنى بنظافته ويزين جيده بعقد من فضة جميل •  
وصار يحق له أن يستقر فى حجرة الاميرة على جلد فاخر من جلود  
الدبة ، وما لبثت الاميرة أن توصلت الى مداعبته دون أن تخشى عضه  
سريعة قاسية ، وحين علمت أن أثرها هذا يدعى «فريسكا» استاءت استياء  
شديدا وبحثت له ، فورا ، عن اسم جديد ، حرصت على أن يكون من  
أسماء الاقدمين ، ما أمكن ذلك • الا أن أسماء مثل اسم « هكتور » أو  
« سرير » كانت شائعة مبتذلة ، وكان لا بد من ايجاد اسم أليق • واقترح  
الامير أخيرا ، لما يتصف به فريسكا من شراهة قوية ، أن يسميه  
«فالسنتاف» • وسرت الاميرة بهذا الاسم بل تحمست له • وكان سلوك  
فالسنتاف سلوكا لا غبار عليه • كان صامتا وقورا كانهجلىزى حقيقى ،  
لا يتقدم أول المتقدمين أبدا ، ولا يطلب من الجميع الا أن يخلوا له مكانه

على جلد الدب ، وأن يحيطوه بالاحترام اللازم • وكان ذكريات كانت  
توافيه في بعض الأحيان ، فيتملكه نوع من الكآبة : كان في تلك اللحظات  
يفكر في الثأر من عدوته اللدود التي جرؤت أن تفتت على حقوقه ، ولم  
يستطع أن ينتقم منها حتى الآن • • فكان اذا ألقى الباب مغلقا ، قبع في  
ركن قريب ينتظر - مخاتلا - مجيء أحد يدع الباب من ذهوله مشقوقا •  
وأحيانا كان هذا الحيوان الماكر يظل ينتظر هكذا ثلاثة أيام طوالا !

- فالستاف ، فالستاف •

هكذا نادته الاميرة الصغيرة « كانيا » وقد فتحت الباب وأشارت اليه ،  
في رقة ولطف ، أن يتبعنا على السلم •

وكان فالستاف قد شعر بأن الباب يفتح ، فنهيا لاجتياز العتبة • غير  
أن نداء الاميرة الصغيرة بدا له من الغرابة بحيث أنه رفض في أول الامر  
أن يصدق أذنيه • انه ماكر كالهرة : فلكى لا يظهر انه لاحظ ترك الباب  
مفتوحا ، مضى الى النافذة ، ووضع قائمته الجبارتين على حافتها ، وجعل  
يتأمل البيت المقابل ، كما يفعل شخص غريب يتوقف أثناء نزهة ليتأمل  
جمال عمارة قريبة •

كان الترقب يملأ قلبه بشرا ورجاء • تصوروا اذن أية دهشة  
كبيرة ، وأى فرح طافح ، وأية حماسة شديدة لا بد أنه شعر بها حين  
لم يفتح الباب فحسب ، بل نودى عليه ودعى الى الدخول ، بل ضرع  
اليه أن يصعد ويأخذ ثأره المشروع على الفور !

زأر فالستاف زئير الفرخ ، وشمر شفثيه ، ثم مرق كالسهم بوثة  
رهية ظافرة •

وكانت وثبته من القوة بحيث قلبت كرسيها اعترض فالستاف في



طريقه ، فطار الكرسي حتى وقع على بعد مترين من مكانه ، بعد أن دار  
كما يدور الحذروف • كان فالستاف يمسق مروق قبلة خرجت من  
مدفع • وصرخت مدام لوتار مذعورة ، الا أن فالستاف كان قد بلغ الباب  
الحرام ، وأخذ يضربه بقدميه • ولم يستطع أن يفتحه ، فجلس يعول  
عويلا يهز أركان البيت ، وسرعان ما أجابته العجوز بعويل كعويله •  
ولكن فرق الانقاذ ما لبثت أن تقاطرت من كل صوب ، اذ سارع الخدم  
جميعا الى فوق ، واستطاعوا أن يلقوا على فكى الكلب كاماة ، وأن يكبلوا  
قوائمه الاربع ، وأن يربطوا طوقه بحبل ، فاضطر فالستاف ، فالستاف  
الرهيب ، أن يترك ساحة المعركة ، وأن يعود الى أسفل ، على حال من  
الهوان يرثى لها •

#### • واستدعت الاميرة •

ولم تكن المسألة فى هذه المرة مسألة تعلق أو اعتذار • ولكن من ذا  
الذى يجب أن يعاقب ؟ فهمت الاميرة حقيقة الامر من أول نظرة ألقتهما  
على ابنتها • لا مجال للشك • ورأيت كاتيا ممتعة اللون ترتعد خوفا •  
فى تلك اللحظة أدركت الصغيرة المسكينة هول مزحتها • كان يمكن أن  
تقع الشبهات على الخدم ، على أبرياء ، ولكن كاتيا كانت على استعداد لأن  
تعترف بالحقيقة كلها •

سألتهما أمها فى صرامة :

— هل أنت الفاعلة ؟

ونظرت الى كاتيا فهالتنى صفرتها ، فما رأيتنى الا وأنا أتقدم الى  
أمام ، وأقول بصوت جازم :

— أنا التى تركت « فالستاف » يمر !

ثم أضفت ، وقد تبددت شجاعتي بتأثير النظرة المتوعدة التي ألقته  
على الأميرة :

- ولكنى لم أفعل ذلك عن عمد ••

فاتجهت الاميرة الى مدام ليوتار ، وأمرتها قائلة :

- مدام ليوتار ، انزلى بها العقاب الشديد الذى تستحقه !

ثم تركت الغرفة •

نظرت الى كاتيا • كانت واقفة كأنها متجمدة ، وقد أسبلت ذراعيها ،  
وأحنت رأسها الشاحب •

كانت العقوبة الوحيدة التى تنزل باولاد الامير هى أن يحبسوا فى  
غرفة خالية • ولم يكن البقاء فى مثل هذه الغرفة ساعتين بأمر ذى بال ،  
فى ذاته • ولكن حين يوضع الطفل فيها برغم ارادته ، وحين يقال له ،  
زيادة على ذلك ، انه سجين محروم من الحرية ، فالعقاب عندئذ لا يخلو  
من شدة • اذن فقد جرت العادة أن تحبس كاتيا أو أن يحبس أخوها  
خلال ساعتين • أما أنا فقد جعلت عقوبتى أربع ساعات ، لفداحة ذنبى !

لكنى دخلت الى السجن فرحة مسرورة • كنت أفكر فى الاميرة  
الصغيرة ، واعلم ان النصر لى ، ولكنى بدلا من أن أبقي أربع ساعات ،  
بقيت حتى الساعة الرابعة من الصباح • واليكم السبب :

بعد دخولى السجن بساعتين علمت مدام ليوتار أن ابنتها مرضت  
فجأة لدى وصولها من موسكو ، وأنها تريد أن تراها • فتركت البيت  
دون أن تفتن الى وجودى فى السجن • وظنت الوصيصة التى كانت تهتم  
بأمرنا أنه قد أُطلق سراحى ، كما أن كاتيا استدعيت الى أسفل ، وظلت

الى جانب أمها حتى الساعة الحادية عشرة مساء . وذهبت كاتيا حين عادت فوجدت سريري خاليا . وجردتها الوصيفة من ثيابها واضجعتها في سريرها ، ولم تشأ الاميرة الصغيرة ان تسأل عنى ، وكانت واثقة على كل حال من أن خادمتنا « ناستيا » ستعيدنى متى انتهت ساعاتى الاربع فى السجن . الا ناستيا كانت قد نسيتهى ، لا سيما وأنى أتولى خلع ملابسى دائما بنفسى . وهكذا قضى على أن أقضى الليل فى السجن !

وفى الساعة الرابعة من الصباح سمعت قرعا على الباب ، ولاحظت أنهم يحاولون فتحه عنوة . كنت نائمة على ارض الغرفة ، فصرخت جزعة ، الا اننى لم ألبث أن سمعت صوت كاتيا ، وكان يعملو جميع الاصوات ، ثم سمعت صوت مدام ليوتار ، فصوت ناستيا مذعورة ، ثم أصواتنا أخرى . وفتح الباب اخيرا ، ورأيت مدام ليوتار تبكى ، ثم تقبلنى ، وتطلب الى ان اغفر لها انها نسيتهى ، فالقيت ذراعى على عنقها باكية ، وكنت أرتجف من البرد بعد أن قضيت هذا الوقت كله نائمة على الارض ، وشعرت بألم ينفذ الى عظامى . وتظرت أبحث عن كاتيا ، الا انها كانت قد هربت الى غرفتها وقفزت الى سريرها . وحين عدت الى الغرفة كانت قد نامت أو تظاهرت بالنوم . لقد غفت فى المساء بالرغم منها وهى تتظلمنى ، ولم تستيقظ الا فى الساعة الرابعة من الصباح ، فلما لم ترنى فى سريري جنن جنونها فأيقظت مدام ليوتار التى عادت الى البيت فى ساعة متأخرة ، وأيقظت الخادمة ، والوصيفات ، لالطلاق سراحي .

وفى الضحى كان جميع من فى البيت يعرف أمر حبسى ، حتى أن الاميرة نفسها وجدت أن العقوبة قد تجاوزت الحدود . أما الامير فقد رأيته ، لأول مرة فى حياتى ، غاضبا : فقد صعد فى نحو الساعة العاشرة وهو أشد ما يكون احتياجا ، وتوجه الى مدام ليوتار صارخا :

- ماذا صنعت ؟ كيف عاملت هذه الصغيرة البائسة ؟ هذا عمل وحشى ، هذا عمل غير انسانى • طفلة ضعيفة مريضة ، خيالية الى هذا الحد ، جرعة الى هذا الحد ، تحبسينها فى غرفة مظلمة طوال الليل كله ! أتريدين اذن قتلها ! هذه وحشية هائلة ، هذه فسوة فظيعة ، أقول لك هذا بلا مواربة ، وكيف تسمحون لانفسكم بانزال مثل هذه العقوبة ؟ من ذا الذى جرؤ على اختراع هذه العقوبة ؟ من ؟

وحاولت مدام ليوتار المسكينة - وقد أخذ الاضطراب منها مأخذه ، وفاضت عيناها بالدموع - أن تشرح القضية من أولها الى آخرها ، فاعترفت انها نسيتهى بسبب وصول ابنتها من موسكو ، ثم قالت ان هذه العقوبة حسنة فى حد ذاتها ، اذا لم تدم طويلا ، لأن جان جاك روسو نفسه قد دعا الى شىء من هذا القليل •

- جان جاك روسو ؟ •• جان جاك روسو لم يقبل شيئا من هذا • وجان جاك روسو ليس حجة ، يا سيدتى • جان جاك روسو لا يحق له أن يتكلم فى التربية ، كلا ، لا يحق له • جان جاك روسو أهمل أبناء أنفسهم ، يا سيدتى • جان جاك روسو حقير ، يا سيدتى •

- جان جاك ، جان جاك حقير ! ماذا تقول يا سيدى الامير ؟

واحمر وجه مدام ليوتار حتى صار بلون الدم •

كانت مدام ليوتار امرأة طيبة ممتازة ، تكره أن تنضب أكثر ما تكره • ولكن حين يُمسُّ أحد الأثريين الى قلبها بسوء ، حين يطعن أحد فى « كورنى » أو « راسين » ، حين يقدم أحد فى « فولتير » ، أو حين يُعدّ « جان جاك روسو » حقيرا ، فإن الكيل عندئذ يفتح ا

وتفجرت الدموع من عيني مدام ليوتار سسخينة سخية ، وأخذت  
ترتجف من شدة الانفعال •

ثم قالت وقد عجزت عن كبح استيائها :  
- انك تنسى نفسك ، يا سيدى الامير •

وسرعان ما توقف الامير عن الكلام ، ثم اعتذر لمدام ليوتار ، واقترب  
منى فقبلنى قبلة تفيض بخنان عميق ، وحرك يده باشارة الصليب ، ثم  
انصرف •

- مسكين أيها الامير !

قالت مدام ليوتار ذلك ، وهى أشد ما تكون تأثرا • ثم جلسنا الى  
الدرس •

الا أن الاميرة الصغيرة كانت تدرس بغير حماسة • وقيل الذهاب  
الى المائدة بلحظة واحدة ، جاءت الى وقد امتلأت نفسها حمية وارتسمت  
على ثغرها ابتسامة ، فأمسكتنى من كفتى ، وقالت بلهجة متعجلة ، خجلى  
بعض الشيء :

- اذن فأنت قد تحملت العقاب من أجلى ؟ اسمعى • سنلعب بعد  
العشاء فى القاعة الكبيرة •

ومر شخص بجانبنا ، فابتعدت الاميرة الصغيرة مسرعة •

♦♦♦

وبعد العشاء ، عند الغسق ، نزلنا معا الى القاعة الكبرى ، وقد  
أمسكت كل منا بيد الاخرى • كانت الاميرة تعانى انفعالا بلغ من العمق

انها بدت تنفص بأنفاسها • وشعرت أنا بفرح وسعادة يندر أن أشعر  
بمثلهما •

فلما وصلنا الى القاعة قالت :

– هل تحيين أن تلعبى بالكرة ؟ ففى هنا •

وأوقفتنى فى احدى زوايا الصالة • الا انها بدلا من أن تبتعد ،  
وترمى الىّ بالكرة ، توقفت على بعد ثلاث خطوات منى ، ونظرت الىّ ،  
فأحمر وجهى ، ثم اندفعت نحو الديوان فجلست عليه جاعلة وجهها بين  
يديها • وتحركت نحوها • فظننت اننى أهم أن أمضى فقالت :

– لا تذهبى يا نيتوشكا • ابقى معى •

ثم ما لبثت أن وثبت من مكانها ، وقد احمر خدّاها وترقرق الدمع  
فى عينيها ، فارتمت على عنقى مسرعة • كانت وجنتاها كالنار حارقة ،  
وكانت شفثاها كالحوخ حمرة وتوربا ، وكانت خصلات شعرها مضطربة • •  
وأخذت تغمرنى بقبيل محمومة مجزونة : على الوجه ، على العين ، على  
الشفنين ، على الخدين ، على اليدين • كانت تشهق وتتنحب كأنها فى  
نوبة عصبية • وضممتها الى صدرى ضما قويا ، ثم ظللنا متعانقتين فى حنان ،  
كصديقين ، بل كعشيقين يلتقيان بعد طول بعاد • وكان قلب كاتيا يخفق  
خفقانا شديدا ، حتى سمعت ضرباته •

وفيما نحن كذلك ، اذا بصوت يدوى فى النسرقة المجاورة • ان  
الاميرة أرسلت تستدعى كاتيا •

– آه ، نيتوشكا • الى اللقاء فى هذا المساء ، فى هذه الليلة •

اصعدى • انتظرينى فى الطابق الأعلى •

وقبلتني قبة أخيرة ، عذبة قوية ، وخرجت تسنجيب لنداء «ناستيا» .  
صعدت مسرعة كمن بعث الى الحياة بعد موت • فارتيمت على « الديوان »  
وأغرقت رأسي في وسادة ، وأخذت أشهق من تنده الفرحة • كاد قلبي  
يشق صدري من شدة الخفقان • لا اتذكر الا ان كيف استطعت التذرع  
بالصبر الى الليل • وأخيرا دفت الساعد الحادي عشره ، واضطجعت في  
سريري •• ولم تعد كاتيا الا في منتصف الليل • فتبسمت لي من بعيد ،  
دون أن تبس بكلمة ، وكانت ناستيا كأنها تتعمد البعد في تجريدتها من  
يابها ، فدمدمت كاتيا تقول :

.. عجلي ، يا ناستيا ، عجلي •

.. ماذا بك ، يا أميرة ؟ ان قلبك يخفق خفقانا قويا • لا شك انك  
سمعت السلم عدوا •

.. هوه ! ناستيا • انك تزعجيني • عجلي • قلت لك عجلي •

وضربت برجلها الارض مغتاظة •

قالت ناستيا وهي تقبل قدم الاميرة الصغيرة بعد أن جردتها من  
حذائها :

.. هذا القلب الذي يخفق !

وانتهى أخيرا كل شيء : اضطجعت كاتيا على سريرها ، وخرجت  
ناستيا من الغرفة • وفي طرفه عين ، رأيت كاتيا تخرج من سريرها ،  
وتشب الي ، فما ان لمستني حتى انطلقت من صدري صرخة •

.. هلمى • تعالى • تعالى الى سريرى • أسرعى •

أمرتني بذلك وهي تنهضني • وما هي الا لحظة حتى كنا في

سريرها متعانتين أضنها وتضمنى ضما قويا • كانت قبلات كاتيا تخرج  
من أعماق روحها •

قالت قد احمر وجهها حتى أصبح بلون الدم :

– هل تعلمين اننى رأيتك حين قبلتني فى الليل ؟

فطفقت أشهق • بينما همست كاتيا ، من خلال دموعها تقول :

– نيتوتشكا ، عزيزتى ، اننى أحبك منذ زمان طويل ، هل تعلمين ؟

هل تريدين أن أقول لك منذ أى يوم ؟

– منذ أى يوم ؟

– منذ اليوم الذى أمرنى فيه أبى أن أعتذر اليك •• منذ ذلك اليوم

الذى أردت فيه أن تدافعى عن أبىك ، يا نيتوتشكا ••

وأردفت تقول وهى تغمرنى بالقبل ، وتضحك فى آن واحد :

– يتيمتى العزيزة ••

– كاتيا !

– ماذا ؟

– لماذا ظللنا طوال هذه المدة •• طوال هذه المدة ••

ولم أستطع أن أتم كلامى • وتناقنا • وخيم الصمت ثلاث دقائق

– ما كان رأيك فى " يا نيتوتشكا ؟

– آه ، يا كاتيا • كنت لا أفعل شيئا غير أن أفكر فىك ، ليل نهار •

– وكنت فى الليل تتكلمين عنى • سمعتك •



- مستحيل ♦

- بلى ! ما أكثر ما بكيت ♦

- اذن لماذا كنت قاسية كل هذه القسوة ؟

- كنت حمقاء ، يا نيتوتشكا ♦ هذه الحماقة تتملكنى أحيانا ♦ ولا  
أستطيع لها دفعا ♦ كنت حاقدة عليك ، هذا كل ما فى الأمر ♦

- لماذا كنت حاقدة على ؟

- لا لسبب ♦ لأننى شريرة ♦ ثم لأنك أحسن منى ♦ ثم لأن أبى  
يجبك كثيرا ♦ ان أبى انسان طيب جدا ، ألا ترين معى هذا يا نيتوتشكا ؟

- أوه ♦ بلى ♦ بلى ♦

قلت ذلك ، وقد تفرق الدمع فى عيني ، على ذكر الامير ♦  
وأضافت كاتيا ، فى لهجة رصينة :

- انه انسان طيب جدا ♦♦ ثم اننى حين طلبت اليك الصفع ، كنت  
على وشك أن أبكى ♦♦ وبسبب هذا أيضا حققت عليك ♦

- نعم ♦ لاحظت ذلك ♦ لاحظت أنك تودين لو تبكين ♦

فصرخت كاتيا وقد وضعت يدها على فمى :

- أسكتى ♦ أنت نفسك تميلين للبكاء ♦ اسمعى ♦ آه ♦ لقد أحبيتك  
حبا قويا ♦ ولكن ، فجأة ، رأيتنى. أكرهك ، أكرهك كرها ، هل  
تسمعين ؟

- لماذا ؟

- لا لسبب • كنت حاقدة عليك ، لا أدري لماذا ! ولاحظت انك  
لا تستطيعين أن تعيشي بدوني • قلت في نفسي : فلأعذبها قليلا ••

- آه • كاتيا •

وَأردفت كاتيا تقول ، وهي تقبل يدي :

- جييشي •• ثم قررت أن لا أكلمك أبدا • هل تذكرين يوم  
داعبت فالستاف ؟

- آه • لشد ما أخفنتي !

- ولشد ما خفت أنا أيضا • هل تعلمين لماذا أقدمت على مداعبته ؟  
- لماذا ؟

- لأنك كنت تنظرين اليّ • حين رأيت انك تنظرين اليّ •• قلت  
في نفسي : ليكن ما يكون •• وجازفت •• ألم تخافى خوفا شديدا ؟  
- خوفا فظيما !

- لاحظت • لو تعلمين كم سررت حين انسحب فالستاف • رباه !  
•• ولشد ما ارتعدت خوفا ، بعد ذلك ، حين ابتعد •• هذا الغول !  
ثم انطلقت من صدر الاميرة الصغيرة ضحكة عصبية • وفجأة ،  
رفعت رأسها المحموم ، وأخذت تحديق في • كانت دموع كاللؤلؤ ترتجف  
على حافة أهدابها الطويلة •

- ولكن علام أحبك كل هذا الحب ؟ انك شاحبة • وشعرك  
الزاهى قبيح • وأنت غبية •• وبكاءة • نعم يا يتيمة الصغيرة العزيزة !  
وعادت كاتيا تفرقني بقبالاتها ، وسالت قطرات دموعها على عنقي •  
انها مضطربة أعمق الاضطراب •

- نعم أحببتك كثيرا + ولكنى قلت فى نفسى : كلا ، كلا ، ثم كلا +  
لن أصارحها + وأصررت على عنادى + لماذا كنت خائفة ؟ لماذا كنت  
خبلة ؟ آه ، هل ترين كم نحن سعيدتان الآن ؟

قلت فى غمرة من الفرح الطافح :

- اننى أشعر بألم فى كل موضع من جسمى + ان قلبى يوشك أن  
يتحطم !

- نيتوتشكا + اسمى + نعم اسمى + ولكن قولى : من أسماك  
نيتوتشكا ؟

- أمى +

- ستروين لى كل شىء عن أمك ، أليس كذلك ؟  
فأجبت فى حماسة :

- نعم + كل شىء ، كل شىء +

- وأين المنديلان اللذان سرقتهما منى + وأين شريط شعرى ؟  
لماذا أخذت شريطى ؟ ألا تخجلين ؟ اننى أعرف كل شىء ، هل ترين ؟  
وأخذت أضحك ، واحمر وجهى حتى طفرت من عيني الدموع +  
واستأنفت كاتيا كلامها :

- قلت فى نفسى + كلا + فلتنتظر + يجب أن أعذبها أولا + وكنت  
أقول لنفسى فى بعض الأحيان : كلا ، اننى لا أحبها ، لا أحبها أبدا ولا  
أطيق رؤيتها + وبقيت أنت لطيفة وديعة مثل حمل + آه ! لشد ما كنت

أخشى أن تعدينى بليدة ! ذلك أنك ذكية يانيتوتشكا ! أنت ذكية جدا ،  
أليس كذلك ؟

قلت ، وقد كادت كرامتى تجرح :

- لماذا تتكلمين هكذا ، يا كاتيا ؟

فأجابت كاتيا فى لهجة رصينة جازمة :

- بل انت ذكية ، هذا أمر لا شك فيه . وفى ذات صباح ، استيقظت  
من نومى وأنا أشد ما أكون حبا ولوعة . لم أطق ذلك ، وكنت قد حلمت  
بك الليل كله . عندئذ قررت أن أمضى الى أمى أرجوها أن تقبلنى فى  
غرفتها . كنت أريد أن لا أحبك ، نعم ، كنت أريد أن لا أحبك . وفى  
الليلة التالية ، رأيتنى أقول لى نفسى وقد اضطجعت فى سريرى : آه . . .  
ليتها تأتى كما أتت فى تلك الليلة ! لقد عرفت كيف أتظاهر بالنوم فى  
تلك الليلة . أليس كذلك ؟ لكم يستطيع الانسان أن يكون خبيثا ،  
يا نيتوتشكا !

- ولماذا كنت تمنعين نفسك من حبى ؟

- لغير ما سبب . هى فكرة راودتنى . ولكن ماذا أقول ؟ لقد  
أحبتك يا نيتوتشكا ، أحبتك دائما . وكنت أقول لى نفسى : سأخفقها  
بالقبل ، وسأذل أعضاء وأقرصها حتى أفجر الدم من جسمها ، وسيسرها  
ذلك ، هذه الحماة الصغيرة !

وتوقفت قليلا ، ثم قالت :

- هل تذكرين ، يوم ربطت لك حذاءك ؟

- أذكر .

- كنت مسرورة جدا ، أليس كذلك ؟ نظرت يومئذ إليك ، وأنا أقول فى نفسى : ما ألطفها ! .. سأربط لها حذاءها ، لأرى ما وقع ذلك فى نفسها ! وكنت أنا فرحة . هل تذكرين ؟ واشتهيت لو أقبلك . ولكننى لم أقبلك . وما أكثر ما ضحكت فى سرى بعد ذلك ا ، نعم ، ما أكثر ما ضحكت فى سرى ا طوال النزهة لم أفعل شيئا غير أن أحبس نفسى عن الضحك ، حتى اننى لم أستطع أن أنظر إليك ! آه . وما كان أشد سرورى حين كنت فى السجن ! لشد ما أسعدنى أن أشعر انك فى السجن من أجلى . هل فزعت ؟

- فرعا فظيما .

- لم يسعدنى انك اتهمت نفسك ، وانما أسعدنى انك فى السجن نيابة عنى . هل تفهمين ؟ قلت فى نفسى : انها تبكى بينما أحبها أنا كل هذا الحب ! غدا سأقبلها ، نعم سأقبلها كثيرا . والحق اننى لم أشفق عليك ، لم أشفق عليك أبدا ، أبدا . ومع ذلك فقد بكيت .

- اما انا فما بكيت . كنت سعيدة جدا ا

- ما بكيت ؟ آه منك أيتها المفسدة الصغيرة !

قالت كاتيا ذلك وهى تقبلنى قبلة عفيفة .

- كاتيا ، كاتيا . انك لطيفة جدا .

- أليس كذلك ؟ نعم . والآن تستطيعين أن تصنعى بى ما تشائين .

تستطيعين أن تعذبينى . أن تقرصينى . أرجوك . اقرصينى بقوة .

- عفريتة ا

- وماذا أيضا ؟

- حمقاء صغيرة !

- وماذا أيضا ؟

- قبيلتي •

وتبادلنا القبل ، وبكىنا ، وأخذنا نضحك •• وتورمت شفطانا من قوة

القبل •

- يتوتشكا ! ستماين دائما معي • ثم ، هل تحبين القبل ؟ اذن أقبلك

وتقبليني • ثم انتي لا أريد أن تكوني حزينة هكذا ! لم أنت حزينة ؟

ستقولين لي كل شيء ، أليس كذلك ؟

- نعم ، سأقول لك كل شيء • ولكنني لست حزينة الآن ، انتي

فرحة •

- كلا ، يجب أن تكون وجنتاك متوردتين ، مثل ! آه • لا أحب

أن يأتي الغد • هل أنت تصسة يا يتوتشكا ؟

- كلا •

- اذن فلنتحدث • هيا نتحدث •

وتحدثنا ساعتين ، لا أدري فيم تحدثنا ! شرحت لي كاتيا خطتها

للمستقبل ، وشرحت لي الوضع الحاضر • علمت أنها تحب أباه أكثر من

أى انسان آخر ، أكثر مما تحبني تقريبا • واتفقنا كلثانا على ان مدام

ليوتار امرأة طيبة ممتازة ، غير قاسية البتة • ثم تخيلنا ما سنفعله غدا ،

وما سنفعله بعد غد ، بل رسمنا برنامجا يمتد الى عشرين سنة ، على أقل

تقدير ! •• وارتأت كاتيا أن تجرى الامور هكذا : يوما تأمر وأطيع ،

ويوما امر وتطيع ، ويوما نامر كلتانا وتعمد احدانا ان لا تطيع فنتظاهر بالمخاضمة ثم نسارع الى المصالحة • الخلاصة : ان سعادة كبرى انفتح طريقها امامنا • واخذ منا التعب مأخذه ، من فرط ما نثرنا ، واطبقت أجفاننا • ونامت كاتيا قبلى ، مع انها هزئت بى لأننى كنت أتتاب • وفى الصباح استيقظنا فى وقت واحد ، فبادلنا قبلة على عجل ، لأننا سمعنا وقع خطوات تقترب من الباب ، وسارعت الى سريرى •

وطوال النهار كنا من شدة الفرح كمن طاش عقله • وحرصنا على أن نختبىء دائما فى أقصى مكان ممكن خشية أن يراانا أحد • وبدأت أخيرا اروحى لكاتيا قصتى ، فكانت تصنى الى مضطربة الى حد البكاء •

– لماذا لم تقصى على كل هذا من قبل ، ايها الحبيشة ؟ لو قد قصصته على لكنت أحببتك ، لكنت أحببتك كثيرا ! أكان يعذبك كثيرا هؤلاء الصبية الذين كانوا يضربونك فى الشارع ؟

– جدا • وكنت أخاف ، أكاد أموت من الخوف !

– آه ، من هؤلاء الاشقياء ! رأيت مرة فى الشارع صبيا يضرب صبيا آخر • غدا سأخذ سوط فالستاف خفية ، وأمضى الى الشارع ، فاذا رأيت صبيا من هذا النوع ، جلده ، جلده جلدًا • سترين !

••• والتهمت عينها حنقا وسخطا •••

كنا نرتجف اذا دخل علينا أحد ، كنا نرتعد خوفا من أن يباغتنا متعاقبتين • وتعاقنا فى ذلك اليوم مائة مرة على أقل تقدير • هكذا انقضى اليوم الاول ، فاليوم التالى •

الا ان سعادتنا لم تدم طويلا !

كان على مدام ليوتار أن تنقل الى الاميرة كل حركة من حركات  
ابنتها وكل سكرة من سكناتها ، فراقبتنا خلال ثلاثة ايام ، وجمعت فى هذه  
المدة كثيرا مما يمكن أن يقال . واخيرا ذهبت الى الاميرة ، وقصت عليها  
كل ما لاحظته : ذكرت لها اننا فى نشوة عظيمة ، اننا لا نفترق لحظة من  
اللحظات ، اننا نتعانق فى كل دقيقة ، أو نبكى ، أو نضحك كالمجانين ،  
اننا لا نقطع عن الحديث لحظة ، وهذا امر لم يقع قط من قبل . . . وأنها  
لا تعرف كيف تعلق هذه الامور ، وان أغلب الظن عندها ان الأميرة الصغيرة  
تعانى أزمة مرضية ، وان من الأفضل على كل حال أن لا نلتقى كثيرا .

وقالت الاميرة :

- اننى أفكر فى هذا منذ زمان طويل . كنت أعرف أن هذه  
اليئمة العجيبة ستسبب لنا كثيرا من المتاعب . ان ما قصوه على عن حياتها  
أمر فظيع ، فظيع جدا . ولا شك انها تؤثر فى كاتيا تأثيرا سيئا . تقولين  
ان كاتيا تحبها كثيرا ؟

- جبا لا يعرف الحدود !

واحمرت الاميرة من الغيظ . ان هذه العاطفة التى تشعر بها ابنتها  
نحوى شير غيرتها !

وقالت الاميرة متعجبة :

- عجيب . لقد ظلنا غريبتين احدهما عن الاخرى مدة طويلة ،  
ويجب أن أعترف بأن ذلك قد سرنى كثيرا . ان هذه اليئمة ما زالت  
صغيرة ، غير أنها لا توحى الى بالثقة . هل تفهمين ؟ لقد رضعت مع  
الحليب تربية خاصة ، وعادات خاصة ، ولعلها رضعت كذلك سلوكا



مشبوها • لا أفهم تعلق الامير بها • لقد حاولت ألف مرة أن أرسلها الى مدرسة داخلية ، فكان الامير يرفض ذلك •

وودت مدام ليوتار لو تشفع لى ، لكن الاميرة كانت قد عزمت على التفريق بيننا عزمًا لا يتزعزع •• فما لبثت أن استدعت كاتيا ، وأبلغتها أنها لن ترانى قبل يوم الاحد القادم ، أى قبل انقضاء أسبوع كامل !

وقد بلغنى ذلك متأخرا ، فى المساء ، فصعقت للنبا ، واعتقدت أن كاتيا لن تتحمل هذه القطيعة أبدا ، وبلغ منى القلق المبرح اننى مرضت أثناء الليل • وجاءنى الامير فى الصباح يهمس فى أذنى أن لا أقطع الرجاء ، وكان قد حاول فعلا أن يشئ الاميرة عن عزمها ، الا انه لم يظفر بطائل ، فان الاميرة لم تتزحزح عن رأيها قيد شعرة ، واجتاحنى اليأس شيئا فشيئا حتى خنق أنفاسى ••

وفى صباح اليوم الثالث جاءتنى ناستيا بكلمة كتبها كاتيا بالقلم الرصاص بأحرف كبيرة ركيكة :

« أحبك كثيرا • اننى أبقى الى جانب ماما ، ولكننى لا أفكر الا فى شئ واحد ، هو أن أهرب اليك ، وسأتوصل الى ذلك • أعدك وعدا قاطعا • يجب اذن ألا تبكى • أكتبى الى انك تحييننى • ظللت طوال الليل أحلم بك وأقبلك • لقد تأملت كثيرا ، يانيتوتشكا • أرسل اليك بعض الحلوى • الى اللقاء • »

وأجبت على رسالة كاتيا برسالة من نوعها • وظللت طوال النهار أغرق رسالتها بالدموع • وألحت مدام ليوتار فى مواساتى • وبلغنى فى المساء انها ذهبت تقول للامير انها نادمة على الوشاية بنا للاميرة ، واننى سأمرض مرة ثالثة ، ما فى ذلك ريب ، اذا أنا لم أر كاتيسا •• وسألت

نامتيا عن كاتيا ، فذكرت لى ان الاميرة الصغيرة لا تبكى ، ولكنها شاحبة  
شحوبا رهيبا •

وجاءتني نامتيا فى صباح اليوم التالى تهمس فى أذنى :

– اصعدى الى حجرة سعادة الامير ، على السلم الايمن •

شعرت أن سعادة تنتظرنى ، فانتعشت روحى ، وأسعدت أعدو على  
السلم لاهثة ، حتى بلغت باب حجرة الامير ، ففتحته • لم تكن كاتيا  
هنالك • ولكن سرعان ما شعرت بها تعانقنى من خلف ، وتأخذ تقبلنى  
فى عنف وحرارة • وكانت ضحكات ، وكانت دموع •• ثم اذا بكاتيا  
تنتزع نفسها منى فجأة ، وتوجه الى أبيها تسلق كتفيه ، ثم تفقد توازنها  
فتسبح على « الديوان » هى وأبوها • كانت كاتيا تبكى من شدة الفرح •

– أبت • أبت • كم أنت طيب ! كم أنت نبيل !

– أيتها الشيطانان الصغيرتان ! ماذا حل بكما ؟ ما هذه الصداقة ؟  
ما هذا الحب ؟

– اسكت يا أبت • انك لا تعرف شيئا من هذا !

وغرقنا فى القبل مرة اخرى •

وتفرست عندئذ فى كاتيا : لقد نجلت فى هذه المدة : ذهبت ألوان  
وجهها فى هذه الايام الثلاثة ، وأصبحت شاحبة • وحزنت لهذا حتى  
بكيت •

وأخيرا جاءت نامتيا تفرع الباب ، وكان معنى ذلك أنهم يستدعون  
كاتيا •• فامتقع لونها امتقاعا شديدا •

وقال الامير :

ـ كفى ، أيتها الصغيرتان • سنلتقى معا فى كل يوم • فلتودع كل  
منكما الاخرى الآن • وليارككما الله •

لقد أثر فيه منظرنا تأثيرا كبيرا • الا أن الامير قال ما قال دون أن  
يحسب حساب المفاجآت • ففى مساء ذلك اليوم نفسه جاء نبأ من موسكو  
يقول ان « ساشا » مرض فجأة ، وان حياته فى خطر • فقررت الاميرة  
أن تسافر الاسرة الى موسكو فى الغداة • وتم تنفيذ القرار بسرعة عظيمة ،  
حتى اننى لم أعلم بشئ الا لحظة الوداع • وقد أصر الامير على أن انزل  
مودعة ، ووافقت الاميرة على مضمض • أما كاتيا فكانت كأنما صعقها نبأ  
السفر صعقا • وقد عدت الى أسفل كالمجنونة وارتميت على عنق كاتيا •  
كانت العربية تنتظر أمام الباب • ولما رأتنى كاتيا انطلقت من صدرها  
صرخة ، وسقطت بلا وعى • أغرقتها بالقبل • الا أن الاميرة أمرت بأن  
ترد كاتيا اليها • وانتعشت أخيرا ، فطوقتنى بذراعيها • ثم قالت وهى  
تنفجر فى ضحكة مباغثة ، ويرتسم على وجهها تعبير لا يمكن وصفه :

ـ الى اللقاء يا نيتوتشكا • لا تنظرى الى هكذا • لست مريضة •  
بعد شهر أعود • ولا فراق بعد ذلك أبدا •

فقالت الاميرة فى لهجة باردة جافة :

ـ كفى • هيا بنا •

الا أن كاتيا التفتت الى مرة أخرى لتضمنى بذراعيها • وهمست  
وهى تقبلنى :

ـ أنت حياتى كلها • الى اللقاء •

وبعد هذه القبلة الاخيرة ، غابت الاميرة الصغيرة ، مدة طويلة جدا •  
لم ألقها الا بعد ثمانى سنين !

لقد أسهبت - عن عمد - فى قص تلك الفترة من طفولتى ، أعنى فترة ظهور كاتيا فى حياتى • ذلك أن تاريخينا لا ينفصل أحدهما عن الآخر • ان روايتها هى روايتى • لكأن القدر قد شاء أن تجد احدانا الاخرى • لذلك لم أستطع أن أمتنع عن لذة التوقف على ذكريات هذه الفترة من طفولتى • وسأسرع فى سرد ما بقى مما أريد سرده •

أصبحت حياتى بعد سفر كاتيا حياة هادئة ساكنة ملازمة للبيت •• ( لم أستيقظ منها الا فى نحو السنة السادسة عشرة من عمري ، ان صح التعبير ، كما سيحكي •• بيان ذلك •• )

ولكن لا بد من بضع كلمات عما صرت اليه بعد سفر أسرة الاميرة الى موسكو •

بقينا أنا ومدام ليوتار وحدنا •

وبعد خمسة عشر يوما جاء رسول من الامير يبلغنا ان عودة الاسرة قد أرجئت الى حين • ولما كانت مدام ليوتار لا تستطيع أن تذهب الى موسكو ، لأسباب عائلية ، فقد اضطرت الى ترك خدمة بيت الامير • الا أنها ظلت فى خدمة هذه العائلة نفسها ، اذ انتقلت الى منزل الابنة الكبرى للاميرة ، « الكسندرين ميخائيلوفنا » •

وأنا لم أتحدث بعد عن الكسندرين ميخائيلوفنا - وكنت لم أرها ، على كل حال ، الا مرة واحدة - وهى ابنة الاميرة من زواج أول • ولم يكن محنت الاميرة بالمحنت الرفيع ، ولا كان أهلها من وجوه الناس فى المجتمع ، وكذلك لم يكن زوجها الأول سوى تاجر خمور • وحين تزوجت مرة أخرى لم تعرف ماذا تصنع بابنتها من الزوج الاول • لم تكن تأمل لها زواجا ممتازا ، لأن المهر الذى يخصها كان ضئيلا • وأخيرا

استطاعت الاميرة منذ أربع سنين أن تزوجها رجلا غنيا ذا مكانة رفيعة،  
فدخلت الكسندرين ميخائيلوفنا ، بهذا الزواج ، حلقة من المجتمع غير  
حلقة أمها ، وأصبحت تلقى أناسا يختلفون كل الاختلاف عن تلقاهم  
أمها . وكانت الاميرة تزورها مرتين في السنة ، كما كان الامير ، زوج  
أمها ، يأتيها بكاتيا مرة كل أسبوع . ولكن الاميرة أصبحت في المدة  
الاخيرة لا تحب أن ترسل كاتيا الى أختها ، فكان الامير يأخذها اليها  
خفية . وكانت كاتيا تحب أختها حبا عظيما ، رغم أن طبع كل من الاخنتين  
كان نقيض طبع الاخرى .

كانت الكسندرين ميخائيلوفنا شابة في الثانية والعشرين من عمرها ،  
ناعمة رقيقة ودوداً ، يظلل وجهها نوع من الألم الحبيب . على أن الوقار  
والرصانة لم يكونا يوافقان ملامحها الملائكية الجميلة أكثر مما توافق  
الطفلة آنياب الحداد ، فلم تكن تستطيع أن تراها دون أن تشعر نحوها  
بحب عميق . ومن فرط شحوبها قيل يوم رأيتها لأول مرة ان بها  
استعدادا للاصابة بمرض السل .

وهي لا تحب أن تزار أو تزور ، بل تعيش حياة عزلة وانزواء .  
وأذكر اني حين جئت لأرى مدام ليوتار اقتربت مني وقبلتني في كثير  
من العطف والحنان . وكان في صحبتها رجل نحيل ، مشرف على الهرم ،  
فما ان رأيتني حتى أخذ يبكي . انه العازف على الكمان «ب» . وطوقتني  
الكسندرين ميخائيلوفنا بذراعيها ، وسألتنى هل أحب أن أعيش في بيتها  
وان أصبح ابنتها ، فتأملتها لحظة وعرفت فيها أخت كاتيا ، حبيبتى ، فاذا بي  
أرتدى على عنقها ، منقبضة القلب ، كأن أحدا دعاني مرة أخرى بكلمة  
« يتيمة » . وعندئذ أرتنى الكسندرين ميخائيلوفنا رسالة من الامير تضم  
بضعة أسطر ، موجهة الى ، قرأتها وأنا أجهش ببكاء عميق . كان الامير

باركنى فيها ويتمنى لى حياة مديدة سعيدة ، ويطلب الى أن أحب ابنته  
الكبرى • وقد كتبت كاتيا بضع كلمات أيضا فى حاشية الرسالة ، تذكر  
فيها انها الآن لا تفارق أمها •

وهكذا وجدتنى ، فى ذلك المساء ، فى كنف أسرة أخرى ، فى منزل  
آخر ، بين وجوه جديدة ! •• وانتزع من قلبى ، مرة ثانية ، كل ما كان  
عزيزا على ، كل ما كان قريبا الى • لقد وصلت الى هذا المأوى الجديد  
وفى نفسى غم عميق ••

والآن تبدأ قصة جديدة •

## الفصل السابع



حياتي الجديدة بلا صدمات ولا عثرات ، فى جو من الصمت والسكون ، كأنه جو دير من الأديرة ! .. فقضيت بين أحضان هذه الأسرة الجديدة ثمانى سنين لا أذكر أنه أقيمت خلالها حفلة ساهرة ، أو دعى ضيف الى مأدبة ، أو عقد اجتماع يضم أقارب أو أصدقاء أو معارف ، اللهم الا مرة أو مرتين ! .. وفيما عدا شخصين أو ثلاثة كانوا يترددون على المنزل زائرين ، وفيما عدا الموسيقى «ب» صديق الأسرة ، وفيما عدا الأشخاص الذين تدعوهم أعمالهم الى لقاء زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، لم يكن يفشى المنزل أحد . وكان هذا الذى أسميته زوج الكسندرين ميخائيلوفنا مشغولا بأعماله دائما لا ينعم الا بقليل من أوقات الفراغ يوزعها بين أسرته وبين علاقاته فى خارج البيت . وكانت علاقاته هذه كثيرة هامة لا يستطيع اهمالها ، وتضطره الى الظهور فى المجتمع الراقى . ولئن كان يوصف عامة بأنه ذو طموح لا حد له ، فقد كان يُعرف الى جانب ذلك بأنه امرؤ جدى رصين ، سيما وانه يحتل

مكانة مرموقة جداً • كان الحظ والنجاح يتسمان له ، فكان رأى الناس فيه حسنا ، بل كان جميع الناس يحبونه ، ولكنهم كانوا فى مقابل ذلك يفضون بهذا الحب على امرأته • لقد كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تعيش فى عزلة تامة ، وكانت تجد فى هذه العزلة راحة ولذة ؛ كان طبعها الهادىء قد فطر على حب الانزواء •

وقد تملتق بى تملقا قويا صادقا ، وأحبتنى كأننى ابنتها • أما أنا فقد ارتيمت فى أحضان هذه الأم الرعوم على ظمأ شديد ، عاجزةً عن حبس دموعى بعد فراق كاتيا •• ولم يقتر هذا الحب العنيف الذى منحتها اياه لحظة واحدة بعد ذلك • كانت لى أما وأختا وصديقة ، أو كانت بمشابهة مصب لجميع ما أشعر به من عواطف الحب • وقد عنيت بى ودللتنى طوال مرحلة المراهقة التى قضيتها فى كفها • ثم اننى أدركت منذ البداية ، بنوع من الغريزة أو الحدس ، أن حظ هذه المخلوقة ليس لامعا الى الحد الذى يمكن أن توحى به هذه الطمأنينة الهادئة فى حياتها ، وهذه الحرية الظاهرة ، وهذه الابتسامة الراقية الصافية التى تضيء وجهها فى غالب الاحيان • وكنت فى كل يوم أزداد فهما للمصير الحزين الذى تعيشه ( وقد نفذ قلبى الحزين الى هذا فى بطنه ومشقة ) ، فكانت عاطفتى نحوها تزداد فى كل يوم قوة ••

كانت « الكسندرين » ضعيفة الارادة • وكان وجهها يضىء بطمأنينة هادئة ، اذا رآها الرائي لأول مرة لم يحسب أن فى وسع أى نوع من أنواع المتاعب ، مهما ضؤل ، أن ينفذ الى هذه النفس المطمئنة •• ثم انك اذا رأيتها أدركت أنها لا يمكن أن تكرر أحدا مهما يكن شأنه : ان عواطف الرحمة تتغلب فى نفسها على مشاعر الكره • ومع ذلك كان أصدقاؤها قلة ، وكانت تعيش فى عزلة تامة ••



وعلى أنها قوية العواطف شديدة التأثير ، فقد كان يبدو أنها تخشى  
مشاعرها وتراقب قلبها ، ولا تسمح له بأى انحراف ، ولو فى الحلم ! ..  
وكنت فى بعض الاحيان أرى دموعا فى عينيها ، كأن ذكرى ثقيلة خانقة  
تعذب ضميرها ، وتحز فى نفسها .. كأن شرا مستطيرا يهوم فوق  
سعادتها ، ويهم أن ينقض عليها ! .. كلما بدت أسعد ، وكلما لاحت  
حياتها أهدأ وأقرب الى الطمأنينة ، كانت نوبة القلق أدنى الى موافاتها .  
وكانت الدموع أسرع الى التفجر من عينيها على حين غرة . وكان ذلك  
يراودها نوبات قاسية ، فما أذكر أن شهرا واحدا قد انقضى خلال هذه  
السنين الثماني دون أن يتبها شئ من ذلك ! ..

وكان يلوح على زوجها انه يحبها حبا جما ، وكانت هى من جبتها  
تكن له حبا يقارب العبادة ! .. ومع ذلك ، كان يخيل الى الرائي ، من  
أول نظرة ، أن بين الزوجين أمورا خفية . كأن ثمة سرا يحوم فوق  
حياة هذه المرأة .. أو ذلك على الأقل ما قدرته فورا !

♦♦♦

وقد أوحى الى زوج الكسندرين ميخائيلوفنا من أول نظرة بشعور  
مؤلم لم تزده السنون الا تفاقما . كان رجلا نحىلا طويلا ، خيّل الى كأنه  
يخفى عينيه ، عمدا ، بنظارتين خضراوين ضخمتين . وكان فاتر المزاج ،  
قليل الكلام ، لا يجد موضوعا للحديث حتى حين يخلو الى زوجته .  
كان كأنما يزعجه وجود شخص آخر الى جانبه !

وكان لا يلتفت الى البتة ، وكنت مع ذلك أشعر من وجوده بكثير  
من الضيق والحرج ، حين يتفق أن نحسى الشئ جميعا فى صالة  
الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت أضطرب وأغتم ، وأختلس النظر الى  
الكسندرين ميخائيلوفنا ، فأشعر انها ترتجف . كانت ازامه تراقب كل

حركة من حركاتها ، وكان لونها يمتقع اذا رأته أكثر كآبة وصمتا مما عهدت فيه من كآبة وصمت ، وكانت في بعض الاحيان تحمر فجأة ، كأنما هي تدرك في كلامه غمزا أو تلميحا ! .. وأدرت أن حياتها مع مثل هذا الرجل حياة شاقة مرهقة ، ومع ذلك فقد كان واضحا أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه دقيقة واحدة •

ولشد ما أدهشني انتباه هذه المرأة العجيب الى زوجها ، الى كل كلمة من كلماته ، الى كل حركة من حركاته ! .. كانت تحاول أن تجاريه وترضيه في كل أمر ، كأنما هي ترى نفسها عاجزة عن تحقيق ما يحب • كانت كأنها تستجدي رضاه استجداء : تكفيها ابتسامة باهتة تطوف في وجهه ، أو كلمة عاطفية صغيرة تخرج من بين شفثيه ، حتى تفيض نفسها بشرا وغبطة وسعادة • فكأنها ترتد عندئذ الى الدقائق الأولى من حب لما يزل خجولا ، ولما يزل بلا رجاء ••

وكانت تحيط زوجها بجميع أنواع الرعاية والعناية التي يحاط بها مريض من المرضى • ومع ذلك كانت ، متى عاد الى حجرته بعد أن يصابحها وينظر اليها نظرة متلطفة شاقة ، تبديل تبديلا كبيرا ، فتصبح حركاتها وأقوالها أكثر مرحا وأكثر انطلاقا •• غير أن ذلك لم يكن يحدث فورا ، فانها في كل مرة بعد لقاء زوجها كانت تظل مضطربة بعض الوقت ، وتأخذ تتذكر وتزن كل كلمة من الكلمات التي وجهها اليها ، وكثيرا ما كانت تلتفت الىّ وتسألني : هل هذا ما قاله بطرس الكسندروفنش ؟ •• كان واضحا انها تبحث في أقوال زوجها عن معنى آخر ، وكان لا بد لها من ساعة كاملة حتى تستعيد هدوءها ورباطة جأشها تماما ، وحتى تثق كل الثقة من أنه لا يحقد عليها البتة ، وأنها قلقت بغير

داع الى القلق ، فاذا هي بعدئذ مرحة سعيدة ، واذا هي تقبلني وتضحكني  
أو تجلس الى البيانو فتظل تعزف - ارتجالا - قرابة ساعتين ••

وفي بعض الاحيان كان يتبدد فرحها دفعة واحدة فتطفق تبكي على  
حين غرة ، حتى اذا نظرت اليها قلقة ، جزعة ، أسرعت تقننى همسا ،  
مخافة أن يسمعا أحد ، بأن دموعها لا سبب لها ، وانها فرحة جدا ، وان  
على أن لا أقلق •

وفي أحيان أخرى ، أثناء غياب زوجها ، كانت تقلق عليه أشد  
القلق ، فترسل احدى الخادمت تسأل عما يفعل : كانت في حاجة لأن  
تعرف لماذا أمر باعداد العربة ، وهلم جرا •• كانت كأنما لا تجرؤ أن  
تفاتيحه في موضوع أعماله ومشاغله ؟ وكان اذا أسدى اليها نصيحة أو  
طلب منها شيئا ، تصفى اليه في خضوع وذل ، كأنها خادم أو عبيد •  
وما أشد فرحها حين يوجد عليها بثناء يسير ، بصدد كتاب قرأته ، أو شيء  
صنعه بيديها ، أو ما الى ذلك • كان ذلك يرفع رأسها ويفرقها في بحر  
من السعادة !

وكان فرحها يتجاوز كل الحدود حين يبدو له - وذلك أمر نادر -  
أن يداعب أحد طفليها الصغيرين : كان وجهها يتبدل عندئذ تبدا كبيرا ،  
فيشرق بسعادة عظيمة ، تتجاوز في تلك اللحظات حدود المرح التي  
تسمح لنفسها بها أمام زوجها ، فاذا هي مثلا تجرؤ أن تعرض عليه (دون  
أن يشجعها هو على ذلك ، وبصوت وجل مرتجف طبعاً) أن يسمع قطعة  
موسيقية جديدة وصلتها مؤخرًا ، أو تبدى رأيا في كتاب جديد قرأته ،  
أو تمضى الى أبعد من ذلك فتحب أن تقرأ له صفحة أو صفحتين لمؤلف  
أعجبها اعجابا شديدا • وكان زوجها يذعن لرغبتها أحيانا ، بل لقد يمضى  
الى أبعد من ذلك فيتسم لها ابتسامة كريمة سمحة !

غير أن هذه الابتسامة كانت تزعجني حتى أعماق نفسي - لا أدري لماذا - كما كانت تزعجني بدورها أوضاع الانقياد والذل من جهة الزوجة .. كان يزعجني فقدان المساواة في العلاقات بين هذين الزوجين . ولكنني كنت أسكت ، واضبط نفسي ، واكتفي بأن ألاحظ هذا الرجل ، بدهشة الصغار وعقل الكبار في آن معا ! .. وكنت ألاحظ في أحيان أخرى ذكرى تلطف بخاطره فجأة ، ذكرى شيء مؤلم ، رهيب - لا يُلأم صدعه ولا يترق فتقه - يوافيه رغم ارادته ، ورغم عقسه ، فإذا هو يتجلد ويتحامل على نفسه ، ثم تزول الابتسامة السمحة عن ثغرة في طرفه عين، وينظر الى امرأته الفزعة ، على حين غرة ، نظرة تعبر عن الرحمة والشفقة فأرتعد أنا - كأن هذه الشفقة تنصب علي ، وكأن شعورا بالعار يغشاني أنا أيضا ! - وبارح الفرخ وجه الكسندرين ميخائيلوفنا ، وتنقطع الموسيقى أو تنقطع القراءة ، وتمسك المرأة المسكينة عن الكلام ، وقد امتنع لونها امتقاعا شديدا ، وتعقب ذلك دقائق من النغم الممض والألم الكاوي ، أحسبها دهرا ! ..

وكان الزوج - أخيرا - يضع لهذا الموقف حدا ، اذ ينهض من مكانه ، ويبدو كأنه يحاول أن يخنق في نفسه كل حنق وكل انفعال ، ثم ، بعد أن يدور في الغرفة عدة مرات ، في صمت حزين ، يصافح زوجته ، ويزفر زفرة عميقة ، ويقول بضع كلمات موجزة ، مضطربة ، كأنه يحاول أن يواسي زوجته ، ثم يترك الغرفة .. ففتفجر الكسندرين ميخائيلوفنا عندئذ في بكاء سخين ، أو تفرق في حزن رهيب لا ينتهي . وكان في بعض الاحيان يدعو لها ، وهو يرسم اشارة الصليب ، كما يفعل المرء مع طفل قبيل أن ينام ، وكانت هي تقبل دعواته في احترام واجلال ، بل كان الدمع يترقرق في عينيها اعترافا بالجميل .

ولكنى لن أنسى تلك الامسيات ( أمسينتين أو ثلاثا لا أكثر ، طوال هذه السنين الثمانى ! ) التى تبدلت فيها الكسندرين ميخائيلوفنا تبدلا تاما على حين فجأة ، حتى لكانها شخص آخر . . فاذا بنوع من الكره ، نوع من الغيظ والحق ، يشع فجأة فى وجهها الذى ألف الهدوء والنومة ، طاردا ذلك الذل الأبدى الذى تشعر به ازاء زوجها ، وتلك العبادة الخاصة التى تمنحه اياها . كانت العاصفة تتجمع أحيانا خلال ساعة طويلة ، فيبدو الزوج أكثر صمتا وحزنا ووجوما ؛ ويفتح قلب المرأة المسكينة أخيرا ، فتأخذ تتكلم بصوت متهدج من شدة الانفعال ، وبألفاظ متقطعة مفككة مشحونة غمزا ولوما مرا ، ثم لا تستطيع أن تكبح ألمها فتفجر باكية ، ويصل بها اليأس الى غايته فتطفق تتفجع ، وهى تجهش فى نحيب مؤلم كالمحمومة . لينكم ترون زوجها فى تلك اللحظات : لينكم ترون صبره فى الاستماع اليها ، ولطفه فى محاولة تهدئتها . لقد كان يبلغ من ذلك أنه يأخذ يقبل يديها ، ثم يطلق أخيرا يبكى معها . الا انها كانت تنتفض فجأة ، انتفاضة من تيقظ ضميره وشعر أن ليس من حقه أن يُقتفر له ذنبه : كانت تهولها دموع زوجها ، فاذا هى تزداد لوعة واضطرابا ونحيبا ، فترتمى على قدميه تسأله الغفران ، وسرعان ما يجود عليها به . .

وكان ضميرها يعذبها مدة طويلة بعد هذه الأزمات ، فظل شهورا برمتها لا تنقطع عن البكاء ، ولا تكف عن طلب الغفران ، وتقف أمام زوجها أكثر خجلا ووجلا وارتادا منها فى أى وقت مضى . وكنت لا أستطيع أن أفهم شيئا من هذه الأزمات ، سيما وقد كنت أحمّل أثناء ذلك على ترك السفرفة ، فى غير لطف أو رفق ! . . على انه كان يستحيل عليهما أن يخفيا عنى كل شيء . كنت ألاحظ وأحزر ، وكان

قد استقر في ذهني شيء من الارتياح الغامض منذ البداية : لا بد أن في أعماق هذه الامور سرا . ان هذه الازمات المفاجئة التي تصف بهذا القلب الطافح ألما مرا لا يمكن أن تكون بلا سبب ، لا يمكن أن تنشأ عن حالة عصبية فحسب . . . ثم ان تجهم وجه الزوج ، وهذه الشفقة الملتبسة التي يشعر بها نحو زوجته المريضة ، وهذا الحجل الأبدى ، وهذا القلق الدليل من جانب الكسندرين ميخائيلوفنا ازاء زوجها ، كل ذلك لا يمكن أن يكون بدون علة ، لا ولا هذا الحب الغريب الصامت الذي تحمله ولا تجرؤ أن تظهره ، وهذه الوحدة ، هذه الحياة المنزوية التي تعيشها هذه المرأة ، هذا الاحمرار المفاجيء وهذا الاصفرار المفاجيء اللذين يغشيان وجهها متى لقيت زوجها ، كل هذا لا بد أن يكون له سبب !

ولكن لما كانت هذه الازمات بين الزوجين نادرة جدا ، وكانت حياتنا تجري رتيبة على نسق واحد ، وكنت أعرف جميع تفاصيلها تقريبا ، ولما كنت أنمو بسرعة ، وكانت هنالك أشياء أخرى تثير انتباهي وتشغل اهتمامي رغما عني ، فسرعان ما ألفت هذه الحياة ، وهذه العادات ، وهذه الطباع التي تحيط بي . صحيح انني كنت في بعض اللحظات لا أستطيع أن أمتنع عن التفكير والتأمل ، حين أنظر الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، ولكن تأملاتي لم تكن تخلص الى أية نتيجة . كنت أحب الكسندرين ميخائيلوفنا حيا قويا ، وأحترم الحزن الذي يكتنفها ، وأخشى أن أزعجها باستطلاع في غير محله . على انها كانت تفهمني . . . وكمن مرة شكرت لي تعلقى بها !

وكانت اذا لاحظت قلقي عليها، ابتسمت من خلال دموعها ، وأخذت تتدر على كثرة بكائها ، أو أخذت - في أحيان أخرى - تقول لي ، فجأة، انها على أحسن حال من الفرح والمرح ، وانها سعيدة الى أقصى حدود

السعادة ، وان جميع الناس يغمرونها طيبا وكرما ، وان جميع من عرفتهم حتى الآن يحبونها ، وان الامر الوحيد الذى يعذبها هو ان ترى بطرس الكسندروفتش قلقا بسببها ، بسبب حالات الكرب التى تراودها ، مع أنها سعيدة جدا ، جدا جدا . وكانت تعانقنى عندئذ فى كثير من الحنان ، ويشرق وجهها عندئذ بحب عميق ، حتى لينخلع قلبى شفقة ان صح التعبير .

رباه ! لن تمحى قسماات وجهها من ذاكرتى يوما . انها قسماات قويمه يزيدها التحول والشحوب جمالا وفتنة . أما شعرها الاسود المسدول على جيدها فانه يلقى على جنبات وجنتيها ظلا ظاهرا قاسيا ، يزيد - بحكم منطق الاضطداد - من لطف نظرتها ، وجمال عينيها الزرقاوين الناصعتين اللتين تشبهان عيني طفل ، ورقة بسمتها الحجيلى ، وفتنة ملامحها الرقيقة التى يطوف فيها فجأة كل هذا الصدق وكل هذا الحفر ، ويزيد من روعة وجهها الأعزل المنقاد لكل اندفاعه من اندفاعات قلبها : وهى الفرح السريع فى بعض الأحيان والكآبة الناعمة فى معظم الأحيان . . . ففى بعض ساعات سعادتها الهادئة الراضية تصبح نظرتها النافذة العميقة من الصفاء والاشراق والطمأنينة ، وتصبح عيناها الناصعتان نصوع زرقة السماء من قوة التعبير عن الحب والحنان والصبوة الى كل ما هو نبيل ، والى كل ما يستثير الشفقة ويذكى الألم ، بحيث لا يسع المرء الا أن يستسلم لها رغم أنفه ، والا أن ينجذب اليها رغم أنفه ، ليجنى قليلا من هذا الصفاء ، من هذه الطمأنينة ، من هذا السلام الروحى ، من هذا الحب الذى ينبع من أعماق وجودها .

ان المرء حين ينظر الى زرقة السماء يشعر أحيانا انه قادر على أن يظل مدة طويلة فى تأمل متعبد حار تتحرر فيه النفس من عقابها ، وتصيح أشبه بصفحة ماء هادىء تنعكس عليها فجأة قبة السماء العالية . وقد كانت

الكسندرين ميخائيلوفنا حين ترى الجمال تبلغ من شدة الحميا ، فى كثير من الأحيان ، أن وجهها يتخضب ، وصدرها ينفجر ، وتلمع فى عينيها بروق ، بل تنطلق من عينيها شرارات ، كأن روحها تتجه عفيفة نحو شعلة صافية تريد أن تنصب فيها وان تتحد بها ! .. وكانت فى تلك اللحظات تبدو ملهمة حقا ، فاذا بوثباتها المفاجئة ، واندفاعاتها المباشرة تتقلها من الحجل الرقيق الى الانفعال الرفيع والحماسة الجريئة . ولكن ما أكثر ما كانت تظهر عندئذ من سذاجة ، ومن تمجبل كتمجبل الاطفال ، ومن سرعة الى التصديق كسرعة المراهقين ! لست أشك فى أن مصورا من المصورين مستعد لأن يهب نصف حياته ، فى سبيل أن يرسم على قمانه لحظة من وجدٍ فى مثل هذه الروعة ، على وجه انتابه مثل هذا التحول ..

♦♦♦

وقد أدركت فى الأيام الأولى من اقامتى فى هذا البيت أن الكسندرين ميخائيلوفنا التى تعيش فى هذه العزلة الثامنة ، سعيدة بوجودى الى قريبها . لم يكن لها عندئذ الا طفل واحد ، لم تكن قد أصبحت أما الا منذ سنة واحدة فأصبحت أنا ابنتها . كانت لا تستطيع أن تفرق بينى وبين طفلها . ليتم ترون حماسها الشديدة فى الانكباب على تربيتى ! لم تكن مدام ليونار تستطيع أن تمتنع عن الابتسام حين تراها مندفعة هذا الاندفاع ، متعجلة هذا التعجل . والحق انا اندفنا كلتانا الى كل شىء فى آن واحد ، حتى لم تعد تفهم شيئا ، لا هى ولا أنا . كانت تعلمنى أشياء كثيرة وافرة ، دفعة واحدة ، فكان ذلك يدل من جانبها على حماسة حارة ، وعلى صبر جميل ، أكثر مما يدل على حسن عمل . وقد ساءها طيشها هذا فى أول الامر ، الا انا قررنا بعد ذلك أن نضحك منه ، واستأنفنا كل شىء من جديد .

ذلك أن الكسندرين ميخائيلوفنا ، رغم هذه البداية السيئة ، كانت



تحب أن تنهج في التربية نهجا مخالفا كل المخالفة لنهج مدام ليوتار ،  
وكانتا تتناقضان في هذا الموضوع بسرور ومرح ، فكانت مربيتي الجديدة  
تعلن في لهجة قاطعة انها تناهض كل منهج محدد ، وتؤكد اننا بالتلمس  
والمحاولة سنجد الطريق الصحيحة ، وانه ليس من الضروري أن تحشو  
رأسي بمعلومات عقيمة ، وأن نجاحي في الدراسة يجب أن يعتمد على  
مواهبى الطبيعية ، على البراعة في ايقاظ ارادتي الحسنة •

ولقد كانت على حق فيما قالت ، ما دامت قد نجحت نجاحا تاما •  
لقد زال من بيننا دور التلميذة ودور المعلمة ، فكنا معا كصديقتين ، حتى  
لقد كانت من البراعة في هذا بحيث كان يبدو في بعض الاحيان اني انا  
التي أعلمها ! •• وكثيرا ما كانت تدور بيننا مناقشات حادة ، فأحاول أن  
أبرهن بحرارة على صحة آرائى ، دون أن أدرك أن الكسندرين  
ميخائيلوفنا هي التي تقود خطاى في هذا السبيل • وكنت أدرك حيلتها  
هذه فجأة بعد أن نفرغ من المناقشة ، وبعد أن تتضح المسألة اتضاحا كافيا ،  
فأقدر عندئذ الجهد الذى تحمته ساعات طويلة في بعض الاحيان ،  
والتضحية التي بذلتها من أجلى ، فأرتمى على عنقها ، وأقبلها بقوة  
وعنف ••

كان كل درس من الدروس ينتهى على هذا النحو •• وكانت  
حساسيتى تدهشها ، بل تهيجها الى حد القلق • وأخذت تسألنى عن ماضى  
في كثير من الاهتمام ، تريد أن تعرفه منى ، فكلما قصصت عليها بعض  
ذكرياتى رأيتها تغدو أكثر رقة معى ، وأكثر جدا في معاملتى ، أقول  
« أكثر جدا » لأن طفولتى البائسة كانت توظف فى نفسها ، فضلا عن  
الشفقة ، نوعا من الاحترام • وكنا ، بعد أن أفضى اليها بذكرياتى ، نفرق  
عادة في مناقشات طويلة ، فكانت تشرح لى ماضى شرحا يتراعى لى معه

اننى أعيشه مرة أخرى فى الواقع ، وأعرف عنه أموراً كثيرة من جديد !

وكانت مدام ليوتار ترى أن هذه المناقشات مسرفة فى الجهد ، بل كانت ترى أنها فى غير محلها - حين تلاحظ انهماك دموعى بالرغم منى - أما أنا فكنت أرى نقيض رأيها تماماً . لقد كنت ، بعد هذه « الدروس » أتخفف من آلامى تخففاً كبيراً فما أعود أرى فى قدرى شيئاً محزنًا . والذى أحمده لالكسندرين ميخائيلوفنا ، فوق كل شيء ، هو اننى كنت مضطرة الى أن أزداد حباً لها يوماً بعد يوم . ان مدام ليوتار لم تكن تعلم أن كل ما قد أثار فى نفسى ، فى الماضى ، عواطف مضطربة مبكرة ، كان بهذه الطريقة يفقد حدته شيئاً بعد شيء . وينصهر فى استجمام متماسك قوى ؛ ولم تكن مدام ليوتار لتصور الى أى حد قد تسممت نفسى بما قاسيت . . الى أى حد أرهقتى قسوة القدر القاسم . . الى أى حد بكيت دون أن أعلم من أين تأتى الضربة التى تهوى على رأسى !



وكنّا فى أول الصباح نجتمع فى حجرة الأطفال ، فنوظف الطفل ، ونعنى بهندامه وطاقمه ، ونضحكه ، ونكلمه ، ثم نتركه لنمضى الى العمل . كنا ندرس كثيراً جداً ، ولكن . . الله أعلم بقيمة هذه الدراسة التى تشتمل على كل شيء ، ولا تشتمل فى حقيقة الأمر على أى شيء محدد ! . . كنا نقرأ معا ، وتبادل الآراء ، ثم نترك الكتب ونصرف الى الموسيقى ، فكانت الساعات تنقضى سريعة لا نحس انقضاءها . . وفى المساء كثيراً ما كان « ب » ، صديق ألكسندرين ميخائيلوفنا ، يأتى زائراً ، وكانت مدام ليوتار تأتى أيضاً ، فتدور بيننا فى بعض الأحيان مناقشات حادة عن الفن ، وعن الحياة ( التى لا نعرفها فى حلقتنا الصغيرة الا عن طريق السماع ) ، وعن الواقع والمثل الأعلى ، وعن الماضى والمستقبل ، ونقضى نصف الليل

فى مثل هذه الأحاديث • وكنت أصغى الى الحديث ملء اذنى ، وأتحمس حين يتحمس الآخرون ، واضحك معهم ، أو تهيجنى الشجون حين أعلم فجأة بعض ما يتصل بأبى وبطفولتى الاولى •

وكنت أثناء ذلك أتقدم فى السن ، وفى الوعى • وعهدوا الى بعض الاساتذة بتعليمى ، ولكنى ما كنت لأتعلم منهم شيئاً لولا ألكسندرين ميخائيلوفنا • ما كنت لولاها لأزيد ، مع أستاذ الجغرافيا ، على أن تعمى عينائى فى البحث عن مواقع المدن والانهار على الخريطة • أما الكسندرين ميخائيلوفنا فكانت تقوم معى برحلات على الارض ، فنزور البلدان ونرى العجائب ونعيش هذا كله فى حماسة وحميا ، ساعات طوالاً ، حتى أصبحت كتب الكسندرين ميخائيلوفنا لا تروى ظمأنا ، وحتى أصبحنا فى حاجة الى التهام كتب أخرى ، وحتى صرت قادرة على أن أنصح أستاذى بقراءة بعضها !

على انه لا بد لى من انصاف أستاذى : فقد ظل الى آخر لحظة يفوقنى فى معرفة خطى الطول والعرض اللذين تقع عليهما مدينة من المدن ، وفى معرفة عدد سكان هذه المدينة محددًا بالألوف ، وبالمئات ، بل وبالعشرات • وكان أستاذ التاريخ يتقاضى أجرا حسنا هو الآخر • الا اننا أخذنا ، بعد ذهابه ، تتعلم التاريخ - وأنا والكسندرين ميخائيلوفنا - على طريقتنا الخاصة ، فكنا نأخذ كتبنا ، ونظل نقرأ أحيانا الى ساعة متأخرة من الليل ، والأصح أن ألكسندرين ميخائيلوفنا هى التى كانت تقرأ ، لأنها كانت تراقب ما نقرأ ••

وأذكر أننى لم أشعر فى حياتى بحماسة كالتى كنت أشعر بها بعد هذه القراءات • كنا نتحمس كأننا أبطال ما نقرأ • وكنا نقرأ ، عدا السطور ، ما بين السطور • وكانت ألكسندرين ميخائيلوفنا تجوّد القراءة

حتى لكأن كل ما تقرأه قد وقع لها • ولكن يجب أن أعترف أن ثمة  
شيئاً مضحكاً في هذه الحماسة التي كانت تحرمنا من النوم نصف الليل :  
أنا الطفلة ، وهى القلب الجريح الذى يحتمل الحياة فى مشقة وعناء !  
( وكنت أعلم أن ألكسندرين ميخائيلوفنا تجد الى جانبي عزاء وسلوى ) •  
وأذكر اننى كنت فى بعض اللحظات أفكر تفكيراً غريباً وأنا أنظر اليها •  
كنت من فرط محاولتى الفهم قد فهمت كثيراً عن أمور الحياة ، قبل أن  
أبدأ الحياة !



وبلغت الثالثة عشرة من عمري • وازدادت صحة الكسندرين  
ميخائيلوفنا أثناء ذلك سوءاً على سوء • أصبحت أسرع الى الاهتياج مما  
كانت ، وازدادت حدة الحزن الذى يفشاها من حين الى حين دون ماسبب ،  
وكررت زيارات زوجها لها • وأصبح يبقى الى جانبها مدة أطول ، الا أنه  
ظل على عادته حزينا كثيراً لا يكاد ينبس بكلمة • وأخذ مصير الكسندرين  
ميخائيلوفنا يشغلنى على نحو أقوى وأعنف • ان مشاعر جديدة تتكون  
الآن فى نفسى ، وأنا أخرج من مرحلة الطفولة • صرت أبحث ، وأفترض  
وأستتج ، وأصبح السر الذى أحسه مرفرفاً فى جو هذه الاسرة يقلقنى  
مزيداً من القلق •

وكنت فى بعض اللحظات أحسب اننى فهمت هذا السر بعض الفهم •  
وفى لحظات أخرى يضعف شعورى بذلك ويقبل اهتمامى بالأمر ، بل  
أحس بالملل والضجر ، فأسى ما كنت أحب أن أعرفه ، ولا أعود أحفل  
به • وكنت فى أحيان أخرى أجد لذة كبيرة فى أن أبقى وحدى ، غارقة  
فى أفكارى • وكانت تلك الايام تشبه فترة من حياتى الماضية بين أبوى ،  
تلك التى أحبيت فيها أبى ، فظللت سنة كاملة أفكر بغير انقطاع، وأتخيل،

وأحلم ، وأنا قابعة فى ركنى •• تلك الفترة التى كنت فيها أشبه بمتوحشة غارقة فى ضروب من الاوهام يلفقها خيالى من هنا ومن هناك • الا أن ثمة فرقا بين القترتين : فصبرى الآن أفرغ ، وقلقى أقوى ، واندفاعتى الجديدة أوثق اتصالا باللاشعور ، وظمى الى الحركة أشد ، فكنت لا أستطيع أن أتركز على نقطة واحدة كما كنت فى الماضى •

وكانت ألكسندرين ميخائيلوفنا كأنما تحب أن تبتمد عنى هى نفسها • فانى ، فى هذه السن ، لا أكاد أصلح صديقة لها • لست الآن طفلة ، وان أسئلتى الآن لكثيرة ، وانى لأنظر اليها أحيانا ، فما يسعها الا أن تفض طرفها • كانت هنالك لحظات غريبة • وما كنت أستطيع أن أراها تبكى ، وكثيرا ما كانت دموعى تندفق من عينى غزيرة حين أراها كذلك ، ثم أرتعى على عنقها أقبلها فى حرارة • ماذا عساها تقول لى ؟ كنت أشعر أننى عبء عليها !

وفى لحظات أخرى - هى أكثر اللحظات قسوة وحزنا - كانت تعانقنى هى نفسها عنقا قويا ، كأنما تملكها يأس شديد •• فكانت فى تلك اللحظات كأنها تستدر حبنى ، كأنها لم تعد تطيق وحدتها ، كأنها تشعر أننى قادرة على أن أفهمها وعلى أن أشاركها ألمها ! •• على أن هذا كله لا يمنع ان ثمة سرا كان ما يزال قائما بيننا • كان ذلك من الوضوح بحيث كنت أرائى فى بعض الاحيان أبتعد عنها فجأة ، اذ يؤلمنى أن أبقى الى جانبها • ثم انه لم يبق هنالك الا قليل مما يقرب بيننا ، فيما عدا الموسيقى • على أن الاطباء انتهوا أخيرا الى الحلولة بينها وبين الموسيقى •• أما الكتب فقد أصبح أمرها أعوص وأعسر • ان الكسندرين ميخائيلوفنا لا تدرى الآن ماذا ينبغى أن تقرأ معى • فمن الممكن أن تتوقف الآن عند الصفحة الاولى من كل كتاب نقرؤه : كل كلمة يمكن أن تكون تلميحا

الى شيء ، وكل جملة يمكن أن تكون لغزا • وحاولنا كلتانا ان نتحاشى  
أحاديثنا القديمة ، الملتهبة ، التي تنفذ الى صميم الاشياء ••

فى هذه اللحظة شاء القدر ، ارتجالا ، ودون أن يكون ذلك فى  
الحسبان ، أن يفرض على حياتى مجرى آخر ، فاذا انتباهى ، وعواطفى ،  
وقلبى ، ورأسى ، ووجودى كله ، اذا كل ذلك يتجه اتجاها جديدا ،  
يكتشفه التوتر الحماسى القوى • رأيتنى فجأة ، دون أن ألاحظ ذلك ،  
أنتقل الى عالم جديد • ولم أستطع أن أرتد الى الوراء ، ولا أن أنظر  
حولى ، ولا أن أفكر • كنت معرضة للضياع ، وكنت أشعر بذلك ،  
الا أن الاغراء كان أقوى من الخوف ، فانطلقت على غير هدى ، مغمضة  
العينين • أهملت الامور التى كانت تقلقنى ، والتى كنت أبحث فيها عن  
مخرج دون أن أظفر بطائل ، وأنا أشد ما أكون ظمأ الى معرفتها ، أهملت  
هذه الأمور مدة طويلة • واليكم كيف تطورت الامور :

•••

كان لقاعة الطعام ثلاثة أبواب ، يؤدى أحدهما الى الأجنحة الكبرى  
ويؤدى الثانى الى غرفة الاطفال ، ويؤدى الثالث الى المكتبة • وكان  
للمكتبة باب آخر يؤدى الى حجرة العمل ، المتصلة بشرفتى • فى هذه  
الحجرة كان يستقر عادة سكرتير بطرس الكسندروفتش ، الذى كان يعمل  
ناسخا وقيما على البيت فى آن واحد • وكان مفتاح المكتبة فى عهده •  
وفى ذات يوم ، بعد العشاء ، بينما كان السكرتير غائبا عن البيت ، عثرت  
بهذا المفتاح على أرض الحجرة • كان حب الاستطلاع أقوى من أى شيء  
آخر ، فانتهزت الفرصة ودخلت المكتبة • انها حجرة واسعة ، مضاعة  
أحسن اضاءة ، تحتوى على ثمانى خزائن مملوءة كتب • من هذه الكتب  
عدد كبير انتقل الى يدى بطرس الكسندروفتش بطريق الوراثة ، الا أن

قسما كبيرا منها انما جمعته الكسندرين ميخائيلوفنا التي كانت لا تنقطع عن شراء الكتب •

ولم يكونوا يسمحون لى بالقراءة حتى ذلك الحين الا فى كثير من الحذر •• فلم يكن صعبا علىّ أن أعتقد أن هذه الكتب المنسوعة عنى تنطوى على سر • لهذا السبب رأيتنى - وقد عصفت بى ظمأ الى الاطلاع لا يقاوم ، وتملكنى خوف شديد ، وفرح عظيم ، وحماسة كبيرة حقا - رأيتنى أفتح الخزانة الاولى وأخرج منها كتابا • كانت تلك خزانة الروايات • ثم أغلقت الخزانة ، وحملت كتابى وفى نفسى شعور غريب ، وفى قلبى خفقان شديد ، حتى لكأننى أوجس التغير الكبير الذى ستحدثه القراءة فى حياتى • فلما عدت الى غرفتى ، أغلقتها على ، وفتحت الرواية ••

غير أننى كنت عاجزة عن القراءة • كان يشغلنى أمر آخر ، هو أن أطمئن اطمئنانا نهائيا الى أننى أستطيع دخول المكتبة دون أن يتنبه أحد الى أننى أخذ منها الكتب التى أهواها • وهكذا أرجأت لذة القراءة الى فرصة أخرى ، ومضيت فأعدت الكتاب الى مكانه ، وخبأت المفتاح • كان ذلك أول عمل سىء أقرفه • وانتظرت النتائج !

ولكن الأمور سارت على أحسن ما يرام ، فان سكرتير بطرس ألكسندروفتش ظل طوال المساء وجزءا من الليل يبحث عن المفتاح فى أرض الغرفة على ضوء شمعة دون أن يظفر بطائل ، حتى اذا جاء الصباح استقدم قفالا ، ووجد القفال فى جمعته مفتاحا يناسب قفل باب المكتبة ، فانتهى بذلك كل شيء ، ولم يتحدث أحد بعد ذلك عن المفتاح الضائع • واتخذت من جهتى جميع الاحتياطات ، فى غير قليل من المكر ، فقررت أن لا أجازف فأدخل المكتبة الا بعد انقضاء أسبوع على ذلك ، أى بعد أن

أتيقن من زوال كل شبهة ، وكل خطر • واخترت وقتا كان فيه السكرتير غائبا عن البيت ، فدخلت قاعة الطعام • وينبغي أن أذكر أن السكرتير كان يحتفظ بالمفتاح فى جيبه ، ولكنه لم يكن يذهب الى أبعد من ذلك فيتصل بالكتب ، بل لقد كان لا يدخل حجرة المكتبة أبدا •

ومنذ تلك اللحظة أخذت أقرأ فى كثير من الشره ، وسرعان ما أصبحت القراءة هوى قويا يملك على نفسى ، فاذا جميع حاجتى الجديدة ، وصوباتى الحديثه ، وجميع اندفاعات مراهمتى ، هذه الاندفاعات التى ما زالت غامضة والتى كانت تقلقنى وتشيع فى نفسى الاضطراب ، وكل ما قد أثار عقلى المبكر اثاره قوية ودفعه فى اتجاه آخر ، اذا كل هذا يجد مخرجا غير منتظر ، فيندفع فيه الى مدى بعيد • كنت كأنتى شبت من ذلك الغذاء الجديد شبتا تاما ، ثم وجدت الآن طريقى الصحیحه • وسرعان ما أصبح قلبى من النشوة وأصبح عقلى من الافتتان وأصبح خيالى من قوة التحليق بحيث نسيت كل ما قد أحاط بى حتى ذلك الحين • كأن القدر نفسه سمرنى على عتبة الحياة الجديدة التى كنت أتحرق شوقا الى الاندفاع فيها ، تلك الحياة التى كنت أحلم بها ليل نهار بلا انقطاع • كأن القدر ، قبل أن يدفننى فى الطريق المجهولة رفنى الى قمة عالية ، حتى يرىنى مستقبلى فى صورة رائمة أطل عليها من فوق ، صورة تفيض بالأمال الساحرة • ان الحظ يتسع لى الآن أن أجرب مستقبلى ، بقراءته فى أول الامر فى الكتب ، فى أحلامى ، فى آمالى ، فى وثباتى الجامحة ، فى جميع المواطن العذبة التى تفيض بهسا روحى الشابه •

وقرأت فى أول الامر الكتب التى تقع بين يدى ، دون تخير ، غير أن ما كنت قد تعلمته وقاسيته حتى ذلك الحين كان من النبيل والرفعة



بحيث كنت لا أستطيع أن أجسد أية متعة في قراءة صفحات اباحية أو  
بذيئة . كانت غريزتي الطفولية ونموى المبكر وماضى كله ، كان هذا كله  
يحميني ويحرسنى . وأصبح شعورى الآن ينير كل ما قد وقع لى فى  
الماضى ، حتى لقد كانت كل صفحة أقرؤها تبدو لى شيئاً أعرفه منذ مدة  
طويلة : هذه الأهواء ، هذه الحيات المختلفة المعروضة أمامى فى صور  
غير منتظرة ، فى لوحات جذابة ، انى أعرفها من قبل !

وكيف لا أصل الى نسيان الحاضر ، بل والى نسيان الواقع تقريبا ،  
وأنا أجد فى كل كتاب أقرؤه ثمرات قدر واحد بعينه ، وأجد فيه قانونا  
تفرضه على الحياة الانسانية روح واحدة هى روح المغامرة ، قانونا مشتقا  
من قانون أساسى آخر هو شرط السلامة والخلص والسعادة ؛ لقد كنت  
أتحسس هذا القانون ، وكنت أحاول أن أحذره بكل ما أوتيت من قوة ،  
بكل الغرائز التى كان يوقظها فى نفسى الشعور بنوع من الحماية . كنت  
أشعر انى معصومة مقدما ، كأن هناك شخصا يرشدنى ويطلب الى أن  
أكون ساهرة ويقظة .

والى جانب اندفاعاتى التى كانت تشتد وتقوى يوما بعد يوم ، كانت  
تضطرم فى نفسى نبوءة حقيقية تجعلنى أؤمن بمستقبلى ، وأؤمن بأن حياتى  
ستكون حياة فنان تهزه شاعرية جامحة . الا أن خيالى ، كما قلت ، كان  
يفلب اندفاعى . فكانت جرأتى ، فى الواقع ، لا تتعدى أحلامى . وكانت  
الغريزة ، ازاء الوقائع الحقيقية ، تردنى الى الخجل . وكأنما أردت أن  
أكون على اتفاق مع نفسى ، فقررت - على غير شعور منى - أن أكتفى فى  
أول الامر بعالم الخيال ، هذا العالم الذى ملكت ناصيته ، هذا العالم الذى  
ليس فيه الا متعة وفرح ، هذا العالم الذى ليس للشقاء فيه - ان وجد -  
الا دور سلبي ، دور موقت ، دور لا بد منه للتناقضات الممتعة ، للتبدلات

القدر التي تمد رواياتي بخواتيمها السعيدة • أو هكذا على الأقل ما أفهمه  
الآن من حياتي النفسية في ذلك الوقت !

هذه الحياة ، التي ليس فيها شيء غير الخيال ، هذه الحياة الغريبة  
كل الغرابة عن حياة الأشخاص الذين يحيطون بي ، قد استمرت ثلاث  
سنوات طوال ••

♦♦♦

وكانت هذه الحياة سرى المكنون ، الخفي ، أخشى عليه أن يتكشف  
•• حتى لقد صرت أخشى أية نظرة يلقيها عليّ أحد ، مخافة أن ينفذ الى  
أعماقى ويكشف عن سرى • وعشت حياة داخلية غنية ، فكنت أرخى  
العنان لخيالى •• سيما وقد كان كل من فى البيت يعيش فى عزلة تامة ،  
بعيدا عن الآخرين ، فى صمت كصمت الأديرة ، فكان كل منا يميل الى  
الانطواء على نفسه والاكتفاء بنفسه ، أو هذا ما حدث لى على كل حال ،  
فما من شيء تغير من حولى ، خلال هذه السنين الثلاث ، بل احتفظ كل  
شيء بطابعه المألوف ومظهره المعتاد • فكانت العلاقات بيننا رتيبة ، متشابهة ،  
مملة •• ولولا أن سرى كان يواسينى ، ولولا أن نشاطى كان يسلينى  
( أدرك ذلك اليوم ) لبلغ بى الضجر مبلفا كان يمكن أن يدفعنى الى أى  
تطرف ، هربا من هذه البيئة الثقيلة الحزينة •• وكان يمكن أن يؤدى  
ذلك الى هلاكى •

كانت مدام ليوتار قد بدأت تشيخ وتهرم ، فأصبحت لا تكاد تترك  
غرفتها • وكان الولدان ما يزالان صغيرين ؛ أما «ب» فكان لا يخرج عن  
سلوكه التى يجرى على وتيرة واحدة ، وأما زوج ألكسندرين ميخائيلوفنا  
فكان محتفظا بعبوسه ، وكبريائه ، ووجهه المقطب ، وكان السر الخفى  
بينه وبين زوجته ما يزال قائما ، بل كان هذا السر يزداد فى نظرى خطرا

وتهديدا ، وكنت أزداد خوفا على ألكسندرين ميخائيلوفنا • كانت حياتها الحالية من الفرح ، حياتها العقيمة ، تنوى امام بصرى يوما بعد يوم ، وكانت صحتها تسوء مزيداً من السوء •• وكان نوعا من اليأس قد سيطر على روحها آخر الامر ، فكان المرء يحس انها ترزح تحت وطأة شيء مجهول ، لا يمكن ادراكه أو تعليقه •• شيء فظيع رهيب •• غير انها كانت راضية به رضى من حكم عليه بالصلب فلا مفر !

وقسا قلبها أخيرا بتأثير هذا العذاب الأصم ، بل ازدادت روحها ظلما وحرنا • وثمة شيء كان يسترعى انتباهى أكثر من أى شيء آخر: كان يلوح لى أنها تبتمد عنى بقدر ابتعادى عن الطفولة ، حتى تطور حذرهما منى الى تبرم ثقيل ، وحتى كدت أعتقد فى بعض اللحظات أنها أصبحت لا تحببى البتة ، كأنما أنا أزعجها • سبق أن قلت اننى قد ابتعدت عنها فى اول الامر بارادتى ، الا اننى حين فعلت ، شعرت كأن الجانب السرى من طبيعتها قد سرت عدواه الىّ ، ولهذا السبب فان جميع ما فكرت فيه خلال هذه السنين الثلاث ، وجميع ما نبت فى نفسى من أحلام ومشاعر وآمال وأهواء وحماسات ، قد احتفظت به سرا لنفسى ، لم أطلع عليه أحدا • فلما أصبحنا سرين ، لم تقارب بعد ذلك أبدا ، رغم أن عاطفتى نحوها قد اشتدت وقويت أكثر من أى وقت مضى •

•••

لا أستطيع أن أتذكر - دون أن أبكى - كم كان تعلقى بها شديدا ، وكم أغدقت علىّ من كنوز حبها ، هذا الحب الذى شاء أن يقوم بوظيفته نحوى الى آخر درجاته ، الى درجة حب الأم • والحق أن تسارحها الكامنة كانت تجعلها تهملنى فى بعض الاحيان حتى لكأنها نسيت وجودى ، وحاولت جهدى أن لا ألفت انتباهها ، حتى استطعت أن أبلغ السادسة

عشرة من عمري دون أن يفتن أحد الى ذلك • الا أن الكسندرين ميخائيلوفنا كانت فى لحظات تيقظ الضمير تلقى على من حولها نظرات صافية جدا ، فاذا هى فجأة ، وقد تملكها قلق على ، تدعونى الى غرفتها ، وتترعنى من دروسى أو مشاغلى ، وتعلمنى بوابل من الاسئلة ، كأنها ظمأى الى معرفتى على أكمل نحو ، ثم لا تركنى خلال أيام برمتها ، محاولة أن تحزر كل ما يستهوينى ، وان تدرك جميع رغباتى ، لا يعينها شىء غير نموى وتطورى ، غير حالتى الراهنة ومستقبلى ، مبدية استعدادها لأن تساعدنى بكل ما فى قلبها من مشاعر الاعجاب وعواطف المودة والحب •

غير أنها وقد كانت بعيدة عنى فى تلك الفترة ، كانت تعمد فى سبيل ذلك الى وسائل ساذجة مسرفة فى السذاجة ، وكنت أدرك نياتها ومقاصدها بسهولة • وقدرت هى فجأة انى ما تعديت فى قراءاتى كتب الأطفال الذين لم يتجاوزوا الثانية عشرة من العمر ، فهالها ذلك كثيرا ، وحزرت أنا سبب شعورها ذلك ، ولاحظته فى كثير من الانتباه ؛ ولقد ظلت بعد ذلك أسبوعين كاملين كأنما هى « تخبرنى » ، لتقف على درجة نموى ، ومدى كفاءاتى ، ثم عزمت أمرها أخيرا ، فظهر على طاولتنا كتاب ( ايفانويه ) ، الذى كنت قد قرأته قبل ذلك ثلاث مرات على الأقل ، فكانت تراقب انفعالاتى فى خجل يقط ، كأنما هى تخشى هذه الانفعالات • وأخيرا زال من بيننا هذا التوتر - وكان بالنسبة الى ظاهريا - وتحمسنا كلتانا للرواية ، وبلغت من فرحى انى كدت أعترف لها بكل شىء • • • وحين وصلنا الى النقطة التى تحل فيها عقدة الرواية كانت حماسها قد بلغت أوجها • وكانت كل ملاحظة من الملاحظات التى أبدتها أثناء القراءة صائبة ، وكل رأى أسوقه صادقا ، فأدركت « الكسندرين » أن نموى سريع مبكر ، وهزت هذه الفكرة عاطفتها ، بل أثار اعتزازها ، فأخذت

تتابع تربيتي مرة أخرى في كثير من الحماسة ، وانتوت أن لا تتركني  
لنفسى بعد الآن أبداً . غير أن ذلك لم يكن فى مقدورها ، فقد تكفل  
القدر بالتفريق بيننا ، وبالحيلولة دون تقاربنا من جديد . . . . .  
بنكسة فى صحتها ، وها هو حزننا الأبدى يعود فيلازمها ، وها نحن  
تتبعنا ، ثم تزول الألفة ، ويحل محلها الحذر والتهمك ، وربما الإهمال  
والبغض !



غير أن ثمة دقائق كانت ، حتى فى تلك الفترة ، تفلت من رقابتنا ،  
فكانت القراءة المشتركة أحياناً ، وبعض كلمات التودد التى ترسلها احدانا  
فجأة ، والموسيقى ، تجعلنا نسى كل شيء . . . بل تجعلنا نفرط فى النسيان  
أحياناً ، حتى لتلبث احدانا بمدئد كأنها خجلى من الأخرى . . . وما هى  
الإلحظات من التفكير حتى تنظر كل منا الى صاحبها فى استطلاع حذر  
هو الى الخوف أدنى ، وتشعر كل منا أن ثمة حاجزاً يقف عنده تقاربنا ،  
واننا لا نستطيع أن نتجاز هذا الحاجز رغم رغبنا فى ذلك . . . !

وذات مساء ، ساعة الفسق ، كنت فى مخدع الكسندرين  
ميخائيلوفنا ، أقرأ فى كتاب من الكتب ذاهلة . وكانت هى تعزف على  
البيانو ألحاناً مرتجلة مستلهمة من لحن ايطالى تؤثره ، حتى اذا وصلت الى  
مقطع معين من هذا اللحن ، رأيتنى وقد دبت حماسة الموسيقى فى قلبى  
أخذ فى الغناء بصوت خافت خجول ، ثم لا ألبث وقد ازدادت حماسى  
أن أنهض من مكاني وأقرب من البيانو . . . وكان الكسندرين ميخائيلوفنا  
أدركت اهتمامى هذا ، فأخذت تصاحب بعزفها كل نعمة من النعمات التى  
كنت أغنيها ، وهى أشد ما تكون دهشة . . .

لقد فاجأها صوتى مفاجأة كبيرة . لم أكن قد غنيت أمامها أبداً قبل

تلك اللحظة • ثم اننى كنت أجهل - أنا نفسى - مقدرتى فى الغناء •  
وأخذنا الآن نتبارى ، صرت أرفع صوتى أكثر فأكثر ، وهى تتابع غنائى  
بمزفها ارتجالا ، وتزداد دهشة وحماسة ، ويزيد ذلك فى حماسى أنا  
الأخرى •• حتى فرغنا ، فاذا هى من اعجابها تمسك يدى فى تأثير قوى ،  
وتنظر الى فرحة وهى تقول :

- آيت •• آيت • ان لك صوتا رائعا ا رباه ا كيف أمكن أن  
لا ألحظ ذلك ؟

فأجبت وقد غمرنى فرح شديد :

- لم أكن أعرف ذلك أنا الاخرى •

- ليباركك الله ، أيتها البنية التى لا تعرف الكبرياء ولا الزهو ا  
اشكرى الله على ما أودع فيك من مواهب • من يدري ••• آه ، رباه ا  
رباه !

كانت من شدة التأثير لهذا الاكتشاف غير المنتظر ، وكان فرحها من  
شدة الفيض ، بحيث لم تعرف ماذا تقول ولا كيف تداعبنى • كانت تلك  
لحظة من صراحة تامة ، ومودة متبادلة ، وتقارب بعد عهدنا به كثيرا ،  
وما هى الا ساعة حتى كان البيت كله فى عيد ، وأرسلوا يستدعون «ب»  
على الفور !

وفى انتظار وصوله ، فتحنا على غير هدى دفترا موسيقيا آخر أعرفه  
معرفة أتم ، لتجرب لنا ثانيا • وكنت فى هذه المرة أرتعد خجلا ووجلا •  
كنت أخاف أن أخفق فأفسد الأثر الأول •• لكن جرس صوتى سرعان  
ما طمأننى ورد الى شجاعى ، وازدادت حيرتى ودهشتى من هذه القوة  
التى أملكها ، ولم يبق بعد هذه التجربة الثانية من شك • وطفح فرح

الكسندرين ميخائيلوفنا ، فاستدعت ولديها ، بل واستدعت خادماتها • ثم طفحت حماستها أكثر من ذلك فمضت الى زوجها في حجرة عمله تستدعيه - وهو أمر ما كان لها أن تسمح لنفسها به في الاحوال العادية! - وأحسن بطرس الكسندروفتش استقبال النبأ ، وهنأني ، وكان اول من قال ان عليّ أن أتلقى دروسا ، فشعرت الكسندرين ميخائيلوفنا من اقتراحه هذا بسعادة كبيرة ، بل قبلت يديه عرفانا بالجميل ، كما لو كان ينعم عليها هي بشيء !

وأخيرا وصل «ب» ، وكان يحبني كثيرا ، فصرح بأنه سعيد بالنبأ ، وتحدث عن أبي وعن الماضي ، ثم بعد أن غنيت أمامه مرتين أو ثلاثا أعلن وقد لاحظ في وجهه علائم الهم أنني مؤهلة للفناء من غير شك ، وانتي قد أكون موهوبة ، وان من الضروري أن يتقف صوتي على كل حال • ثم كان «ب» والكسندرين ميخائيلوفنا شعرا بأنهما أسرفا في التناء فبادرا الى القول بأن امتداحي على هذا النحو خطر جدا ، ورأيتهما في الوقت نفسه يتغامزان خلسة ، فيفضحان بذلك تأمرهما على ، وهو تأمر مسرف في السداجة ، مسرف في الخراقة على كل حال ، وظللت أتسلى بالنظر اليهما طوال السهرة ، وكانا بعد كل لحن جديد أغنيه يحاولان أن يحبسا فرحهما ، ويتعمدان أن يعلننا جهارا بعض الملاحظات عن أخطائي •

لكنهما لم يستطيعا أن يلتزما هذا الموقف مدة طويلة ، وكان «ب» أول من فضح نفسه من فرط ما ظهر عليه من بشر وجبور - ولم أكن أتصور أنه يحمل لي كل هذه العاطفة - وجرى الحديث خلال السهرة كلها وديا حارا • وقص علينا «ب» حياة بعض المغنين المشهورين ، فكان يقصها في حماسة الفنان وقوة حبه وعمق عاطفته •• ثم ارتد الى أبي ، وتحدثنا عنى ، وعن طفولتي ، وعن الامير وعن أسرة الامير ، التي لم

أسمع أحدا يتحدث عنها الا قليلا منذ مدة طويلة • ولم تكن الكسندرين ميخائيلوفنا نفسها تعرف من أنبائها الا النزر اليسير • وكان « ب » أكثر اطلاعا على شئوننا لانه سافر الى موسكو عدة مرات • لكننا حين وصلنا من حديثنا الى هذا الموضوع تلفع الكلام بأسرار وأحاج فلم أفهمه ، ولا سيما ملاحظتان أو ثلاث تتعلق بالامير ، لم أستطع أن أدرك كنهها البتة ! • • واستفهمت الكسندرين ميخائيلوفنا عن « كاتيا » أيضا ، غير أن « ب » لم يستطع أن يقول بصددها أى شيء واضح ، حتى لقد بدا أنه يؤثر أن لا يقول شيئا !

وفجأني ذلك كثيرا • اننى لم أنس حبي لكاتيا ، حتى لقد كنت لا أستطيع أن أتصور - لحظة واحدة - أن قد طرأ على كاتيا أى تفسير مهما يكن شأنه • لقد غاب عنى حتى تلك اللحظة كل شيء : فراقنا ، والسنوات الطويلة التى قضيناها بعيدتين احدانا عن الاخرى دون أن نتكاتب ، واختلاف التربية ، واختلاف الطبع • • ولم تكن كاتيا قد بارحت خيالى أبدا • كانت لا تزال تعيش الى جانبي ، ففى أحلامي ، فى رواياتى ، فى مغامراتى الخيالية ، كنا نسير دائما جنبا الى جنب ، وقد تأبطت كل منا ذراع الاخرى • كنت اذا تخيلت نفسى بطللة الكتاب الذى أقرؤه سرعان ما أفسح لصدىقتى الاميرة مكانا الى جانبي ، وسرعان ما تنقسم الرواية قسمين ، أحدهما من اختراعى !

والخلاصة : لقد قرر مجلس الاسرة استدعاء أستاذ يعلمنى الغناء ، وأوصى « ب » بأستاذ هو أشهر الأساتذة وأقدرهم ، فما ان أتى اليوم التالى حتى حضر الينا الايطالى « د » ، فسمع غنائى ووافق على رأى صديقه « ب » ، ثم أضاف الى ذلك اننى اذا ذهبت الى حضور دروسه مع تلامذته الآخرين كان ذلك أعود بالنفع على ، لأن التنافس هنالك سيحملنى



على زيادة العناية بشقيف صوتي ، كما ان المقارنة بين أصوات كثيرة ستفيدني في اثناء صوتي • ووافقت السكندرين ميخائيلوفنا على ذلك ، وصرت منذ ذلك الحين أذهب ثلاث مرات في الاسبوع الى دروس ( الكونسرفاتوار ) ، تصحبي وصيفة •

والآن أريد أن أقص حادئا غريبا كان له في نفسي تأثير كبير ، بل كان فاتحة حياة جديدة • كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمري ، وقد أصبت فجأة في ذلك الحين بنوع من تبدل الحس وخمود العاطفة ، لاسيل الى دفعه • كنت أعاني ضربا من فراغ النفس رهيبا ، لا يطاق ولا يفهم • كان خيالي قد كبا ، وكانت وثباتي قد انطفأت ، وكانت أحلامي قد تبددت حتى لكأنني لا أستطيع أن أحلم ! وحل محل الحماسة القديمة فتور شديد ، حتى ان موهبتي التي كان يعترف بها الجميع والتي كنت فخورة بها قد فقدت كل بريق ، وصرت أهملها دون أن أشعر من هذا الاهمال بأي ندم • لم يبق ثمة شيء يشوقني أو يجذبني ، حتى ان السكندرين ميخائيلوفنا أصبحت لا تثير فيّ الا البرودة ، وكنت ألوم نفسي على ذلك ، سيما وانني لم أكن أستطيع الا أن ألاحظه • وكان تبدل شعوري مشوبا بحزن لا علة له ، ونوباتٍ من البكاء مفاجئة • وصرت أشد الخلوة والوحدة •

في تلك الفترة هزني هذا الحادث الغريب الذي سأقصه الآن ، وقلب نفسي رأسا على عقب ، وأحال الخدر الى عاصفة • لقد جرح قلبي جرحا هائلا •• واليكم كيف تم ذلك :

## الفصل الثامن



المكتبة ذات يوم (وتلك لحظة لن أنساها ماحيت)  
فتاولت رواية من تأليف « والتر سكوت » هي  
( مياه سان روتان ) • انها الكتاب الوحيد الذي  
لم أقرأه بعده • مازلت أذكر أن نوعا من القلق المر  
كان كأنما يجعلنى أوجس أمرا • كانت بى رغبة فى البكاء • وكان النور  
فى الغرفة ساطعا بأشعة الشمس الغاربة التى تتدفق فى أرجاء الغرفة من  
النافذة العالية وتنعكس على البلاط المتلألئ • • وكان يسود ثمة سكون تام •  
ما من مخلوق فى الغرف المجاورة • • كان بطرس الكسندروفنش غائبا عن  
البيت ، والسكندرين ميخائيلوفنا تعانى من آلام مرضها ، فهى تستريح فى  
سريرها •

وظفقت أبكى دون أن أستطيع حبس دموعى ، ثم فتحت الكتاب من  
نصفه الثانى وقلبت بضع صفحات على غير هدى ، كأنما أريد أن أحزر  
شيئا ما ، من نهايات الجمل التى تخطر أمام عيني • كنت كأننى أفتش عن  
نبوءة أو فأل ، كما يفعل بعض الناس حين يفتحون كتابا من الكتب على

غير هدى • ثمة لحظات يريد فيها المرء أن يوتر عقله وقواه الى أقصى حدود الالم ، حتى تنبجس المعرفة كشرارة ، فاذا بطيوف من النبوءة تجتاح النفس المرتعشة ، النفس القلقة لتنبؤها بالمصير الذي ينتظرها • ان كياننا كله ، وقد جرفه الظمأ الى الحياة بأى ثمن ، يستسلم عندئذ للأمل ، مهما يكن هذا الأمل أعمى ومهما يكن غنيا ، وينادى المستقبل بكل ما فيه من مجهول ومن سر ، يناديه أن يأتى ان صح التعبير ، يناديه ولو كان مشحونا بالعواصف والزوابع ، حسبه منه انه الحياة ••• كنت أجتاز لحظة من تلك اللحظات •

وطويت الكتاب ، ثم فتحته مرة أخرى مؤمّلة أن أقرأ مستقبلي في الصفحة التالية التى تقع تحت بصرى عرضا •• فاذا أنا أرى فى داخله رسالة مطوية أربع طيات يظهر من شدة انضغاط حوافها أنها نسيت فى هذا الكتاب منذ مدة طويلة • نظرت الى الرسالة فى كسير من حب الاستطلاع • كانت بلا عنوان ، مذيلة بهذا التوقيع : « س • و • » ••• واشتد اتباهى • نشرت طيات الرسالة ، وكانت أشبه بالملتصقة ، مصفرة ، متهرئة ، وكان واضحا أن صاحبها قد قرأها وأعاد قراءتها مرارا ، ثم حفظها فى هذا المكان كما يحفظ كنز من الكنوز !

وكان العبر قد شجب ، من بعد عهد الكتابة ••• وقفزت الى عيني بضع كلمات ، فأخذ قلبى يخفق خفقانا قويا من شدة الانفعال • واضطربت اضطرابا شديدا ، فصرت أقلب الرسالة بين يدى دون أن أصمم على البدء بقراءتها • ونظرت اليها فجأة من خلال النور: نعم ! ان دموعا قد جفت على وريقاتها ••• وما زالت بقعها فوق الورق ، بل ان بعض الكلمات قد أمحت بتأثيرها أو تشوهت • من عسى أن يكون ساكب هذه الدموع ؟ وأخيرا قرأت نصف الصفحة الأولى ، فصعقت من فرط الدهشة وانطلقت

من صدرى صرخة • أعدت الكتاب الى مكانه • وأغلقت المكتبة ، ودست الرسالة فى صدرى ، وعدوت الى غرفتى ألوذ بها لأستأنف القراءة • كان قلبى يدق دقا عنيقا حتى لقد كانت الكلمات تترنح وتترافص أمام عيني • ولم أستطع أن أفهم الا بعد مدة طويلة •

ان هذه الرسالة تكشف لى عن السر الذى كان يقلقنى كثيرا •• ووقعت الرسالة من نفسى موقع الصاعقة ، لأننى حزرت صاحبها الذى وجهت اليه • كنت أعلم اننى بقراءة هذه الرسالة اقرف عملا سيئا ، الا أن الامر كان أقوى منى ، فلم أستطع أن أمنع نفسى عن قراءتها • كانت الرسالة موجهة الى ••• الكسندرين ميخائيلوفنا •

لسوف أمتسخ لكم هذه الرسالة • كنت قد فهمت موضوعها فهما غامضا ، وبعد أن قرأتها ثم أعدت قراءتها لازمت فكرى بل حاصرته حصارا شديدا ، وكأن حياتى قد تحطمت منذ تلك اللحظة ، لأن هذه الرسالة كانت نبوءة حقا ، أدخلت الى قلبى الذعر والثورة الى أمد بعيد ، ان لم يكن الى الابد • لقد تطيرت من مستقبلى !

انها رسالة وداع ، رسالة تمزق القلب تمزيقا • وانقبض صدرى بعد أن قرأتها كأننى فقدت كل شيء ، كأنما انتزع منى كل شيء ، حتى الحلم والرجاء ، كأنما لم يبق لى شيء على الاطلاق ، الا حياة عقيمة غير ذات جدوى !

ترى من كاتب هذه الرسالة ؟ ان الرسالة تشتمل على تلميحات كثيرة ، على وقائع كثيرة ، فلا يمكن أن يُخدع المرء فى أمرها ، ولكنها تشتمل فى الوقت نفسه على ألباز كثيرة ، حتى ليضيع المرء بصدها فى ظنون وتخمينات ! •• على اننى فهمتها فهما صائبا • كان الاسلوب وحده

يقول أشياء كثيرة عن قيمة العلاقات التي تحطمت فسحقت فليين • ان أفكار كاتب هذه الرسالة وعواطفه معروضة عرضا واضحا ، انها أفكار وعواطف شخصية ، وهي كما قلت كافية لتكشف لى عن السر • ولكن اليكم نص هذه الرسالة ، نسخته كلمة كلمة :

« قلت انك لن تنسينى • وأنا أصدقك ، وسأعيش بعد الآن بهذا القول • يجب أن نفترق • لقد دقت ساعتنا ! ولقد كنت ، يا عزيزتى الرقيقة الحزينة ، أعرف ذلك منذ زمان طويل ، غير اننى لم أفهمه الا اليوم • طوال العهد الذى أحبيتى فيه ، كان قلبى ، رغم حبك ، قلنسا معذبا فى كل لحظة • هل تصدقين اننى من شدة ما تألت فى سبيل حبنا أشعر الآن بشيء من الراحة ؟ كنت أعرف منذ زمان طويل ان علاقاتنا ستتهى لا محالة ، وان القطيعة قد كتبت علينا منذ البداية ! ذلك قدر محتوم •• اسمعى ، يا ألكسندرين ، اننا لم نكن متكافئين ، لقد شعرت بذلك دائما ، دائما • لم أكن جديرا بك ، فعلى أن أتحمل وحدى اذن جزاء سعادتى الناهبة ! قولى ، ماذا كنت قبل أن أعرفك ؟ وباه ! هاتان سنتان تنقضيان ، وما زلت الى الآن لا أستطيع أن أفهم لماذا أحبيتى أنت ! لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يقع شيء كهذا !؟

« ما أنا اذا قورنت بك ؟ هل كنت جديرا بك ، حتى تلتفتى الى ، وحتى تختارينى ؟ لقد كنت رجلا فظا ، غليظا ، أخرق ، عبوسا • ولم أكن أصبو الى حياة أخرى ، لم تكن بى حاجة لا الى معرفة حياة أخرى ، ولا الى نداء حياة أخرى • كان كل شيء قد اختنق فى نفسى حتى كنت لا أرى فى الدنيا ما هو أهم شأنا من عملى اليومى الموحش •

« وكان قد بقى لى شاغل واحد ، هو الند ، بل كنت لا أحفل حتى بهذا الأمر • وقبل ذلك الحين ، قبل ذلك الحين بمدة طويلة ، كنت استشف بعض الاشياء وأحلم كما يحلم غبى من الاغبياء • ولكن كان قد

انقضى على ذلك زمان طويل ، طويل جدا ، وأصبحت من الاستقرار فى حياتى المنزوية الكالحة الهادئة بحيث لا أشعر حتى بالصقيع الذى يجلد قلبى • كان قلبى يغط فى نوم عميق • ثم قلت لنفسى انه لن تشرق على قلبى شمس •• كنت أؤمن بذلك ، ولا أتمرّد عليه ، لعلمى بأن الأمر يجب أن يكون على هذا النحو • وحين مررت بى ، لم أستطع أن أفهم أن فى وسعى أن أجرؤ على رفع بصرى اليك : كنت أمامك عبدا • ولم يخفق قلبى ، ولا انقبض ، ولا انجذب • لم تزد دقات قلبى قوة • ولم تعرف روحى روحك ، وان أحست بهذا الضوء الناعم يشع من أختها الراضة •

« على ان احساسى هذا كان غامضا أصم • كنت قادرا على الشعور به لأن آخر حشرة من الحشرات التى يفرقها نور الشمس تشعر بالدفء والدغدغة مثلما تشعر به الزهرة المتألقة التى تحتمى بها الحشرة ! ••• وحين فهمت كل شيء فى ذلك المساء ، بعد الاقوال التى هزت أعماق نفسى ، عميت عيناى ، وطاش صوابى ، هل تذكرين ؟ ودار فى نفسى كل شيء ، وبلغ انفعالى من القوة أن اعتقدت أنني لا أفهم ، هل تعلمين ؟ لم أحدثك عن شيء من هذا فى يوم من الايام ، ولم تعرفنى عنه شيئا البتة • لست الآن ماكنته قبل أن أعرفك • ولو قد استطعت أن أحدثك، لو قد جرؤت أن أحدثك ، لاعترفت لك بهذا كله منذ زمان طويل • غير اننى سكت ، واذا كنت أقول لك ذلك الآن ، فلكى تعرفنى من هذا الذى تركين ، من هذا الرجل الذى تفارقين !

« هل تعلمين متى بدأت أفهمك ؟ لقد ألهبنى الهوى كالنار ، نفذ الى دمي كالسهم ، وهز قلبى ورأسى جميعا • كنت سكرانا ، كنت مشلولوا ، كنت مخدرا ، فلم أزد على أن أستجيب لجبك النقى ، لجبك الرعوف الحنون الرحيم ، دون أن أشعر أنني كفاء لك ، دون أن أكون جديرا

بك • كنت لا أعرفك ، وأستجيب لك استجابتي لمن كانت فى نظري تهبط الى ، لا استجابتي لمن كانت تريد أن ترتفع بي اليها • هل تعلمين ماذا ظننت فيك ، وماذا تعنى هذه الكلمة : الهبوط الى ؟ ولكن لا ، لا أريد أن أسئ اليك باعتراف كهذا • على أننى أحب أن أوكد لك شيئا : لقد خدعت فى أمرى كثيرا ، فما كان يمكن أن أرقى اليك فى يوم من الأيام • وبعد أن فهمتك ، أصبحت لا أستطيع الا أن أتأملك ، أنت التى كنت لا أستطيع أن أرتفع اليك ، والتى أحببتهى هذا الحب القوى •

« غير أن ذلك لا يكفر عن خطئى • ان حبى الذى شرف بك لم يكن حيا • كنت أخشى الحب ، وما كان لى أن أبسج لنفسى أن أحبك • لأن الحب يقوم على وصال روحى لست جديرا به ، وعلى مساواة لست أهلا لها ! •• كنت أجهل ما بنفسى ! أواه ! كيف أقول هذه الأشياء ، كيف أفهمك اياها ؟ فى أول الامر لم أستطع أن أصدق ••• آه ! هل تذكرين ، بعد هدأة الانفعال الاول ، حين استطاعت عيناي المضطربتان ان تريا رؤية واضحة • هل تذكرين كيف ان شعورى الاول عندئذ كان دهشة وحيرة وهلما ، وكيف اننى ارتعبت على قدميك أشهق وأتعب ؟ هل تذكرين كيف انك سألتنى ، مرتاعة ، عما بى ؟ لقد سكت يومئذ ، لأننى كنت لا أستطيع أن أجيبك • كانت السعادة قد مزقت نفسى • كانت السعادة تسحقنى سحقا كحمل ثقيل • وكانت دموعى تقول لى : « علام وهب لى كل هذا ؟ فيم أستحقه ؟ كيف أكون أهلا لمثل هذه السعادة ؟

« أختاه •• يا أختى العزيزة ، يا أختى الحبيبة ••• آه •• كم مرة قلبت ثوبك خفية ، دون أن يدور ذلك فى خلدك ، لعلنى بأننى غير خليق بك ! وكانت أنفاسى تصنق ، وكان قلبى يأخذ فى خفقان بطىء • كان يدق دقات قوية صماء ، كأنه يوشك أن يتوقف الى الابد • وكنت

حين أمسك يديك ، أشحب وأرتجف ، لأن صفاء روحك كان يخجلني ويرهيني ! أواه . اننى عاجز عن أن أقول لك كل ما تجمع فى قلبى ، كل ما كنت أود أن أعبر لك عنه . هل تعلمين أن خنانك ورقنك الدائمة كانا يؤلمانى ؟ حين قبلتنى ( ولقد حدث هذا مرة لن أنساها ما حيت ) شعرت بضباب يغشى عيني ، وشعرت بنفسى كلها تذوب دفعة واحدة ! .. لماذا لم أمت فى تلك اللحظة على قدميك ؟ ترين أننى أخاطبك الآن بصيغة المفرد ، لأول مرة ، رغم أنك طلبت الى ذلك منذ زمان طويل . هل تفهمين ماذا أعنى بذلك ؟ .. اننى أريد أن أقول لك كل شيء ، وسأقول لك كل شيء : نعم ، انك تحييننى كثيرا ، تحييننى كما تحب أخت أخاها ، وتحييننى كما يحب خالق مخلوقه ، لأنك أحييت قلبى : لأنك أنهذت روحي من خدرها ، لأنك غرست فى صدرى أملا عذبا ، أما أنا فلم أستطع ، لم أجرؤ . اننى حتى الآن لم أستطع أن أناديك يا أختاه ، لأننى لا أقدر أن أكون أخاك ، لأننى لست كفتا لك ، لأنك خدعت فى أمرى !

» ترين اننى لا أتحدث الا عن نفسى . حتى فى هذه اللحظة التى أعانى فيها شقاء فظيما ، لا أفكر الا فى نفسى ، رغم علمى بأنك تعذبين قلقة على مصيرى . آه . لا تعذبى من أجلى ، يا صديقتى الحنون . هل تعلمين الى أى حد أشعر بالصغار فى نظر نفسى ؟ لقد اكتشف كل شيء وأنير حوله صخب كثير ! .. وسوف يندونك بسببى ، وسوف يفرقونك بالاحتقار ، وسوف يسخرون منك ، لأننى فى نظرهم مخلوق حقير جدا ! .. أواه ! .. ما أكبر جريمتى لأننى لم أكن جديرا بك ! .. لو قد كنت أخطر منزلة ، لو قد استحققت الاحترام على نحو ما يفهمونه ، لو قد كنت شخصية فى نظرهم ، اذن لغفروا لك ! .. ولكننى امرؤ نكرة لا قيمة له البتة ، امرؤ مضحك ، وهل أسوأ من أن يكون المرء مضحكا ؟



« وفي الواقع ، من هم الذين استكروا ونادوا بالويل والثبور ؟ ..  
ولان أمثال هؤلاء الناس استكروا ، فقدت أنا صوابي . لقد كنت دائما  
رجلا ضعيفا . هل تعلمين في أية حال أنا الآن ؟ .. اننى أسخر من  
نفسى ، ويلوح لى انهم على حق ، اذ لا يمكن الا أن أكون مضحكا وكرهها  
.. اننى أشعر بذلك . اننى أكره وجهى ، أكره كيائى كله ، أكره  
عادتى التى ليس فيها شىء من اللباقة واللفظ . ولقد كرهتها دائما .  
أواه ! اغفرى لى يأسى الفظ . لقد علمتى أن أقول لك كل شىء . ولقد  
فقدتلك الآن ، وجلبت لك السخط والقهقهات الساخرة . لأننى لم أكن  
جديرا بك .

« ان هذه الفكرة تعذبنى . انها تدور فى رأسى بلا توقف ، انها  
تضينى وتسمم قلبى . يتراعى لى دائما انك لم تحبى الا الرجل الذى  
حسبت انك ترينه فى .. يتراعى لى دائما انك خدعت فى أمرى . ذلك  
ما يؤلمنى ، ذلك ما يعسذبنى حتى ليكاد يميتهى ، ذلك ما يطيش لى  
ويفقدنى عقلى ، ويجعلنى أشبه بمجنون ا

« وداعا ، اذن . وداعا . الآن وقد عرفوا كل شىء .. الآن وقد  
صرخوا ما شاء لهم الصراخ ، وأنبوا ما شاء لهم التأيب (سمعتهم يفعلون !)  
.. الآن وقد صغرت فى نظر نفسى .. الآن وقد شعرت بالعار يجلمنى ،  
وشعرت بالعار يلعطخك أيضا لأنك اخترتنى .. الآن وقد لعنت نفسى ،  
فقد وجب على أن أهرب ، أن أخفى ، لأوفر لك الهدوء . لن ترينى بعد  
الآن أبدا ، أبدا . يجب أن أخفى ، ان القدر يأمر بذلك ! .. لقد وهب  
لى القدر أكثر مما أستحق . لقد أخطأ القدر ، وها هو يتلافى الآن خطيئته  
ويسترد كل شىء . لقد تقاربنا وعرف كل منا الآخر ، وها نحن الآن  
نفصل الى لقاء آتٍ .. ترى أين يكون هذا اللقاء الآتى ، ومتى يكون ؟

•• آه ! قولى لى ، يا حبيبة ، أين عسانا نلتقى ؟ •• أين ينبغي أن أمضى  
باحثا عنك ، وهل أعرفك اذا لقيتك ، وهل تعرفيننى اذا لقيتني ؟ •• ان  
روحى كلها ملائى بك ، أو اه ! لم هذا العقاب ؟ •• لماذا تنفصل ؟ قولى لى  
- فانى لا أفهم لأننى أصبحت لا أدرك شيئا - قولى لى كيف يمزق المرء  
حياته جزئين ؟ •• كيف ينتزع قلبه من صدره ، كيف يعيش بلا قلب ؟  
آه •• لا أستطيع أن أتصور اننى لن أراك بعد اليوم أبدا ، أبدا أبدا !

•• رباه •• ما أشد ما صرخوا ! •• لكم أخاف عليك الآن ! •• لقد  
لقيت زوجك منذ قليل •• اتنا كلينا غير جديرين به ، رغم اننا لم نجرم  
فى حقه •• انه يعرف كل شيء •• لقد رأانا ، وانه ليفهم كل شيء •• منذ  
مدة طويلة أصبح كل شيء واضحا أمام باصرتيه وضوح النهار •• لقد دافع  
عنك دفاع البطل ، وسينقذك •• سيخلصك من هذه المناقشات ومن هذه  
الصرخات ، انه يحبك كثيرا ويقدرك كثيرا •• هو ينقذك وأنا أهرب ! ••  
لقد ارتميت عليه أريد أن أقبل يده •• فطلب الى أن أمضى على الفور ،  
ونفذت الأمر •• يقال انه قد تخاصم معهم بسببك •• جميعهم هناك ضدك ••  
حتى لقد اتهموه بالمجاعة والضعف •• يا الهى ! ما عساهم قائلين أيضا ؟  
انهم لا يعرفون ، انهم لا يستطيعون أن يفهموا ، انهم عاجزون عن الفهم !  
سامحيهم يا عزيزتى المسكينة ، كما أسامحهم أنا ، انهم قد اضطهدونى  
أكثر منك بكثير ••

•• لم أعد أفهم ، لم أعد أعرف ماذا أكتب اليك •• ماذا قلت لك أمس  
مودعا ؟ •• لقد نسيت •• كنت خارجا عن طورى •• وكنت تبكين ••  
اغفرى لى هذه الدموع •• اننى ضعيف •• اننى جبان !

•• كنت أريد أن أقول لك شيئا آخر أيضا •• آه ! ليتنى أستطيع مرة  
أخرى أن أغرق يديك بالدموع كما أغرق هذه الرسالة فى هذه اللحظة !

•• ليتنى أستطيع أن أجتو مرة أخرى عند قديمك • آه ! •• ليتهم يعلمون  
شيئا عن جمال عاطفتك ! •• لكنهم عمى وليس فى قلوبهم الا الزهو  
والكبرياء •• انهم لا يرون ، ولن يروا ابدا ! •• انهم عاجزون عن  
ذلك ! لن يصدقوا انك بريئة طاهرة ولو أنى أهل الارض جميعا يعلنون  
ذلك أمام محكمتهم ، انهم لا يستطيعون أن يفهموا شيئا • آية أحجار  
سيرجمونك بها أيضا ؟ •• آية ذراع سترفع حجرا قبل الجميع ؟ •••  
آه ، انهم لن يخلجوا ، سيرفمون ألف حجر ! •• سيجرؤون على رفع  
الاحجار ، لأنهم يعرفون معنى ذلك : سيرفمون أحجارهم جميعا فى وقت  
واحد ، وسيقولون انهم يتحملون تبعه ذلك لأنهم بلا خطيئة ! •• آه ليتهم  
علموا ماذا يفعلون ! •• ليت فى الامكان أن يروى لهم كل شيء بلا  
اكرام ، عسى أن يروا ويسمعوا ويفهموا ويصدقوا ! ولكن لا ، انهم ليسوا  
أشرارا الى هذا الحد •• لعلنى أقول فيهم سوءا لأننى فى حالة من الانهيار  
والياس • ولعل مخاوفى أن تولد فيك شيئا من الهلع •• فلا تخشسهم ،  
ولا تخشى شيئا ، يا حبيبتى • سيفهمونك • ألم يفهمك واحد منهم ؟ نعم •  
انه زوجك فلا تقطعى الرجاء •

« وداعا ، وداعا • ولا أقول لك شكرا ، وانما أقول لك وداعا ••  
الى الأبد •

س • و



بلغت من الاضطراب - على اثر قراءتى الرسالة - اننى ظلمت مدة  
طويلة لا أعى ما حدث لى • كنت مذعورة منهارة فى آن واحد • ان  
الواقع يدخل فجأة فى هذه الحياة الغنية الحاملة التى عشتها منذ ثلاث  
سنوات • أدركت هلعاً اننى أقبض على سر خطير ، وان هذا السر

يربط منذ الآن كل وجودى .. كيف ؟ لا أدرى ، ولكننى كنت على يقين من ان مستقبلى يبدأ بهذه اللحظة نفسها . أصبح لا بد لى الآن ، رغما عنى ، من أن أشارك مشاركة وثيقة فى حياة وعلاقات هؤلاء الذين كانوا الى ذلك الحين عالمى كله .

وتملكنى الخوف : كيف أدخل فى صميم حياتهم ، أنا التى لم أدع الى ذلك ، أنا الغريبة ؟ .. ماذا عسى أن أحمل لهم ؟ .. وكيف يمكن أن تنحل هذه الروابط التى ربطتنى بسرّ غيرى على حين فجأة ؟ .. أين السبيل الى معرفة ذلك ؟ .. لعل دورى الجديد أن يربكنى ويربكنهم معا ؟ .. لست أستطيع أن أسكت ، وأن أمتنع عن الدور الذى عين لى ، وأن أحبس ما اكتشفته فى أعماق قلبى الى الأبد . وما مصرى فى هذا كله ؟ .. ماذا أعمل ؟ .. ثم ماذا يعنى هذا الذى اكتشفته ؟ .. ألف سؤال غامض مبهم انتصب أيضا أمام عيني ، وألقى بثقله الرهيب على صدرى ، حتى أصبحت كالتائهة .

وأذكر أن قد مرت بى لحظات أخرى تحمل الى احساسات جديدة ، غريبة ، لا عهد لى بها من قبل . ان شيئا ما قد انتزع من صدرى : زال قلبنى القديم دفعة واحدة ، ليحل محله قلق آخر لا أعرف معناه . كنت لا أدرى هل ينبغى أن يحزننى ذلك أم ينبغى أن يسرنى . كنت فى تلك اللحظة أشعر شعور من يهجر بيته الى الابد ، شعور من يدع حياة كانت الى ذلك الحين هادئة مطمئنة ، ليغامر فى رحلة بعيدة الى بلد مجهول ، فاذا هو ، وقد انقبض صدره قلقا واستشعر أن مستقبله فى هذه الطريق التى يتوغل فيها قد يكون سيئا ، يلقى نظرة أخيرة على ما حوله ويودع فى فكره ماضيه الذى كان . وأخيرا مزقت صدرى شهقات عنيفة متشنجة ،

وبلغت من انقباض القلب اننى شعرت بحاجة قوية الى أن أرى أحدا ، الى  
أن أسمع أحدا ، الى أن أقبّل أحدا قبلة عفيفة ..

لم أعد أستطيع أن أبقى وحيدة ، لم أعد أريد أن أبقى وحيدة .  
فهرعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وقضيت الى جانبها السهرة كلها .  
كنا وحدنا . ورجوتها أن لا تجلس الى البيانو ، وأن لا تطلب الى الغناء .  
كان كل شيء يشق على نفسى . وكنت عاجزة عن تركيز فكرى فى أى  
شيء . واطن انا بكينا معا . الا اننى أذكر اننى أخفتها كثيرا . فكانت  
توسل الىّ أن أهديء روعى وأن لا أكون مضطربة هذا الاضطراب كله  
.. وكانت تراقبني فى قلق هائل ، وهى تردد اننى مريضة من غير شك ،  
واننى لا أعتنى بنفسى . وأخيرا تركتها وأنا لا أدري ماذا أفعل ، كنت فى  
حالة من الهذيان الحقيقى ، ثم نمت بعد أن اتابتنى حمى شديدة .



وانقضت أيام عديدة قبل أن أصبح قادرة على أن أسترد هدوئى ،  
وعلى أن أنظر الى الموقف نظرة واضحة . كنا نعيش عندئذ ، أنا  
والكسندرين ميخائيلوفنا ، فى عزلة تامة . ذلك أن بطرس الكسندروفنش  
لم يكن فى بطرسبرج ، فقد سافر الى موسكو استجابةً لنداء أعماله ، وكان  
عليه أن يقضى هناك ثلاثة أسابيع . ورغم أن هذا البعاد كان قصيرا جدا ،  
فقد حزنت له الكسندرين ميخائيلوفنا حزنا هائلا .. وكانت تهدأ فى  
بعض الاحيان ، ولكنها تعترلنى ، كأن وجودى أصبح عبئا عليها ! .. ثم  
اننى كنت أشد العزلة أنا الاخرى . كان ذهنى يعمل فى نوع من الضباب  
الخانق ، وهو متوتر توترا مرضيا . كان يتفق لى أن أبقى ساعتين طويلتين  
فى هذا الهمّ المؤلم ، وكان يخيل الىّ أثناء ذلك كأننى أسمع أحدا يسخر  
منى بصوت خافت ، وأشعر باضطراب ينفذ الى نفسى ويشوش كل

أفكارى • وأصبحت لا أستطيع خلاصا من صور تحاصر شعورى ولا تدع  
لى راحة ••

كنت أتصور هذا الألم الطويل الذى لا مخرج منه ولا نهاية له •  
كنت أتصور هذا الخوف ، وهذا القلق ، وهذه التضحية تقبلها الكسندرين  
ميخائيلوفنا ذليلةً دون أن تحرك ساكنا ، ودون أن تبس بكلمة ! •••  
وكنت أرى أن هذه التضحية عبث لا طائل تحته ولا جدوى منه • كان  
يبدو لى أن الشخص الذى تتألم الكسندرين ميخائيلوفنا من أجله يحترقها  
ويصب عليها اللعنات •• كنت أرى مجرما يفسر خطايا برىء ، وكان  
ذلك يمزق قلبى تمزيقا ! وكنت أود فى الوقت نفسه ، من أعماق قلبى ،  
لو أستطيع أن أتحاشى هذه الشكوك •• كنت ألن هذا الرجل ، وأمقت  
نفسى ، لأن افتراضاتى لم تكن الا تخمينا ، ولأن ضميرى كان لا يستطيع  
أن يبرر مشاعرى • ثم أخذت أحلل بعض عبارات الرسالة ، وهذه  
الصرخات الواعية الرهيبة • وأخذت أتصور ذلك الرجل الذى لم يكن  
كفتنا • حاولت أن أحزر كل ما فى هذه الكلمة من معنى فطبع • وكان  
هذا الوداع اليأس يعذبنى : « شعرت بالعار يجلبنى ، وشعرت بعار يلطخك  
أيضا ، لأنك اخترتني ! » •• من كان ذلك الرجل ؟ •• ومم كان يتألم  
هذان المخلوقان ؟ •• ماذا كان يعذبهما ؟ •• ماذا فقدتا ؟ •• وكنت أهدىء  
من روعى وأعود فأقرأ الرسالة فى انتباه ، فتمزق نفسى ياسا • وأحار فى  
فهمها ، ثم تسقط الرسالة من بين يدي ، وقد تقبض قلبى أكثر فأكثر ،  
وتملكنى انفعال خائق •• والخلاصة : كان لا بد لهذا كله من أن ينحل  
على نحو من الأنحاء ، ولكننى لم أر منه مخرجا ، فكان ذلك يخيفنى ا

وذات يوم ، وكنت مريضة جدا ، جلجلت فى مدخل البيت أصوات  
عربة بطرس الكسندروفتش - وكان عائدا من رحلته الى موسكو -

فانطلقت من صدر الكسندرين ميخائيلوفنا صرخة فرح ، وبقيت أنا فى مكاني كالمتجمدة • أذكر اننى دهشت الى حد الذعر من انفعالى المباغت • ولم أستطع أن أملك زمام نفسى ، فهرعت الى غرفتى • لم أفهم شيئا من هذا الخوف الذى غشيني فجأة ، ولكننى كنت خائفة من هذا الخوف ! • وبعد ربع ساعة استدعونى ، وسلمونى رسالة من الامير • ورأيت فى القاعة رجلا لا أعرفه جاء مع بطرس الكسندروفتش من موسكو ، وعرفت من بضع كلمات أدركتها ادراكا خاطفا انه سيقم بيننا مدة طويلة •

كان ذلك الشخص هو وكيل الامير ، جاء الى بطرسبرج لينهى بعض الاعمال الهامة التى تتعلق بالاسرة التى كان يسعى فيها بطرس الكسندروفتش منذ مدة طويلة • أعطانى الوكيل الرسالة وذكر لى أن الاميرة الصغيرة - كاتيا - كانت تنوى أن تكتب الى أيضا ، وانها ظلت تؤكد له حتى آخر دقيقة انها تهيء هذه الرسالة ، الا انها تركته يمضى أخيرا خالى اليدين ، وهى ترجوه أن يبلغنى أنه ليس هناك فى الواقع أى شيء تريد أن تكتبه الى ، وان كتابة رسالة لا تعنى شيئا ، وانها سوّدت خمس صفحات ثم مزقتها ، وانه لا بد أولا من أن تنعقد صداقتنا مرة أخرى حتى نستطيع أن نتكاتب • ثم كلفته أن يعدنى بأننى سألقاها فى القريب !

وأجاب هذا الشخص المجهول على أسئلتى الملحاحة بأن نبأ اللقاء القريب نبأ صحيح فى الواقع ، لأن أسرة الامير تنوى العودة الى بطرسبرج • وقد بلغت من فرحى لسماع هذا الكلام اننى لم أستطع أن أملك نفسى ، فهرعت الى غرفتى ، وأغلقت على الباب ، ثم فضضت كتاب الامير والدموع تنهمر من عينى • ان الامير يبشرنى فى رسالته هذه بأنه سيرانى قريبا مع كاتيا ، وهو يهتنى على موهبتى تهتة حارة ، ويثنى على

المستقبل اللامع الذى ينتظرنى ، ويؤكد لى رعايته وحمايته • وقد بكيت وأنا أقرأ هذه الرسالة ، الا أن عنوبة دموعى هذه كانت مشوبة دائما بمرارة القلق الهائل الذى يثوى فى قرارة نفسى • لم أكن أفهم من حالى هذه شيئا ، عدا اننى خائفة من نفسى !



وانقضت على ذلك أيام • وفى الغرفة التى تجاور غرفتى ، أعنى الغرفة التى كان يقيم فيها سابقا سكرتير بطرس الكسندروفتشى ، كان القادم الجديد يعمل فى كل صباح ، وكثيرا ما كان يعمل أيضا فى المساء الى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل • وكان فى كثير من الاحيان ينتقل الى حجرة بطرس الكسندروفتشى ، فيخلو الاثنان يعملان معا ••

وذات مساء ، بعد العشاء ، رجتنى الكسندرين ميخائيلوفنا أن أمضى الى زوجها فى حجرة عمله أسأله هل يجب أن يتناول الشاي معنا • فلما لم أجد أحدا فى هذه الحجرة اعتقدت أن بطرس الكسندروفتشى لا بد عائد اليها من دقيقة الى أخرى ، فلبثت هنالك أنتظر أوبته • كانت صورته معلقة على الحائط • وأذكر اننى ارتعدت فجأة حين نظرت الى الصورة ، ثم حدثت فيها طويلا وقد تملكنى انفعال لا أفهم كنهه • كانت الصورة عالية • ولما كانت الغرفة مظلمة بعض الشيء ، وكنت أود أن أرى الصورة عن كثب ، فقد أعتليت من أجل ذلك ظهر كرسى • كنت فى حاجة لأن أنعم النظر فى هذه الصورة وأن أفحصها فحصا ، كأنما كنت أمل أن أجد فيها جوابا على شكوكى ، والواقع أن العينين فى هذه الصورة قد هزتانى فجأة ، ولم أكن قد رأيتها من قبل ، لأنهما كانتا مختبئتين دائما وراء النظارتين •

أذكر اننى لم أكن أحب نظرة هذا الرجل منذ كنت طفلة ، يحملنى



على ذلك نوع من التنبؤ الغريب لا يفهم • وقد جاء الواقع الآن يؤيد  
نبوءتى ويبررها • وأخذ خيالى يسرح ويمرح ، فاذا أنا أرى عيني  
الصورة تشيخان عن نظرتى الحادة وجلتين ، تحاولان أن تهربا منها ،  
وخيل الى أننى لا أرى فيهما الا الكذب والخداع ، وبلغت من قوة  
اعتقادى بأننى أنفذ الى سرهما أنه تملكنى فرح عظيم لا يمكن وصفه •  
وانطلقت من صدرى صرخة • وفى هذه اللحظة سمعت ضجة خفيفة ورائى  
•• فالتفت فاذا أنا أمام بطرس الكسندروفتش وجها لوجه ، وكان يتأملنى  
فى انتباه شديد • وخيل الى انه احمر فجأة ، فاحمررت أنا أيضا ،  
وقفزت أهبط من فوق الكرسى •

سألنى بلهجة قاسية :

– ماذا تفعلين هنا ؟ لماذا ارتقيت الكرسى ؟

ولم أعرف فى أول الامر ماذا أقول • ولكننى ثبت الى نفسى ونقلت  
اليه – على نحو ما استطعت – دعوة الكسندرين ميخائيلوفنا • لا أذكر الآن  
بم أجاب ، ولا كيف خرجت من حجرة عمله ، وانما أذكر اننى حين  
رجعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا كنت قد نسيت تماما الجواب الذى  
تنتظره ، فقلت لها على غير هدى ان زوجها آت •

فهتفت قائلة :

– ماذا بك يا نيتوشكا ؟ ما لوجهك أحمر شديد الحمرة ؟ انظرى  
الى وجهك فى المرأة • ماذا بك ؟

فدمدمت :

– لا أدرى •• لقد جريت مسرعة جدا ••

واستأنفت كلامها قلقة :

– ماذا قال لك بطرس الكسندروفتشى ؟

لم أجب • وفى تلك اللحظة سمعت وقع أقدام بطرس الكسندروفتشى  
فهرولت خارجة من الغرفة • وانتظرت ساعتين طويلتين وأنا أشد ما أكون  
قلقا • وأخيرا جاءنى من يقول ان الكسندرين ميخائيلوفنا تطلبنى •  
فمضيت اليها ، فألفيتها صامتا قد لاح على مجيها انشغال البال • وحين  
دخلت ، غرست فى نظرة سريعة ، فاحصة ، ثم لم تلبث أن غضت سن  
طرفها • كان نوع من الانزعاج يشع فى وجهها • وسرعان ما أدركت  
أنها معكرة المزاج جدا ، فهى تتكلم قليلا ، وتحتاجنى أن تنظر الى ،  
وتجيب على الاسئلة الرقيقة التى يوجهها اليها « ب » ، وكان مظهرها يوحى  
بأنها تشعر بصداق • وكان بطرس الكسندروفتشى أكثر انطلاقا مما  
عهدت فيه ، الا انه كان لا يتجه بالكلام الا الى « ب » •

ونهضت الكسندرين ميخائيلوفنا الى اليبانو ذاهلة ، وقالت وقد سرت  
كثيرا لهذه التسلية التى خطرت على بالها :

– نعم ، يا آيت ، غنى لنا أغنيك الجديدة •

نظرت اليها ، فاذا هى تتألمنى فى انتباه قلق •

ولكننى لم أستطع أن أضبط نفسى ، فبدلا من أن أقرب من اليبانو ،  
وأن أغنى ، ظللت واقفة فى مكاني ، مضطربة ، مرتبكة ؛ لا أدرى كيف  
أخرج من هذا الموقف • ثم ازداد حرجى ، فرفضت أن أغنى رفضا  
باتا !

فسألتنى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهى تحدى فى ، ثم تلقى على  
زوجها نظرة محتلسة :

– لماذا لا تريدين ؟

وضاعفت هذه النظرة المزدوجة اضطراباً أعصابى ، فنهضت عن الطاولة وقد اعترتنى هزة شديدة لم أستطع كتمانها • كنت أرتعد ارتعادا شديدا • وضاق صدرى حتى لم أعد أطيق الاحتمال ، فأجبت بصوت متهدج بأننى لا أريد أن أغنى لأننى لا أستطيع الغناء • وقلت اننى أشعر بأننى مريضة ، قلت ذلك ونظرت الى عيونهم جميعا • يعلم الله ما كان أشد رغبتى حينذاك فى أن أكون وحيدة ، بعيدة عنهم ، فى غياهب غرفتى ••

ولاحت فى وجه « ب » دهشة شديدة • أما ألكسندرين ميخائيلوفنا فقد بدا عليها الاضطراب ، غير انها لم تحتجج • وأما بطرس الكسندروفتشى فقد تجهم وجهه ، ونهض فجأة عن كرسيه قائلا انه نسى أمرا مستعجلا من أمور أعماله ، وخرج مسرعا وهو يعد بأن يرجع بعد قليل ان استطاع • الا انه صافح « ب » مودعا على سبيل الاحتياط ، خشية أن لا يستطيع الرجوع !

وسرعان ما سألتى « ب » :

– ولكن ماذا بك ؟ ان المرض يلوح فى وجهك حقا !

قلت وقد فرغ صبرى :

– اننى متعبة جدا ، اننى مريضة جدا •

– أصدفك • ان وجهك شاحب ، ومنذ هنيهة كان أحمر شديدا

• الحمرة

قالت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ، ثم صمتت فجأة فهتفت وأنا

أتقدم نحوها وأرمقها بنظرة ناقية :

- أوه ! كفى ..

لم تستطع المسكينة أن تحتمل نظرتي ، ففضت طرفها كمن ضبطت  
متلبسا بالخطيئة ، بينما تخضبت وجنتها الشاحبتان بقمع حمراء خفيفة ..  
فتناولت يدها وقبلتها .. وتركتني أفضل ذلك وهي تنظر الى بفرح  
صادق ساذج :

- اغفري لي انني كنت اليوم طفلة صغيرة سيئة . ولكنني أؤكد لك  
انني مريضة . لا تغضبني . دعيني أذهب .

قلت ذلك منفصلة .

فأجابت قائلة :

- انا جميعا أطفال !

ثم همست في أذني :

- أنا أيضا طفلة ، طفلة أكثر منك بكثير . الى اللقاء . وأتمنى لك  
الابلال من مرضك . ولكنني أناشدك الله أن لا تؤاخذيني .

فقلت وقد هزني رجاؤها الساذج هزا قويا :

- أؤاخذك ؟ لماذا ؟

فتملكها اضطراب رهيب ، كأنما هي تخاف نفسها فجأة ، وكررت

سؤالي قائلة :

- لماذا ؟

ثم أضافت :

- انك ترين حالتي يا نيتوتشكا ! ماذا قلت لك ؟ الى اللقاء . أنت

أذكى مني . انني أقل فطنة من طفلة صغيرة !

فقلت وقد تأثرت تأثرا شديدا ، دون أن أعرف ماذا أقول :

ـ أوه • بربك اصمتى !

ثم قبلت يدها مرة أخرى واسحبت •



وتملكنى أسف شديد وقلق عنيف ، وأنا أؤاخذ نفسي على اننى لم  
أكن حكيمة حذرة ولم أحسن التصرف • كنت أشعر بخجل شديد  
يفرئنى بالبكاء • ثم نمت وأنا فيما أنا فيه من حزن مبرح ••

وحين استيقظت فى صباح اليوم التالى كان أول ما تبادر الى ذهنى  
هو أن ليلة البارحة كانت حلما مزعجا ، كانت سرايا •• لقد تهالكنا على  
أمور تافهة فأخذناها مأخذ الجد ، وذلك كله يرجع الى خراقتنا ، الى اننا  
لم نتعود التغلب على المؤثرات الخارجية • قلت لنفسي ان الآفة كلها ترجع  
الى تلك الرسالة ، انها تحتل من فكرى مكانا كبيرا جدا ، وترهق خيالى  
الى حد الافراط ، فرأيت من الأفضل أن أدعها جانبا • وما ان عزمتم  
أمرى على ذلك حتى شعرت بقلقى يخف ؛ وحين أيقنت أن فى وسعى  
أن التزم قرارى بسهولة ، مضيت الى حضور درس الفناء فى طمأنينة  
وفرحة •

وأعانت طراوة الصباح على تهدئة أعصابى • كنت أحب كثيرا هذه  
الرحلة الصباحية الى أستاذى • لقد كان يمتعنى جدا أن أجتاز المدينة وهى  
تستعيد نشاطها المألوف فى تلك الساعة ، الساعة التاسعة من الصباح • كنا  
نمر عادة بشوارع صاخبة جدا ، وكان مظهر هذه الشوارع يلفت نظرى ،  
ولا سيما هذا التناقض الذى أحسه بين تفاصيل الحياة اليومية وبين الفن  
الذى ينتظرنى على بعد خطوتين ، فى الطابق الثانى من بناية كبيرة ،

يشغلها من أسفلها الى أعلاها سكان لعلهم لا يهتمون البتة بالموسيقى . كنت أمضى الى درسي مارة بين هؤلاء الناس التهمكين في أعمالهم ، متأبطة دفتر الموسيقى ، بينما كانت « ناناليا » العجوز التي تصحبنى تحملى ، دون أن تشعر بذلك ، على أن أسأله : ترى فيم تفكر ؟ وكنت أطرح هذا السؤال على نفسى بصدد أستاذى أيضا ، وهو رجل طيب ، بسيط ، لا هو بالاطالى ولا هو بالفرنسى ، بل هو بين بين ، ترفعه أجنحة الحماسة فى بعض اللحظات ، ولكنه فى الأغلب دعى ، وهو قبل هذا بخيل . وكان ذلك كله يسلىنى : يضحكنى تارة ، ويحملى على التأمل والتفكير تارة أخرى . وكنت من جهة أخرى أحب فى ، أحبه فى خجل ، وأحبه فى رجاء قوى يجعلنى « أبنى آلاف القصور فى أسبانيا » ، وأتخيل لنفسى مستقبلا رائعا مشرق الألوان ، فكنت أعود الى البيت دائما وقد امتلأت نفسى حماسة ونشاطا . . .

وقد كنت فى مثل هذه الحالة من الحماسة حين رجعت من درسى الى البيت فى الساعة العاشرة . كنت قد نسيت همى ، واسترسلت فى أحلام فرحة . الا اننى انتفضت فجأة على السلم انتفاضة من لدغته نار ، اذ سمعت صوت بطرس الكسندروفتش الذى يهبط السلم ىرن من فوقى . فأتابنى لدى سماع هذا الصوت شعور مزعج . . . وعادت ذكرى حوادث البارحة الى نفسى قوية واضحة ، حتى لم أستطع أن أخفى قلقي ، وانخبت له انحناءة خفيفة . . . لا شك أن وجهى كان فى تلك اللحظة معبرا جدا ، اذ توقف بطرس الكسندروفتش دهشا ، فاحمر وجهى من الانفعال ، وتابعت صعودى وأنا أكاد أركض . . . بينما دمدم هو بوضع كلمات ورائى ، ثم استأنف هبوطه . . .

كنت على وشك أن أبكى من شدة الاضطراب ، وأنا لا أفهم ماذا

اعترائنى ، وظلمت طوال فترة الصباح أنكى نفسى من فرط التغير الذى أصابنى . . لا أدرى على أى أمر أعزم ، ولا كيف أخسرج من هذه الدوامة . وأقسمت ألف مرة أن أهدىء من روعى ، ثم عاد الخوف ألف مرة يلم بى من جديد . كنت أشعر اننى أبغض زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، وكان ذلك فى الوقت نفسه يسلمنى ليأس شديد ، وشعور بالحقد على الناس جميعا ! . . لم أبرح غرفتى لحظة واحدة ، حتى اننى لم أذهب الى الكسندرين ميخائيلوفنا . فاذا هى تأنى الى . . فما ان ألت بصرها على حتى أوشكت أن تصرخ . كنت من فرط الاصفار بحيث اننى حين نظرت الى وجهى فى المرآة ذعرت ذعرا شديدا . وظلمت الكسندرين ميخائيلوفنا الى جانبى ساعة طويلة تعتنى بى غنايتها بطفلة .

غير ان عنايتها هذه كانت تحزنتى ، وكانت مداعباتها تشقى على نفسى . كنت من شدة الشعور بالحجل حين أنظر اليها بحيث رجوتها أخيرا أن تدعنى وحدى . فانسجت وهى أشد ما تكون قلقا . وأخيرا انفجر اضطرابى بكاء شديداً . وعند المساء رأيتنى أحسن حالا .

رأيتنى أحسن حالا لأننى قررت أن أمضى الى الكسندرين ميخائيلوفنا أرتمى على ركبتيها وأرد اليها الرسالة التى أدخلت الى نفسى كل هذا الاضطراب ، وأن أعترف لها بكل شىء . . أردت أن أعترف لها بالعذاب الذى كابده ، بالشكوك التى راودتنى ، وأن أقبلها قبلة تحمل كل الحب والقلق الذى أشعر به نحوها . أردت أن أذكر لها عذابى الشديد ، وأن أقول لها اننى ابنتها وصديقتها ، واننى أفتح لها قلبى رجبا واسعا ، وان عليها أن تنظر الى نفسى فتجد فيها العاطفة المشبوبة الراسخة التى أحملها لها .

رباه ! كنت أعلم ، كنت أشعر اننى آخر من يمكن أن تفتح له

قلبي ، ولكن خيّل اليّ انني أستطيع أن أورد السلام الي قلبها ، بما  
يمكن أن أسوقه من كلام رزين معقول . كنت أفهم قلبها - ولو فهما  
غامضا - وكنت كلما تصورت أن من الممكن أن تصمر خجلا مني ، وأن  
تخشي حكمي عليها ، أتور ثورة قوية .. يا عزيزتي ، يا عزيزتي  
المسكينة ، فيم أنت مذنبية ؟ ذلك ما سأقوله لها وأنا أبكي بين قدميها ..  
كان الشعور بأنها مظلومة يثيرني اثاره عنيفة حتى لكأنني مجنونة . والحق  
انني لم أكن أدري ماذا أفعل .. ولم أدرك ذلك الا فيما بعد ، حين  
تدخلت مصادفة من المصادفات فأقتدتنا كلتينا من الهلاك ، اذ أوقفتني عند  
الخطوة الاولى . وكان الذعر يملكني أيضا . هل كان يمكن أن يبعث  
الرجاء مرة أخرى في هذا القلب الموات ، قلب الكسندرين ميخائيلوفنا ؟  
.. هل أستطيع أن أنهضها من عثرتها ؟

ولكن اليكم ما وقع : لم يكن قد بقي عليّ الا أن أجتاز غرفتين حتى  
أصل الي غرفتها .. فاذا بطرس الكسندروفتش يخرج من باب جانبي ،  
ويصر أمامي دون أن يراني . كان ذاهبا اليها هو الآخر ، فوقفت في  
مكاني مشدوهة ، ذلك انه آخر من كان يحتمل أن أصادفه في مثل هذه  
اللحظة ! وكنت على وشك أن أعود أدراجي ، حين سمعني حب  
الاستطلاع في مكاني فجأة اذ رأيت يتوقف أمام مرآة ، ليصلح من شعره  
ويدندن - يا للدهشة ! - بأغنية ما !

وفي طرفة عين رجعت الي ذاكرتي ذكرى بعيدة من أيام الطفولة ..  
سأذكر لكم هذه الذكرى البعيدة ، حتى تفهموا الشعور الذي اجتاحني :  
خلال السنة الاولى التي عشتها في هذا البيت لفتت نظري وأثرت  
في نفسي ظاهرة غريبة تعود الي ذاكرتي الآن واضحة جلية .. ظاهرة  
لم تكتسب دلالة ومعنى الا في هذه اللحظة ، ولقد كانت هذه الظاهرة  
أصل الكره الذي أشعر به نحو بطرس الكسندروفتش دون أن أجد له



تمليلا • سبق أن قلت اننى ما شعرت يوما بشيء من الارتياح ازاء هذا الرجل • وسبق أن ذكرت أن تعبير وجهه الكالبح ، المقطب ، المهموم ، يبت في نفسى الخوف والقلق • وذكرت أيضا أن الساعات التي قضيتها معه على مائدة الشاي في حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا كانت شاقّة على نفسى مؤلمة ، ووصفت ما اتابنى من انقباض الصدر حين شهدت - مرتين أو ثلاثا - أزمت عنيفة حزينة قامت بينه وبين زوجته ••

ولقد كان يتفق لى أن أصادفه ، كما أصادفه الآن ، في هذه الغرفة نفسها ، في هذه الساعة عينها ، ذاهبا مثلى الى حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت أشعر بخجل كالذى يشعر به الاطفال ، فأنزوى في زاوية كأننى مذنبّة ، ادعو الله ألا يرانى أبدا ! •• كان يتوقف أحيانا أمام المرأة ، كما يفعل الآن تماما ، فأرتعد عندئذ من شعور لا أستطيع وصفه ولا تحديده • كنت أشعر انه « يصنع » لنفسه وجها ! •• كنت على الأقل أرى ابتسامة واضحة في محياه قبل أن يقف أمام المرأة ، وكان ذلك يدهشنى كثيرا ، ولا سيما انه كان لا يتسم أبدا أمام الكسندرين ميخائيلوفنا • فما ان يقف أمام المرأة حتى تبدل سحنته فجأة ، فاذا شفتاه تكتسيان ، بارادته ، تعبيراً مرا صادرا من قلب مقروح ، تعبيراً يستحيل اخفاؤه ، يستحيل كبتّه ، مهما كان لديه من الرغبة القوية - التى تفوق طاقة الانسان - فى ألا يُظهِر من هذا التعبير شيء البتة •• فالعذاب الحليس يفضن الجيين ، ويقطب الحاجيين ، ويصوّح النظرة من تحت النظارتين !

هكذا كان بطرس الكسندروفتش يستحيل الى شخص آخر فى طرفة عين ! •• وكنت أنا أرتجف خوفا ، وكنت أخشى أن « أفهم » هذا المنظر الذى أرى ، والذى ترك فى نفسى - الى الأبد - شعورا مؤلما ممضا • وكان بعد أن يتأمل نفسه لحظة فى المرأة ، يدلّى رأسه ويتخذ

وضع الانحاء الذى يلازمه متى كان مع زوجته ، ثم يدخل الى الكسندرين  
ميخائيلوفنا سائرا على أطراف الاصابع •

هذه الذكرى •• هى التى تعودنى الآن !

كان ، فى ذلك الوقت ، يحسب نفسه وحيدا ، فيقف أمام المرأة ،  
كما يفعل الآن • والآن - كما فى ذلك الوقت - لقيته على هذا الحال وأنا  
أشعر نحوه بالكراه والعداوة ، على غير ارادة منى ! •• غير اننى حين  
سمعته يضى ( وكان ذلك فى ذاته أمرا لا يمكن أن ينتظر منه ! ) بلغت  
من فرط الدهشة اننى تسمرت فى مكاني لا أستطيع حراكا • كانت حالتي  
فى تلك اللحظة شبيهة بحالات طفولتى • كان قلبى متقبضا انقباضا رهيبا  
لا أستطيع له وصفا ، فان أعصابى كلها ارتجفت لدى سماع هذا الغناء  
الذى لم أكن أتوقه •• فاذا أنا أنفجر فجأة فى ضحكة عصبية ، بالرغم  
منى !

اذ ذلك انطلقت من المغنى المسكين صرخة ، ووثب خطوتين الى وراء ،  
بعيدا عن المرأة ، وامتنع وجهه حتى أصبح كالميت ، كأنه مجرم يقبض  
عليه متلبسا بالجرم ! •• ونظر الى مشدوها ، ساخطا ، غاضبا غاضبا جنونيا  
•• فما زادتنى نظرتة الا كرها له واحتقارا ، وأجبت عليه بمضاعفة  
ضحكى دون أن أغض بصرى ! •• ثم مررت الى جانبه وأنا ما زلت  
أضحك ، ودخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا • كنت أعرف انه وراء  
الباب ، يتردد هل يدخل ، أو لا يدخل ، وقد تسمر فى مكانه من الغضب  
والخشية •• وأخذت أرقب ما سيفعل ، فى صبر فارغ مثير : كنت على  
شبه يقين من انه لن يدخل ! •• ولم يخطئ ظنى ، فانه لم يأت الا بعد  
انقضاء نصف ساعة على ذلك •• وحين دخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا ،  
نظرت الى فى شئ من الدهشة ، ولكنها حاولت عيضا أن تفهم منى

ما هنالك ، فانتى لم أجب بكلمة ، لأننى كنت كمن يحتنق ! .. وفهمت  
هى أخيرا ان أعصابى مضطربة لا أستطيع ضبطها ، فقلقت لذلك أشد  
القلق . وحين استطعت أن أهدى من روعى ، أمسكتُ بيدها وقبلتها .  
وفى تلك اللحظة فقط فكرت فيما عزمت عليه وشرعت فيه ، فأدركت ان  
الفكرة التى راودتنى كان يمكن أن تقلها ، لولا اننى صادفت زوجها فى  
الوقت المناسب !



وحين دخل بطرس الكسندروفتش ، لاحظت أنهما كمن بعث الى  
الحياة من جديد ..

واحتلستُ نظرةً سريعةً اليه ، فلاحظت انه على ما عهدت فيه من  
هيئة كالحلة رصينة حزينة . ولكننى أدركت من صفرة وجهه - ومن رجفة  
خفيفة فى زاوية شفته - انه لا يخفى اضطرابه الا فى كثير من المشقة  
والعناء . وقد حيا الكسندرين ميخائيلوفنا تحية باردة ، ثم جلس صامتا .  
كانت يدها ترتجفان حين تناول قديم الشاي . كنت أتوقع انفجارا ، وكان  
ذعرى يزداد قوة . الا اننى قررت أن أنسحب ، وأن أترك الكسندرين  
ميخائيلوفنا وحدها ، وقد تغير وجهها حين رأت زوجها . لقد كانت هى  
الآخرى توجس شيئا غير مألوف !

وأخيرا وقع ما كنت أتوقعه فى كثير من الخوف !

فبينما نحن فى صمت عميق ، رفعتُ بصرى فرأيت نظارتى بطرس  
الكسندروفتش تحدقان فىَّ ! .. وكنت لا أنتظر هذا ، فأوشكت أن  
أصرخ ، وغضضت عيني ..

ولاحظت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ..

أما بطرس الكسندروفتش فقال فجأة ، بصوت قاطع خشن :

– ماذا بك ؟ لماذا احمر وجهك ؟

لم أجب ، فقد كان قلبي من شدة الحفقان بحيث لأستطيع أن أبس بحرف ♦

– ما لها احمرت ؟ ما لها تحمر بلا انقطاع ؟

قال ذلك متجها بالسؤال في هذه المرة الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهو يشير الى بيده اشارة وقحة ♦

وانقطعت أنفاسي من فرط الاستياء ، فأرسلتُ الى الكسندرين ميخائيلوفنا نظرة متوسلة ، ففهمتني ♦♦ واذ ذاك تخرج خداهما الشاحبان ، وقالت لي بصوت جازم لم أكن أتوقعه منها :

– اذهبي الى غرفتك ♦ سألق بك بعد قليل ، وسنقضي السهرة معاً

واستأنف بطرس الكسندروفتش يسألني بصوت أعلى ، كأنه لم يسمع ما قالت امرأته :

– هل سمعت ما أقول ؟ أريد أن أعرف لماذا تحمرين كلما لقيتني ♦

أجيب على سؤالى !

فقلت الكسندرين ميخائيلوفنا تجيبه بصوت يهدجه الانفعال :

– أنت تجعلها تحمر ، وتجعلني أحمر أنا أيضا ♦

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا في كثير من الدهشة ، والحيرة ، والتعجب ♦♦

– أنا ؟ أنا أجعلك تحمرين ؟ أنا ؟

قالها بطرس الكسندروفتش ، وقد ظهرت عليه الدهشة هو الآخر ،  
والح على « أنا » .. ثم أردف :

- تحمرين أنت بسببي أنا ؟ ولكن كيف يمكن أن أجعلك  
تحمرين ، الأولى أن تجعليني أنت أحمر ، ما رأيك ؟

كان معنى هذه العبارة واضحا جدا فى ذهنى ، وقد قالها بطرس  
الكسندروفتش بلهجة قاسية ساخرة ، فاذا أنا أطلق من صدرى صرخة ،  
وأهرع نحو الكسندرين ميخائيلوفنا ، فأرى الدهشة ، والعذاب ، واللوم ،  
والذعر ، تشع جميعا من وجهها الذى امتقع لونه حتى صار كوجوه  
الموتى ! .. وأرسلت الى بطرس الكسندروفتش اشارة توسل .. وكان  
كأنما عاد اليه رشده ، لكن الغضب الذى أثارته كلماته لم يكن قد انقضى  
بعد .. وأدرك مع ذلك ضراعتى الخرساء فاضطرب . كان واضحا من  
اشارتى أننى فهمت كلماته كل الفهم ، واننى اذن على علم ببعض الأمور  
التي ظلت حتى ذلك الحين سرا !

- آيت ، اذهبي الى غرفتك ، اننى فى حاجة ملحة لأن أتحدث مع  
بطرس الكسندروفتشى .

قالتها الكسندرين ميخائيلوفنا بصوت ضعيف لكنه جازم ، وقد  
نهضت عن كرسيها .

كانت تبدو هادئة ، الا أن هدوءها أخافنى أكثر من أى انفعال  
ممكن ، ولبت فى مكاني لا أستطيع حراكا ، كأننى لم أسمع ما قالته .  
كنت أحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أقرأ على صفحة وجهها ما دار  
فجأة فى نفسها ، وكان يلوح لى أنها لم تفهم اشارتى ولا ضراعتى ..  
وابتدرنى بطرس الكسندروفتش وهو يمسك ذراعى ويرينى  
امرأته :

- كان لك ما أردت يا آمنة !

رباه ! لم أر فى حياتى ياسا كالذى أراه الآن فى هذا الوجه المتشجج ، فى هذا الوجه الميت ! .. وتناول بطرس الكسندروفتش يدي يدفعنى الى خارج الغرفة ، بينما كنت أنظر اليهما كليهما مرة أخيرة . كانت الكسندرين ميخائيلوفنا واقفة ، مستندة الى المدفأة ، ممسكة برأسها بين يديها . كان وضعها كله ينبىء عن ألم لا سبيل الى وصفه . فأمسكت بيد بطرس الكسندروفتش وضغطت عليها بقوة محمومة ، وغمغمت بصوت مقطع متهدج أقول :

- حباً بالله ، حباً بالله ، ترفق بها ..

فأجاب وهو يلفنى بنظرة غريبة :

- لا تخافى ، لا تخافى ، ما من خطر . هى نوبة ثم تنقضى .

اذهبي . اذهبي .

فلما وصلت الى غرفتى ، ارتيمت على الديوان ، ووجهى بين ذراعى . ولبثت على هذه الحال ثلاث ساعات طوال فى جحيم حقيقى . ثم لم أستطع صبرا فأرسلت أسأل هل تسمح لى الكسندرين ميخائيلوفنا بالمجيء اليها ؟ .. وجاءتنى مدام ليوتار بالجواب : لقد طلب اليها بطرس الكسندروفتش أن تبلغنى أن النوبة قد انقضت ، وأن الخطر قد زال ، غير أن الكسندرين ميخائيلوفنا فى حاجة الى الراحة . ولبثت حتى الساعة الثالثة من الصباح لا أزيد على أن أذهب وأجىء فى غرفتى ، من شدة شعورى بحرج وضعى . ومع ذلك كنت أتخفف من قلقى مرررة انى المذبذبة الأولى . ثم نمت أنتظر الغد بفارغ الصبر ..

لكننى لاحظت على الكسندرين ميخائيلوفنا فى الغد شيئاً من الفتور

نحوى ، فأدهشنى ذلك وأحزنتى • اعتقدت فى أول الامر ان هذه المرأة ذات القلب النليل الطاهر يؤلمها أن ترى نفسها معى بعد أن شهدت أزمة البارحة على غير ارادة منى ، وكنت أعلم انها قد تحمر خجلا كطفلة ، وأن تسألنى ، كطفلة أيضا ، أن أغفر لها ذلك المشهد الذى ربما ساءنى • ولكن سرعان ما لاحظت أن أمرا آخر يسيطر على تفكيرها ، لا تستطيع من سذاجتها اخفاه • فكانت تارة تحينى بلهجة جافة باردة ، وتارة تقول كلاما ذا معنيين ، وتارة تستعيد لطفها وتداعبنى كأنها تأسف فجأة على ما بدر منها من قسوة ، قسوة لا يمكن أن تكون فى قلبها • • وكانت كلماتها فى هذه الحالة الاخيرة تحتفظ ، على عذوبتها وهدوئها ، برنة من عتب • وأخيرا سألتها صراحة عما بها ، وهل تريد أن تقول لى شيئا بعينه ، فهزتها سؤالى العنيف بعض الشيء ، الا أنها لم تلبث أن رفعت عينها الواسعتين الرقيقتين ، ونظرت الى تقول فى ابتسامة عذبة :

- ليس بى شيء ، يا نيتوتشكا ، الا أنك تعرفين أننى اضطرب حين يوجه الى سؤال مباغت • وهذا ما فعلته الآن • • أوكد لك ذلك • • ولكن اسمعى يا بنيتى وصارحينى بالحقيقة : هل فى قلبك شيء يمكن أن يجعلك تضطربين هكذا اذا سئلت سؤالا مباغتا لا تتوقعينه ؟

- كلا •

قلت ذلك وأنا أنظر اليها دون موارد •

- حسنا جدا • لو تعلمين يا عزيزتى كم أشكر لك هذا الجواب الجميل • • وليس معنى هذا اننى أستطيع أن أظن فيك السوء ، أبدا ، اننى لا أسمح لى نفسى بفكرة كهذه • ولكن افهمى : حين ضممتك الى بيتى كنت طفلة صغيرة ، وأنت الآن فى السابعة عشرة من عمرك ، وأنا الان مريضة ، فالطفلة الآن هى أنا ، وأنا التى يجب أن يعنى بها • لم أستطع

أن أكون أمك كما كنت أحب أن أكون ، على أن الحب ليس هو  
ما أعوزني ، ولئن كنت قلقة عليك الآن ، فلست أنت المسئولة عن ذلك ،  
وانما هي خطيئتي . فاغفري لي السؤال الذي طرحته عليك . واغفري لي  
أيضا أنتى لم أف بكل الوعود التى قطعها لأبى حين ضمنتك الى هذا  
البيت ؛ وان هذا أيضا ليقلقنى كثيرا ؛ وكثيرا ما عذبنى ، يا عزيزتى .

ارتيمت على عنقها باكية . ثم قلت وأنا أغرق يديها بدموعى :

– ليباركك الله ، ليباركك الله ، جزاء ما صنعت فى سبيلى . لا تكلمى  
هكذا ، انك تهصرين قلبى هصرا . لقد كنت لى أكثر من أم . نعم ، اننى  
أسأل الله أن يجزيكما خيرا عن كل ما صنعتما ، أنت والأمير ، من أجلى ،  
أنا اليتيمة البائسة . آه ! أيتها الصديقة العزيزة ، أيتها الصديقة الرقيقة  
اللطيفة !

– كفى يا نيتوتشكا ، كفى ! قبلينى قبله أعنف ، قبله أقوى . هل  
تريدين أن أقول لك ؟ اننى أشعر أن قبلك هذه هى الأخيرة ، لا أدرى  
من أين يأتينى هذا الهاجس !

فاحتججت أقول ، وأنا أنتحب كما ينتحب الاطفال :

– كلا . كلا . لا تقولى هذا . ستعيشين أياما سعيدة كثيرة . .  
ستعيشين أياما جميلة . صدقينى . سنكون سعيدتين .

– شكرا ، شكرا لك على هذا الحب كله . ليس من حولى الآن  
ناس كثيرين . . لقد هجرونى .

– من هم الذين هجروك ؟ من هم هؤلاء الناس ؟

– كان من حولى فى الماضى أشخاص آخرون . الا أنهم هجرونى



جميعا • لقد تبددوا كلهم كما يتبدد السراب • وانتظرتهم طويلا منذ ذلك الحين •• لم أفعل شيئا غير الانتظار ، طوال حياتي كلها •• ليباركهم الله ! هل ترين يا نيتوتسكا ؟ ان الخريف يتقدم ، وقرىبا يتساقط الثلج ، وسأمت أنا عند أول مرة يهطل فيها الثلج • نعم ، وان هذا ليحزن قلبي • وداعا •

كان وجهها شاحبا نحيفا ، وكان على كل خد من خديها بقعة حمراء ملتفة ، وكانت شفاتها ترتجفان ، وقد جففتها الحمى الداخلية •

واقتربت من البيانو تعزف بعض الألحان • فاذا بأحد الأوتار يقطع فجأة • فيدوي من انقطاعه صوت مبانغ ، امتد ثم انطفأ في ارتجاف •

قالت بصوت ملهم وهي تشير الى البيانو :

- هل تسمعين يا نيتوتسكا ؟ هل تسمعين ؟ لقد كان هذا الوتر مشدودا أكثر مما ينبغي أن يشد ، فلم يستطع أن يحتمل فمات • لقد سمعت كيف توجع الصوت وهو يموت !

كانت تتكلم في غناء • وكان الالم الأصم الذي يضطرم في نفسها يشع في وجهها ، وكانت عيناها مغرورتين بالدموع ، ولكن حيا يا نيتوتسكا ، كفى كلاما في هذا الموضوع ، كفى يا عزيزتي ، كفى • هيا احضري الاولاد •

وأنت بالطفلين •• ولاح عليها الارتفاع وهي تنظر اليهما ، وصرفتتهما بعد ربع ساعة •

- حين أموت ، لن تتركهما ، يا نيتوتسكا ، أليس كذلك ؟

قالت ذلك بصوت خافت ، كأنها تخشى أن يسمعها أحد غيري !

- اسكتي ، اسكتي ، انك تقتليني قتلا بهذا الكلام !

ذلك كل ما استطعت أن أغمغم به •

فقلت وهى تبسم بعد لحظة من صمت :

- اننى أمزح • هل صدقت قولى ؟ ألا تعرفين اننى فى بعض الاحيان  
أهرف فى الكلام هرفا • اننى الآن طفلة ، طفلة ، واننى فى حاجة الى أن  
'يفغر لى' •

وألت على نظرة خجلى ، كأنها تخشى أن تقول أكثر مما ينبغى أن  
تقول •

♦♦ وانتظرت

وأخيرا قالت وقد أغضت بصرها ، وتضرج وجهها فجأة بحمرة  
خفيفة ، ولكن بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

- حاذرى أن تخيفيه •

- من ؟

كذلك سألتها فى دهشة ظاهرة ، فقالت :

- زوجى • لا شك أنك ستقصين عليه كل شيء •

وازدادت دهشتى قوة ، فهتفت أسألها :

- ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

- حسنا • قد لا تذكرين له شيئا على كل حال •

قالت ذلك وهى تحاول جهدا أن تنظر الى نظرة ماكرة ، الا أن  
ابسامة شفتيها احتفظت بصراحتها ، وازدادت البقع الحمرة فى وجنتيها  
التهابا • وأردفت تقول :

- كفى كلاما فى هذا الموضوع • كنت أمزح • هذا كل ما فى الأمر •

وكان قلبى يزداد انقباضا •

وأردفت تقول بلهجة جدية ، ولكنها لهجة عجيبة •

- اسمعى مع ذلك • انك ستحيينهما بعد موتى ، اليس كذلك ؟  
ستحيينهما كأنهما ابناك ، أليس كذلك ؟ تذكرى ما أقول ، وتذكرى اننى  
أحييتك أنا الاخرى كأنك ابنتى ••

فهمت ، دون أن أعرف ماذا أقول ، وأنا ألهث وأختنق بدموعى :

- نعم ، نعم •

وتناولت "يدى بسرعة ، وطبعت عليها قبلة محترقة قبل أن أستطيع  
سحبها ، فهزنى ذلك هزا قويا حتى لم أستطع أن أنبس بكلمة •

وتساءلت فجأة : « ترى ماذا بها ؟ فيم تفكر ؟ ما الذى وقع بينهما  
البارحة ؟ » •

وبعد دقيقة شكك من أنها متعبة ، وقالت :

- اننى مريضة منذ مدة طويلة ، غير اننى لم أشأ أن أخيفكما لأنكما  
تجبانى كلاكما ، أليس كذلك ؟ والآن هيا ، الى اللقاء يا نيتوتشكا ، دعينى  
الآن ، ولكن عودى فى المساء ، هل تريدان ؟ ستأتين ، أليس كذلك ؟

ووعدها بأن أعود فى المساء • وكنت سعيدة بالرجوع الى غرفتى ،  
فاننى لم أعد أحمّل أكثر مما احتملت •

صرخت وأنا أشهق : « مسكينة أيتها البائسة ! أى شك يستحقك

الى القبر • آيه لوعة جديدة تسمك وتعض قلبك دون أن تجرئى على ان تقولى عنها كلمة واحدة ؟ رياه ! هذا العذاب الطويل الذى اعرفه الان كله ، هذه الحياة القائمة التى لم تعرف اشراق النور ، هذا الحب الخجول الذى لا يطلب شيئا ولا يريد شيئا ، هذا الذى تجفله الشكوى ويخيفه اللوم بلا انقطاع ، ما كل هذا ؟ • • وهذه المرأة المعزفة التى ترتعد كأنها مجرمة ، كيف تستطيع أن تصنع لنفسها ألما جديدا وتخضع له وتموت منه ! ؟ •



وفى المساء ، عند الشفق ، اتهمت فرصة غياب اوفروف - سكرتير بطرس الكسندروفتش - فدخلت الى المكتبة وفتحت احدى خزائنها واخذت ابشها لاجد كتابا أقرؤه بصوت عال على مسمع من الكسندرين ميخائيلوفنا • كنت أحب أن أصرفها عن خواطرها السود ، فكنت أبحث عن شيء سهل مفرح • ولبت أبحث مدة طويلة وأنا ذاهلة شاردة اللب • وتكائف الشفق ، وأخذ الظلام ينتشر شيئا فشيئا ، وأخذ غمى يزداد قوة وعمقا • ووقع بين يدي مرة أخرى ذلك الكتاب الذى وجدت فيه الرسالة ، ورأيت آثار شكل الرسالة على الموضع الذى كان يشتمل عليها من الكتاب ، وكنت أحتفظ بهذه الرسالة فى قميصي • • هذه الرسالة التى حملت الى الصقيع ، والمجهول ، والسر ، والتى كانت تؤثر فى نفسى حتى الآن تأثيرا يندر بالشر ! • • وساءلت نفسى : « ترى ما الذى سيقع لنا ؟ ان الركن الدافى الذى كنت ألتجىء اليه سيتهدم • • ان النفس الصافية الراقية التى رعت صباى وسهرت عليه ستهجرنى • ما الذى يتظرنى ؟ » كنت كأنما نسيت ماضى ، رغم أنه عزيز على نفسى ، وأصبحت أفكر أكثر ما أفكر فى المستقبل الخطير الذى يملؤه السر والمجهول • انى أستطيع

ان اعيش تلك اللحظة بكاملها مرة أخرى ، لأنها منقوشة في ذاكرتي  
نقشا عميقا •

كنت أمسك بين يدي الكتاب والرسالة ، وكنت غارقة في دموعي .  
وفجأة انتفضت مذعورة • ان صوتا أعرفه كل المعرفة يرن فوقي •  
واحسست في الوقت نفسه بان الرسالة تنتزع من بين يدي • فصرخت  
وانتصت واقفة ، فرأيت بطرس الكسندروفتش أمامي ! •• وامسكني  
من يدي بقبضة قوية وسمرنى في مكاني ، بينما مد الرسالة باليد الاخرى  
نحو النور محاولا أن يقرأها • وصرخت • كنت أفضل أن أموت على  
أن أدع له الرسالة ! •• ورأيت من بسسته الظافرة انه توصل الى قراءة  
سطورها الاولى • طاش لبي •• وما هي الا دقيقة واحدة حتى ارتيمت  
عليه وأنا لا أكاد أعى ما أفعل فاتزعت الرسالة من بين يديه • وقد تم  
ذلك بسرعة عظيمة حتى اننى لا أفهم الى الآن كيف عادت الرسالة الى  
يدي • لكننى وقد لاحظت انه يهم أن ينتزع منى الرسالة مرة ثانية ،  
دسستها بسرعة في قميصى ووثبت ثلاث خطوات الى الوراء !

ونظر كل منا الى الآخر لحظة في صمت • وكنت ما أزال أرتجف  
خوفا ، وبادر هو الى قطع الصمت ، وكانت شفاته المرتجفتان قد ازرقتا من  
شدة الغضب ، فقال في صوت أصم :

— لا تضطربنى الى استعمال القوة • اعطينى هذه الرسالة بارادتك !

ان الشعور بالمار والامتراض قد قلب نفسى رأسا على عقب ، ان تلك  
الاهانة الفظة قد خنقت أنفاسى • فانهمرت سيول من دموع محرقة على  
خدي الملتهبين •

ولبت مدة طويلة لا أستطيع من هول الاضطراب والارتجاج أن  
أبس بكلمة •• فقال وهو يتقدم منى خطوتين :

- هل تسمعين ؟

فصرخت وأنا أبتعد عنه :

- دعنى ، دعنى • ان ما فعله شر • ان ما فعله لحقير خسيس •  
انك تنسى نفسك ! •• دعنى أمضى •

- ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ آآنت تجرئين على مخاطبتى بهذه اللهجة ••  
بعد أن •• اننى أمرك بأن تعطينى هذه الرسالة ، هل تسمعين ؟

ثم تقدم منى خطوة أخرى ، الا انه وقد لمح فى عينى قوة الاصرار  
والعناد ، توقف متحيرا • وقال أخيرا باللهجة جافة ، تنطوى على الاصرار  
وان يكن قد جاهد لكبح جماح نفسه :

- حسنا ! ندع هذا الآن الى حينه ومحلّه • ولكن قولى لى أولا من  
ذا الذى أدخلك المكتبة ؟ ولماذا أرى الخزانة مفتوحة ؟ من أين أخذت  
المفتاح ؟

قال ذلك بعد أن أجال بصره من حوله •• فانبريت له :

- لن أجيب على سؤالك • ولا أستطيع أن أتناقش معك • دعنى  
أمضى • دعنى !

واقتربت من الباب • فقال وهو يمسكنى من ذراعى :

- لا • لن تخرجى هكذا !

وانترعت ذراعى منه دون أن أقول كلمة واحدة ، وتقدمت خطوة  
أخرى نحو الباب :

- اعلمى اننى لا أسمح لك بأن تتلقى فى بيتى رسائل غرام من  
عشاقك !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى صرخت مذعورة ، ورميته بنظرات  
مجنونة •

- لذلك ••

- كفى •• لا أسمع لك بأن تخاطبني هكذا •• يا رب ، يا رب !

- هيه ؟ ماذا ؟ تهددينني ؟

صعقت من هول ما اتابني من ذعر ويأس • ان هذا المشهد قد بلغ  
من القسوة حدا لا أستطيع معه أن أفهم ولا أن أعى • فنظرت الى بطرس  
الكسندروفتش أتوسل اليه بعيني أن يسكت • كنت مستعدة لأن أغفر له  
ظنونه شريطة أن يتوقف عن الكلام • فحدق فيّ وقد لاح في وجهه تردد  
ظاهر •

همست مذعورة :

- لا تخرجني عن طوري !

فهتف أخيرا كأنما هو قد عزم أمرا :

- كلا ، لن ينتهي الامر هكذا •

ثم أضاف وهو يتسم ابتسامة غريبة :

- أعترف لك ان نظرتك كادت تردني عن ظنوني ، الا ان الاشياء  
تحدث من تلقاء نفسها ، واأسفاه • لقد استطعت أن أقرأ بداية هذه  
الرسالة • انها رسالة غرامية • لن تستطعي أن تحوليني عن اقتناعي هذا •  
كلا ، انتزعي هذه الفكرة من رأسك • ولئن ترددت دقيقة أو بعض دقيقة  
فهذا لا يزيد على أن يدل على انني يجب أن أضيف الى مزاياك الرائعة  
مزية أخرى هي القدرة على الكذب في كثير من البراعة •• لذلك  
أكرر ••

وكان وجهه وهو يتكلم يزداد نضوحا بالبغض والكراهة • كان ممتنع اللون ، وكانت شفاته المرتجفتان تكشران بقوة كبيرة حتى انه لم يستطع أن يلفظ الكلمات الاخيرة الا فى كثير من العناء •

كان الظلام قد خيم ، وكنت اشعر اننى وحدى تحت رحمة هذا الرجل القادر على اهانة امرأة • ثم ان الدلائل كلها كانت تديننى ، ومع ذلك كنت آسأهل عن غضبه هذا ما مصدره وما سببه ، رغم ان الشعور بالعار والقلق كان يحطمنى تحطيمًا • وهرعت كالمجنونة دون أن أجد على كلامه ، فخرجت من المكتبة ، ولم يشب الى رشدى الا على باب الكسندرين ميخائيلوفنا ، فلما هممت أن أدخل عليها سمعت ورائى وقع خطوات الكسندروفتشس ، فتسمرت فى مكانى كأن صاعقة وقعت على رأسى •

تساءلت فى سرعة البرق : « ترى ما الذى سيحدث ؟ ان كل شيء أفضل من هذه الضربة الاخيرة التى قد تلتقاها •• »

وتراجعت بسرعة ، ولكن الأوان كان قد فات ، فها هو ذا الى جانبي • همست وأنا أمسك بذراعه :

- رحمةً بها • نذهب أين تشاء • لكن لا ندخل الى هنا • أعود الى المكتبة أو الى أى مكان آخر ، الى أى مكان تشاء • والا قتلها !

فأجاب وهو يعدنى عنه :

- أنت التى تقتلينها •

وتبدد من قلبى كل رجاء • شعرت ان ما يريد انما هو أن يقص على الكسندرين ميخائيلوفنا كل ما حدث •



فقلت وأنا أصدّه بكل ما أوتيت من قوة :

– حيا بالله ، ارحمها ••

ولكن في هذه اللحظة فُتِح الباب وظهرت الكسندرين ميخائيلوفنا  
• أماننا •

نظرتُ الينا في دهشة ، وكان وجهها ممتعا أكثر من امتقاعه في أى  
وقت مضى ، وكانت لا تكاد تقوى على الوقوف على ساقيها ، وكان واضحا  
انها وقد سمعت أصواتنا بذلت جهدا كبيرا للتحامل على نفسها •

سألنا وهي تنظر الينا في غير قليل من الدهشة :

– ماذا هنالك ؟ فيم كنتما تتكلمان ؟

وخيم الصمت بضع لحظات ، وازداد وجهها امتقاعا ، فارتيمت عليها  
وعانقتها وأدخلتها الى مخدعها ، ولحق بي بطرس الكسندروفتش ، ولبثت  
أعانق الكسندرين ميخائيلوفنا في قوة وعنف وقد أغرقت وجهي في  
صدرها الذي يخفق خفقانا عنيفا •

وسألت الكسندرين ميخائيلوفنا مرة أخرى :

– ماذا بك ؟ ماذا بكما كليكما ؟

– اسألى الآنسة • لقد دافعتِ عنها أمس •

قال بطرس الكسندروفتش ذلك ثم ارتعى على أحد المقاعد في ثقل  
وهدوء ، فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا تقول وقد لاحت على وجهها  
خشية غريبة :

– يا الهى ! ماذا وقع ؟ انك مضطرب ، وهي خائفة • انها تبكى •

قولى لى يا آيت ، ماذا كان بينكما ؟

فقال بطرس الكسندروفتش وقد اقترب منى وأمسك بكتفى وأبعدنى  
عن امرأته :

- كلا ، دعينى أتكلم قبلها •

ثم أضاف وهو يضعنى فى وسط الغرفة :

- ابقى هنا ، سأحاكمك أمام تلك التى كانت لك أما ا

وتوجه الى الكسندرين ميخائيلوفنا فأجلسها على مقعد وهو يقول  
لها :

- وانت ، هدئى روعك ، يؤسفنى اننى لا أستطيع أن أجنبك شرح

هذه المسألة البشعة ، ولكن لا بد من ذلك •

فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى تتقل نظرتها القلقة الرهية

بين زوجها وبينى :

- رباه ! ماذا هنالك ؟

وأخذت أقلب يدى وأفركما فى انتظار الدقيقة الرهية • ان المرء

لا يستطيع أن يأمل من هذا الرجل أى شعور بالرحمة •

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

- سأقول لك ذلك بايجاز ، والذى أريده هو أن تحكى عليها معى •

لقد كنت دائما تتحزين لها وتدافمين عنها - لا أدرى لماذا ، فتلك نزوة من

نزواتك - حتى لقد ناقشتنى بالأمس فى شأنها واستبسلت فى الدفاع

عنها •• ولا أدرى الآن كيف أشرح لك الأمر • اننى لأحمر خجلا حين

أفكر فيه •• الخلاصة انك قد دافعت عنها وانقرتنى باللوم واتهمتنى بقسوة

لا محل لها ، حتى لقد ألمعت الى عاطفة أخرى لعلها هى التى تدفنى الى

هذه القسوة التي لا محل لها • انك • • ولكننى أتساءل لماذا لا أتوصل  
الى خنق حمرة الحجل هذه التي تصعد الى وجهى حين أفكر فيما ذهبت  
اليه من افتراضات • لا أدرى لماذا لا أستطيع أن أتكلم عن ذلك بهدوء  
وصراحة أمامها • • الخلاصة انك • •

فقاطعته الكسندرين ميخائيلوفنا وقد تملكها الانفعال والحصى والتسور  
بالحجل وقالت :

- كلا لن تفعل ، لن تقول ذلك ، ارحمها ، فما قلته بالأمس كان  
من بنات خيالى أنا ، أما الآن فلم يبق فى نفسى ظل من شك • اغفر لى  
تلك الظنون التي راودتنى • نعم اغفرها لى ، اننى مريضة ، ويجب أن  
يُغفر لى ، ويجب خاصة أن لا يقال لها شيء من ذلك البتة •

ثم قالت وهى تتجه نحوى :

- آنت آنت ، اذهبى من هنا بسرعة ، لقد أراد أن يعزح ، أنا  
المدنية ، وتلك مزحة فى غير محلها •

واستمر بطرس الكسندروفش يقول دون أن يرحمها ودون أن  
يهتز لضراعاتها :

- الخلاصة : أنك كنت غيرة منها !

فانطلقت من صدرها صرخة وامتقع لونها امتقاعا شديدا وتهاكت  
ساقاها ، فتهاقت على أحد المقاعد ، ودمدمت أخيرا بصوت لا يكاد يسمع :

- سامحك الله ، سامحني يا نيتوتشكا ، انه ذنبى • اننى مريضة •

اننى مريضة ، اننى • •

فصرخت أنا كالمجنونة ، وقد فهمت أخيرا لماذا يريد أن يحكم على

أمام امرأته :

– هذا ظلم • هذا عار • هذا جبن • هذه حقارة • هذه خسة •  
انك ••

فصرخت الكسندرين ميخائيلوفنا وهي تأخذ يدي :

– آنت !

فهتف بطرس الكسندروفتش يقول وهو يقترب منا مضطربا اضطرابا  
لا يوصف :

– هذه مهزلة ، لا أكثر ولا أقل !

واستمر يقول وهو يغرر في امرأته نظرة تفيض كرها وحقدا :

– هذه مهزلة ، وموضوع هذه المهزلة أنت ! •• أما نحن ( قال  
ذلك لاهنا وهو يشير الى بيده ) فتقى اتنا لا نخشى شيئا من مثل هذا  
الايضاح • تقى اتنا لم نعد من الكمال بحيث نمتعض أو نحمر أو نسد  
آذاننا حين نتحدث عن أمور من هذا النوع • معذرة ، انى أتكلم بلا لف  
ولا دوران ، وربما كان كلامى خشنا ولكن لا بد من ذلك • هل أنت  
واثقة يا سيدتى من طهارة هذه •• البنت !

فمغمت الكسندرين ميخائيلوفنا كالميتة من شدة الخوف تقول :

– رباه ! ماذا بك ؟

فقاطعها بطرس الكسندروفتش يقول بلهجة متوعدة :

– لا تستعملى ألفاظا جوفاء • أرجوك • اننى لا أحب ذلك • نحن  
الآن أمام حادث لا تعقيد فيه ، حادث بسيط جدا ، مبتدل الى آخر حدود  
الابتدال • اننى أسأل عن سلوكها • هل تعلمين أن ••

ولكننى لم أدعه يتابع كلامه ، بل أمسكت بذراعه وجبرته بقوة  
وعنف الى ركن من أركان الغرفة - فلو قد انقضت على ذلك ثانية أخرى  
لأمكن أن يضع كل شيء - وهمست فى حماسة أقول لها :

- لا تتكلم عن الرسالة ، والا قتلتها على الفور • ان اتهمى اتهام  
لها أيضا • انها لا تستطيع أن تحكم على لآئى أعرف كل شيء •• كل  
شيء •• هل تسمع ؟

فرماني بنظرة ثابتة وحشية وأخذ يضحك ، وكان الدم قد صعد  
الى وجهه ، فكررت أقول :

- أعلم كل شيء ، كل شيء ••

فظهرت عليه علائم التردد وطاف فى شفتيه سؤال حزوته •  
والتفت نحو الكسندرين ميخائيلوفنا بسرعة فرأيتها تنظر الينا قلقا  
وقد ظهر فى محياها الوجع والخجل • قلت بصوت عال :

- أنا وحدى المذنبه • اننى أخدعك منذ أربع سنين ! •• لقد أخذت  
مفتاح المكتبة وكنت أمضى اليها فى كل يوم منذ أربع سنين آخذ كتباً ،  
وقد فاجأنى بطرس الكسندروفتش فوجد بين يدي كتابا ينبغى ألا أقرأه •  
وهو يخاف على ويتصور الخطر كبيراً !

ثم أردفت أقول بحماسة ، وقد لاحظت انه يتسهم :

- على اننى لا أحاول أن أبرر ذنبى • أنا وحدى المذنبه • لقد كان  
الاعراض أقوى منى • فلما وقعت فى هذه الخطيئة لم أجرؤ على الاعتراف  
بها •• هذا كل شيء • نعم هذا كل ما كان بيننا •

- أوه ما أبرعك !

همس بطرس الكسندروفتش بذلك في أذني •

وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا تصفي الى باتتياه عميق ، ولكن  
وجها كله كان يعبر عن الارتباب فيما أقول • كانت تنقل بصرها بين  
زوجها وبني بلا انقطاع • وخيم الصمت • كنت لا أستطع أن أتفس  
الا في كثير من العاء • ومالت الكسندرين ميخائيلوفنا على صدرها وغطت  
عينها بيديها كأنها تريد أن تفكر وأن تزن كل كلمة من الكلمات التي  
قلتها • ورفعت أخيرا رأسها وحدثت في قائلة :

- نيتوتشكا ، صغيرتي ، انني أعلم أنك لا تستطيعين الكذب • هل  
هذا كل ما حدث ؟ تماما ؟

فأجبت :

- نعم • هذا كل ما حدث •

فأجهت الى زوجها تسأله :

- هل هذا كل ما حدث ؟

فمتمم بالرغم منه قائلا :

- نعم • هذا كل ما حدث ، كله •

- هل تقسمين على ذلك يا نيتوتشكا ؟

فأجبت بلا تردد :

- نعم • أقسم •

الا انني لم أستطع أن أحتمل نظرة بطرس الكسندروفتش ولا  
الابتسامة التي ارتسمت على فمه حين سمعني أقسم ، فاحمر وجهي فجأة  
•• ولم يخف ذلك على المسكينة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فانطبعت على  
وجها علائم قلق ساحق فطبع !

وقالت فى حزن :

- كفى • أصدقكما • لا أستطيع الا أن أصدقكما •

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

- ان الاعتراف كافٍ فيما أرى • هل سمعت ما قالت ؟ فما رأيك

اذن ؟

لم تجب الكسندرين ميخائيلوفنا • وكان المشهد يزداد قسوة على

نفسى •

وصرخ بطرس الكسندروفتش قائلاً :

- سأفتش غدا جميع الكتب ، لا أدري ماذا عندنا منها فى المكتبة ،

ثم ...

فقاطعته الكسندرين ميخائيلوفنا سائلة :

- أى كتاب كانت تقرأ ؟

فاتجه الىّ يقول ، وهو يتسّم ابتسامة واضحة :

- أى كتاب كنت تقرئين ؟ انك أقدر منى على توضيح هذا الامر •

ولم أستطع أن أجيب من شدة الانفعال ، واحمرت الكسندرين

ميخائيلوفنا وغضت بصرها ، وأعقب ذلك صمت طويل •• فأخذ بطرس

الكسندروفتش يذهب ويحجى فى طول النرفة وعرضها وقد بدا على وجهه

الانزعاج •

وأخيرا قالت الكسندرين ميخائيلوفنا بلهجة خجولة :

- اننى أجهل ما حدث بينكما ••

ثم أردفت تقول وهي تحاول أن تشدد على كلماتها وقد أوشكت أن تنفجر بتأثير تلك النظرة الثابتة التي كان يرميها بها زوجها - وكانت هي تحاول أن تتحاشاها - أردفت تقول :

- إذا كان هذا كل ما حدث فأنسى لا أفهم هذا الغم الذي يسيطر علينا نحن الثلاثة • ان الذي ينبغي أن يلام انما هو أنا ، أنا وحدي ، وذلك ما يعذبني • لقد أهملت تربيتها ويجب أن أتحمّل تبعه ذلك ، وعلى نيوتشكا أن تسامحني • أما أنا فلا أشعر أن من حقي أن أحكم عليها • واني لأتساءل مرة أخرى : فيم هذا الغم واليأس ؟ ان الخطر قد انقضى • انظر اليها ( قالت ذلك وقد ازدادت حماسها وهي ترمي زوجها بنظرة فاحصة ) أنظر اليها • هل ترك هذا الطيش من أثر فيها ؟ هل تغيرت ابنتي الصغيرة تغيرا كبيرا ؟ هل يمكن أن أجهل ما يشتمل عليه قلبها الطاهر من نبل ، وما يملكه رأسها الصغير من ذكاء ؟ ( قالت ذلك وهي تجذبني اليها بحركة ملاطفة ) • ان لها روحا صافية كالنهار ، وضمييرا لا يمكن أن يخطيء • كفى يا عزيزي ، كفى • لا شك أنه قد اندس في كرتنا المشترك عنصر جديد • لعل ظلا من عداوة قد مسنا لحظة ما ، ولكننا سنطرد هذا الظل بالحلب وحسن التفاهم • سنطرد جميع شكوكنا • ربما كان هنالك حتى الآن أشياء كثيرة لم نوضحها فيما بيننا ، وأنا المسئولة الأولى عن ذلك • أنا المسئولة الأولى لأنني أول من خبأت نفسي عنكما ولأنني أول من سمحت لنوع من الشك السخيف بأن يبت في نفسي ، وهذا كله يرجع الى رأسي البائس المريض • ولكن • ولكن اذا نحن تصارحنا فلا بد أن تسامحاني ، لأن ما دار في خلدي من ظنون ليس فيه شر كبير على كل حال •

ونظرت مرة أخرى الى زوجها وقد احمر وجهها ، وانتظرت قلقة ما سيجيب به • وكانت ابتسامته تزداد وضوحا أثناء استماعه الى كلامها •



انقطع عن السير وتسمر أمام امرأته وقد عقد ذراعيه وراء ظهره • كان كأنه سرّ برؤية الاضطراب الذي يراه على وجهها • وزداد اضطرابها أمام هذه النظرة التي يرميها بها • وانتظر قليلا كأنه يريد أن يتيح لها ان تتابع حديثها • فتضاعف اضطراب الكسندرين ميخائيلوفنا • وأخيرا قطع هذا الصمت الثقيل المؤلم وهتف فى ضحكة ساخرة ، مرة ، متطولة ، يقول :

- اننى أرئى لحالك أيتها المرأة البائسة •

ثم كف عن الضحك وتابع كلامه بلهجة وقورة كالحلّة :

- لقد اضطلمت بدور يفوق ما تملكين من قوى • ماذا كنت تريدين من ذلك ؟ كنت تريدين أن تحملىنى على الاجابة ، أن تغرقينى بشكوك جديدة ، أو على الأصح بشكوك فديمة لا تستطيع كلمائك أن تخفيها • ان معنى كلمائك هو انه ينبغى أن لا تؤاخذ نيتوتسكا ، لأنها كاملة ، حتى بعد قراءتها كتباً غير أخلاقية ، هذه القسراء التى آتت أكلها منذ الآن ، اليس كذلك ؟ ألا أن فى هذا الايضاح شيئا آخر ، ان فيه تليحا ، فأنت تعتقدين أن ارتيايى وقسوتى ترجعان الى عاطفة أخرى • حتى لقد وصلت بالأمس الى اتهامى • أرجوك ، دعينى أتكلم ، اننى أحب أن أتكلم بلا لف ولا دوران • نعم لقد أردت أن تقولى أمس ان الحب لدى بعض الاشخاص ( ومن الملاحظ ان هؤلاء الاشخاص يكونون فى رأيك بوجه عام ، ذوى طبع قاس ، صريح ، رصين ، ذكى ، قوى •• الى آخر ما هنالك من صفات أعدها عليهم كرمك ! ) •• ان الحب لدى هؤلاء الاشخاص ( يعلم الله لماذا لفقت هذا ! ) لا يمكن أن يعبر عن نفسه الا على نحو خطير ، محموم ، وحشى ، متشكك فى كثير من الاحيان ، مستعد للاضطهاد والتعذيب فى كثير من الاحيان أيضا • لا أذكر الآن على وجه الدقة

الكلمات التي استعملتها أمس .. أرجوك ، دعيني أتكلم . انها تستطيع أن تسمع كل شيء ، كل شيء ، اكرر ذلك للمرة المسائة ، انها تستطيع أن تسمع كل شيء ، انك مخدوعة فى امرها ، ولكننى لا أفهم لماذا يحلو لك ان تحشرينى فى زمرة هذا النوع من الاشخاص ! .. ليس فى سنى يقع المرء فى عشق بنت كهذه ، وصدقينى أخيرا ، يا سيدتى ، اذا قلت لك اننى أعرف واجيبى ، ومهما تصدعى رأسى بنبل نفسك فسأظل أكرر لك ماسبق أن قلته ، وهو : ان الجريمة تبقى جريمة ، وان الخطيئة تبقى خطيئة ، انها تظل حقيرة ، منحطة ، مثيرة للانتمتزاز ، رغم السمو الذى نجب أن نرفع اليه عاطفة الرذيلة . ولكن كفى كفى ، لا أحب أن أسمع بعد الآن شيئا عن هذه الحفارات ♦

كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تبكى ♦

وقالت أخيرا وهى تشهق وتحيطنى بذراعيها :

- اننى أقبل أن أتحمل هذا كله وحدى . أتمنى أن تكون ظنونى دنيئة وأن تنظر أنت الى هذه الظنون نظرة احتقار . ولكن انت أيتها البائسة لماذا حكم عليك أن تسمى هذه الاتهامات المهينة ؟ اننى لا أستطيع أن أحملك . اننى لا أملك حق الكلام ! رباہ ! اننى لا أستطيع مع ذلك أن أسكت يا سيدى . ان الامر أقوى منى .. ان ما تقوله جنون ..

فهمست فى أذنها أحاول تهدئتها قائلة :

- كفى ، كفى ♦

كنت أخشى أن يزيد هذا الكلام القاسى الذى وجهته اليه ، أن يزيد غضبه وسخطه ، وكنت أرتعد خوفا عليها !

فاذا هو يهتف قائلا :

- ولكن أيتها المرأة العمياء ، أنت اذن لا تعلمين ، أنت اذن لا ترين ..

وتوقف عن متابعة كلامه لحظة ، ثم استأنف كلامه وهو يتجه الى وينترعنى من بين ذراعى امرأته :

- اذهبي من هنا ، لا أسمح لك بأن تلمسيها . انك تلوثين زوجتى ، ان وجودك اهانة لها !

ثم صرخ وهو يضرب الارض بقدمه :

- ولكن فيم أحرص على السكوت حين لا يكون بد من الكلام ؟  
.. سأقول كل شيء ، كل شيء . اننى لا أدري ، يا آنسة ، ما الذى تعرفينه ، ولا أعلم هذا الامر الذى تظنين انك تهسديتنى به ، ثم اننى لا أحب أن أعلمه !

ثم التفت الى الكسندرين ميخائيلوفنا متابعا كلامه :

- اسمعى ، أقول لك اسمعى ..

فهمت وقد هرعت أدخل بينها وبينه :

- اسكت !

- اسمعى !

- اسكت باسم ..

فقاطعنى بعنف وهو يرمقنى بنظرة متحدية :

- باسم ماذا ؟ باسم ماذا ؟ اسمعى يا سيدتى . لقد انتزعت من بين يديها رسالة من عشيقها ... هذا ما يجرى فى بيتك ، هذا ما عمله هذه البنت بفضل حمايتك لها ، هذا ما لا ترينه ، ولا تحيين أن تريه !

وترنحت من شدة الذعر • ونظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا فاذا  
هى صفراء كالميتة ••

وقالت لاهثة بصوت لا يكاد يُسمع :

- مستحيل !

- لقد رأيت هذه الرسالة ، وأمسكتها بيدي ، وقرأت منها الاسطر  
الاولى ، ولم يبق بعد ذلك من شك • انها رسالة غرام ولقد انتزعتها من  
بين يدي ، وهى الآن معها • الامر واضح ، ولا يجوز الشك اطلاقا •  
وان كنت فى شك من الامر مع ذلك فما عليك الا أن ترى الرسالة ،  
فتحكمى بنفسك !

فهمت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى ترتمى نحوى :

- نيتوتشكا •• ولكن لا ، اسكتى ، اسكتى • يا الهى ! كيف يمكن  
أن يكون ذلك ، كيف يمكن أن يحدث ؟ يا الهى !

ودفنت وجهها فى يديها وهى تنشج نشيجا قويا ، ثم استأنفت

تقول :

- ولكن لا • هذا مستحيل ؛

ثم حدثت فى زوجها قائلة :

- أنت مخطيء • لست أفهم ما معنى هذا كله ! انك لم تخدعيني ،  
أليس كذلك يا نيتوتشكا ؟ قصى على كل شيء دون أن تخبئى شيئا ؟ لقد  
أخطأ الرؤية ، أليس كذلك ؟ أليس مخطئا ؟ لقد رأى شيئا آخر ، لقد  
أخطأ ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ اسمعى ، يا آنت ، لماذا لا تقولين  
لى كل شيء ، لى أنا يا عزيزتى الصغيرة ، يا ابنتى الحبيبة !

فنهف بطرس الكسندروفتش من فوق رأسى قائلا :

- أجيبي • لماذا لا تجيبين ؟ أجيبي : أرأيت بين يديك رسالة أم لا ؟

فقلت لاهثة :

- نعم •

- وهذه الرسالة كانت من عشيقك ؟

- نعم !

- ومازالت صلاتك بهذا العشيق قائمة ؟

- نعم ، نعم ، نعم •

قلت ذلك دون أن يعينني هل أنا أجب على الأسئلة التي تطرح عليّ ،  
فقد كان كل همي أن أفرغ من هذا الامر بأقصى سرعة ممكنة •

فقال وهو يأخذ يد زوجته :

- هل سمعت قولها ؟ والآن ماذا تريدن أكثر من ذلك ؟ ان قلبك  
مسرف في النبل مسرف في حسن الظن ! صدقيني ، دعى هذه الافتراضات  
التي نبئت في دماغك المريض •• انك ترين الآن حقيقة هذه •• البنت ••  
لقد حرصت على أن أبين لك خطئ ظنونك • لاحظت ذلك منذ زمان  
طويل • ويسعدني أخيراً أن أتزع من ذهنك ما علق فيه من رأى حسن  
فيها • كان يؤلمني أن أراها الى جانبك ، وأن أراك تداعينها ، وأن تجلس  
الى مائدتها ، وأن أحس بوجودها فى بيتنا ، كانت عماوتك تثيرني • ولهذا  
السبب ، لهذا السبب وحده انتهت اليها ، وراقبتها • ولاحظت أنت ذلك  
فنسجت حوله ألف شيء ، وشيء ، الا أن كل شيء قد اتضح الآن ، وأصبح  
الشك غير جائز •

ثم التفت الى يختم كلامه قائلاً :

- غدا يا أنسة تخرجين من هذا المنزل !

فنهضت السكندرين ميخائيلوفنا عن مقعدها وقالت :

- لا تتعجل • اننى لا أصدق كلمة واحدة من هذه القصة كلها •  
لا تنظر الى هذه النظرة الفظيعة ، لا تسخر منى • سأجملك حكماً على  
رأى • آنت ، بنتى ، تعالى الى جانبى ، ناولينى يدك ، هكذا !

ثم أضافت تقول فى صوت غارق فى الدموع وهى تنظر الى زوجها  
فى تواضع وذل :

- ما من أحد معصوم من الخطيئة • من ذا الذى يستطيع من أن  
يرفض يد أحد ! هاتى يدك يا آنت ، يا ابنتى • اننى لست أفضل منك  
ولا أحسن ، ان وجودك لا يمكن أن يسوءنى ، لأننى أنا أيضاً خاطئة •  
فصرخ بطرس الكسندروف تشن دهشاً :

- سيدتى ، سيدتى ، انك تنسين نفسك ، عودى الى صوابك !

- اننى لا أنسى نفسى : أرجوك أن لاتقاطعنى ، دعنى أتم كلامى حتى  
النهاية • لقد رأيت بين يديها رسالة ، بل لقد قرأت الرسالة • وأنت  
تزعم - وهى تعترف - ان هذه الرسالة من عشيقها ! •• اننى لا أدافع  
عن الرذيلة ، ولو أردت أن أفكر ، لفهمت أو لشعرت أن هذه الطفلة  
ربما كانت بريئة ! •• كلا ، اننى لا أحاول أن أغفر الرذيلة ! ها أنا ذا  
أبرىء نفسى من ذلك لأريحك • نعم ، لو كانت نيتوتشكا زوجة ، لو  
كانت أما نسيت واجباتها ، لو افقتك على رأيك • ها أنت ترى اذن اننى  
لا أستنى نفسى •• انظر الى ذلك بعين الاعتبار بدلا من أن تؤاخذنى

وتحقق على • لعلها اذن تلقت هذه الرسالة دون أن تفكر في سوء • لعل  
عاطفه مفاجئة قد جرفتها دون ان يكون هنالك من يصدها ويأخذ بيدها !  
•• واذا كان الامر كذلك فانا المذنبه الوحيدة لاننى لم أرافب قلبها •  
لعل هذه الرسالة هى الاولى ، ولعلك بملاحظاتك الشريرة قد دنست العاطفة  
المقدسة التى تمثلها ، ولعلك بملاحظاتك الشريرة قد دنست تفكير هذه  
الطفلة ! •• انك اذن لم تر شيئا من هذا الخضر الذى يشع فى وجهها  
الطاهر ! لقد رأيت هذه الصغيرة المسكينة تجيب على أسئلتك كيفما اتفق  
لها ، لأنها فى اضطراب شديد وارتباك عظيم ، ولأنها لا تريد أن تتخلص  
من عذاب هذه الاسئلة التى لا محل لها • نعم ، نعم ، ان هذه الاسئلة  
لا محل لها ، انها وحشية ، خالية من العاطفة الانسانية • اتنى أستنكر  
تصرفك • لن أغفر لك هذا أبدا !

فصرخت وأنا أعانقها :

– نعم ، ارحمىنى ، ودافى عنى ، أتوسل اليك • لا تتركينى •  
وسقطت على ركبتيها •

بينما تابعت هى كلامها تقول بصوت مخوق :

– ولولا اننى موجودة ، فلربما كنت أخفتها بكلامك الى حد اقناعها  
بأنها مجرمة ، لربما كنت خنقت ضميرها وحطمت قلبها •• يا الهى ! كنت  
تنوى أن تطردها ! ولكن هل تعلم أنك ان طردتها طردتني معها • نعم ،  
ان طردتنا كلتينا • هل سمعت ما أقول يا سيدى ؟

كانت عيناها تقدحان شررا ، وكانت تلهث بقوة ، وقد أوشك انفعالها  
المرضى أن يبلغ درجة التشنج •

فصرخ بطرس الكسندروفتش أخيرا يقول :

- يكفى هذا يا سيدتى • لقد سمعت ا كفى ، كفى • انتى أعلم ان هنالك عواطف أفلاطونية ، أعرف ذلك على حساب شقائى ، يا سيدتى ، هل تسمعين ؟ •• نعم على حساب شقائى ، لأننى لست من أولئك الذين يمكن أن يغلف لهم العلقم بالسكر يا سيدتى • لست أحب هذا • لاتدرى الرماد فى العيون ! •• اذا كنت تعتبرين نفسك مجرمة ، اذا كان قد بدا لك أن تركى البيت •• فما علىّ الا أن أذكرك بأنك أخطأت فى أنك لم تفدى هذا المشروع فى الوقت المناسب ، منذ ••• نعم ، أستطيع أن أحدد لك اليوم على وجه الدقة ان كنتِ قد نصيته ا

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا • كانت عيناها شبيهة مغمضتين ، وكانت مستندة الىّ وقد خارت قواها من فرط ما حبست ألمها • ما هى الا دقيقة حتى يمكن أن تنهار مفضيا عليها ا

فصرخت وأنا أرتدى على ركبتى بطرس الكسندروفتش :

- أوه • حباً بالله ، ارحمها ، ارحمها • لا تزد على ما قلت كلمة واحدة !

غير أن الاوان كان قد فات • فها أنا أسمع جواب كلمائى صرخة ضعيفة ، وها هى المرأة البائسة تهوى على الارض !

قلت :

- انتهى الامر • قتلتها • ادع الناس • انقذها • سأنتظرك فى حجرة عمك • أريد أن أكلمك • سأقول لك كل شىء •••

- كل شىء ؟ عن ماذا ؟

- فيما بعد •



ودامت الأزمات العصبية بعد الأغماء ساعتين ، واهتز البيت كله وانقلب رأساً على عقب • وهز الطيب رأسه وقد ظهرت في وجهه علائم القلق • وبعد ساعتين دخل بطرس الكسندروفتش الى حجرة عمله ، لقد ترك زوجته منذ لحظة • كان ممتقع اللون مضطرباً ، فأخذ يمشى في طول الغرفة وعرضها جيئةً وذهاباً ، ويقرض أظافره بقوة حتى ليخرج من أصابعه الدم • لم أره في حياتي على مثل هذه الحال !

وأخيراً قال بصوت مبجوح خشن :

- ماذا تريدون أن تقول لي ؟

- اليك الرسالة التي أردت أن تنتزعها مني • هذه هي ؟

- نعم •

- خذ •

فأخذ الرسالة وحملها الى النور • راقبته بانتباه شديد • وما هي الا ثوان حتى قلبها على الصفحة الرابعة ليقرأ التوقيع المذيل به •• ورأيت الدم يصعد الى وجهه !

سألني وقد تجمد من فرط الدهشة :

- ما معنى هذا ؟

- وجدت هذه الرسالة منذ ثلاث سنين في أحد الكتب ، ففهمت انها نُسيت فيه ، وقرأتها وحزرت كل شيء • وقد احتفظت بها منذ ذلك الوقت وأنا لا أدري لمن يجب أن أعطيها • كنت لا أستطيع أن أردّها اليها هي •• أما أنت ، فلم يكن يعقل انك تجهل مضمونها ، أو تجهل شيئاً من هذه القصة الحزينة • لماذا كنت تمثل هذه المهزلة ؟ لا أدري !

•• ان ذلك ما يزال غامضا فى ذهنى • اننى لا أستطيع أن أنفذ الى خفايا  
نفسك • لعلك أردت أن تبرهن على تفوقك ، أن تسيطر على زوجتك •  
ولكن لماذا ؟ لكى تغفر على ما يسكن رأسها من أشباح ؟ •• لكى تسيطر  
على خيالها المريض ؟ •• لكى تبين لها انها متوهمة ، انك بلا خطيئة ، فى  
حين أنها خاطئة !؟ •• ولقد كان لك ما أردت ، لأن ظنونها ما هي الا  
الفكرة الثابتة التى تستبد بنفس تنوى •• ما هي الا التوجع الاخير يصدر  
من قلب حطمه الظلم الاسانى بحكمه عليه ، وقد شاركت أنت فى هذا  
الحكم الظالم • « انك لا تحينى » ، هذا ما قالته • هذا ما أردت أن  
تفهمك اياه • ولكن صلفك واثرتك المستبدة كانا بلا رحمة • وداعا •  
اعفى من ايضاحاتك • ولكن اتبه ، اننى أعرف حق المعرفة ، اننى أقرأ  
حقيقتك فى نفسك ، لا تنس هذا !

واتجهت نحو غرفتى ، وأنا لا أكاد أعى ماذا أفعل • وفى اللحظة  
التي هممت فيها أن أفتح الباب ، استوقفنى « أوفروف » - سكرتير بترس  
الكسندروفتش - وهو يقول لى فى كثير من الاحترام والتعظيم :

- أحب أن أكلمك •

فنظرت اليه دون أن أفهم ما يقول ، ثم أجبته وأنا أمر أمامه :

- فيما بعد • اعذرنى الآن ، اننى مريضة أتألم •

فقال وهو ينحنى ويتسم ابتسامة ذات معنى :

- حسنا • الى القدر !

الذياء الابيضاء

١٨٤٨

« الليالي البيضاء » (Belyia notchi)  
كتبت سنة ١٨٤٧ ، ونشرت في مجلة  
« حويات الوطن » ، في شهر تشرين  
الثاني ( نوفمبر ) سنة ١٨٤٨ .

## الليلة الأولى



الليلة جميلة ، جميلة جمالا لا نراه الا حين نكون  
فى ريمان الشباب أيها القراء الاحبة ! السماء  
تتألا فيها النجوم ، وهى تبلغ من الصفاء أن المرء  
يتساءل بالرغم منه حين ينظر إليها : « هل يمكن  
تحت مثل هذه السماء أن يعيش أناس يملأ قلوبهم البغض وتعبت بنفوسهم  
النزوات ؟ » السؤال ساذج ، ساذج جداً ، أيها القراء الاحبة ! ولكننى  
أسأل الله العلى القدير أن يعثه فى أنفسكم أحياناً كثيرة ا . . . اننى حين  
أحدثكم عن البشر اللذين تعبت بنفوسهم النزوات ويملاً قلوبهم البغض  
أتذكر سلوكى خلال ذلك اليوم كله . كانت نفسى تمتلىء حزناً منذ ذلك  
الصباح ، وكان يخيل الىّ أن العالم كله يهجرنى ، وأن الناس جميعاً  
يهربون منى .

من حثكم أن تسألونى طبعاً : ولكن من هم « هؤلاء الناس ؟ » .  
ذلك أن ثمانى سنين انقضت على اقامتى بمدينة بطرسبرج ثم لم أستطع  
أن أعقد مع أحد أواصر صداقة . ولكن فىم كان يمكن أن ينفضى  
الأصدقاء ؟ اننى أعرف بطرسبرج كلها . لذلك خيّل الىّ أن الناس  
جميعاً هجرونى لأن المدينة كلها سافرت الى الريف . انه ليشق على نفسى

كثيراً أن أبقى وحيداً • وهأنذا منذ ثلاثة أيام ، أطوف في المدينة هائماً  
على وجهي لا أفهم ماذا يجري في نفسي • أجتاز سوارع نفسي ، أو  
أذهب الى حديقة الصيف ، أو اتزده على الارصفة \* ، فلا أرى هنا ولا  
هناك أى وجه من وجوه أولئك الذين ألفت أن ألقاهم طوال السنة ، في  
مواضع معينة وساعات محددة •

صحيح أنني في نظرهم غريب • ولكنني أعرفهم أنا جميعاً • لاشئ •  
فيهم يفوتني • درست هياتهم • كنت اعجب بهم حين أراهم مرحين ،  
وأألم حين أبصر انهم حزاني • ولقد انعقدت صلة بيني وبين شيخ قصير  
القامة كنت ألقاه في ساعة بعينها من جميع الأيام على نهر فوتانكا • في وجهه  
تعالٍ وكبر ، وفي عينيه أحلام • وهو يدمدم دائماً في لحيته ، محرراً  
ذراعه اليسرى ، بينما تمسك يده اليمنى بعضاً ذات قبضة من ذهب • لقد  
لاحظني هذا الرجل ، وهو يهتم بحالتي النفسية • فإذا لم أكن في ساعة  
معينة في موضع معين من قناة فوتانكا أحزنه ذلك فيما أعتقد\* • لذلك  
يحييني أحداً الاخر أو يكاد يحييه ، لا سيما حين نكون كلانا في مزاج  
صاف رائق • فإذا اتفق أن انقضى يومان دون أن يرى أحداً صاحبه ثم  
التقينا في اليوم الثالث ارتفعت يدانا الى قبعتينا عفواً ، ولكن كلاً منا مايلبت  
أن يثوب الى رشده فيمر بصاحبه على بشاشة متبادلة •

والمنازل صديقة لي أيضاً • فحين أسير فكأن كل منزل من هذه  
المنازل يقبل عليّ وينظر اليّ من جميع نوافذه ويقول لي : « نعمت يوماً !  
كيف حالك ؟ أنا بخير والحمد لله • في شهر آذار سيضاف اليّ طابق  
جديد » أو يقول لي : « كيف صحتك ؟ أما أنا فسيصلحونني غداً » أو  
يقول لي أيضاً : « لقد أوشكت أن أحترق وخفت خوفاً شديداً ، • الخ •  
الخ • • وبين هذه المنازل منازل أوترها ، فكأنها من رفاقي ، فمنها واحد

ينوى أن يعالج هذا الصيف لدى معمار ، فإنا أتعمد أن أمر به فى كل يوم حتى لا يسرفوا فى افساده ، وأسأل الله أن يحرسه وأن يصونه ! ..  
ولن أنسى ما حيت قصة ذلك البيت الجميل الصغير الوردى اللون ! لقد كان من حجر ، وكان أنيقاً لطيفاً ، وكان يرمقنى دائماً بنظرة محيية ويبلغ من الادلال والزهو بالنظر الى جيرانه أن قلبى كان يتهيج ابتهاجاً كبيراً كلما رأيته فى نزوه من نزهانى . فلما اجتزت الشارع فى الاسبوع الأخير نظرت الى صديقى الصغير فسمعتة يشن قائلاً : « سيصغونى بلون أزرق » ! يا للبرابرة الهمج المتوحشين ! انهم لا يشفقون على شىء ولا تأخذهم بشىء رحمة أو رأفة : لا الأعمدة ولا الأفاريز ! وأصبح صديقى أصفر كطائر الكنارى . ثارت ثائرتى وكدت أصاب بنوبة عصبية ، وما زلت الى الآن أشعر بأننى لا أستطيع النظر مرة أخرى الى صديقى الصغير الذى شوهوه تشويهاً كاملاً وصغوه بألوان امبراطورية السماء \* .

لقد أصبحتم الآن لا تجهلون أيها القراء كيف أعرف بطرسبرج !

سبق أن قلت ان قلقاً قد عذبنى خلال ثلاثة أيام الى أن عرفت سببه . كنت أشعر فى الشارع بغربة ( هذا غائب ، وذاك مسافر ، وأين الآخر ؟ ) وفى بيتى أيضاً أصبحت أنكر نفسى . تساءلت خلال سهرتين كاملتين : « ما الذى ينقصنى فى غرفتى الصغيرة ؟ لماذا أشعر بوحشة هنا ؟ » وأمضى أنظر حائراً فى الجدران الخضراء التى غشيها الدخان ، وفى السقف المغطى بأسجة العنكبوت التى كانت ماتريونا تتججج فى الحفاظ عليها أيما نجاح ، وأعيد النظر الى جميع الأثاث ، فأدقق فى كل كرسى من الكراسى علنى أجد السبب فيما أشعر به من ضيق ( ذلك أن قطعة من الأثاث تجعلنى مريضاً اذا هى لم تكن فى مكانها ) . ونظرت من النافذة فلم أظفر بطائل .. لم تتحسن حالى . حتى لقد أردت أن أنادى ماتريونا ،

فاستدعيتهما ولتتها على انها لم تطهر السقف من انسجة العنكبوت ، وأخذت عليها اهمالها عامة : ولكن عينيها أظهرتا دهشة ثم خرجت دون أن تنطق بكلمة ، وظل نسيج العنكبوت على حاله من الصحة والعافية حيث كان . ولم احزر السبب الا اليوم فى آخر الامر . لقد « فلوا » جميعا الى الريف . اغفروا لى هذه الكلمة العامية ، ولكننى لست الان من صفاء المزاج بحيث أجيد تخير الالفاظ وانتقاء العبارات . ان بطرسبرج كلها قد سافرت الى الضواحي . وما من رجل مهيب المنظر وقور الطلعة آراه ينادى حوذيًا فى الشارع الا وأتصوره رب أسرة يسافر ليستريح فى الريف مع ذويه بعد سنة قاسية من عمل قاس ، وما من عابر سبيل الا ونظرتنه تقول : « لن نمكث هنا يا سادتى الا برهة قصيرة ، وبعد ساعتين سنكون فى منزلنا الريفى » . وهذه نافذة تفتح ، وهذه أصابع صغيرة دقيقة ناعمة بيضاء كالسكر تضرب الزجاج ضربات خفيفة ، وهذا وجه نظير هو وجه فتاة تظهر من النافذة فتنادى بأثع الازهار فيبدو لى ان هذه الازهار انما تشتري لتذهب فوراً الى الريف وتختفى ، لا لتعطر مسكننا فى المدينة أو لتهب للأعين فرحة الربيع .

ولقد بلغت من التقدم فى هذا النوع من الاكتشافات ، أننى كنت أستطيع أن أعرف بنظرة واحدة أى بيت ريفى يسكنه أى واحد من هؤلاء المسافرين . ان الأسر التى تقيم فى جزر كامنى وأبتكارسكى وفى طريق بترهوف تتميز بما تتعمده من حركات أنيقة وآداب رفيعة وبما تملكه من ملابس غنية للصيف وعسرات فخمة رائعة . وان سكان بارجولوفو وسكان القرى المجاورة يلفتون النظر بفخامة منظرهم وذكاء هيئاتهم \* . ولا كذلك سكان جزيرة كريسكوفسكى فانهم أهل فرح ومرح لا ينطفئان .

فاذا التقيت بموكب طويل من المسافرين يتقدمون بخطى بطيئة



ممسكين أدلتهم بأيديهم قرب عرباتهم المأوى بالامناث والموائد والكراسي والأرائك التركية وغير ذلك ، وفوقها طبخة نحيلة تحافظ على رزق مولاهم محافظتها على بؤبؤ عينيها ، أو اذا رأيت قوارب تجرى على نهر نيفا أو نهر فوتانكا مملأى كذلك بأنواع الأمتعة - تكاثر ذلك كله فى عينيّ وتضعف مسافرا الى الريف مواكب مواكب • ان بطرسبرج كلها تهدد بأن تصبح صحراء مقفرة • لذلك كنت أشعر بحزن وقلق يملكان علىّ نفسى • كنت لا أعرف أين أذهب • وما كان ثمة داعٍ يهيب بى الى السفر • كنت آتمنى أن أتبع كل عربية من العربات ، وأن أجرى وراء كل مسافر من المسافرين ، ولكن ما من أحد يدعونى فقد نسوتى ، وكأنتى غريب عنهم جميعا !

لبثت أسير زمناً طويلا هائما على وجهى لا أعرف الشوارع التى أقطعها ، فاذا أنا أجد نفسى آخر الامر فى ظاهر المدينة • اجتزت حدود المدينة وقطعت الحقول والسهول لا أصغى الى التعب ؛ ولكننى شعرت بأن حملا ثقيلا قد سقط عن كتفى ، وشعرت براحة تشيع فى نفسى وفرح يترقق فى قلبى • المسافرون ينظرون الىّ نظرة محبة ومودة ، حتى لكأنهم يحيوننى • فى وجوههم يلوح الرضى والسرور وهم جميعا يدخنون السيكار • كنت أنا أيضا سعيدا كما لم أكن كذلك فى يوم من الأيام • حتى لقد حسبتنى فى ايطاليا ، فالى هذه الدرجة كانت الطبيعة جميلة • ان الطبيعة لتملؤنى الآن بشراً واعجابا أنا الساكن المسكين من سكان المنازل الخائفة فى المدينة •

ان ثمة شيئا لا يمكن تحديده أو وصفه ، شيئا يؤثر فى النفس أبلغ تأثير فى طبيعة بطرسبرج لحظة تفجّر كل قوتها عند اقتراب الربيع ، فاذا سماؤها تتلألأ جمالا ، واذا أزهارها تسطع بكل ما لها من سناء •••

ان طبيعة بطرسبرج تذكرك عندئذ بعذراء مريضة تنظر اليها أحياناً نظرة  
اشفاق ، وتنظر اليها أحياناً نظرة حب ، عذراء قد لا تلتفت اليها فى ساعات  
أخرى ولكنها تبلغ على حين فجأة من الجمال أنك تتساءل وقد جنت  
اعجاباً واقتاناً : « أية قوة تحمل هاتين العينين الحزينتين الحالتين على  
الاحتراق بنار كهذه النار ؟ ما الذى نادى الدمع الى هذين الخدين  
الحاسفين الناحلين الشاحين ؟ أية عاطفة آتهدت هذا الصدر ، وأى هوى  
جمّل القسّمات الدقيقة من هذا الوجه ؟ ما الذى دعا القوة والحياة  
والحسن فجأة الى وجتى هذه الفتاة المسكينة ؟ ما الذى أضاء هذا الثغر بمثل  
هذه البسمة ؟ ما الذى حرك الفم بمثل هذه الضحكة الرنانة المشرقة ؟ ..  
وتنظر أنت حولها باحثاً عن أحد فتحزر وتقدر ! .. ولكن اللحظة تنقضى ..  
ولمك ستري فى الغداة تلك النظرة الزائفة نفسها ، وذلك الوجه الشاحب  
نفسه ، وآثار حزن قاتل يبكى هوى عارضا ... ويحزنك ان غاب ذلك  
الحسن الواض الى الأبد ، ويحز فى نفسك أن الوقت لم يتسع حتى لأن  
حبها ...

وكان ليلي أجمل من نهارى واليكم ما حدث لى :

رجعت الى المدينة فى ساعة متأخرة ، وحين قاربت أن أصل الى بيتي  
كانت الساعة قد دقت العاشرة . كنت أسير على رسيف القناة الذى لايلقى  
المرء عليه أحداً فى مثل هذه الساعة . اننى أقيم فى حى بعيد من المدينة .  
وكنت أسير وأنا أغنى كما يتفق لى ذلك حين أكون سعيداً . وتلك عادة  
مشتركة بين جميع المعتزلة الذين ليس لهم أصدقاء ثم يخطر لهم أن  
يفصحوا عن فرحهم ! وانى لكذلك اذا بطارىء لم يكن بالحسبان ينعنى  
من العودة الى مسكنى .

لقد أبصرت امرأة متكئة بكوعها على افريز الجسر . كان يبدو

عليها أنها تنعم النظر في ماء القناة العكر • ان على رأسها قبة صفراء صغيرة جميلة ، وهي ترتدى خمارا أسود أيقا • قلت لنفسي : هذه فتاة ، ولا شك أنها سمراء • لم تسمع وقع خطواتي وأنا أقرب منها ، ولا تحركت . قط حين مررت بها حابساً أنفاسي • شعرت بقلبي يخفق خفقاناً قويا • قلت لنفسي : « غريب ! لا بد انها غارقة في تفكير عميق » ثم لم ألبث أن توقفت فجأة ، كأنني تسمرت في مكاني : لقد سمعت نشيجاً مكتوماً ، بكاء مخنوقاً • نعم لم يكذبني سمعي ! لقد كانت الفتاة تبكي ! رباها ! ما أشد ما انقبض صدري • صحيح أنني خجول مع النساء • ولكن اللحظة كانت تقضى ••• عدت أدراجي متجها نحوها وكدت ان أخاطبها هاتفاً : « يا مدموازيل ، لولا انني تذكرت أن هذا الهاتف قد كتب آلاف المرات في جميع الروايات الروسية التي يقرؤها أبناء المجتمع الراقى • ذلك هو السبب الوحيد الذي منعى من مخاطبتها هاتفاً بها « يا مدموازيل » • ولكن ، فيما كنت أبحث عن الكلمة المناسبة التي أخاطبها بها ، ثابت هي الى رشدها ، فانتصبت ، ونظرت حولها ، ثم اندفعت تجتاز رصيف النهر ، فتبعتها فوراً ، ولكنها حزرت أنني أتبعها فتركت رصيف النهر ، واجتازت أحد الشوارع ، ومضت تسير على رصيفه • لم أجرؤ بعد ذلك أن أتبعها ، فقد أخذ قلبي يخفق خفقان قلب عصفور سجين • غير أن ظرفاً لم يكن في الحسابان قد خدمني في هذه اللحظة •

فعلى الجهة الأخرى من الرصيف ظهر فجأة ، غير بعيدٍ من فتاتي المجهولة ، رجلٌ مسن قليلاً يرتدى رداء فراك • كانت مشيته غير ثابتة ، فهو يترنح متسنداً على الحائط • والفتاة تمشي بسرعة تنفذ الخطى ككل القتيات اللواتي يرفضن سلفاً أية دعوة الى اصطحابهن • وما كان لهذا السيد الذي لا يزال يترنح في مشيته أن يدركها ، لولا أن قدرى قد أوحى اليه أن يعمد الى وسائل متعمدة ، فما هو ذا يسرع الخطو دون أن

يقول كلمة واحدة ، ويركض وراء الفتاة المجهولة • كانت الفتاة تسير مسرعة كالرياح ، ولكن السيد الذى كان يمشى مشية سكران أصبح يزداد اقترابا منها شيئا بعد شيء حتى أدركها فأمسك بها فإذا هى تصرخ ••• بورك فى القدر الذى جعلنى فى تلك اللحظة حاملا عصاى الرائحة فى يدى اليمنى ، فما هى الا وثبة واحدة حتى كنت فى الجهة الأخرى من الرصيف • وسرعان ما فهم الرجل من ذا الذى يتصدى له ، فلم يلبث أن أذعن لحجتي التى لا سبيل الى مقاومتها ، وانسحب دون أن يقول كلمة واحدة • وكنا قد ابتعدنا أنا والفتاة حين سمعنا تهديدات قوية • ولكن أقواله أصبحت لا تبلغ معنا •

قلت للفتاة :

– ناولينى يدك فلا يجروؤ بعد ذلك على أن يقترب •

فلما مدت الىّ يدها صامتة شمعت بها ترتعش انفعالا وذعرا •  
ما أكثر ما باركت ذلك الرجل فى تلك اللحظة ! وألقيت نظرة سريعة على رفيقتى • انها جميلة سمراء • لقد حزرت ذلك • وكانت دموع صغيرة لا تزال تتلألأ على أهدابها الطويلة السوداء • أهو حزن ؟ أهو خوف ؟ لا أدرى ••• ولكن بسمة قد أخذت تنير وجهها منذ الآن ! وألقت علىّ نظرة مختلصة هى أيضا ، فاحمرت قليلا ولزمت الصمت •

قلت لها :

– لماذا صدقتنى ؟ لو كنت معك لما وقع الذى وقع •  
– ولكننى لم أكن أعرفك ، فقدرت أنك أنت أيضا •••  
– والآن هل تعرفين من أنا ؟  
– قليلا ! ولكن لماذا ترتجف ؟

– اذن لقد أدركت دفعة واحدة !

كذلك صحت فرحا • لقد سحرني أن أرى أنها ذكية • وذلك أمر لم يفسد جمالها • وتابعتُ أقول :

– نعم لقد أدركت فوراً أي رجل أنا ! نعم انني خجول مع النساء • وأنا الآن مضطرب الحواس كاضطرابك أنت منذ لحظة حين أخافك ذلك الرجل ••• ان الرعب قد استبد بي حتى ليخيل الي أنني أحلم ! بل انني في أحلامي نفسها لم يدر في خلدي يوماً أنني سأخاطب امرأة •

– كيف ؟ أهذا صحيح ؟

– نعم ! واذا ارتجفت يدي فلأنها لم تمسك في يوم من الأيام يداً لطيفة كيدك • لقد هجرت معاشرَةَ النساء هجراً تاماً ! أعني أنني لم أعاشهن يوماً ، فأنا أعيش وحدي ••• حتى أنني لا أعرف كيف أكلمك ، وما زلت الي هذه اللحظة نفسها لا أعرف ذلك • ألم أرتكب في حديثي حماقة من الحماقات ؟ أجيئني بصراحة فليست سريع التأذي •

– لا •• لا •• بالعكس •• واذا ثبت أن أصدقك القول اعترفت لك بأن هذا الخجل يعجب النساء ! واذا أحيت أن تعرف المزيد فاعلم أن هذا الخجل يعجبني أنا كثيراً • فأرجوك أن تصحبنى الي النهاية •

– ولكنك ستجعليني أفقد كل خجل فأفقد بذلك جميع ما أملك من مزايا •

قلت ذلك وأنا ألهم سعادة •

قالت :

– مزايا ؟ أية مزايا ؟ لماذا ؟ ذلك وحده نذير سوء •

- معذرة ! كان الامر أقوى منى ! وكيف أستطيع فى لحظة كهذه  
ألا أتمنى أن أنال ...

- الاعجاب ؟ اليس كذلك ؟

- طبعاً ! أرجو أن تترقى بى ا احكمى فى الامر بنفسك . لقد بلغت  
من العمر ستة وعشرين عاماً ولم ار فى حياتى احداً ، فانى لى ان اجيد  
الكلام بحذق ولباقة . وسوف يحسن حالك أنت نفسك حين أتخلص من  
بعض هذا الحجل ... لا أستطيع أن أسكت حين يتكلم قلبى ... لا ضير  
على كل حال ... صدقى أو لا تصدقى ... الحقيقة أننى لم أعرف  
امرأة فى حياتى قط ، ولم تنعقد بينى وبين أحد صداقة حتى الآن ، وأملى  
فى كل يوم أن ألتقى أخيراً بانسان ! ليتك تعلمين كم مرة تولدت حبا على  
هذا النحو .

- ولكن كيف هذا ؟ وبمن تولدت ؟

- لم أتوله بأحد ! وانما تولدت بالمثل الأعلى الذى اراه فى أحلامى .  
أنا أخلق فى أحلامى روايات بأسرها ! انك لا تعرفيننى ا صحح أنتى  
التقبت بامرأتين أو ثلاث ، فليس يستطيع المرء أن يعيش بدون ذلك ...  
ولكن من كانت هاته النسوة ! خادمت بيوت ... سوف أضحكك قليلاً ،  
فأعترف لك بأننى أردت عدت مرات أن أشرع فى حديث رقيق فى الشارع  
مع امرأة ارستقراطية . كانت عندئذ وحدها طبعاً ، فاقتربت منها بخجل  
واحترام وعاطفة قوية .

قلت لها اننى أموت فى عزلتى وسألتهأ ألا تصدنى لأنى لا أملك  
الوسائل اللازمة لامتلاك امرأة . برهنت لها على أن من واجبها أن  
تستجيب لرجاء رجل بائس كبؤسى . ولقد أفهمتها على كل حال أن كل

ما أطلبه منها هو أن تخاطبني بكلمتين ، بوضع كلمات أخوية ، أن تهتم بمصيرى ، أن تثق بكلامى وألا تستخف بي ( اذا حلا لها ذلك ) الا بعد أن تهب لى شيئا من أمل . كنت أرغب فى كلمتين منها ، كلمتين فحسب ، ثم نستطيع بعد ذلك أن نفرق الى الأبد ! ... أراك تضحكين ! ... على كل حال ، ذلك كان هدفى من سرد هذه القصة .

- لا تزعل : أنا أضحك لأملك عدو نفسك ، ولو قد حاولت مغامرة ما فلربما أصبت نجاجا ... ما من امرأة طيبة ( اذا لم تكن حمقاء أو معتكرة المزاج ) الا وكان يمكن أن تهب لك تينك الكلمتين الأخويتين اللتين ترغب فيهما تلك الرغبة القوية كلها ... ولكن ماذا أقول ا لاشك أنها كانت ستحبك مجنوننا . ولقد حكمت' على الأمر الآن على أساس تفكيرى أنا . لست أجهل كيف يعيش الرجال .

صحت أقول :

- شكراً .. شكراً .. انك لا تعرفين ما صنعته فى سبيلى بهذه الاقوال . لقد أحسنت الى كثيرا ...

- طيب ! ولكن كيف عرفت أننى امرأة ... جديدة ... بالاهتمام والصدقة ... لماذا تعرضت لى ؟

- لماذا ؟ لأنك كنت وحدك . وقد أسرف الرجل فى التجروء عليك ، والوقت ليل ، ألم يكن من واجبى أن أتدخل ؟

- لا ، لا ... قبل ذلك ... على الجسر .. أردت أن تكلمنى .. أليس كذلك ؟

- على الجسر ؟ الحق أننى لا أعرف كيف أجيبك ... اننى خائف

••• لقد كنت اليوم سعيدا ••• كنت أغنى وأنا أسير ••• طوفت خارج  
المدينة • لم أعش في حياتي لحظات سعيدة كل هذه السعادة • وظهرت  
لي ••• ولكن اعذرني اذا ذكرتك ••• لقد تراءى لي انك كنت تبكين ،  
ولم أستطع أن أحتمل ما سمعت من نشيجك ••• انقبض صدرى •••  
قلت لنفسى : رباہ ! ألا أستطيع أن أقاسمها حزنها ؟ أكان خطيئة مني أن  
أشعر نحوك بعطف أخوى ••• اغفرى لي استعمالى كلمة « العطف » •  
ولكن قولى لي هل كان يسوءك حقا أن أترب منك فى تلك اللحظة ؟

— اسكت ••• كف عن الكلام •••

قالت ذلك وهى تضغط يدي ضغطا قويا •

وتابعت تقول :

— أنا المخطئة فى التحدث عن هذه الأمور • ولكن يسرنى أنتى لم  
أخطىء فى حكمى عليك ••• على كل حال هأنذا قد وصلت • سوف  
أنعطف فى هذا المر ، فلا يبقى بينى وبين مسكنى الا ثلاث خطوات ••  
الى اللقاء وأشكرك •

— اذن لن نلتقى بعد الآن قط ؟ هل انتهى بنا الامر هنا ؟

قالت وهى تضحك :

— لم تكن تريد الا كلمتين ، والآن ••• ثم انا قد نلتقى •

قلت :

— سأتى الى هنا غدا • معذرة ••• هأنذا أملى مطالب منذ الآن ••

— نعم أنت قليل الصبر تكاد تصدر أوامر ••



قاطعتها أقول :

- اسمعى . . . معذرة اذا قلت لك أيضا هذا . . لا أستطيع الا أن  
أتى الى هنا غدا . أنا امرؤ حالم يبلغ حظى من الحياة الواقعية من القلة  
والضالة اننى لا بد لى أن أعيش مرة أخرى فى أحلامي اللحظات السعيدة  
التي تشبه هذه اللحظة . سأحلم بك طوال الليل ، الاسبوع كله ، السنة  
بأسرها . أعود فأقول لك اننى آت الى هنا غدا ، الى هذا المكان ، هذا  
المكان بعينه ؛ وسأكون سعيدا بأننى سأحيا الساعة الراهنة مرة أخرى .  
هذه الأماكن عزيزة فى نفسى . ان لى فى بترسبرج مكانين أو ثلاثة من  
هذا النوع . لقد حدث لى مرة أن بكيت لذكرى ، كما حدث لك منذ  
برهة . . . لعل دموعك كانت تسيل أيضا بسبب ذكرى . . . ولكن معذرة  
. . . ما زلت أمضى بعيدا . لعلك كنت سعيدة هنا فى يوم من الايام !

قالت الفتاة :

- لك ما تريد ! سأتى الى هنا غدا فى الساعة العاشرة ، كالسيوم !  
هأنت ذا ترى أننى لا أستطيع أن أمنع عنك هذا . . ولكن لا بد لى أن  
أكون فى هذا المكان ! فلا يذهبن بك الظن الى أننى أضرب لك موعداً .  
ها قد أبلغتكَ . . ان على أن أكون فى هذا المكان لشأن من شئونى أنا .  
على أننى أعترف لك صراحة بأننى لن أضيع بحضورك . فقد تحدثت  
مزعجات كما حدث اليوم . ولكن كفانا كلاما عن هذا . الخلاصة أننى  
سأحب أن أراك . ولكن حذار أن تحكم على حكما قاسيا ، حذار أن  
تتخيل أننى أضرب مواعيد بمثل هذه السهولة . . . ما كان لى أن أطلب  
اليك المجدى ، لولا أن . . . ولكن دع هذا سرا لى !

- بل تكلمى ! قولى لى السر ! قوليه فورا ! اننى أوافق على كل

شيء ! أنا مسؤول عن نفسي ، وسأكون طيعا ، وسأكون فى غاية الأدب  
والاحترام .. أنت تعرفينى \*

كذلك صحت فرحا فأجابت وهى تبتسم :

- لأننى أعرفك انما أدعوك الى المجيء غدا ! أنا أعرفك حق  
المعرفة • ولكن حذار ! .. تعال بشرط .. بشرط عليك أن تتذكره  
دائما وأن يكون مانلا فى ذهنك كل لحظة ! اياك نم اياك أن تجبني ...  
ذلك لا يمكن أن يكون ، أوكد لك • أنا أنشد الصداقة ! فاليك يدي  
ولكن لا حب ! لا حب !

هتفت أقول وأنا أمسك يدها :

- يعينا لأتقيدن بهذا •

- دعك من اليمين ! أنا أعرف أن من الممكن أن تشتعل كالبارود •  
لا تسيء الظن فىّ إذا أنا قلت لك هذا الكلام • ليتك تعلم ! ... أنا  
أيضا ليس لى أحد أكلمه بقلب مفتوح ، وليس لى أحد أسأله نصحا ؛  
ولا أستطيع أن أخاطب انسانا فى الشارع • أنت استثناء ! يخيل الى أننى  
أعرفك كما لو كنا صديقين منذ عشرين عاما .. انك لن تخوننى قط ..  
أليس كذلك ؟

- سوف ثرين ! .. ولكننى لا أعرف كيف سأعيش هذا اليوم !

- نم جيدا ! سعدت ليلتك • وتذكر أنك نلت ثقتى منذ الآن ! وكما  
قلت أنت نفسك : ليس علينا أن نحلل عواطفنا حتى ولا عواطف المحبة  
الأخوية ! لقد عرفت كيف تخاطبني فسرعان ما خطر ببالى أن أثق بك  
وأن أفضى اليك بما فى نفسى •

- ولكن ما الذى تريد ان تبوحى لى به ؟ قولى أرجوك ...  
- الى الغد ، وليق هذا سرا الآن • وذلك أفضل لك ، حتى يكون  
أشبه برواية • قد أقص عليك كل شىء غدا ، وقد لا أفعل ! سنتحدث  
يادىء الامر ... و سنصبح صديتين حميمين أكثر من الآن ...

- نعم سأقص عليك حياتى كلها ! ولكن ما هذا ؟ ان معجزة تتحقق  
فى نفسى ... قولى : ألسنت نادمة على أنك لم تصدىنى منذ البداية كما  
كان يمكن أن تفعل النساء الأخريات ؟ لقد جعلتنى سعيدا بلحظة من  
حديث : نعم جعلتنى سعيدا • صالحتنى مع نفسى ... بددت شكوكى •  
على كل حال سأقول لك كل شىء غدا ... ستعرفين كل شىء •• كل  
شىء ...

- اتفقنا •• ستبدأ أنت ...

- موافق !

- الى اللقاء !

- الى اللقاء !

وافترقنا • ظللت الليل كله أطوف فى أرجاء المدينة ! لم أستطع أن  
أعود الى مسكنى ! كنت سعيدا غاية السعادة ! الى الغد !

## السؤال الثاني



لى ضاحكة وهى تشد على كلتا يدي :

- هه ••• هل عشت يومك ؟

- أنا هنا منذ ساعتين • هل تعرفين كيف قضيت  
هذا اليوم ؟

- أعرف ، أعرف ••• ولكن فلنتكلم فى أمور جدية • لماذا جئت

الى هنا ؟ أنتى لم أجىء لأقول سفاسف وترهات كما فعلت أمس • يجب  
علينا أن نتصرف تصرفا أذكى • لقد فكرت فى هذا كله !

- فى أى شىء يجب أن نكون أذكى ؟ على أنتى مستعد •• ولكن  
الحقيقة هى أنتى لم يقع لى فى حياتى أمر أذكى من لقائنا •

- حقا ؟ أرجوك أولا أن لا تضغط يدي كل هذا الضغط ، وأعلن  
لك ثانيا أنتى فكرت فىك كثيرا أول الامر •••

- وماذا قروت ؟

- ماذا قررت ؟ قررت أن علينا أن نعود الى البداية ، أن نستأنف كل شيء من أوله ، لأنني لا أعرفك قط . لقد تصرفت أفس كطفلة ، كبنية صغيرة . طبعاً . . . الذنب ذنب قلبي الطيب . . . لقد مدحت نفسي كما نفعل دائماً حين نصدر رأياً في أنفسنا . لذلك سأصلح خطيئتي بأن أسألك عن أدق تفاصيل حياتك ، لأنني لا أستطيع أن أسأل أحداً عنك ، ففصّ علىّ اذن كل شيء بدون أي تكتم . أي رجل أنت ؟ فصّ على تاريخك ! أسرع .

صحت منذعورا :

- تاريخي ! ولكن من قال لك ان لي تاريخاً ! أنا ليس لي أي تاريخ .

قاطعتني ضاحكة تقول :

- كيف عشت اذا لم يكن لك تاريخ ؟

- عشت دون أي تاريخ ! عشت . . . هكذا . . . ببساطة . . . وحدي دائماً . . . هل تفهمين ؟ عشت وحيداً .

- عشت وحيداً ؟ كيف هذا ؟ ألم تر انساناً قط ؟

- بلى ! اني أرى كثيراً من الناس ولكنني أظل وحيداً .

- كيف هذا ؟ ألسنت تكلم اذن أحداً ؟

- هذه هي الحقيقة خالصة . لست أكلم أحداً .

- ولكن سن أنت اذن ؟ اسمع ! لقد حزرت . . . لعل لك جدة مثلي أنا ؟ انها عمياء ، ولا تسمح لي بالخروج أبداً ، لذلك فقدت عادة الكلام

فقدانا تاما • ولما ارتكبت منذ سنتين بعض الحماقات أدركت أنها لن تستطيع أن تحبسى عن الخروج ، فنادتني وربطتني الى ثوبها بدبوس • هكذا نعيش معا أيا منا كلها : هي تنسج جواربها رغم أنها عمياء ، وأنا أجلس الى جانبها أقرأ لها أو أخيط • عادة غريبة ، أليس كذلك ؟ نحن مشدودتان احدانا الى الأخرى بدبوس منذ سنتين •••

- رباه ! ما هذا الشقاء ! •• لا •• ليس لي جدة كهذه الجدة •

- فكيف تستطيع اذن أن تمكث في بيتك ؟

- أراك تصرين على أن تعرفي من أنا !

- نعم •• نعم ••

- بأدق معاني هذه الكلمة ؟

- بأدق معانيها •

- لك ما تريدن ! فاعلمي اذن أنني مخلوق غريب •

- مخلوق غريب ؟

كذلك صاحت الفتاة وهي تنفجر ضاحكة بقهقهة مجنونة ، وتابعت

تقول :

- حقا ان المرء لا يشعر معك بملل • اسمع ! هذا مقعد فلنجلس

عليه • ما من أحد يجيء الى هنا ، ما من أحد سيسمع كلامنا • ابدأ سرد

حكايتهك •• اننى مقتنعة أن لك حكاية ! لا تخفها عني ؟ اشرح لي أولا

ماذا تعنيه بقولك « مخلوق غريب » •

مخلوق غريب ؟ المخلوق الغريب انسان شاذ ، انسان ••• مضحك •

كذلك أجبته وأنا أضحك اذ سمعتها تضحك ، وتابعت أقول :  
- المخلوق الغريب طبع خاص ... مزاج حالم ... هل تعلمين  
ما هو الانسان الحالم ؟

- الانسان الحالم ؟ كيف لا أعرفه ؟ أنا نفسي أحلم دائما . حين  
أفنى أيامي كلها جالسة قرب جدتي ... رباه ! ما أكثر ما يدور في  
نفسى حينذاك ! أحلام لا نهاية لها : أتزوج أميرا صينيا مثلا ... انه  
ليسعد المرء كثيرا فى بعض اللحظات أن يسترسل فى الأحلام .

وأضافت تقول برزانة ورسانة :

- على كل حال ، من يدري ؟ لا بد أن يفكر المرء فى أمور جدية  
أيضا .

- حسنا لسوف تفهميننى أيضا ما دمت تخيلت أنك تتزوجين  
امبراطور الصين . فاسمى اذن ... ولكن ... معذرة لم أعرف اسمك  
الى الآن !

- هه ! الآن تفتن الى ذلك ؟

- لم يخطر ببالى هذا الامر . كنا على خير حال هكذا ...

- يسموننى ناستكا .

- ناستكا ؟ أهذا كل اسمك ؟

- ألا يكفيك هذا أيها الرجل الذى لا يشبع ؟

- بالمكس انه ليسعدنى أن يكون اسمك عندى ناستكا فقط .

- طيب .. طيب هأنذا أصفى الى حديثك الآن .

جلست قريبا متجمعا على نفسى ، وأخذت أقص عليها كمن يقرأ  
قراءة :

- ان فى بطرسبرج يا ناستنكا أركاننا غريبة جدا • الشمس التى  
تسطح لجميع سكان المدينة لا تنفذ الى تلك الأماكن ، وانما تسطح فى تلك  
الأركان شمس أخرى ذات ضياء خاص كأنه خلق لهذه الزوايا التائهة  
وحدها دون غيرها • البشر يحيون فى هذه الزوايا حياة لا تشبه الحياة  
التى تغلى وتفور حولنا مختلفة غريبة بعيدة • هذه الحياة مزيج من صفاء  
رائع خيالى مثالى ومن اسفاف تافه وابتذال رخيص •

- الله الله ! ••• يا لها من مقدمة ! ما عسانى سامعة أيضا ؟

- ستسمعين يا ناستنكا ••• ( آه ما أسعدنى اذ أناديك بهذا الاسم ا )  
ستسمعين أن هذه الأحياء يسكنها بشر يشيرون العجب والدهشة • انهم  
الحالمون • والحالم اذا أردت أن أعرفه لك ليس انسانا بل مخلوق •••  
لا تحديد له ••• انه يؤثر الزوايا التى لا يمكن بلوغها والوصول اليها ،  
كأنه يهرب من ضوء النهار ، مثله كمثل تلك الحيوانات الغريبة  
- السلاحف - التى تحمل بيوتها معها • ترى لماذا يجبون كل هذا الحب  
جدرانهم الصغيرة الأربعة المدهونة دائما بلون أخضر ، التى يشيع فيها  
الحزن ويملؤها الدخان بغير انقطاع ؟ ترى لماذا حين يجيء الى أحدهم  
صديق ( لاحظى أنه يفعل كل ما يحسن أن يفعله على خير وجه حتى  
يغيب عنه جميع الاصدقاء اخر الامر ) ، ترى لماذا حين يجيء هذا الصديق  
يهب ذلك الانسان الشاذ الى استقباله خجولا كل الخجل وقد تغير وجهه  
كل ذلك التغير ، حتى لكأنه قارف بين جدران الاربعة الصغيرة جرما ،  
كأنه صنع أوراقا نقدية مزيفة ، أو نظم أبياتاً من الشعر صغيرة ليرسلها  
الى مجلة مع رسالة لا يذكر فيها اسمه قائلًا ان ناظم هذا الشعر صديق له



قدمت وانه يرى أن من واجبه المقدس أن ينشر اتجاhe • ولماذا ياناستكا  
يخذ الحديث بين هذين الصديقين ؟ لماذا يضوى ويهن ، فلا ضحكة ،  
ولا كلمة جريئة ، ولا اشارة الى الجنس اللطيف ؟ لماذا يصبح الصديق  
نفسه ( وهو لن يعود قط ولن يكون له خلف ) لماذا يصبح الصديق نفسه  
مضطربا كل ذلك الاضطراب ؟ لماذا يفقد كل حس سليم ( اذا كان له منه  
شيء ) حين يلاحظ كيف تشعث وجه رب البيت الذى فقد صوابه هو  
أيضا فقدانا كاملا • ان رب البيت يحاول عبثا أن يظهر علمه بأداب المجتمع  
وأن يبعث فى الحديث شيئا من الحياة بالكلام على النساء ، وأن يسلى  
صديقه الذى جاء يزوره خطأ • ولماذا يتناول هذا الصديق أخيرا قبعته  
ويهرع نحو الباب متذكرا على حين فجأة مهمة عاجلة لا وجود لها فى  
الواقع ؟ وفجأة يتحرر من العناق الحار ، عناق صاحبه الذى يجهد أن  
يعبر عن أسفه وأن يصلح ما أفسده فتوره ؟ لماذا ينفجر الصديق ضاحكا  
وراء الباب قاطما على نفسه عهدا أن لا يضع قدميه بعد اليوم فى بيت هذا  
الاسان الشاذ الذى هو رجل طيب شهم على كل حال • انه يقارن فى  
ذكراه بين وضع هذا المسكين صاحب البيت وبين وضع قطة ضربها الاطفال  
فهربت مذعورة الى الظلام تحت المائدة ، وظلت ساعة بكاملها تسترد عافيتها  
شيئا فشيئا وتفسل فمها الجربيع بقائمتيها الصغيرتين ، وتظل تنظر بعد ذلك  
ظرة عدا الى كل شيء وحتى الى الخادمة التى تأتيا بطعامها •

قاطعتى ناستكا تقول وعيناها تعبران عن الدهشة :

— اسمع ! اننى لا أفهم قط كيف يمكن أن يكون هذا الذى تقصه

قد وقع فعلا • ولماذا تلقى علىَّ أسئلة غريبة كل هذه الغرابة؟ ولكننى أعلم  
أن هذه المغامرات كلها هى مغامراتك •

أجبتها فى جد قائلا :

- بدون أدنى شك •

قالت ناستكا :

- أكمل اذن ، فاننى أحب أن أعرف كيف سينتهى هذا كله •

قلت :

- انك تحبين أن تعرفى حياة بطلنا أو بالأحرى حياتى ، لأن بطل  
قصتنا هذه هو أنا ، هو شخصى المتواضع الصغير • تريدان أن تعرفى لماذا  
اضطربت هذا الاضطراب كله من زيارة صديقى التى لم أكن أتوقعها ،  
لماذا انتفضت مذعورا واحمر وجهى احمرارا شديدا حين فُتِح باب غرفتى ،  
لماذا أنا عاجز عن استقبال ضيف ؟

أجابت ناستكا :

- نعم •• نعم •• اسمع ! انك تجيد رواية قصتك اجادة رائعة  
ولكن أليس فى وسعك أن تتكلم بلغة أبسط من هذه اللغة وعبارات أبسط  
من هذه العبارات ؟ انه ليخيل الى أنك تقرأ فى كتاب •

أجبتها بصوت رصين وقور محاولا أن لا أضحك :

- ناستكا ! أنا أعرف أنتى أجيد الحديث • ولكننى أستمحك  
عذرا ، فاننى لا أستطيع أن أقص بغير هذه الطريقة • أنا أشبه الآن روح  
الملك سليمان التى يقال ان أختامها السبعة قد فضت عنه بعسد أن ظلت

حبيسة سبعة آلاف عام • لقد التقينا يا ناستكا بعد فراق طويل ••• ذلك  
أنتى أعرفك منذ زمن طويل جدا • أنا أبحث عن أحد منذ سنين • أنا  
أبحث عنك أنت منذ سنين • ولقد كتب علينا أن نلتقى ، فاذا ألوف  
العواطف التى ما تزال مكبوتة قد تفجرت فى نفسى • وهأنذا أدع لأمواج  
من الكلام أن تطفح وتفيض حتى لا أختنق • لذلك لاتقاطعيني يا ناستكا  
والا اضطرت أن أسكت •

- تكلم اذن تكلم ! فلن أنطق بحرف واحد •

- هأنذا أتابع اذن • هناك ساعة من ساعات اليوم أحبها كثيرا : هى  
الساعة التى تنتهى فيها جميع الواجبات والاعمال فيهرع الناس الى منازلهم  
للعشاء ، ويستلقون نشدانا للراحة • هذه الساعة هى الساعة التى يفكر  
فيها الناس كيف يقضون السهرة بل الليلة مرحين • ان بطلنا أيضا  
( اسمحى لى أن أتحدث عن نفسى بصيغة الغائب ) ان بطلنا الذى قضى  
النهار كله فى العمل ، يتبع الآخرين فى عودتهم الى منازلهم ، ولكن شعورا  
غريبا باللذة يلاحظ عندئذ على وجهه المتعب الشاحب • انه ينظر الى النسق  
الذى يهبط على سماء بطرسبرج الباردة ، ينظر الى هذا النسق لا نظرة من  
لا يبالى ، حتى انى لا أكذب حين أقول انه ينظر ، فانما هو يتأمل تأملا ،  
ربما على غير شعور منه ، كأنسان متعب تستغرقه أفكار أخرى ، موضوعات  
أقرب الى اهتمامه والصق بأشواقه • فهو لذلك لا يولى كل ما يحيط به  
الا اتباها قليلا • هو سعيد بأنه فرغ الى الغد من أعماله الحزينة ، مرح  
مرح التلميذ يخرج من المدرسة للعب والمتعة • لاحظيه يا ناستكا تجدى  
فورا أن عاطفة الفرح التى يشمر بها قد أثرت فى أعصابه المريضة وخياله  
المحموم • انظرى ! لعله يفكر •• هل تظنين أنه يفكر فى العشاء ؟ فى  
السهرة التى تنتظره ؟ الى من هو ينظر هكذا ؟ أهو ينظر الى ذلك السيد

الوقور الذى حيا سيدة فى عربتها تحية احترام ؟ لا يا ناستنكا انه لا يحفل  
بهذه التفاصيل ! انه غنى بحياته الداخلية النفسية • وأشعة الشمس الغاربة  
لم تتلأأ عبثاً أمامه ، بل غمرت روحه بطائفة من المشاعر الجديدة •  
أصبح لا يلاحظ الطريق الذى كانت تفاصيله اليسيرة تفتنه قبل ذلك •  
ان « الهة الأحلام » ( هل قرأت جو كوفسكى يا عزيزتى ناستنكا ) تنشر  
أمام بصره منذ تلك اللحظة النسيج الذهبى والصور الرائعة والتهاويل  
القاتنة من حياة خيالية ساحرة لا يمكن تصورها • ومن يدري ؟ لعل الهة  
الأحلام قد نقلته الى السماء السابعة البلورية ، ولعلها تسيير به على رصيف  
من رائق المرمر ! حاولى أن تستوقفيه وأن تسأليه فجأة : « الى أين أنت  
ذاهب وأى شارع قطعت ؟ » • انه لن يستطيع أن يجيبك ، وسيحمر  
خجلاً ، ثم يلفق لك كذبة انقاذاً للمظاهر • من أجل ذلك انما ارتعش  
وكاد يصرخ ونظر حوالبه مذعورا حين استوقفته تلك المرأة العجوز  
القصيرة الطيبة تسأله عن طريقها الذى ضلته • لقد قطب حاجبيه وتابع  
طريقه دون أن يلاحظ المارة الذين ابتسموا ودمدموا بكلام لم يسمعه •  
وهذه بنية صغيرة قد اضطرت أن تنتحى لتفسح له مجالا ، فاذا هى تنفجر  
فى قهقهة صاحبة حين نظرت بكلتا عينيها الى ابتسامته العريضة و اشاراته  
البليغة • ولكن « الهة الأحلام » \* تلك تصطاد فى شباكها المرأة العجوز  
أيضا والمارة المستغربين والبنية التى تضحك وحتى أولئك الرجال الذين  
يلتمسون طعامهم على قاربهم فى نهر فوتانكا • هؤلاء جميعا يحيون فى هذا  
الحلم الذى اختطفتهم اليه « الهة الأحلام » ، كما يختطف العنكبوت الذباب  
الى نسيجه • هؤلاء جميعا يحيون فى ذلك الحلم الذى يحلمه صديقنا حين  
يمود الى غرفته الصغيرة فرحا ، فيجلس الى مائدته ، ويتعشى ، ولا يثوب  
الى نفسه الا حين تحمل اليه ماتريونا غليونته ، فهو يستيقظ عندئذ ويتذكر  
مدهوشا أنه تناول عشاءه لا يدري كيف ! الظلام يخيم فى غرفته ونفسه

حزينة مقفرة • مملكة الأحلام قد تهاوت حوالبه بلا ضوضاء ولا صخب ولم تترك أثرا ! لقد هربت هروب طيف ! حتى أن بطلنا لا يتذكر أنه حلم • ولكن عاطفة مبهمة تعود فتتهز قلبه ، ورغبة أخرى تدغدغ خياله لذيذة ممتعة ، ثم سرعان ما تهيج ، وتخلق له عالما جديدا من الأشباح شيئا بعد شيء • الصمت يرين على العرقة ؛ والعزلة والكسل يهددان فكره الذى يصعد ويفلغ غليانا خفيفا كالماء فى غلاية القهوة التى تصنع فيها المعجوز ماتريونا قهوتها فى المطبخ • والكتاب الذى تناوله صاحبنا الحالم بنير هدف وعلى غير هدى يسقط من بين يده قبل أن يتم قراءة الصفحة الثالثة منه • لقد احتاج خياله من جديد • وهذا عالم رائع يظهر له فى صور مثالية • وهذه حياة حافلة بالمباهج تخطر أمامه أشكالا أخاذة ، حلما آخر ، سعادة جديدة ! وها هو ذا يمتص مزيدا من الامتصاص سم اللذة المرهفة • ماله ولحياتنا الواقعية ! نحن لا نحيا الا قليلا جدا ! نحن لا نحيا الا ببطيئا جدا ! نحن لا نحيا الا حياة رتيبة جدا • ونحن نندب حظنا كل يوم غير راضين عنه • انظري من حولك : ألا ترين كل شيء فى الواقع برودة وغضبا وقسوة ؟ • • • « يا لهم من يؤساء » كذلك يقول الحالم لنفسه • ولماذا لا يقوله لنفسه ؟ ان صورا جميلة بعينها تخطر أمامه ، وان أطرافا رائعة تداعب خياله على متعة ونشوة ، فيرى بطلنا نفسه شخصية أولى فى الصف الأول • تصورى جميع تلك المفامرات المتنوعة • تصورى هذه السلسلة التى لا نهاية لها من الأحلام الحارة • ولكن لملك تسألننى عن موضوع أحلامه • • • هو رسالة الشاعر ، المغمور فى أول الأمر ، المتوَجِّع بأكليل المجد بعد ذلك • • هو صداقته مع هوفمان\* ، هو ليلة سان بارتلمى ، هو ديان فرنون ، هو السلوك البطولى الذى أظهره ايفان فاسيليفتش عند الاستيلاء على قازان ، هو كلارا موفبراى ، هو ايفى دينز ، هو أحبار المجمع البابوى وأمامهم هوس ، هو يقظة الموتى فى « روبير الشيطان »

( ألا تذكرين هذه الموسيقى التي تفوح منها رائحة المقابر ؟ ) هو مينا وبراندا ، هو معركة بيريزينا ، هو قراءة قصيدة عند الكوتيسة ف٠٠٠٠ هو داتون ، هو كليوباترا وغرامها ، هو بيت كولومنا الصغير ، هو ركن صغير تجلس الى جانبه فيه مخلوقة حيوية تصفى الى كلامه فى أمسية من أمسيات الشتاء فاعرة فاما ، محملة بعينها الصغيرتين - كما تصفين الى الآن يا ملاكى الفالى ٠٠ لا يا ناستكا ما شأن هذا الانسان الوانى بهذه الحياة التى ننجح اليها كلانا ؟ انه مقتنع بأن هذه الحياة صغيرة مسكينة عامية مبتدلة ٠ وهو لا يقول لنفسه ان ساعة قد تجيء فاذا هو يفرح ان يبيع جميع هذه السنين التى قضاها فى الاحلام بيوم من تلك الحياة ٠ ولا تحسبى أنه سيختار اليوم الذى هو أسعد الأيام فى هذه الساعة التى يعانى فيها الندامة والام ، ولكنه فى هذه اللحظة ، بينما هو يحلم ، لا يرغب فى شيء ، لأنه فوق الرغبات ، لأن أحلامه تشبع جميع حاجاته ، وتروى كل ظمئه ٠ انه صانع حياته ، وهو فى كل لحظة يخلق حياته على ما يريد له هواه ! وما أسهل ما يولد هذا العالم الخيالى الاسطورى طبيعيا من تلقاء نفسه ، حتى لكأن الأمر ليس أمر أشباح ! فان صاحبنا الحالم مؤهب حتى للاعتقاد بأن هذه الحياة ليست أكلوبة من أكاذيب الخيال ، ولا خطأ من أخطاء الحواس ، بل هى الواقع الحق القائم ! والا فلماذا يا ناستكا تسارع نبضات قلبه وتتدفق الدموع من عينيه وتحترق خداه الشاجبتان ؟ لماذا يمتلىء كيانه كله بفرح لا يوصف ، ولماذا تذوب ليلى بأسرها من الأرق فى لحظة سعادة لا سبيل الى التعبير عنها ؟ حين تطلع أشعة الفجر الشاحبة فتسلسل من النوافذ وتير العرقة الصغيرة الحزينة التى يقطنها صاحبنا الحالم بضياء مبهم لا يحدد ، فانه يرتضى على سريره متعبا مهدود القوى ، وينام باكيا من الفرح مهتاج الروح احتياجا يشبه أن يكون مرضا ٠ نعم يا ناستكا ، قد يخطئ المرء عندئذ فيحسب أن هوى حقا يضطرم فى روحه ، وأن

الواقع قائم فى أحلامه المجنونة • خطأ ذلك ! هكذا يكون الحب قد نفذ الى قلبه بفرحه الذى لا ينضب ، وآلامه الحادة الكاوية ••• ولكن انظرى اليه ! هل تحسبن أنه لم يعرف أبدا تلك التى يحبها فى أحلامه ! ألم ير حقا تلك المرأة الا طيفا فاتنا ، ولم يزد على أن عانى هواه فى الأحلام ! من يدرى ؟ لعلهما قد عاشا كلاهما سننى عمرهما يدا بيد ، بعسدين عن العالم ، موحدين حياتيهما الى الابد • هل يمكن أن لا تكون هى التى ، فى أواخر الليل ، لحظة الفراق ، قد رقدت ناحية يائسة على حضنه لا تسمع العاصفة الهوجاء تحت السماء المشوثة ، ولا تسمع الريح التى تتزع الدموع من أهدابها السوداء وتطير بها فى الفضاء ؟ ألم تكن الا حلما تلك الحديقة الحزينة المتوحشة المنزلة التى كثيرا ما عاشا فيها اعتكافهما فى الأمل واليأس والحب الحنون الخالد ، وذلك المنزل العريق القديم الغريب الموروث عن الأجداد الذى عاشت فيه زمناً طويلاً مع زوجها الشيخ الكالغ المتجهم الصامت المبعض الذى يلاحقهما هما الخجولين كطفلين فى حبهما الصامت المتخفى ! ما أكثر ما كانت تنزل عليهما الام ! وما أكثر ما كانا يمتثلان خوفا وقلقا ! ما أكثر ما كان جبهما بريئا صافيا ! وما أكثر ما كان الناس ( بطبيعة الحال يا ناستكا ) أشرا فى معاملتهما ! ويا رب ، أليست هى التى التقى بها بعد ذلك بعيدة عن وطنها فى سماء أجنبية جنوبية حارقة ، فى « المدينة الخالدة » الرائعة ابان حفلة راقصة ساطعة وسط أصوات الموسيقى ( موسيقى البلازو طبعا ) الفارقة فى خضم من نيران ، على الشرفة التى تتعاقب فيها فروع الأس وأزهار الورد ، فلما عرفته أسرعرت تنضو عن وجهها القناع ، مدممة أنا حرة ، وهى ترتجف وتتحب وترتمى فى ذراعيه ، فاذا هما فى صرخة من الحماسة وقد احتضن كل منهما الآخر ، ينسيان ما قاسياه من ألم وما عانياه من عذاب الفراق وصروف الأيام ، وينسيان المنزل القاسى والشيخ والحديقة القاتمة فى

الوطن البعيد ، والمقعد الذى كانا جالسين عليه فى آخر يوم حين انتزعت نفسها من عناقه فى قبلة محمولة وقد تشنجت من فرط الألم . . . آواه يا عزيزتى ناستكا ! اعترفى بأن المرء قد يطير صوابه ويضطرب ويحمر كتلميذ كان يدس فى جيبه تفاحة سرقتها من بستان مجاور ، حين يكون على هذه الحال فاذا بقنى فارح القامة ممتلىء بالعافية مرح المزاج جرى الطبع ذرب اللسان حلو الحديث ، هو صديقه ، يفتح بابه بدون سابق دعوة ويهتف صائحا كأن شيئا لم يكن : « هأنذا يا عزيزى وصلت الآن من بافلوفسك ! » يا رب ! الكونت الشيخ مات ، وهذه هى السعادة جاءت أخيرا ، السعادة التى لا تغلب ، فاذا الناس يصلون فى تلك اللحظة من بافلوفسك !

سكتُ بنوع من التفخم بعد أن فرغت من أقوالى المسألى فحفضت وانتفاخا . وانى لأذكر أن قد قامت فى نفسى رغبة رهيبه فى أن أضحك ضحكة مجنونه طويلة لأننى شعرت شعورا قويا بوجود شيطان عدو يتحرك فى أعماقى بينما أخذ حلقى يتقبض وأخذت ذقنى ترتعش وأخذت عينى تخضل . . . كنت آمل من ناستكا التى كانت تصغى الى محملة بعينها الذكيتين أن تضحك ضحكتها القوية المرحه ، وكنت قد أخذت منذ ذلك الحين أندم على أتى أسرفت فى الكلام وأطنبت فى قصص ما كان يغلى فى نفسى . كنت قد أدت منذ زمن طويل حياة الاحلام هذه التى أحيائها ولم أكن آمل أن أفهم الآن حين فتحت قلبى . ولكن ما كان أشد دهشتى حين رأيت ناستكا بعد أن لبثت صامته بضع لحظات تشد على يدي خجلى وتسالنى :

- أحقا عشت هذه الحياة ؟

فأجبتها :



– دائما يا ناستنكا • وأحسب أنني سأموت هكذا •

قالت قلقة :

– لا ! هذا مستحيل ! هذا لن يكون •• وهل أظل أعيش أنا أيضا  
قرب جدتي الى الأبد ؟ هل تعلم أن الحياة على هذا المنوال ضارة مؤذية ؟  
صحت أقول وقد أصبحت لا أملك ضبط فكري :

– نعم يا ناستنكا • أعرف ذلك • ولقد أصبحت لا أجهل أنني  
ضيعت أحسن سنى عمرى • واني لأنألم من هذا اليقين • لا سيما الآن  
بعد أن أرسلك الله الىّ ، ياملاكى الطيب من أجل أن تعلمنى هذا وأن  
تبرهنى لى عليه • واني اذ أحدثك ليبدو لى غريبا أن أفكر فى المستقبل  
الذى يمثل العزلة والوحدة ويمثل تلك الحياة الباطلة نفسها • وما عسى  
أن يكون موضوع أحلامى بعد اليوم وقد عشت واقع السعادة بالقرب  
منك ؟ بورك فيك أيها الفتاة العزيزة • لأنك لم تصدينى ولأنك أتحت لى  
أن أقول اننى عشت فى حياتى أمسيتين •

صاحت ناستنكا تقول والدموع تتلألأ فى عينيها :

– لا ، لا ، هذا لن يكون ! لن ننفصل هكذا ! ما أمسيتان ؟

– آه يا ناستنكا ، ناستنكا •• لبتك تعلمين كم صالحتى مع نفسى •  
لن أحكم على نفسى بعد الآن حكما يبلغ مبلغ سوء حكمى عليها من قبل •  
لن أظن أنني ارتكبت خطيئة ، اننى ارتكبت جريمة فى حياتى ، لأن هذه  
الحياة جريمة • ولا تحسبى أنني أبالغ ناشدتك الله ! لا تحسبى هذا  
ياناستنكا ، فاننى أعانى حقا لحظات رهيبه من الحزن ، واني لأقتنع حينذاك  
أنه يستحيل علىّ أن أبدأ حياة حقيقية • لقد فقدت كل معرفة بالواقع ،  
فقدت كل شعور بالواقع ؛ وان ساعات اليقظة التى أعيشها بعد ليل خيالية،

لهي رهبة الوقع في نفسى • وأنا في أثناء ذلك ، أرى جمهرة البشر تدور في اعصار الحياة من حولي ، اعصار الحياة الواقعية التي لا تذهب بددة كحلم ، الحياة التي تتجدد تتجددا متصلا وتبقى فتية ريانة الفتوة • ولا كذلك أحلامي التي تبقى هي هي حزينة عادية أسيرة لظلمة الفكر ، لأول غمامة تحجب الشمس فتحزن قلوب أهل بطرسبرج الذين يحبون الضياء هذا الحب كله • ان هذه الاحلام لتسأم وتنضب وتنتثر غبارا ، فإذا لم تجيء حياة جديدة تغذيها فمن هذا الغبار انما ستعود وتنشأ حياة التهاويل والأخيلة • والنفس ترغب أثناء ذلك في شيء آخر ولكن الحالم يبحث عبثا في أحلامه القديمة ، كمن يبحث في الرماد عن شرارة يمكن أن تعيد الحركة الى قلبه الذي جلده الصقيع ويمكن أن تبت الحياة مرة أخرى في كل ما كان حبيبا الى قلبه ، وحنانا وجمالا في نظره ، وما كان يستدر دموع عينيه ويفتته عن نفسه تلك الفتنة الساحرة • هل تعلمين يا ناستكا أنني اضطررت للاحتفال بأعياد سنوية لعواطفى ، لما عيذته دائما ولم يوجد في الواقع قط • ذلك أن هذه الاحتفالات السنوية تذكرنى بتلك الأحلام الغبية الباطلة التي اختفت هي نفسها • الأحلام تتبدد أيضا ، أليس كذلك ؟ هل تعلمين أنني أحب تذكر الأماكن التي كنت فيها سعيدا ، وأن أعود فأراها ؟ انى أحب أن أعيش الحاضر من خلال ذكرى الماضى ، وكثيرا ما أهيم على وجهى حزينا بلا هدف أقصد اليه في شوارع بطرسبرج ودروبها - وما أكثر ما هنالك من ذكريات في كل مكان - فأتذكر أنني منذ سنة تماما ، في هذه الساعة عينها ، كنت أسير على هذا الرصيف عينه منهوك القوى مهدود الروح كالآن؟ وكانت أحلامي حدادا ، ولم تكن حياتى أقرب الى الفرح كثيرا ، ولكن يخيل الى أنني كنت أحياء حياة أجمل من حياتى الآن ، وأن الأفكار السود لم تكن تسكن دماغى قوية عنيفة كما تسكن فيه الآن ، واننى لم أكن أعانى من هذه الندامات

وآلام الضمير التي لا تدع لى اليوم راحة • واننى لأسائل نفسى : أين أحلامك كلها اذن ؟ ولشد ما تجرى السنون سريعة سريعة ! أحسن ما فى حياتك مات • أنت قد حيتت حقا ؟ انظر كيف صار كل ما حواليك جليدا من الصقيع ، وستنقضى سنون أخرى وستظل تعيش هذه العزلة الرهيبه ثم تدب فيك الشيخوخة العاجزة • عالمك الحياىى سنحول ألوانه ، وأحلامك الكثيره ستسقط سقوط الأوراق الصفرة عن أشجارها فى الشتاء ••• آه يا ناستكا ما أبأس أن يبقى المرء وحيدا ، وحيدا كل الوحده • وما أبأس ألا يكون له ما يتحسر على انقضائه ••• لأن كل ما فقده انما كان عدما ياطلا ، صفرا غيبا ، حلما عابرا •

دمدمت ناستكا تقول وهى تكفكف دمعها :

- كفى ! لا تحزنى مزيدا من الحزن • انتهى الأمر الآن • وسنكون بعد اليوم اثنين • ولن نفترق مهما يحدث لى • اسمع ! أنا فتاة بسيطة على حظ ضئيل من الثقافة ، رغم أن جدتى قد سمّت لى أستاذة • ولكننى أفهمك لأننى عشت بنفسى كل ما فصصته علىّ الآن • صحيح أنتى ما كنت لأستطيع أن أقصه هذا القص الجميل ( كذلك أضافت تقول خجلى ) لكننى شعرت بهذا كله حين ربطتنى جدتى الى نوبها بدبوس ، ويسعدنى أنك أفضيت الىّ بذات نفسك • أنا أعرفك الآن ، أعرفك حق المعرفة ، وأريد أن أحكى لك حكايتى دون أن أخفى عنك شيئا • وسوف تمسدى الى بالنصح بعدئذ • أليس كذلك ؟ ألا تعدنى بهذا النصح يا من أنت على هذا الجانب العظيم من الذكاء ؟

أجبثها أقول :

- آه يا ناستكا ! ما أسديت فى حياتى بنصيحة لأحد ، فليس لى

اذن تجربة ، ولكننى أعلم أننا اذا عشنا بعد اليوم معا فسنكون قادرين على أن ينصح كل منا الآخر كما لا يستطيع أحد أن ينصحه • أما بعد يا ناستكا اللطيفة ، فأية نصيحة تريدان ؟ كلمينى بصراحة ، اتنى فرح • اتنى سعيد • اتنى مرتاح البسال مطمئن النفس • وهأنذا أصغى اليك ومأحدثك بغير اكراه •

قاطعتنى ناستكا ضاحكة تقول :

— لا ، لا ، أنا لأأريد نصيحة ذكية فحسب بل أريد نصيحة صديق ، نصيحة أخ ، كأنك قد أحييتنى طوال حياتك !  
صحت أقول مفتونا :

— موافق يا ناستكا ، موافق ، ولو كنت قد أحييتك منذ عشرين عاما لما كان حبنى أقوى منه الآن •

قالت ناستكا :

— هات يدك •

فأجبتها وأنا أمد اليها يدي :

— اليك يدي •

قالت :

— الآن أبدأ نصتى •

## قصتنا

- لقد علمت نصف قصتي اذ علمت أن لي جدة عجوزا ...

قاطعتها أقول :

- اذا كان النصف الآخر موجزا ايجاز النصف الأول ...

- صه ! استمع ! ثم اننى أطلب شرطا : أن لا تقاطعنى قط ، والا لم أستطع أن أكمل . لي اذن جدة عجوز عشت معها منذ كنت بنية صغيرة بعد أن فقدت أبى وأمى فى سن مبكرة جدا . وأغلب الظن أن جدتى كانت فى الماضى غنية ، لأنها تحب أن تتذكر أيامها الخسوالى التى كانت خيرا من أيامها الآن . وقد علمتنى اللغة الفرنسية ، ثم سمت لي أستاذا ، فلما بلغت من عمري السنة الخامسة عشرة ( وأنا اليوم فى السابعة عشرة ) انتهت دراستى . وفى ذلك الحين انما ارتكبت حماقات . لن أقول لك ماذا فعلت . ولكن اعلم ان الاخطاء التى قارفتها لم تكن كبيرة . غير أن جدتى نادتنى فى ذات صباح وقالت لي انها بسبب عماها لا تستطيع أن تراقبنى ، ثم تناولت دبوسا شدتنى به الى ثوبها ، وأعلنت لي عندئذ أننا سننزل نعيش على هذا النحو حياتنا كلها اذا لم يصبح سلوكى أقرب الى العقل والحكمة . معنى هذا أننى أصبحت لا أستطيع أن أسير خطوة واحدة لأعمل وأقرأ وأتعلم . أصبح على أن أمكث قرب جدتى دائما .

وفى ذات مرة أردت أن أستعمل المكبر والحيلة ، فرجوت تكلا أن تأخذ مكانى . ان تكلا خادمتنا وهى صماء . حلت تكلا محلى ، ونامت جدتى على مقعدها . وأسرعت أنا أمضى الى صديقة لي ... واتتهى الأمر

نهاية سيئة فحين استيقظت جدتي ، كنت ما أزال غائبة فطلبت شيئاً لظنها  
أننى قريبها ، فأدركت تكلاً ذلك ، ولكنها لم تستطع أن تلبى رغبتها ،  
وفكرت فيما عساها تفعل فانتهدت الى هذا القرار : انتزعت الدبوس  
وهربت •••

توقفت ناستنكا عن الكلام وهي تنفجر ضاحكة فضحكت معها فسرعان  
ما كفت عن الضحك وقالت :

– لا تهزأ بجدتي • اننى أضحك لأن الأمر كان سخيفاً •• وما  
عساي أفعل وهي عمياء ! ولكننى أحبها مع ذلك • ما أكثر ما وعظمتنى  
يومئذ بعد أن أمرتنى أن أظل قريبها ومنعتنى من أية حركة •

نسيت أن أقول لك اننا نملك بيتاً ، أعنى أن جدتى تملك بيتاً •  
هو بيت ليس له الا ثلاثة نوافذ على واجهته ، وهو من خشب كله ،  
طاعن فى السن كجدتى ، وفى أعلاه غرفة تحت سقف القرميد • وقد  
جاء مستأجر جديد يسكن تلك الغرفة •

قلت :

– اذن كان يسكنها قبل المستأجر الجديد مستأجر قديم •

أجابت :

– وكان يعرف كيف يصمت خيراً منك ! حقاً كان لا يكاد يحرك  
لسانه • أنه شيخ قصير أعرج أعمى أعرج ، لذلك لم يقو على  
البقاء طويلاً فمات • فجاءنا بعده بقليل مستأجر جديد ( اننا لا نستطيع أن  
نعيش بغير مستأجر لأن معاش جدتى هو موردنا الوحيد ) • وشئت  
المصادفة التى تشبه العمى أن يكون المستأجر الجديد شاباً • ولم يكن هذا

المستاجر الشاب من مدينتنا ، وانما وقد اليها لقضاء زمن . واذ لم يساوم  
فقد أجرته جدتي العرقة فورا ، وناديتي وسألتني : « قولى لى يا ناستكا  
أهو شاب أم لا ؟ » فلم أشأ أن أكذب عليها فقلت : « لا يمكن القول انه  
فتى ولكنه ليس بالكهل . فامعنت جدتي تسألني : وهل هو حسن المنظر  
وسيم الطلعة ؟ فقلت لها : نعم هو كذلك ، لاننى لم أشأ ان أأذب ايضا .  
فصاحت جدتي عندئذ تقول : « آه يا للمصيبة يا للمصيبة !! ... لفسد  
سألتك هذا السؤال يا ناستكا حتى لا تنظري اليه كثيرا . وبالهذا الزمان  
من زمان ! مستاجر حسن المظهر ثم هو لا يدفع أجرا أكبر ! ... لم  
يكن الأمر كذلك فى زماننا ! » ان جدتي تتحدث دائما عن « العهد الحالى »  
الجميل ، فتقول فيما تقول : انها كانت يومئذ فتية ، وان الشمس كانت  
يومئذ شابة ، وان الشمس كانت أكثر دفئا . وكانت القشدة لا تفسد  
بسرعة كما تفسد فى هذا الزمان . كان كل شيء حسنا فى ذلك العهد  
الجميل ! وسكت أنا وفكرت : « لماذا تسألني جدتي هل هو جميل وهل  
هو فتى ؟ » . على أننى ألقيت هذا السؤال على نفسى ببساطة دون أية فكرة  
ميتة ، واستمررت أعد الأبازيم ، وأحيك الجوارب ، ثم نسيت كل  
شيء .

وهذا هو المستاجر الجديد يجهىء الينا فى ذات صباح يذكرنا بأن  
ورق جدران غرفته يجب تغييره ، فقالت لى جدتي عندئذ ( وهى مكثرة  
كما تعلم ) : « هيا أسرعى الى غرفتي يا ناستكا فأتني بكيسى » . فوثبت  
فورا وقد احمر وجهي لا أدري لماذا ، ناسية نسيانا كاملا أننى مشدودة الى  
ثوب جدتي بدبوس ، فبدلا من ان اتزع الدبوس فى رفق حتى لا يلاحظ  
المستاجر شيئا ، وثبت مسرعة ، فاذا بالمقعد وجدتي يتبعاني فى رحلتى .  
فلما قدرت أن المستاجر قد عرف عنى عندئذ كل شيء ازددت احمرارا ،  
وتسمرت فى مكاني لا أتحرك ، وانفجرت باكية فى نسيج . لقد شعرت

فى تلك اللحظة بخجل رهيب وعار فظيغ ، وتمنيت لو أغور مئة متر تحت الارض ! صاحت جدتى تسالنى : « لماذا وقفت ؟ » فازداد بكائى ••  
فادرك المستأجر عندئذ اضطرابى ، فحيانى وخرج • ومنذ ذلك الحين أصبح يملكنى قلق قاتل كلما سمعت ضجة فى الدهليز ، فأقول لنسى : « انه المستأجر » ، وأسارع فأنزع الدبوس برفق وهدوء ، ولكنه كان لا يجىء • وانقضى أسبوعان ، وكلف المستأجر تكلا أن تقول لسا ان لديه كتب فرنسية كثيرة شائقة جدا ، وأن تسألنا هل تأذن لى جدتى أن أقرأ لها هذه الكتب لأسليها ، ولكن جدتى سألت عن هذه الكتب أهى كتب فاضلة ، وأضافت تقول لى : « ان لم تكن فاضلة فلن تستطيعي أن تقرئها يا ناستكا ، والا علمتك الشر والرذيلة » •

سألتها :

– لماذا يا جدتى ؟ ما عسى أن تضمه هذه الكتب ؟

– هى كتب تتحدث عن رجال يفتون البنات الفاضلات ، اذ يعدونهن بالزواج ، فيأخذوهن من أسرهن ثم يهجرهن هاته الغيبات الشقيات ويتركونهن للقدر يعيث بهن على ما يشاء ، فيهلكن عندئذ فى حياة بائسة تعيسة • لقد قرأت كثيرا من تلك الكتب التى بلغ مؤلفوها من الحدق والبراعة فى كتابتها أن المرء يقضى ليلته كلها يقرؤها ثم يقرؤها • هل سمعت يا ناستكا ؟ اياك أن تفتحي هذه الكتب ! ما هى الكتب التى أرسلها هذا الشاب !

– هى روايات بقلم والتر سكوت يا جدتى !

– والتر سكوت ؟ لا شك أن فى الأمر شيئا • انظري يا ناستكا ••

هل ترين فى هذه الكتب بطاقات صغيرة حلوة ؟

– لا يا جدتى ••• ما من بطاقة •••



- انظري تحت الغلاف ! ان هؤلاء الأوغاد يضمونها فى كثير من الأحيان تحت الغلاف \*\*\*

- لا شىء تحت الغلاف أيضا يا جدتى \*\*\*  
- حسن اذن \*\*

وشرعنا نقرأ والتر سكوت ، واستطعنا فى أقل من شهر أن نقرأ نصف الكتب التى أعارنا اياها جارنا ، ثم أرسل الينا كتباً أخرى فقرأت بوشكين ، فما هى الا فترة قصيرة حتى أصبحت لا أستغنى عن القراءة ، وبلغت من ذلك أننى كفت تماما عن التساؤل : « كيف أستطيع أن أتزوج أميرا صينيا ! » وفى ذات يوم التقيت بالمستأجر على السلم • كانت جدتى قد أرسلتني فى أمر من الامور • وقف الشاب فاحمر وجهي واحمر وجهه أيضا ، ثم ابتسم وحياني وسألني عن أبناء جدتى وقال لى : « هل قرأت كيبى ! » فأجبت : « نعم » • فقال : « أيها أحييت ؟ » • فقلت : « ايفانهويه \* وبوشكين » •  
كذلك انتهى حديثي •

وبعد أسبوع التقيت به مرة أخرى ، وكنت فى هذه المرة قد شعرت بالحاجة الى الخروج من أجل نفسى • كانت الساعة هى الثالثة ، وكان المستأجر عائدا الى المنزل • قال لى : « يومك سعيد » • فأجبت : « يومك سعيد » •

- أليس يضجرك كثيرا أن تلبى مع جدتك طوال النهار ؟

فاحمر وجهي من هذا السؤال احمرارا قويا ، وشعرت بخجل شديد ، وأحزنتنى أن أرى الغرباء يسألوننى عن هذا الامر ، وأردت أن أنصرف دون اجابة ، ولكننى لم أقو على ذلك •

- اسمعى ! ان لك قلبا طيبا نييلا ، فاعذرينى اذا أنا قلت لك هذا الكلام ! ولكننى أريد لك الخير أكثر من جدتك نفسها ! أليس لك أية صديقه ؟

فأجبتة بأن لى صديقه هى ماشنكا • ولكنها سافرت الى بسكوف •

- هل تحبين أن تصحبنى الى المسرح ؟

الى المسرح ؟ وجدتى ؟•••

- تستطيعين أن تنصرفى •• بهدوء ورفق •• فما يشعر بخروجك أحد •

- لا ، لا أريد أن أخدعها ! الى اللقاء !

- الى اللقاء اذن !

كذلك أجاب دون أن يزيد شيئاً •

ولكنه جاء الينا بعد العشاء ، ولبت يتحدث مع جدتى مدة طويلة •  
وسألها هل هى تتخرج أحيانا ؟ وهل لها أصدقاء ؟ ثم قال فجأة : « لقد استأجرت اليوم شرفة فى الأوبرا • انهم يمثلون « حلاق اشيلية \* » •  
وكان يجب أن يصحبنى بعض الاصدقاء ، غير أن مانعا طرأ فى آخر لحظة ، فأصبحت الشرفة خالصة لى وحدى •

صاحت جدتى :

- « حلاق اشيلية » ! ••• تلك التى كانوا يمثلونها فى العهد الماضى

الجميل !

قال :

- نعم هى نفسها !

ونظر الى . وكنت أنا قد فهمت كل شيء ، فأخذ قلبي يخفق أملا  
ورجاء . . . .

قالت جدتي :

– آه لقد غنيت بنفسى دور « روزين » \* فى عرض بيتنا ذات مرة  
. . . . اننى أعرف هذا الدور معرفة جيدة . . . .

قال المستأجر :

– تعالوا اذن معى ، والا ضاعت الأماكن سدى .

قالت الجدة :

– نعم هيا بنا ! ولیم لا ؟ ان ناستنكا لم تذهب يوما الى المسرح .  
ما أجملها متعة يا رب !

وما لبثنا أن ارتدينا ملابسنا وخرجنا . كانت جدتي تحب الموسيقى  
كثيرا . وكانت عدا ذلك طيبة القلب جدا . فهى تحب أن تسرنى . وما  
كان لنا أن نذهب الى المسرح وحدنا . لا أستطيع أن أصف لك الأثر  
الذى أحدثته فى نفسى أوبرا « حلاق اشيلية » . ولكن المستأجر ظل  
طوال تلك السهرة ينظر الى بعينين فيهما من الطيبة ويحدثنى بكلام فيه  
من المسذوبة ما جعلنى أدرك فورا أنه قد أراد أن يمتحننى فى الصباح  
حين عرض على أن أخرج معه وحيدة . ما كان أشد فرحى ! لقد رقدت  
على فراشى فى تلك الليلة فخورة مفتونة . كان قلبي يخفق خفقانا شديدا ،  
حتى لقد أصابتني حمى ، وحلمت طول الليل بـ « حلاق اشيلية » .  
وقدرت عندئذ أن جارنا سيكثر اختلافه الينا وتردده علينا . ولكن ظنى  
لم يصدق . لقد انقطع عن زيارتنا انقطاعا يشبه أن يكون تاما . لعله أصبح  
لا يزورنا الا مرة واحدة فى الشهر . وهو لا يزورنا هذه الزيارة أيضا

الا ليدعونا الى المسرح • ذهبنا الى المسرح مرتين أخريين • ولاحظت أنه كان يشفق على ويرأف بى ويرثى لحالى اذ يرانى وحيدة مع جدتى دائما • ولكننى كنت أنا أفقد الهدوء يوما بعد يوم • وأصبح يستحيل علىّ أن أبقى ساكنه النفس مطمئنه البال ، حتى لقد صرت اعجز عن القراءة ، ولا أستطيع أن أعمل ؛ وكنت أبكى فى كثير من الأحيان ! وسرعان ما نزلت ، وأوتسكت أن أمرض • لقد انتهى موسم المسارح • وأصبحنا لا نرى جارنا البتة ، فاذا صادفته مصادفة ، وذلك يكون على السلم دائما ، حيانى صامتا برصانة وجد ، كأنه لا يريد أن يكلمنى ، فأتسمر على الدرجة التى أكون عليها من السلم ، بينما يكون هو قد خرج ، وكنت أحمر عندئذ احمرارا شديدا ، لأننى كنت لا أراه الا ويصعد الدم الى رأسى •

هأنذا أوشك أن أختم قصتى • منذ سنة تماما فى شهر أيار (مايو) جاء المستأجر يكلم جدتى • كان قد سوتى جميع شؤونه وأعماله ، فعليه أن يعود الى موسكو • وسيمكت هنالك سنة • فلما سمعته يقول ذلك الكلام شحب لونى ، وتهاويت على كرسى كالميتة • لم تلاحظ جدتى شيئا بطبيعة الحال ، أما هو فقد خرج بعد أن حيانا مودعا •

ماذا كان علىّ أن أعمل ؟ فكرت طويلا ، طويلا ••• ثم عزمت أمرى أخيرا ••• قلت لنفسى : ما دام مسافرا فى الغد ، فسوف اراه منى نامت جدتى ••• وذلك ما وقع • حزمت جميع أثوابى وملابسى فى صرة ، وصعدت اليه وأنا أقرب الى الموت منى الى الحياة • أحسب أنى سلخت ساعة برمتها فى صعود السلم ، فحين فتحت عليه الباب فأبصرنى ، أطلق صرخة • لا شك أنه ظننى شبعا من الاشباح • ذلك أننى كنت لا أكاد أستطيع الوقوف على ساقى • فلما رآنى على هذه الحال أسرع يجرى • بما لينعشنى به • كان قلبى يبلغ من شدة الخفقان أن صداعا ألم

برأسي وأنتى أصبحت لا أفهم ما يجرى من حولي • وثبت الى رشدى بعد قليل ، فوضعت صرتى على السرير ، وجلست غارقة فى دموعى ، دافئة رأسى فى يديه • وسرعان ما فهم هو كل شىء • فيها هو ذا يقف أمامى شاحب الوجه ينظر الى نظرة تبلغ من الحزن أن قلبى تفتقر لها •

قال لى :

– ناستنكا ! اسمعنى • لا أستطيع شيئاً ! اننى فقير ، وليس لى أى مركز ، فكيف عسانا نعيش اذا أنا تزوجتك ؟

تحدثنا طويلاً ، وفقدت صوابى آخر الامر فقدانا تاماً ، فأعلنت له أنتى لن أستطيع أن أعيش بعد الآن مع جدتى • قلت له اننى سأهرب فلست أريد أن أبقى مشدودة الى جدتى بدبوس ، واننى سأ تبعه الى موسكو شاء أم أبى ، فقد أصبحت لا أستطيع أن أستغنى عنه • كان الحجل والحب والكبرياء ، كان كل شىء فى نفسى يتكلم فى آن واحد • وتمالكت على السرير مرتعشة أشد الارتعاش • كنت أشعر بذعر من تصورى رفضه •

لبت صامتاً بضع لحظات ، ثم نهض واتقرب منى ، وتناول يدى ، وقال لى منفلاً أشد الانفعال :

– عزيزتى الطيبة ناستنكا ، أقسم لك أنتى اذا استطعت يوماً أن أتزوج ، فلسوف تحققين أنت وحدك سعادتى • نعم انت وحدك ••• اسمعى ما سأقوله لك : أنا مسافر الى موسكو ، وسأقضى هنالك سنة تماماً ، وآمل أن أسوى أمورى ، فاذا عدت بعدئذ فوجدت أنك لم تتسبنى ، سعدنا معاً ، أقسم لك على ذلك • أما الآن فلست أستطيع ولا يحق لى أن أعدك بشىء • على أنتى أوكد لك أننا اذا لم نحقق سعادتنا فى السنة

القادمة ، فسنحققها فى يوم من الايام حتما ، هذا اذا لم تؤثرى على  
شخصا آخر بطبيعة الحال ! ذلك ائنى لا أستطيع ولا أجرؤ أن أربطك  
بعهد !

تلك كانت أقواله • وسافر فى الغداة • اتفقنا على أن لا أحدث  
جدتى بشئ • فكذلك أراد • هذه هى قصتى أنهيت سردها لك تقريبا •  
وقد تصرمت السنة وعاد صاحبى الى بطرسبرج وهو هنا منذ ثلاثة أيام ،  
و •••

صحت أسألها مستعجلا معرفة النهاية :

- وماذا ؟

فأجابت ناستكا وكأنها تجاهد نفسها •••

- ما رأيته بعد ! ولا تلقيت منه كلمة ! ••• لا شئ •••

وصمتت وخفضت رأسها وانفجرت تنتحب انتحابا قويا تمزق له  
قلبى •

لم أكن أتوقع هذه الخاتمة •

قلت بصوت وجل متردد :

- ناستكا ! لا تبكى ! ناشدتك الله ! لعله لم يصل بعد ، مايدريك ؟

صاحت ناستكا تقول :

- بل وصل • انه هنا • أعرف ذلك • ولقد وضعنا هذا الشرط فى  
الليلة التى سبقت سفره حين تنزهنا هنا على رصيف النهر • خرجنا من  
البيت معا بعد حديثنا ، وكانت الساعة العاشرة ، وجلسنا على هذا المقعد

وقد كفت عن البكاء • كنت سعيدة بالاصفاء الى كلامه ••• كل السعادة  
••• قال انه سيأتى الينا متى عاد ، فاذا كنت ما أزال أحبه كاشفنا جدتى  
بكل شيء • وقد وصل ، فأنا أعرف ذلك ، ولم يبلغنى منه شيء بعد •••

قالت ذلك وطفقت تبكى من جديد •

صحت أقول وايبا وقد تملكنى غم شديد :

- رباہ ! ألا نستطيع أن نفعل شيئا لدفع هذا الكرب ؟ قولى ياناستكا:  
ألا يمكننى أن أذهب اليه ؟

فأجابتنى وهى ترفع رأسها بسرعة وقوة :

- أهذا معقول ؟

قلت وقد عدت الى صوابى :

- طبعا لا ! ولكنك تستطيعين أن تكتبى اليه رسالة •

فأجابت بلهجة قاطعة وهى تخفض رأسها من جديد متحانسة

نظرتى :

- لا ! هذا لا يمكن أن يكون •

فتابعت كلامى ملحاً :

- لماذا يا ناستكا ؟ تقى بى ••• فلن أسىء نصحك • ان من الممكن

أن يسوئى كل شيء • لقد خلوتِ الخطوة الاولى ، فلماذا تحججين  
الآن ؟

- لا أستطيع ! لا أستطيع ! لا أريد أن أكرهه اكرها •••

قاطعتها أقول مبتسما :

- يا عزيزتى الصغيرة ناستنكا ! أنت مخطئة ! ان من حقت أن تخاطبيه ، لأنه قطع لك عهداً ، ثم اننى أفهم من كل ما قصصته على أنه رجل مرهف العواطف رقيق المشاعر •

وتابعت أقول وأنا أزداد اقتناعاً بمنطق براهينى :

- لقد كان سلوكه حسناً جداً : قطع لك على نفسه عهداً ، وأعلن أنه لن يتزوج غيرك ، وترك لك حرية رفضه اذا شئت ... فبوسمك اذن أن تقومى بالخطوة الأولى ، ذلك من حقت تماماً ما دمت تمتازين عليه بقدرتك على أن تجعليه فى حل من عهده ...

- ولكن ما عسك تكتب ؟

- أكتب ماذا ؟

- الرسالة •

- أكتب هكذا : « السيد المحترم ... »

- هل ضرورى أن تكتب : « السيد المحترم ؟ »

- تماماً ... ثم اننى أرى ...

- طيب .. طيب .. وماذا تكتب بعد ذلك ؟

- « السيد المحترم ! .. معذرة اذا أنا ... لا .. لا داعى الى أى اعتذار .. فالأمر مسوغ من تلقاء نفسه :

« اكتبى فقط ما يلى » :

« أكتب اليك راجية أن تغفر لى نفاذ صبرى ، فان الأمل قد جعلنى سميدة سنة بكاملها • أفأكون مذنبه اذا أنا لم أطق احتمال الشك يوماً



واحدا؟ ترى هل تغيرت نياتك وقد عدت؟ ان رسالتى ستبتك فى هذه  
الحالة بانى لا ادينك ، فليس يدان امرؤ لأنه لا يملك زمام قلبه • ذلك  
هو القدر !

« انك امرؤ رفيع العواطف ، فلن تبسّم اذن حين تقرأ هذه الاسطر  
التي تدل على نفاذ الصبر ولن ترميها الى الارض • تذكر أن فتاة بائسة  
هى التي تكتب هذه الاسطر • انى وحيدة وليس لى أحسد يرشدنى  
ويسدد خطاى ويسدى الىّ النصح • ولم أستطع أبدا أن أسيطر على  
قلبي ، فسامحنى اذا كان قد نبت شىء من الشك فى هذا القلب • انك  
لا يمكن أن تريد اذلال تلك التي أحبتك ذلك الحب كله وما تزال  
تحبك ، لا تريد اذلالها ولو بالخيال » ♦

هتفت ناستنكا تقول وقد سطع الفرح بعينها :

- نعم •• نعم •• ذلك ما كنت أفكر فيه • لقد وجدت لى مخرجا  
من شكوكى ! ان الله نفسه قد أرسلك الىّ ! أشكرك أجزل الشكر ،  
وأعرب لك عن أعماق الامتنان •  
- لماذا أرسلنى الله اليك ؟

كذلك أجبته وقد أسعدنى أن أتأمل وجهها الصغير الذى أشرق  
بشراً وبهجة •

قالت :

- من أجل هذا كله !

- آه يا ناستنكا ! انى أنا الذى أشكر لك أن قد أتيح لى أن ألقاك ،  
ولسوف تحيين دائما فى ذكراى •

- كفى ! كفى ! استمع الى الآن ! قلت لك اننا قد تواضعنا على هذا الشرط ، وهو أن يلفنى عودته متى عاد برسالة يودعها احدى صديقتى المخلصات التى تجهل عنا كل شىء ، فاذا لم يستطع أن يكتب لأن المرء لا يقدر أن يقول كل شىء فى رسالة ، جاء الى هذا المكان نفسه يوم وصوله ذاته فى الساعة العاشرة • ولقد بلغنى بأ وصوله • ولكننى لم أتلق منه شيئاً ، ولست أستطيع أن أترك جدتى فى الصباح ، فانقل أنت هذه الرسالة الى صديقتى غدا فى ساعة مبكرة ، فتولى هى ارسالها اليه ، فاذا جاء منه جواب ، حملته الى بنفسك فى مساء غد •

- ولكن الرسالة لا بد من كتابتها ، فلن نستطيع أن نتلقى الجواب  
اذن الا بعد غد •

فأجابت تقول وقد اضطربت بعض الاضطراب :

- الرسالة ••• الرسالة ••• ولكن •••

ولم تتم كلامها بل أشاحت وجهها واحمرت حتى أصبحت بلون الورد ، ثم اذا أنا أشعر برسالة توضع فى يدي • لا شك أنها كتبت وختمت منذ مدة ؛ وبرقت فى خيالى ذكرى حبيبة لطيفة :

- رو ••• زين

كذلك غنيت ، ثم غنياً معاً روزين ، وأوشكت أن أعانقها فى غمرة هذا الفرح الذى ملأ نفسى • وكانت قد ازدادت احمراراً • وهى تضحك الآن من خلال دموعها التى ترتعش على أهدابها الجميلة كأنها الآلىء •

وقالت أخيراً بسرعة :

كفى •• كفى ! •• الى اللقاء ! اليك الرسالة ! واليك العنوان الذي  
سننقلها اليه ! الى اللقاء ! الى الغد ! وضغطت يدي ضغطاً قوياً ، وجيتي  
مودعةً بحركة من رأسها وانصرفت تشق طريقها نحو الجادة الصفرى  
كالسهم سرعةً •• لبثت فى مكانى زمناً طويلاً أشيّعها بنظراتى •

— الى الغد ! ••

كذلك ترجعت هذه الكلمات فى نفسى حين غابت عن بصرى •

## السلسلة الثالثة



النهار حزينا ممطرا لا تتخلله فترات صحو ، كما  
ستكون شيخوختي • ان أفكارا غريبة قد عذبت  
روحي وان مسائل مبهمه مضطربة قد هزت  
فكري ، وأنا لا أقوى على حلها ، لا ولا أرغب

في حلها •

لن نلتقي اليوم • وحين افرقنا أمس كانت السحب تغطي السماء  
وكان الضباب ينتشر في الفضاء • قلت لها : ان الجو سيكون في الغد رديئا •  
فلم تجب بشيء • ذلك أن هذا النهار سيكون مشرقا بضوء الشمس في  
نظرها ، فما من غيمة يمكن أن تعكر سعادتها • لقد قالت لي :

— اذا أمطرت فلن نلتقي لأنني سأمكت في بيتي •

ولكنني أمّلت أن لا تظن الى هطول المطر ، وأن تأتي مع ذلك •  
وأمس كان لقاءنا الثالث ، كانت ليلتنا البيضاء الثالثة • لشد ما يتفتح  
الانسان ويزدهر ويزداد جمالا حين يملأ الفرح قلبه وحين تفيض نفسه  
بالسعادة !

وكان القلوب تريد أن ينتشر بعضها في بعض ، فترغب أن ترى من ،

حولها البهجة والضحك ! وما أشد سرعان هذا الفرح بالعدوى !  
كان في أقوال ناستنكا لى كثير من حنان وطيبة وحذب .. وكانت  
نفسها تفيض مداراة لى ، فهي تلاطنى وتشجع قلبى . وما أروع الفتنة  
الإخاذة فى ذلك الدلال والتنج الذين كانت سمادتها تضيفهما عليها ؟  
حتى لقد نسيت ... فخطر ببالى فى بعض اللحظات أن ...

يا رب ! كيف أمكن أن يدور فى خلدى ذلك ! كيف أمكن أن  
أكون أعمى هذه العماوة كلها ، بينما لم يكن شىء لى أنا ، وكان كل شىء  
للآخر . لم يكن حنانها على ولم تكن ملاطفتها لى ولم يكن حبها اياى ،  
لم يكن هذا كله الا ثمرة فرحها بلقائها القريب مع ، والا الرغبة فى  
اشراكى فى سعادتها . فلما رأت انه لم يأت ، وأنا انتظرنا عبثا ، غدت  
قائمة خجلة وجلة . لم تمد حركاتها ولا أقوالها منطلقة خفيفة فرحة كما  
كانت من قبل . والغريب أنها ضاعفت ملاطفتها لى كأنها تريد على غير  
شعور منها أن تملأنى بمخاوفها وبرغبتها . وفجأة بلغت صغيرتى ناستنكا من  
فرط الحجل والحشية والخوف أنها أدركت أخيرا فيما أعتقد أننى أحبها ، واننى  
أسفق على حبى البأس . فكذلك نحن : نشعر بألم الآخرين شعورا أعمق  
حين نكون أشقياء معذبين . ان عاطفتنا تشد عندئذ وتقوى ...

لقد جئت اليها طافح القلب . وقاسيت كثيرا من العناء فى انتظار  
لحظة اللقاء . لم أكن أتنبأ بما سأشعر به حين ذاك ، ولم أكن أوجس  
الحائمة ، وكانت هى مشرقة الوجه تنتظر جوابه . وكان الجواب أن  
يحضر هو نفسه ، الانسان الذى تحبه . وصلت قبلى بساعة ، فكانت فى  
أول الامر تضحك لكل شىء ، لكل كلمة من كلماتى . وقد بدأت أتكلم  
ثم سكت فجأة .

قالت :

– هل تعلم لماذا أنا سعيدة هذه السعادة كلها برؤيتك ؟ هل تعلم  
لماذا أحبك هذا الحب كله ؟  
قلت وقد اختليج قلبي :  
– لماذا ؟

– اننى أحبك لأنك لم تقع فى حبي • لو كان شخص آخر غيرك  
فى مكانك لما تركنى وشأنى هادئة البال بل لعذبنى عذابا شديدا ولسقط  
مريضا ••• انك طيب جدا •

قالت ذلك وضغطت يدي ضغطا بلغ من القوة أننى كدت أصرخ •  
وانفجرت ضاحكة • قالت بعد لحظات بصوت رصين :

– ولكنك صديقى ، أرسلك الله الى • ما كان عسى أن تصير اليه  
حالى لولاك الآن ؟ ألا ما أعظم اخلاصك وتنزهك عن الغرض ! ألا ما أظهر  
عاطفتك وأصفاها وأنقاها ! حين سأتزوج سنبقى صديقين ، سنبقى كأخوين  
بل أكثر • وسأمحضك من الحب بقدر ما أمحضه هو تقريبا ••

حزنت حزنا رهيبا وأنا أسمع هذه الكلمات • ومع ذلك فان شيئا  
يشبه أن يكون ضحكة داخلية قد تحرك فى نفسى • قلت لها :  
– أنت خائفة • انك تقدرين أن الآخر قد لا يأتى ، أليس كذلك ؟  
أجابت :

– ما هذا الكلام الذى تقول ؟ لو كنت أقل سعادة فلربما كنت أبكى  
من سوء ظنك هذا ومن ملاماتك هذه ا على أنك قد أثبتت فى نفسى معانى  
سأفكر فيها فى المستقبل ، بل اننى أستطيع أن أعترف لك منذ الآن بأن  
فيما قلته شيئا من حق • اننى أنتظر ، وأحسب أننى مسرفة فى الابتهاج  
والفرح • ولكن كفانا حديثا عن العواطف ا

وسمنا فى هذه اللحظة وقع خطوات ، وظهر لنا رجل فى الظلام •

كان مقبلا علينا • ارتجفنا كلانا • وأوشكت هي أن تطلق صرخة • تركت يدها • وأردت أن أنصرف • ولكننا كنا قد أخطأنا الظن فإنه لم يكن هو القادم •

قالت وهي تمد اليَّ يدها من جديد :

- لماذا هذه الخشية ؟ لماذا نبذت يدي ؟ لسوف نراه معا • اني أريد أن يرى كم يجب أهدنا الآخر •

صحت أقول :

- كم يجب أهدنا الآخر ؟

وقلت في نفسي : « آه يا ناستنكا ! ما أكثر الأشياء التي كشفت عنها في هذه الأقوال ! ان هذا الحب يجمد القلوب ويشجى النفوس • ان يدك باردة ويدي تحترق كالجمر ! ما أعماك يا ناستنكا ! ... ألا ان السعداء لا يطاقون ولا يحتملون ! ولكنني لا أستطيع أن أزعل » •

وطفح قلبي أخيرا وقلت :

- اسمعي يا ناستنكا ! هل تعلمين كيف قضيت نهاري ؟

- كيف قضيت نهارك ؟ فل بسرعة ... لماذا ظللت صامتا حتى

الآن ؟

- أولا : قمت بما كلفتنى به يا ناستنكا • نقلت الرسالة الى صديقتك

نم عدت الى بيتي فرقدت ...

قاطعتني ضاحكة :

- أهذا كل شيء ؟

أجبتها وأنا أكظم انفعالى الذى فضحته دموع غبية ترقرقت فى

عينى :

- نعم هذا كل شيء تقريبا ... واستيقظت قبل أزوف موعدا  
بساعة ، وكان يخيل الى أنى لم أنم • لا أدرى ماذا حدث لى • لم يبق  
للزمان عندى وجود ، بعد أن أصبح كل احساس فريد أعانيه وكل شعور  
جديد أكابده لا بد أن يبقى فى نفسى الى الأبد ! لكأن الحياة كلها قد  
توقفت • وتراعى لى حين استيقظت أنى اسمع منذ مدة طويلة أغنية  
رخيمة عذبة كأنها كانت منسية ، وكأنها كانت تريد أن تنطلق من نفسى  
منذ الأبد ...

فاطعتنى ناستكا تقول :

- رياه ! ماذا دهالك ؟ اننى لا أفهم ...

- أردت أن أطلعك على هذه العواطف الغريبة •

كذلك أجبتها بصوت شاك يخفى فيه أمل بعيد جدا •

فقلت وقد حزرت الماكرة الصغيرة ما أريد أن أقوله فوراً :

- كفى ! اسكت ! ...

وسرعان ما أصبحت طليقة اللسان كثيرة الكلام فرحة النفس عابثة  
متخابثة • فتناولت ذراعى ، وأخذت تضحك ، ثم تضحك ، وتسالنى أن  
أضحك أيضاً ، وأصبحت كل كلمة من كلمتى الحجيلي تثير فيها هذا  
المرح الصاحب نفسه ... وبدأت أشعر بشيء من الغضب • لقد كانت  
حينئذ فتاة مغناجا •

قالت :

- هل تعلم أننى مستاءة قليلا من أنك لم تتوله بحبى • ما أصعب



فهم الرجل ! ولكنك يا أيها السيد الصامد لا تستطيع الا أن تحمد لي  
بساطتي • فأنا أقول كل شيء ، أية كانت السخافة التي تخطر ببالي •

قلت وأنا أسمع أصوات الناقوس البطيئة تترجع في برج المدينة :  
- أعتقد أن الساعة الحادية عشرة تدق •

فصمت فجأة ، وأخذت تعدُّ دقائق الساعة ، وقالت أخيرا بصوت  
متردد خجلان :

- نعم هي الساعة الحادية عشرة •

ندمت على أنني أزعجتها واضطرتها الى عد دقائق الساعة ، ولت نفسي  
على روح الشر هذه التي دفعتني الى ذلك • أشفقت عليها فأخذت أهدئها  
محاوولا أن أعلل غياب ذلك الذي كانت تنتظره • وجدت براهين  
واستخلصت نتائج ، وما من أحد يمكن أن يُخدع بأيسر مما كان يمكن  
أن تُخدع به هي في تلك الساعة • ذلك أن جميع الناس في مثل هذه  
اللحظات يصفون فرحين الى العزاء الممكن ، بل الى ظل عندي يخطر  
بالبال •

وتابعت أقول :

- نعم ليس في هذا غرابة • ما كان يمكن أن يأتي ! لقد ضللتني  
يا ناستكا ••• لذلك أخطأت تقدير الزمان ••• انه لم يكد يستلم  
الرسالة • فافرضي أنه لا يستطيع أن يجيء وأنه يريد أن يرد برسالة ،  
ففي هذه الحالة لا يمكن أن تصل رسالته الا غدا • سأمضي أستلمها في  
ساعة مبكرة جدا من صباح الغد • فأثبتك بذلك على الفور • ثم ان هنالك  
ألف احتمال ممكن : فلعله لم يعد الى البيت ، فلم يستلم الرسالة • كل  
شيء يمكن أن يحدث •

أجابت :

- نعم نعم اننى لم أفكر • كل شىء يمكن أن يحدث •  
وكانت تتكلم سريما بصوت حذرت فيه فكرة مختلفة بعيدة •  
وأضافت تقول :

- اذن ستذهب فى أيك ساعة نم تبتشى هل هنالك شىء • أنت  
تعرف عنوانى •

قالت ذلك وكررت ذكر عنوانها نم أصبحت دمنة لطيفة خجولة  
معى ••• وكانت تصنى الى باتباه ولكن حين سألتها سؤالا على حين فجأة  
سكنت وأشاحت بوجهها ، فلما نظرت فى عينيها أدركت أن ما خطر ببالى  
صحيح ••• لقد كانت تبكى حقا •

- ما هذا ؟ ألا انك لطفلة ! لا تبكى ، أرجوك !

فحاولت أن تبسم ، ولكن ذقنها كانت ترتجف وكان صدرها يهد  
لاهنأ •

قالت بعد دقيقة صمت :

- اننى أفكر فىك • انك طيب القلب نبيل النفس • أياكون قلبى من  
حجر فما أثار من ذلك ؟ هل تعلم فىم أفكر ؟ لقد وازنت بينكما فى  
ذهنى • لماذا ليس هو أنت ؟ لماذا لا يشبهك ؟ انك خير منه ، رغم أننى  
أحبه أكثر مما أحبك •

لم أجب بشىء وكان يبدو أنها تنتظر جوابى •

قالت :

- لعلنى لم أفهمه بعد فهما كافيا • اننى لا أعرفه معرفة تامة • كنت

أخشاه دائما ، فقد كان شديد الجِد ، أشبه بالمتكبر ، ولكنه يظهر بهذا المظهر ، أما قلبه فأرق من قلبي .. انتى أتذكر نظرتيه حين جثت اليه حاملة صرتى .. انتى أحترمه كثيرا . انه أعلى منى .

- لا يا ناستكا ! أنت تحيينه أكثر من أى شىء فى العالم ، تحيينه أكثر كثيرا مما تحيين نفسك .

أجابت بسداجة :

- نعم ، ربما ،،، ولكن اسمع ! لن أتحدث عنه بل سأقول كلاما عاما ،،، انتى أفكر فى هذا الامر منذ زمن طويل : لماذا لا نكون جميعا كاخوة مع اخوة ؟ لماذا يحتفظ دائما أفضلنا بسر فى نفسه ؟ لماذا هو يلزم الصمت ؟ لماذا لا يقول احدنا فورا كل ما فى قلبه حين يكون واثقا أن الآخر سيفهمه ؟ ان جميع الناس يبدوون أقسى كثيرا مما هم قساة فى الواقع ، ويتخيلون أنهم يخفضون قيمة عاطفتهم اذا هم عبروا عنها بسرعة مسرقة .

- آه يا ناستكا ! انك على حق ! ولكن البواعث كثيرة . لقد شعرت أنا نفسى أن على فى هذه اللحظة أن أحرص طائفة كبيرة من العواطف .

أجابت بانفعال :

- لا .. لا .. أنت لا تشبه الآخرين .. لا أعرف كيف أقول لك ما أشعر به ..

قالت ذلك ثم أضافت خجلة وهى ترمقنى بنظرة مختلسة :

- انك الآن تضحى بنفسك فى سبيلى ! واغفر لى أن أخاطبك على هذا النحو ،،، ولكننى فتاة بسيطة لم أر الناس الا قليلا ، ولا أعرف دائما أن أعبر عما بنفسى كما يجب أن أعبر عنه . ( قالت ذلك بصوت

مرتعش تخفتى وراءه عاطفة قوية وكانت تحاول أن تتسهم ) • ولكننى  
أريد أن أفصح لك عن كل امتنانى وشكرى •• انتى أحسن بكل ماتفعله •  
وأسأل الله أن يهب لك السعادة جزاء هذا النيل وهذه الشهامة ••• ان  
ما قصصته علىّ فى ذلك اليوم عن الرجل الحالم لا يتناولك قط • أنت  
الآن أحسن حالا • لقد تغيرت فلم تبق ذلك الرجل الذى وصفته لى • اذا  
أحييت يوما فانتى أتمنى لك أن تتمتع بالسعادة الكبرى التى تستحقها ،  
ولست أتمنى لها هى شيئا ، لأنها ستكون سعيدة معك • أنا أعرف ذلك ،  
فأنا امرأة وفى وسعك أن تصدق ما أقول •

فرغت من الكلام وصمتت وضغطت يدى ضغطا قويا ، وبلغت أنا من  
شدة الانفعال أننى لم أستطع أن أجيب •

••• واتقضت لحظات

قالت أخيرا وهى ترفع رأسها :

– لن يأتى اليوم فالوقت متأخر •

فقلت لها بصوت جازم ولهجة قاطعة :

– سيأتى غدا •

فقلت جذلى :

– نعم ! أنا مقتنعة بذلك ••• الى اللقاء ! الى الغد ! وقد لا آتى اذا

أمطرت السماء ، ولكننى سأجىء بعد غد ، مهما يقع لى ، فتعال حتما ،

فانتى أريد أن أراك لأتحدث معك أيضا •

فلما افترقنا مدت الىّ يدها وتمتمت وهى تنظر فى عيني :

– لأننا سنظل دائما معا ، أليس كذلك ؟

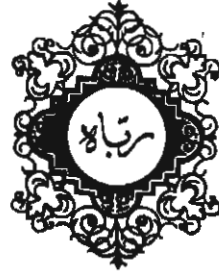
- آه يا ناستكا ! لو علمت كم أنا وحيد الآن •

حين دقت الساعة التاسعة لم أستطيع أن أمكث في غرفتي ، فارتديت ثيابي ، وخرجت رغم سوء الجو ، وذهبت الى هناك أجلس على مقعدنا • وأردت أن أجتاز شارع بيتهم ولكنني خجلت • فرجعت دون أن أنظر الى نوافذ البيت ، رجعت الى غرفتي وقد استبد بي كرب شديد لم أعرف مثله في حياتي قط • وكان الجو كالمعاجم رطباً ، ولولا ذلك لخرجت أتتزه على شواطئ النهار طول الليل ••

ولكن الى الغد ، الى الغد ، غدا ستقص عليّ كل شيء •

ومع ذلك لم تصل منه رسالة اليوم • ولكن أليس هذا في طبيعة الامور • انهما الآن معا •

## الليلة الرابعة



يا لتلك النهاية التي انتهى اليها ذلك الأمر كله !  
جئت في الساعة التاسعة • كانت هناك • رأيته  
من بعيد • انها متكئة على افريز الجسر كما كانت  
متكئة عليه في اليوم الاول • ولم تسمع وقع  
خطواتي وأنا أقرب منها • ناديتها مجاهدا نفسي للتغلب على انفعالي •

– نامتكا !

فالتفت بسرعة وسألتي قائلة :

– هيه ! هيه ! قل •• أسرع •

فنظرت اليها مشدوها •

– أين الرسالة ! أهى معك ؟

كذلك رددت تقول مستندة على الافريز •

قلت أخيرا :

– لا ! ليس معي أية رسالة • ألم يأت هو اذن ؟

شعب لونها شحوبا رهيبا • ولبتت تنظر الى جامدة لا تتحرك زمنا

طويلا • لقد حطمت آخر رجاء لها •

وتمتت أخيرا تقول :

- طيب .. لا باس .. فليفعل ما يشاء . ما دام يهجرني هكذا ...  
وخفضت عينيها ، ثم أرادت أن ترفع بصرها نحوى ، ولكنها لم  
تستطع . جاهدت انفعالها بضع لحظات أخرى ، ثم وضعت كوعها على  
افريز رصيف النهر وأجهشت تبكى منتحبة .

قلت لها :

- هدنى روعك ! هدنى نفسك ! أرجوك .. أضرع اليك .  
ولكننى لم أقو على الاستمرار فى الكلام . وما كان عسانى أن أقول  
لها ؟ قالت من خلال دموعها :

- لا تحاول أن تعزىنى وأن تواسينى . لا تحدثنى عنه بعد الآن !  
لا تقل لى بعد هذه اللحظة انه سيأتى وانه لم يهجرنى بقسوة ! ... لماذا ؟  
لماذا ؟ اتنى لم أكتب اليه شيئا فى تلك الرسالة . ما كان لتلك الرسالة  
الشقية أن ...

وعلا نحيبها فلم أستطع أن أسمع تمة كلامها ، وكان قلبى يتمزق  
وأنا أنظر اليها .

وعادت تقول من جديد :

- ما أقسى هذا ! تلك قسوة فوق قدرة الانسان على احتمال القسوة .  
أما من سطر ؟ أما من كلمة ؟ كان فى وسعه أن يجيب بأنه فى غير حاجة  
الى . كان فى وسعه أن يصدنى . ولكنه لم يفعل شيئا طوال هذه الايام  
الثلاثة . ما أسهل عليه أن يندل وأن يؤذى فتاة مسكينة عزلاء كل ذنبها  
أنها تحبه ! آه كم قاسيت من آلام فى هذه الايام الاخيرة ! يا رب يا رب!

يا رب .. لا أريد أن أتذكر أنني جئت إليه وأقبلت عليه وأذلت نفسي أمامه وتضرعت باكية أسأله قليلا من حب ... وماذا بعد ؟

قالت ذلك ثم أردفت وهي تنظر الىّ وقد سطعت عيناها السوداءوان :

- ولكن اسمع ! ما ينبغي أن يكون الامر هكذا ! ذلك غير طبيعي ! لا بد أن أحدنا قد أخطأ ... لعله لم يتلق الرسالة ... لعله يجهل كل شيء حتى الآن ... ما رأيك ؟ مستحيل أن يكون الامر غير ذلك ! اسرح لى ، أرجوك ... أنا لا أستطيع أن أفهم سلوكا يبلغ هذا المبلغ من القسوة ... هل يعقل أن لا يكتب لى كلمة واحدة ؟ فأين الشفقة بالبشر اذن ؟ أيكون أحد قد قال له سوما فى حقى ؟ ( كذلك صاحت ) ما رأيك ؟

- ناستنكا ! سأذهب اليه غدا موفداً منك •

- ثم ماذا ؟

- سأسأله أن يقول لى كل شيء ... وأحكى له ...

- ثم ماذا ؟ .. ثم ماذا ؟

- اكتبى له رسالة أخرى ... لا تقولى لا • لا ترفضى • سوف

أجبره على احترامك يا ناستنكا • وسوف نعلم كل شيء .. واذا ..

- لا يا صديقى ، لا ! كفى ! لن أكتب له كلمة واحدة ... لن

أكتب له سطرا واحدا ... كفى ! اتنى لا أعرفه ... أصبحت لا أحبه

.. سوف أنساه ... و

لم تتم جملتها •

قلت لها وأنا أجلسها على المقعد :

- هدئى نفسك ، هدئى نفسك ، اجلسى هنا •



- أنا هادئة • كفى ! لا ضير ••• هي دموع ثم تجف ••• أنظن  
أنتى سأنتحر؟ أتحسب أنتى سوف أرمى نفسى فى الماء؟

كان قلبى طافحا • أردت أن أتكلم ، ولكننى لم أقو على قول كلمة  
واحدة •

وتابعت تقول وهى تتناول يدى :

- اسمع ! لو كنت فى مكانه أكنت تصرف تصرفه ؟ أكنت تنبذ الفتاة  
التي جادت اليك من تلقاء نفسها ؟ أكنت تصب احتقارك على قلبها الضعيف  
الغيبى ؟ أما كنت تحمى هذه المرأة ؟ أما كنت تذكر أنها وحيدة ليس لها  
من يرشدها ويسدد خطاها ، ولا هى قادرة على مجاهدة حبها لك ؟ وليس  
لها من ذنب ••• ليس لها من ذنب ••• ولم تصنع شيئا يمكن أن •••  
آه ! يا رب ! يا رب !

صحت أخيرا أقول وقد أصبحت عاجزا عن السيطرة على انفعالى :

- ناستكا ! انك تمزقين نفسى ! انك تحطمين قلبى ! انك تقتلينى  
يا ناستكا ! أصبحت لا أطيق أن أصمت ، ولا بد لى أن أقول أخيرا كل  
ما يخفى هنا فى قلبى •••

وكنت قد نهضت عن مكاني فتناولت يدى ونظرت الى " مدهوشة  
وسألتنى :

- ما بك ؟

قلت بصوت حاسم :

- اسمعنى يا ناستكا ! ان كل ما سأقوله لك الآن سـخـيف غـبـى  
لا سبيل الى تحقيقه • أنا أعلم أن هذا لا يمكن أن يقع ، ولكننى لأستطيع

أن أصمت فباسم آلامك وما تقاسين من ألوان العذاب ، أضرع اليك أن  
تغفري لى •••

سالتنى وقد انقطعت عن البكاء والتمتع فى عينها الاستطلاع :

- ما الذى تريد أن تقوله لى ؟

- هو أمر لا يتحقق ••• ولكننى أحبك ••• هأنذا قد قلت كل  
شئ ( وحركت يدى بإشارة معبرة ) فهل عليك بعد الآن أن تبوحى لى  
بشئ ، أن تفضى الى بسر من أسرارك ، وأن تصغى الى ما سأقوله لك •

قاطعتنى تقول :

- لم لا ؟ أنا أعرف منذ زمان أنك تحبنى ، ولكن كان يخيل الى  
أنك تحبنى هكذا ••• حبا بسيطا ••• آه يا رب ! يا رب !

- كان الامر بسيطا فى البداية • أما الآن فأنا أشبه ناستنكا حين  
صعدت الى صديقها حاملة صرتها ، بل شأنى أسوأ الآن من شأن ناستنكا •  
فصاحبك لم يكن يحب أحدا حينذاك ، أما أنت فتحيين •

- أصبحت لا أفهمك البتة • فميم هذه الكلمات ؟ هذه أقوال لا داعى  
اليها • ولماذا تقولها على هذا النحو المبالغت ؟ يا رب ! ما هذه الحماقات التى  
أنطق بها ! ••• ولكنك •••

اضطربت ناستنكا كل الاضطراب واحمرت احمرارا شديدا وخفضت  
عينها •

- ولكن ما حيلتى يا ناستنكا ؟ أنا مذنب ••• لقد أسأت استعمال الثقة  
التي محضتى اياها ••• لا بل لست أنا بالمذنب ••• اننى أحسن بذلك •

قلبي يقول انى على حق • أنا لا يمكن أن أسىء اليك فى شيء • كنت صديقك وما زلت • ألم أخن لك عهدا • انظري يا ناستنكا : اننى أبكى أيضا • فلتهمر دموعى • انها لا تؤذى أحدا • انها ستجف يا ناستنكا •

قالت وهى تدفنى الى المقعد :

- اجلس •• اجلس •• آه ! يا رب ••

- لا يا ناستنكا • لن أجلس • ما ينبغي لى أن أبقى هنا • ولن ترينى بعد الآن • سأقول لك كل شيء ثم أنصرف • لو قد استطعت أن أسيطر على نفسى لما عرفت يوما أننى أحبك ، ولكتمت عنك سرى ، ولما عذبتك الان بأنانيتى • كنت أنت البادئة بالكلام ، فأنت المذنبه اذن ، ولا يمكنك أن تصدينى •••

قالت البنية المسكينه وهى تخفى اضطرابها ما وسعها ذلك :

- ولكننى لا أصدك ، لا •• لا ••

- أنت لا تطردينى • كلا • ولكننى كنت أود أن أهرب من تلقاء نفسى • على أننى سوف أنصرف بعد أن أقول لك كل شيء • اننى لم أستطع أن أحتمل رؤيه دموعك منذ برهة ، وأن أطيق هذا اليأس الذى هويت اليه حين شعرت أنك محترقة وحين أحسست أن حبك منبوذ • لقد شب فى قلبى حب كبير يا ناستنكا ، حب كبير جدا لك ، وآلمنى أن لا أستطيع شيئا • آه من هذا الحب ! ••• وتمزق قلبى ولم أطق أن أسكت ، فكان لا بد أن أتكلم يا ناستنكا •

- نعم •• نعم •• تكلم •• تكلم •• أرجوك أن تتكلم • قد يبدو لك هذا الرجاء غريبا •• ولكن تكلم وسأشرح لك بعدئذ كل شيء ••

قالت ذلك بلهجة لا أملك أن أصفها :

- انك تشفقين علىّ يا ناستكا • ان شفقتك وحدها هي التي تتكلم  
الآن يا ناستكا • ما وقع فقد وقع • ولا عودة الى الماضي ! هانت ذى  
تعرفين الان كل شيء • ولكن اصغى الى ايضا • حين كنت تبكين كنت  
أقدر - ولكن دعيني اعبر عن فكرتى - كنت أقدر انك •• كنت أحسب  
على نحو من الانحاء أنك أصبحت لاتحيينه ، وعندئذ ( وأنا منذ يومين  
اثنين لا افكر الا فى هذا ) كان يمكن ان أفعل كل شيء فى سبيل ان  
تحيينى • فلقد قلت انت نفسك يا ناستكا انك تحيينى يا ناستكا ! هأنذا  
قد أنهيت كلامى ، ولم يبق على الا ان أقول ما الذى سيحدث اذا احببتى  
فصلا • ذلك كل ما بقى علىّ أن أقوله ولا شيء سواه • فاستمعى الىّ اذن  
يا صديقتى الصغيرة - وأنت صديقتى على كل حال : أنا رجل فقير بسيط  
لا قيمة له ( وليس الأمر أمرَ هذا على كل حال ، ولكننى لا أستطيع أن  
أخرس خجلى ) غير أن فى وسمى ، لو قد أحببتى ، أن أحبك حباً يبلغ  
من القوة أن هذا الحب ما كان ليبدو لك شاقاً متعباً ، حتى ولو ظلمت  
تفكرين فى الآخر • كل ما هنالك أنك كنت ستشعرين فى كل لحظة  
بوجود قلب معترف بالجميل ممتلىء حرارة يخفق الى جانب قلبك • آه  
يا ناستكا ! آه ياناستكا ! ماذا صنعت بي ؟

قالت ناستكا وهي تنهض :

- لا تبك ! •• لا أريد أن أرى دموعك •••

ثم أضافت تقول وهي تجفف دموعها بمنديلها :

- تعال • تعال معى •• سأقول لك كلاماً آخر •• لقد هجرنى ••

لقد نسيئى •• ورغم أننى ما زلت أحبه فاتنى لا أستطيع أن أخفى ذلك ••

قل لى : لو أحببتك ... آه يا صديقى ، يا صديقى المسكين ! ما أشد ما آذيتك فى ذلك اليوم حين عبثت بعاطفتك وهنأتك على أنك لم تتوله بحبى ! يا رب ! كيف أمكن أن لا أتنبأ بهذا ؟ ... والآن قررت أن أعترف لك بكل شىء ..

- اسمى ياناستنكا • سأصرف • اننى أعذبك • هذا ضميرك يتألم منذ الآن من أنك لم تفهمى حبى • اننى لا أريد أن أزيد حزنك حزناً ... لا ، أنا المذنب يا ناستنكا ، الى اللقاء •

- انتظر ... اسمع ... هل تستطيع أن تنتظر ؟

- أنتظر ماذا ؟

- اننى أحبه ، ولكن هذا الحب سينقضى ، سيزول ، بل انه ينقضى منذ الآن ... أنا أحس ذلك ... ومن يدرى ؟ ... فلعل هذا الحب سينتهى فى هذا اليوم نفسه ، لأننى أكرهه ما دام قد احتقرنى • أما أنت فقد بكيت هنا معى • ولو كنت فى مكانه لسا نبذتنى ، لأنك تحبى حبا صادقا ، ولا كذلك هو ... فانه لا يحبى ... الخلاصة ... اننى أحبك ... نعم أحبك كما تحبى ... سبق أن قلت لك ذلك ... أنت تعلم هذا ... أنت خير منه ... أنت أنبل منه .. فانه هو ..

بلغ انفعال البنية المسكينة أنها لم تستطع أن تتابع كلامها ، فألقت برأسها على كتفى ، وأجهشت بأكية • واستها ، حاولت أن أهدئها ، ولكن محاولاتي لم تنفع • كانت ما تزال تضغط يدي ، وتقول من خلال التشجيع : انتظر • انتظر • لقد انتهى الأمر • لا يذهبن بك الظن الى أن دموعى ناشئة عن ... لا ... فما هى الامن الضعف ... انتظر لقد انتهى كل شىء • • • وهدأت أخيراً ، وجففت دموعها وتابعا طريقنا ،

وأردت أن أكلمها ، ولكنها رجعتي أن أصمت لحظة أخرى • صمتنا ،  
فما هي الا برهة ، حتى بذلت جهدا وأخذت تتكلم • قالت بصوت ضعيف  
مرتضئ ، ولكنه صوت يترجع فيه شيء طعن قلبي وأحدث في نفسي المآ  
لذيذاً :

- اسمع ! لا تحسب أنني خفيفة القلب متقلبة العاطفة ! فأنا لا  
أستطيع أن أفسى بمثل هذه السرعة ، وأن أخون بمثل هذه السهولة ••  
لقد أحييته سنةً بكاملها •• ويميناً ما خنت عهده مرة ولو بالخيال ! وقد  
احتقر هو هذه العاطفة فله ما يشاء ، ولكنه جرحني وأذل قلبي فأصبحت  
لا أحبه •• لأنني لا أستطيع أن أرتبط الا برجل نبيل ، برجل يفهمني ،  
برجل شريف • هكذا خلقت • انه غير جدير بي ، وما وقع فهو  
خير • فلعل آمالي كانت ستخيب حين أعرفه على حقيقته ••• ولعل حبي  
لم يكن الا خطأ من أخطاء الحواس ووهما من أوهام الخيال • وأغلب  
ظني أن اسراف جدتي في مراقبتي ومحاصرتي كان هو السبب الوحيد  
الذي حملني على أن آخذ هذه العاطفة مأخذ الجد • ولعل واجبي كان  
يقضى على أن أحب رجلاً آخر ، رجلاً آخر يشفق على ••• وأريد أن  
أقول لك اذا كنت تشاء رغم حبي لذلك الرجل ( حبي الماضي ) ••• اذا  
كنت تعتقد أن عاطفتك تبلغ من القوة أنها تستطيع أن تنسيني الآخر ، اذا  
كنت لا تريد أن تتركني لمصيري محرومةً من الأمل محرومةً من العزاء  
••• اذا كنت تريد أن تحبني دائماً كما تحبني الآن ••• فأنا أقسم لك  
أن امتانتي ، أن حبي ، سيكون جديراً بحبك ••• هل ترفض يدي ؟

فما ان سمعت هذا الكلام ، حتى صحت أقول والنشيج يهزني هزاً  
قويًا :

- ناستكا ! ناستكا ! آه يا ناستكا !

قالت :

- كفى ! كفى ! لقد قلت كل شيء . أليس كذلك ؟ أنت الآن سعيد ... اذن فاعلم أنني سعيدة أيضا ... ولا داعي الى كلمة واحدة أخرى . اشفق على ... تكلم في شيء آخر ... أرجوك .

- نعم يا ناستكا ، نعم ... أنا سعيد ... هياً هياً ... فلنتكلم في شيء آخر ... فلنسرع الى الكلام في شيء آخر ... أنا مستعد ... ولكننا لم نجد أى موضوع آخر يدور عليه الحديث . كنا نضحك ونبكي ونقول كلاماً لا تسلسل فيه ، نسير تارةً على الرصيف ، ثم نعود أدرأجنا مرة أخرى نجتاز الشارع ، ثم نتوقف ، ثم نرجع الى النهر من جديد ، كالاطفال ...

قلت :

- أنا أعيش الآن وحيداً يا ناستكا ! أما غداً ... أنت تعلمين أنني فقير .. وأن مواردى كلها تقتصر على الفِ ومائتى روبل فى السنة ... ولكن لا قيمة لهذا ..

- حتماً ، ولجديتى معاش ... فلن نكون فى عسر قط .. سنضم جدتى الينا .

- طبعاً سنضم الجدة الينا ... وعندى ماتريونا ...

- نعم ونحن عندنا تكلا .

- ان ماتريونا فتاة طيبة ... ولكن فيها عيباً : انها يموزها الخيال ، ليس لها خيال البتة . هل تفهمين ؟ ولكن لا ضير فى هذا .

- طبعاً . ستكونان كلتاها معنا ... ولكن تعال الينا منذ الغد .

- أجيء اليكم ؟ أتمنى ذلك . . . ولكن . . .

- بل تعال ! تستأجر عندنا غرفة . . . ان لدينا شقة صغيرة مؤثثة فوق . . . كانت تسكنها عجوز قصيرة سافرت منذ قليل . وأنا أعلم أن جدتي تؤثر أن يكون المستأجر الجديد فتى . وحين سألتها لماذا تؤثر ذلك أجابتي بقولها : « لقد طننت في السن يا ناستنكا ، ودلفت الى الشيخوخة ، ولكن لا يذهبن بك الظن أنتى أريد أن أزوجك منذ الآن . . . ، . . . وأدركت أنا . . .

- ناستنكا ! . . .

وانفجرنا نضحك كلانا .

- هيا ! كفى ! أين تسكن أنت ؟ لقد نسيت .

- هناك ، قرب جسر « . . . سكوى » فى منزل بارانيكوف .

- أهو منزل كبير ؟

- نعم هو منزل كبير .

- ها ! . . . نعم . . . أنا أعرف . . . انه منزل جميل . . . ولكن اتركه

وتعال الينا بأقصى سرعة .

- غداً يا ناستنكا غداً . اننى ما زلت مديناً لصاحبة البيت ببعض المال

. . . ولكن لا قيمة لهذا . . . سوف اتقاضى راتبى قريباً .

- اسمع ، لعلنى أستطيع أن أعطى دروساً ؟ أتلقى دروساً فى أول

الأمر ، ثم أعطى دروساً بعد ذلك .

- عظيم . . . وسأنال أنا مكافأة فى القريب يا ناستنكا . . .



- اذن تعال غداً وستكون جارى •

- نعم وسنذهب الى المسرح معاً ، نسمع « حلاق اشيلية » ،  
سيمثلونها قريباً •••

قالت ضاحكة :

- فكرة حسنة ، أو قل سنذهب الى المسرح نسمع شيئاً آخر •••

- نعم نسمع شيئاً آخر ••• انك على حق ••• لم يخطر ببالي هذا  
••• الافضل أن نسمع شيئاً آخر •••

كنا ونحن نتكلم هكذا نسير كلانا سيراً فى ضباب ، لا نفهم ماذا  
يجرى لنا • اجتزنا أحياء مجهولة ، وظللنا نمعن فى السير ثم نمعن فى  
السير ، نضحك ذلك الضحك نفسه ، ونذرف تلك الدموع نفسها •  
وأرادت ناستنكا فجأة أن تعود الى البيت ، فراققتها ، ولكننا وجدنا نفسينا  
بعد ربع ساعة على رصيف النهر قرب المقعد ••• كانت تتهد ، وكانت  
تنبجس من عينيها دموع • شعرت بوجل ، وتجمد قلبي ، ولكنها سرعان  
ما ضغطت يدي بيدها ، وجرتى من جديد لشمسى ، لشرى ، لتكلم ••  
قالت :

- آن لنا أن ننصرف ••• لا شك أننا تأخرنا كثيراً ••• كفانا  
صياية •

- نعم يا ناستنكا ! ولكننى لن أستطيع أن أنام ، ولن أعود الى  
بيتى ••

- وأنا أيضاً لن أستطيع أن أنام • ليس بى نعاس ولكن رافقنى •

- طبعاً •

- ذلك أنه لا بد للمرء أن يعود الى بيته •

- حتماً •

- أتقطع لى عهداً بذلك ؟ ••• ان على المرء أن يعود الى بيته عاجلاً  
أو آجلاً ••

قلت ضاحكاً :

- لك على هذا المهدي •

- اذن هيا

وسرنا • قلت :

- انظري الى السماء يا ناستنكا ! سيكون الجو فى الغد جميلاً ••  
ما أروع هذا القمر ! ما أروع هذه السماء الزرقاء ! انظري الى تلك  
الغمامة الصفراء ! انها سوف تفضى القمر ، ولكن لا ، انها تمر قريبةً  
منه • انظري ! لماذا لا تنظرين ••

لم تنظر ناستنكا الى الغمامة بل لبثت صامتة ، وكأنها مسمرة فى  
مكانها • وما هى الا لحظة قصيرة حتى شدت نفسها الى وجلة ، وكانت  
يدها ترتعش فى يدي • نظرت اليها ••• ازدادت التصاقاً بى •

وفى تلك اللحظة مرّ شاب قربنا ، وتوقف فجأة ، وخذقّ الينا ،  
وأقبل نحونا بضع خطوات أخرى • ارتجف قلبى ••• قلت أسأل ناستنكا  
بصوت خافت :

- من هذا يا ناستنكا ؟

فتمتت تقول وهى تزداد اقتراباً منى :

- انه هو ...

أوشكت أن أسقط على الأرض ...

صاح صوت خلفنا :

- ناستكا ! ناستكا ! أهذا أنت ؟

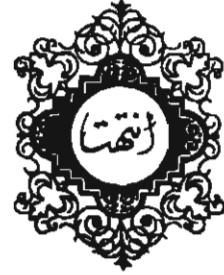
وفي هذه اللحظة نفسها جاء الشاب الينا ...

رباه ! يا لها من صيحة ! ماأشد ماارتجفت ناستكا ! واتزعزت ناستكا  
نفسها من بين ذراعى - وهرعت اليه ... نظرت اليها مصعوقاً ، وماكادت  
تمد يدها اليه ، ثم تعانقه ، حتى اندفعت نحوى سريعة كالرييح ، كالبرق ،  
ثم اذا هي ، قبل أن أتوب الى نفسى ، تمسك رأسى بيديها وتقبلنى قبلة  
قوية . ودون أن تقول كلمة واحدة ، عادت الى الآخر ، فأمسكت ذراعه  
وسارت معه ...

لبت أتابعهما بنظرى طويلا ... وما هى الا برهة حتى أصبحت  
لا أراهما .

## رسالة

ليالىً في ذلك الصباح • كان النهار حزيناً • •  
المطر يتساقط ، ويلطم زجاج نافذتى كثيراً كآبة  
الحداد • الظلام يخيم فى غرفتى ، وأنا أشكو من  
صداع فى رأسى ، وأعانى دواراً •



قالت لى ماتريونا :

- رسالة لك يا مولاي جاء بها ساعى البريد •

- رسالة ؟ ممّن ؟

كذلك صحت وأنا أثب من على كرسيى •

- لا أعرف يا مولاي • أنظر أنت ، فترى بنفسك •

فضضت الرسالة ، انها منها :

« اصفح عنى ! أتوسل اليك راحةً أن تصفح عنى ! لقد خدعتك

وكنت مخدوعة عن نفسي • كان ذلك حلاً • • • لشد ما تأملت من أجلك  
اليوم ! فاعفر لي ، اغفر لي ! • • •

« لا تتهمني ! لقد قلت لك انني سأحبك • وانى لأحبك الآن حقاً •  
بل انني أحبك مزيداً من الحب • ربه ! ليتني أستطيع أن أحبكما كليكما !  
لماذا لست أنت هو ؟ لماذا ليس هو أنت ؟

شقت هذه العبارة رأسي • • هذه أقوالك أنت يا ناستكا  
تعاودني • • • • •

والله يعلم ماذا كنت أحب أن أفعل في سبيلك ! انني أحس كم تألم •  
لقد أذلت 'عاطفتك' ، ولكنك لا تجهل أن المحب ينسى الاسامة • وأنت  
تحب •

« وانى لأشعر نحو حبك هذا بأعق الامتان ، وسيظل منقوشاً في  
ذاكرتي حلاً من أجمل الاحلام ، يتذكره المرء بعد اليقظة زمناً طويلاً •  
سأذكر دائماً تلك اللحظة التي فتحت لي فيها قلبك ، كما يفتح الأخ لأخته  
قلبه ، ثم قبلت قلبي الجريح لتحميه وتداويه وتشفيه • • • فاذا غفرت لي ،  
فان ذكراك ستعيش في نفسي تجملها عاطفة الامتان الأبدى هذه التي لن  
تزول يوماً • • سابقى وفيه لهذه العاطفة • لا أخون قلبي قط • فانه  
ثابت لا يتغير • وأنت تعلم بأية سرعة رجع هذا القلب الى ذلك الذي  
امتلكه الى الأبد •

« سوف نلتقي في المستقبل • ستجيء الينا ، ولن تهجرنا • سنظل  
صديقنا دائماً • سنظل أخى ، فاذا رأيتني ، فسوف تمد اليّ يدك ، أليس  
كذلك ؟ نعم سوف تناولني يدك لأنك قد غفرت لي ، ولست أشك في  
ذلك • انك تحبني كما كنت تحبني قبل الآن • آه ! أحبني ! ولا تركني !

لأننى ما زلت أحبك كثيرا فى هذه اللحظة وسأكون جديرة بمحبتك •  
سأكون خليقة بها يا صديقى العزيز • لقد حددنا الاسبوع المقبل موعدا  
لزواجنا • لقد عاد الى ممتلكاتنا ولم ينسى قط •••

« لا تزعجى اذا أنا حدثت عنى ، سنجي اليك كلانا وسوف تحبى ••

« اغفر لى وتذكرنى وأحببى عزيزتك :

### ناستنكا

قرأت الرسالة مرارا وانبعجت من عيني دموع • وأفلتت الرسالة  
من يدي أخيراً فأغمضت عيني •

- مولاي ا مولاي ا

كذلك قالت ماتريونا •

فسألته :

- ماذا يا عجوز ؟

قالت :

- انظر ! لقد نزلت نسيج العنكبوت • تستطيع الآن أن تتزوج ،  
تستطيع أن تدعى أصدقائك ، فاليك نظيف •

نظرت الى ماتريونا • انها ما تزال عجوزاً قصيرة ، شابة ، نشيطة •  
ولكن نظرتها بدت لى ميتة على حين فجأة ، ورأيت فى جبينها غصونا •••  
وتراءت لى الفرقة كلها عجوزا هرمة مثلها ••• الجدران والارض حائلة  
ألوانها • أنسجة العنكبوت تكاثرت • ونظرت من خلال النافذة فبدأ لى  
المنزل المقابل ( لا أدري لماذا ) قد دلف الى الشيوخة وحال لونه هسو

أيضاً ، وتقشّرت أعمدته واسودّت أطرافه ، وتشققت ، وصارت جدرانها  
ضاربة الى احمرار ، بعد أن كانت صفراء قائمة •••

فاما أن شعاعاً من شمس كان قد شق الغيوم لحظةً ثم عاد يختبئ  
تحت السحب المثقلة بالمطر ، فاذا كل شيء يترد مظلماً قائماً في نظري .  
واما أنتى أدركتُ في طرفة عين آفاق مستقبلى الحزين فرأيت نفسى  
على نحو ما أنا الآن بعد انقضاء خمسة عشر عاماً على ذلك العهد ، وقد  
شخت في هذه العزلة نفسها ، على هذه العزلة نفسها ، مع مائريونا هذه  
نفسها التى لم تجعلها هذه السنون كلها أكثر رهاقة •

وقد قلت لنفسى يومئذ : كفانى يا ناستكا ! لا أريد أن أنكأ جرحى  
بالذكرى • لا لن أحمل غيوماً قائمة الى سعادتك المضيئة الساجية ، لن  
أوقظ في قلبك الحسرات بملامات مرة ، لا ولن أثير فيه ظلاً خفياً من  
عذاب الضمير • لن أضطره أن يخفق حزينا في لحظات سعادتك وهناءتك  
•• لا لن أجمع الزهرات الحلوة التى ستضيفينها الى صفائك السود يوم  
تجيشين ممة الى الهيكل للزفاف • لا لن أفعل هذا أبداً ! ألا فلتنزل سماؤك  
مضيئة • ألا فلتنزل بسمتك مشرقة مطمئنة ، وبوركت يا من وهبت لحظةً  
من هناة وسعادة لقلبي الممتن الذى يعيش فى وحشة العزلة !

• لحظة بكاملها من سعادة ••• رباه هل تحتاج حياة انسان الى أكثر  
من هذا ؟ • •

بروختشين

۱۸۴۶



« بروخارثشين » \* : كتب  
دوستويفسكى هذه القصة سنة  
١٨٤٦ ، ونشرت في مجلة « حوليات  
الوطن » في شهر تشرين الاول  
( اكتوبر ) ١٨٤٦ ، مج ٤٨ .



سيميون ايفانوفتش بروخارتشين يشغل من مسكن  
أوستينيا فيدوروفنا ركناً هو أحلك أركانه ظلمة  
وأكثرها ضعة • انه رجل بلغ سن الكهولة ،  
عاقل حكيم ، لا يتعاطى شرب الخمر ، وهو  
موظف صغير ، يتقاضى مرتباً يتفق وكفاءاته • وكانت أوستينيا فيدوروفنا  
ترى أنه من غير اللائق أن تطالبه بأكثر من خمس روبلات في الشهر  
أجراً للركن الذي يشغله من مسكنها • كان بعض الناس لا يرون في  
رحابة صدرها هذه الا نتيجة حساب معين مقصود • ترى هل كان ذلك  
رغبةً منها في السخر من النمامين التاليين ؟ المهم أنها كانت تعامل السيد  
بروخارتشين معاملة انسان أثير عندها ، عزيز عليها ، ولكن فيما لا يجانب  
الخير ، ولا يجافى الشرف • يجب أن نذكر أن أوستينيا فيدوروفنا ، وهي  
من أجدر النساء بالاحترام وأميلهن الى البدانة ، عدا ميلها القوي الى أكل  
اللحم وشرب القهوة ، وعدا نفورها الشديد من أيام الصيام ، كان يسكن  
في بيتها مستأجرون أٌخَر • ولكن هؤلاء كانوا يدفعون ضعف ما يدفعه  
سيميون ايفانوفتش • كان هؤلاء الطائشون المربدون ، هؤلاء « العابثون

الأشرار ، قد سقط اعتبارهم فى نظر صاحبة البيت من سخرهم بها واستخفافهم بوضعها كأرملة ليس لها من يحميها أو يدافع عنها • ولولا أنهم كانوا يدفعون أجور حجراتهم فى مواعيدها لما ارتضت أن تؤويهم ، بل لما ارتضت أن تراهم •

ولقد أصبح سيمون ايفانوفتش عزيزا عليها أتيرا عندها منذ اليوم الذى نقل فيه الى مقبرة فولكوفو جثمان" كان أثناء حياته يحب الشراب جدا عظيما • ان هذا الشخص الذى أحيل على التقاعد - ولا أقول طرد من وظيفته طردا ، وذلك من قبيل الأدب - هذا الشخص ، رغم عينه المفقوة وساقه المقطوعة اللتين فقدتهما فى « حادثة شهامة وشجاعة » على ما كان يقول ، هذا الشخص كان قد حظى بجميع النعم التى كانت تستطيع أوستينيا فيدوروفنا أن تُنعم بها على أحد من الناس ولا شك فى أنه كان يمكن أن يظل عالة عليها زمنا طويلا لولا أنه مات على حين فجأة سكريا بلغ الدرك الأسفل من الأمان ، على أثر سكرة بلغت من الاسراف أنه لم يصح منها • حدث ذلك فى بيسكى يوم لم يكن عند أوستينيا فيدوروفنا الا ثلاثة مستأجرين تركها اثنان منهم بعد انتقال المسكن وتوسعه فلم يبق لها الا السيد بروخاتشين وحده •

لا أدرى أيجب أن نضع اللوم على عيوب السيد بروخاتشين التى لا شك فيها أم يجب أن نضعه على نقائص جيرانه : المهم أن العلاقات بينه وبينهم لم تكن على ما يرام منذ البداية • يجب أن نذكر أن المستأجرين الجدد لدى أوستينيا فيدوروفنا كانوا يعيشون كما يعيش اخوة حقا • كان بعضهم موظفين فى مكاتب واحدة ؛ وكانوا يتناوبون الحسارة بالمقامرة بعضهم مع بعض فى مطلع كل شهر ؛ وكانوا جميعا يحبون أن يتمتعوا بمباهج الحياة جماعة • وكان يحلو لهم فى بعض الأحيان أن يتحدثوا

فى شئون رقيقة أيضا ، رغم أن الأمور لا تجرى عندئذ بدون مشاحنات  
ومشاجرات ، ولكن الوثام ما يلبث أن يسود ، لأن الأحكام السابقة لا وجود  
لها فى هذه الجمهورية •

وابرز هؤلاء السادة مارك ايفانوفتش ، وهو رجل عاقل متبحر فى  
الآداب ، وأوبلافانيف وهو أحد المستاجرين ، وبريبولوفينكو وهو رجل  
يفيخ شهامة وبساطه • وهناك أيضا زينوبى بروكوفتش الذى كان هدفه  
الوحيد أن يصل الى المجتمع الراقى ، وأوكيانوف الكاتب فى المحكمة  
الذى أوشك فى لحظة من اللحظات أن يحظى بألاء أوستينا فيدوروفنا •  
وهناك شخص آخر هو كاتب فى المحكمة أيضا يقال له سودين ، وهناك  
البورجوازي كاتاريوف ، وآخرون • ولكن يظهر أن سيميون ايفانوفتش  
لم يكن له بينهم صديق •

لا شك فى أنه ما من أحد كان يريد له شرأ ، لا سيما وأن كل  
واحد منهم قد أنصفه منذ الأيام الأولى ، فعدّه انسانا طيب القلب دمت  
الخلق ، لا يَألف الناس كثيرا ، ولكنه امرؤ يوثق به ويُركن اليه • صحح  
أن له نقائصه وعيوبه ، ولكنهم كانوا يقدرون ان العيب الوحيد الذى قد  
يعاب عليه أنه امرؤ يعوزه الخيال تماما •

وعدا هذا العيب ، كان السيد بروخارتشين لا ينعم بمظهر من شأنه  
أن يخلّف فيمن يراه أثرا حسنا ، وبالمظهر انما يحلو للساخرين أن  
يتعلقوا أكثر ما يحلو • ومع ذلك لم يسبب له مظهره المنفرّ هذا  
نتائج تعود عليه بالضرر • والواقع أن مارك ايفانوفتش ، من حيث هو رجل  
عاقل ، قد أخذ على عاتقه أن يدافع عن سيميون ايفانوفتش ، حتى لقد  
جهر قائلا بأسلوب مزهر جميل ان بروخارتشين رجل ناضج السن جاد  
الطبع تجاوز زهرة العمر وعفى عليه عهد الشعر • وعلى هذا يمكن القول:

لئن لم تكن العلاقات بين سيميون ايفانوفتش ممتعة ، فان الذنب فى ذلك يقع عليه وحده .

ولقد ثبت الانتباه أول الامر على بخله الشديد وشحه النادر ذلك أمر سرعان ما اكتشفه فيه هؤلاء السادة وسجلوه له . كان مثلا لا يرضى بحال من الاحوال أن يعير أحدا غلاية الشاي التى يملكها ولو لحظة قصيرة ، وهذا أمر لا مسوغ له ، لا سيما وأنه كان قلما يشرب الشاي ، فهو يستعيز عن الشاي بشراب طيب المذاق من أعشاب برية يختزن منها مئونة كبيرة دائما . وكان له الى ذلك طراز فى الطعام غريب جدا . فهو لا يسمح لنفسه يوما بتناول الوجبة التى تقدمها أوستينيا فيدوروفنا لسكان بيتها ؛ ذلك أن ثمن الوجبة خمسون كوبكا فكان سيميون ايفانوفتش لا يأكل الا بخمسة وعشرين كوبكا يطلب بها أجزاء من الوجبة : شيئا من خضار مع قطعة من فطير ، أو صحن من اللحم ؛ ولكنه فى أكثر الأحيان لا يطلب خضارا ولا لحما ، بل يكتفى بالخبز مع بصل أو جبن أو بيض أو خياز مملح أو أى طعام آخر زهيد الثمن ، ولا يعزم أمره على العودة الى الوجبة التى سعرها نصف سعر الوجبة الكاملة الا حين يموت جوعا .

هنا يعترف كاتب قصة حياة هذا الرجل أنه ما كان له قط أن يسترسل فى سرد تفاصيل تأفة هذه التفاهة كلها فى الظاهر تفاصيل تبلغ هذا المبلغ من الحقايرة بل ومن الازعاج لقراء يفقههم الأسلوب الراقى ، لولا أن هذه التفاصيل تؤلف السمة المميزة والصفة المسيطرة فى طبع بطلنا . ذلك أن السيد بروخارتشين لم يكن أبدا ، كما كان يحلو له أن يعلن ذلك ، فى عوز يضطره الى أن لا يطعم من جوع . فلئن كان يحرم نفسه هذا الحرمان كله بغير حياء ولا خجل ، غير عابىء بما قد يقوله

القاتلون من النمامين ، فانه كان يفعل ذلك ارضاء لبعظه الذى يشبه أن يكون جنونا ، وكذلك من باب الافراط فى التبصر بالعواقب ، كما سنفهم ذلك مزيدا من الفهم فيما سبلى من سرد قصة حياته •

وكان يمكن أن نتحرج من املال قرائنا باستعراض جميع أهواء سيميون ايفانوفتش الغربية استعراضا مفصلا ، وكان يمكن أن نعدل حتى عن وصف ثيابه مهما تبد لنا عجيبة مضحكة ، ولكن أوستيناينا فيدوروفنا أصرت اصرارا قاطعا على أن نذكر الامر التالى : ان سيميون ايفانوفتش لعله لم يعهد يوما بشيء الى الغسالة ، أو لعله على الأقل لم يفعل هذا الا نادرا جدا حتى ليتمكن أن يجهل المرء هل كان يملك فى عداد أمواله المنقولة أى ملابس من الملابس الداخلية •

قالت صاحبة البيت :

ان العزيز جدا سيميون ايفانوفتش قد حلا له خلال عشرين سنة متتالية أن يراكم التتن فوق التتن فى الركن المخصص له ، دون أن يبدو عليه أنه خجلان من ذلك كثيرا ، وعدا انه طوال حياته على هذه الارض لم يهتم أى اهتمام بالأجربة أو المتاديل أو غير ذلك من الزينات الباطلة ، فقد استطاعت أن ترى بعينى رأسها من خلال ثقب فى الحاجز العتيق ، أنه كان يتفق له أن لا يستطيع ستر عورة جسمه • ولم تأخذ هذه الشائعات بالانتشار الا بعد موت سيميون ايفانوفتش لأنه فى أثناء حياته - وعن هذا خاصة انما نشأ عدم تفاهمه مع المستأجرين الآخرين - لم يكن يطيق ، رغم علاقات الصداقة أن يسمح أحد لنفسه بأن يحشر أنفه فى « ركنه » قبل أن يحصل منه على اذن سابق بذلك • كان سيميون ايفانوفتش رجلا صعب المراس متجمعا على نفسه عنيدا لا يجدى فيه الكلام ولا تنفع معه الحطبة الطويلة • كان لا يقبل النصائح أكثر مما يقبل السخريات ، وكان

يعرف كيف يسارع الى اقحام كل من يخطر بباله أن يسدى اليه نصحا ، فهو يقول له : « انت تزجى الى النصائح ايها الولد الطاش ؟ خير لمهرج من نوعك ان يعنى بشئون نفسه قبل ذلك . . . » ولم يكن سيميون ايفانوفتش متكبرا ، وكان يحب ان يخاطب جميع الناس بصيغه المفرد ، وهو لا يطبق افشاء أسراره ، ولا يحتمل ، حين يعرف أحد شيئا عن اهوائه ، ان يساله عما يحتويه صندوقه الصغير . . . لقد كان لسيميون ايفانوفتش صندوق صغير يضعه تحت سريره ويحافظ عليه محافظته على بؤبؤ عينه ، رغم أن كل واحد يعرف حق المعرفة أن الصندوق لا يحتوى الا خرقا بالية ، وزوجين أو ثلاثة أزواج من أحذية أصيح لا يمكن استعمالها ، وأنواعا شتى من ملابس عتيقة . كان يحرص على هذا الصندوق حرصا شديدا ، حتى لقد سمع يعلن أنه سيشتري له قفلا جديدا من صنع ألماني . ويوم قادت الحمامة زينوبى بروكوفتش الى ابداء رأى فظ قليل الأدب خال من الحشمة قائلا ان سيميون ايفانوفتش لعله يخفى مدخراته فى هذا الصندوق لورثته ، فقد اهتاج السيد بروخارتشين اهتاجا صعقت نتائجه الخارقة جميع الحضور .

فى أول الأمر لم يعرف السيد بروخارتشين كيف يعثر على تعبيرات مناسبة يدفع بها هذا الغمز السخيف المضحك . وانقضت لحظة طويلة لم يخرج خلالها من فمه غير كلام خال من أى معنى . واستطاع الحضور أخيرا ، بغير قليل من العناء ، أن يفهموا أن السيد سيميون ايفانوفتش يعيب على زينوبى بروكوفتش عملا قديما لكنه شائن قدر ، ثم هو يتنبأ لهذا الرجل الطائش بالاخفاق المحقق فى جميع ما يقوم به من محاولات للنفاذ الى المجتمع الراقى ، ويبشره فى الوقت نفسه بأن الحياض الذى يدين له زينوبى ببعض المال سيضربه فى القريب ضربا مبرحا لا ريب فيه ؛ ثم هو يصفه بأنه ليس الا صبيا :

- أتطمع فى أن تصيح ضابطا من سلاح الفرسان ؟ هلا أنعمت النظر  
اذن فى نفسك ؟ انك لن تصيح كذلك . وفوق هذا فان رؤساءك سيرفون  
كيف يؤدبونك حين يطلعون على حكاياتك كلها . هل سمعت أيها الصبى  
الاحمق الطائش !

قال سيميون ايفانوفتش ذلك ثم بدا عليه أنه هدا بعض الهدوء وتخفف  
من حنقه . ولكنه بعد خمس ساعات من صمت ، استأنف يعظ زينوبى  
بروكوفتش ، فذهل الحقل من ذلك زهولا تنديدا . ولم يقف الامر عند  
هذا الحد ، ففى المساء ، حين نظم مارك ايفانوفتش والساكن بريولوفانيكو  
حفلة شاي دعوا اليها كاتب المحكمة أوكيانوف ، ترك سيميون ايفانوفتش  
سريره ، وجاء ينضم اليهم دافعا نصيبه من نفقات الحفلة خمسة عشر  
كوبكا أو عشرين . وكان واضحا أن هذه الحاجة الى الشاي ليست الا  
عذرا وتعلة ، ذلك أنه لم يلبث أن أخذ يشرح فى اسهاب أن الانسان  
الفقير لا يمكن أن يخطر بباله التوفير والادخار ، لأنه ليس الا انسانا  
فقيرا . واتهز السيد بروخارتشين الفرصة ليعترف بفقره ، مضييفا الى  
ذلك أنه فكر أول امس فى اقتراض روبل من رجل وقح ، ولكنه صرف  
النظر عن ذلك الان طبعا . ذلك أن مثل هذا الانسان الوقح ، أن مثل  
هذا الصبى الطائش ، لا بد أن يمضى متباها بذلك مدلا به . أما هو  
سيميون ايفانوفتش ، فانه يرسل فى كل شهر خمسة روبلات الى امرأة  
أخيه ، وأن امرأة أخيه هذه كان يمكن أن تموت جوعا لولا أنه يرسل  
اليها هذا المبلغ فى كل شهر ، ومع ذلك فلو ماتت لاستطاع أن يشتري  
لنفسه رداء جديدا منذ زمن طويل . . . . وظل سيميون ايفانوفتش يتكلم على  
هذا النحو مسهبا مطنبا ، وبلغ من تكرار الحديث عن فقره وعن امرأة  
أخيه وعن الخمسة روبلات أثناء كلامه أنه ارتبك آخر الامر ولم يسهه الا  
أن يصمت .



وبعد ثلاثة ايام ، بينما كان لا يخطر ببال أحد أن يناكده ، وبينما نسوا جميعا هذه القضية ، جاء يختم كلامه قائلا : ان زينوبى بروكوفتش ، هذا الرجل الوقح ، الذى لم يكده يتسبب الى سلاح الفرسان ستبتر ساقه فى الحرب ، فلا يملك عندئذ الا أن يحل محل الساق المتبورة ساقا من خشب ، وانه سيرى يومئذ آتيا الى سيميون ايفانوفتش مستجديا كسرة خبز ، ولكن سيميون ايفانوفتش سيسعده كثيرا أن يرفض ضراعات « الصبى » دون أن يلقي عليه نظرة واحدة •

وطبعي أن يستطرف الجمع هذا الامر كله وأن يتسللوا به ، وأن يقرروا دون مزيد من التأمل والتفكير أن يشنوا على سيميون ايفانوفتش هجوما حاسما • وكان السيد بروخارتشين قد قرر أن يختلط بالحفل ، فهو يبدو الآن حريصا على الاطلاع على كل شىء ، يلقي الأسئلة تلو الاسئلة لغاية سرية لا يعرف أحد ما هى ، حتى أصبحت المنازعات تشب بينه وبينهم بلا مصاعب ولا مقدمات • ومن أجل أن يدخل سيميون ايفانوفتش فى الموضوع ، ارتأى أن يلجأ الى وسيلة مرهفة جدا عرفها قراؤنا من قبل ، فهو يترك سريره متى حان وقت شرب الشاي ، ويقرب من الجماعة كما يمكن أن يفعل ذلك انسان متواضع ذكى أنيس بشوش ، فيدفع العشرين كوبكا المفروضة ، معلنا عن رغبته فى المشاركة فى هذه الحفلة الصغيرة ، فتأخذ هذه الجماعة الشابة تتواطأ فيما بينها بغمزات سريعة ، وتدير الحديث محتشما جادا وقورا فى أول الامر •

ثم ما يلبث واحد شجاع منهم أن يمضى ساردا ، على حين فجأة ، مجموعة من الأخبار مختلفة لا تصدق ، فهو يقول مثلا انه سمع صاحب السعادة يسر الى ديميد فاسيليفتش أن الموظفين المتزوجين خير من الموظفين العازبين ، وأنهم أجدر بالترفيح والترقية منهم ، لأن الرجال الهادئين العقلاء

حقا يكتسبون من ممارسة الحياة العائلية مزايا كثيرة ؛ ويضيف المتحدث الى ذلك قوله انه ينوى ، رغبة منه فى التميز على غيره وفى زيادة مرتبه ، أن يتزوج مرة أخرى امرأة يقال لها ففرونيا بروكوفينا ؛ أو انه لاحظ لدى بعض زملائه فى كثير من الاحيان انهم يبلغون من جهلهم باداب المجتمع وباللباقة الاجتماعية ان قبولهم فى مجتمع الناس أمر مستحيل ؛ وان السلطات العليا قد قررت لذلك، تفاديا لهذا الوضع السيء ، أن يحسم من الرواتب مبلغ معين لانشاء قاعة رقص يمكن أن يتعلم فيها المرء رفعه الاوضاع ، وحسن الهندام ، وأدب المعاشرة ، واحترام الشيوخ ، وقوة الارادة ، وصلابة الخلق ، وطيبة القلب ، والشعور بالواجب ، والعرفان بالجميل ، وعددا آخر من المزايا الحميدة والحصال الجميلة . أو يذكر فجأة ، فى مرات اخرى ، ان جميع الموظفين ، حتى اقدمهم ، سيخضعون قريبا لامتحان تعرف به درجة ثقافتهم \* ، وان ذلك سينشأ عنه أن كثيرا من الحجب ستمزق ، وان كثيرا من الموظفين سيطردون من وظائفهم . الخلاصة أن أبناء سخيصة كثيرة من هذا النوع كانت تزداد فى الجماعة بحضور صاحبنا . وكان الحضور جميعا يتظاهرون بتصديقها ، ويقبلون على الاصغاء اليها والاهتمام بها ، لانها تعينهم ، ويشيرون الى عواقب مثل هذه الاجراءات بالنسبة الى بعض أفراد جماعتهم ؛ أو يصطنعون الحزن والأسى ، ويهزون رموسهم كأنهم يستجدون النصيح من كل جهة ويلتمسون أن يعرفوا ماذا يجب أن يفعلوا اذا وقعت مصيبة كهذه المصيبة .

والنتيجة معروفة طبعا : فحتى من كان أقل بساطة وأقل خوفا من السيد بروخارتشين يمكن أن تفقده هذه الأقاويل صوابه . ولقد ظهرت على بروخارتشين جميع العلامت التى تدل على أنه أخذ يفقد صوابه فعلا . انه انسان محدود العقل غير مهياً لقبول أية فكرة جديدة عليه . ولا شك

أنه أخذ يقلب فى رأسه كل نبا من هذه الانباء المتيرة ، باحثا عن الباعث عليه والدافع اليه ، حتى اختلطت الامور فى عقله ، وحتى اضطرب ذهنه أشد الاضطراب فى هذه المتاهة المتشابكة من الخواطر العجيبة ، لا يعرف كيف يوائم بينها وبين طريقته فى التفكير ، ولا يعرف كيف يخرج منها الى شىء من استقرار النفس وهدوء البال . . . . وانكشفت فى سيميون ايفانوفتش صفات عجيبة لم تخطر ببال أحد ولا كانت فى الحسبان . . . . وسرت فى حقه اشاعات ما انفكت تتضخم وتتضخم ، حتى وصلت الى الديوان . وتفاقم أثر ذلك من تبدلات ظهرت فى هيئة بطلنا التى لم تتغير منذ سنين متلاحقة كثيرة : فوجهه الآن أصبح قلقا ، ونظرته أصبحت ريبابة وجلة ، وأخذ يرتجف ويرتعد ، وصار يصغى الى كل نبا كاذب جديد بانتباه شديد وعقل محموم ؛ واستبد به هوى استطلاع الاخبار واستجلاء الحقائق ، وبلغ هذا الهوس عنده أنه تجرأ فمضى الى ديميد فاسيليفتش مرتين يسأله عن صحة هذه الأنباء . واذا كنا نسكت عن العواقب التى أدت اليها مساعى سيميون ايفانوفتش هذه ، فما ذلك الا من قیل الاحترام لذكراه .

وخلص الناس من ذلك فى أول الامر الى أن الرجل انسان يكره معاشره البشر ويهمل المواضع الاجتماعية ، ورأوا فيه شخصا غريب الأطوار . وكانوا فى ذلك مخطئين ، فقد فاجأوه مرارا على حالة غريبة من نسيان نفسه ، والذهول عن ذاته ، فاعرا فاه ، رافعا قلمه فى الهواء ، كأنه متجمد الجسم ، فهو أقرب الى شيخ انسان عاقل منه الى هذا الشخص ذاته . وقد حدث غير مرة أن رآه زميل ذاهل من زملائه على هذه الحال الغريبة من جمود النظرة وشروذ اللب ، فشدته الزميل من ذلك وأخذ يرتعش خوفا ، وبلغ من جزعه أن سقطت على تقريره فطيرة كانت فى يده ، أو كتب فى هذا التقرير كلمة ليست فى محلها . وصار سلوك

صاحبنا يذهل من يراه من عقلاء الناس ، حتى لم يبق لدى احد شك في ان سيميون ايفانوفتش قد اختل عقله ؛ بل لقد سرت في ذات يوم اتاعة في الديوان تقول ان السيد بروخارتشين قد روع ديميد فاسيليفتش نفسه ، وجمده في مكانه فلم يستطع الرجل ان يرجع القهقري ، وذلك حين صادف السيد بروخارتشين في احد الممرات على هذا الوضع المقلق المخيف . . . فلما وصل هذا كله الى سمع سيميون ايفانوفتش ، نهض عن مكانه ببطء ، وسار في طريقه بين الموائد والكراسي محاذرا ، وتناول معطفه ، وغاب عن الديوان زمنا . ترى هل خاف ؟ هل دفعه الى ذلك دافع آخر ؟ انا نجهل ذلك ، ولكن ما حدث هو انهم لم يستطيعوا ، خلال مدة طويلة ، أن يعثروا عليه لا في بيته ولا في مكتبه .

لن نحاول أن نعلل أعمال سيميون ايفانوفتش باختلال عقله ، وحسبنا ان نذكر للقارىء أن بطلنا كان لا يحب معاشره الناس وأنه لحججه قد عاش حتى ذلك الحين في عزلة تشسبه أن تكون كاملة ، متميزا بطبع سرى صموت في آن واحد . لقد ظل طوال مدة اقامته في بيسكى مستلقيا على سريره وراء الحاجز ، في صمت مطلق ، دون أن تكون له علاقة بأحد من الناس . كان الشخصان الآخران ، اللذان يساكنانه في ذلك المنزل ، غريبين مثله ، يعيشان حياة كحياته تماما ، ففضى الثلاثة حوالى خمسة عشر عاما يضطجع كل واحد منهم في سريره وراء حاجزه ، في صمت كامل ، والأيام والليالي تمضي على هذا النحو سعيدة بطيئة خدرة ، وكل شيء يجسرى على ما يرام ، حتى أن سيميون ايفانوفتش وأوستينيا فيدوروفنا أصبح لا يذكر أحد منهما المصادفة التي جمعتهما . كانت المرأة تقول للسكان الجدد الذين يقيمون في منزلها : « انه يعيش في منزلي ربما منذ عشرة أعوام ، وربما منذ خمسة عشر عاما ، وربما منذ عشرين عاما . . . فمن الطبيعي اذن أن يضطرب صاحبنا بعض الاضطراب خلال

هذه السنة الأخيرة بين شبان صاخين معربدين ، وهو الانسان الرصين  
الوفور المتحفظ .

أثار اختفاء سيميون ايفانوفتش اضطرابا كبيرا فى المنزل ، أولا لأنه  
أثير صاحبة البيت ، وثانيا لأن جواز سفره الذى كان محفوظا لديها لم  
يعثر عليه . وظلت اوستينيا فيدوروفنا يومين تذرف سيلا من الدموع على  
عادتها فى اللحظات الحرجة الصعبة . وظلت يومين كاملين تهجم على  
سائر المستأجرين ، ناعية عليهم أنهم سبب جميع مبائس صاحبها المستأجر  
الآخر الذى فقدته بسبب سخرياتهم . وفى اليوم الثالث أمرتهم جميعا أن  
يهبوا باحثين عن التائه ، وأن يردوه اليها حيا أو ميتا مهما كلف الأمر .  
وفى المساء رثى كاتب المحكمة سويدين يعود الى البيت أول العائدين معلنا  
أنه تقضى أثر الهارب ، فراه فى سوق تولكوتشى \* وفى غيره ، وأنه تبعه  
من قرب ، لكنه لم يجزؤ ان يكلمه حتى حين واجهه أنفا لانف عند  
الحريق الذى شب فى شارع كريفوى . وبعد نصف ساعة وصل  
أوكيانوف وكونتاريوف فأبدا ما ذكره سويدين حرفا حرفا : لقد مرأا قرب  
الهارب ، ربما على مسافة عشر خطوات منه ، لكنهما لم يجسرا ان يكلماه  
أيضا . وقد لاحظا ، كلاهما ، أن سيميون ايفانوفتش كان فى صحة رجل  
يشبه أن يكون شحاذا هو شخص سكير « تلاحقه الديون » . ثم وصل  
السكان الأخران . فلما أصاحا بسمعهما الى ما سلف قوله ، قررا أن  
بروخارتشين ليس بعيدا عن المنزل ، وأنه لن يلبث أن يعود . وكانا يعلمان  
من جهة أخرى ، منذ زمن طويل ، أن بروخارتشين أصبح يعاشر هذا  
الشحاذا ، وهو رجل سيء السيرة كثير العريضة منافع مراء ، فلا شك أنه  
قد فتن صاحبنا بحيلة من الحيل . ولقد ظهر هذا الرجل أول مرة فى  
كف الرفيق رينوف ، فقضى فى المنزل بضعة أيام ، مدعيا أنه انسان  
« معذب فى سبيل الحقيقة » ، وأنه كان موظفا فى الأقاليم ، ثم طرد من

وظيفته مع عدد من رفاقه على أثر مرور أحد المفشين • فلما وصل الى بطرسبرج ارتقى على أقدام بورفيرى جريجوريفتش متوسلا اليه أن يجد له عملا فى مكتب من المكاتب ، ثم أمكنه أن يحصل على هذا العمل ، ولكن شاء سوء حظه أن يجد نفسه بلا عمل مرة أخرى ، اذ أغلق المكتب ثم أعيد تنظيمه دون أن يؤخذ صاحبا فى عداد الموظفين الجدد ••• وذلك بسبب عجزه الادارى ، وبسبب كفاءته فى نوع آخر من العمل ••• ناهيك عن حبه الحقيقة وعن مؤامرات زملائه • فبعد أن قص الرجل هذه القصة التى هب أثناءها زيموفايكين هذا عدة مرات يقبل صديقه رينوف، الرجل القاتم الزواج المشعث اللحية ، سلم على سائر الحضور واحدا بعد واحد ، سلاما خافتا جدا ، واصفا كل واحد منهم بأنه محسن اليه مفضل عليه ، ثم راح يصف نفسه بأنه انسان سيء الخلق ، جبان ، رعديد ، مزعج ، عريد ، أحمق ، متضرعا الى الحفل ألا يحقد عليه وهو فيما هو فيه من شقاء وبؤس •

فلما نال حماية هؤلاء السادة ورعايتهم ، غدا مرحا مسرورا على الفور ، وأخذ يقبل يدي أوستينيا فيدوروفنا ، رغم الاحتجاجات المتواضعة التى قدمتها هذه السيدة واصفة يديها بأنهما غليظتان خشستان ، وبأنهما ليستا على شئ من الرفعة والنبل • ووعده الرجل الجماعة بأن يكشف لهم فى ذلك المساء نفسه عن مواهبه فى رقصة من طراز قوى • ولكن القصة انتهت فى الغداة نهاية مؤسفة ، اما لأن زيموفايكين أودع رقصته قوة مبالغا فيها ، واما لأنه « لطح شرف » أوستينيا فيدوروفنا حقا ، كما تؤكد ذلك هى التى « كانت تعرف ياروسلاف ايلتش والتى كانت منذ زمن طويل زوجة ضابط مرموق » • المهم أن الرجل انصرف يومئذ ، ثم عاد مرة أخرى ، فطرده شر طردة ، لكنه عرف كيف يستميل اليه سيميون

ايفانوفتش وكيف ينال حظوته ، وها هو ذا يظهر مرة اخرى بصفه جديدة  
هى انه صاحب بطلنا وفاتنه ومفويه •

ما ان عرفت صاحبه البيت ان سيميون ايفانوفتش سليم لم يمسه  
سوء ، وانه لا داعى الى البحث اذن عن جواز سفره ، حتى هدات توا ،  
ومضت تستريح • وفى اثناء ذلك اتفق عدد من سكان المنزل ان يستقبلوا  
الهابر استقبالا رائعا • عمدوا الى الحاجز فأبعدوه عن السرير دون خوف  
على مفصلاته أن تنسد ؛ ونفشوا السرير واضعين الصندوق الصغير عند  
موضع القدمين ، ومددوا على السرير نفسه « امرأة الأخ » دمية صنعوها  
من شال صاحبة البيت وقبعتها ومعطفها ، وأجادوا صنعها حتى ليحسبها  
الناظر اليها شخصا حقا • فلما فرغ هؤلاء السادة من انجاز هذا العمل  
على أكمل وجه لبثوا ينتظرون وصول سيميون ايفانوفتش بصبر نافذ  
ليلغوه عند وصوله أن امرأة أخيه تركت قربتها وجاءت تزوره ، وأن  
المسكينة لم تملك الا أن تنزل وراء الحاجز • وانتظروا طويلا •••

وفى أثناء هذا الانتظار اتسع وقت مارك ايفانوفتش لأن يقامر مع  
بريبولوفينكو وكوتاريوف وأن يخسر أجره البالغ خمسة عشر روبلا •  
ومن كثرة ما لطم أوكيانوف أنفه توبة وندامة تورم هذا التورم واحمر  
احمرارا شديدا • وكان آفدوتيا بعد أن نام طوال مسكرته يهم أن ينهض  
عن فراشه ليحجى بشىء من الحطب يشعل به المدفأة • أما زينوبى  
بروكوفتش فقد تبلل حتى صار كالحساء من فرط ما كان يمضى الى  
الشارع مرة بعد مرة عسى أن يرى وصول سيميون ايفانوفتش • ولكن  
بطلنا لم يظهر ، لا ولا ظهر الشحاذ صديقه • وأيس الجماعة من الانتظار ،  
فانتهى كل منهم الى النوم ، مع ابقائهم « امرأة الأخ » وراء الحاجز • وفى  
الساعة الرابعة من الصبح سمعت جلبة رهيبة عند باب الدار أيقظت النائمين

من نومهم فكانت مكافاة لهم على ما بذلوا من جهد حتى لا يناموا . انه هو ، هو نفسه ، سيميون ايفانوفتش ، السيد بروخارتشين ، ولكن فى آية حالة !!... صاح الجميع بصوت واحد : آ... وبلغوا من شدة الانفعال حين رأوه . أنهم نسوا « امرأة الاخ » فهى لا تخطر لهم الآن ببال . كان الهارب يبدو مفشيا عليه ، يقوده بل قل يحمله على كتفيه حوذى ليلى يرتدى أسملا ممزقة ، وترتعد فرائصه من شسدة البرد . فلما سألته صاحبة البيت أين استطاع نزيلها أن يبلغ هذا المبلغ من السكر ، أجابها بقوله :

— ما هو بسكران . أوكد لك أنه لم يشرب قطرة خمر واحدة .  
يظهر أن الأمر سكتة أو ما يشبه ذلك .

أسندوا سيميون ايفانوفتش الى المدفأة من قبيل السهولة ، وأخذوا يفحصونه ، فثبت لهم فعلا ان الامر ليس سكرًا ، ولكنه ليس سكتة أيضا . لاشك أن به شيئا ، ولكن ما هو هذا الشيء ؟ ذلك أنه كان ، دون أن يستطيع تحريك لسانه ، يهتز اهتزازا شديدا ويصفق أجنفانه ، ويحدث مدهوشا تارة الى هذا وتارة الى ذاك من الشهود الذين كانوا فى ملابس النوم . وسألوا الحوذى من أين أتى به ، فقال :

— سادة لطف مرحون أسلمونيّه وهو على هذه الحال . كانوا عائدين من كولومنا . هل اشتجروا معه ؟ هل أصابته تشنجات ؟ لا أدرى ... مهما يكن من أمر ، فهم سادة محترمون لطف مرحون .

أنهضوا سيميون ايفانوفتش ، وحملوه الى سريره . فلما رقد على السرير فأحس بوجود « امرأة الاخ » الى جانبه ، وأحس بالسندوق الصغير عند قدميه ، أطلق صرخة رهية ، وأنهض جسمه حتى صار كالجائى على أربع ، محاولا وهو يرتعش أن يغطى يديه وبجسمه كله



أكبر مساحة من مرقده ، وينظر الى من حوله نظرات وحنسية مذعورة  
كأنه يريد أن يقول انه يؤثر الموت على ان يترك ولو جزءا من مائة جزء  
مما يملك •

لبث سيميون ايفانوفتش يومين أو ثلاثة أيام راقدا وراء الحاجز على  
هذه الحال ، بعيدا عن الناس فى منجى من كل تلك العجبة الباطلة • لقد  
نسى منذ القداة ، فما يخطر ببال أحد • والزمان يجرى مجراه أثناء  
ذلك : الساعات تملو الساعات ، والايام تعقب الايام ؛ والمريض راقدا فى  
فراشه وقد استولى على رأسه المحموم المنزق الثقيل نوع من الحذر  
الهاذى • ولكنه لا يتحرك ، ولا يثني ، ولا يتوجع او يتشكى ، بل يلزم  
صمتا وحنسيا ، ويشد جسمه الى سريره كارتب مذعور يلتصق بالارض  
متى اقترب منه صياد • وكان يخيم على المنزل صمت حزين قائم فى بعض  
الاحيان ، إشارة الى ان جميع النزلاء قد مضى كل منهم الى مشاغله ،  
فكان سيميون ايفانوفتش يستطيع عندئذ أن يسلى نفسه عن حزنه على  
مهل ، مصغيا الى الأصوات القريبة الصادرة عن المطبخ حيث تقوم صاحبة  
البيت بعملها ، أو مصيخا بسمعه الى وقع أقدام تطوف فى أرجاء جميع  
الغرف ، وقع أقدام آفدويتا تنظف المنزل • هكذا كانت تقضى ساعات ،  
ساعات كسل ووسن ، ساعات رتيبة تجرى على وتيرة واحدة ، كقطرات  
الماء التى يسمع تساقطها على منسل المطبخ • ثم يتوافد النزلاء آحادا أو  
جماعات ، فيسمعهم سيميون ايفانوفتش يتذمرون من رداءة الجو أو يطلبون  
وجبة الطعام ، ويحدنون جلبة وصخبا ، ويدخنون ، ويشتجرون  
ويتصالحون ، ويقامرون بالورق ، ويقرقصون الضاجين حين اعداد الشاي •  
ويقوم المريض بحركة آلية من أجل أن ينهض وان ينضم اليهم بدفع ما  
يترتب عليه ، ولكنه ما يلبث أن يسقط الى خدره مرة أخرى على حين فجأة •  
فإذا هو يحلم عندئذ أنه كان منذ لحظة على المائدة يشرب الشاي ويشارك

في الحديث ، وان زينوبى اسرع ينتهز الفرصة فدرس في الحديث  
غمزات تتاول « نسوة الاخوة » وما قد يقوم بينهن وبين مثل اولئك  
الرجال الشرفاء من علاقات • فيحاول سيميون ايمانوفتشس ان يبرىء نفسه  
وان يجيب ، ولكن جملة جبارة قوية تتساقط من جميع الافواه دفعة  
واحدة تقول : « لاحظنا مرارا ٠٠٠ » ، فتقطع عليه هذه الجملة كل  
اجوبته ، فلا يجد عندئذ خيرا من ان يحلم باليوم الاول من الشهر ، اليوم  
المبارك الذى يتقاضى فيه الروبلات من الحكومة • وها هو ذا على السلم  
يفض الاوراق النقدية التى قبضها ، ويلقى نظرة مختلصة عجلى على ماحوله ،  
ثم يسارع الى اخفاء نصف المبلغ الذى استحقه اجرا له ، فى عنق احد  
حذائيه • وها هو ذا يقرر ، وهو ما يزال على السلم ( دون أن يدرك أن  
هذه الأمور كلها انما يجريها فى سريره ) أن يدفع لصاحبة البيت أجرها  
متى وصل الى المنزل ، وأن يشتري بعد ذلك بعض الاشياء التى لا غنى  
عنها ، وأن يصرح لمن يجب أن يصرح له بذلك أنه قد اقتطعت من راتبه  
« حسميات » فلم يبق له ما يرسله الى امرأة أخيه ، ثم يرثى لحالها على  
النحو المناسب ، ثم لا يتحدث الا عنها يومين متتالين ، ثم يعود يتكلم بعد  
عشرة أيام على فقره وبؤسه حتى يقتنع رفاقه بذلك مزيدا من الاقتناع •  
وها هو ذا يلاحظ ، بعد أن اتخذ هذه القرارات كلها ، ان آندره  
يافيموفتشس ، الرجل الصموت الأصلح ، الذى تفصله عنه فى المكتب ثلاث  
غرف ، والذى ظل عشرين سنة لم يسمع منه كلمة واحدة فى يوم من  
الأيام ، ها هو ذا يلاحظ ان آندره يافيموفتشس هذا واقف هو أيضا على  
سلم المكتب بعد روبلاته ، ويقول ملوحا برأسه : « أهذا مالى ؟ » ، ثم  
يهبط السلم خاتما كلامه بقوله « اذا لم يكن مال فلا طعام ! » ، حتى اذا  
وصل الى درجات الفسحة أمام الباب أضاف يقول : « لى سبعة أولاد أيها  
السيد » ، ثم اذا بهذا الرجل القصير الأصلح لا يخشى أن يسلك سلوك

سيح ، ويخالف قوانين الحياة الواقعية ، فيعلو فجأة مقدار ذراع فوق الارض ويرسم بيده المرتعشة فى الهواء خطا مواربا هابطا ، ويجمعهم قائلا ان ابنه الاكبر تلميذ فى المدرسه الثانويه ، ثم يرشق بروخارتشين بنظرة حاتقة كأنه يعده مسئولا عن وجود هؤلاء الاولاد السبعة ، ثم يفضس قبعته حتى تصل الى عينيه ، ويلتفت يسرة ويغيب • ويتأثر سيميون ايفانوفتش تاثرا شديدا • ورغم ايمانه المطلق بانه برى ، يأخذ يسلم بأن الذنب ذنبه حقا اذا كان هذا البيت البائس يضم سبعة أولاد • ويستبد به خوف ، فيأخذ يركض ، لانه يعتقد ان الرجل القصير الأصلع عاد أدراجه يحاول ان يمسك به عازما عزمًا أكيدا على ان ينشئه ويسلبه ماله باسم أولاده السبعة ، مستعبدا استعبادا كاملا ان ينظر بعين الاعتبار الى « نساء الاخوة » وما قد يكون بينهن وبين سيميون ايفانوفتش من صلات •

ويظل السيد بروخارتشين يركض ويركض حتى تقطع أنفاسه ، وهؤلاء أناس كثيرون يركضون الى جانبه فيسمع رنين الفضة فى جيوب صدراتهم ؛ ثم يأخذ جميع الناس يركضون ، وتدوى فى الجوى اصوات أبواق رجال المطافىء ، فتحمله أمواج من البشر على قللها تقريبا ، فيتدحرج الى مكان ذلك الحريق الذى شهدته أخيرا فى صحبة العريد • كان السكر ، أقصد السيد زيموفايكين ، ينتظر هنالك • فلما رآه أقبل عليه محتفيا به وأمسك يده يقوده الى وسط الجمهور الكثيف • وها هو ذا سيميون ايفانوفتش يرى الآن ، مثلما رأى هناك ، جمهرة من الناس تتلاطم تتلاطم الامواج من حولهما ، فتسد رصيف نهر فوتاكا بين الجسرين ، كما تسد جميع الشوارع والأزقة المجاورة ؛ والناس تدفمهما فترجهما فى ورشة واسعة من خشب ، امتلأت بالمستعطلين جاؤوا من كل حذب وصوب من المدينة ومن سوق تولكوتشى أو خرجوا من البيوت والملاهى القريبة • انه يرى هذا كله واضحا كأنه يشهده فى الواقع ،

وها هي ذى وجوه غريبة تأخذ تتخاطر امام عينيه من خلال زوايا الحمى والهديان • انه يعرف بعض هذه الوجوه • هذا هو السيد المهيب ، الفارع القامة ، الطويل الشاربين ، الذى ظل طوال مدة الحريق معسكرا وراء ظهره ، يزجى له المديح حين تعثرى بطلنا حماسة عنيفة فيروح يبدب كانه يصفق تشجيعا لبسالات رجال المطافىء الذين يراهم من مكانه المرتفع رؤية تامة • وهذا وجه آخر : وجه ذلك الرجل الطويل القوى الذى رفعه بضربة من قبضة يده على ذلك الحائط يريد أن يجتازه ليقوم بعمل من أعمال الانقاذ • وهذا وجه ذلك الشيخ العجوز الذى يشبه أن يكون لونه لون التراب ، والذى يرتدى معطفا باليا من معاطف المنزل ويحزمه زنار لا تدرى ما هو : ان هذا الشيخ العجوز كان قد خرج من منزله قبل اندلاع الحريق يريد أن يشتري لتزيله من عند أحد البقالين قليلا من خبز وتبغ ، وها هو ذا الآن يشق الجمهور متجها نحو بيته الذى تأكله النيران وتحترق فيه زوجته وابنته مع ثلاثين روبلا ونصفا مخبأة تحت سرير من الريش • غير أن أوضح صورة كان يراها سيميون ايفانوفتش هي صورة تلك المرأة الفقيرة التى حلم بها مرارا أثناء مرضه ، وهو يراها الآن مرة أخرى كما كانت تماما : بحذاءين من قشور الشجر ، مع عصا باليد ، فى ثياب رثة بالية ، وعلى ظهرها كيس مضمفور • لقد كانت تصبح وتصرخ أكثر من رجال المطافىء والجمهور مجتمعين ، قائلة ان اولادها طردوها ، وانها أضاعت فى الوقت نفسه قطعتى نقد بعشر كوبيكات :  
• الأولاد •• النقود •• النقود •• الأولاد •• ، ، • انها لا تفك تنطق بهذه الألفاظ فى خليط من الكلام لا سبيل الى فهمه ، وقد انتهى الناس الى تركها على حالتها تلك يائسين من أن يعرفوا ماذا تريد • ولكن العجوز لا تهدأ ، فهي تصرخ وتقول وتحرك يديها ، لا تلتفت أى التفات الى

الحريق ولا الى الجمهور ولا الى شقاء الآخرين ، ولا الى الشرارات التي  
تطائر من الحريق وتصل الى هناك •

وشعر السيد بروخاتشين أخيراً بخوف يهتره ، ذلك أنه رأى بوضوح  
أن هذا كله ليس بالأمر الهين ، وأنه لن يقضى على هذه الصورة من  
البساطة واليسر • فهذا فلاح قريب جداً منه ، متدنر بمعطف ممزق ،  
يصعد على كومة من خشب ، ويأخذ ، وقد احترق شعره واحترقت لحيته  
قليلاً ، يأخذ يحرض الجمهور على سيميون ايفانوفتش ، فيتكاثف الناس  
ويتكاثفون ويظل الفلاح يصيح ويشتم ، ويتجمد السيد بروخاتشين هلعاً  
وجزعا ، ثم ما يلبث ان يتذكر فجأة أن هذا الفلاح ليس الا حوذي  
عربة سبق لسيميون ايفانوفتش أن سرقه منذ خمس سنين سرقة دينية ، اذ  
قفز من العربة قبل أن يدفع الاجر واختفى مارقاً كالريح عبر منزل له  
مخرجان • أراد السيد بروخاتشين أن يصرخ ، أن يتكلم ، ولكن صوته  
اختفى في حلقه • وهو يحس ضغط الجمهور الهائج الحائق الذي يحيط  
به احاطة أعمى متعددة الألوان ويخثقه خنقاً • وما هو ذا السيد بروخاتشين  
يبذل جهداً فوق طاقة البشر فيستيقظ • ولكنه ما ان يستيقظ حتى يرى  
أن الركن الذي يقبع فيه قد اندلعت فيه النار وأخذت تلتهم الحاجز والبيت  
كله وأوستينا فيدوروفنا ونزلاءها • ان سريره مشتعل لهباً ، وكذلك  
مخدته وغطاؤه وصندوقه ، وحتى فراشه الثمين • وثب سيميون ايفانوفتش  
عن سريره ، وتناول الفراش وركض يجره وراءه حتى وصل الى غرفة  
صاحبة الدار وهو على هذه الحال بقميص النوم حافى القدمين • هنالك  
قبض عليه وأوثق 'ورد' الى ما وراء الحاجز الذي لم يكن يحترق في  
الواقع ، وانما الحريق في رأس صاحبنا المسكين • أرقدوا المريض على  
سريره من جديد • وعاد المريض الى تهاويله : هذا صاحب الدمى ،  
الرت الثياب ، الكالنج الوجه ، الطويل الشعر ، يرتب في قاع صندوقه

أراجوزه الذى تحرك كثيراً ، لاطماً جميع الناس بائعاً روحه للشيطان، فالى أن يقوم صاحب الدمى بعرض جديد يكف أراجوزه عن الوجود راقداً فى الصندوق مع ذلك الشيطان نفسه ومع الزنجى وبيارو وكولومبين وعشيقها السيد ومفوض الشرطة •

تحلق نزلاء الدار جميعاً حول سرير سيميون ايفانوفتش ، ولبسوا واقفين هنالك يصوبون نحو المريض نظرات مستطلعة • وأفاق المريض آخر الامر ، فاذا هو ، اما حياءً واما لسبب آخر ، يأخذ يسحب الغطاء على جسمه بكل ما أوتى من قوة ، اختباءً عن هذه العيون المشفقة من غير شك • وكان مارك ايفانوفتش أول من قطع الصمت ، اذ أخذ وهو الانسان العاقل يقول بلطف ان على سيميون ايفانوفتش أن يهدى نفسه ، وان من العيب والعار على المرء أن يبقى مريضاً على هذا النحو ، وان هذا شئ يصلح للأطفال لا للرجال ، وان على سيميون ايفانوفتش أن يبل من مرضه وأن يعود الى عمله • حتى لقد ختم كلامه بمزحة صغيرة قائلاً ان رواتب الموظفين المرضى لما تُحدد بعد ، ولما كان الموظفون المرضى لا ينالون أية ترقية ، فان حالة سيميون ايفانوفتش لن تعود عليه بفائدة • الخلاصة : لقد شارك الجميع سيميون ايفانوفتش آلامه ، ورثوا لحاله •

ولكن سيميون ايفانوفتش كفر بالنعمة ولم يعترف بالجميل ، فأصرَّ على البقاء فى السرير صامتاً لا يتكلم ، شاداً على جسمه غطاءه مزيداً من الشد • مع ذلك لم يشعر مارك ايفانوفتش بأنه 'غلب' ، وكبح جماح نفسه فقال بضع كلمات لطيفة ، لأن على المرء أن يدارى المرضى وأن يراعيهم • غير أن سيميون ايفانوفتش ظل مصراً على أن لا يسمع • ان وجهه يعبر عن الحذر ، وهو يدمدم بين أسنانه بكلام لا تدرى ما هو • وفتجأة أخذ 'يدير على اليمين والشمال عينين مهتاجتين حانقتين يخرج منهما شرر كفيل

وحده بسحق جميع الشهود • ان هذا الوضع يجعل المداراة زائدة لامحل لها • لذلك لم يستطع مارك ايفانوفتشس أن يكبح ثورة نفسه ، واذ رأى أن الرجل قد آلى على نفسه أن يظل عنيداً ، فقد استاء استياءً شديداً ، وبلغ منه الغضب مبلغه ، فقال له بصراحة قاطعة دون تمهيد انه قد آن له أن ينهض وانه لا يجوز له أن يبقى على هذه الحال راقداً على أذنيه ، وان من الحماقه وقلة الحياء وسوء التربية أن يظل يصيح فى الليل والنهار متكلماً عن حدائق ونساء اخوة وسكارى وصناديق وما الى ذلك ، وانه اذا كان لا يريد هو أن ينام فليس من حقه أن يحرم غيره من النوم، فليكن هذا معلوماً لديه •••

أحدث هذا الخطاب أثره • فيها هو ذا سيميون ايفانوفتشس يلتفت نحو الخطيب فوراً فيقول له حازماً ولو بصوت ضعيف مبجوح :

- اسكت أنت أيها الولد البطل ••• ما أنت الا ثرثار ••• أتراك تظن نفسك أميراً ؟ هه ؟

تارت نائرة مارك ايفانوفتشس ، ولكنه وقد تذكر أنه أمام مريض هداً وأراد أن يخجل المريض من نفسه بالملاطفة • ومع ذلك أجابه سيميون ايفانوفتشس قائلاً انه يرفض أى مزاح ، ولو جاء من ناظم أشعار مثل مارك ايفانوفتشس • وأعقب ذلك صمت • وأخيراً أفاق مارك ايفانوفتشس من دهشته فقال بلهجة قوية وفصاحة بليغة ان على سيميون ايفانوفتشس أن يعترف أنه ابن أناس من علية القوم ، وأن لا يجهل كيف يجب على المرء أن يتصرف فى مجتمع راق • ينبغى أن نذكر بالمناسبة أن مارك ايفانوفتشس كان يمارس الخطابة ويحب أن يؤثر فى المستمعين • ولا كذلك سيميون ايفانوفتشس فانه من طول تموده الصمت لايقول الا كلاماً موجزاً ولايجرى الا اشارات مختصرة ، فاذا اضطر الى القول فترة طويلة كانت الكلمة الأولى تستدعى

الكلمة الثانية ، وكانت الثانية تستدعي الثالثة ، فسرعان ما يمتليء فمه  
بالكلمات ، فلا تُنطق الكلمات عندئذ الا فى فوضى غريبة ، لذلك يتفق له  
رغم كل تعقله وحكمته أن تغلت من لسانه سخافات • أجاب يقول :

- أنت كاذب • ما أنت الا فاسق • ولكنك ستتهي الى أن تحصل  
كيسك وتمضى مستعطياً مستجدياً • ما أنت الا زنديق • ما أنت الا  
صلوك • هذا أنت أيها الشويمير !

- سيميون ايفانوفتش ، انك ما تزال تهذر •

قال المريض :

- هل تعلم ؟ يهذر أحقق ، ويهذر كلب ، أما العاقل فيحكم عقله •  
وأنت لا تعرف شيئاً البتة ، يا صلوك ••• يا عالم ••• يا كتاب مطبوع •  
ستحترق فى ذات يوم ، ثم لا تشعر بأن رأسك يحترق • هل فهمت  
المثل ؟

- طيب ••• ولكن ••• أقصد ••• ماذا تقول ؟ تقول ان رأسى  
سيحترق ؟

ولم يكمل مارك ايفانوفتش كلامه • لقد اتضح للجميع أن سيميون  
ايفانوفتش لم يسترد توازن عقله وأنه يهرف •• ولكن صاحبة البيت لم  
تستطيع أن تمسك عن أن تذكر ، عرضاً ، أن هناك فتاة صلعاء أحرقت  
منزلاً فى شارع كريفوى بايقاد سمعة أشعلت بلهبها خزانة حفظ الطعام •  
ولكن حادثاً كهذا لا يمكن أن يحدث هنا قطعاً ، ويمكن كل فرد أن  
يكون مطمئناً فى ركنه كل الاطمئنان •••

صاح زينوبى بروكوفتش يقول مقاطعاً صاحبة البيت خارجاً عن  
طوره :



- اسمع يا سيميون ايفانوفتش ! ما عسالك تظننا ؟ ما نحن بمن يقص عليك حكايات نساء الأخوة أو الامتحانات أو الرقص ... أليس هذا ما تتخيله ؟

واستأنف بطلنا يقول وهو يجمع آخر قواه لينهض عن سريره وقد أحقته علائم الاهتمام هذه :

- واسمع أنت ، اسمع منى هذا يا أنت : ما المهرج ؟ هو أنت أو هو كلب • ولكننى لن أقول سخافات لأسرك وأمتك • هل سمعت أيها الولد القذر ؟ أنا لست خادمك يا سيد ! ...

وأراد سيميون ايفانوفتش أن يقول شيئاً آخر أيضاً ، لكنه وقد خارت قواه عاد يسقط على سريره • ولبث جميع الحضور هناك ، وقد فغرت أفواههم من الدهول ، وأدركوا أين هو صاحبهم الآن ، واحترأوا لا يعرفون كيف يسعفونه • وفجأة صرّ باب المطبخ ، وُسقّ ، ورئى رأس يطل منه : انه رأس السكير صديق بروخاتشين ، السيد زيموفايكين ، يفحص المكان وجلا على عادته • وكأنما كان الجميع ينتظرونه ، فهام أولاء يومنون اليه أن يقترب بأقصى سرعة • فيسر الرجل سروراً عظيماً ، ويدنو من السرير حتى دون أن يخلع معطفه •

لا شك أن زيموفايكين قد مرت به فى الليل لحظات صعبة • الجانب الأيسر من وجهه مختفٍ تحت ضماد ، جفناه المتورّمان مبتلان بفتح يرشح من عينيه • والجزء الأيسر من رذنجوته ومن جميع ثيابه الممزقة ملطخ بوحلٍ لا تدرى ما هو • وتحت ابطه كمان ، لا شك أنه كان ماضياً يريد بيعه • لم يخطئ الجمع حين ناداه مستجداً به ، فانه ما ان عرف الأمر ، حتى صاح يخاطب سيميون ايفانوفتش بلهجة من يشعر بتفوقه عليه ، ويعرف الزر الذى يجب أن يضغطه :

– هيتاً يا سينكا ، انهض . ما هذا يا سينكا ؟ عد الى رشك  
يا بروخارتشين العاقل الحكيم . فاذا أصررت على عنادك ، رميتك عن  
سريرك رميةً . فايك والعناد ! هل تريد ؟

دهش الحضور من القوة الموجزة في هذا الخطاب . ولكن دهشتهم  
كانت أشد من ذلك كثيراً حين لاحظوا أن هذه الكلمات وما اصطنعه  
الرجل من مظهر قد أثرت في بروخارتشين ، وأرعبته ، وبلغت من ذلك  
أنه لم يكده يستطيع أن يعزم أمره على الدمدمة بين أسنانه بما كان لا بد  
منه من تسفيه . قال :

– اذهب أنت أيها الشقي البائس . ما أنت الا انسان تميمس . ما أنت  
الا لص . هل تسمع ؟ ما أنت بصالح لشيء أيها الأمير الجميل . . . أنت  
لص .

فأجابه زيموفايكين قائلاً دون أن يفقد شيئاً من هدوء أعصابه  
وبرودة دمه :

– لا يا أخ . . . لا يا بروخارتشين العاقل الحكيم . تصرفك هذا  
لا يليق بك .

وألقى على من حوله نظرة راضية ، وأردف يقول :

– أنصحك بالطاعة والأذعان ، اذا أردت أن لا أفضحك ، اذا أردت  
أن لا أروى كل شيء ، هل سمعت ؟

فوجيء سيميون ايفانوفتش بهذه الكلمات وهزته هزاً قوياً : لقد  
أخذ يرتعش ، ويحجل على ما حوله نظرات مذعورة . وُسِرَّ السيد  
زيموفايكين بما أحدثه من أثر سروراً كبيراً ، وهمَّ أن يتابع كلامه ،  
ولكن مارك ايفانوفتش سبق حماسته ، فما ان رأى أن سيميون ايفانوفتش

قد تاب الى صوابه قليلا حتى بادر يقول له : « ان تصور مفاهيم كهذه المفاهيم ليس فى هذه اللحظة غير ممكن فحسب ، بل هو ضار أيضاً ، وليس ضاراً فحسب ، بل هو منافٍ للأخلاق أيضاً ، وان فى هذا اساءة الى الآخرين ، وانه يقدم للآخرين أسوأ مثل . »

توقع الحضور أن تؤتى هذه الموعظة خير ثمرة ، لا سيما وأن سيمون ايفانوفتش ، وقد هدأ الآن كل الهدوء ، قد أجاب عليها باعتدال . وبدأت بين أفراد هذا الجمع مناقشة ودية . وأخذوا يسألون سيمون ايفانوفتش عن السبب الذى جعله يجزع هذا الجزع . فأجابهم ، ولكن جوابه كان هروباً من الجواب . وألحوا فرد عليهم . وتناوب الطرفان الكلام مرة أخرى ، وتدخل الجميع فى الأمر ، فاذا بالحديث يجرى مجرى يبلغ من الغرابة والادهاش أن المرء يعجز حقاً عن نقله . لقد استحال الاعتدال تبرماً ، واستحال التبرم صراحاً ، واستحال الصراخ دموعاً ، وهذا مارك ايفانوفتش يشتد به الخنق فينصرف مرغياً مزبداً ، قائلاً انه لم يصادف فى حياته انساناً مناكداً كهذا الانسان . وهذا اوبليانيف يبصق احتقاراً . وبدا الذعر على اوكيانوف . وبكى زينوبى بروكوفتش . . . وذرفت أوستينيا جدولا من دموع قائلة فى تأوه ان « نزيل بيتها قد انتهى أمره ، وانه قد فقد عقله ، وانه سيموت وهو فى ريعان شبابه ، وانها يتيمة ، وانهم يجرونها الى الهاوية من غير شك . » . الخلاصة أن الجميع قد استطاعوا أن يقتنعوا أن البذرة قد نبتت ، أن كل شىء قد أثمر ثمرة على ما كانوا يحبون ، أن التربة كانت مباركة وأن سيمون ايفانوفتش قد فقد عقله فى صحبتهم الى الأبد ، وأنه صار الى الجنون أحسن ما يكون الجنون . وصمتوا جميعاً . . . ذلك أنهم اذا كانوا قد استطاعوا أن يروّعوا سيمون ايفانوفتش قد أصبحوا هم أنفسهم خائفين ، وأصبحت نفوسهم تفيض شفقة . . .

صاح مارك ايفانوفتشس يقول :

- ما هذا ؟ ما الذى تخشاه ؟ أية ذبابة لسعتك ؟ من ذا الذى تخطر  
أنت بباله ؟ بأى حق ترتجف هذا الارتجاف ؟ ماذا أنت ؟ أنت صفر ،  
يا سيد ، أنت أهون شأنًا من بذرة برتقالة ! ذلك هو أنت ... هل فى  
ذلك ما يستحق كل هذا الاضطراب والقلق ؟ أئذا سحقت امرأة فى  
الشارع تخيلت أنك سحقت أنت أيضا ؟ أئذا احترق منزل ظننت أن من  
الواجب أن يحترق رأسك أنت أيضا ؟ هيه ؟ ما هذا يا سيد ، ما هذا ؟

دمدم مسميون ايفانوفتشس يقول :

- أنت ... أنت ... أنت غبى ! سوف يؤكل أنفك . سوف  
تأكله أنت مع خبز ، ولكن دون أن تلاحظ ذلك .

صرخ مارك ايفانوفتشس يقول وهو لا يصدق أذنيه :

- غبى ! .. غبى ! .. طيب .. لنسلم أنتى غبى . ولكن هل على  
امتحانات يجب أن أؤديها ؟ هل على أن أتزوج ؟ هل على أن أتعلم  
الرقص ؟ هل ستعوزنى الأرض ؟ ماذا ياعزيزى ، أليس لك مكان كافٍ ؟  
هل ستتهار الأرض تحتك ؟

- نعم نعم ... سوف يسألونك رأيك . سيفلقونها ... هذا كل  
شئ ..

- كل شئ ! كل شئ ! ماذا سيفلقون ؟ ماهذه الحكاية أيضا ؟  
هيه ؟

- هذا لا ينفى أن السكير قد طردوه ...

- طيب ... طردوه ... ولكنه سكتير ... أما أنت وأنا فلستنا  
كذلك . نحن أناس لائقون !

- لا تقول ... طيب ... ومع ذلك فهي ما تزال هناك ...

- ما تزال ؟ ... ماذا تعنى ؟

- أعنى الادارة ... المكتب ...

- طبعاً يا أحمق ... هم فى حاجة الى المكتب •

- هم فى حاجة اليه اليوم ، وغداً ، وبعد غد ... ولكن من الممكن

جداً أن تنقطع حاجتهم اليه فى يوم من الأيام • هى القصة نفسها ...

- ولكنهم فى هذه الحالة سيدفعون لك رواتبك عن السنة بكاملها ...

ألا ان أمرك لعجيب حقاً • ثم انهم ، بحكم خدماتك السابقة ، سيوظفونك  
فى ادارة أخرى •

- رواتبى ... سأكون مضطراً الى أن آكلها ، وسيسرق منها

سارقون ... ثم هناك امرأة أختى • هل فهمت ؟ هل فهمت يا رأساً من  
خشب !

- امرأة أختك ؟ قل لى : أنت رجل ؟

- أما أننى رجل فنعم ... أنا رجل ... أما أنت ، يا أيها العالم ،

فأنت غيبى ، أنت رأس من خشب ... ذلك أنت • لست فى حاجة الى

الرد على تشجيعاتك الكاذبة • قد تُلغى فى لحظة من اللحظات كل وظيفة •

ان ديميد فاسيليفتشس ، هل تسمع ؟ ان ديميد فاسيليفتشس هنا أيضاً ...

- آه ... ديميد ... ديميد ... ولكن •

- طبعاً ... تماماً ... واذا بالمرء يجد نفسه بلا وظيفة • حاول

أن ترد على هذا الكلام !

- دعك من هذه السخافات ... اللهم الا أن تكون قد سقطت  
مطرقة على رأسك • لا تستح يا عزيزي ، قل : هل فقدت صوابك ؟  
صاح بعضهم يقول ، وهو يعرض يديه أسفاً وحناناً :  
- فقد صوابه ... انه مجنون ...

واضطرت صاحبة البيت أن تمسك ذراع مارك ايفانوفتش حتى  
لا يمزق سيميون ايفانوفتش ارباً •  
قال زيموفايكين متوسلاً :

- سينكا ، يا ذا القلب الرقيق ، ياذا العقل الحكيم ، أصارت نفسك  
وثنيةً اذن ؟ ألا تفهمني اذن وأنت الانسان البسيط المهذب الفاضل ؟  
وا أسفاه ! ما منشأ هذا كله الا اسرافك في الفضيلة • أنا ، ما أنا الا  
عريد غيبى ، ما أنا الا شحاذ قدر ، ومع ذلك لم ينبذنى هذا الانسان  
الممتاز ، بل عاملنى بتقدير واحترام • اننى أشكر له جميله ، كما أشكر  
السيدة صاحبة البيت جميلها • اننى أحبيهما كليهما منحنياً لهما حتى  
الارض ، وأنا اذ أفعل هذا لا أفعل الا واجباً أيتها السيدة المحترمة •

قال زيموفايكين ذلك وانحنى فعلاً حتى الارض ، بحركة لا تخلو  
من نبل • وأراد سيميون ايفانوفتش أن يتابع كلامه ولكنهم لم يدعوا له  
فرصة في هذه المرة : هبوا جميعاً يفرقونه بسيل من الضراعات والحجج  
المقنعة ، والمواساة ، الى أن استحى فطلب اليهم بصوت ضعيف أن يشرح  
أمره • قال :

- طيب ... صحيح ... أنا لطيف ، مهذب ، رقيق ، دمث ،  
فاضل ، أمين ، مخلص ، مستعد أن أبذل آخر قطرة من دمي ... فى  
سبيل المحافظة على وظيفتى ، هل سمعت أيها الصبى ؟ ولكننى فقير ، فإذا

ألقوها ... - اسكت أنت ! - هي الآن موجودة ، ولكن من الممكن أن  
'تلغى فجأة' ... هل فهمت ؟ وفي هذه الحالة سأمضي في الطرقات ،  
حاملًا كيسى على ظهري ، أطلب الصدقات • هل فهمت ؟

زأر زيموفايكين يقول بصوتٍ أقوى من كل الجلبة القائمة :

- سينكا ، ما أنت الا زنديق ... وسأقص كل شيء • ماذا أنت ؟  
ما أنت الا عيَّاطٌ شياطين ، يا رأساً كرأس كبش ! أنت غبي ، أنت زبَّياط  
سيكس من وظيفته كسباً بلا احتفال • ماذا أنت ؟

قال سيميون ايفانوفتش :

- هذه هي القضية تماماً •

- كيف هذه هي القضية ؟ هلاًَّ تحدثت معه ؟

- كيف أتحدث معه ؟

- طبعاً • من كان حرّاً فهو حر • أما من يبقى في السرير ...

- أما من يبقى في السرير كزنديق ، كواحدٍ من أنصار مذهب  
فولتير ، فانه ... اسمع يا سينكا ، ما أنت الا زنديق ، ما أنت الا زنديق ا

صرخ السيد بروخارتشين وهو يحرك يده طالباً الصمت :

- كفى • ولكن افهم ، افهم يا أحمرق : أنا وجل ، وجل اليوم ،

ووجل غداً ، ثم أفقد وجلي في ذات يوم ، فأطلق كلمة وقحة ... وافعل  
عندئذ ما تشاء ... وأصبح زنديقاً !

أرعد مارك ايفانوفتش يقول واثباً عن كرسيه الذى كان قد قصد  
عليه ليستريح ، ومتجهاً نحو السرير وقد استبد به اضطراب شديد وأخذ  
يرتجف غضباً وحقناً :

- ولكن ماذا دهام ؟ ما هذا أيها الأحمق ؟ أتحسب أن الدنيا خلقت من أجلك ؟ أتراك تظن نفسك نابوليون ؟ ماذا أنت ؟ أنت نابوليون ؟ قل لي : أنت نابوليون ؟ ولكن هلا أجبتني أيها السيد ؟ أنت نابوليون ؟

ولكن السيد بروخارتشين لم يجب • لا لأن هذه الفكرة ، وهي أنه نابوليون ، قد أخجلته ، ولا لأنه يخشى أن يتحمل مثل هذه المسؤولية ، بل لأنه أحس أنه عاجز عن المناقشة ، عاجز عن أن يقول أى شيء معقول ... واعتزته بعد ذلك نوبة : ان سيلا من الدموع يتدفق من عينيه الباستين الرماديتين اللتين أحرقتهما الحمى • وها هو ذا يخشى وجهه يديه الهزيلتين المعروقتين ويأخذ يتكلم من خلال الشخير متأوها قائلاً انه انسان فقير جداً ، بائس جداً ، بسيط جداً ، غبي جداً ، جاهل جداً ، فهو يستحق أن يُمنَّ عليه بالصفح ، وأن يعتنى به ، وأن يدافع عنه ، وأن يُعطى ما يأكله ويشربه ، وأن لا يُترك ويُهجر ... قال هذا وقال مالا يعلم الا الله أيضاً • وكان وهو يتشكى هذا التشكى يلقي على ما حوله نظرات مذعورة كأنه يتوقع أن يهوى السقف ، أو أن تغور الأرض •

ورثى الجميع لحاله ورق قلبهم له • وأخذت صاحبة البيت تسكى منتحبة ، وراحت تُترقد المريض بنفسها • واقتنع مارك ايفانوفتش بأنه لا جدوى من تهجمه على ذكرى نابوليون ، فعاد الى حسن المعاملة وساعد صاحبة البيت فى ارقاد المريض • وأحب الآخرون أن يكون لهم نفع هم أيضاً فاقترحوا أن يهيشوا للمريض شراباً من مغلى الثوت قالوا انه ذو تأثير سريع قوى فى جميع الأمراض • ولكن زيوفايكين اعترض على هذا الادعاء ، قائلاً انه لا شيء أمتع من فنجان بابونج • أما زينوبى بروكوفتش فقد كان لطيفة قلبه يجهش باكياً ، ويدرف سيلا من الدموع ، ويعبّر عن ندمه على أنه أفزع سيميون ايفانوفتش بتلك الحكايات السخيفة ...



وتذكر أن المريض اشتكى من فقره ، وأنه طلب التصديق عليه ، فاقترح  
الاكتئاب فى تبرع يقتصر الآن على هذه الحلقة الصغيرة من النزلاء .

وراح كل واحد من الحضور يتأوه ويشن ويندب حظ سيميون  
ايفانوفتشن العائر ، دون أن يستطيع مع ذلك فهم مثل هذا الذعر الشديد  
الذى اعتراه على حين فجأة . ففيم هذا الذعر كله ؟ ماذا لو كان يشغل  
منصباً خطيراً وكان له زوجة وأولاد ؟ وماذا لو كان قد أُحيل الى محكمة؟  
انه لا يساوى شيئاً ، ولا يملك من حطام الدنيا الا صندوقاً عتيقاً وففلا  
ألمانياً . وقد لبث عشرين عاما من حياته راقداً وراء حاجز ، جاهلاً كل  
شئ عن العالم والحياة ومتاعبها . ثم اذا هو بمزحة باطله سخيفة ينقلب  
عقله فجأة ، ويجزع هذا الجزع كله حين يكتشف أن الحياة قاسية . . .  
أليست الحياة قاسية على جميع الناس ؟ « لو أنه كلف نفسه عناء التفكير  
فى أن الحياة قاسية على الناس كافة ، كما سيقول أو كيانوف فيما بعد ، اذن  
لاحتفظ بعقله ، واستمر يعيش كما نعيش نحن جميعاً . »

لبث المنزل طوال النهار لا يُبنى أحد فيه بغير سيميون ايفانوفتشن .  
فهم ما ينفكون يجيئون اليه ، ويسألونه عن حاله ، ويفدقون عليه المواساة  
. . . ولكن لم يبق ثمة حاجة الى مواساة فى المساء حين التهاب جسمه  
بالحمى وراح يهذى . وأوشكوا أن يستدعوا طبيباً ، وهباً جميع النزلاء  
يعتنون ويتناوبون السهر قرب سريره طوال الليل مخافة أن يقع له  
مكروه . ثم كلفوا صديقه السكر بالسهر عليه قرب سريره ، ومضوا يلعبون  
بالورق ليساعدهم اللعب على مواصلة السهر . ولكنهم لم يلبثوا أن شموا  
اللعب لأنه لم يكن قماراً بمال ، فليس فيه اغراء . وعندئذ تركوا اللعب  
وأخذوا يتناقشون ، واحتدم النقاش حتى صار صراخاً وضرباً على المائدة ،  
وحتى انسحب كل منهم الى ركنه وهو يصيح ويطلق كلاماً هاجراً عنيفاً .

واذ استبد بهم الحنق والغضب جميعاً ، لم يشأ أحد منهم أن يقوم بدوره في الحراسة • واتتهوا بأن ناموا جميعاً ، فخيم على البيت صمت مطبق • ثم ان البرد كان شديداً • وقد نام أوكيانوف آخر من نام • فاليكم مارواه بعد ذلك :

« لا أدري أكان ذلك حلماً أم كان واقعاً • ولكنني أحسست أن رجلين ، على مقربة مني ، كانا يتحدثان في نحو الساعة الثانية من الفجر • • لقد أدرك أوكيانوف أن زيموفايكين كان بسيل ايقاظ صديقه رمينوف وسمع الرجلين يتحدثان زمناً طويلاً ، ثم يقوم الثاني فيحاول أن يفتح باب المطبخ بمفتاح • وقد شهدت صاحبة البيت بعد ذلك أن المفتاح كان تحت مخدتها وأنه اختفى في تلك الليلة • ثم خيل الى أوكيانوف أنه يسمع الرجلين يمضيان الى ما وراء حاجز المريض ، فيوقدان هنالك شمعة •

ثم لم يعرف أوكيانوف عدا ذلك شيئاً ، لأنه لم يلبث أن نام ولم يستيقظ الا مع سائر من استيقظوا وهرعوا نحو السرير على أثر صرخة كفيفة بايقاظ ميت • وخيل الى الجميع أنهم رأوا شمعة مشتعلة تخفى • وفي أثناء ذلك دوَّت وراء الحاجز ضجة صرايح ، حتى اذا أضاموا المكان ، ورأوا رمينوف وزيموفايكين يقتلان ويكيل كل منهما لصاحبه التهم والشائم • • صاح رمينوف يقول :

- ما أنا ••• بل هذا القاتل •

فصرخ السيد زيموفايكين يقول :

- اتركني • اننى برىء • أحلف اننى لبرىء •

لم يكن وجهها الرجلين وجهى بشر ، ولكن لم ينتبه أحد الى ذلك كثيرا أول الأمر ، لأن المريض كان قد غادر سريره • حتى اذا استطاعوا

أن يفصلوا المحتربين أحدهما عن الآخر ، رأوا السيد بروخارتشين ممدداً تحت فراشه ، وربما مغشياً عليه . كان قد شد الى جسمه غطاءه ومخدته ، فما يرى على السرير الا فراش عتيق قدر لا مفرش عليه ( ولا كان عليه مفرش فى يوم من الأيام على كل حال ) . فأخرجوا سيميون ايفانوفتش من تحت الفراش ، وأضجموه فوقه ، ولكنهم لم يلبثوا أن لاحظوا فوراً أنه لا فائدة من القيام بأى شىء ، وأن أمر المريض قد انتهى ، فأعضاؤه قد تصلبت ، وأنفاسه لا تكاد تخرج من صدره . وأحاطوا به . ان جسمه كله يرتعش . ورأوه يحاول أن يومئ . وأن يتكلم ، ولكنه لا يستطيع أن يحرك لا يديه ولا لسانه . ومع ذلك كانت أجزائه تصطقق مثلما تصطقق ، على ما يقال ، أجزان رموس قطعها الجلاد منذ هنيهة فهى لا تزال حارة نازقة .

وتوقفت الارتجاجات والتشنجات أخيراً ، فتمددت ساقا السيد بروخارتشين ومضى يؤدى حساب حسناته وسيئاته . ما الذى حدث له ؟ هل خاف ؟ هل وافاه كابوس كما أكد ذلك رمينوف فيما بعد ؟ هل وقع شىء غير هذا ؟ لا يعرف أحد . وانما الامر الواقع هو أن من المحتمل أن سيميون ايفانوفتش ما كان ليحرك أصبعاً حتى ولو جاء مفوض الشرطة الى المنزل بنفسه ليطرد منه سيميون ايفانوفتش بسبب آرائه الفولتيرية وادمانه على السكر ، أو دخلت متسولة تعلن أنها امرأة أخيه أو جاء أحد يقول له انه استحق مكافأة قدرها مائتا روبل أو امتدت النار الى فراشه فاحترق رأسه . ولكن بينما كان يتبدد الانشده الأول ، ويسترد الحاضرون موهبة الكلام شيئاً بعد شىء ، ويأخذون يعرضون ما يبدو لهم من افتراضات ، وبينما كانت أوستينيا فيدوروفنا محمولةً تبش تحت المخدة وتحت الفراش وحتى فى الحذائين ، وبينما كانت تلقى أسئلة موجزة على رمينوف وزيموفايكين ، فان النزيل أوكيانوف الذى كان الى

ذلك الحين أقل هؤلاء الناس ذكاءً وأكثرهم خجلاً وأقلهم حماسةً ، فد استرد ، على حين فجأة ، حضور الذهن وسرعة البديهة ، واسترد جميع مواهبه الطبيعية ، فتناول قبعته وانسل خارجاً من البيت . . . وفي اللحظة التي بلغت فيها الفوضى ذروتها في هذا المنزل الذي كان الى ذلك الحين هادئاً ساكناً ، فتح الباب ، فظهر كالصاعقة تأثيراً سيدياً مهيب الطلعة نبيل المظهر قاسى الوجه مستاء التعبير ، يتبعه ياروسلاف ايلتش \* وتابعه ، ووراءهما يقف السيد أوكيانوف مضطرباً محتاراً . سار السيد النبيل المظهر القاسى الوجه قدماً الى السرير الذي كان يرقد عليه سيميون ايفانوفتش ، فجلسه ، فاذا هو يصعّر وجهه ويرفع كنفه ويعلن أن الأمر قد انتهى ، وأن الرجل مات ، مذكّراً مع ذلك أن هذا الحادث نفسه قد وقع في هذه الأيام الأخيرة لسيد نبيل المحند رفيع القدر فارح القامة بدا له هكذا أن يموت . قال ذلك وابتعد عن السرير ، مضيفاً أنه قد أزعج بغير فائدة ، ثم خرج .

وسرعان ما احتل ياروسلاف ايلتش مكانه ، فأصبح رمينوف وزيموفايكين بين يدي من يجب أن يكونا بين يديه . ألقى المفوض بضعة أسئلة ، واستولى بلباقة على الصندوق الذى كانت صاحبة البيت تنهياً لفتحه ، وردّ الحذائين الى مكانهما ، ملاحظاً انهما متقبان باليان لا يصلحان للاستعمال ، وأمر بأن ترد اليه المخدة ، ونادى أوكيانوف ، وطلب مفتاح الصندوق الذى وجد في جيب السكر زيموفايكين كأنما بمصادفة ، وفتح ماوى كنوز سيميون ايفانوفتش . كان كل ما فى الصندوق كاملاً لم ينقص منه شيء : خرقتان ، وجرايان ، ونصف منديل ، وقبعة عتيقة ، وعدة أزرار ، ونعال مهترئة ، وسيقان أحذية ، أى كل ما يخطر بالبال من مزق تفوح منها رائحة المفونة والتتن . ولم يكن هنالك ما يصلح غير القفل الألماني . وسئل أوكيانوف بقسوة ، فقال انه مستعد لحلف اليمين . وفتشست المخدة ، فلم يلاحظ أن هناك ما يميزها غير قدراتها الشديدة ، أما

من جميع النواحي الأخرى فهي تشبه أية مخدة • وأقبلوا عندئذ على الفراش • رفعوه أولاً ، ثم لم يلبثوا أن توقفوا لحظةً يفكرون ، حين سقط منه على الأرض شيء ثقيل رنّ رنين معدن • وتناولوا الشيء الذي سقط وجسوه فعرفوا أنه لفافة عشرة روبلات •

– هيه ! هيه ! هيه !

كذلك هتف ياروسلاف ايلتش مشيراً الى ثقب في الفراش كان يخرج منه الشعر والقطن الذي حشى به الفراش • ونظروا في الثقب من كنب فلاحظوا أنه ، وطوله نصف ذراع ، قد شق منذ وقت قصير بسكين اكتشفوها في الفراش نفسه بدس اليد ، ولم تكن الا سكين مطبخ صاحبة البيت • وما كاد ياروسلاف ايلتش يهتف مرة أخرى « هيه ! هيه ! » حتى سقطت لفافة ثانية تبعثها بضعة نقود مختلفة القيم • تناولوا فوراً كل ما سقط • وقدروا عندئذ أن من المستحسن فتح الفراش ، فطلبوا مقصاً •

ان بقية باقية من شمعة كانت تضيء في تلك اللحظة لوحة شائقة جداً لمن يلاحظها • • عشرة نزلاء متحلقين حول السرير ، بملابس غريبة ، مشعى الشعر ، لم يحلقوا لحاهم ، ولا غسلوا وجوههم ، قد تورمت أجفانهم من النعاس • بعضهم شاحب ، وبعضهم يتصبب منه العرق • • بعضهم يرتجف محموراً ، وبعضهم يقشعر جسمه من البرد • وصاحبة البيت مذهولة عن نفسها ، تقف هنالك وجلية ، مكتوفة اليدين تنتظر امتالا لياروسلاف ايلتش • ومن أعلى المدفأة تحملق الخادمة آفدونيا والقطعة الأثيرة عند صاحبة البيت ، متأملين باستطلاع وذعر ، هذا المشهد الذي يحده الحاجز المخلع • والصندوق المتور بطنه يكشف عن أحشائه التي تبعث على الاشمئزاز • والغطاء والمخدة ملقيان على الارض تحت الحشو

الذى ينزع من الفراش • وهذه كومه من قطع فضية ونقود أخرى ترى متلاثة على المنضدة العرجاء • وسيميون ايفانوفتش محافظ على هدوئه ، متمدد على سريره ساكنا لا يبدو شاعرا بدماره وخرابه • حتى اذا جىء بالمقص ، وأراد مرعوس من مرعوسى ياروسلاف أن يظهر نشاطا وهمة فشد الفراش بشيء من العنف ليسجبه من تحت صاحبه بمزيد من السرعة ، أخذ سيميون ايفانوفتش يتحرك متدحرجا على جنبه بكثير من الادب ، حتى صار ظهره الى المشاهدين • فلما شد الرجل الفراش شدة أخرى دار سيميون ايفانوفتش على بطنه ثم تدحرج مرة ثانية ، ولما كان خشب السرير ينقصه أحد ألواح رثى رأس سيميون ايفانوفتش يغطس فجأة الى تحت ، فما يرى الناظر بين ذلك الا قدمين معروفتين هزيلتين مزرقتين تشبهان غصنين من أغصان الشجر متكلسين • ولما كانت غطسة السيد بروخارتشين فى هذا الاتجاه هى الغطسة الثانية فى هذا الصباح ، فقد نبت فى الأذهان بعض الشك ، فاذا ببعض النزلاء يتسلقون على السرير بقيادة زينوبى بروكوفتش بغية أن يروا هل 'خبيء' هنالك شيء • ولكن هؤلاء المتحررين لم ينتفعوا من الصاق جباههم بالجدار باحثين منقنين • وبأمر موجز من ياروسلاف ايلتش يدعوهم الى أن يخلوا على الفور مكان تحقيقاته ، قام اثنان من أعقلهم فشد كل واحد منهما احدى ساقى سيميون ايفانوفتش ، هذا الرأسالى الذى لم يكن فى الحسبان ، وأعادوه الى السرير • وفى أثناء ذلك كانت قبضات الريش والقطن ما تنفك تطير هنا وهناك فى جميع الجهات ، وكان المال يتكدس أكواما ما تزال تكبر ثم تكبر ••• لقد أخرجت من الفراش روبلات ثقيلة كثيفة من روبلات النبلاء ، وأخرجت منها روبلات جديدة وأنصاف روبلات ، ونقود من ذات الخمسين كوبكا ، ونقود شعبية من ذات الخمسة وعشرين كوبكا ، وفساتل مما تجمه العجائز ، أى نقود من ذات العشر كوبكات والخمسة

كوبكات فضه • وكانت قطع النقد هذه ملفوفة بورق في كثير من الاعضاء ،  
ومرتبه على نظام ومنهج ، ومصقوفة صفا متقنا • وكان تمه نقود نادرة ،  
ونقود مجهوله ، وكانت بعض الروبلات ترجع الى عهود قديمة :  
مصكوكات مطموسه النقوش مختلطة الرسوم ، من عهد اليزابث وبطرس  
الأكبر وكاترين ، بينها دنائير المانيه من التاليرات المزدايه بصليبان •  
ووجدت كذلك نقود اصبحت الان نادرة جدا : نقود فضيه من ذات الخمسه  
عشر كوبكا قد نقتبت لتجعل افراطا ودرست نقوشها تماما ، ووجدت نقود  
نحاسية علاها صدا أخضر • وظهرت ورقة نقدية حمراء لا وجود لها  
الآن • حتى اذا فرغوا من هذا الفحص التشريحي وهزوا حشو الفراش  
فلم يسمعوا صليل أى نقد ، وأيقنوا من أنه لم يبق ثمة شيء ، وضعوا  
الاموال كلها على المنضدة وأخذوا يقومون بواجب عدتها • لقد تخيلوا في  
أول الأمر أنها تبلغ مليوناً • وكان المبلغ ضخماً على كل حال ، وان يكن  
بعيدا كل البعد عن أن يبلغ مليوناً • كان مجموعه ألفين وأربعمائة وسبعة  
وتسعين روبلا وخمسين كوبكا • فلو قد تم اكتاب التبرع الذي اقترحه  
زينوبى بروكوفتش فى الليلة البارحة اذن لوصل المبلغ الى ألفين وخمسمائة  
روبل •

صراً المال • ووشم صندوق الميت بالختم ، وقيل لصاحبة البيت حين  
سُمت شكواها أين ومتى تستطيع أن تقدم الشهادة التى تثبت ديونها على  
المرحوم • وطلب التوقيع ممن يجب أن يوقعوا ، وأشير بكلمتين الى امرأة  
الأخ • ولكن سرعان ما وضح أن امرأة الأخ هذه لم تكن الا أسطورة ،  
نشأت عن فقر فى خيال المرحوم بروخاتشين ، وهو فقر فى الخيال طالما  
عيب عليه فتقرر عندئذ أن لا يؤتى على ذكرها ، باعتبار أن ذلك لا فائدة  
منه عدا أنه يسىء الى سمعة السيد بروخاتشين • فلما انقضى الانفعال  
الأول ، وعرف ماذا كان المتوفى ، أصبح الحضور جميعاً صامتين لا

يتكلمون ، وأخذوا يتبادلون نظرات الريبة والشك • وثار بعضهم من أسلوب بروخارتشين هذا في الحياة ، وشعر بامتناع عميق •• ثروة كهذه ! كيف أمكن هذا الرجل أن يجمع مبلغا ضخما كهذا المبلغ ؟

وأخذ مارك ايفانوفتش يشرح ، واثقا من نفسه مسيطرا عليها ، لماذا سقط سيميون ايفانوفتش فجأة في مرض الذعر هذا • ولكن لم يصغ إليه أحد • وأطرق زينوبى بروفوكتش شاردا اللب يفكر ، وشرب أوكيانوف جرعة ، وتجمع الآخرون على أنفسهم ، وفي المساء أخذ كاتاريوف القصير الذى يتميز بأنف كأنه منقار عصفور ، أخذ يحسزم أمتعته ويربطها بعناية ، ثم غادر البيت منتقلا الى غيره قائلا لسائله بلهجة فائرة ان الزمان صعب ، وان الأجور فى هذا البيت باهظة جدا • أماصاحبة البيت ، فكانت تبكى بغير انقطاع ، لاعتة سيميون ايفانوفتش هذا الذى لم يتورع عن الاضرار ببيمة فقيرة مسكينة • ولما سأل أحدهم مارك ايفانوفتش لماذا لم يودع سيميون ايفانوفتش ماله أحد البنوك فى رأيه ، أجابه هذا بقوله :

— ماذا تريد ؟ هو انسان بسيط العقل ، يعوزه الخيال •

فقال أوكيانوف لصاحبة البيت :

— وأنت يا عزيزتى لم تكونى دونه بساطة ••• رجل أَرَدْتَهُ مزحة بسيطة ، يقيم عندك عشرين عاما ثم لا تستطيعين أن ••• هى • هى !  
••• يا عزيزتى ! •••

قالت صاحبة البيت تجيب ذلك الذى وجه السؤال الى مارك ايفانوفتش ، متظاهرة بأنها لم تسمع الكلمات المغرضة التى قالها أوكيانوف:  
— ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ علام يودع أمواله البنك ؟ ما كان عليه



الا أن يحمل الى قبضة طيبة منها ، وأن يقول لي : « خذى هذا لك  
يا أوستيوشكا الشابة ، وأطعميني الى آخر أيامى » ، وأحلف لك أنه لو  
فعل ذلك لأطعمته وُعَيت به ! آه . . . . يا له من كذاب . لقد خدعنى أنا  
البييمة الفقيرة ! »

وعادوا قرب سرير سيميون ايفانوفتش . انه الآن راقد رقدة لائقة ،  
مرتد أحسن رداء عنده ، وهو الرداء الوحيد على كل حال ، وذقنه  
المتصلبة مخبئة وراء ربطة العنق التى أسىء عقدها . لقد غسلوه ، ومشطوا  
شعره ، ولكنهم لم يحلقوا له ذقنه لأنهم لم يجدوا فى المنزل موسى حلاقة .  
كان ثمة موسى حلاقة ، هى ملك زينوبى بروكوفتش ، ولكنها بلغت من  
التلم أنها أصبحت لا تصلح للاستعمال ، فبيعت بسعر بخس فى سوق  
تولكوتشى ، وأصبح جميع النزلاء منذ ذلك اليوم يحلقون ذقونهم عند  
الحلاق . ولم يتسع الوقت لاصلاح الفوضى فى ركن سيميون ايفانوفتش .  
ان الحاجز المحظم راقد على الأرض يكشف عن عزلة ذلك الانسان الذى  
احتبأ وراءه ، ويرمز الى هذه الحقيقة : وهى أن الموت ينزع جميع الحجب ،  
ويهتك جميع الأسرار ، ويعرّى جميع المكائد . وحشو الفراش منشور  
على الأرض كلها ، فلو رآه شاعر لما فاته أن يشبه هذا الركن الذى أصبح  
الآن باردا خربا بعش من أعشاش أنثى السنونو « ربة البيت » . لقد  
خرّبت العاصفة كل شئ : ماتت الأم وصغارها ، وتبعثر العش الذى صنعه  
الحب من ريش وزغب .

غير أن وجه سيميون ايفانوفتش أقرب الى أن يكون وجه أنانى  
عجوز ، أو دورى سارق . هو الآن هادىء كل الهدوء ، كأنسان مرتاح  
الضمير ، كأنه لم يكن صانع تلك المكائد التى تخدع الناس خداعا دينيا .  
أصبح لا يسمع بكاء صاحبة البيت المهجورة . بل انه أشبه برأسمالى خبيث

فرر أن لا يضئع وقته فى غير عمل حتى القبر ، فهو الآن مستغرق استغراقا كاملا فى حسابات لانتتهى . وجهه يعبر عن تأمل عميق ، وشفته مزمومتان على وقار ما كان يُظن يوما أنه قادر عليه أثناء حياته . كان يبدو أنه قد اكتسب ذكاء كثيرا . انه لم يغمض عينه اليمنى الا نصف اغماض ، كأنه أراد أن يبلغ أمرا من الأمور على عجل ثم لم يتسع وقته لشرحه . . . . كان كمن يقول :

« هلا ككفت دموعك أيها الحمقاء ؟ هيا موتى ، هل تسمعين ؟ لقد مت أنا ولم تبقى بى حاجة الى أى شىء . ما أحلى أن يرقد المرء هذه الرقدة المريحة . . . . مادمت أقول لك اننى مت ! هذا مستحيل حقا ، ولكن ، مع ذلك ، هينى لم أمت ، وهينى أنهض فجأة ، فما عسى أن يترتب على ذلك ؟ »

الجارّة

١٨٤٧

« الجارة » ( Hoziaika ) ، كتب  
دوستوفسكى هذه القصة سنتى  
١٨٤٦ و ١٨٤٧ ، ونشرت فى مجلة  
« حوليات الوطن » فى شهرى تشرين  
الأول ( اكتوبر ) وكانون الأول  
( ديسمبر ) سنة ١٨٤٧ ، مج ٥٤ ،  
مج ٥٥ .

## الفصل الأول

١



أوردينوف أخيراً أن يستبدل بمسكنه مسكننا  
آخر . ان صاحبة البيت التي ينزل عندها ،  
وهي امرأة طاعنة في السن ، فقيرة جدا ، أرملة  
موظف ، قد اضطرت ، لأسباب لم تكن في  
الحسبان ، أن تترك سان بطرسبرج وأن تمضي تعيش عند أقرباء لها ، في  
قرية صغيرة ، حتى دون أن تنتظر الى آخر الشهر ، موعد انتهاء استئجارها  
المنزل . وقد بقي الشاب حتى آخر الشهر ، المدفوع الاجرة سلفا ، وهو  
الآن يفكر ، على أسف وحسرة ، في هذا البيت الذي يضطر الى تركه ،  
ويشعر من ذلك بحزن شديد . ومع ذلك فالشاب فقير ، وأجرة المسكن  
باهظة . ها هو ذا منذ الغداة ، بعد سفر صاحبة البيت ، يضع قبعته على  
رأسه ، ويخرج مطوّفا في الأزقة الضيقة من بطرسبرج ناظرا الى اللافئات

المصوقة على أبواب الدور ، متوقفا خاصة على العمارات القائمة المظلمة المكتظة بالسكان ، فان الأمل فى العثور على غرفة تناسبه لدى مستأجرين فقراء فى مثل هذه العمارات أكبر منه فى عمارات أخرى •

وانه لفى هذا الطواف والبحث ، اذا هو يشعر بعد فترة باحساسات جديدة تكاد تكون مجهولة ، تفزوه شيئا بعد شيء • لقد أخذ ينظر فيما حوله ، ذاهلا غير حافل أول الامر ، يقظا شديد الانتباه بعد ذلك • ان الجمهور و حياة الشارع والصخب والحركة والأشياء الجديدة وهذا النشاط كله وهذا الاضطراب الذى تضطربه الحياة اليومية فيضجر ساكن بطرسبرج المشغول المجهد المرهق الساعى عمره عينا ، بجهد ضخم ، الى الهدوء والراحة فى عشٍ دافئ يحصله بعمله أو وظيفته أو بوسائل أخرى ، ان كل هذه الأشياء التأفة السخيفة ، توقظ الآن فى نفس أوردينوف احساسا عذبا فرحا يوشك أن يكون حماسة • فخذاه الشاحبان يغشاهما شيء من حمرة ، وعيناه تسطمان بأمل جديد ، وهو ينشق الهواء البارد الطرى أنفاسا كبيرة ، بشراة • انه يحسن بخفة عظيمة لا عهد له بمثلها من قبل •

لقد عاش دائما حياة هادئة معتزلة ، وحصل منذ ثلاث سنين على درجة علمية ، فلما أصبح بذلك حرا على قدر الامكان ، مضى يزور رجلا عجوزا لم يكن يعرفه قبل ذلك الا بالاسم • وقد ترك ينتظر مدة طويلة، الى أن تكرم حاجب يرتدى ثياب الحجاب فى منازل الكبار ، أن يبلغ العجوز وصول الشاب مرة ثانية • فأدخل الى قاعة عالية السقف مظلمة مقفلة لا تحسن وفادة زوارها ، قاعة من هذه القاعات التى لا يزال يوجد مثلها فى بعض القصور التى تجمدت فيها الحياة • هنالك فى هذه القاعة رأى شيخا أشيب الشعر مثقلا بالأوسمة والنياشين هو صديق المرحوم أبيه ، والوصى عليه • نقده الشميع مبلغا ضئيلا من المال هو البقية الباقية

من ميراث أجداده الذى بيع بأمر من القضاء سدادا لديونه • فتناول  
أوردينوف المال غير مبال ، ثم ودّع الشيخ الوصىّ عليه الى الأبد ، وخرج  
الى الشارع • كان ذلك الأصيل من الخريف باردا مظلما ، وكان القتي  
ساهما شارد اللب واجما ، فى قلبه حزن كبير يمزقه تمزيقا • ان عينيه  
تشتعلان بلهب ، وان جسمه تتعريه رعشات حمى • وكان ، وهو سائر فى  
طريقه ، يجرى فى ذهنه حسابا ، فيدرك أنه بالمال الذى أخذه من الشيخ  
قد يستطيع أن يعيش سنتين أو ثلاثا ، وربما أربعا ، هذا اذا لم يأكل دائما  
كلما جاع • وهبط الليل • وأخذ المطر يهطل • واستأجر القتي أول  
مأوى وقع عليه ، فما هى الا ساعة حتى كان قد أقام به ، واستقر فيه •  
وهناك ، فى هذا المسكن ، حبس نفسه حبس من يعيش فى دير ، واستغنى  
عن العالم استغناء كاملا ، حتى أصبح بعد سنتين متوحشا كل التوحش  
لا يعاشر أحدا •

أصبح كذلك دون أن يلاحظ • كان لا يخطر بباله أن هناك حياة  
أخرى صاخبة مضطربة متغيرة جذابة ، لامفر منها عاجلا أو آجلا • صحيح  
أنه سمع عن هذه الحياة بالرغم منه ، ولكنه كان يجهلها ولايسعى الى معرفتها  
• • لقد قضى حياته فى عزلة • وهو الآن غارق غرقا كاملا فى هوى  
عميق ، هوى لا يشبع ولا يرتوى ، هوى من تلك الأهواء التى لا تدع  
لأشخاص مثل أوردينوف أى فرصة للقيام بأى نشاط عملى حياتى : ذلك  
الهوى هو « العلم » • كان ذلك الهوى يفسد شبابه بسم بطيء لذيد ،  
حتى ليعكر عليه راحة ليليه ، ويحرمه من الغذاء الصحى والهواء النقى  
الذى لم يكن يدخل مأواه قط • ولكن أوردينوف ، المولع بهواه المشغوف  
به ، كان لا يريد أن يلاحظ ذلك • انه شاب ، وهو لا ينشد الآن شيئا  
عدا ذلك • ان هواء يدعه طفلا فى كل ما هو حياة خارجية ، ويجعله  
عاجزا الى الأبد عن اقضاء بعض الناس ليتخذ لنفسه مكانا صغيراً بينهم عند

الضرورة . ان العلم هو في بعض الأيدي رأسمال ، أما هوى أوردينوف  
فقد كان سلاحا موجها ضده .

ولم تكن الرغبة الواضحة المنطقية في التعلم هي التي وَّجَّهته الى  
الدراسات التي وقف نفسه عليها حتى ذلك اليوم ، بل كان ذلك نوعا من  
انجذاب لا شعورى . لقد 'عدّ' شخصا غريبا متفردا منذ أن كان طفلا ،  
لأنه لم يكن يشبه رفاقه فى شيء . انه لم يعرف أبويه . وهو بسبب طبعه  
الغريب وبسبب توحشته قد قاسى كثيرا من زملائه فى المدرسة ، فزاده ذلك  
عبوسا ، حتى ابتعد شيئا فشيئا عن جميع الناس ابتعادا كاملا ، وانطوى على  
نفسه .

وهو فى دراساته المعتزلة لم يتبع لا فى الماضى ولا فى الحاضر نظاما  
أو ترتيبا . كان ذلك فيه أشبه بالاندفاع الأولى ، بالحماسة الاولى ،  
بالحميا الاولى التى يشعر بها الفنان . خلق لذاته مذهبا خاصا به : فكر  
فيه سنين طويلة ، فكانت تتكون فى نفسه ، شيئا بعد شيء ، صورة ما تزال  
غامضة ، ما تزال بنير شكل ، ولكنها جميلة جمالا لا نظير له ، صورة  
الفكرة تتجسد فى شكل جديد مشرق مضيء . وكان هذا الشكل الذى  
يريد أن يخرج من نفسه يعذبه ويرهقه من أمره عسرا . انه يشعر  
بأصالته وصدقه وقوته شعورا وجلا خجلا . كان مخلوق يريد منذ الآن  
أن يعيش بنفسه ، أن يتخذ شكلا ، أن يتقوى وأن يتعزز فى هذا الشكل ،  
ولكن نهاية الاختمار ما تزال بعيدة ، ولعلها بعيدة جدا ، ولعلها مستحيلة  
النال لا يمكن الوصول اليها بحال .

ها هو ذا أوردينوف اذن يسير فى الشوارع كغريب ، كناسك خرج  
فجأة من صحراء صمته ، فى المدينة الصاخبة المتحركة . ان كل شيء يبدو  
له جديدا طريفا شائقا . ولكنه غريب عن هذا العالم الذى يفتى من حوله



ويضطرب ، يبلغ من غرابته عنه أنه لم يخطر بباله أن يدهش من احساساته العجيبة هذه . كان لا يبدو أنه واعٍ توحشه . بالعكس : ان شعورا بالفرح ، شعورا يشبه شعور الجائع الذي صام زمنا طويلا ، ثم أعطى ما يأكله ويشربه ، كان ينشا في نفس اوردينوف . لقد يبدو امرا غريبا أن يكون حادث تافه تفاهة تغير مسكن كافيا لأن يطيش لب ساكن من سكان بطرسبرج وأن يلقى في نفسه هذا الانفعال ، ولو كان أوردينوف . ولكن يجب أن نذكر أن هذه المرة التي يخرج فيها أوردينوف ربما كانت هي المرة الاولى التي يخرج فيها لعمله . وكان استمتاعه بالطواف في الشارع ما ينفك يزداد ، وأصبح ينظر الى جميع الاشياء نظرة متسكع . ولكنه ما يزال حتى الآن وفيا لشاغله المؤلف ، فهو يقرأ في المشهد ، الذي ينكشف أمامه رائعا ، قرآته بين سطور كتاب . ان كل شيء يفجأ بصره ، انه لا يدع احساسا واحدا ، وهو بنظرته الساهمة يتفرس وجوه المارة ، ويلاحظ مظهر كل ما يحيط به في انتباه ، ويصفي مفتونا الى اللغة التي يتخاطب بها الشعب ، كأنه يتحقق خاصة من صدق النتائج التي خلص اليها في هدوء ليليه المعتزلة . وكثيرا ما يخطف بصره أمر تفصيلي ، فيوقف في نفسه فكرة ، فيشعر لأول مرة بالأسف والحسرة على أنه دفن نفسه حيا في زنزاتته . ان كل شيء يجري هنا جريانا أسرع : نبضات قلبه أقوى ، وفكره الذي أرهقته العزلة وكان لا يعمل الا بتحريض من الجهد المتحمس ينطلق الآن بخفة وثقة وجراءة . وهو يتمنى ، عدا ذلك ، على غير شعور تقريبا ، أن يدخل في هذه الحياة الغريبة عليه ، بشكل من الأشكال . ذلك أنه ، حتى هذا اليوم ، كان لا يعرف هذه الحياة . أو قل انه كان لا يتوجسها الا بفريرة الفنان . ان قلبه يخفق الآن بقلق الحب والمودة رغما عنه . انه يتفرس بمزيد من الانتباه وجوه الناس الذين يمرون أمامه ، ولكنهم جميعا بعيدون مهمومون ساهمون . . . وشيئا فشيئا

تبددت عاطفة أوردنيوف • أخذ الواقع يرهقه منذ الان ، ويفرض عليه نوعاً من الخشية والاحترام • ان هذه الفورة من الاحساسات التي كان يجهلها الى ذلك الحين أخذت تتعبه • فكما ينهض مريض من المرض عن سريره لأول مرة فرحاً ، ثم يعود فيهبوى بتأثير الضياء وزوبعة الحياة الساطعة ، كذلك أوردنيوف بهرته ألوان الجمهور الذي يمر أمامه ، وأتعبته ضجته ••• فاعتراه الحزن ، واتابه القلق • وأخذ يشعر بخوف على حياته كلها ، وعلى نشاطه ، وحتى على مستقبله • ان فكرة جديدة تقتل هدوءه : لقد قال لنفسه فجأة انه وحيد ، فما من أحد يحبه ، ولا أتبع له هو أن يحب أحداً في يوم من الايام • ان بعض المارة الذين كلمهم عرضاً حين بدأ جولته قد نظروا اليه نظرة غريبة ، جارحة • لقد لاحظ أنهم يعدونه رجلاً مجنوناً ، أو يعدونه انساناً شاذاً كل الشذوذ في أقل تقدير ، وذلك صادق تماماً على كل حال • وتذكر عندئذ أن جميع الناس كانوا يضيقون ذرعاً بوجوده ، دائماً ، وتذكر أن جميع الناس كانوا منذ طفولته ، يتحاشونه ويتجنبونه بسبب طبعه المغلق العنيد ، حتى أن العطف الذي كان يظهر في نفسه أحياناً كان يشق على الآخرين أو كانوا لا يفهمونه • ولقد تألم من هذا كله في طفولته ، يوم لم يكن يشبه أى طفل في سنه • انه يتذكر ذلك الآن ، فيدرك أن جميع الناس قد هجروه وهربوا منه في كل وقت من الأوقات •

وظل أوردنيوف يسير ويسير ، فإذا هو يجد نفسه في حي بعيد جداً عن وسط المدينة ، دون أن يشعر كيف وصل الى هذا المكان • وبعد أن تناول غداءً مختصراً في مطعم صغير ، استأنف طوافه في الشوارع ، فاجتاز ميادين ، حتى وصل هكذا الى طريق تصطف على جانبيه أشجار صفراء وغبراء • ليس ها هنا عمارات غنية ، بل أكواخ بائسة ، ومباني مصانع ضخمة عملاقة جمراء مسوَّدة ذات مداخن عالية • وكل ما حول

ذلك أرض خلاء قفراء • ان كل شيء هنا عابس كالجعدو ، أو ذلك ما يدا لصاحبنا أوردينوف • وكان المساء يقترب • وفي آخر شارع ضيق طويل وصل أوردينوف الى الساحة الصغيرة التي تقع فيها كنيسة الأبرشية •

دخل أوردينوف الكنيسة ذاهلا • كان القداس قد انتهى منذ قليل • والكنيسة تشبه أن تكون خالية • هاتان امرأتان عجوزان راكعتان عند المدخل • وهذا قندلفت ، وهو شيخ قصير اشيب الشعر ، يطنىء الشموع • ان أشعة الشمس الغاربة تجتاز زجاج القبة الضيقة موجةً كبيرة فتير أحد الهياكل بضياء ساطع • ولكن تلالؤ الأشعة يكبو شيئاً بعد شيء ، فكلما ازداد تكاثف الظلام فى داخل المعبد ازدادت فى بعض المواضع روعة تألق الأيقونات المذهبة ينيرها الضياء المهترز المنبعث من السُرُج والشموع • ألمٌ بأوردينوف غم عميق ، وشعور غريب بالاختساق ، فاستند الى الجدار فى أتم ركن من الكنيسة ، واسترخى لحظة • ولكنه لم يلبث أن تاب الى نفسه حين سمع وقع خطوات صماء منتظمة تدوى تحت قبة الكنيسة، هى خطوات زائرین اثنين • رفع أوردينوف عينه فأحس بحب استطلاع لا يوصف حين وقع بصره على هذين القادمين • انهما شيخ عجوز وامرأة شابة • العجوز فارغ القامة منتصب القد ، لكنه شديد النحول يعلو وجهه شحوب مرضى • يقدر المرء من النظر الى مظهره أنه تاجر من اقليم بعيد • انه يرتدى قفطانا طويلا أسود محلول الأزرار مبطناً بفراء لا شك أنه الرداء الذى يرتديه للأعياد ، وتحت القفطان يبدو ثوب آخر طويل جدا أحكم عقد أزراره من أعلاه الى أدناه • وقد لف عنقه بوشاح أحمر فاقع ، على اهمال ، وأمسك بيده طاقة من فرو ، وتهدأت على صدره لحية رقيقة شبياء ، والتمعت تحت حاجبيه الكثيفين نظرة محمومة متكبرة عميقة •

أما المرأة فهي فى نحو العشرين من عمرها ، جميلة جمالا رائعا •  
انها ترتدى معطفا جميلا قصيرا أزرق مبطنا بفراء نادر • وقد غطت رأسها  
بمنديل من حرير أبيض ، معقود تحت الذقن • وهى تمشى غاضبة  
طرفها : ان وقارا واجما نابعا من شخصها كله ، يلاحظ واضحا حزينا  
على حواشى وجهها الرقيق ذى الخطوط الدقيقة المرهفة العذبة الحلوة ،  
الفتية المراهقة •

ان فى هذين الرفيقين غير المنتظرين لشيئا غريبا •

توقف الشيخ فى وسط الكنيسة وانحنى الى جميع الجهات رغم أن  
الكنيسة خالية خلوا تاما ، فعلت صاحبه مثلما فعل ، ثم تناول ذراعها  
وقادها أمام صورة كبيرة من صور العذراء التى باسمها تسمى الكنيسة ؛  
كانت الصورة تسطع قرب الهيكل فى ضوء باهر من نيران يعكسها اطارها  
الذهبي المرصع بالأحجار الكريمة •

سلم القندلفت ، الذى كان وحيدا فى الكنيسة ، على الشيخ باحترام •  
فرد عليه الشيخ السلام بإشارة من رأسه • وركعت المرأة أمام الأيقونة ؛  
فتناول الشيخ طرف الحجاب الملق بالأيقونة فغطى به رأسها • ودوى فى  
الكنيسة بكاء منتحب أصم •

دهش أوردينوف من جلال هذا المشهد كله ، واشتعل فيه شوق  
شديد الى رؤية خاتمته • بعد دقيقتين أنهضت المرأة رأسها ، فأثار ضوء  
المصباح القوى وجهها الجميل الأخاذ من جديد • ارتش أوردينوف  
وتقدم خطوة الى أمام • كانت المرأة قد مدت يدها للشيخ ، فتناولها وخرج  
الاثان من الكنيسة على هون • كانت دموع تلتصق فى عيني المرأة الشابة ،  
وهما عينان زرقاوان عميقتان ، تملوهما أهداب تبرز على بياض وجهها  
وتظلل خديها الشاحين • وكانت ابتسامة تضيء شفيتها ، ولكن وجهها

يحمل آثار رعب غريب وذعر شديد من ذعر الاطفال • سدت نفسها الى الشيخ وجلة خجلى ، وكان من يراها يلاحظ أنها ترتعش ارتعاشا قويا من شدة الانفعال •

شمر اوردينوف بماطفة غربية فرحة عنيدة تحرضه على أن يتبعها فأسرع يسير وراءها حتى اذا وصلا الى الفناء الذى يقع أمام الكنيسة قطع عليهما الطريق ، فرشقه الشيخ بنظرة شذراء قاسية معادية ، والقى عليه المرأة الشابة نظرة قاسية أيضا ، ولكن ليس فيها شيء من حب الاستطلاع ، وانما هى نظرة ذاهلة ، كأن فكرة أخرى بعيدة كانت تسترقها •

ظل أوردينوف يتبعهما من غير أن يدركا ذلك • وكان الليل قد هبط • دخل الشيخ المعجوز والمرأة الشابة فى شارع كبير عريض قدر تملؤه دكاكين صغيرة شتى ، ومخازن دقيق ، وفنادق حقيرة ، شارع يفضى الى ظاهر المدينة رأسا • وفى هذا الشارع دخلا زقاقا طويلا ضيقا يحف به من طرفه سياجان ، وينتهى عند جدار ضخيم مسود هو جدار عمارة كبيرة مؤلفة من أربعة طوابق ، يطل مخرجها الآخر على شارع كبير مكنظ بالسكان • فلما أوشكا أن يلفا هذه العمارة التفت الشيخ فجأة الى وراء ، ورشق أوردينوف بنظرة تعبر عن التبرم ونفاد الصبر • فتوقف الفتى فورا وقد دهش هو نفسه من سلوكه • ثم التفت الشيخ مرة ثانية كمن يريد أن يتأكد من أن تهديده قد أحدث أثره • وولج الاثنان ، الشيخ والمرأة الشابة ، فى فناء المنزل •

عاد أوردينوف أدراجه يثوب الى منزله • انه معتكر المزاج قائم النفس • وهو يأخذ على نفسه أنه أضاع نهاره كله سدى على هذا النحو ، وأنه أجهد نفسه بغير داع الى هذا الاجهاد ، وأنه خاصة قد قام بهذا العمل الذى عده نوعا من مفاخرة وما هو فى حقيقة الأمر الاحداث تافه مبتذل •

ورغم ما شعر به عند الصباح من أسف لعزلته وتوحشه ، فإن غريزته الآن تحمله على أن يتجنب كل ما يمكن أن يصرفه عن عالمه الداخلى الفنى ، وأن يذهله عنه وأن يتزرعه منه . انه الآن يفكر فى ركنه الهادئ ، بشيء من الحزن وشيء من الحسرة . ثم شعر بغم وخوف ، وأحس بهمٍ وقلق ، قلق على وضعه غير المستقر ، وعلى المساعى التى يجب أن يقوم بها ، وكان يحقنه فى الوقت نفسه أن يضطر الى الاهتمام بمثل هذه الأمور التافهة البائسة . وأخذ منه التعب كل مأخذ حتى أصبح لا يستطيع أن يربط بين فكرتين ، ووصل أخيرا ، فى ساعة متأخرة ، الى مسكنه . وما كان أشد دهشته حين لاحظ أنه أوشك أن يمر أمام بيته دون أن يعرفه . فhez رأسه استفرابا لهذا الذهول الذى عزاه الى تعبهِ ، وصعد سلم المنزل صعودا آليا حتى وصل الى غرفته التى تقع تحت السطح . أشعل أوردينوف شمعة . فما هى الا دقيقة واحدة حتى انبعثت صورة المرأة الشابة الباكية فى خياله . ان هذه الصورة تلازمه وتحاصره قوية التأثير فى نفسه . وهو يتأمل قسما ت وجها الحلوة العذبة الهادئة ، وجها الذى يرين عليه حنان خفى وخوف قوى ، وتبلله دموع حماسة من حماسة الأطفال أو ندامة من ندامة الأطفال ، فيتأمل ذلك كله بحبٍ يبلغ من القوة أنه يحس عينيه تحتجبان وأنه يشعر بنار تسرى فى عروقهِ كلها . ولكن الرؤيا ما تلبث أن تزول . فبعد الاهتياج يأتى التفكير ، ثم يأتى الندم ، ثم يأتى نوع من الغضب . وبعد ذلك يتدثر أوردينوف بأعظيته ويرتمى على سريرهِ ، دون أن يخلع ملبسه ، وقد هذه التعب .  
هدأ . . .

استيقظ أوردينوف فى ساعة متأخرة من الضحى . انه يشعر بحرق ، ويشعر بحزن ووهن . ارتدى ثيابه بسرعة محاولا أن يفكر فى همومه اليومية ، حتى اذا صار خارج المنزل ، وجه خطاه فى اتجاه هو عكس

الاتجاه الذى سار فيه بالأمس • واهتدى أخيرا الى غرفة فى مكان ما ،  
بمنزل رجل ألماني فقير يسمى سيز ، ويعيش مع ابنته تينيش • فبعد أن  
استلم سيز عربون أجر الغرفة ، راح ينزع اللافتة التى كانت معلقة عند  
مدخل المنزل • وقد ارتضى أن يؤجر الغرفة لصاحبنا أوردينوف بسبب  
شفق أوردينوف بالعلم ، لأنه كان ينوى هو نفسه أن ينصرف الى الدرس  
انصرافا جديا • وقدّر أوردينوف أنه سيستقر بهذا المنزل فى ذلك المساء  
نفسه • وعاد يسير فى الطريق المفضى الى بيته ، ولكنه لم يلبث أن فكر  
فليلا ، فاذا هو يتجه فجأة فى الاتجاه المعاكس • كان نافد الصبر ، فبدأ له  
الطريق طويلا كل الطول • ووصل أخيرا الى الكنيسة التى دخلها مساء  
أمس • كانت الصلاة ترتل • فاختار مكانا يستطيع منه أن يرى جميع  
الداخلين الى الكنيسة تقريبا • ولكن الشخصين اللذين كان ينتظرهما لم  
يكونا هنالك • وبعد أن لبث ينتظر مدة طويلة ، خرج متقد الوجه  
احمرارا • واذ أصر على أن يكبح عاطفة كانت تغزوه رغما عنه ، حاول  
أن يغير مجرى تفكيره بكل ما أوتى من قوة • وارتد يفكر فى الشئون  
اليومية ، فرأى أنه قد آن له أن يتفدى ، واذ ظن أنه يشعر بجوع حقا ،  
دخل الى ذلك المطعم الصغير نفسه الذى تفدى فيه بالأمس • ولم يتذكر  
بعد ذلك كيف تركه •

وظل يطوف زما طويلا فى الشوارع والأزقة المزدهمة بالسكان  
أو الحالية المقفرة ، دون أن يكون فى ذهنه أفكار واضحة ؛ فوصل أخيرا  
الى مكان ناءٍ ليس من المدينة ، بل هو برية يمتد فيها حقل مصفر •  
هنالك كان يرين صمت عميق ، فشعر أوردينوف باحساس لم يشعر بمثله  
من زمن طويل ، فأب الى نفسه • ان ذلك النهار هو من تلك النهُر  
الجافة الباردة التى تُرى أحيانا فى شهر تشرين الاول ببطرسبرج • وغير  
بيد من ذلك المكان كان ثمة كوخ من أكواخ الفلاحين ، وعلى مقربة من

الكوخ ، كان نمة كومتا علف • وهذا حصان صغير ناتىء الجنين ، خافض  
الراس متدلى اللسان ، يقف بلا عدة قرب عربة صغيرة ذات عجلتين •  
كان الحصان كأنه يحلم بشيء ما • وهذا كلب يهمهم وهو يقضم عظمة  
قرب عجلة محطمة • وهذا طفل فى الثالثة من عمره لا يرتدى من الثياب  
الا قميصا يحك رأسه الأشقر ، وينظر مدهوشا الى هذا الحضرى الواقف  
هنالك • ووراء الكوخ تبدأ حقول وبساتين وعند الأفق يرى الخط الاسود  
الذى تبدأ عنده الغابة ، يحف بالسماء الزرقاء • وفى الجهة المقابلة  
تتكسد غيوم تلج وتبدو كأنها تطارد أمامها سربا من الطيور المهاجرة  
هاربا فى السماء بلا صياح • كل شيء صامت ، كل شيء حزين ، كأنه  
نوع من الانتظار ••• أراد أوردنيوف أن يوغل مزيدا من الايصال ،  
ولكن القفر أخذ يقبض صدره • فقاد الى المدينة حيث سمع على حين  
فجأة رنين نواقيس الكنائس تدعو المؤمنين الى صلاة الغروب • حث  
أوردنيوف الخطى ، فلم يلبث أن وجد نفسه أمام الكنيسة التى أصبح  
يعرفها معرفة جيدة منذ الليلة البارحة •

كانت المرأة المجهولة موجودة هنالك •

انها راكعة ، عند المدخل ، بين جمهور المصلين • شق أوردنيوف  
لنفسه طريقا بين الشحاذين والعجائز اللابسات أسمالا رثة والمرضى  
وذوى العاهات الذين ينتظرون الصدقات على باب الكنيسة ، وجاء يركع  
قرب المرأة الشابة المجهولة • تلامست ثيابهما • مسمع أوردنيوف نفسها  
اللافت يخرج من بين شفتيها ، ويهمس بدعاء حار • ان عاطفة من تقوى  
تمصف بقسمات وجهها الآن ، كما كانت تمصف بها أمس ، وان دموعا  
تسيل على خديها الملتئمين وتجف عليهما ، كأنما لتسلهما من جريمة  
رهية • كان المكان الذى يصليان فيه مظلما تماما • وفى لحظات قليلة



كان الهواء الذى يدخل من النافذة الضيقة المفتوحة يهز شمعة الشمعة  
فتسير وجه المرأة الشابة بضياء مترنح ، فاذا بكل قسمة من قسومات هذا  
الوجه المتقوش فى ذاكرة أوردينوف يعتم بصر الرجل ويطرق قلبه بألم  
أصم لا يطاق • ولكن هذا الألم كان يشتمل على متعة لا تقالب • ولم  
يستطع أوردينوف أن يتمالك نفسه ، فها هو ذا صدره يرتجف ،  
وها هو ذا يبكى ناشجا ويميل بجبينه المحترق فيضعه على البلاط البارد من  
أرض الكنيسة • أصبح لا يسمع شيئا ولا يحس شيئا الا عذاب قلبه الذى  
يموت ألما لذيذا •

هل العزلة هى التى أنشأت لدى أوردينوف هذه الحساسية المفرطة  
وهذا الصفاء وهذا الضعف فى العاطفة ؟ آكان توتب القلب هذا يتهاى فى  
ذلك الصمت الحائق اللانهائى ، صمت الليالى الطويلة الساهرة الأرقه التى  
تخللها صوات لا يشعر بها صاحبها ، وتخالطها رعشات روح نفذ صبرها ،  
أم أن الأمر لا يبدو أن يكون قد آن أو ان اللحظة الباهرة ، المحتومة ، التى  
لا معدى عنها ولا مفر منها ؟ انه ليتفق فى يوم حار خانق أن تتجهم السماء  
كلها على حين بقتة ، فتسقط الصاعقة مطرا ونارا على الارض العطشى ؟  
وتهطل الصاعقة لآلىء ماء على أغصان الشجر ، وتلطم عشب الحقول  
وتسحق الأزهار الطرية على الارض ، حتى اذا طلعت اولى أشعته انبعثت  
الحياة فى كل شىء من جديد ، وأخذ كل شىء يهلل للسماء ويرسل اليها  
بخوره المنعش ، ويغنى لها نشيد العرفان بالجميل ••• ولكن أوردينوف  
لا يستطيع الآن أن يدرك ما يجرى فى نفسه ، ولا يكاد يشعر بوجوده •

اتتهت الصلاة أخيرا ، حتى دون أن ينتبه أوردينوف الى ذلك ،  
ورأى نفسه يسير فى اثر المرأة المجهولة خلال الجمهور المتكاثف عند  
مخرج الكنيسة • فكانت المرأة الشابة المجهولة تلتفت اليه كلما أوقفها

الجمهور عن سيرها من لحظة الى لحظة • ان دهشتها ما تنفك تزداد ،  
وما هو ذا وجهها يصطبغ بالحمرة على حين فجأة •

وفى هذه اللحظة ظهر الشيخ الذى كان يرافقها بالأمس ، ظهر بين  
الجمهور بفتة ، فأمسك بذراعها • والتقى أوردينوف من جديد بنظراته  
الشذراء الساخرة ، فعض قلبه غضب غريب مفاجئ • واذ غابا عن بصره  
فى الظلام ، اندفع بجهد عنيف فخرج من الكنيسة • ولكن الهواء الطرى  
الذى كان يملأ جو المساء لم يستطع أن ينعشه • ان تنفسه يتقطع ويضعف ،  
وان قلبه يخفق خفقانا بطيئا قويا حتى لكأنه يريد أن يشق صدره •  
وأدرك أخيرا أنه ضيع صاحبيه المجهولين تماما ، فانه لم يرها لا فى  
الشارع ولا فى الزقاق الضيق • ولكن ها هى ذى فكرة خطة جريئة  
غريبة تنبت فى ذهن أوردينوف ، فكرة مشروع من تلك المشاريع الجنونية  
التي تكلم مع ذلك بالنجاح فى جميع الأحيان تقريبا •

ففى الساعة الثامنة من صباح الند مضى أوردينوف يذهب الى منزلهما  
من جهة الزقاق الضيق ، فدخل فناء صغيرا قدرا يشبه أن يكون حفرة  
لأوساخ العمارة •

كان البواب منهمكا فى عمل من الاعمال بالفناء ، فلما رأى أوردينوف  
داخلا توقف عن العمل مسندا ذقنه الى ذراع مجرفته ، ناظرا الى  
أوردينوف من رأسه الى قدميه ، ثم سأله عما يريد •

البواب فتى فى نحو العشرين من عمره ، ترى الأصل قصير القامة  
له وجه شاخ قبل الأوان فهو منغضن •

أجابه أوردينوف نائرا :

— أبحث عن مسكن •

فسأله البواب مبتسماً ، وهو ينظر إليه نظرة من يعرف قصته كلها :

- أى مسكن ؟

فقال أوردينوف :

- أريد استئجار غرفة لدى جيران •

قال البواب بلهجة غريبة :

- ليس فى هذا الفناء غرفة للتأجير •

- وهنا ؟

- ولا هنا !

قال البواب ذلك وعاد يتناول معجرفته •

قال أوردينوف وهو يدس فى يد البواب عشرة كويكات :

- لعلهم يؤجرونى غرفة مع ذلك •

فنظر التترى الى أوردينوف ، ووضع النقود فى جيبه ، وعاد يتناول

معجرفته مرة أخرى ، ثم قال يكرر بعد صمت قصير انه ليس هنالك غرفة

للتأجير •

ولكن الفتى كان قد كف عن الاصغاء اليه ، وأخذ يصعد الألواح

العفنة الملقاة على بركة واسعة من الماء تفضى الى المدخل الوحيد الذى

يوصل من هذا الفناء الى الجناح الاسود الوسخ الذى يشبه أن يكون غارقاً

فى هذا الماء الموحل •

كان يسكن فى الطابق الارضى من الجناح صانع توابيت فقير ، مرّ

أوردينوف أمام ورشته ثم أخذ يصعد الى الطابق الأعلى على سلم لولبى

زليح • وعثر وهو يتلمس فى الظلام ، على باب كبير أعوج ، فأدار مزلاجه  
وفتحه • لم يخطيء ظن أوردنيوف • فها هو ذا العجوز الذى يعرفه  
أوردنيوف واقفا أمامه يحدق اليه بنظرة ثابتة ودهشة شديدة •

قال العجوز موجزا بما يشبه الوشوشة :

– ماذا تريد ؟

– أعندكم مسكن للتأجير ؟

بذلك أجاب أوردنيوف ناسيا كل ما كان يريد أن يقوله تقريبا •  
ومن وراء كتف الشيخ العجوز ، لمح المرأة الشابة •

لم يجب الشيخ بشيء ، بل طفق يعيد اغلاق الباب دافعا معه  
أوردنيوف •

فقالت المرأة الشابة ، فجأة ، بصوت رقيق عذب :

– عندنا غرفة •

فترك الشيخ الباب •

قال أوردنيوف وهو يهرع داخلا فى البيت متجها الى الجميلة :

– أنا فى حاجة الى ركن ، أى ركن •

ولكنه لم يلبث أن توقف مدهوشا ، حتى يشبه أن يكون متجمدا ،  
حين ألقى نظرة على هذين الشخصين اللذين سيسكن عندهما • كان يمر  
أمام بصره مشهد صامت عجيب • ان وجه الشيخ ممتقع كوجه ميت • فمن  
رآه حسب أنه مريض • وهو يلقي على المرأة نظرة من رصاص ، نظرة  
ثقيلة ناقبة • والمرأة تشحب فى أول الأمر ، ولكن الدم ما يلبث أن يزدحم

فى وجهها ، وما تلبث عيناها أن تسطعا بلمعان غريب • وما هى ذى تقود  
أوردنيوف الى الغرفة الأخرى •

المنزل يتألف كله من حجرة واسعة يقسمها حاجزان الى ثلاثة  
أقسام • فمن فسحة السلم يدخل المرء رأسا الى حجرة ضيقة مظلمة ،  
فيواجهه الباب الذى يؤدى طبعاً الى غرفة أصحاب المنزل ، وعلى اليمين  
غرفة للتأجير • انها غرفة ضيقة واطئة السقف ، لها نافذتان صنيرتان  
واطئتان أيضاً ، تزدهم بأشياء شتى مما يوجد فى كل بيت • ولئن كانت  
فقيرة طفيفة ، فهى نظيفة على قدر الامكان • أثاثها لا يتعدى منضدة من  
خشب أبيض وكريسين عاديين جدا ومقعدين ضيقين وضما فى جهتي  
الغرفة على طول الجدار • وقد علق فى الزاوية أيقونة كبيرة ذات تاج  
مذهب ، يشتعل أمامها سراج • وهناك مدفأة روسية ضخمة غليظة يطل  
نصفها على هذه الغرفة ويطل نصفها الآخر على حجرة المدخل •

واضح أنه ليس فى الامكان أن يعيش فى هذا المنزل ثلاثة  
أشخاص •

بدأت المساومة على الأجر ولكن بغير تسلسل فى الأفكار ، حتى  
لا يكاد يفهم بعض عن بعض شيئاً • وكان أوردنيوف يسمع خفقان قلب  
المرأة الشابة وهو على بعد خطوتين منها • كان يرى انها ترتجف انفعالا ،  
بل وخوفا • وتم الاتفاق على الأجر أخيراً • قال الفتى انه سيسكن فى  
الغرفة فورا ، ونظر الى صاحب المنزل • كان الشيخ واقفا أمام الباب ،  
لا يزال شاحب الوجه ، غير أن ابتسامته رقيقة بل وواجحة كانت تطوف  
على شفتيه • فما ان التقى بنظر أوردنيوف حتى عاد يعبس مقطباً حاجبيه •  
سأل الشيخ الفتى فجأة بصوت عال وكلام موجز ، وهو يفتح باب  
حجرة المدخل :

- أعندك جواز سفر ؟

فأجابه الفتى بشيء من الدهشة :

- نعم •

قال الشيخ :

- من أنت ؟

فأجاب الفتى بلهجة هى لهجة الشيخ نفسها :

- فاسيلي أوردينوف • متعلم • لا أعمل فى مكان ، وانمسا أهتم

بشئونى •

قال الشيخ :

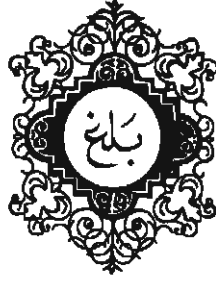
- وأنا كذلك • اسمى ايليا مورين ، بورجوازي • هل يكفيك

هذا ؟ هيا ...

وما هى الا ساعة حتى كان أوردينوف فى مسكنه الجديد • ولم  
تقل دهشته من هذا التغير عن دهشة الألمانى الذى كان قد أخذ يخشى هو  
وابنته تينيشن أن يكون المستأجر الجديد قد دبر لهما مكيدة من المكائد •

أما أوردينوف فانه لم يكن يفهم كيف وقع هذا كله ، ولا كان يريد

أن يفهم ...



خفقان قلب أوردينوف من القوة أن بصره اضطرب  
 ورأسه أصابه دوار • وأخذ أوردينوف يرتب  
 أشياءه الضئيلة في مسكنه الجديد ذاهلا عن نفسه ،  
 يعمل كما تعمل آلة • فض صرة تضم أشياء  
 مختلفة ، ثم فتح صندوق كتب فنضد الكتب على الطاولة ، ولكن هذا العمل  
 لم يلبث أن ثقل عليه • ان صورة المرأة الشابة التي هز لقاؤها كيانه كله،  
 وبث فيه اضطرابا شديدا ، ما تنفك تسطح أمام عينيه ••• ان ايمانا كبيرا  
 وحماسة لا تقاوم يدخلان الآن حياته ، بينما يخيم على أفكاره ظلام ،  
 وتهوى نفسه الى القلق والاضطراب •

تناول جواز سفره ومضى يأخذه لصاحب البيت آملا أن يبصر المرأة  
 الشابة • ولكن مورين لم يكذب يشق الباب شقا ، فيتناول منه الورقة ،  
 ويقول له « أرجو لك حياة هادئة » ، ثم يغلظ الباب • ان شعورا مزعجا  
 يعترى أوردينوف • ان رؤية هذا الشيخ تثقل على صدره ، لا يدري  
 لماذا ! ان في نظرتة شيئا من احتقار ومن شر • ولكن الشعور المزعج لم

يلبت أن تبدد • ان اوردينوف يعيش منذ ثلاثة أيام فيما يشبه الزوبعة ، اذا قيست حياته الآن بحياة الهدوء التي كان يحياها من قبل ، ولكنه لا يستطيع ان يفكر ، بل هو يخشى أن يفكر • ان كل شيء قد اختلط واضطرب في وجوده • أحس احساسا مبهما بأن حياته قد انشطرت شطرين • فهناك الآن صبوة وحيدة ، هناك رنو وحيد استولى على كيانه كله ، فما من فكرة أخرى لها عليه سلطان •

عاد أوردينوف الى غرفته مدهوشا • وهناك ، قرب المدفأة ، حيث يهياً الطعام ، كانت تعمل امرأة عجوز قصيرة منتفضة • انها تبلغ من القذارة ، وان ملابسها تبلغ من الرثاثة والوساخة ان منظرها يبعث الشفقة حقا • ولكن في وجهها خبثا وشرا ، وهي تدمم بين أسنانها بعض الكلام من حين الى حين • ان هذه العجوز هي خادمة أصحاب البيت • حاول أوردينوف أن يعقد معها حديثا ، ولكنها اعتصمت بالصمت ، عن مكر واضح • حتى اذا حانت ساعة الغداء أخرجت من المدفأة حساء كرنب وفطائر لحم فحملتهما الى أصحاب البيت ، ثم قدمت لأوردينوف هذا الطعام نفسه • وبعد الغداء ساد المنزل صمت كأنه صمت الموت •

تناول أوردينوف كتابا ، فظل يقلب صفحاته محاولا أن يفهم ما سبق ان قرأه مرارا دون أن يظفر بطائل ، فثارت نائزته ، فرمى الكتاب ، وعاد يحاول أن يضع أشباهه في مواضعها • ثم مشط شعره ، وتدثر بمعطفه ، وخرج •

ظل يضرب في خارج البيت على غير هدى ، لا يعرف الطريق الذي يسير فيه ، محاولا طوال الوقت أن يركز أفكاره المشتتة ما أمكن التركيز، وأن ينظر في وضعه قليلا • ولكن هذا الجهد لم يزد على أن سبب له عذابا • انه يشعر ببرد ثم يشعر بحر ، وان قلبه ليلغ من شدة الحفقان في بعض اللحظات أنه يضطر الى الاتكاء على جداره • همس يقول محموم



الشفقتين مرتعشا دون أن يفكر فيما يقول : « لا ... الموت خير من هذا  
... الموت أفضل من هذا ! » .

ولبت يمشى زمنا طويلا . فلما أحس أخيرا أنه ابتل حتى العظام ،  
ولما لاحظ لأول مرة أن المطر كان يهطل غزيرا ، قفل راجعا الى البيت .

فحين أصبح على مقربة من البيت لمح البواب ، فبدأ له أن الترى  
يحدق اليه بشيء من حب الاستطلاع ، ولكنه حين أدرك أن أوردينوف  
يلاحظه تابع سيره .

قال له أوردينوف وقد لحق به :

- نهارك سعيد . ما اسمك ؟

فأجاب الترى كاشفا عن أسنانه :

- أنا بواب ، واسمى بواب .

- أنت فى هذا المنزل منذ زمن طويل ؟

- نعم منذ زمن طويل .

- هل صاحب بيتى بورجوازى ؟

- هو بورجوازى اذا كان يقول ذلك .

- ماذا يعمل ؟

- انه مريض ، يعيش ، ويصلى ... هذا كل شيء ...

- وهذه المرأة زوجته ؟

- أى مرأة ؟

- المرأة التى تعيش معه ؟

- هي زوجته اذا كان يقول ذلك • وداعا يا سيدي !

قال الترى ذلك ملامسا طاقته ودخل بيته •

عاد أوردينوف الى مسكنه • ففتحت له العجوز الباب وهي تتمتم  
ببعض الكلام ، ثم أفضلته بالمزلاج ، ورجعت تستقر على المدفأة حيث تكمل  
حياتها • كان الليل يهبط • مضى أوردينوف يعجى بنور ، فلاحظ أن باب  
صاحبي البيت مقفل بالفتاح • نادى العجوز • كانت العجوز تحددق اليه  
من فوق المدفأة مسندة رأسها الى كوعها وكأنها تتسائل ما عساه يستطيع  
أن يفلح قرب القفل من غرفة صاحبي البيت • ودون أن تقول له شيئا ،  
رمت اليه علبة كبريت •

رجع الى غرفته ، وأخذ للمرة المائة يرتب أنشياه وكتبه • ولكنه  
شيئا فشيئا ، دون أن يدري ماذا يحدث له ، رأى نفسه يجلس على المقعد ،  
وخيل اليه أنه ينام • وكان يثوب الى نفسه في بعض اللحظات ، فيدرك  
أن نومه ليس نوما ، بل هو نوع من غيبوبة مرضية أليمة • سمع الباب  
يُفتح ثم يغلاق • فقدر أنهما صاحبا البيت عائدان من صلاة الغروب فخطر  
بباله ان عليه أن يذهب اليهما ليحجى من عندهما بشيء • فنهض عن مكانه  
يريد أن يذهب اليهما ، ولكنه ترنح وسقط على كومة من حطب كانت  
المرأة العجوز قد ألقتها في وسط العرفة • وعندئذ أغمى عليه تماما •  
فلما أفاق بعد فترة وفتح عينيه لاحظ مدهوشا أنه راقد على نفس المقعد  
الطويل العتيق ، مرتد نياحه كاملة ، وأن وجه امرأة بارع الجمال ، مبللا  
بدموع عذبة حلوة كدموع أم ، كان يميل عليه حانيا عاطفا شديدا الانتباه •  
وشعر أن مخدة توضع تحت رأسه ، وأنه يُدثر بشيء دافئ ، وأن يدا  
رقيقة تمسح جبينه المحترق • أراد أن يقول شكرا ، أراد أن يتناول هذه  
اليد الرقيقة ، أن يقربها من شفثيه الجافتين ، أن يبللها بدموعه ، أن يقبلها

الى الأبد ... أراد أن يقول أشياء كثيرة أيضا ... ولكن ماذا ؟ انه لا يدري هو نفسه . أراد في تلك اللحظة أن يموت ... كانت يدها كالرصاص ثقلا ، وظلتا ساكنتين جامدتين لا تتحركان . وخيّل اليه أنه أصبح أخرس . لكنه يحس بدمه يتدفق في جميع شرايينه تدفقا قويا كأنه يريد أن ينفضه عن مرقده . ناوله أحد ماء ... ثم أغمى عليه .

استيقظ في الصباح ، في الساعة الثامنة من الصباح . كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية من خلال الزجاج الضارب الى الخضرة ، الوسخ ، زجاج نوافذ غرفته . ان احساسا عذبا يسرى في جميع أعضاء المريض . كان هادئا ساكنا سعيدا غاية السعادة . وخيّل اليه أن أحدا كان منذ برهة ساهرا عليه . استيقظ باحثا من حوله عن ذلك الانسان الذي لا يراه . كان يود لو يستطيع أن يعانق صديقا ، أن يقول لأول مرة «صباح الخير، صباح الخير ، يا صديقي ، » .

قال صوت امرأة عذب رقيق :

- نمت نوما طويلا .

فاستدار أوردينوف . ان وجه الجارة الجميلة يتسم إبتسامة فاتحة ، مضيئة كالشمس ، ويميل عليه .

قالت :

- طال مرضك . كفالك هذا . انهض الآن . لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب ؟ ان الحرية أشهى من الخبز ، وأبهى من الشمس . انهض يا صديقي انهض ...

تناول أوردينوف يدها ، وشد عليها شدا قويا . خيّل اليه أنه ما يزال يحلم .

- انتظر • لقد أعددت لك شايًا • هل تريد قليلا من الشاي؟ اشرب شيئا من الشاي • سيفعلك شرب الشاي • أعرف هذا ، فقد مرضت أنا أيضا •

- نعم نعم ، اسقني شيئا •

كذلك قال أوردينوف بصوت منطفيء •

ونفض • كان لا يزال ضعيفا جدا • ان فشعريرة تسرى في ظهره •  
وانه يحس بأوجاع في جميع أعضائه ، كأن جميع أعضائه مكسرة محطمة •  
غير أن في قلبه نورا ، وأشعة الشمس تنعشه وتبث في روحه فرحا رائعا •  
انه يشعر أن حياة جديدة ، قوية ، خفية عن الأبصار قد بدأت فيه •  
وكان يشعر بشيء من دوار •

قالت المرأة الشابة :

- هل اسمك فاسيلي ؟ لعلني أخطأت السمع ، ولكن رب الدار سماك بهذا الاسم أمس •

- نعم ، فاسيلي • وأنت ما اسمك ؟

قال أوردينوف ذلك وهو يقترب منها ولا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه •

وترنح ، فأمسكته من يده وضحكت ، ثم قالت له وهي تحديق الى عينيه بعينها الزرقاوين الصافيتين :

- أنا ؟ كاترين •

وتماسكا يدا يدا •

سألته أخيرا :

- هل تريد أن تقول لى شيئا ؟

فأجابها أوردينوف بقوله :

- لا أدرى •

واظلم بصره •

- ألا ترى الحالة التى أنت فيها ؟ •• حسبك هذا يا طائرى ،  
حسبك • لا تعذب نفسك مزيدا من التعذيب • أقعد هنا ، أمام المنضدة ،  
قبالة الشمس • امكث هنا هادئا ، ولا تبغنى ( أضافت قولها هذا اذ لاحظت  
أن الفتى يهم أن يتحرك ليمسك بها ) • سأعود فورا • سترانى كثيرا •  
وعادت بعد دقيقة تحمل الشاى ، فوضعت الشاى على المائدة ، وقعدت  
أمام أوردينوف •

قالت :

- خذ • اشرب • هل بك صداع ؟

- لا • زال الصداع الآن • لا أدرى • قد يكون بى صداع •  
لا أريد ••• كفى كفى ! لا أعرف ما الذى بى •

قال ذلك مضطربا أشد الاضطراب بعد أن استطاع أخيرا أن يتناول  
يد كاترين ••• وأضاف يقول لاهنا من فرط الحماسة ، وكأنه ينتزع  
كلامه من قلبه ، بينما يملأ النشيج حلقه :

- على عيني غشاوة ••• عيناي مبهورتان ••• اننى أنظر اليك  
نظرتى الى الشمس •

- يا صديقى ، أنت اذن لم تعش فى كنف انسان شهم • أنت  
وحيد ، وحيد • أليس لك أقرباء ؟

– ليس لى أحد • أنا وحيد • ليس لى أحد • آ ••• تحسنت حالى  
الآن • أنا الآن بخير •

قال أوردینوف ذلك هاذيا ، وكان يرى العرقة تدور من حوله •  
قالت بعد لحظة صمت :

– أنا أيضا ظلمت وحيدة عدة سنين • ما أعرب نظرتك الىّ ا •••  
– ماذا فى نظرتى ؟

– انك تنظر الىّ نظرة من تحييه رؤيتى وتبث الدفء فى قلبه !  
هل تعلم ؟ انك تنظر الىّ نظرة من يشعر بحب ••• أما أنا فقد خفقت  
قلبى لك منذ أول كلمة • اذا مرضت فسوف أعنى بك • ولكن لا تمرض •  
لا لا ، حين ستشفى من مرضك سنعيش أختا وأختا • هل تريد ؟ صعب  
أن يصبح للمرأة أخت اذا لم يكن الرب قد وهب له أختا ••

قال أوردینوف بصوت واهن :

– من أنت ؟ من أين أنت ؟

– أنا لست من هنا ! ولكن فيم يعنىك هذا ؟ هل تعلم ؟ يحكى أن  
اثنى عشر أختا كانوا يعيشون فى غابة مظلمة ••• وحدث أن ضلت فتاة  
فى هذه الغابة ••• فوصلت الى منزلهم ، فرتبت كل شىء فيه ، وشملتهم  
يحبها جميعا • عاد الاخوة ، فعرفوا أن أختا مرت بمنزلهم فى النهار ••  
نادوها • جاءت اليهم • سموها جميعهم أختا • فكانت لا تفرق بينهم ، بل  
تعاملهم معاملة واحدة • هل تعرف هذه الحكاية ؟

أجاب أوردینوف بصوت خافت :

– نعم أعرفها •

- الحياة متعة • أيسرك أن تحيا ؟

- نعم نعم •• أن أحيا طويلا •• طويلا ••

كذلك أجاب أوردينوف • فقالت كاترين ساهمة :

- لا أدري • اننى أتمنى الموت أيضا • الحياة متعة ••• ولكن •••

أواه ! ما لوجهك يشحب لونه من جديد ؟

- بى دوار !

- انتظر • سأجيئك بفراشى • انه خير من هذا • وسأجيئك بمخدة

أخرى ، وسأهين سريرك • وسوف تنام ، فترانى فى نومك ، فيذهب

مرضك ••• عجوزتنا مريضة هى أيضا •••

كانت تقول هذا الكلام وهى تهين السرير ، وتلقى من فوق كنفها

نظرة على أوردينوف من حين الى حين •

قالت وهى تدفع صندوق الكتب :

- عندك كتب •

واقتربت من أوردينوف ، فتناولت يده اليمنى ، وقادته نحو

السرير ، فأضجته ، وأحاطت به • قالت وهى تهز رأسها واجمة ساهمة :

- هل تحب قراءة الكتب ؟

- نعم •

قال أوردينوف ذلك وهو لا يدري أنائم هو أم يقظ ، قال ذلك •

وهو يشد على يد كاترين شدا قويا ليحقق من أنه ليس بنائم :

- عند سيدى كتب كثيرة أيضا • يقول انها كتب رائعة • انه يقرأ

لى دائما فى أحد هذه الكتب • سأريك هذا الكتاب بعد ، فنقول لى ماذا  
فيه •••

– نعم سأقول لك •••

قال أوردینوف ذلك وهو يتفرس فيها •

سألته بعد صمت قصير :

– هل تحب الصلاة ؟ أتعلم ؟ اتنى أشعر بخوف ، أشعر بخوف من

كل شيء ، دائما •••

لم تكمل كاترين جملتها ، ولاح عليها أنها تفكر فى شيء ما •

حمل أوردینوف يدها الى شفتيه •

– لماذا تقبل يدي ؟

قالت ذلك وقد احمر خذاها قليلا •

ثم أضافت ضاحكة وهى تمد اليه يديها كليهما :

– هيا ••• قبلهما •

ثم سحبت احديهما ووضعتها على جبينه المحترق • ثم أخذت تلاعب

شعره • ان حمرة وجهها تشتد • وأخيرا قعدت على الأرض قرب السرير •

وأسندت خذاها على خد الفتى • ان أنفاسها الحررى تهب على وجهه •••

وشعر أوردینوف فجأة بدموع سخية تسقط على خده ثقيلة

كالرصاص • كانت كاترين تبكى • أخذ أوردینوف يزداد ضعفا ووهنا •

أصبح منذ الآن لا يستطيع أن يرفع يديه • وفى هذه اللحظة دوت

خربة فى الباب • وصرّ المزلاج • استطاع أوردینوف أن يميز صوت



رب المنزل آتيا من الغرفة المجاورة • ثم سمع كاترين تنهض فتناول كتابها دون تعجل ودون اصغاء ، وراها بعد ذلك ترسم عليه اشارة الصليب وهي تنصرف • أغمض عينيه • وفجأة أحس بقبلة حارة طويلة تحرق نفتيه ، وشعر كأن طعنة سكين تنفذ في قلبه • أطلق صرخة ضعيفة ، ثم أغمى عليه •

بعدئذ بدأت بالنسبة اليه حياة غريبة عجيبة •

ففى بعض اللحظات ينبع في فكره شعور غامض مبهم بأنه قد حُكم عليه أن يعيش حلما طويلا لا نهاية له ، مليئا باضطرابات غريبة وصراعات وآلام عقيمة ؛ فيشعر بذعر شديد ، ويحاول أن يتمرد وأن يسور على هذا القدر الذى ينقل صدره • ولكن حين يبلغ الصراع أشد لحظاته حدة وضراوة ، يحس بقوة مجهولة تضربه من جديد ، فيدرك ادراكا واضحا كيف أنه يفقد ذاكرته مرة أخرى ، وكيف أن ظلما رهيبا ، لا مخرج منه ، ينتشر أمامه من جديد ، فيندفع اليه صارخا صرخة قلق ويأس • وفى لحظات أخرى يشعر بسعادة عنيفة مسرفة فى العنف ، سعادة ساحقة ؛ يحدث ذلك حين تزداد الحيوية فى الكيان الانسانى كله الى غير حد ، حين يصبح الماضى أوضح وترجع أصداة انتصار الفرح ، حين يحلم المرء بمستقبل مجهول ، حين يهبط على النفس أمل رائع كالندى المنض ، حين يشتهى المرء أن يصرخ من فرط الحماسة ، حين يحس أن الجسد عاجز أمام كثرة الأحاسيس وغزارتها ووفرتها ، حين ينقطع خيط الوجود ويعطو فى الوقت نفسه هتاف التهليل لانبعاث الحياة الجديدة •

وكان أوردنوف يرتد فى لحظات أخرى الى خدره ، وعندئذ فان كل ما حدث له فى الأيام الأخيرة يمر فى خاطره من جديد مرور زوبعة • ولكن المنظر يعرض له حينذاك فى مظهر غريب سرى •

وكان فى بعض الأحيان ينسى أثناء مرضه ما حدث له ، ويستغرب أن لا يجد نفسه فى مسكنه القديم عند صاحبة البيت القديمة ؛ ويدهشه أن لا يرى العجوز تقرب ، كما اعتادت أن تفعل ذلك دائما ، من المدفأة شبه المنطفئة التى تير بضياؤها الضعيف المهتز المترجح كل الركن المظلم من الغرفة ، وأنها لا تطفىء يديها المعروقتين المرتجفتين على الموقد الذى خبت ناره ، كما ألفت أن تفعل ذلك دائما ، ملقية من حين الى حين نظرة دهشة على نزيلها العجيب الذى كانت تعده مجنونا بعض الشيء من طول ما يكب على القراءة •

وكان فى لحظات أخرى يتذكر أنه أبدل مسكنه ، ولكن كيف تم ذلك ؟ انه لا يدري كيف تم ذلك ، رغم كل ما يبذله من جهود عنيفة عنيدة فى سبيل أن يفهمه ••• أما أين وماذا وما هذا الذى يعذبه ويلقى فى نفسه هذه النار التى لا تطلق ، هذا اللهب الذى يخنقه ويحرق دمه فذلك ما لم يكن فى امكانه أن يعرفه • وها هو ذا يعود الى النسيان من جديد ، فلا يتذكر شيئا البتة • وكثيرا ما كان يقبض قبضا شرها على طيف من الأطياف • وكثيرا ما كان يسمع وقع خطوات خفيفة قرب سريره ، ودمدمة أصوات عذبة مهددة رقيقة كأنها موسيقى • وهذه أنفاس لاهثة رطبة تمر على وجهه ، فيهتز كيانه كله جبا • وهذه دموع محرقة تسيل على خديه الملتهين ، وهذه قبة طويلة رقيقة تنصب فجأة على شفتيه • ان حياته كلها تنطفىء عندئذ فى عذاب لا نهاية له ؛ ويبدو له أن الوجود كله ، والكون كله يتوقفان من حوله ، يموتان من حوله قرونا برمتها ، وأن ليلا طوله ألف سنة يمتد عليه •••

وهو فى بعض الأحيان يعيش مرة أخرى السنين الحلوة من طفولته الأولى ، بأفراحها الصافية وسعادتها التى لا حدود لها ، بأولى مشاعر

الدهشة الفرحة ، بجمهرة الأرواح المضيئة تخرج من كل زهرة يقطفها ،  
وتمضي تلعب معه فى السهل الأخضر المشب أمام البيت الصغير الذى  
تحيط به أشجار الأكاسيا ويتسم له عند بحيرة البلور التى يقضى على  
شاطئها ساعات طويلة مصغيا الى خرير أمواجها ؛ ومصيخا بسمعه كذلك  
الى اصطفاق أجنحة تلك الأرواح التى تنشر على مهده الصغير أحلاما  
زاهية الالوان كقوس قزح بينما تكون أمه ، الحانية على هذا السرير ،  
تقبله وتتوأمه مغنية له أغنية حلوة عذبة حلوة فى اللبالي الهادئة الساكنة .  
ولكن انسانا يظهر له من جديد فيقلقه أشد القلق ويرعبه بفرع ليس كفزع  
الأطفال ، ويسكب فى نفسه أول سم بطيء من سموم الالم والدموع . انه  
يشعر شعورا مبهما بأن الشيخ المجهول يقبض بسلطانه على جميع سنيه  
المقبلة ، فما هو ذا يرتشش أمامه ولا يستطيع أن يحول عنه بصره . ان  
الشيخ الحثيث الشرير يلاحقه فى كل مكان ويطارده أينما يذهب . يظهر له  
ويطل عليه ويهدده برأسه من فوق كل دغل فى الغابة الصغيرة . يضحك  
مقهقها ويماكسه ويناكده ؛ يتجسد فى كل دمية من الدمى التى كان يلعب  
بها ابان طفولته ؛ يكشف له ، ينفجر ضاحكا فى يديه ، كجنى خيىث  
شرير من الجن التى تسكن جوف الأرض . ينبثق من كل كلمة من  
كلمات كتاب النحو الذى يقرأ الصبى سطوره ، ينبثق مصعرا وجهه عن  
أسنانه . . . فاذا نام الصبى جلس الشيخ قرب سريره . . . يطرد أسراب  
الأرواح المضيئة التى ترفرف حول مهده بأجنحتها التى هى من ذهب  
وياقوت . وهو يدفع عنه ، الى الأبد ، أمه المسكينه ؛ ويظل ليلة بكاملها  
يهمس له بقصة رائعة لا يفهمها قلب طفل ، ولكنها تبث فيه اضطرابا ورعبا  
وهولا ، وتشعل قلبه بهوى جامح كيس كهوى الأطفال . والشيخ الشرير  
لا يسمع نحيبه ونشيجه ، ولا يصنى الى رجائه ودعائه ، ويمضى يحدثه  
ثم يحدثه الى أن يغمى عليه .

ويستيقظ الطفل رجلاً • لقد انقضت سنين طويلة دون أن يدرك ذلك • وفجأة يعرف وضعه على حقيقته ، ويفهم أنه وحيد وغريب عن الكون كله • وحيد بين أناس أشرار ، أناس مقلقين ، أعداء يتجمعون ويتهايمسون في أركان غرفته المظلمة ، ويومثون برءوسهم الى العجوز القاعدة قرب النار تدفئ يديها الواهيتين العجفاوين ، وتومئ • هي لهم اليه • ان نفسه مضطربة أشد الاضطراب ، يريد أن يعرف ما هؤلاء الناس ، ولماذا هم هنالك ، ولماذا هو في غرفته • ويقدر أنه وقع في مغارة لصوص من قطاع الطرق ، وأن قوة جبارة مجهولة هي التي قادته الى هذه المغارة ، قبل أن يفحص هؤلاء السكان وهؤلاء الناس • تستبد به الحشية منذ الآن • وفجأة ، في وسط الليل ، في الظلام ، يعود يسمع القصة الطويلة بصوت خافت • هي امرأة عجوز تكلم برفق ، هازئة رأسها الأبيض على حزن ، أمام النار التي تنطفئ • ويقبض عليه الهول والرعب من جديد • الحكاية تشتد حميماً أمامه ، وهذه وجوه وصور تتضح ليصره • وهذا هو يرى أن كل شيء ، تهاويله المهمة في أيام طفولته ، أفكاره وأحلامه جميعها ، ما عرفه من الحياة كلها ، ما قرأه في الكتب كافة ، ما نسيه منذ زمن بعيد ، ذلك كله ينبعث الآن ويتجسد وينتصب أمامه صوراً ضخمة ، ويسير ويرقص حلقة حوله • جنائن بديعة تنبت أمام بصره ، مدن برمتها تتهاوى خرائب وركاما ، مقابر ترد اليه موتاها أحياء يسعون • أمم وشعوب بأسرها تظهر وتكبر وتموت على مرأى منه • كل فكرة وكل حلم يتجسد الآن حول سريره ، سرير المريض ، تجسده حين ولد ؛ فهو لا يحلم الآن بمكان من غير لحم ودم ، بل بعوالم بأسرها • وهو نفسه الآن يجرفه اعصار ، كذرة غبار ، في هذا العالم اللانهائي ، هذا العالم الغريب ، الذي لا مخرج له • وهذه الحياة كلها ، باستقلالها

التمرد ، تدفمه دفعا ، وتلاحقه بسخريتها الأبدية الحقود التي لا يشفى لها غليل •

أحس أنه يموت ، أنه يتهاوى تراها ، الى الأبد ، بغير انبعاث ممكن • أراد أن يهرب ، ولكن ليس فى الكون كله ركن يحتوى فيه • ويستولى عليه أخيرا ذعر رهيب ، فيصرخ ، ويستيقظ •••

ان عرقا باردا كالثلج يغطى جسمه • ومن حوله يخيم سكون كسكون الموت فى ليل عميق • ومع ذلك يترامى له أن حكايته العجيبة ما تزال مستمرة فى مكان ما ؛ وأن صوتا أجش يشرع فى حديث طويل عن الموضوع الذى يعرفه • انه يسمع كلاما عن غابات مظلمة ، ولصوص خارقين ، وعن فتى باسل شجاع يشبه أن يكون ستكا رازين\* نفسه ، وعن سكارى مرحين فرحين ، وعن رجال يجرون المراكب ، وعن فتاة جميلة ، وعن نهر الفولجا • أهذا حلم ؟ أهو يسمع هذا حقا ؟

وظل راقدا مدة ساعة ، مفتح العينين ، لا يحرك عضوا ، غارقا فى خدر رهيب • وأخيرا نهض محاذرا ، فأدرك على فرح أن المرض الفظيع لم يجهز على جميع قواه • تبدد الهذيان • وبدأ الواقع •

لاحظ أنه ما يزال مرتديا ثيابه كما كان أثناء حديثه مع كاترين ، فقدّر أنه لم ينقض اذن وقت طويل على تركها اياه • ان نار العزيمة تجرى فى عروقه • وانه لذلك اذا بيده تلمس ، عرضا ، مسمارا كبيرا مفروزا فى الحاجز الذى وُضع سريره حذاءه • أمسك المسمار وتعلق به بكل جسمه ، فوصل بذلك الى شق يتسلل منه الى غرفته شعاع ضئيل من نور • وضع عينه على هذا الشق ، وحبس أنفاسه ، وأخذ ينظر •

فى ركن من الغرفة الصغيرة التي يسكنها صاحب البيت ، كان هنالك

سرير ، وأمام السرير مائدة فُرشت بسجادة • وعلى المائدة كتب كثيرة من حجم كبير وشكل قديم ، كتب مجلدة تذكر بكتب الطقوس الدينية • وفي زاوية من الزوايا أيقونة معلقة لا تقل قدما عن الغرفة ، وأمام الأيقونة سراج مشتعل • كان الشيخ مورين ، المريض ، راقدا على السرير • كان يبدو عليه أنه يعاني آلاما شديدة • انه شاحب شحوب ميت • وكان مدترا بغطاء من فراء ؟ وعلى ركبتيه كتاب مفتوح • وكانت كاترين مستلقية على مقعد قرب السرير ، محيطة صدر الشيخ باحدى ذراعيها ، مسندة رأسها على كتفه • كانت تحددق اليه بعينين متنتهتين ، طفوليتين ، مدهوشتين ، وتبدو مصغية بشراة شديدة ونهم غريب الى ما كان يقصه عليها مورين • وفي بعض اللحظات يعلو صوت القصاص ، ويتعش وجهه الشاحب ، ويتقلب حاجباه ، وتسطم عيناه ، فيصفر وجه كاترين خوفا وانفعالا ، فيظهر في وجه الشيخ عندئذ شيء يشبه الابتسام ، فاذا بكاترين تأخذ تنسم في هدوء ورفق هي أيضا • وترقرق في عينيها دموع أحيانا • فيأخذ الشيخ يلاعب رأسها عندئذ كما يلاعب رأس طفلة ، فتعاقه بمزيد من القوة بذراعا العارية الناصعة كالثلج ؟ وبمزيد من الحب أيضا تميل على صدره •

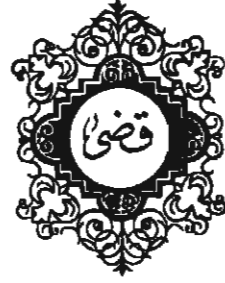
تساءل أوردينوف أليس ما يراه الآن تنمة حلمه ؟ بل لقد أيقن من ذلك • غير أن دمه ازدحم في رأسه ، وأخذت شرابينه وصدغاه تنبض • نبضا يبلغ من القوة أنه أوجعه •

أرعى المسمار ، ونزل عن السرير ، وتقدم يسير مترنحا كمن يمشى في نومه ، لا يفهم هذا الاهتياج الذي اشتعل كحريق في دمه • فلما وصل الى باب غرفة رب المنزل دفعه دفعا قويا عنيفا ، فسقط المزلاج

الصدى ؛ وفي غمار هذه الجلبة وهذه الضجة وجد أوردينوف نفسه في  
وسط الغرفة •

ورأى أوردينوف كيف ارتعشت كاترين فجأة ، وكيف التمعت عينا  
الشيخ تحت حاجبيه العاسين المقطبين التماعا شريرا ، وكيف شوّه الحلق  
والفيظ وجهه تشويها على حين بفتة • ثم اذا بالشيخ يتناول بيده المرتجفة  
البندقية المعلقة بالجدار ، فيرى أوردينوف أنبوبها ساطعا تسدده الى صدره  
يد مترددة راعشة غضبا •• وتنطلق الطلقة •• فتجاوبها صرخة وحشية  
لا يكاد يكون فيها شيء انساني •• حتى اذا تبدد الدخان ، رأى أوردينوف  
منظرا مروعا فظيما •

أخذ جسم أوردينوف يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه ،  
ومال على الشيخ المتهاوى على الأرض وقد تشنج وجهه وأخذ الزبد يخرج  
من بين شفثيه المكشرتين • أدرك أوردينوف أن الشيخ المسكين قد ابتابه  
نوبة صرعة • فهب يسعفه مع كاترين •



أوردينوف ليلة سيئة • فلما طلع الصباح خرج  
من المنزل رغم ضعفه ورغم الحمى التي لم تزاوله •  
فالتقى في الفناء بالبواب مرة أخرى • ما ان رآه  
الترى من بعيد حتى نزع قبعته يحييه ، وينظر  
اليه مستطلعا ؟ ثم لم يلبث أن تناول مكنسته ، وأخذ يكنس الأرض ملقيا  
من حين الى حين نظرة سريعة على أوردينوف الذي كان مقبلا بخطى  
بطيئة •

سأله أوردينوف :

– هيه ! ألم تسمع شيئا هذه الليلة ؟

– بلى ! سمعت •

– ما هذا الرجل ؟ من هو ؟

– أنت استأجرت ، فأنت تعرف • أما أنا فأجني •

فصاح أوردينوف خارجا عن طوره وقد استبد به هياج مرضى :

– أترك ستتكلم في يوم من الأيام ؟



قال البواب :

- ولكن ماذا فعلت أنا ؟ انها خطيتك • أنت أُرعبتهم • صانع التوابيت ، تحت ، أطرش • ومع ذلك سمع كل شيء • وامرأته ، وهى طرشاء ، سمعت كل شيء أيضا • وحتى فى الفناء الثانى ، البعيد مع ذلك ، سُمع كل شيء • هذا ما وقع ••• سأذهب الى مفوض الشرطة •

- بل أذهب اليه أنا •

قال أوردينوف ذلك واتجه نحو باب الفناء •

- لك ما تشاء ••• ولكنك أنت الذى استأجرت ! سيدى ، سيدى !

انتظر !•••

نظر أوردينوف الى البواب الذى لمس طاقيته احتراماً •

سأله أوردينوف :

- ماذا ؟

- اذا كنت ذاهبا الى مفوض الشرطة ، فسأخبر المالك •••

- ثم ؟

- الأفضل أن تغادر هذا المنزل •

- ما أنت الا غيبى أحمق !

أراد أوردينوف أن ينصرف •

- سيدى ! سيدى !

كذلك هتف البواب وهو يضع يده مرة أخرى على طاقيته ، ويظهر أسنانه ابتساما من قبيل التودد • وأردف يقول :

- سيدى ! لماذا طردت انسانا مسكينا ؟ ان طرد انسان مسكين اثم  
لا يرضى عنه الرب \*

- اسمع \*\*\* خذ هذا \*\*\* من هو هذا الرجل ؟

- من هو ؟

- نعم \*

- سأقول لك من هو ، حتى دون أن تنقذنى مالا \*

تناول البواب مقشته ، فكنس بها كنستين ، ثم توقف ، فنظر الى  
أوردنيوف بانتباه مصطنعا خطورة الشأن :

- أنت طيب ياسيدى ، ولكن اذا كنت لا تريد أن تعيش مع انسان  
صالح ، فلك ما تشاء \*\*\* ذلك ما أقوله لك \*\*\*

قال الترى ذلك وألقى على أوردنيوف نظرة تفيض بمزيد من  
التعير ، ثم طفق يكنس كأنه غاضب \* وأخيرا اصطنع هيئة من أنجز أمرا  
هاما ، اقترب من أوردنيوف كمن يريد أن يفضى اليه بسر ، وقال معبرا  
بحركة من وجهه :

- هو هكذا ! \*\*

- ماذا ؟ ما معنى هذا ؟

- ليس له عقل !

- ماذا ؟

- نعم \* ذهب عقله \*

كذلك ردّد الترى بلهجة فيها مزيد من السر أيضا \* ثم أضاف :

- انه مريض • كان يملك سفينة كبرى ، وسفينة ثانية ، وثالثة •  
كان يطوف نهر الفولجا • أنا من الفولجا • وكان يملك مصنعا أيضا •  
ولكن الحريق التهم كل شيء • ففقد الرجل عقله •••

- أهو مجنون ؟

قال الترى ببطء :

- لا •• لا •• ليس بمجنون •• هو انسان روحانى •• يعرف  
كل شيء •• قرأ كتباً كثيرة •• وهو يتنبأ للناس بالحقيقة كاملة : يجيئه  
أحدهم ، فينقده روبلين ، ويجيئه آخر فينقده ثلاثة روبلات ، أو أربعين  
روبلا ، فيقرأ هو فى الكتاب فيرى الحقيقة كلها • ولكن على شرط أن  
توضع الدراهم فوق المائة ، أما بدون دراهم ، فلا شيء •

وهنا أطلق الترى ضحكة فرحة ، بعد أن أوغل فى الكلام على  
شئون مورين •

قال أوردينوف :

- ماذا ؟ أهو اذن ساحر ؟

قال البواب وهو يهز رأسه :

- هم •• انه يقول الحقيقة • انه يصلى •• يصلى كثيرا •• وأحيانا  
تصبيه لونة •••

وكرر الترى حركة رأسه المعبرة •

وفى هذه اللحظة نادى أحدهم البواب فى الفناء الآخر ، ثم ظهر  
شيخ قصير القامة يرتدى معطفا من جلد الخروف • كان الشيخ يسير

بخطى مترددة وهو يتحنح مطرقا الى الأرض مدمدا ببعض الكلام • كان الشيخ القصير يبدو مرتدا الى الطفولة •

– المالك ، المالك !

كذلك همس البواب بسرعة ، وأوماً لأوردينوف بحركة طفيفة من رأسه ، ثم اندفع مقبلا على الشيخ خالما طاقته •

خيّل الى أوردينوف أنه سبق أن رأى هذا الوجه منذ فترة قصيرة في مكان ما • ولكنه اذ لم ير في ذلك ما يستغرب ، خرج من الفناء ، وهو يشعر أن هذا البواب رجل وغد دنيء من أحقر طراز • قال لنفسه: « يا للندل ! انه يساومني ••• الله يعلم ماذا يجري هنا ! » •

حين قال أوردينوف هذه الكلمات كان قد وصل الى الشارع • وشيئا فشيئا احتكرت ذهنه أفكار أخرى • ان نفسه تفيض بمشاعر أليمة • النهار أشهب بارد • الثلج يتساقط • وأحس الفتى بالحصى تنهشه من جديد • كان يشعر أيضا بأن الأرض تنسل تحت قدميه • وفجأة سمع صوتا معروفا له ، صوتا من مقام التينور متصنع العذوبة ، مرتجفا ، مزعجا ، يحييه قائلا : نهارك سعيد •

هتف أوردينوف :

– ياروسلاف ايلتس \* !

كان أمام أوردينوف رجل في نحو الثلاثين من العمر ، قوى البنية أحمر الخدين مربع القامة له عيان صغيرتان مخضلتان ، شهبوان ، باسكتان •• يرتدى •• ما يرتديه ياروسلاف ايلتس دائما • وهذا هو يمد يده لأوردينوف بتودد كبير •

كان أوردینوف قد عرف یاروسلاف ایلتش منذ سنة علی وجه الضبط ، معرفة عارضة تماما ، فی الشارع تقريبا . ومما سهّل هذا التعارف ، عدا المصادفة ، ما يتصف به یاروسلاف ایلتش من ميل قوى الى البحث فی كل مكان عن أناس طيبين نبلاء ، مثقفين خاصة ، تجعلهم مواهبهم وآدابهم علی الأقل ، جديرين بالانتماء الى المجتمع الراقي . ورغم أن یاروسلاف ایلتش قد وهب له صوت من مقام التینور متصنع العذوبة جدا ، حتى فی حدیثه مع الحميمين من أصدقائه ، فلقد كان ينبعث فی صوته شیء خارق الوضوح ، قوى ، يفرض نفسه ، ولا يطبق أية معارضة ، ولعله ليس الا تمرة العادة ♦

صاح یاروسلاف ایلتش يقول فرحا أشد الفرح متحمسا أصدق الحماسة :

- كيف ؟ ماذا جاء بك الى هنا ؟

فقال أوردینوف :

- اننى أسكن فی هذه الجهة ♦

فتابع یاروسلاف ایلتش یسأل بلهجة ماتفتك تعلقو مزيدا من الطلوع :

- منذ زمن طويل ؟ ثم لا أعلم أنا بذلك ؟ ... نحن اذن جيران

اننى أعمل هنا ، فی هذه الدائرة ♦ عدت من اقليم ریازان منذ شهر ♦ ها ... لقد قبضت عليك يا صديقى القديم النبيل ا

قال یاروسلاف ایلتش ذلك وانفجر يطلق ضحكة لطيفة أنيسة ♦

ثم صاح منتفخا يخاطب شخصا آخر :

- سيرجييف ! انتظري عند تاراسوف ، وقل لهم ان لا یمسوا

أكبس القمح قبل وصولي ... واشحذ همة بواب أولسوفيف قليلا .  
مره أن يأتي الى المكتب فورا . سأكون في المكتب بعد ساعة ...

فلما انتهى ياروسلاف الرقيق من اصدار أمره هذا مسرعا ، تأبط  
ذراع أوردينوف وقاده الى أقرب مطعم . قال :

– لن أكون راضيا قبل أن تتبادل بضع كلمات على انفراد ، بعد  
فراق طويل كل هذا الطول .

وأضاف بلهجة تشبه أن تكون احتراما وهو يخفض صوته خفضا  
غريبا :

– ماذا تعمل الآن ؟ أما زلت تعمل في العلوم ؟

أجاب أوردينوف وقد راودته فكرة طيبة جدا :

– نعم ، كما كنت دائما .

فقال ياروسلاف ايلتش وهو يصافح أوردينوف بقوة :

– هذا عظيم يا فاسيلي ميخائيلوفتش ، هذا نبيل . ستكون زينة  
جماعتنا ... أسأل الله أن يفرش طريقك بالسعادة ! رباه ! ما أشد  
سعادتي بلقائك ! لطالما فكرت فيك ! لطالما قلت لنفسى : أين صديقنا الطيب  
النبيل الروحاني فاسيلي ميخائيلوفتش ؟

قدم الرجلان في حجرة خاصة بالمطعم . أمر ياروسلاف ايلتش  
بمشهيات ومقبلات ، وأمر بخمرة ، ونظر الى أوردينوف منفعلا كل  
الانفعال ؟ ثم بدأ يقول بصوت خجول ، صوت فيه شيء من المدارة  
والمراعاة :

– لقد قرأت كثيرا منذئذ . قرأت بوشكين كله .

كان أوردنيوف ينظر اليه ذاهلا •

أضاف ياروسلاف ايلتش :

- ما أروع وصفه لأهواء الانسان • ولكن اسمح لي قبل كل شيء  
أن أعرب لك عن شكري وامتناني • لقد أحسنت اليّ احسانا كبيرا ببذل  
الهامك ، وروعة أفكارك •••

- العفو •••

- لا •• اسمح لي •• أنا أحب الانصاف • وانتي لفخور بأن هذا  
الشعور على الأقل لم ينطفىء في نفسي •

- العفو •• أنت لا تنصف نفسك ! أما أنا فالحقيقة أنني •••

- لا بل انتي منصف تماما • ماذا أنا بالقياس اليك ؟

كذلك اعترض ياروسلاف ايلتش بحرارة شديدة •

- العفو •••

- نعم •••

وأعقب ذلك صمت •

واستأنف ياروسلاف ايلتش يقول بلهجة خجولة مادحة :

- لقد انتفعت بنصائحك فقطعت صلاتي بكثير من الأشخاص التافهين •  
وأنا أقضي في المنزل أكثر أوقات الفراغ التي يدعها لي عملي في الوظيفة •  
فأقرأ في المساء ، أقرأ كتابا جيدا ، و ••• ليس لي من رغبة يا فاسيلي  
ميخائيلوفتش الا أن أكون نافعا لوطني بعض النفع •••

- لقد عددتك دائما انسانا نبيلًا جدا يا عزيزي ياروسلاف ايلتش •

- ستظل أنت العطر الفواح ... أيها الشاب النبيل •
- قال ياروسلاف ايلتش ذلك وهو يشد على يد أوردنوف شدا قويا •
- ثم أضاف يلاحظ بعد أن هدأ بعض الهدوء :
- أراك لا تشرب •
- لا أستطيع • أنا مريض •
- مريض ؟ أجد ما تقول ؟ أمند زمن طويل ؟ كيف مرضت ؟
- هل تريد أن أقول لك ... أى طيب يعالجك ؟ هل تريد أن أخبر طبيينا ؟
- سأذهب اليه بنفسى • انه حاذق جدا ...

لم يقل ياروسلاف ايلتش ذلك الا وكان قد تناول قبعته يهم أن  
ينهض للبحث عن الطبيب •

قال أوردنوف :

- لا ... شكرا • ليس يعالجنى طيب ، أنا لا أحب الاطباء ...
- قال ياروسلاف ايلتش متوسلا :

- ما هذا الذى تقول ؟ أهذا الكلام معقول ؟ ثم انه طيب حاذق  
جدا ، منذ مدة ... اسمع لى أن أقص عليك هذا يا عزيزى فاسيلي  
ميخائيلوفتش ... منذ مدة جاءه قفّال فقير ، فقال له : « لقد وُخزت  
أصعبى بأداة من أدواتى ، فعالجنى واشفى ، ، فلما رأى سيميون بانفوتتش  
أن المسكين مهدد بالفنغرين قرر أن يبتز العضو المصاب • ففعل ذلك  
بحضورى ... فعله بحذق يبلغ من النبيل ، أقصد يبلغ من المهارة اننى  
أؤكد لك أن رؤية العملية كان يمكن أن تكون متعة كبيرة ، من قبيل حب



الاطلاع على الأفل ، لولا ما يشعر به المرء من شفقة انسانية ... ولكن أين وكيف مرضت ؟

- مرضت على أثر تبديل مسكني ... ولم أنهض الا منذ قليل ...  
- ولكنك ما تزال ضعيفا جدا ، وما كان ينبغي لك أن تخرج .  
اذن لقد انتقلت من مسكنك القديم ؟ ولكن ما الذي دعاك الى ذلك ؟  
- صاحبة البيت الذي كنت أسكنه غادرت بطرسبرج .

- دومنا سافيشنا ! أهذا ممكن ؟ يا لها من عجوز طيبة ، نبيلة حقا !  
هل تعلم أنني كنت أشعر نحوها باحترام يشبه أن يكون احترام الابن  
أمه ؟ كان في حياتها المنتهية شيء من تلك الروعة الباقية من زمان أسلافنا  
القدامى ، فاذا نظر اليها المرء رأى ماضيها القديم يحيا مرة أخرى أمام  
عينيه ، رآه بكل ما فيه من عظمة ! .. أقصد .. هل ترى .. شيء  
شعري ...

بذلك ختم ياروسلاف ايلتش كلامه ، وقد اشتد خجله فجأة ،  
واحمر وجهه حتى الأذنين .

- نعم لقد كانت امرأة شهمة .  
- ولكن هل تسمح لي أن أعرف أين تسكن الآن ؟  
- هنا .. غير بعيد .. في منزل كوشماروف \*  
- أعرفه .. شيخ مهيب . أستطيع أن أقول انني أكاد أكون صديقه  
المخلص . شيخ نبيل .

قال ياروسلاف ايلتش ذلك وهو يكاد يرتعش فرحا وحنانا . وأمر  
بكأس أخرى من الخمر ، وبنغليون .

- لقد استأجرت شقة اذن ؟
- بل استأجرت غرفة •
- عند من ؟ لعلنى أعرف أيضا •••
- عند مورين ، شيخ طويل القامة •
- مورين ، مورين ••• اسمح لى ••• أهو ذلك الذى يسكن فى  
الفناء الداخلى فوق صانع التوابيت ؟
- نعم ، نعم •
- أأنت مرتاح هنالك ؟
- لم أسكن الا منذ برهة قصيرة •
- هم " ••• أردت فقط أن أقول ••• هم ••• ألم تلاحظ شيئا  
خاصا ؟
- لاحظت •
- أقصد ••• أنا واثق أنك سترتاح اذا كنت راضيا عن مسكنك ••
- لم أقصد هذا ••• ولكنى لمعرفتى بطبعك •• كيف وجدت هذا العجوز  
البورجوازى ؟ •••
- يخيّل الى أنه رجل مريض •••
- نعم ••• مريض جدا ••• ولكن ألم تلاحظ شيئا خاصا ؟ هل  
كلمته ؟
- قليلا جدا ••• انه لا يحب معاشره الناس كثيرا ••• وهو سريع  
الغضب •••

- هيم •••

كذلك قال ياروسلاف ايلتش سادرا مفكرا • ثم أردف يقول بعد لحظة صمت :

- انه رجل تعيس شقى جدا •

- هو ؟

- نعم • تعيس شقى جدا • وهو فى الوقت نفسه غريب الاطوار •••  
طريف كل الطرافة • على كل حال ، اذا كان لايزعجك ••• معذرة اذا  
كنت أتكلم فى مثل هذا الموضوع ••• لقد نار حب الاستطلاع فى نفسى •  
- الحق أنك أثرت فى نفسى حب الاستطلاع أيضا ••• وددت  
لو أعرف من هذا الرجل ! ثم اننى أسكن فى بيته •••

- يقال انه كان فى الماضى على جانب كبير من الثراء • كان تاجرا ،  
ولعلك سمعت عن ذلك • ولكنه فقد ثروته على أثر ظروف تصبغة  
مختلفة : غرقت له بواخر أثناء عاصفة • وكان يملك مصنعا عهد بادارته  
الى قريب من أقربائه يحبه كثيرا ، فدمر المصنع بحريق ومات قريبه فى  
الحريق • لا شك أنك تعترف أن هذه خسارات جسيمة رهية ! وعندئذ  
انهار مورين فيما يقال ، حتى أصبح الناس يخشون على عقله أن يذهب •  
وبالفعل ، فانه أثناء مشاجرة قامت بينه وبين تاجر آخر يملك بواخر على  
القولجا أيضا تصرف فجأة تصرفا يبلغ من الغرابة والشذوذ أن الناس  
عزوا ذلك الى جنون متأصل • وأنا أميل الى تصديق هذا أيضا • لقد  
سمعت الناس يتحدثون عن غرائب ••• وأخيرا حدث فى يوم من الأيام  
شئ • يبلغ من الشذوذ أن المرء أصبح لا يستطيع أن يعلله الا بأن الرجل  
قد أفقده القدر القاسى الحائق صوابه •

- ما الذى حدث ؟

- يقال انه أثناء نوبة جنون مرضى حاول قتل تاجر شاب كان يجبه حتى ذلك الحين جبا كبيرا . فلما تاب الى رشده بلغ هوله من فعلته أنه أراد أن ينتحر . ذلك ما يروى على الأقل . لا أدري على وجه الدقة ماذا حدث بعد ذلك . ولكن من المحقق أنه عاش عدة سنين فى «العقوبة» \* . ولكن ماذا بك يا فاسيلى ميخائيلوفتش ؟ ألم تتبك قصتى البسيطة هذه ؟

- لا ، لا ، أرجوك . . . . . تقول انه عاش معاقبا . . . . . ولكنه ليس وحيدا . . . . .

- لا أعلم . . . . . يقال انه كان وحيدا . . . . . نعم لم يدخل أحد فى هذه القضية . على كل حال لم أسمع شيئا عما جرى بعد ذلك . . . . . ولكننى أعرف . . . . .

- تعرف ماذا ؟

- أعرف أنه . . . . . ولكن ليس ثمة شيء ذو بال أضيفه . . . . . كل ما أريد أن أقوله هو أن عليك ، اذا لاحظت فيه شيئا غريبا يخرج عن المألوف ، أن لا ترد ذلك الا الى المصائب التى نزلت به واحدة بعد أخرى . . . . .

- نعم . . . . . انه تقى ، بل هو مسرف فى التقوى .

- لا أظن ذلك يا فاسيلى ميخائيلوفتش . . . . . لقد تألم كثيرا . . . . . ويخيل الى أنه صافى القلب . . . . .

- ولكنه ليس مجنوننا الآن . . . . . انه معافى . . . . .

- نعم نعم ، هذا محقق ، أستطيع أن أؤكدك وأن أحلف عليه . . . . .

انه يتمتع بجميع ملكاته العقلية . كل ما هنالك أنه كما أشرت أنت الى ذلك عرضا غريب الأطوار جدا و . . . متدين متعبد . . . انه عاقل جدا . . . حسن الكلام جرى القول ولا يخلو حديثه من مكر . وما تزال تلاحظ في وجهه آثار حياته الماضية المليئة بالمواقف والاعاصير . رجل طريف . وقد قرأ كثيرا .

- يبدو لي أنه يقرأ دائما كتباً مقدسة .

- نعم ، هو انسان متصوف .

- كيف ؟

- متصوف . . . ولكنني أقول لك هذا سرا . واليك سرا آخر : لقد ظل هذا الرجل مراقبا مدة طويلة . . . كان له سلطان كبير على من يجيئون اليه .

- أي سلطان ؟

- لن تصدق ما سأرويها لك . . . اسمع . . . في ذلك الوقت لم يكن يقطن في هذا الحي . . . جاء اليه في يوم من الأيام ألكسندر اجناتيفتش ، وهو رجل محترم جدا ، على المقسام ، ينعم باعتبار جميع الناس ، جاء اليه من قبيل حب الاطلاع ، مع رجل آخر هو ملازم في الجيش . وصل الرجلان الى منزله ، فاستقبلهما فأخذ هذا الانسان الغريب ينظر اليهما باتباه شديد ، متفرسا في وجهيهما . تلك عادته في النظر الى الناس متفرسا في الوجه اذا هو ارتضى أن يفيدهما في شيء . أما اذا لم يرتض ذلك ، فانه يطرد زائريه ، بل يقال انه يطردهم شر طردة ، بغير لباقة ولا أدب ولا تهذيب . سألهما : « ماذا تريدان أيها السيدان » ، فأجابه الكسندر اجناتيفتش بقوله : « موهبتك كفضيلة باطلاعتك على ما نريد

دون أن نذكره لك .» ، فقال : « ادخلا معي الى الغرفة الثانية » ، وهناك عين الشخص الذي كان في حاجة اليه . لم يقص ألكسندر اجناتيفتش على أحد ما جرى بعد ذلك . ولكنه خرج من منزل الرجل أبيض الوجه كمنديل . . . . . وقد وقع هذا الأمر نفسه لسيدة عظيمة من المجتمع الراقى : خرجت من عنده شاحبة كأنها ميتة ، غارقة في دموعها ، مشدوومة العقل من تنبؤاته ومن فصاحة كلامه . . . . .

– غريب . . . . . ولكنه الآن لا يعنى بهذه الأمور ؟

– ممنوع منا باتا . هناك حالات خارقة تناقل الناس روايتها . . . . . دخل عليه في يوم من الأيام شاب ضابط كان معقود رجاء أسرته الارستقراطية ومناطق أملها ومحل اعتزازها وافتخارها ، فلما ابتسم الشاب حين نظر الى الرجل ، قال له هذا غاضبا : « ما الذي يضحكك ؟ لن تمضي ثلاثة أيام الا وتكون هكذا ، قال ذلك مصالبا ذراعيه ، ممثلا بهذه الحركة شكل جثة . . . . .

– وبعد ذلك ؟

– لا أجرؤ أن أصدق ما حدث ، ولكن يقال ان النبوءة تحققت ، فمات الشاب بعد ثلاثة أيام فعلا . انه يملك هذه الموهبة يا فاسيلي ميخائيلوفتش . أراك تبسم لقصتي . أنا أعلم أنك أثقف مني . ولكنني أو من بالأمر . ليس الرجل بدجال . ان بوشكين نفسه يتكلم عن شيء من هذا القبيل في كتبه .

– هم . . . . . لا أحب أن أكذب ما تقول . . . . .

– يخيّل اليّ أنك قلت منذ برهة انه لا يعيش وحيدا ؟

- لا أعلم ... أظن أن ابنته تعيش معه ...

- ابنته ؟

- نعم ، أو ربما زوجته • أعرف أن امرأة تعيش معه ... رأيتهما عرضا ... ولكننى لم أنعم النظر •

- همّ ... غريب •

عاد الفتى يفكر ساهما • ورتت عواطف ياروسلاف ايلتش • تأثر قلبه من لقا صديق قديم ، ومن أنه قص على هذا الصديق القديم أمورا شائقة بهذه الطريقة الجميلة • كان قاعدا على كرسيه يدخن غليونه ولا يحول نظره عن فاسيلي ميخائيلوفتش ، ولكنه انتفض فجأة ، وتهايا للنهوض على عجل • قال :

- انقضت ساعة كاملة ، وأنا ناسر ... مرة أخرى أشكر للحظ يا فاسيلي ميخائيلوفتش أنه جمعنا ، ولكن يجب على أن أذهب • هل تسمح لى بأن أزورك فى منزلك الكريم ، منزل العلم والادب ؟

- سيكون هذا فضلا منك ... سيسعدنى هذا كثيرا • وسأجىء اليك أنا أيضا متى استطعت ذلك •

- أهذا ممكن ؟ انك لتفدق على اذن فضلا لا نهاية له • لا تستطيع أن تصور مدى سرورى بليقائك •

خرج الرجلان من المطعم ، فرأيا سرجيف يقبل عليهما راكضا • تم يبلغ ياروسلاف ايلتش مسرعا أن فيليم ايمليانوفتش \* سيمرّ توأ • وفعلا ظهر فى الشارع فرسان يجران مركبة جميلة جدا ، ويجريان خياا ويلفت أحدهما النظر بروعة خاصة •

شد ياروسلاف ايلتشس على يد صديقه الحميم شداً قويا كما تشد  
كلابه ، ورفع رأسه الى قبته فلامسها محبياً ، واندفح الى داخل العربة •  
وفيما كانت العربة تسير به التفت مرتين الى وراء يسلم على أوردينوف  
بحركة من رأسه •

كان أوردينوف يشعر بتعب شديد واعياء كبير فى جميع أعضائه حتى  
ليكاد يعجز عن جر ساقيه • فلم يستطع أن يصل الى المنزل الا بعد لأى •  
والتقى مرة أخرى عند مدخل المبنى بالبواب الذى كان قد راقب تحيات  
الوداع بينه وبين ياروسلاف ايلتشس مراقبة دقيقة ، وأوماً الى الفتى من  
بعيد ايماء دعوة ، ولكن الفتى مرّ دون أن يتوقف • وعند باب المسكن ،  
اصطدم بشخص قصير القامة أشهب الشعر كان خارجاً من عند مورين  
خافض العينين • فقفز الرجل جانبا بمرونة كبيرة بينما كان يدمم قائلاً :

– يارب يارب ، اغفر خطاياى ، اغفر عن ذنوبى يارب •

فقال أوردينوف :

– هل آذيتك ؟

– لا ••• شكراً ••• يارب ، يارب •••

هبط الرجل القصير على السلم ببطء وهو يتأوه ويدمدم ببعض  
الكلام بين أسنانه ؛ انه صاحب العمارة الذى يخشاه البواب تلك الخشبية  
كلها • عندئذ فقط تذكر أوردينوف أنه كان قد رآه أول مرة هنا عند  
مورين يوم انتقاله الى هذا المسكن •

كان أوردينوف يشعر باحتياج واضطراب • وكان يعلم أن خياله  
واحساسه متوتران الى أقصى حدود التوتر ، فقرر أن لا يسترسل فى  
مشاعره ، وأن لا يركن اليها • وشيئا فشيئا هوى الى نوع من الخدر •



كان يجثم على صدره شعور اليم مقلق • وكان قلبه موجعا كأنه جريح ،  
وكانت نفسه تفيض بدموع مخنوقة لا ينضب معناها •

وارتمى من جديد على سريره الذى كانت قد أعدته له كاترين ،  
ومن جديد أخذ يتنصت مصيخا بسمعه مرهفا أذنيه • سمع تنفسين :  
أحدهما شاق أليم مرضى متقطع ، والثانى رقيق هادى ، ولكنه متفاوت  
مضطرب أيضا ؛ فكأن اندفاعا واحدا وهوى واحدا يحملان القلبين كليهما  
على هذا الحُفْقان ، هناك فى العرفة المجاورة •• وكان يسمع فى بعض  
الاحيان حفيف ثوبها ، وانزلاق خطواتها الرفيقة انزلاقا خفيفا ، بل  
كان يسمع صوت قدمها يترجع فى قلبه عذابا أصم لكنه ممتع • وأحس  
أخيرا أنه يسمع نشجات بكاء ، ثم أصوات صلاة من جديد • كان يعلم  
انها الآن راکعة أمام الأيقونة ضامة ذراعيها احدهما الى الأخرى فى حزن  
شديد ويأس رهيب • من هى هذه المرأة ؟ لمن تدعو الله ؟ أى هوى يأس  
يبعث هذا الاضطراب فى قلبها ؟ لماذا يتألم قلبها هذا الألم كله ، لماذا  
ينفجر دموعا محرقة يائسة الى هذه الدرجة ؟

وأخذ يستعيد ذكرى أقوالها • ان كل ما قالت له ما يزال يترجع  
فى أذنيه ترجع موسيقى ؛ وان قلبه يستجيب لكل ذكرى ، لكل كلمة من  
كلماتها التى رددتها على مسمعه كترتيل صلاة ، ان قلبه يستجيب لكل  
هذا حبا قويا ، وخفقة صماء موجمة أليمة ••• وفى لحظة من اللحظات  
التمع فى ذهنه كل ما قد رآه فى الحلم • ولكن قلبه كله ارتجف حين  
عاد الى خياله احساسه بأنفاسها الحارة وبكلماتها وبقبيلتها • أغمض أودينوف  
عينه ، واستسلم للنسيان ••• دقت ساعة فى مكان ما ••• لقد انقضى زمن  
طويل ••• الليل يهبط •

وفجأة خيلَ إليه أنها تميل عليه من جديد ، انها تنظر الى عينيه

عينها العذبتين الوضائين كقبة السماء اللانهائية في ساعة الظهر الدافئة •  
ان وجهها ينيره هدوء رائع ، وان ابتسامتها تضيح في نفسه سعادة كبيرة ،  
وانها تميل على كتفه بعطف عظيم ، فما يملك لهذا كله الا أن تخرج من  
صدره الموهن أنة سعادة •

كانت تريد أن تكلمه • وها هي ذى تسرُّ اليه بأمر ما ، حانية عليه  
متلطفة معه ••• فتترجع في أذنيه موسيقى نافذة مؤثرة من جديد ،  
ويتنفس صدره الهواء الدافئ الذى تلهبه أنفاسها القريبة ، يتنفسه بشراهة  
ونهم • وها هو ذا يمد يديه قلقا ويتأوه ويفتح عينيه •

كانت كاترين أمامه حقا ، ماثلة على وجهه ، شاحبة اللون هلعا ،  
غارقة في دموعها ، مرتجفة أشد الارتجاف من فرط الانفصال • وكانت  
تقول له شيئا ما ، ضارعة اليه وهي تضم يديها وتعضهما • أخذها بين  
ذراعيه • فلبثت على صدره وجسمها كله يرتعش •

## الفصل الثاني

١

أوردنيوف وقد صحا صحوا تاما وما يزال يضمها  
بين ذراعيه الملتهين ضما قويا :  
- ماذا هنالك ؟ ماذا بك ؟ ماذا بك يا كاترين ؟  
ماذا بك يا حيتي ؟



كانت تنسج في رفق ، غاضة طرفها ، مخبئة وجهها المحترق في  
صدر الفتى • وليت على هذه الحال زما طويلا لا تستطيع أن تكلم ،  
وترتجف كأنها خائفة •

قالت أخيرا بصوت ضعيف لا يكاد يُسمع :

- لا أدري •

كانت تحتق ، ولا تكاد تقوى على النطق بهذه الكلمات •

وأضافت :

– لا أدري كيف جئت الى هنا ، الى عندك •

وشدت جسمها اليه بمزيد من القوة ؛ وكأن عاطفة لا سبيل الى مقاومتها قد هزتها هزا قويا ، فاذا هي تقبل كتفيه ، وذراعيه ، وصدره • وأحست أخيرا بانهييار ، فخبأت وجهها فى يديها ، وأسقطت رأسها على ركبتيها •

فلما استطاع أوردينوف ، وقد استبد به قلق شديد ، أن ينهضها وأن يجلسها قربه ، كان وجهها يحترق خجلا وحياء ، وكانت عينها تضرعان ملتستين العفو والصفح ، وكانت البسمة التى تبدو ضعيفة على شفيتها تحاول أن تغالب القوة الهائلة التى لاسبيل الى مغالبتها ، قوة شعورها الجديد • ولاح عليها مرة أخرى أنها خائفة من شىء ما : فها هى ذى تدفمه عنه بيدها ، ولا تكاد تنظر اليه ، وتجيّب على أسئلته ، خافضة الرأس ، بكلمات متقطعة ، وهمس وجل •

سألها أوردينوف :

– أترارك رأيت فى نومك حلما ثقيلًا ، أو رؤيا مفزعة ؟ قولى ••• هل هو أفزعك ؟ ••• انه يهذى ، انه لا يملك عقله ••• أترأه قال أشياء ما كان ينبغى أن تسمعها ؟ ••• هل قال شيئا من هذا القبيل ؟ نعم ؟

أجابت كاترين وهى تكبح انفعالها بكثير من الجهد والعنف :

– لا ••• لم أنم ••• لم أستطع الى النوم سيلا • وضمت هو طول الوقت • لم ينادنى الا مرة واحدة • اقتربت منه • ناديته • لم يسمنى •

- حالته سيئة جدا • أعانه الله • وعندئذ استبد بهى قلق شديد، قلق رهيب •
- صليت طول الوقت ، صليت بلا توقف ، ثم فجأة ذهلت، عن نفسى •••
- كفى يا كاترين ، كفى يا حياتى ••• أمس انما اعتراك الحروف •
- لا لم أخف أمس •
- أ يحدث هذا أحيانا •
- نعم يحدث •

كانت ترتجف من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وراودها الهلع والفرع من جديد ، فشدت نفسها اليه كطفل •

قالت وهى تعبس نشجاتها :

– هأت ذا ترى اذن أنتى لم أجيء اليك بغير سبب •

ثم ردّدت تقول وهى تصافحه عرفانا بالجميل :

- لم يصعب علىّ أن أبقى هنالك وحدى الا لسبب • كفاك سكب الدموع حزنا على شقاء الآخرين • احتفظ بدموعك ليوم تعذب فيه وحدك ، ليوم لا يكون معك فيه أحد • اسمع ••• هل سبق أن أحيت ؟
- لا ••• لم أحب قبلك ؟
- قبلى.؟ وتناديننى حبيبتك ؟

قالت ذلك وهى تنظر اليه مدهوشة على حين فجأة • وأرادت أن تقول شيئا ، لكنها صمتت وغضت طرفها • ثم احمر وجهها بغثة ، ومن خلال الدموع التى ما تزال حارة ، الدموع المتسبة على أهدابها ، سطعت عيناها • كان واضحا أن هناك سؤالا يحرك شفقتها • نظرت اليه مرتين، نظرة ماكرة ، ثم خفضت عينها فجأة من جديد • قالت :

- لا ... لا يمكن أن أكون أول حب لك •

ثم رددت تقول وهي تهز رأسها ساهمة ، بينما كانت تضيء وجهها  
ابتسامة جديدة :

- لا .. لا ..

وقالت أخيرا وهي تنفجر ضاحكة :

- لا ... لست من يمكن أن تكون حبيبتي !

ثم نظرت إليه • غير أن حزنا رهيبا قد طاف بوجهها عندئذ على حين  
فجأة ، وخوفا يائسا قد ارتسم على جميع قسماها ، فشمرد أوردينوف بشفقة  
غريبة ، شفقة لا تفهم ، شفقة مرضية ، شعر بعطف قوى على شقاء  
مجهول ؛ وبعباد لا يغالط نظر إليها • قالت بصوت يفيض الى القلب ،  
وهي تشد على يدي أوردينوف بين يديها ، وتحاول أن تخنق نشجاتها :

- اسمع ما سأقوله لك • اسمع جيدا • اسمع يا فرحتي ! سيطر  
على قلبك ، وكف عن حبي اذا كنت تحبني الآن • ذلك خير لك • فان  
استطعت أن تكف عن حبي أصبح قلبك أخف وأفرح ، وتحاشيت عدوا  
رهيبا ، وكسبت أختا حنونا • سأتى اليك ان شئت • وسأداعبك ، ولن  
أخجل من البقاء قربك • لقد بقيت قربك يومين حين كنت مريضا جدا !  
فاتخذني أختا • لقد دعوت لك العذراء دعاء حارا ، وما فعلت هذا عبثا ؟  
لن تجد أختا أخرى مثلي • لو طفت الكون بأسره ، فلن تجد حبا كحبي ،  
اذا كان قلبك ينشد الحب • سأحبك بقلبي كله ، كما أحبك الآن ،  
وسأحبك لأن روحك صافية ، مضيئة ، شفافة ، لأنني حين نظرت اليك  
أول مرة ، رأيت فيك على الفور نزيل مسكني ، النزيل الذي أريده ،  
فليس من باب المصادفة أنك جئت الينا • أحبك لأن عينيك حين تنظران

تجيان وتخاطبان من أعماق قلبك • وحين تخاطبني عينك أدرك فوراً كل ما تفكر فيه وكل ما يجول في خاطرك • لذلك أريد أن أهب لجسك حياتي وحرיתי • لسوف يحلو لي أن أكون عبدة من وقع عليه قلبى ••• ولكن حياتي ليست لي • انها لانسان آخر ، وحرיתי سجينه • ولكن أقبلي أختاً ، كن أخي ، خذني لقلبك متى استيد بي الخوف والقلق من جديد • افعل ما من شأنه أن لا يجعلني أخجل من المجيء اليك والبقاء قربك ليلة طويلة • هل سمعتي ؟ هل فتحت لي قلبك ؟ هل فهم عقلك ما قلته لك ؟

وأرادت أن تقول شيئاً آخر أيضاً • ولكنها نظرت اليه ، ووضعت يدها على كتفه ، ثم ارتمت على صدره مهددة القوى • توقف صوتها في شجرات محمومة ولهى • ان صدرها يملو ناهدا ، وان وجهها يسطغ بحمرة كحمرة الشفق عند غروب الشمس •

دمدم أوردينوف يقول وهو يشمر بنشأوة تحجب عينيه ، ويحس بأنفاسه تتوقف :

— حياتي •••

واذ أصبح لا يعرف ماذا يقول ، ولا يفهم ماذا يقول ، واذ أصبح يرتجف مخافة أن يدمر بنسمة هذا الذي يحدث له فيحسبه رؤيا أكثر مما يحسبه واقعا من فرط ما أصبحت الأمور غامضة مبهمه أمام بصره ، قال :

— فرحتي ••• لا أعرف ••• أنا لا أفهمك ••• لا أتذكر ما قلته منذ هنية • عتلى أظلم • قلبى يتألم ••• مليكتى •••

• وخنق الهياج صوته • شدت جسمها الى جسمه بمزيد من القوة • نهض • فقد صبره • سقط على ركبتيه محطما طائش اللب من الانفعال •

وانطلقت من صدره أخيرا نشجات • ان صوته الذى يصدر من القلب  
رأسا ، يهتز اهتزاز جبل على مدى حماسة عظيمة وحب مجهول • قال  
وهو يحاول أن يخفق نشجاته :

– من أنت ؟ من أنت أيتها الحبيبة الغالية ؟ من أين جئت يا حمامتى ؟  
من أى سماء هبطت ؟ لكأن حلما يلفنى ، فما أستطيع أن أصدق وجودك  
•• لا تلومينى •• دعينى أتكلم •• منذ مدة طويلة أريد أن أتكلم •••  
من أنت ؟ من أنت يا فرحتى ؟ كيف وقعت على قلبى ؟ قولى ••• أنت  
أختى منذ زمن طويل ؟ قصى على كل شىء عنك • أين كنت الى هذا  
اليوم ؟ قولى لى ما اسم المكان الذى عشت فيه • ما الذى أحيته هنالك ؟  
بماذا كنت سعيدة ، وما الذى كان يجعلك حزينة ؟ أكان الهواء دافئا ثم ؟  
أكانت السماء صافية ؟ ••• ما هى الموجودات التى كانت حبيبة الى قلبك ،  
أثيرة فى نفسك ؟ من أحبك قبلى ؟ الى من اتجهت نفسك هنالك أول  
ما اتجهت ؟ أكانت أمك معك ؟ أكانت هى التى تهدهدك وتلاعبك وتداعبك  
حين كنت طفلة ؟ بماذا كنت تحلمين ؟ فىم كنت تفكرين ؟ ما هى أحلامك  
التي تحققت ، وما هى أحلامك الأخرى ؟ قولى لى كل شىء ••• من هو  
الانسان الذى خفق له قلبك البكر أول ما خفق ؟ من هو الانسان الذى  
وهبته قلبك أول ما وهبت قلبك ؟ قولى لى ••• ما هو العطاء الذى يجب  
أن أقابل به عطاءك قلبك ؟ تكلمى يا حبيبتى الغالية ، يا ضيائى ، يا أختى !  
قولى لى كيف أستطيع أن أستحق حبك ؟

توقف صوته من جديد ، وخفض رأسه • ولكنه حين رفع عينيه  
تجمد هولاء ورعبا ، وانتصب شعر رأسه هلما وجزعا •  
كانت كاترين قاعدة ، شاحبة الوجه كमित •  
انها ساكنة جامدة ، شاخصة بصرها الى الفضاء • شفتاها مزرقتان



كشفتنى جثة ، وعيناها تفيضان بألم أخرس رهيب • وها هى ذى تنهض  
ببطء ، فتحطو بضع خطوات ، ثم ينطلق من صدرها نحيب حاد ، وتستقط  
أمام الأيقونة ••• ان كلمات موجزة ، مضطربة ، تخرج من بين شفيتها •  
وأغشى عليها • فأسرع أوردنيوف ينهضها مروعا ، ويرقدها على السرير •  
لبث واقفا أمامها لا يتذكر شيئا • وبعد دقيقة فتحت عينها ، وجلست على  
السرير ، ونظرت حولها ، وأمسكت يد أوردنيوف • جذبته نحوها ،  
تمتت بشيء بين شفيتها الصفراوين ، ولكن صوتها لم يسعفها • وأخيرا  
تدفقت دموعها غزيرة تحرق يد أوردنيوف الباردة كالثلج • وأخيرا قالت  
هلمة :

— ما أشد هذا الألم ••• ما أشده ! •• حانت ساعتى الأخيرة •

أرادت أن تقول شيئا آخر ، ولكن لسانها لم يطاوعها • كانت عاجزة  
عن النطق بكلمة واحدة • انها تنظر يائسة الى أوردنيوف الذى لا يفهمها •  
مال أوردنيوف عليها ، ازداد دنوا منها ، أصغى اليها ، فسمعها تنطق بهذه  
الكلمات واضحة :

— أنا مسحورة •• سحرونى •• ضيعونى ••

رفع أوردنيوف رأسه ونظر اليها مدهوشا • ان فكرة فظيعة تبرق  
فى رأسه • رأت كاترين تقبض وجهه • أردفت تقول :

— نعم سحرونى • رجل شرير سحرونى •• انه هو • هو قاتلى •  
لقد بعته نفسى •• لماذا ، لماذا تكلمت عن أبى ؟ لماذا أردت أن تعذبنى ؟  
جازاك الله !

وبعد برهة أخذت تبكى فى رفق • ان قلب أوردنيوف يخفق خفقانا  
قويا ، ويعانى قلعا قاتلا :

همست تقول بصوت محبوس ، عجيب :

- يقول انه سيأتي يأخذ روحى اذا مات ... اتنى له • لقد بعث  
نفسى • عذبنى • قرأ فى الكتب • انظر ... هذا كتابه • اليك كتابه •  
يقول اتنى ارتكبت اثما قاتلا • انظر • انظر ••

أشارت الى كتاب • لم يكن أوردينوف قد لاحظ الكتاب ، ولا عرف  
كيف وجد فى هذا المكان • تناول الكتاب بحركة اليه • هو كتاب من  
طراز الكتب القديمة التى يقرؤها فداسى المؤمنين والتى أتبع له ان يرى  
مثلا قبل الآن • ولكن أوردينوف لا يستطيع الآن أن ينظر • ان اتباهه  
منصرف الى شيء آخر اتصرافا كاملا • سقط الكتاب من بين يديه • ضم  
كأثرين ضما رقيقا ، محاولا أن يرداها الى صوابها • قال لها :

- كفى كفى ... لقد روعوك • أنا معك • تقى بى ، يا حبيبتى  
الغالية ، يا ضيائى ...

قالت وهى تشد على يديه شداً قويا :

- أنت لا تعرف شيئا ، لا تعرف شيئا • أنا دائما هكذا ... خائفة  
من كل شيء •

ثم قالت بعد لحظة ، وهى تلهث لهاثا شديدا :

- حسبك ، حسبك ، لا تعذبنى مزيدا من التعذيب ، والا ذهبت  
اليه • انه كثيرا ما يخيفنى بأقواله ... أحيانا يتناول كتابا ، هو أكبر  
الكتب ، ويأخذ يقرأ لى فيه ... انه يقرأ دائما أشياء قاسية جدا ، أشياء  
رهيبة فظيعة ! لا أعرف ماذا يقرأ ، لا أفهم جميع الكلمات ، ولكن الخوف  
يعتربنى ؛ وحين أسمع صوته ، فكأنه ليس هو الذى يقرأ ، بل شخص

شريد لا سليل الى ترويضه ، ولا يمكن تأيسه وتلطيفه • عندئذ ينقبض  
قلبي حزنا ••• عندئذ يحترق قلبي ••• شيء مروّع ، فطبع ! •••

قال أوردنيوف وهو لا يكاد يفهم كلماتها :

- لا تذهبي اليه ! لماذا تذهبين اليه ؟

- لماذا جئت اليك ؟ اسأل هذا السؤال •• أنا نفسي لا أعرف • وهو  
يقول لي طول الوقت : « صلى لله ، صلى » أحياناً انهض في الليل المظلم  
البهيم ، فاصلي مدة طويلة ، ساعات كاملة • وكثيراً ما أكون نسي ولكن  
الخوف يمنني من النوم فاضل يقظي ، ويخيل الي عندئذ أن الساعة  
تهياً حولي ، أن هذا سيحمل الي الأذى ، أن الأشرار سيمزقوني ،  
سيقتلونني ، أن القديسين لن يسمعوا صلواتي وضراعاتي ، وأنهم لن  
ينقذوني من العذاب الرهيب ••• نفسي تنهشم ، كأن الجسم كله يريد  
أن ينوب دموعاً ••• أستأنف الصلاة ، وأظل أصلي الي أن تنظر الي  
السيدة العذراء - في الأيقونة - بشيء من الحنان • وأنا م أحياناً على  
الأرض ، ساجدة أمام الأيقونة • ولكن يحدث أيضاً أن يستيقظ ، فيناديني ،  
ويأخذ يلامسني ويواسيني ، فأشعر عندئذ بتحسن ، وأصبح خفيفة فرحة  
قادرة على احتمال أي شقاء • متى كنت معه ، لا أشعر بخوف • كلامه  
عظيم •

سألها أودنيوف وهو بعض على يديه أماً ويأساً •

- ولكن ما هو الشقاء الذي ألم بك ؟

امتقع لون كاترين امتقاعاً رهيباً • نظرت اليه نظرة من حكم عليه  
بالاعدام ولا أمل له في عفو • قالت :

- الشقاء الذي ألم بي أنا ؟ أنا ابنة لمتها أمها ••• أنا أمت أمي •

أحاطها أوردنيوف بذراعيه دون أن ينبس بكلمة •  
شدت جسمها اليه • شعر بقشعريرة تسرى في جسم المرأة الشابة  
وخيل اليه أن روحها تنفصل عن جسدها •  
قالت مضطربة الذكريات ناظرة الى ماضيها :

— لقد دفتها ••• أردت أن أتكلم منذ مدة طويلة • ولكنه يعنى  
من الكلام بالصلوات ، والملاحظات ، والتهديدات ••• وفي بعض الاحيان  
يضرم هو نفسه خوفاً كما يمكن أن يفعل أعدى عدو لى ••• والآن  
توافيني هذه الأفكار كلها في الليل ••• اسمع ، اسمع ••• حدث ذلك  
منذ زمن بعيد ، بعيد جدا • أصبحت لا أتذكر الآن متى حدث ، ولكن  
كأنه حدث أمس ••• كأنه حلم رأيتُه أمس فكان يأكل قلبي • والقلق  
يضاعف طول الزمان ••• اجلس هنا ، اجلس قربي ، فسأقص عليك  
قصة ألى كله • لا يهمنى أنتى لُحنت ••• سوف أروى لك حياتى كلها •

أراد أوردنيوف أن يمنعها من ذلك ، ولكنها ضمت يدها احديهما  
الى الأخرى ضارعة اليه أن يسمع كلامها • ثم أخذت تتحدث من جديد ،  
باضطراب ما ينفك يزداد • قصتها مفتة • فى أقوالها تهمهم عاصفة  
نفسها • ولكن أوردنيوف كان يفهم كل شيء ، لأن حياتها كانت قد أصبحت  
حياته ولأن ألىها كان قد أصبح أله ، ولأن عدوه كان قد اتصب أمامه ،  
يضخُم فى عينيه عند كل كلمة جديدة تقولها ، ويجثم على قلبه بقوة كأنها  
لا تنضب ، ضاحكا من غضبه ، مستهزئا بحنقه • كان دمه يزدحم فى  
قلبه ، ويعتم أفكاره • ان الشيخ الشرير الذى رآه فى المنام ( كان  
أوردنيوف يعتقد أنه رآه فى المنام ) هو الآن أمامه فعلا •

بدأت كاترين كلامها :

« كان ذلك فى ليلة تشبه هذه الليلة لكنها أضعف منها • الريح تهب فى العابة هبوبا لم أشهد مثله حتى الآن •• أو لعلنى أظن ذلك لأن تلك الليلة هى الليلة التى تم فيها ضياعى ! •• تحت نافذتى تحطمت شجرة سنديان •• لقد أكد لنا شحاذ ، وهو شيخ أبيض الشعر تماما كان يأتى الينا ، أنه رأى هذه الشجرة حين كان طفلا ، وأنها كانت فى ذلك الحين لا تقل ضخامة منها يوم حطمتها الريح ••

« وفى تلك الليلة نفسها - اننى أتذكر كل شئ كأنه حدث بالامس - حطمت العاصفة سفن أبى ، فذهب أبى الى الشاطئ فوراً ، رغم انه كان مريضاً ، منذ هرع الصيادون يلفونه النبا عندنا فى المصنع • بقينا أنا وأمى وحدنا • كنت وسنى •• وكنت حزينة أبكى بكاء مرا •• أعرف لماذا ••• كانت أمى قد مرضت منذ قليل ، وكانت شاحبة الوجه ، وكانت تردد على مسامعى فى كل لحظة ان على أن أهيب لها كفنها • وفجأة طرقت باب منزلنا • قفرت من مكانى • ازدحم الدم فى قلبى • صرخت أمى •• لم أنظر اليها •• كنت خائفة • حملت المصباح ، ومضيت افتح الباب بنفسى •• كان هو • خفت • كنت دائماً أخاف حين يأتى الينا • كان ذلك شأنى منذ أبعد عهد أتذكره من طفولتى •• ولم يكن شعره أبيض فى ذلك الحين • كانت لحيته سوداء كالفار ، وكانت عيناه تلمعان لمعان الفحم ، ولم ينظر الى نظرة حنان مرة واحدة •• سألتى هل أمى فى البيت • أغلقت الباب ، وأجبت بآن أبى ليس فى البيت • قال : « أعرف » ، ونظر الى على حين فجأة نظرة خاصة • تلك أول مرة ينظر الى فيها هكذا • انصرفت • ظل ساكنا لا يتحرك • قلت لنفسى : « لماذا لا يجىء ؟ » • ودخلنا الغرفة • سألتى : « لماذا أجبتى بآن أباك ليس فى المنزل حين سألتك هل أمك فى المنزل ؟ » • صمت •

« كانت أمى فى ذعر • ارتمت عليه ••• لم يكن ينظر اليها • كنت

أرى كل شيء • كان ميللا يرتجف • لقد لاحقته العاصفة عشرين فرسخا •  
من أين كان آتيا؟ لم تكن نعرف ذلك ، لا أنا ولا أمي • اتنا لم نره منذ  
تسعة أسابيع • خلع طاقته ونزع قفازيه • لم يصل للأيقونات ، ولا حيا  
أهل المنزل ••• فقد قوب النار •••

أمرت كاترين يدها على وجهها كأن شيئا كان يخفها • ولكنها  
رفعت رأسها بعد دقيقة وتابعت تروي قصتها :

« اخذ يكلم امي ، باللفة الترية • كانت امي تعرف هذه اللغة •  
أما أنا فلم أفهم كلمة واحدة • كانا في بعض الاحيان يصرفاني اذا جاء  
••• أما الآن فان امي لم تجرؤ ان تقول شيئا لابنتها • الشيطان يشتري  
نفسى ، وانا انظر الى امي مسرورة • رأيت أنهما ينظران الى ، انهما  
يتحدثان عنى ••• أخذت أمي تبكى ••• أمسك سكينه • سبق أن  
حدث عدة مرات أن أمسك سكينه أثناء مخاطبته أمي • نهضت وتشبثت  
بحزامه • كنت أريد أن أنتزع من يده السكين • صر بأسنانه ، وصرخ ،  
وأراد أن يدفعني عنه ••• لطمنى على صدرى ، ولكننى لم أراجع •  
قدرت أننى سأموت فى مكانى ••• غشيت عينى سحابة • سقطت على  
الأرض دون أن أقول كلمة واحدة ••• ونظرت ما وسعنى أن أنظر وأنا  
على هذه الحال ••• خلع حزامه ، وشمر كم اليد التى لطمنى بها ، وتناول  
السكين فأعطانيها ، وقال لى : « ابترى يدي ، افعل ما تشائين ، ما دعت  
قد أسأت اليك ، وأنا ، أنا المتكبر ، سوف أحر ساجدا أمامك ••• • أعدت  
السكين الى غمدها ••• كنت أختنق ••• أبيت حتى أن أنظر اليه •  
أذكر أننى تبسمت دون أن أباعد شفتى ، وأننى ألقيت نظرة قاسية على  
عيني أمي الحزيتين ••• كانت أمي جالسة ، شاحبة الوجه كميته •••»  
كان أوردنوف يصنى باتباه شديد الى هذه القصة المشوشة • وشيئا

فشيئا تبدا اضطراب كاترين . أصبح تدفق كلامها أهدأ . كانت الذكريات تستدرج المخلوقة البائسة ، وتبعثر قلقها على صفحة الماضي العريض .

• تناول طاقيته وخرج دون ان يحس . حملت المصباح من جديد لأرافقه ، بدلا من أمى التى أرادت أن تشيخه برغم انها مريضة . وصلنا الى الباب الخارجى . كنت صامتا . فتح الباب وطرد الكلاب . نظرت اليه . خلع طاقيته وانحنى أمامى انحناء كبيرا . رأيت بعد ذلك يضع يده فى جيب صدرته فيخرج منها علبة صغيرة مفروشة بمخمل أحمر . فتح العلبة . نظرت . انها لآلىء ضخمة . قسم الى اللآلىء قائلا : « لى جميلة غير بعيدة من هنا . كنت أحمل هذه اللآلىء اليها ، ولكننى لن أعطيها اياها . خذيها أنت يا حلوتى ، زيني بها جمالك ؟ أو اسحقها بقدميك اذا شئت ، ولكن خذيها » . أخذت اللآلىء ، ولكننى لم أسحقها بقدمى . تناولتها تناول حية ، دون أن أعرف لماذا تناولتها . عدت الى الغرفة ، ووضعت اللآلىء على المائدة أمام أمى .

• لبثت أمى برهة لا تنطق بكلمة ، شاحبة شعوبا شديدا ، كأنها تخشى أن تكلمنى . ثم قالت : « ما هذا يا صغيرتى كاترين ؟ » ، فأجبتها : « لك انما جاء هذا التاجر بها . . . أنا لا أدري . . . » . نظرت اليها أجهشت باكية . قالت : « لا . . . ليست لى يا كاترين ، ليست لى أينها البنت الشريرة . ليست لى . . . ما زلت أتذكر مدى الحزن الذى لاح فى وجهها وهى تنطق بهذه الكلمات . لكان قلبها كان يطمئن طمنا . رفعت عيني . . . أردت أن أرتسى على قنبيها . ولكن الشيطان وسوس لى فجأة أن أقول : « اذا لم تكن لك ، فلعلها اذن لأبى . سأعطيها اياها متى عاد . سأقول له ان تجارا جاموا الى هنا وتركوا هذه البضاعة . . . » . عندئذ أجهشت أمى باكية متحبة ، وقالت : « سأذكر له بنفسى من هم التجار

الذين جاءوا الى هنا ، ومن أجل أية بضاعة جاءوا ... سأقول له من أنت يا ابنة الزنا ! ... ما أنت بنتى بعد الآن ! أنت أفعى ! أنت ابنة لعنتها أمها ! » . سكت . كانت عيناى بلا دموع ، كان كل شىء قد مات فى نفسى ! ذهبت الى غرفتى ، ولبثت الليل كله أنصت الى العاصفة وأفكر ...

انقضت خمسة أيام . وفى مساء اليوم الخامس وصل أبى ، مقطب الحاجبين ، حائق الوجه . ولكن المرض كان قد حطمه فى أثناء الطريق . نظرت فرأيت ذراعه مضمة . فهمت ان عدوه قد لقيه فى طريقه . وأنا أعرف ماذا كان عدوه . كنت أعرف كل شىء . لم يقل لأمى شيئا . لم يسأل عنى . واستدعى جميع العمال . أمرهم بوقف العمل فى المصنع ، وبان يحرسوا المنزل من العين الخبيثة . قال لى قلبى فى تلك اللحظة ان تازلة تهدد منزلنا . لبثنا نتنظر . انقضى الليل . ليلة أخرى تملؤها الصواعق . كان الاضطراب يغزو قلبى . فتحت نافذتى . كان وجهى يحترق ، وكانت عيناى تفيضان دموعا ، وكان قلبى يشتعل بنار . كان جسمى كله أشبه بجمرة . كنت أود لو أمضى الى بعيد ، الى آخر العالم ، الى حيث تولد الصاعقة . ان صدرى يتنفخ ... وفجأة ، فى ساعة متأخرة ، بينما كنت نائمة ، أو قل غافية نصف اغفاء ، سمعت طرقا على نافذتى وصوتا يهتف : « افتحى . » . نظرت . ان رجلا قد تسلق بواسطة جبل حتى وصل الى نافذتى . عرفته فورا . فتحت النافذة وتركت له أن يدخل غرفتى . انه هو . لم ينزع طاقته . جلس على مقعد من المقاعد ، يلهث لهاثا قويا ، ولا يكاد يستطيع أن يتنفس ، كأن أحدا كان يطارده . لطوت فى ركن . أحسست أن وجهى يشحب ...

قال : « هل الأب فى البيت ؟ » قلت : « نعم » . قال : « والأم ؟ » ،



قلت « والأُم أيضا • » • قال : « اسكتي الآن • هل تسمعين ؟ » قلت :  
« أسمع » • قال « ماذا تسمعين ؟ » قلت : « الريح تحت النافذة » • قال :  
« طيب يا جميلتي ، هل تريدن أن تقتلي عدوك ، أن تنادي أباك ، ان  
ترهقي روحي ؟ أنا أخضع لمشيتك • اليك هذا الجبل ، فأوتقيني به ، اذا  
كان قلبك يهيب بك أن تنتقمي للاساءة » • سكت • قال : « هلا تكلمت  
يا فرحتي ؟ » • قلت : « ماذا يجب ؟ ••• » قال : « يجب عليّ أن أبعث  
عدوي ، وأن أودع حبيتي القديمة ، وأن أنحنى لك أنت أيتها الفتاة  
انحناء كبيرا من قبيل التحية ••• » • أخذت أضحك ، ولا أدري أنا نفسي  
كيف نفذت هذه الكلمات الموبوءة الى قلبي • • قال : « دعيني اذن  
يا جميلتي أنزل الى تحت وأحيي رب المنزل » • ارتعشت من قمة رأسي  
الى أخمص قدمي ، واصطكت أسناني ، واشتعل قلبي نارا ••• مضيت  
أفتح الباب ، وأدع له أن يدخل البيت • ولكنني قلت عند العتبة : « امترد  
لألك ، ولا تُهد اليّ شيئا بعد الآن » • ورميت له العلبه الصغيره • •  
توقفت كاترين عن الكلام لتتنفس قليلا • كانت تارة ترتعش  
وتسحب ، وتارة يزدحم الدم في وجنتيها • ففي اللحظة التي توقفت فيها  
عن الكلام كان وجهها مشتعلا ، وكانت عيناها تلتصقان من خلال الدموع ،  
وكانت أنفاسها الثقيلة ترعش صدرها • ولكنها لم تلبث أن اصفرت فجأة ،  
ثم استأنفت تقول بصوت يفيض حزنا :

« لبت عندئذ وحدي ، وكنت أحس أن العاصفة تهمهم حولي •••  
وفجأة سمعت صرخات ••• ان عمال المصنع يركضون في الفناء •••  
ويصيحون : « المصنع يحترق » • اختبأت في ركن • هرب الجميع من  
المنزل ••• بقيت وحيدة مع أمي • كنت أعرف أن الحياة تغادرها : انها  
راقدة على فراش الموت منذ ثلاثة أيام • كنت أعلم ذلك ، أنا البنت التي

لعتها أمها ! وانطلقت في غرفتي على حين بفتة صرخة ضعيفة ، كصرخة طفل يخاف من الليل . ثم هداً كل شيء . نفخت على الشمعة . كنت متجمدة كالجليد . خبأت وجهي في يدي . خفت أن أنظر . وفجأة سمعت صرخة على مقربة مني . كان أناس يهرعون من المصنع . ملت من على النافذة . . . . رأيت أبي ميتا يحملونه الى البيت . وسمعت الناس يقولون : « لقد سقط من السلم في مرجل الماء العالي ، كأن الشيطان دفعه اليه ! » . شددت جسمي الى السرير . انتظرت . لا أدري من انتظرت ، لا أدري ماذا انتظرت . أتذكر الآن أن رأسي أصبح ثقيلاً عندئذ دفعة واحدة . وكان الدخان يخز عيني ، فيسعدني أن ضياعي أصبح قريباً . وفجأة شعرت بأن أحداً ينهضني من كنفى . . . . نظرت ما أمكنتي أن انظر . . . . انه هو ! انه محترق . ثيابه ساخنة ، نفوح منها رائحة الدخان . قال : « جئت آخذك يا جميلتي . فقدت روحي من اجلك ، في سبيك . مهما أصلت ، فلن تخفر لي هذه الليلة الملعونة ، اللهم الا اذا صلينا معا ! » . وضحك ، ضحك الملعون ! قال : « دليني على الطريق الذي يمكن أن نخرج منه دون أن يرانا أحد . أمسكت يده ، وقدمته . اجتزنا الدهليز . كانت المفاتيح معي . فتحت الباب الاحتياطي ، ودلته على النافذة . ان النافذة تطل على الحديقة . تناولني بذراعيه القويتين ووثب من النافذة . . . . أخذنا نركض . ركضنا مدة طويلة . لمحنا غابة كثيفة مظلمة . . . . أصاح بسمه . قال : « انهم يلاحقوننا يا كاترين . انهم يطاردوننا ! انهم يطاردوننا يا جميلتي ؛ ولكن ليس هذا أوان الاستسلام . قبليني في سبيل الحب الأبدي ، والسعادة الأبدية ! » . قلت له : « لماذا في يدك دم ؟ » قال : « دم ؟ يا عزيزتي . . . . لأنني قتلت الكلاب التي كانت تسبح . هيا بنا . » . واستأنفنا الركض . وفجأة رأينا في الطريق حصان أبي . كان الحصان قد اتزع رسنه وهرب من الاسطبل لينجو من المهب . قال :

« اركبى معى يا كاترين ، لقد أرسل الله الينا نجدة ! » • صمت • قال :

« ألا تريدين ؟ أنا لست وثياً ، ولا شيطاناً ، سأرسم اشارة الصليب اذا شئت • • • رسم على نفسه اشارة الصليب • جلست على الحصان ، واذ شددت جسمى الى جسمه ، ذهلت عن نفسى على صدره ، فكأنتى فى حلم • • • حتى اذا ثبت الى رشدى ، كنا قد اصبحنا قرب نهر عريض ، عريض • • • أنزلنى عن ظهر الحصان ، ثم ترجل ، ومضى نحو شجيرات القصب على شاطئ النهر • كان قد أخفى هنالك قاربه • قال : « وداعا يا حصانى الشجاع ، ابحت لنفسك الآن عن صاحب آخر • أصحابك القدامى تركوك • • • ارتميت على حصان أبى أقبله بحنان • ثم ركبنا القارب • تناول المجذافين ، فسرعان ما غاب عنا الشاطئ • فلما ابتعدنا هذا الابتعاد ترك المجذافين وأخذ يجيل نظره فيما حوله • قال : « سعد يومك أيها النهر ، يا مرضع العالم ويا مرضعى ! فل لى هل احتفلت برزقى فى غيبتى ؟ هل بضائعى سليمة لم يمسه أذى ؟ » • صمت وخفضت عينى • كان وجهى قد اصطبغ بالحمرة من الحجل • قال : « خذ كل شىء ان شئت ، ولكن عدنى أن تصون وأن تحب لؤلؤتى التى لا تقدر بثمن • • • قولى كلمة واحدة على الأقل يا جميلتى ! أضيئى وجهك بابتسامة ! كما تطرد الشمس الليل المظلم البهيم • • • • قال ذلك وابتسم • أردت أن أقول كلمة • • • كنت خائفة • صمت • قال يعجب على فكرى الوجل الحجل « لك ما تشائين ! ما من شىء يمكن الحصول عليه عنوة • حفظك الله يا حمامتى ! أرى أن ما تحملينه لى من كره هو الأقوى • • • • كنت أصغى اليه • اعترانى غضب • قلت له :

« نعم أكرهك لأنك لطختنى فى تلك الليلة المظلمة ، وما تزال تسخر من قلبى قلب الفتاة • • • • قلت ذلك ولم أستطع أن أحبس دموعى • بكيت • وصمت • لكنه نظر الى نظرة لم أملك معها الا أن ارتعش ارتعاش

ورقة فى مهب الريح • قال لى وعيناه تسطعان سطوعا رائعا : « اسمى يا جميلتى ! ان ما ساقوله له ليس لغوا ، بل هو عهد عظيم : ما ظلمت تهين لى السعادة فساكون سيدا ، ولكن اذا انقطعت عن حبى فى لحظة من اللحظات ، فلا حاجة بك الى الكلام ، بل تكفى اشارة من حاجبك ، يكفى أن تلقى على نظيرة من عينك الكحلاء حتى أرد اليك حبك والحرية • ولكن اعلمى ، أيها الجمال الشامخ ، أن ذلك اليوم سيكون آخر أيامى ! ، جسمى كله ابتسم لى سماع هذه الكلمات •••• » •

هنا قطع الانفعال قصة كاترين • فتنفست° ، حتى اذا هممت أن تتابع حديثها التقت نظرتها الملتمة بنظرة أوردينوف المشتعلة تحدق اليها ، فارتعشت ، وأرادت أن تقول شيئا ما ، ولكن الدم صعد الى وجهها • خبات وجهها فى يديها ، ودفتته فى المخدات • كان أوردينوف مضطربا اعمق الاضطراب • ان انفعالا اليما لا يحدد ولا يطلق ، كان يسرى فى جميع أنسجة جسمه سريان السم ، ويكبر ويعظم عند كل كلمة جديدة من قصة كاترين • ان رغبة لا يشغفها أمل ، وهدى جامحا شرها ، كانا يملكان عليه كل أفكاره ويثان الاضطراب فى عواطفه ، وان حزنا عميقا لا نهاية له كان فى الوقت نفسه يجثم على صدره بمزيد من الثقل شيئا بعد شيء • كان يريد فى بعض اللحظات أن يصرخ مناشدا كاترين أن تصمت ، كان يريد أن يرتدى على قدميها ، ضارعا اليها والدموع فى عينيه ، أن تعيد اليه آلامها السابقة وعاطفتها الصافية القديمة • كان يشعر بالشفقة على دموعها التى جفت منذ مدة طويلة • كان قلبه يتألم ويتعذب • لم يفهم كل ما قالته كاترين ؛ كان حبه يخاف من العاطفة التى تهز المرأة الشقية • لعن فى تلك اللحظة هواه • ان هذا الهوى يخفقه خفقا ، وهو يشعر بما يشبه الرصاص يجرى فى شرايينه بدلا من الدم •

استأنفت كاترين كلامها تقول فجأة وقد رفعت رأسها :

— آه ... ليس شقائى فيما قصصته عليك حتى الآن • ليس هذا  
عذابى • لا يضيرنى ان تلعنى أُمى فى ساعتها الاخيرة ! انى لا آسف  
على حياتى الذهية السالفة ! ولا يضيرنى ان أكون قد بعث نفسى للاتم  
وان احمل الخطيئة الابدية من أجل لحظة سعادة ! لا ... ليس شقائى فى  
هذا ، ليس عذابى فى هذا ! ... لا ... وانما الذى يؤلنى ويمزق قلبى  
تمزيقا هو أن أكون له عبدة ملوثة ، أن يكون عارى عزيزا فى نفسى ،  
أن يجد قلبى لسذة ومتمعة فى تذكر ألمه كما لو كان هذا الالم فرحا  
وسعادة • ذلك هو شقائى : أن لا استطيع ان أغضب وأن أحقد للاساءة  
التي نالتنى ، والاذى الذى الحق بى ! ...

كانت أنفاس حمرى لاهنة تحرق شفتيها • كان صدرها يهبط  
هبوطا عميقا ويعلو علوا كبيرا ، وكانت عيناها تسطمان بحنى مسعور ...  
ولكن فتنة رائحة كانت تنتشر على وجهها فى تلك اللحظة ، فتكتسب كل  
قسمة من قسماتها جمالا يبلغ من القوة أن جميع الأفكار السود المظلمة  
التي غزت أوردينوف أخذت تبدد بما يشبه السحر • ان قلبه يرنو الى  
ضم قلبها ، انه يصبو الى أن يشى نفسه معها فى عناق مجنون جامع حتى  
ليموتا معا • التقت عينا كاترين بنظرة أوردينوف المضطربة ، فابتسمت له  
ابتسامة أجسرت فى قلبه تيارين من نار يحرقانه ، وهو لا يكاد يدرك  
ذلك • همس يقول لها حابسا صوته المرتجف :

— ارحمىنى ... رفقاً بى ! ...

مالت كاترين عليه متكئة بأحدى ذراعيها على كتفه ، ونظرت اليه  
من قرب حتى اختلطت أنفاسهما •  
— لقد ضيعتنى ! لست أعرف أملك ، عصفت بقلبي ... ماذا يهمنى

أن أعرف أن قلبك يبكي ؟ قولى لى ما الذى ترغيبين فيه ، فأفعله • تعالى  
معى • هيا بنا • لا تقتليني ! لا تودى بحياتى ؟ •••

نظرت اليه كاترين ساكنة لا تتحرك ، وقد جفت الدموع على  
وجنتيها المحترقتين • ارادت ان تقاطعه ، ان تمسك بيده ، أن تقول له  
شيئا ، ولكن الكلمات لم تسعفها •

وهذه ابتسامة غريبة تظهر بطيئة على شفيتها ، ثم هذه ضحكة تخرج  
من الابتسامة •

وتابعت أخيرا تقول :

– لم اقص عليك كل شيء ••• ساحكى لك أمورا أخرى • ولكن  
هل تراك تصفى الى كلامى ؟ اصنع الى حديث اختك ••• اريد ان اروي  
لك كيف عشت سنة معه •• لا •• لن افعل هذا •• « انقضت سنة •••  
سافر مع رفاقه فى النهر • وبقيت انا مع أمه أنتظر • انتظرتة شهرا ،  
فشهرا اخر • وفى ذات يوم ، التقيت بتاجر شاب •• نظرت الى التاجر  
الشاب •• فتذكرت السنين الخوالى ••• قال لى التاجر الشاب بعد كلمتين  
من حديث معى : « صديقتى الغالية ••• أنا ألكسى ، خطيبك السابق •  
لقد خطب أهلونا لأحدنا للآخر منذ كنا طفلين • هل نسيتهنى ؟ تذكرى ••  
أنا من قريتك ! » • قلت : « ماذا يقولون عنى هناك ؟ » • أجاب ألكسى  
ضاحكا : « يقول الناس انك نسيت خفر العذارى ، وتعلقت ببلص من قطاع  
الطرق • » • قلت : « وأنت ماذا كان رأيك فى ؟ » • قال : « هناك  
أشياء كثيرة كنت أريد أن أقولها ( اضطرب قلبه ) ••• كنت أريد أن  
أقول أشياء كثيرة ••• أما وأننى رأيته الآن ، فقد ضمت • خذى روحى  
يا جميلتى ، دوسى قلبى ، اهزئى بحبى • أنا الآن يثيم • وأنا سيد نفسى •  
نفسى ملكى لم أبعها لأحد ••• » • أخذت أضحك • وكلمنى مرات

أخرى أيضا • وبقي فى القرية شهرا بكامله ••• ترك تجارته ، صرف عماله ، وبقي وحده • اشفت على دموعه ، دموع اليتيم • قلت له : « الكسى ، انتظرني عند الجسر متى هبط الليل • سنذهب الى منزلك • سئمت الحياة هنا • • جاء المساء ، وأعددت حقيتى ••• وحانت منى التفاتة ، فاذا انا ارى مولاي راجعا على حين فجأة • قال : « يومك سعيد • هيا بنا • ستهب العاصفة • يجب أن لا نضيع الوقت • • تبعته • وصلنا الى ضفة النهر • نظرنا • راينا هنالك زورقا وربانا ••• لكانه كان ينتظر احدا ••• يومك سعيد يا الكسى • أعطاك الله العافية ! ماذا ؟ هل تأخرت فى المرفأ ؟ ••• انك ستسارع للحاق بالسفن ••• فخذنا معك ، أنا وزوجتى ••• لقد تركت قاربى هناك ، ولا أستطيع أن أذهب اليه سباحة ! » • قال الكسى : « اجلس » • شعرت بألم يحتاج نفسى كليها حين سمعت صوته • « اجلس انت وزوجتك • الريح مواتية لنا جميعا ، وفى منزلى مكان لكما • • • جلسنا • أظلم الليل • اختفت النجوم ، وهبت الريح ، وأخذت الامواج تملو • كنا قد ابتعدنا عن الشاطئ مسافة فرسخ • لزمنا الصمت نحن الثلاثة • قال مولاي : « يا لها من عاصفة ! ان العاصفة تنذر بشر • ما رأيت فى حياتى عاصفة كهذه العاصفة على هذا النهر ! زورقنا متقل ••• لن يستطيع أن يقلنا نحن الثلاثة ! » • قال الكسى : « نعم ، لن يستطيع أن يقلنا نحن الثلاثة ••• واحد منا زائد اذن عن طاقة الزورق • • • كان صوته يرتجف ارتجاف جبل • « اسمع يا الكسى ، لقد عرفتك طفلا صغيرا جدا ، وكنت لأبيك كالانخ • قل لى يا الكسى : هل تستطيع أن تصل الى الشاطئ سباحة ، أم تراك تهلك اذا حاولت ذلك ؟ » • قال الكسى : « لا ••• لن أستطيع الوصول الى الشاطئ ، وسأهلك فى النهر • • • » اسمعى أمت يا كاترين ، يا لؤلؤتى التى لا تقدر بشمن • اننى أتذكر ليلة كهذه الليلة ، مع فرق واحد هو

أن الأمواج لم تكن تملو كما تملو الآن ، وكانت النجوم تتلأأ في السماء ، وكان القمر يرسل أشعة في الفضاء ... أريد أن أسألك هل نسيت تلك الليلة ؟ • • • قلت : « بل أذكرها • • » قال : « اذا كنت لم تنسيها ، فأنت لم تنسى اذن الوعد المقطوع أيضا ... لم تنسى كيف علم القتي الشجاع حبيته الجميلة ، الطريقة التي يجب أن تعتمد اليها من أجل أن تسترد حريتها ... هه ؟ » • قلت : « لا ... لم أنسى ذلك أيضا ؟ » • قال : « لم تنسى ذلك ؟ اذن ... فانظري الآن ... المركب مقل بنا • وقد حان أجل واحد منا • تكلمي يا حمامتي • قولى لى كلمتك الحلوة ... » •

همست كاترين تقول لأوردنوف :

- ولم أقلها ...

ولم تكمل كلامها ، فهذا هو صوت أصم يدويّ مناديا على حين فجأة :

- كاترين !

ارتعش أوردنوف • كان مورين واقفا عند الباب ، لا يكاد يرتدى شيئا غير غطاء من فراء ألقاء على جسمه ، وكان شاحب الوجه كميث • انه يحدق اليهما بعين تشبه أن تكون مجنونة • أخذت كاترين تنظر اليه وهي تزداد شحوبا وكأنها منومة :

قال الشيخ بصوت لا يكاد يُسمع :

- كاترين ، تعالى الى •

وخرج من الغرفة •

ظلت كاترين ساكنة ، تنظر في الفضاء كما لو كان الشيخ ما يزال



ماتلا أمامها • ولكن الدم لم يلبث أن تدفق في وجهها فجأة ، فجمعل  
خديها الشاحين حمراوين بلون الارجسوان • تذكر أوردينوف لقاءهم  
الأول •

قالت وهي تبسم :

— اذن الى الغد يا دموعى • الى الغد • تذكر الى أين وصلنا من  
القصة ••• « اختارى أحد اثنين يا جميلتى : من الذى تحيينه ومن الذى  
لا تحيينه • » • لا تنسى أن تذكر أننا وصلنا من القصة الى هنا •

ثم أضافت تقول وهي تضع يديها على كفى أوردينوف وتنظر اليه  
فى حنان :

— سوف تنتظر ليلة كاملة •

تمتم أوردينوف يقول وهو يرتعد خوفا عليها :

— كاترين ، لا تذهبي اليه ، لا تضعي نفسك • انه مجنون •

ونادها الصوت من وراء الحاجز :

— كاترين !

قالت كاترين لأوردينوف تسأله ضاحكة :

— ماذا ؟ أتصعب أنه سيقتلنى ؟ نعمت مساءً يا قلبى ، يا طائرى ،

يا أخى •

قالت ذلك وهي تسند رأسها على صدره ، بينما أخذت دموع تطفرف

من عينيها فجأة •

أضافت تقول :

- هذه آخر الدموع • ثم يا عزيزى • ستستيقظ غدا للفرح •  
 وقيلته قبلة محبومة •
- ركع أوردينوف أمامها محاولا أن يشيها عن الذهاب اليه ، قائلا :  
 - كاترين ، كاترين ، كاترين !
- استدارت كاترين وهى تحييه بحركة من رأسها وتبتسم له ، ثم  
 خرجت من الغرفة •
- سمعها أوردينوف تدخل على مورين • حبس أنفاسه وأنصت ، ولكن  
 لم يصل الى سمعه شيء •
- كان المعجوز صامتا ، أو لعله قد أغمى عليه من جديد •••
- أراد أوردينوف أن يذهب اليها ، ولكن ساقيه كاتتا تترنحان •••  
 أحس بوهن شديد ، فجلس على السرير •



استيقظ ، لبث برهة طويلة لا يدرك في أية ساعة  
هو من الليل أو النهار ! أهذا هو الفجر أم هو  
الشفق ؟ ما تزال غرفته ظلماء ، لم يستطع أن  
يحددّ المدة التي قضاها نائماً ، ولكنه يحس أن

نومه كان نومَ مريضٍ . مسح وجهه بيده ، كأنما ليترد الاحلام ورؤى  
الليل . ولكنه حين أراد أن يضع قدمه على أرض الغرفة أحس أن جسمه  
كله كان محطماً تحطيماً . ان أعضائه المتعبّة ترفض أن تطاوعه ، وان في  
رأسه صداعاً ، وان كل شيء من حوله يدور . جسمه يرتعد من البرد  
تارة ، ويحترق تارة أخرى . ثم عاد اليه وعيه ، وعادت اليه ذاكرته ،  
فأختلج قلبه حين عاش بخياله تلك الليلة كلها مرة أخرى . بلغ قلبه من  
شدة الخفقان حين تذكر تلك الليلة ، وبلغت احساساته من القوة والجدّة  
والنضارة والطراوة أنه خيّل اليه أن كاترين لم تتركه منذ ساعات طويلة ،  
بل منذ دقيقة واحدة . لمّا تجف عيناه بعد ، أو لعل هذه الدموع جديدة  
تندفق من ينبوع في روحه الحارة ! والشيء الغريب أن آلامه كانت عذبة

فى نفسه ، رغم شعوره بأنه ما كان لكيانه كله أن يحتمل صدمة كهذه الصدمة • وفى لحظة من اللحظات اعتراه ما يشبه الشعور بالموت ، فكان مستعدا لأن يستقبله استقبال زائر حبيب • كانت أعصابه تبلغ من شدة التوتر ، وكان هواء يبلغ من قوة الغليان والاندفاع ، وكانت روحه تبلغ من فرط الحماسة أن الحياة وقد أهاجها هذا التوتر تبسّدو كأنها توشك أن تنفجر فتفنى فى لحظة وتزول الى الأبد •

وفى تلك اللحظة نفسها تقريبا ، ترجّع ذلك الصوت المعروف ، جوابا على قلعه ، جوابا على ارتعاش قلبه ، ترجّع ترُجّع تلك الموسيقى الداخليه التى تغنى فى نفس كل انسان فى ساعات فرحه وسعادته • انه صوت كاترين الرزين ، الرّتان كالفضة ، فعلى مقربة منه ، عند موضع رأسه تقريبا ، بدأ ذلك الصوت يشد أغنية رخيمة حزينة فى أول الامر •• يعلو تارة ، ثم ينخفض وينطفئ تارة أخرى ، ثم يرتعش بهوى عارم ويمتد بحرا من حماسة وسيلا من أنغام قوية لا نهائية ، كالدقائق الأولى من سعادة الحب • ان أوردينوف يميز كلمات الاغنية أيضا : هى كلمات بسيطة ، رقيقة ، حنون ، قديمة ، تعبّر عن عاطفة ساذجة بريئة هادئة صافية مضيئة • ولكن أوردينوف كان يفغل عن الكلمات ، فلا يسمع الا الإنغام • ثم هو يسمع من خلال الكلمات الساذجة التى يصدح بها الغناء كلمات أخرى ، كلمات يفلى فيها كل ما يضمه قلبه من صبوة ، وكل ما ترنو اليه روحه من شوق وتوق ، كلمات تلبى هواء ، فهى تارة آخر أنه من أنات قلب أضناه الحب ، وهى تارة فرحة الحرية ، فرحة الروح التى حطمت أغلالها وطارت وضاءة حرة طليقة فى الخضم اللانهائى ، خضم الحب ، هى تارة أولى العهود تقطعها الحبيبة على نفسها ، مع صلواتها ودموعها وهمسها السرى الخجول ، وهى تارة شهوة امرأة سكرى خلعت

العدار مبكرةً فرحةً بقوتها ، فلا حجب ولا سرّ ، تبختر أمام عينيه  
النشوى \*\*\*

نهض اوردينوف عن سريره دون أن ينتظر ختام الأغنية • فسرعان  
ما توقف الصوت عن الغناء وناداه قائلاً :

– نعمت صباحاً يا حبيبي • انهض • تعال إلينا • استيقظ للفرح  
الوضاء • نحن نتظرك ، أنا ومولاي • نحن أناس فضلاء \*\*\* وقد خضنا  
لمشيئتك • اطفئ الكره بالحب \*\*\* قل كلمة عذبة حلوة ا \*\*\*

خرج اوردينوف من الغرفة مستجيباً للنداء ، ومضى يذهب الى  
جيرانه كأنما على غير شعور • انفتح الباب أمامه ، وسطعت ابتسامة صاحبة  
البيت الجميلة نيرةً كالشمس • لم ير في تلك اللحظة ولا سمع الا  
كاترين • ان حياته كلها وفرحته كلها قد انصهرت في قلبه على الفور  
صورةً وضاءةً هي صورة كاترين •

قالت وهي تصافحه :

– فجران انقضي على لقائنا • الفجر الثاني ينطفئ الآن • انظر من  
النافذة \*\*\*

ثم أضافت ، مبتسمة :

– فجران كفجرى الحب عند فتاة : الأول يصبغ خديها بحمرة  
الخبجل ، حين يأخذ قلبهما يخفق وحيداً ، والثاني يحرقها كاللهب ، بعد  
أن تسي خجلها الأول ، فهو ينهد صدرها ويصعد الى وجنتيها دماً قانياً •  
مالك تلبث على عتبة الباب ؟ أهلا بك وسهلاً • مولاي يحييك \*\*\*

قالت ذلك وضحكت ضحكة رنانة كموسيقى ، ثم تناولت يد  
أوردينوف وأدخلته الغرفة • استولى الخجل على قلبه • ان اللهب الذي  
كان يحرق صدره منذ قليل يبدو كأنه ينطفئ الآن • خفض عينيه محتاراً  
•• كان يخاف أن ينظر إليها • لم ير كاترين قبل الآن على مثل هذه

الحال • ان الضحك والمرح يضيئان وجهها لأول مرة ، وقد جفَّ الدموع  
الحزينة على أهدابها السود • يدها ترتجف في يده • ولو رفع بصره  
لراى كاترين تحدق بعينها المشرقتين الى وجهه الذى جهَّه الاضطراب  
والهوى ، مبتسمة ابتسامة الظفر •

وقالت أخيرا :

— هلاَّ نهضت أيها الشيخ ! هلا قلت لضيفنا كلمة ترحيب ؟ •••  
الضيف كالآخ ••• فانهض أيها الشيخ المتكبر ••• سلِّم على الضيف ••  
تناول يده البيضاء وأجلسه الى المائدة !

رفع أوردينوف عينيه • لكانه يشعر لأول مرة بوجود مورين • كانت  
عينا الشيخ تحدقان اليه وكان الخوف من الموت قد أطفأهما • انقبض صدر  
أوردينوف حين تذكر هذه النظرة ، التى سبق أن رآها تلتمع كالتماعها  
الآن تحت الحاجبين الطويلين المقطبين احتياجا وغبضا • شعر ببعض دوار  
•• نظر حوله ، فأدرك عندئذ فقط كل شئ • ان مورين ما يزال راقدا  
فى سريره • وهو مرتد ثيابه كلها تقريبا ، كأنه كان قد نهض وخرج  
فى الصباح • عنقه محاطة بوشاح أحر هو الوشاح الذى كان على عنقه قبل  
ذلك • وفى قدميه بابوجان • واضح أن ألمه كان قد زال ، ولكن وجهه  
لا يزال رهيب الشحوب والصفرة • جلست كاترين قرب السرير مسندة  
ذراعها الى المائدة ، تنظر الى الرجلين صامتة • الابتسامة لم تفارق شفتيها •  
وكان كل شئ كأنما تمَّ بأمرها •

قال مورين وهو ينهض جالسا على السرير :

— نعم ••• هو أنت ••• نزيل بيتى ••• أنا آثم فى حقك أيها  
السيد ••• لقد أسأت اليك مؤخرا حين عبثت بالبندقية ••• ولكن من  
ذا الذى كان يعلم أنك تصاب أنت أيضا بنوبات صرعة ••• هذا يحدث

لى أنا ... ( كذلك أضاف يقول بصوت أجس ، مرضى ، وهو يقطب حاجيه ويشيح ببصره ) • الشقاء ينزل على الانسان دون أن يطرق الباب مستأذنا بالدخول ، انه يتسلل تسلل اللصوص • ولقد أوشكت أن أعمد سكيناً فى صدرها هى ( قال ذلك وهو يومئ الى كاترين ) • أنا مريض ، وكثيراً ما تعترينى التوبة • اجلس • أهلا بك !

كان أوردنيوف ما يزال يحرق اليه ويتفرس فيه • صاح الشيخ نافذ الصبر :

— لماذا لا تجلس ؟ اجلس ... ما دام هذا يناسبها هى • لكأنما من سروركما عشيقان ...  
جلس أوردنيوف •

تابع الشيخ يقول ضاحكا كاشفا عن صفيين من أسنان بيضاء سليمة  
— أرأيت الى هذه الاخـت التى لك ! ... امرحاً يا صديقى •• قلب  
لى أيها السيد : هل أختك هذه جميلة ؟ قلب ••• أجب ••• انظر الى  
تألؤ وجنتيها • لماذا لا تنظر ؟ أعجب بالحلوة الجميلة ••• أظهر أن  
قلبك يتألم •••

قطب أوردنيوف حاجيه ، ونظر الى الشيخ حانقا • فارتعش الشيخ  
لهذه النظرة • ان غيظا أعمى ينفى فى صدر أوردنيوف • ان غريزة  
صادقة كغريزة الحيوانات تجعله يحزر أنه أمام عدو رهيب • لكنه مع  
ذلك لا يدرك ما الذى يجرى فى نفسه • لم يسفـفه عقله •

قال صوت وراء أوردنيوف :

— لا تنظر •

التفت أوردنيوف • قالت كاترين ضاحكة :

– لا تنظر • قلت لك لا تنظر • اذا كان الشيطان هو الذي يحرضك،

فارحم حبيبتك !

وفجأة تسمرت وراءه ، وعصبت عينيه بيديها • ولكنها لم تلبث أن  
سحبتهما ، وغطت بهما وجهها • ان حمرة خديها تظهر من خلال أصابعها •  
نزعت يديها وحاولت ، وقد احمرت احمرارا شديدا ، أن تواجه ابتساماتها  
ونظراتهما المستطلعة مواجهة جريئة بغير تحرج • ولكن الرجلين ظلوا  
ساكنين يرنوان اليها : فأما أوردنيوف فهو يرنو اليها بدهشة الحب كأن  
هذا الجمال الرهيب ينفذ الى قلبه لأول مرة ، وأما الشيخ فيرنو اليها  
بانتهاء وبرود ، لا يعبّر وجهه الشاحب عن شيء ، وانما تختليج شفاه  
المزرقتان اختلاجا خفيفا •

اقربت كاترين من المائدة وقد كفت عن الضحك • وأخذت تنضد  
الكتب والأوراق والمجبرة وكل ما كان على المائدة ، ثم تحملها جميعا الى  
المنضدة الصغيرة عند النافذة • لقد أصبحت أنفاسها سريعة منقطعة ،  
وأصبحت فى بعض اللحظات تستنشق الهواء عميقا ، كأن قلبها يخنق •  
ان صدرها يملو ويهبط ببطئا كموجة • وخفضت عينيها وتلاأت أهدابها  
السود فوق خديها كابر دقيقة •

تمتم الشيخ :

– ملكة !

ودمدم أوردنيوف وهو يرتجف من رأسه الى قدميه :

– حبيبتى !

ولكنه تاب الى رشده اذ أحسّ بنظرة الشيخ تنصب عليه • لقد



سقطت هذه النظرة خلال ثانية سطوع برق : شرهة خبيثة باردة  
مزدرية • أراد اوردنوف ان ينصرف ، ولكنه أحس انه مسمر في  
مكانه بقوة لا ترى • جلس من جديد • انه يشد في بعض اللحظات على  
يديه ، ليتأكد من انه في يقظة ، لانه يحس ان كابوسا يجثم على صدره  
ويخنقه ، وانه ألعوبة في يد حلم أليم مرضى • ولكن الأمر الغريب انه  
كان لا يريد أن يستيقظ من هذا الحلم •

نزعت كاترين عن المائدة غطاءها العتيق ، ثم فتحت صندوقا ، فأخرجت  
منه مفرشا مطرزا بالحريير والذهب ، فغطت به المائدة • ثم تناولت من  
الخزانة آنية فضية لحفظ الخمور ، كانت لجد جدها ، فوضعتها في وسط  
المائدة ، ثم أعدت ثلاثة أقداح من الفضة ، واحد للضيف ، وواحد لرب  
البيت ، وواحد لها • وبعد ذلك نظرت الى الشيخ والى اوردنوف مفكرة  
ساهرة • قالت :

— من منا يجب من ؟ اذا كان واحد منا لا يجب آخر ، فهذا الآخر  
أنا أحبه وسيشرب قدحه معي • اننى أحبكما كليكما ، حبّ القريب  
للقريب • فلنشرب معا للحب والسلام !  
قال الشيخ بصوت أشوه :

— فلنشرب ، ولنفرق في الخمرة أفكارنا القائمة • صبي ياكاترين !  
سألت كاترين وهى تنظر الى اوردنوف :  
— وأنت ، هل تريد أن أصب لك ؟  
فقدم اوردنوف قدحه دون أن ينطق بكلمة •  
قال الشيخ وهو يرفع قدحه :  
— انتظري ••• اذا كان لأحد رغبة ما ، فلنحقق هذه الرغبة !

تلاطمت الكئوس وشرب الثلاثة •

قالت كاترين متجهة بكلامها الى رب البيت :

- والآن فلنشرب نحن الاثنين • فلنشرب اذا كان فى قلبك حنان  
علىّ وحب لى • لنشرب تحيةً للسعادة التى عشناها ••• تحيةً للسنين  
الماضيات ، تحيةً للمناء والحب ! مرئى اذن أن أصب لك اذا كان قلبك  
يحترق هيأما بى !

قال الشيخ ضاحكا وهو يمد قدحه من جديد :

- خمرك قوى يا جميلتى ، ولكنك لا تزيدين على أن تبلى به  
شفيتك بلا •

- سأشرب قليلا ، أما أنت فأفرغ قدحك حتى الثمالة • لماذا  
تعيش مع أفكار حزينة يا شيخى ؟ ذلك لا يزيد على أن يعذب قلبك !  
الأفكار تنشأ من الألم ، والألم ينادى الأفكار ، فإذا كان الانسان سعيدا لم  
يفكر قط ! اشرب اشرب أيها الشيخ ، أغرق أفكارك فى الخمر •

- حزنك عظيم يا حمامتى البيضاء ، وأنت تريدان أن تتخلصى منه  
دفعة واحدة • اننى أشرب معك يا كاترين • وأنت ، أيها السيد ، أتأذن  
أن أسألك هل فى قلبك حزن ؟

تمتم أوردينوف يقول دون أن يحول بصره عن كاترين :

- نعم ، ولكننى أخفيه فى اعماق نفسى •

قالت كاترين :

- هل سمعت أيها الشيخ ؟ لقد ظللت زمنا طويلا لا أعرف نفسى ،

ولكننى عرفت بعدئذ كل شيء ، تذكرت كل شيء ، عشت الماضى كله من جديد •

قال الشيخ مفكرا :

– نعم ، انه لشيء حزين أن يتذكر المرء الماضى ، ما مضى فهو كالخمر الذى 'شرب' ... ما نفع السعادة الماضية ... متى بلى الثوب وجب أن 'يرمى' ...

قالت كاترين ضاحكةً بينما تدلت على أهدابها عبرتان كبيرتان تشبهان الماس :

– لا بد عندئذ من ثوب جديد • هل فهمت أيها الشيخ ... أنظر لقد دفنت فى كأسك دموعى •

قال أوردينوف متهدج الصوت من الانفعال :

– وسعادتك ، هل اشتريتها بحزن كثير ؟

قال الشيخ :

– لعل عندك ، أيها السيد ، سعادةً كثيرة تريد أن تباعها ! ما هذا الذى تتدخل فيه ؟

قال الشيخ ذلك وانفجر يضحك ضحكاً خيئاً على حين فجأة ، وينظر الى أوردينوف غاضباً •

قالت كاترين :

– اشتريتها بما اشتريتها به ... فبعضهم يرى الثمن باهظاً وبعضهم يراه بخساً ... واحد يريد أن يبيع كل شيء وأن لا يخسر شيئاً ، وآخر لا يعد بشيء ، ولكن القلب المطواع يتبعه ... وأنت دعك أنت من الملامات

( أضافت ذلك متجهة الى أوردنيوف بنظرة حزينة ) • صب في كأسك  
خمرا أيها الشيخ • واشرب تحيةً لسعادة ابنتك ، لسعادة عبدتك الرقيقة  
العذبة الطيِّعة ، كما كانت حين عرفتك أول مرة ••• ارفع كأسك !

قال الشيخ وهو يتناول الخمر :

— لك ما تشائين ! واملئي كأسك اذن •

— انتظر أيها الشيخ ، لا تشرب بعد ، دعني أقول لك شيئاً قبل أن

تشرب •••

كانت كاترين مسندةً ذراعيها الى المائدة ، تحديق الى الشيخ بعينين  
محمومتين • ان عزيمةً غريبةً تسطع في نظرتها • حركاتها جميعاً هادئة ،  
اشاراتها متقطعة ، سريعة ، غير متوقفة • انها كمن يحترق بنار • ولكن  
جمالها يعظم بالانفعال والانتعاش • وشفتاها المنفرجتان تكشفان عن صفتين  
من أسنان بيضاء كاللآلى • وطرف ضفيريها المقتولة حول رأسها ثلاث مرات  
متهدل على أذنها اليسرى باهمال • وعرق قليل يخضّل صدغيها •

— اقرأ هنا يا صديقي ، اقرأ في راحة يدي قبل أن يظلم فكرك •  
اليك يدي البيضاء فاقراً في راحتها • ما أخطأ الرجال في بلدنا حين  
سموك ساحراً • أنظر في يدي أيها الشيخ وحدثني عن حظي الخزين •  
ولكن حذار أن تكذب ! قل : هل ستكون ابنتك سعيدة ؟ أم تراك سوف  
لا تغفر لها ، وسوف تدعو عليها بسوء الطالع ؟ هل سيكون لي ركن دافئ ،  
أعيش فيه سعيدة ، أم سأظل حياتي كلها كالطائر المهاجر أبحث لي عن  
مكان بين الناس الاخيار ؟ قل لي من هو عدوي ، ومن الذي يحبني ، ومن  
يهينني لي الضر ؟ ••• قل لي هل سيظل قلبي الفتى الحار يحيا وحيدا ،  
أم أنه سيجيد القلب الذي يخفق معه للفرح ••• الى أن يحل شقاء

جديد ؟ ... قل لي : في أية سماء زرقاء ، وراء اى بحر ، وسط اية غابة ، يقيم صقري ؟ أهو ينتظرنى مشتاقاً نافد الصبر ، أهو يحبنى كثيراً ، ام تراه سيكف عن حبي قريباً ؟ ... هل سيخدعنى ويخوننى أم لا ؟ وقل فى الوقت نفسه ، قل لى آخر مرة أياها الشيخ ، هل سبقى معامدة طويلة فى مسكننا البائس هذا نقرأ كتباً شيطانية ؟ ... قل لى هل ستحين اللحظة التى أودعك فيها شاكرةً لك انك أطعمتنى وحكيت لك قصصاً .. ولكن حذار ثم حذار ... قل الحقيقة كلها ، ولا تكذب ! لقد آن الآوان •

كانت حميّاهما تزداد على قدر امعانيها فى الكلام ، ولكن الاهتياج لم يلبث أن حطم صوتها ، كأن زوبعة عصفت بقلبها • عيناها تسطمان ، وشفتها العليا تختليج قليلاً • مالت على الشيخ من فوق المائدة ، وأخذت تحددّق الى عينيه المضطربتين بانتباه نهم •

سمع أوردينوف دقات قلبها حين توقفت عن الكلام ... أطلق صرخة حماسية وهو ينظر اليها ، وأراد أن ينهض عن المقعد • ولكن النظرة السريعة العابرة التى ألقاها عليه الشيخ سمّرته فى مكانه من جديد • ان مزيجاً غريباً من الاحتقار والسخرية والقلق والبرم ، ومن الاستطلاع الخبيث الشرير الماكر فى الوقت نفسه ، كان يسطح فى تلك النظرة الحافظة السريعة التى كانت تُرعىش أوردينوف فى كل مرة ، وفى كل مرة كانت تملأ قلبه غيظاً وغيظاً عاجزاً •

كان الشيخ ينظر الى كاترين مفكراً مستطلعا محزوناً • انه مصعوق القلب ، ولكن ما من عضلة فى وجهه تختليج • فلما أنهت كلامها لم يزد على أن ابتسم • ثم قال :

— تريدن أن تعرفى أشياء كثيرة مرةً واحدة ، يا طائرى الصنير

الذى لم يكذب يخرج من العشى ! صبى لى اذن بمزيد من السرعة فى هذا الكأس العميق • ولنشرب أولا تحية للسلام ••• والا فان عينا سوداء معتكرة ستفسد علينا أمنياتنا ••• ان الشيطان قوى قدير ! •••

رفع الشيخ كأسه وشرب • فكلما أمعن فى الشراب أمعن وجهه فى الشحوب والاصفرار • عيناه حمراوان كالجمر • ان بريقهما المحموم ، وان ازرقاق وجهه يندران بأن نوبة جديدة توشك أن تعتريه •

وكان الخمر قويا ، فكل كأس جديدة يشربها أوردنيوف ، كانت تزيد عينيه زيفانا • ان دمه المحموم المشتعل لا يطيق احتمال مزيد من الخمر • كان عقله يضطرب ، وكان قلقه يشتد •

صبَّ أوردنيوف لنفسه خمرا وجرع جرعة ، لا يعلم ماذا يفعل ولا يدري كيف يهدى ، هياجه المتزايد • ان دمه يجرى فى شرايينه بمزيد من السرعة أيضا • كان كمن يهدى ، فهو لا يكاد يستطيع أن يدري مايجرى حوله رغم شدة اهتمامه به واتباهه اليه •

قرع الشيخ كأسه بالمائدة فى صخب ، وهتف يقول :

- صبى يا كاترين ، صبى أيضا أيتها البنت الشريرة ا املى الكأس الى آخره • نوّمى الشيخ حتى الموت ! صبى أيضا صبى يا جميلتى ••• وأنت لماذا لم تشرب الا قليلا جدا ؟ ••• أتصعب أنتى لم الأحظ ذلك ؟

أجابته كاترين بكلام لم يسمعه أوردنيوف ••• لم يدع لها الشيخ أن تكمل كلامها • أمسك يدها ، كأنه أصبح لا يقوى على أن يجبس فى صدره كل ما كان يثقل صدره • ان وجهه شاحب ، وان عينيه تظلمان تارة ، وتسطمعان بهريق قوى تارة ، وان شفثيه الصفراوين تختلجان • قال بصوتٍ يسمع المرء فيه فرحا غريبا فى بعض اللحظات :

- هاتى يا جميلتى ، هاتى . سأقول لك الحقيقة كلها . أنا ساحر  
 يا كاترين . ما أخطأ ظنك : قلبك الذهبى ألهمك الحقيقة . غير أن هناك  
 أمرا لم تفهميه : هو أنى ، أنا الساحر ، لست بمن يعلمك العقل . ان  
 رأسك نعبان ماكر ، رغم أن قلبك مليء بالدموع . سوف تهتدين الى  
 طريقك بنفسك ، سوف تتسللين بين الشقاء . فأحيانا تتغلين بالعقل ، فاذا  
 لم يكف العقل ، بهرت بالجمال . تيرين الفكر ، تحطمين القوة ، فاذا  
 القلب ينشق ولو كان من برونز . . . . . وتساألين : هل ستترن بك مصائب .  
 هل سيلم بك شقاء وعذاب ؟ ان العذاب الانسانى أليم ، ولكن الشقاء لايلم  
 بالقلب الضعيف . وشقاؤك يا جميلتى سيكون مثله كمثلته خطي على رمل :  
 فسرعان ما تنسله الامطار ، وتجففه الشمس ، وتمحوه الريح ! انتظري  
 . . . سأقول لك مزيدا من القول . أنا ساحر . من ستحيينه ، ستكوين له  
 عبدة . أت نفسك سترهين حريتك ثم لا تستردينها . . . . . ولكنك لن  
 تستطيعي أن تكفى عن الحب لحظة يحين الأوان . سوف تبذرين بذرة ،  
 فيجنى الذى أغواك السبيل كله . . . . . يا طفلى الحلوى ، يا رأسى الذهبى ،  
 لقد خبأت فى كأسى عبرة من عبراتك تشبه لؤلؤة ، ولكنك أسفت عليها !  
 ثم سكبت مائة عبرة ! ولكن ما ينبغى لك أن تأسفى على هذه العبرة ، على  
 هذا الندى السماوى . لأنها ستعود اليك ، ثقيلة مزيدا من الثقل ، تلك  
 العبرة التى تشبه لؤلؤة ، ستعود اليك فى ليلة غير ذات نهاية ، ليلة عذاب  
 مر ، حين توافيك فكرة عكرة فتأخذ تأكلك أكلا . وعند ذاك ، من أجل  
 تلك العبرة ، ستسقط على قلبك المحترق ، عبرة شخص آخر ، عبرة من  
 دم ، حارة حرارة رصاص منصهر . سوف تحرق هذه العبرة نحرك  
 الأبيض حتى تصل منه الى الدم ، والى أن يطلع نهار كالح حزين قائم  
 جهم ، ستظلين تغليين على فراشك تاركة لدمك القانى أن يصيل ، ولن  
 تبرئى من جرحك النازف الى الفجر التالى . صبي يا كاترين ، صبي

أيضا يا حمامتى ، اسقيني جزاء ما أسديت اليك من نصائح ... وما انت  
فى حاجة الى معرفة المزيد ... ولا خير فى تدير الكلام سدى بنفسير  
طائل ...

كان صوته يضعف ويرتجف • وكان نشيخ بهم أن يخرج من  
صدره • صبّ خمرا ، وأفرغ فى جوفه كاسا اخر شربه بشراهة • وقرع  
المائدة بالكأس مرة أخرى • وعادت نظرتة المضطربة تسطع من جديد •  
هتف يقول :

– عيشى كما تريدن ان تعيشى ا ما مضى فقد مضى • صبّى أيضا • •  
صبّى حتى يسقط رأسى ، حتى تفتى روحى كلها • • • صبّى حتى أنام  
ليالى طويلة ، وحتى افقد الذاكرة فقدانا تاما • • صبّى صبى ايضا  
يا كاترين ا

ولكن يده التى تمسك الكأس تبدو كأنها مخدّرة ، فهى لا تتحرك •  
كان يتنفس تنفسا ثقيلًا ، كان يتنفس بمشقة • مال رأسه • • • ومرة  
اخيرة القى على اوردينوف نظرة كابية • وحتى هذه النظرة لم تلبث ان  
انطفأت • وسقط حاجباه أخيرا ثقيلين كالرصاص • وشاعت فى وجهه  
صفرة كصفرة الموتى • واختلجت شفتاه بضع لحظات أيضا ، وارتجفتا  
كأنه يبذل جهدا من أجل أن يقول شيئا • وفجأة رثيت دمعة كبيرة تتعلق  
بأهدابه ثم تسقط وتسيل بطيئة على خده الشاحب • • •

لم يطلق أوردينوف صبرا • فنهض ، وسار نحو كاترين مترنح  
الخطى • تناول يدها • ولكنها لم تنظر اليه • • • حتى لكأنها لا تراه ولا  
تعرف من هو • • •

كانت هى أيضا كمن فقد وعيه ، وكان يبدو أن فكرة واحدة



تسفلها ، فكرة واحدة • ارتمت على صدر الشيخ الوسنان ، وأحاطت عنقه  
بذراعيها ، وثبتت فيه نظرتها المشتعلة حتى لكأنهما أصبحا كائنا واحدا ••  
كان يبدو أنها لا تشعر بأن أوردنيوف ممسك يدها • وأخيرا التفتت نحو  
الفتى ، وألقت عليه نظرة طويلة نافذة ، كأنها فهمت أخيرا • فظهرت على  
شفتيها ابتسامة حزينة الیمة • وتمتمت تقول :

— اذهب • أنت سكران وشيرير • أنت لست صديقي •

وعادت تلتفت نحو الشيخ ، وثبتت فيه بصرها • لكأنها ترصد كل  
خفقة من خفقات قلبه ، وتهدهد بنظرتها نومه ، وتخشى أن تنفس ،  
وتحضن قلبه المتأجج ••• وكان فى كيانها كله من الاعجاب العاشق الموله،  
ما جعل أوردنيوف يستبد به اليأس والحنق والفضب على حين فجأة •

ناداها وهو يضغط يدها بعنف :

— كاترين ! كاترين !

ان الألم الذى يشعر به أوردنيوف ينعكس فى وجهه • التفتت  
كاترين ، وألقت على أوردنيوف نظرة تبلغ من التعبير عن السخرية  
والتحقير أنه أحسن بساقيه تشيان تحته • ثم أومأت الى الشيخ النائم ،  
ونظرت الى أوردنيوف مرة أخرى نظرة باردة مزدرية •

قال لها أوردنيوف حانقا أشد الحنق :

— ماذا ؟ لسوف يقتلك ! •••

وكان جنيا وسوس له أنه فهمها • فقال :

— سأشتريك من مولاك يا جميلتى ، اذا كنت فى حاجة الى روحى !

لن يقتلك •

ان الابتسامة الصامتة التي كان تجعد أوردينوف لا تتحول عن وجه كاترين • وبدون أن يعرف ماذا يفعل ، أخذ يتلمس يديه فينتزع من الجدار خنجرا يملكه الشيخ • ظهرت الدهشة في وجه كاترين ، ولكن الغضب والاحتقار لاحا في عينيها في الوقت نفسه وقد ازدادا عنفا وقوة •

شعر أوردينوف بألم وهو ينظر اليها ••• ان قوة غامضة تدفع يده • اخرج الخنجر من غمده • ان كاترين تنابعه بنظراتها ساكنة حابسة انفاسها •

نظر أوردينوف الى الشيخ •

فخيل اليه في تلك اللحظة أن الشيخ يفتح عينيه ببطء ، وينظر اليه مبتسما • التقت أعين الرجلين • حدق أوردينوف الى المعجوز بضغ دقائق ساكنا لا يتحرك •• وفجأة تراءى له أن كل وجه الشيخ يضحك ، وأن هذا الضحك الشيطاني ينفجر مدويا في الغرفة آخر الامر • وهذا خاطر اسود ، كريبه ، يتسلل في رأسه تسلل أفعى ••• ارتجف ••• أفلت الخنجر من يديه ، وسقط على أرض الغرفة مقرعما •

أطلقت كاترين صرخة ، كأنها تستيقظ من كابوس قائم أليم ••• نهض الشيخ عن سريريه ببطء وقد اصفر اصفرارا شديدا • ركل الخنجر بقدمه الى ركن من الغرفة غاضبا حانقا ••• كانت كاترين شاحبة ساكنة كأنها ميتة ••• ان ألما رهيبا لا يطاق يرسم على وجهها • وها هي ذى ترتعى على قدمي الشيخ وهي تصرخ صرخة تشق النفس وتكاد تسقط ممشيا عليها •

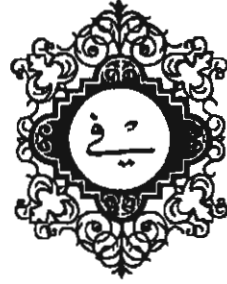
- ألكسى ! ألكسى !

كذلك انطلقت هاتان الكلمتان من صدرها المخنوق •

حضنها الشيخ بذراعيه القويتين ، وشدها الى صدره شدا قويا • أخفت رأسها فى نحر الشيخ ، فأطلق الشيخ عندئذ ، بكل قسماات وجهه ، ضحكة تبلغ من قوة التعبير عن الظفر والانتصار ، وتبلغ من شدة الهول أن النعر استولى على أوردينوف • المكر ، الحساب ، الطفيان البارد المستبد الثيور ، السخرية بقلبه الممزق ، ذلك كله سمعه أوردينوف فى تلك الضحكة •  
دمدم يقول وهو يرتجف خوفا :

— « مجنونة »

وولى هاربا •



الساعة الثامنة من صباح الغد كان أوردينوف  
 يطرق باب ياروسلاف ايلتش شاحب الوجه مهتاج  
 النفس • لما ييل من اضطراب الليلة البارحة •  
 لو سألته لماذا جاء الى ياروسلاف ايلتش لما عرف  
 بماذا يجيبك • فما ان فتح له الباب حتى تقهقر من الدهشة ، ثم تسمر  
 في مكانه عند العتبة جامدا ، اذ رأى مورين في الغرفة • كان الشيخ أشد  
 شحوبا من أوردينوف أيضا ، لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، مهدود  
 الجسم من المرض • ومع ذلك كان يرفض أن يقعد رغم أن ياروسلاف  
 ايلتش يكرر دعوته الى الجلوس سعيدا بزيارته كل السعادة •  
 تهلل ياروسلاف ايلتش مبتهجا حين رأى أوردينوف ، ولكن فرحه  
 تبدد في تلك اللحظة نفسها تقريبا ، واستبد به نوع من الضيق فجأة ،  
 عند منتصف الطريق بين المائدة والكرسي المجاور ، فهو لا يعرف ماذا  
 يقول ولا ماذا يفعل • ولقد أدرك أنه من غير اللائق أن يدخن الغليون  
 في مثل هذه اللحظة ، ومع ذلك ظل من فرط اضطرابه يدخن ما استطاع ،  
 بل يدخن بشيء من الحذقة أيضا •

دخل أوردنيوف الغرفة أخيراً • وألقى نظرة خاطفة على الشيخ • طاف في وجه الشيخ شيء يذكر بالابتسامة الخيثة التي رآها أوردنيوف في وجهه أمس ، والتي تثير ذكراها فيه الارتعاد والحق • ولكن كل تعبير عن العداوة ما لبث أن زال ، وعاد الى وجه الشيخ هدوءه وسكونه الذي لا يمكن النفاذ اليه • وسلم على أوردنيوف بانحناءة كبيرة •

هذا المشهد كله أيقظ أخيراً شعور أوردنيوف ، فحذق الى ياروسلاف ايلتس يريد أن يفهم خطورة الموقف • اضطرب ياروسلاف ايلتس وشعر بحرج •

قال أخيراً :

— ادخل ، ادخل يا صديقي العزيز فاسيلي ميخائيلوفتش • أفرحني بزيارتك وشرف بحضورك جميع هذه الأشياء التافهة •••

قال ياروسلاف ايلتس وهو يشير الى ركن في الزرقة • انه أحمر الوجه كقرنفلة ، وقد بلغ من الاضطراب والحرج أن الجملة المتفخمة التي بدأها انقطعت فجأة ، وها هو ذا يجز كرسياً الى وسط الغرفة ، فيحدث ضجة كبيرة •

— ألا أزعجك يا ياروسلاف ايلتس ؟ كنت أريد ••• دقيقتين لا أكثر •••

— ما هذا الذي تقوله ؟ أنت تزعجني يا فاسيلي ميخائيلوفتش ؟ هلاً؟ قبلت قدحاً من الشاي من فضلك ••• من يخدم هنا ؟ أنا واثق أنك لن ترفض فنجاناً ثانياً •••

أضاف الجملة الأخيرة متجهاً بها الى مورين ، فأوما مورين برأسه

معبراً عن موافقته على شرب قدح آخر •

دخل شرطى ، فأمره ياروسلاف ايلتش بلهجة قاسية أن يحضر ثلاثة أقذاح من الشاي ، ثم أقبل يجلس قرب أوردينوف • ظل بضغ دقائق يدير رأسه يمنة ويسرة كقطعة من خزف ، متجها الى مورين تارة والى أوردينوف تارة أخرى • كان واضحاً انه يريد أن يقول شيئاً هو فى نظره حرج كل الحراجة بالنسبة الى أحد الرجلين على الأقل ، ولكنه رغم كل جهوده ظل عاجزاً عن أن ينطق بكلمة •••

وكان يلوح على أوردينوف أنه فى ضيق وحرج هو أيضاً • وجاءت لحظة فاذا بالرجلين كليهما يأخذان بالكلام معاً فى آن واحد ••• أما مورين الصموت ، الذى كان ينظر اليهما بكثير من حب الاستطلاع ، فقد انفتح فمه ببطء ، كاشفاً عن كل أسنانه •••

قال أوردينوف مخاطباً الشيخ :

- جئت لأقول لك اننى على أثر ظروف مزعجة جدا أرانى مضطراً الى ترك منزلك ، و •••  
فقاطعه ايلتش صائحاً :

- شىء غريب جداً ••• لقد طار عقلى من الدهشة حين أبلغنى هذا الشيخ المحترم قرارك فى هذا الصباح ولكن •••  
سأله أوردينوف مدهوشاً وهو ينظر الى مورين :  
- أبلغك قرارى ؟

كان مورين يلاعب لحيته ويتسم •  
قال ياروسلاف ايلتش مؤكداً :

- نعم .. بل لعننى مخطئى .. ولكننى أستطيع أن أحلف لك  
بشرفى أن أقوال هذا الشيخ المحترم لم تتاولك بأى سوء .

احمر ياروسلاف ايلتش ولم يستطع أن يسيطر على انفعاله الا  
فى عناء .

وكانما ضاق مورين ذرعاً بعدم المبالاة باضطراب رب البيت ، فتقدم  
خطوة الى أمام ، وبدا يقول وهو يحيى أوردينوف بأدب :

- اليك المسألة يا صاحب السيادة . انك تعلم بنفسك يا سيدى  
أنا وأنا وزوجتى كان يمكن أن نسعد من أعماق قلبنا ، وكان يمكن أن  
لا نتجرأ على قول كلمة واحدة .. ولكنك ترى بنفسك كيف تجرى  
حياتى .. انك ترى أتنى أكاد أحتضر .

قال مورين ذلك وعاد يلعب بأصابعه لحيته .

شعر أوردينوف بأنه يوشك أن يهوى على الأرض .

- نعم .. نعم .. لقد سبق أن قلت لك ذلك . انه مريض .  
تلك نازلة أملت به . أردت أن أقولها بالفرنسية . ولكن اعذرنى . ان  
لسانى لا يجرى طلقاً بهذه اللغة .. يعنى ..

- نعم .. نعم ، يعنى ..

حيّاً كل من أوردينوف وياروسلاف ايلتش صاحبه تحية صغيرة ،  
وهما جالسان على كرسيهما ، ثم استأنف ياروسلاف ايلتش كلامه يقول:

- ثم اتنى سألت هذا الرجل الشريف عن الأمر تفصيلاً ، فقال لى  
ان مرض هذه المرأة ..

وهنا ألقى ياروسلاف ايلتشن ، المرهف الشعور ، نظرة سائلة على مورين •

– أقصد أن مولاتنا •••

ثم لم يلعج مزيدا من الالحاح ، بل عاد يخاطب أوردينوف فيقول :

– نعم ••• ان صاحبة البيت ••• أقصد صاحبة البيت الذي تقيم أنت فيه وستتركه ••• امرأة مريضة • هو يقول انها تضايقتك في أعمالك ••• وأنت نفسك ••• لقد أخفيت عنى أمرا هاما جدا يا فاسيلي ميخائيلوفتش •••

– ما هو هذا الأمر ؟

أجاب ياروسلاف ايلتشن بهمس تقريبا ، وبصوت يُسمع فيه شيء من العتب الى جانب التسامح :

– أمر البندقية •

وأسرع يستأنف كلامه فيقول :

– أنا أعرف كل شيء • حكى لى كل شيء • لقد كنت أنت نبيلاً كل النبل حين غفرت له جريمته فى حقتك ، وهى جريمة لم يتعمدها ولا أرادها ••• أحلف لك ••• لقد رأيت دموعا فى عينيه !

احمر وجه ياروسلاف ايلتشن من جديد • والتمعت عيناه • واضطرب على كرسية منفعلا أشد الانفعال •

قال مورين مخاطبا أوردينوف ، بينما أخذ ياروسلاف يحدق اليه وقد تخلص من اضطرابه :



– أنا ... أقصد ... نحن يا سيدى ، أنا ومولاتى ، ندعو لك الله  
دائما . ولكنك تعرف بنفسك يا سيدى أنها امرأة مريضة ، حمقاء ...  
وأنا امرؤ لا أكاد أستطيع التماسك ...

قال أوردنيوف وقد نفذ صبره :

– ولكننى مستعد ... كفى ... أرجوك ... فورا اذا أردت .

– كلا يا سيدى . نحن مقتبطان بوجودك جدا ( قال مورين ذلك  
وهو ينحنى انحناءة كبيرة ) . أنا يا سيدى ... كنت أريد أن أقول لك  
الامر كله فورا . هي ، يا سيدى ، قريبة لى ... تمت الى بشىء من  
قربى ... قربى بعيدة ... انها كذلك منذ الطفولة ... رأس تعصف  
به الأهواء .. لقد نشأت وترعرعت فى الغابة .. كفلاحة .. بين الرجال  
الذين يجرون المراكب ، والعمال الذين يعملون فى المصنع ... وفجأة  
احترق منزلهم ... هلكت أمها فى الحريق ، وهلك أبوها أيضا ...  
أقصد من يقال له أبوها ... انها مستعدة لأن تروى لك هذه الحكايات ..  
أنا لا أتدخل فى هذا الأمر ... ولكن يجب على أن أقول لك ان أطباء  
من موسكو قد فحصوها ... أعنى يا سيدى ... هي مجنونة تماما ...  
هذه هى المسألة . أنا وحدى معها ، وهى وحدها معى . نعيش ، نصلى ..  
ونأمل ... ولكننى لا أعارضها فى يوم من الأيام ...

كان وجه أوردنيوف مضطربا أشد الاضطراب . وكان ياروسلاف  
ايلتش ينقل بصره بين الرجلين ، فينظر الى هذا تارة والى ذاك تارة  
أخرى .

استأنف مورين كلامه وهو يهز رأسه فى وقار :

– ولكن لا .. يا سيدى .. هى كذلك .. رأسها يبلغ من الجنون

أنها فى حاجة دائمة الى حبيب ، الى انسان تناديه حبيبي ••• وأنا يا سيدى  
رأيت ••• اغفر لى أقوالى الحمقاء ••• ( أضاف مورين ذلك وهو يحيى  
صاحبه ويمسح لحيته ) ••• رأيت كيف كانت تذهب اليك ، ورأيت كيف  
أردت ، سيادتك ، أن تربط مصيرك بمصيرها •••

احمر وجه ياروسلاف ايلتش حتى صار بلون الأرجوان ، ونظر  
الى مورين عاتبا • أما أوردينوف فقد كان لا يستطيع الاستقرار على  
الكرسى •

– لا يا سيدى ••• أعنى •• ليس هذا هو الأمر •• أنا ياسيدى ••  
أنا فلاح بسيط •• نحن عبيدك ( أضاف ذلك وهو ينحنى الى الارض ) ،  
ونحن ندعو لك الله دائما ، أنا وزوجتى • نحن يكفينا أن يكون لدينا  
ما ناكله ، وأن تكون صحتنا بخير ، هذا وحده يرضينا ••• أنت تعرف  
ذلك بنفسك يا سيدى ••• فارحمنا يا سيدى ••• وما عسى أن يحدث  
إذا أصبح لها عشيق جديد ؟ اغفر لى هذه اللفظة البشعة ••• أنت رجل  
مهذب يا صاحب السعادة ••• انت رجل ذو كبرياء ، وذو حمية ••• أما  
هى ، ياسيدى ، فهى طفلة ، طفلة بغير عقل ••• سرعان ماتت فى الاثم ••  
هى قوية البنية ، وأنا مريض دائما •• ولكن ماذا تريد ! ••• ان الشيطان  
يتدخل فى الأمر •• انا اقص عليها حكايات ! •• نعم يا سيدى • انا  
أنا وزوجتى ندعو الله لك بالخير ، لا نكف عن ذلك • هى جميلة ، نعم ،  
ولكنها ليست آخر الأمر الا فلاحه ، الا امرأة بسيطة ••• انها لا تحسن  
غسل جسمها ••• وهى حمقاء ، تصلح لى أنا الفلاح •• أما أنت ياسيدى  
فلا تصلح لك •• وما أكثر ما ندعو لك الله بالخير ! ••

هنا انحنى مورين انحناء كبيرة ، وظل على هذه الحال من الانحناء  
مدة طويلة ، دون أن ينتصب ، ماسحا لحيته بكمه •

لم يعرف ياروسلاف ايلتش ماذا يجب عليه أن يفعل •  
قال مضطربا كل الاضطراب :

- نعم ، ان هذا الرجل الشهم قد حدثني عن شيء من سوء التفاهم  
وقع بينكما فيما يظهر • لا اجرؤ ان أصدق ، يا فاسيلي ميخائيلوفتش •••  
سمعت أنك ما تزال مريضا ( كذلك قطع ياروسلاف كلامه بسرعة ، منفلا  
جدا ، حين لاحظ اضطراب أوردينوف ) •

ألقي أوردينوف على مورين هذا السؤال فجأة :  
- كم لك على ؟

- ما هذا الكلام يا سيدى ••• ما نحن بباعه المسيح ! ••• لماذا  
تهيننا يا سيدى ؟ هلا خجلت من مثل هذا السؤال ••• هل أسأنا اليك ،  
أنا أو امرأتى ؟ ••• عفوك •••

- ولكن هذا أمر غريب يا صديقى ••• لقد استأجر غرفة عندكم  
••• أفلا تشمر أنك برفضك هذا انما تهينه ؟ ••

بهذا الكلام تدخل ياروسلاف ايلتش ، معتقدا أن من واجبه أن  
يبين لمورين أن فعله هذا غريب خال من اللباقة •••

- ولكن عفوك يا سيدى ••• ما هذا الكلام يا سيدى ••• أخطانا  
في حقلك ؟ لقد قمنا بكل شيء في سبيل أن نهيب لك الراحة والمسرة ••  
أرجوك يا سيدى •• ماذا ؟ أنحن أناس لا نعرف الوفاء ؟ •• لأن يعيش  
بيننا ، ويقاسمنا طعامنا ، طعام الفلاحين ، فهنيئاً مريئاً ••• ما كان لنا أن  
نقول شيئا في هذا •• ولكن الشيطان تدخل في الأمر •• أنا مريض ،  
وزوجتى مريضة أيضا •• فما العمل ؟ كان يمكن أن يسعدنا وجوده معنا  
كل السعادة ••• ولكننا سندعو لك الله بالخير ، أنا وزوجتى ا •••

مرة أخرى انحنى مورين انحناءً كبيرة \* وظهرت في عيني  
ياروسلاف ايلتش دمة ، ونظر الى أوردينوف في حماسة وقال :

– ما أنبل هذه السجايا ! ما أعظم روح الضيافة المقدسة هذه التي  
يحتفظ بها الشعب الروسى \*

نظر أوردينوف الى ياروسلاف ايلتش نظرة غريبة من رأسه الى  
قدميه \* قال مورين :

– وأنا يا سيدي \*\* نعم \*\* هذه هي المسألة \*\*\* روح الضيافة \*\*  
هل تعلم ؟ اننى أقدّر الآن أن من الخير أن تبقى عندنا يوماً آخر ( قال  
ذلك مخاطباً أوردينوف ) \* لا اعتراض لى على ذلك البتة \*\* ولكن زوجتى  
مريضة \*\* آه لو لم تكن عندي زوجتى ! آه لو كنت وحيداً \*\*\* اذن  
لرأيت كيف أعتنى بك \*\* اذن لرأيت كيف أشفيك من مرضك ! اننى  
أعرف وصفات طيبة \*\* حقاً \*\* لعلك تبقى عندنا يوماً آخر مع ذلك \*

قال ياروسلاف ايلتش :

– فعلاً \*\* أليس هناك دواء ما ؟

ولكن ياروسلاف ايلتش لم يتم كلامه \*

كان أوردينوف ينظر اليه من قمة الرأس الى أخمص القدم حانقا  
مدهوشاً \*

لا شك أن ياروسلاف ايلتش انسان من أشرف الناس وأنبلهم ،  
ولكنه فهم الآن كل شىء \* يجب أن نترف أن وضعه حرج جداً \* أراد  
لو ينفجر ضاحكاً كما يُقال \* ولو كان فى خلوة مع أوردينوف ، أى فى  
اجتماع بين صديقين كهذين الصديقين ، لما استطاع أن يضبط نفسه ،

ولأخذته نوبة من مرح شديد لا قصد فيه ولا اعتدال ، وكان ضحكه هذا ضحكا نبيلاً على كل حال ، حتى اذا انتهى الضحك صافح أوردينوف مصافحة ودية ، وحاول أن يقنعه مخلصاً بأن احترامه له قد ازداد ولم ينقص ، وانه يقدره على كل حال ، لأن هذا فى طبيعة الشباب •• ولكن ياروسلاف ايلتش فى وضع حرج الآن ، بسبب رهافة شعوره ، وشدة أدبه •• انه فى وضع حرج جدا ، لا يدري ماذا يفعل •

قال مورين وقد اتعش لسؤال ياروسلاف ايلتش :

— دواء ؟

ثم تابع يقول وهو يتقدم خطوة الى أمام :

— أنا يا سيدى ، أنا الفلاح الغبى •• أقول •• أقول انك تسرف فى قراءة الكتب يا سيدى •• أقول انك أصبحت أذكى مما يجب • المثل عندنا يقول : تجاوز عقلكم العقل يا فلاحون •  
قال ياروسلاف ايلتش بقسوة يقاطعه :

— كفى !

قال أوردينوف :

— أنا ذاهب • شكرا يا ياروسلاف ايلتش •  
وأضاف يقول واعداء بتلية دعوة ياروسلاف ايلتش الذى لم يستطع أن يثنيه عن الانصراف :

— سأجىء اليك حتما • الوداع • الوداع ! ••

— وداعا ، سيادتكم ••• وداعا سيدى ! لاتنس •• زرنا أحيانا ••

لم يسمع أوردینوف مزیدا • وخرج كالمجنون •

لقد نفذ صبره ، وأصبح لا يطيق أن یحتمل أكثر مما احتمل •  
كان كالیت • تجمد شعوره • أحس بالمرض یخنقه خنقا • ألا أن یأسا  
باردا كالثلیج كان یتولى على نفسه • أصبح لا یحس الا ألما أصم یخنقه  
ویمزق صدره • ودّ فی هذه اللحظة لو یموت • اثنت ركبتاه تحتہ ،  
فجلس قرب صف من الأشجار لا یتبه لا الى الناس الذین یمرون أمامه ،  
ولا الى الجمهور الذی أخذ یتحلق حوله ، ولا الى نداءات وأسئلة من  
یحیطون به • ولكن أوردینوف یسمع بین هذه الأصوات صوت مورین  
على حین فجأة • فینهض رأسه • كان الشیخ قد شق طریقا الیه بعد عناءه  
ان وجهه الشاحب رصین واجم • لیس هو الآن ذلك الانسان الذی كان  
یضحك علیه بفضاظة عند یاروسلاف ایلتش • نهض أوردینوف • تناول  
مورین ذراعه وأخرجه من بین الجمهور •

قال مورین وهو ینظر الیه من جانب :

– أنت فی حاجة الى أخذ أمتعتك •

ثم هتف یقول بعد ذلك :

– لا تحزنن یا سیدی • أنت فی ریمان الشبَاب ، وما ینبغی أن

تأس •••

لم یجب أوردینوف بشیء •

– أنت مستاء یا سیدی ؟ واضح أنك زعلان •••• ولكنك مخطئ •••

ان من حق كل انسان أن یحافظ على ما یملك •••

قال أوردينوف :

- أنا لا أعرفك ، ولا أريد أن أعرف أسرارك ... ولكن هي ... هي

نطق أوردينوف بهذا ، وتدفقت دموع غزيرة من عينيه ، فمسحها بكفه . ان حركته ، ونظراته ، وارتجاف شفثيه المزرقتين ، ان كل شيء يشعر من يراه بأنه جن .

قال مورين مقطبا حاجبيه :

- لقد قلت لك الأمر ... هي مجنونة ... أما لماذا وكيف أصبحت مجنونة ، فذلك شيء لا حاجة بك الى معرفته البتة ... كل ما هنالك أنها ، وهي على ما هي عليه ، لي أنا . انني أحبها أكثر من حياتي ، ولن أهبها لأحد .

برق لهيب في عيني أوردينوف . وقال :

- ولكن لماذا .. لماذا أحس أنا بأنني كمن فقد الحياة ؟ لماذا يتألم قلبي ؟ لماذا عرفت كاترين ؟

ابتم مورين وأطرق يفكر ، ثم قال :

- لماذا ؟ لا أعلم . النساء . . . ليست النساء كقاع البحر ... يمكن أن يفهمن أخيرا . . . لكنهن ماكرات . صحيح يا سيدى أنها أرادت أن تركني لتذهب معك ( كذلك أضاف يقول ذاهلا ) ... لقد ضاقت بالشيخ . . . أخذت منه كل ما استطاعت أن تأخذ ! وقد أعجبت بك فورا . . . ولكن سواء أكنت أنت أم كان غيرك . . . أنا لا أعارضها . لو طلبت مني لبن العصفور لهيأته لها . . . أصنع بنفسى عصفورا يدر لنا ، اذا لم يكن

فى الكون عصفور كهذا ••• وهى مغرورة تحب الظهور ، وتحلم بالحرية  
ولكنها لا تدرى هى نفسها مصدر عذاب قلبها ••• الأفضل أن تبقى الامور  
كما هى ••• هيه يا سيدى ! انك ما تزال شابا فى ريعان الصبا ! قلبك  
ما يزال حارا متوقدا ••• اسمع يا سيدى ••• ليس فى طاقة انسان ضعيف  
أن يضبط نفسه وحده • لو أعطيته كل شىء ، لجاء من تلقاء نفسه يرد كل  
شىء ، حتى لو أعطيته نصف الكون • لو وهبت الحرية لانسان ضعيف ،  
لأوثقها بيديه ، وأعادها اليك • لا قيمة للحرية عند قلب ساذج ••• ولا  
يستطيع المرء أن يعيش مع طبع كهذا الطبع ••• أقول لك هذا كله لأنك  
شاب فى ميعة العمر ••• ما أنت عندى ؟ لقد جئت ثم ذهبت ••• سيآن  
أنت وغيرك • كنت أعلم منذ البداية ما سيقع • ولكن ما ينبغى أن أعارض  
••• ليس على المرء أن يعترض أى اعتراض اذا أراد أن يحتفظ بسعادته  
••• كل شىء يمكن أن يقع ( كذلك تابع مورين تفلسفه ) • حين يفضب  
المرء يتناول خنجرا ، بل لقد يهجم أعزل اليدين من السلاح محاولا أن  
يمزق عنق عدوه ••• ولكن يكفى أن يوضع فى يدك خنجر ، وأن  
يكشف لك عدوك عن صدره ، حتى تراجع •••

دخل الرجلان فناء المنزل • رأى التترى مورين من بعيد ، فخلع  
طاقته احتراما • ورشق أوردينوف بنظرة خبيثة •

صاح مورين :

- هيه ••• هل الأم فى البيت •

- نعم فى البيت •

- قل لها أن تساعد فى نقل الأمتعة ••• وعاون أنت أيضا •



صعدا السلم • جمعت العجوز التي تخدم في بيت مورين ، وهي  
في الواقع أم اليواب ، جمعت أمتعة المستأجر وجعلتها في حزمة •  
- انتظر • سأتيك أيضا بشيء بقي هناك ، وهو لك •

قال مورين ذلك ومضى الى غرفته • وعاد بعد دقيقة يمد الى  
أوردينوف مخدة مطرزة هي المخدة التي جاءت بها كاترين حين كان  
مريضا ، ويقول له :

- انها هي التي ترسل اليك هذه المخدة • والآن هيا انصرف ،  
وحذار أن تعود الى هنا ( أضاف ذلك هامسا ) ، والا ساءت الأحوال ...

كان واضحا أن مورين لم يقصد أن يهين الرجل ، ولكن حين ألقى  
عليه نظرة أخيرة ، فقد ارتسم على وجهه ، بالرغم منه ، تعبير عن الغضب  
والاحتقار ؛ ثم أغلق الباب وراء أوردينوف باشمئزاز تقريبا •

وبعد ساعتين كان أوردينوف يستقر عند الألماني سيس • ان تينيش  
لم تملك أن صاحت « آه » حين رأته داخلا • ثم لم تلبث أن استفسرت  
عن صحته ، فلما علمت بمرضه ، أسرعت تعالجه •

وأظهر الألماني العجوز لصاحبه ، متباهيا ، أنه كان يتهايا لوضع اللافنة  
عند باب العمارة ، لأن مدة الايجار المدفوع سلفا انما تنتهي في هذا اليوم •  
كان العجوز لا يفوت فرصة تتيح له أن يشيد بالدقة الجرمنية ، وبالأمانة  
الجرمنية •

مرض أوردينوف في ذلك اليوم نفسه • فلزم سريره ولم ينادره  
الا بعد ثلاثة أشهر •

عادت اليه عافيته شيئا فشيئا وأخذ يخرج • ان الحياة في منزل

الالمانية رتيبة هادئة تنجرى على وتيرة واحدة • لم يكن طبع الالماني صعبا  
وكانت تينيش الحلوة على خير ما يتمنى المرء أن تكون • ولكن الحياة فى  
نظر أوردينوف كانت تبدو فاقدة لونها الى الأبد • أصبح أوردينوف حالما ،  
سريع الاهتياج ، واصبحت حساسيته مرضية ، وشيئا فشيئا اخذت تسيطر  
عليه كآبة خطيرة جدا ، كآبة خبيثة •••

اصبح لا يفتح كتبه اسابيع كاملة • واصبح المستقبل يبدو له مظلما  
وكانت موارده تشارف على نهايتها ، وهو لا يعمل شيئا ، ولا يحفل بالغد  
ولئن كانت حماسه القديمة للعلم وحميته السابقة والصور التى خلفها  
للماضى تعود الى الظهور أحيانا ، فانها كانت لا تزيد على أن تخنق طاقته •  
اصبحت الفكرة لا تستجيل عنده الى فعل • توقف الخلق • كأن تلك  
الصور جميعها كانت تتخذ فى أحلامه أبعادا ضخمة عن صمد ، لتسخر  
من عجز صاحبها نفسه • وكان فى ساعات حزنه يشبه نفسه ، على غير  
ارادة منه ، بتلميذ الساحر\* ذلك الذى سرق من أستاذه الكلمة السحرية  
التى تأمر المكنتسة بتفجير الماء ، فاذا هو يفرق فى الطوفان لأنه نمى كيف  
يقول : كفى •

ترى هل ستستيقظ فى نفسه فكرة أصيلة ، كاملة ؟ ترى هل  
سيصبح علما من أعلام العلم ؟ لقد كان فى الماضى يؤمن بذلك على  
الأقل • والايمان المخلص الصادق ضمانته المستقبل • أما الآن فكثيرا  
ما يسخر من نفسه ومن ثقته العمياء ، وهو لا يتقدم خطوة •

كان منذ ستة أشهر قد خلق وألقى على الورق مخطط كتاب كان  
يعقد عليه آمالا لا حدود لها • كان هذا الكتاب يتناول تاريخ الكنيسة ،  
وقد خرجت من قلم أوردينوف نتائج جريئة • ها هو ذا الآن يعيد قراءة  
هذا المخطط ، ويفكر فيه ، ويعدله ، ويدرسه ، ويبحث ، ثم يرميه أخيرا

دون أن يبني على أنقاضه شيئا • غير أن شيئا يشبه الصوفية أخذ يفزو نفسه • كان المسكين يحس الامه ويسال الله أن يشفيه منها • لقد حكى خادمة الالماني ، وهى امرأة عجوز روسية تقية جدا ، ان الساكن كان يصلى ويبقى راكعا عند عتبة الكنيسة ساعتين كاملتين •

ولم يكن أوردنيوف يقول لاحد كلمة واحدة عما حدث له • ولكن العاصفة كانت تهب فى نفسه الجريحة أحيانا ، ولا سيما ساعة الشفق ، حين يذكره صوت النواقيس بأول لقاء له معها ، انه يتذكر عندئذ العاطفة التى كان يبجلها حتى ذلك الحين ، والتى هزت صدره حين ركع قربها لا يصغى الا الى خفقان قلبها الوجس ، ولا يحس الا دموع الحماسة والفرح تنتشر على الأمل الجديد الذى يبرق فى حياته • عندئذ كان عذاب الحب يحرق صدره من جديد ، بينما يعانى قلبه ألماً مرأ محموما ، وكأن حبه يزداد بازدياد حزنه •

وكثيرا ما كان يبقى فى مكان واحد ساعات بأسرها ، ناسيا نفسه ، ذاهلا عن حياته كلها ، غافلا عن كل شىء فى العالم ، وحيدا حزينا ، يهز رأسه يأسا وحسرة ، ويتمتم قائلا : « كاترين ، حمامتى العزيزة ، أختى الوحيدة ! » •

وهذه فكرة رهيبة مروعة تأخذ تعذبه ، وتحاصره مزيدا من المحاصرة يوما بعد يوم ، ثم تستحيل عنده الى يقين فواقع ؟ وهو أن عقل كاترين سليم ، ولكن ما وصفها به مورين من أنها قلب ضعيف ، هو وصف صادق • أصبح يلوح له أن هناك سرأ يربط كاترين بالشيخ ، ولكن كاترين ، الجاهلة بالجريمة ، قد أصبحت فى قبضة يده خاضعة لسلطانه كحمامة بريئة • من هما ؟ ان أوردنيوف لا يعرف جوابا لهذا السؤال • ولكنه يرى أن طغيانا فظيما لا مهرب منه يجثم على صدر هذه المخلوقة

الشقية التي لا تملك أن تحمي نفسها ، فيشعر أوردينوف من ذلك باضطراب في قلبه ، وتمتلئ نفسه ألماً عاجزاً . كان يتصور كاترين إنسانة وضعت على عينيها غشاوة ، واخذوا يخيّلون اليها غادرين انها تسقط وتهوى : انهم يعذبون قلبها المسكين « الضعيف » تعذيب الشهداء ؛ يصورون لها الحقيقة على ما يريد لهم هواهم زورا ، يثقونها في العماوة عامدين ، ويتملقون بالمكر قلبها العارم المضطرب ، فيقصون بذلك ، شيئا بعد شيء ، جناحي نفس تتطلع الى الحرية ولكنها عاجزة عن التمرد ، عاجزة عن الانطلاق الى الحياة .

أصبح أوردينوف يزداد توحشا يوما بعد يوم . ويجب أن نعرف بأن أصحابه الالمان كانوا يراعون توحشه ويحترمونه . وكان يؤثر لئزهاته ساعة الشفق ، والاماكن البعيدة المقفرة . وها هو ذا ، في ذات مساء حزين ممطر ، يلقي ياروسلاف ايلتس في زقاق ضيق موحش .

كان ياروسلاف ايلتس قد انحل جسمه كثيرا . ان عينيه الملتمعتين قد أصبحتا كابتين ، وان شخصه كله يدل على انه فقد اوهامه . كان يرئض لعمل من الاعمال لا يطيق تأخرا . وكان مبللا متسخا وكانت قطرة من المطر تتدلى في صورة عجيبية على أنفه الدقيق الذي ازرق الآن ازرقا شديدا . وكان عدا ذلك قد أرخى لحيته عارضية .

دُهِش أوردينوف من اللحيّتين ، ودُهِش مما ظهر في صديقه من انه يريد تحاشيه والهروب منه . شيء غريب . ان أوردينوف قد جرح هذا الأمر قلبه الذي لم يكن قبل الآن في حاجة الى عطف أحد . ان الشخص الذي عرفه أوردينوف قبل الآن بسيطاً طيباً ساذجاً - بل قل اذا شئت الصراحة غيباً ، ولكن على غير ادعاء - ان هذا الشخص يبدو الآن لأوردينوف أحب الى نفسه وأحلى في نظره . والانسان ، في مقابل ذلك ،

ينفر من الشخص الغيبي اذا رأى هذا الشخص الغيبي ، الذى لعله أحبه لغباوته نفسها ، اذا رآه يصيح ذكيا على حين فجأة • ولكن الحذر الذى عبر عنه وجه ياروسلاف ايلتش حين نظر الى أوردينوف نظرة أولى لم يلبث أن امحى ، ثم اذا هو يجرى مع أوردينوف حديثا فيه كثير من الصداقة • قال له فى اول الامر ان هناك اعمالا كثيرة ينبغى له أن يقوم بها ؟ ثم قال له انهما لم يلتقيا منذ زمن طويل ؟ ولكن سرعان ما جرى حديثهما مجرى غربيا على حين فجأة • أخذ ياروسلاف ايلتش يتحدث عن زيف البشر عامة ، وعن شرور هذا العالم ، وعن أن كل شيء باطل • وتحدث عن بوشكين بغير اكترات ، ثم قال فى حق بعض الأصدقاء كلاما يدل على مرارة فى قلبه • وأشار أخيرا الى كذب أولئك الذين يزعمون أنهم أصدقاء ، على حين أن الصداقة الحقة لا توجد ولم توجد فى يوم من الأيام • الخلاصة أن ياروسلاف ايلتش قد أصبح ذكيا أكثر مما يجب •

لم يعترض أوردينوف بشيء ، ولكن حزنا كبيرا استولى على نفسه ، كما لو كان يدفن خير صديق من أصدقائه •

صاح ياروسلاف ايلتش يقول فجأة ، كمن تذكر أمرا هاما جدا :  
- آه •• تخيل •• كدت أنسى أن أحكى لك •• هناك جديد •••  
أفضى اليك به سرا ••• هل تتذكر المنزل الذى سكنت فيه ؟

ارتعش أوردينوف واصفر وجهه •

تابع ياروسلاف ايلتش يقول :

- تخيل أننى اكتشفت فى هذا المنزل مؤخرا عصابة من اللصوص ••  
أقصد من المهربين والمحتالين وسائر أنواع اللصوص • فاعتقل بعضهم ، وما يزال بعضهم الآخر ملاحقا ••• أصدرت أوامر مشددة ••• وهل

تصدق ؟ أتذكر صاحب العمارة ، ذلك الشيخ العجوز جدا ، الوقور ،  
الذى يدل مظهره على النبيل ...

– هه ؟

– هل تؤمن بعد الآن بالإنسان ؟ انه هو رئيس العصابة كلها !  
كان ياروسلاف ايلتش يتكلم بحماسة ، ويتخذ من هذه الواقعة  
المتبدلة حجة للحكم بالسوء على البشر جميعا . لقد كان هذا فى طبعه .  
سأله أوردينوف بصوت خافت جدا :

– والآخرين ؟ ... ومورين ؟ ...

– مورين ؟ لا .. هذا شيخ محترم .. نبيل .. ولكن اسمح لى ..  
ان سؤالك هذا يلقي ضوءا جديدا ..

– ماذا ؟ أياكون واحدا من أفراد العصابة ؟

وثب قلب أوردينوف استطلاعا .

قال ياروسلاف ايلتش وهو يرمق أوردينوف بعينيه المنطقتين علامة  
التنكر :

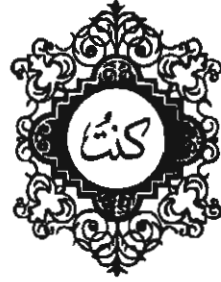
– ولكن .. لا .. ما هذا الكلام ! .. ان مورين لا يمكن أن يكون  
واحدا منهم ... لقد سافر مع زوجته الى بلده قبل الحادث بثلاثة أسابيع  
... علمت ذلك من البواب ... هل تتذكره ، ذلك الترى القصير ؟

المزج

١٨٤٨

« المهرج\* » (Polzouunkov)، كتب  
دوستوفسكي هذه القصة سنة  
١٨٤٧ ، ونشرت في مطلع سنة  
١٨٤٧ في « المجلة المصورة » التي  
كان يصدرها باناييف ونكراسوف .





أنظر الى الرجل • ان فى هيئته من الغرابة ما يدفع  
المرء الى ضحك لا سبيل الى مغالبتة متى نظر  
اليه ، وهذا ما حدث لى فعلا • ملاحظة أخرى :  
ان عيني هذا الرجل الصغيرتين ما تنفكان تدوران  
فى جميع الاتجاهات بغير انقطاع أو توقف ؛ وانه ليبلغ من التأثير المغناطيسى  
بنظرات الغرباء أنه كمن يحزر بغيريته الاتباه الذى ينصب عليه ، فاذا  
هو يلتفت بسرعة ويحدق الى الشخص المزعج قلعا • ان حركته الدائمة  
تجمله أشبه فعلا بصفيحة المعدن التى تدل حركتها على اتجاه الريح •

أمر غريب حقا : انه كمن يخشى السخريات ، رغم أنه مدين  
لاستهزاءات الناس بأضمن وسائل معيشته ، فهو مهرج لهم جميعا ، ومهمته  
الأساسية هى أن يتلقى اللطعات ، المعنوية وحتى الحسية ، تبعاً للمجتمع  
الذى يكون فيه •

والمهرجون الذين يهرجون للناس طواعية واختيارا لا يثيرون فيك  
الشفقة • ولكننى لاحظت أن هذا الرجل المضحك لم يكن بهلولا محترفا ،  
وأنه ما يزال فيه شيء من رفة ؛ فما يلوح فى وجهه من حرج وانزعاج

وخوف دائم مرضى مسيطر ، كل ذلك يمكن ان يدرا عنه تهمة الخسة  
والحقارة •

وقد خيل الى أن رغبته في أن يخدم الناس تنبع من طبيعة طيبة ،  
وانها هي التي تتحكم فيه أكثر مما تتحكم الحسابات المادية • كان يسره  
بعض الشيء أن يسخر منه ، وأن يُستهكم عليه ، ولكنني مستعد لان أحلف  
أن قلبه يمكن أن ينزف دما لو تصور أن سامعيه يضحكون ضحكا شريرا  
لا مما يقصه عليهم بل من شخصه نفسه ، من قلبه ، من عقسه ، من  
مظهره ، من لحمه ودمه •

وأنا على يقين من أنه كان في تلك اللحظات يشعر بكل ما في موقفه  
من فظاعة ، ولكن كل احتجاج كان يموت في حلقه ، رغم أن المرء يشعر  
في كل مرة أن هذا الاحتجاج قد نبت في نفسه نبلا كريما • وأقول مرة  
ثانية انني مقتنع بأن التضاد ناشئ عن بقية باقية من كرامة وحساسية عميقة  
خفية لديه ، لا عن توقعه أن يطرد ركلا بالأرجل ، وأن لا يستطيع أن  
يستعطي سامعيه بعض المال : والحق أن الرجل كان يستعطي دائما ، فهو  
يطلب ، بغير حياء ، أجر ما يقوم من تكشيرات وما ينزل اليه نفسه من  
وضاعة • انه يشعر أن من حقه أن يفعل ذلك ، ولا تهدف أضحايكه الى  
غير هذا الهدف الوحيد •

ولكن يا له من استعطاء ! وباللهيئة التي كان يعتقد أنه مضطر الى  
اصطناعها في سبيل ذلك ! ••• ما كان في وسعي أن أتصور ، قبل أن  
أراه ، أن مساحة ضيقة كمساحة وجهه هذا المتجمد المتكسر الزوايا  
المخرب يمكن أن تكون مسرحا لكل هذه التصميرات المختلفة ، ولكل هذه  
الاحساسات الغريبة والمشاعر اليائسة في الوقت نفسه • أى شيء لا يراه  
المرء في هذا الوجه ؟ انك ترى الحجل والحياء ، وترى الغطرسة الكاذبة ،  
وترى الغضب وما يصعبه من احمرار ، وترى الخوف والوجل ، وترى

طلب الغفران من الناس عن ازعاجهم ، وترى الاقتناع بأنه ذو قيمة وبأنه ليس بذى قيمة . . . هذا كله تراه يطوف بوجهه سرىما كومض البرق •  
انه لم يستطع ، بعد ست سنين من محاولته الحصول على مركز فى هذا العالم فى كنف الرب ، ان يصل الى ان يشكل لنفسه هيئة تليق باللحظات الشائقة التى يجرى فيها الاستعطاء • وواضح أنه ما كان له أبدا ان يسرف فى التدنى وان يضيع نفسه ، فان فى قلبه من الحرارة والحركة ما لا يسمح له بذلك ؛ بل أزيد على هذا فأقول : انه كان انسانا من أشرف خلق الله وانبلهم ! هناك ضعف واحد كان يدنّيه : انه مستعد ، لدى أول إشارة ، لان يرتكب حقارة صغيرة ، عن طيب قلب وبغير حساب ، لا لشيء الا أن يسر الآخرين • فاذا شئت أن تستعمل الكلمة الدارجة على ألسن العامة فقل انه كان كخرقة رخوة ••

وأبعث ما فيه على الضحك أنه كان يرتدى ثيابا كتياب سائر الناس ، لا أحسن منها ولا أسوأ ، ثيابا نظيفة دائما ، على شيء من تأنق ، هذا عدا ميل الى الظهور بمظهر المتانة والوقار •

فهذا المظهر الخارجى ، وهذا الخوف الداخلى الذى يبدو أنه يعذبه فى الوقت نفسه ، وهذه الحاجة الى المذلة بغير انقطاع ، ذلك كله كان يؤلف تضادا يبعث على الضحك وعلى الشفقة فى آن واحد معا • فلو كان مقتنعا - وهذا ما كان يحدث له فى كثير من الأحيان رغم تجاربه - بأن جميع سامعيه أناس طيبون ، قادرون على أن يضحكوا الا من أنفسهم أو من قصة هزلية فى ذاتها ، لا من شخصه هو ، لكان يسره أن يخلع رداءه فيلبسه مقلوبا ، ويمضى يتجول فى الشوارع على هذه الصورة ، لا لشيء الا ليضحك هؤلاء الناس الذين يميلونه ويحمونه ، وليحمل الى قلوبهم المسرة والبهجة •

وثمة سمة أخرى من سمات طبيعه : كان هذا الرجل المضحك لا يخلو من حب الذات والشعور بالكرامة ، بل انه فى بعض الأحيان ، حين لا يكون مهددا بأى خطر ، لا يخلو من كبر وعظمة • لبتك تراه كيف كان يستطيع أن يؤدب حتى واحدا من معيبيه و « حماته » حين يتجاوز هذا الحدود المباحة • صحيح أن ذلك ما كان يحدث الا نادرا ، ولكن الرجل لم يكن يراعى شيئا أو يدارى أحدا متى حدث شيء من ذلك ، حتى لقد كان يظهر عندئذ شيئا من البطولة حقا •

وخلاصة القول ان الرجل كان شهيدا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، لكنه شهيد بغير طائل ، وهو لهذا نفسه مضحك تماما •

ولقد أتبع لى بعد قيام مناقشة عامة أن أرى هذا الرجل المضحك يصعد فجأة على طاولة مسرعا ، فيصيح طالبا الى الناس أن يعودوا الى الصمت ، سائلا اياهم أن يستمعوا الى كلامه :

قال لى صاحب البيت :

- استمع اليه ••• انه يقص فى بعض الأحيان أشياء شائقة ••• هل يروك هذا ؟

فأغضت رأسى بعلامة الموافقة ، وانضمت الى الجمهور •

ان منظر هذا السيد الحسن الهندام ، الذى يصيح من على طاولة معمولا قد أثار دهشة البعض وأثار ضحك البعض الآخر •

صاح المهرج يقول :

- أنا أعرف تيودوز نيكولايفتش ! أعرفه أكثر من أى انسان قاسمحو لى أن أقص على مسامعكم قصة خارقة ! •••

– قص علينا ، قص علينا يا أوزيب ميخائيلوفتشو !

– عليكم بالاصغاء اذن • هأنذا أبدأ أيها السادة • انها قصة خارقة

حقا •••

– عظيم ••• عظيم •••

– قصة مضحكة •••

– عظيم ••• ممتاز ••• هيا •

– هي قصة فترة من حياة خادمكم الوضيع •••

– فلماذا تقول اذن انها قصة مضحكة ؟

– وهي فوق هذا قصة محزنة •

– آه ••••

– خلاصة القول ان هذه القصة هي التي هيأت لكم حظ الاستماع

الى في هذا اليوم • فيفضل هذه القصة انما أوجد الآن في حفلكم الطريف

هذا •

– دعك من الغمز !

– هذه القصة •••

– أما لهذا التمهيد من نهاية ؟ ••• هلا بدأت القصة ! ••• لا شك

أن هذه القصة تكلف شيئاً •••

كذلك صاح يقول سيد أشقر شاب ، ومد يده الى جيبه فأخرج منها

محفظة نقوده ، متظاهرا بأنه يبحث عن منديله •

- هذه القصة يا سادتى قد منعت نجاح زواجى \*
- زواج ! \*\*\* زوجة ! \*\*\* بولزونكوف أراد أن يتزوج ؟
- اعترف لكم بأنه كان يسرنى ان ارى مدام بولزونكوف \*
- أتأذن لى أن أسألك ما اسم تلك التى كان يمكن أن تصبح مدام بولزونكوف ؟

• بهذا هتف شاب كان يحاول الاقتراب من القصاص

- اليكم يا سادتى الفصل الاول من قصتى : ومع ذلك منذ ست سنين ، فى الربيع ، فى اليوم الواحد والثلاثين من شهر اذار ( مارس ) \*
- احفظوا التاريخ \*\*\* انه عشية \*\*\*

– عشية الأول من نيسان ( ابريل )

- حضرت \*\*\* انك لشاطر حقا \*\*\* كان ذلك فى المساء • الفلمتات تنكأف فوق مدينة ن \*\*\* الصغيرة ، ولكن القمر يظهر من حين الى حين \*\*\* الخلاصة أن كل شىء كان شعريا على ما تحبون \*\*\* فى ذلك الوقت ، ابان الغسق المتأخر ، خرجت من مسكنى الصغير ، بعد أن ودعت جدتى \*\*\* جدتى الحبيسة ( اعذرونى اذا أنا استعملت فى وصفها هذا التعبير الذى سمعته منذ هنيهة فى منزل نيكولا يقتس ، والحق أن جدتى كانت حبيسة تماما ، فهى عمياء خرساء صماء بلهاء \*\*\* وكل مانشاؤون) • ويجب أن أعترف أنني كنت أرتعد ارتعادا شديدا ، لأننى كنت أنهياً لمواجهة مسألة كبرى ، للقيام بصفقة ضخمة • كان قلبى يخفق خفقانا قويا كقلب قطة صغيرة رفعتها يد معروقة من جلد رقبتها •

– عفواً يا سيد بولزونكوف ، ماذا تريد ؟

- أرجوك أن توجز ، وأن تروى القصة ببساطة •

قال بولزوتكوف وهو ظاهر الانزعاج :

- تحت أمركم ••• دخلت منزل تيودوز نيكولايفتش • وكان هذا الرجل زميلي ، بل قولوا انه كان رئيسي • ابلغوه وصولي ، وادخلوني الى غرفته التي ما زلت أراها في خيالي حتى الآن • كان الظلام يسود الغرفة ، ولم يأتي أحد بشمعة • ونظرت ، فاذا أنا أرى تيودوز نيكولايفتش يدخل الغرفة • وبقينا كلانا في الظلام • وعندئذ ، أيها السادة ، وقع بيننا شيء غريب •• آتصد •• لا •• لم يكن في الأمر غرابة •• فهذا ما يحدث في الحياة : أخرجت من جيبى لفة أوراق • ولكن أوراقه هو كانت أوراقا مالية •

- أوراقا مالية ؟

- نعم ، وتبادلنا الاوراق : أعطاني أوراقه وأعطيته أوراقى •

- أراهن على أن المسألة مسألة تهديد بالتشهير • أراهن على ان الصفقة صفقة سكوت عن فضيحة ••

كذلك قال سيد شاب أنيق الهندام •

- تهديد يتشهير ؟ سكوت عن فضيحة ؟ آه يا سيدى ••• لو أتبع لك يوما أن تعمل في وظيفة بادارة من ادارات الدولة لرأيت كيف 'سمح لك بأن تدفىء يديك على موقد الوطن • الوطن أمنا ونحن أبنائها ، لذلك فنحن تشبث بشديها الذى يدر اللبن ما وسعنا التثبث •

ما ان سمع الناس هذا الكلام حتى امتلأت الغرفة قهقهات !

وتابع القصاص يقول بصوت عالٍ وهو يرشق الجمهور بنظرة

شك وحذر :

صدقونى مع ذلك يا سادتى اذا قلت لكم اننى لم أقبل رشوة فى يوم  
من الأيام •

وهنا انفجرت فهقهات جديدة غطت أقوال بولز ونكوف •

– أؤكد لكم ذلك أيها السادة •

وتوقف عن الكلام ينظر الى ساميه • كان تعبير وجهه غريبا : لاشك  
أنه قد خطر بهالى أنه ، بين أفراد هذا الحفل الشريف الامين ، خسة  
شرف وسوء أمانة • ومع ذلك ظل وجهه رصينا الى أن هدأت الفهقهات •  
فاستأنف يقول :

– اننى لم أقبل رشوة فى يوم من الايام • لكننى فى هذه المرة  
قبلت المال الذى أعطانيه رجل ألف هذه الطريقة فى تسوية بعض الامور  
وحل بعض القضايا • كنت أملك أوراقا تمرّض سمعة تيودوز نيكولايفتش  
للخطر ، وتهدهه بأذى •

– تقصد أنه اشترى منك هذه الاوراق •

– نعم •

– وكم أعطاك ؟

– أعطاني ••• أعطاني ما لو أعطاه لأى واحدٍ منكم أيها السادة  
لأشترى به ضميره فى جميع صوره وأشكاله •• إذا كان هذا الضمير  
يساوى شيئا ويستحق أن يشتري أصلا • ومع ذلك شعرت فى تلك  
اللحظة بأننى كمن 'صبّ على رأسه ماء يطفى ••• أؤكد لكم أننى أصبحت  
عندئذ لا أعرف ماذا يجسرى فى نفسى ، فأنا أقرب الى الموت منى الى  
الحياة : ساقى تصطكان ، وشفتاى ترتجفان ، وأنا أهم أن أستغفر وأن



أطلب العفو والصفح من فرط شمعورى بالذنب والائتم أمام تيودوز  
نيكولايفتشس •

– وهل غفر لك أخيرا ؟

– لم أستغفره ••• وانما ذكرت لكم الآن ما جرى فى نفسى ، ائذ •  
ان لى قلبا يفيض حرارة كما ترون • وكنت أرى أنه ينظر الى •

قال لى رئيسى :

– أأنت لا تخشى الله القوى الجبار يا أوزيب ميخائيلوفتشس ؟

ماذا كان فى وسعى أن أقول ردا على هذا السؤال ؟ لذلك لم أزد  
على أن باعدت ذراعى اصطناعا ، ولويت رأسى على كنفى ، وقلت له فى  
مشقة وعناء :

– لماذا تتصور أتنى لا أخشى الله يا تيودوز نيكولايفتشس ؟

أعود فأقول لكم اننى فعلت ذلك اصطناعا ، أما فى قرارة نفسى فقد  
تمنيت لو أغور تحت الأرض •

– أبعد أن كنت صديق أسرتنا هذه المدة الطويلة كلها ، أبعد أن  
كنت بمثابة ابن ، ولا يدرى الا الله ماذا كان يمكن أن تصبح أيضا ، أبعد  
كل هذا يا أوزيب ميخائيلوفتشس تجىء فتهددنا بأن تشى بنا ؟ فبمن تشق  
بعد الآن وعلى من تتكل •

هذا ما قاله لى ثم طفق يتحدثنى فى الأخلاق قائلا :

– قل لى يا أوزيب ميخائيلوفتشس : ماذا يجب أن يكون رأىى فى

الناس بعد اليوم ؟

وقلت لنفسي أنا أيضا : « حقا ماذا يجب أن يكون رأيي في الناس بعد اليوم ؟ » • وشعرت باحتقان في حلقي ، وأخذ صوتي يرتجف • واذ كنت أعرف ضعف ارادتي ، فقد أسرعت أتناول قبعتي تأهباً للخروج •

... ما هذا يا أوزيب ميخائيلوفتش ؟ الى أين تذهب ؟ هل يُعقل أن تظل تلاحقني بكرهك وبغضك ؟ ماذا صنعت بك ؟ ماذا فعلت لك ؟ ...

— تيودوز نيكولايفتش ، تيودوز نيكولايفتش !

— كنت قد أصبحت رخوا كقطعة من سكر ذائب ، ولثابت حزمة الاوراق النقدية قد ثقلت في جيبى ، ثقلت على ضميري حتى لكانها تصيح بي قائلة : « يالك من لص ! يالك من انسان عقوق لعين ! » • • • وكان هذه اللفة الصغيرة قد أصبح وزنها خمسة أرطال ( آه • • • ياليت وزنها كان خمسة أرطال حقا ! • • • )

قال تيودوز ميخائيلوفتش :

— اننى أرى والأحظ أنك نادم • • • أنت تعلم أن غدا هو • • •

— عيد ماريا المصرية \* • • •

— كفكف دموعك • هيا • • • لقد أخطأت ثم ندمت • هيا • • • لعلنى أستطيع أن أردك الى سواء السبيل • • • بل لعل مسكنى المتواضع أن يشيع شيئا من الحرارة في قلبك الذى ضلّ ولا أقول قسا ! • • •

قال ذلك وأمسك يدي أيها السادة ، فقادني الى وسط أسرته • • • شعرت ببرد يسرى في جسمي • أخذت أرتعش حين تساءلت بأى وجه أقابل • • • ذلك أن علىّ أن أعترف لكم أيها السادة أن المسألة حرجة جداً • • •

- أهناك كانت توجد مدام بولزونكوف ؟

كذلك سأله أحد الساخرين \*

- بل هنالك كانت توجد ماريا تيودوزيفنا • لم 'يقسم' لها أن تحمل الاسم الذي ذكرته ، لم يكتب لها هذا الشرف • يجب أن أذكر لكم أيها السادة أن تيودوز نيكولايفتش كان على حق حين قال اننى كنت أعدت في منزله بمثابة ابن • كان هذا صادقا الى ستة أشهر خلت ، حين كان ميشيل مكسيموفتش دفيجايلوف ما يزال حيا • ولكن مشيئة الله العليا قد اختصرت لقامته في هذا العالم قبل أن يتسع وقته لكتابة وصيته •

- هوه \*\*\*

- نعم \*\*\* وبقيت أنا لا أملك في جيبي الا صفرا \*\*\* ذلك أن السيد المتوفى ( رغم أنهم ما كان لهم أن يسمحوا لي بدخول بيته ) كان على جانب عظيم من الثراء ، وكان يعذبني كابن له ، وهو في ذلك على

حق \*\*\*

- آ آ \*\*\*

- نعم ، كذلك كان الامر \*\*\* وهذا الحادث الذي كان كارثة لي هو السبب في أن الأنوف في منزل تيودوز ميخائيلوفتش قد شمخت لي الى غير حد ، وأنهم أصبحوا لا يعاملونني في رفق كما كانوا يعاملونني قبل ذلك •

لاحظت ذلك كله محاولا أن أتظاهر بأننى لا أباليه ولا أحفل به حين ظهر في مدينتنا ، لسوء حظي ( أو ربما لحسن حظي ، فمن يدري؟) ضابط من سلاح الفرسان • والضابط الذي ينتمى الى هذا السلاح انما مهنته أن يركض بعير انقطاع ، هي مهنة فارس كما تعلمون ، لا تسمح

لصاحبها ان يستقر فى مكان • ومع ذلك ففسد بلغ من التصاقه بأسرة  
تيودوز نيكولايشن ان ذلك أحزنى أشد الحزن •

وعلى عادتي ، عمدت الى طرق ملتوية واساليب غير مباشرة فى مواجهة  
هذه المسألة امام حمى المقبل ••• قلت له : « كذا وكذا ، كيت وليت اء »  
وقلت له : « لماذا تريد ان تعذبى هذا التعذيب يا تيودوز نيكولايشن ،  
مع أنتى أكاد اكون صهرك منذ الآن ؟ » • وعندئذ أجابنى يا سادتى •  
وكان جوابه جوابا حقا ا ••• كان جوابه قصيدة طويلة مؤلفة من اثنتى  
عشرة أغنية من شعر لو سمعه أحدكم لسمعه فاشرا فاه افتسانا ا • وقفت  
امامه مشدود السمع كاهله ، مع انه كان يجرى ويتلوى كتبان الماء ا تلك  
هى موهبته ، ايها السادة ، موهبته •••

وعندئذ بدأت حياثلى مع الفتاة • أدخلت أحيثها بقصصائى مؤثرة ،  
ومربيات طيبة المذاق • وحاولت أن أظهر لها بمظهر الرجل المسلى المضحك ،  
فأروى نكتا قائمة على الجنس ، وأطلق من صدرى آهات ، وأقول لها ان  
قلبى ينبوب حيا وهياما ••• وأذرف الدموع حرتى ، وأبذل اعترافات  
الحب فى سخاء ما بعده سخاء ••• حقا ان حماقة الرجل لا حدود لها ••  
وأتم تعرفون هذا بأنفسكم من غير شك ••• اننى لم أنقل فى شهادتى  
ميلادى ، ونسيت أننى كنت قد بلغت من عمرى الثلاثين ••• كان واضحا  
أنهم يسخرون منى ويضحكون على •

واستبد بى الغضب آخر الأمر ، فقررت أن لا أدوس بيتهم بعد  
ذلك • وتذكرت بعض الوقائع ، وخطرت ببالى بعض الاقويل • وفكرت ،  
فراودتنى تلك الفكرة ، فكرة الوشاية والتشهير • اعترف لكم بأن ذلك  
كان منى صفارا • غير أن تقريرى الصغير كان يشتمل فى الواقع على  
ابصاحات دقيقة ، بل على براهين قاطعة •

وهذا التقرير الذى أخذت ثمنه أوراها نقدية جاءني بالف وخمسائة روبل فضة \*

- ولكن هذا ابتزاز مالٍ عن طريق التهديد بالتشهير والفضيحة \*

- نعم ، هو كذلك اذا شتم \* ولكننى ، كما قلت لكم ، انما عمدت الى استعمال هذه الوسيلة مع شخص يحسن استعمالها ، وقد أُلّف استعمالها \* وعلى هذا الاساس استطع ان أقول بصراحة ان فعلتى لم تكن جريمة \* على كل حال ، دعونى أكمل القصة \* وهأنذا أكملها :

- لا شك أنكم تتذكرون أن تيودوز نيكولايفتشس قادنى الى الصالون وأنا أقرب الى الموت منى الى الحياة \* وها هى ذى الاسرة كلها تهب الى لقائى وقد فاضت وجوهها حزنا شديدا ، ان لم يكن غضبا كبيرا \* كانوا يبدون جميعا مصعوقين ، ومع ذلك كان يرسم على وجوههم شىء من رصانة .. عاطفة تشبه أن تكون عاطفة الآباء نحو ابنهم : لكان دخولى عليهم كان عودة الابن الضال يرجع الى حظيرة الاهل \* أجلسونى الى مائدة الشاى .. أما أنا يا سادتى ، فكان فى نفسى شىء كغليان الماء فى السماور ، بينما كانت قدماى متجمدتين صقيعا .. شعرت أننى صغير جدا ، تيس جدا .. وها هى ذى زوجة رئيسى النبيلة توجه الى الكلام مخاطبة اياى بصيغة المفرد من قبيل رفع الكلفة فتقول : « يخيل الى من يراك أنك نحلته أيتها الفتى المسكين » ، وهأنذا أجيبها بقولى : « نعم يا ماريافومينشنا ، ان صحتى ليست جيدة » \* كان صوتى يرتجف ، وكأن المرأة الماكرة كانت لا تنتظر الا هذه اللحظة ، فاذا هى تقول : « واضح أن ضميرك هو الذى يعذبك يا عزيزتى أوزيب ميخائيلوفتشس ! لا شك أن وجبات الطعام التى تناولتها عندنا تثقل الآن على قلبك \* ان دموع الدم التى أذرفها هى التى تساقط على ضميرك \* » \* هذا ما قالته لى أنقله لكم نقلا أميناً وقد قالته

وهي تصب الشاي • وكانت هادئة كل الهدوء ، رقيقة كل الرقة ، عذبة كل العذوبة : فلو رآها أحد في تلك اللحظة لما استطاع أن يتصور أن هذه المرأة بعينها هي التي تصيح في السوق كما لا تصيح أشد النساء عياطلا وشياطلا • كذلك كانت هذه الناصحة العزيزة أيها السادة •

ومن سوء حظي ان ماريا تيودوزيفنا ، الفتاة ، هي التي جاءت بعد ذلك بريئة كل البراءة ، شاحبةً بمض الشحوب ، محمرة العينين • وقد ظننت ، أنا الابله ، أنني سبب ما ذرفته من دموع • ثم علمت فيما بعد ، انها قد بكت طويلا ، في الواقع ، غير أن بكاءها كان لهذا السبب الآخر البسيط ، وهو ان الضابط التابع لسلاح الفرسان قد أطلق سايه للريح ولم يظهر بعد ذلك أبدا ! ثم علم الاهل بعد ذلك بخفايا القضية ، فأرادوا أن يكتنموا القصة وأن يخفقوها ، رغم أن الاسرة أصبحت مهددة بأن يزيد عدد أفرادها ••

ما ان رأيت الفتاة حتى تمنيت لو تبلعني الارض ، ثم بحثت بنظري عن قبتي ، ولكن أحدا كان قد أخفاها ، فوددت لو أهرب عاري الراس ، ولكنهم كانوا قد احتاطوا للامر فأوصدوا الباب • وبدأت بعد ذلك ضحكات وصدقات وغمزات انتهت بتهدئة خاطري قليلا • وجلست محبوبتي الى البيانو فغنت أغنية عاطفية عن الفارس الذي سيذهب \* وقال لي تيودوز نيكولايفتش : « هيا هيا يا عزيزي • نسيت كل شيء • تعال الى • تعال الى ذراعي » • • فهرعت اليه خفيف القلب وطفقت أبكي في سديرتي • « أبتاه ! أيها المحسن الى » • كذلك هتفت أقول والدموع المحرقة تسيل على وجهي كله • رباه ! ليتكم رأيتم هذا المشهد ! لقد كان يبكي هو أيضا • وكانت امرأته تبكي كذلك • وكانت حبيبتي الصغيرة ماريا تبكي مثلما كان يبكي سائر أفراد الاسرة ••• حتى لقد كان هنالك فتاة شقراء

صغيرة ، لا أدرى من اين أنت ، أخذت تبكى كسائر الباكين .... ومن  
جميع الاركان كان يخرج صبية صفار ويطفقون يميطون .... ما أكر  
ما ذرف من دموع ! ما اكر ما ظهر من عواطف الحنان .... هو الابن  
الضال عاد الى اهله تانيا ، او الجندى رجع من ميدان المعركة الى ذويه  
سالمًا ....

ثم كان استقبال حافل حقا : بجيء بالفطائر والحلوى .... وقامت  
بين الحضور ألعاب وتسلية \* « آه .... شيء يوجضى » . كذلك قالت  
.. فسألتها : « ماذا يوجمك ؟ » فأجابت : « قلبى » . واحمرت المسكينة  
خفرا وحياء . وشربنا أنا والمعجوز خمرا .. وطابت نفسى ..  
فلما عدت الى جدتى كان رأسى يدور سكرًا . أيقظت جدتى المعجوزة .  
وحكى لها قصة سعادتى فرحا كل الفرحة . سألتنى جدتى : « هل أعطاك  
اللص مالا ، فقلت : « أعطانى يا جدتى .... السعادة تطرق بابنا  
يا جدتى ! » ....

وأخذت أنام ، ثم عدت فاستيقظت أفكر فى هذا الفرحة الجديد كله  
.. قلت لنفسى : غدا أول نيسان ( أبريل ) .... ما أجمله يوما مسليا  
مضحكا .... وفكرت ثم فكرت فخطرت على بالى فكرة مضحكة ، فنهضت  
وأشعلت شمعة ، وجلست الى مكتبى ضاحكا وحدى . هل تعرفون  
يا سادتى الى أين يمكن أن تؤدى بالانسان سعادته ؟ ستعرفون هذا  
الآن . لقد كان فرحى سببا فى اسراعى الى هوة الشقاء مغمض العينين ،  
وفى غوصى بالوحد حتى الركبتين . يا لطبعى ما أرداه ! لقد سرقوا منى  
كل شيء تقريبا ، ثم أعطيتهم الباقي من تلقاء نفسى ! صفنى على احد  
الخدنين ، ثم مددت له الخد الأخرى . قدم الى 'طعما ، كما 'يمد'  
'طعم' الى كلب ، فاذا أنا أهرع أقبل جميع الناس . تماما كما يحدث  
الآن : أنتم تسخرون منى وتتهكمون على وتتهامسون عنى ، اننى أرى ذلك

كله رؤية واضحة ، أفتح لكم قلبي فستهزئون بي ، ومع ذلك ، ورغم علمي بذلك ، أقص عليكم المزيد ، عالما كل العلم ، برغم هذا ، أن احدا لا يكرهني على أن أفعل ، ولكنني أعدكم كاخوتي ، كأحسن أصدقائي  
... هه ! ...

ان الضحك الذي كان يتصاعد شيئا فشيئا قد غطى الآن صوت القصص الذي يبدو الآن أنه يحس بنشوة كبرى تملك عليه نفسه . . . وتوقف القصص عن الكلام ، وطاف بصره على الحضور ، ثم اذا هو يحرك يده بإشارة الاستسلام ويأخذ يضحك كسائر الناس كأنما تجره زوبعة أو يدفعه اعصار ، ربما لأنه أحس أن وضعه مضحك حقا . ثم استأنف حكايته :

— لم أستطع أن أنام تلك الليلة . فهل لكم أن تحزروا ما الذي اخترعته كذبةً لأول نيسان ( أبريل ) أيها السادة ؟ انني أستحي الآن أن أعترف به ؟ لقد لبثت الليل كله أكتب ، وأنا سكران قليلا . . . فيالحماقة ما كتبت !

وفي الصباح ارتديت ثيابي ، وجعدت شعري ، وتدهنت بالطيب ، وتزينت بأبهى حلة عندي ، ومضيت الى منزل تيودوز نيكولايفتش ، حاملا ورقتي في يدي . استقبلني بنفسه ، وعانقني في صدرته الأبدية . أما أنا فقد تراجعت خطوة الى وراء ، برصانة ورزانة . كان الموقف يضحكني في أعماق نفسي . قلت للرجل : لا . . . ياتيودوز نيكولايفتش . . . اقرأ هذه الورقة أولا . . .

— هل تعرفون ماذا كان في تلك الورقة ؟ كان فيها استقالتي من الوظيفة ، مذيلةً بتوقيعي مع ذكر جميع رتبتي وألقابي . ذلكم ما اخترعته كذبةً لأول نيسان ( أبريل ) . ما كان يمكن أن أجد كذبةً أذكى من هذه



الكذبة • قلت لنفسى : هذا أول نيسان ( أبريل ) ، سأنتظر بأبنى مازلت غضبان ، سأفهمهم اننى أصبحت لا أريد ابتهم زوجة لى ، وان المال الذى فى جيبي يعينى عن كل شىء ، ويضمن مستقبلى ، وأننى لذلك أقدم استقالتي ، واننى اذ أصبحت لا أحب أن أعمل تحت امرة رئيس كهذا الرئيس ، فسأنتقل الى مصلحة أخرى ، وسأقوم هنالك بوشاية جديدة ( كانت فكرتى هى أن أمثل دور شخص حقير ) • هل فهمتم يا سادتى : لقد نفذت أمس الى قلوبهم ، وبسبب ذلك أردت اليوم أن أطلق لنفسى العنان فيما أحسبه مزاحا مع أهل لا كلفة بينهم ••• كنت أريد أن أعبت قليلا بالقلب الأبوى •••

فما ان قرأ ما فى الورقة التى قدمتها اليه حتى تغير وجهه فجاءه ، وسألنى : « ما هذا يا أوريب ميخائيلوفتش ؟ » ، فما كان منى - آه ما أغبانى ! - الا أن قلت له : « هى كذبة نيسان ياتودوز نيكولايفتش ••• » . قلت لكم اننى كنت أشبه بطفل •• تماما كما لو اختبأت وراء مقعد جدتى ، وعويت أريد أن أرفعها ••• حقا اننى لأخجل أن أقص هذه الحكاية •

- هيا ، هيا ، أكمل •••

- هكذا ارتفعت أصوات من كل جهة من الجهات تحته على اتمام

قصته •

- أثار هذا فيهم ضجة كبيرة ياسادتى • أخذوا يصيحون قائلين اننى عفريت ، واننى سبى شيطان ، اننى أخفتهم وروعتهم • ما كان أرقهم وأشد حنانهم وأعق صداقتهم أيها السادة ! ••• حتى لقد شعرت من فعلتى بخجل ، وقلت لنفسى : « كيف يمكنهم أن يقبلوا خاطئا مثلى فى مكان مقدس كمنزلهم ••• » •

وصاحت السيدة زوجة المستشار تقول فجأة :

- روعتني يا عزيزي ، وما زلت أرتمش خوفا الى الآن ، وقد  
هرعت مسرعة الى ماريا فقلت لها : « أنظري ، مافعل صاحبك أوزيب ! »  
•• وندمت على انني استقبلتلك ذلك الاستقبال السيء أمس ، وأحزنتني  
ذلك حزنا شديدا •

كدت أركع أمامها • وعادت الدموع ، وعادت القبلات ، وعادت  
الامازيج ، الى غير نهاية • وأراد تيودوز نفسه أن يشارك في العيب ، وان  
يهيئ لنا كذبة من كذبات نيسان ( أبريل ) على طريقته فقال : « طائر  
من ذهب وصل بمنقار من ماس ، وبهذا المنقار كان يحمل رسالة • • »  
كان يضحك مني • وأخذ الجميع يضحكون ، وعمّ الفرح والمرح •••  
بف ••• اني لأشعر بالعار من سرد هذه القصة •

والآن تشارف قصتي على نهايتها أيها السادة • لقد عشنا على هذا  
النحو يوما ، ويومين ••• وأسبوعا • كانوا يعدونني خطيبا للفتاة • حتى  
لقد أوصوا على خاتمي الخطبة ، وأوشكوا أن يعينوا يوم الزفاف ، ولكنهم  
لم يشاءوا أن يشهروه فورا ، لأنهم كانوا ينتظرون وصول مفتش من  
بطرسبرج • واذ كان هذا الموظف يؤخر سعادتي فقد كنت أنتظر وصوله  
بصبر نافذ وشوق محموم مسعور ، وأقول لنفسي : « آه ••• متى  
نتهي ؟ » •••

واستفاد تيودوز نيكولايفتش من اضطرابي هذا فمهد الى بجميع  
أعماله : من حسابات ، وتقارير ، ومراجعات دفاتر ، واجراء عمليات  
جمع • كانت الفوضى في المحاسبة رهيبة • ففي كل موضع أخطاء ،  
وثغرات ، ونواقص • فكان يقول لي : لا بأس ••• ساعد حماك قليلا •  
وكان الرجل يبدو مريضا ، وكان يلوح أن اعتلال صحته يتفاقم يوما بعد

يوم • أما أنا فقد أصبحت من فرط هزالي أشبه بعود ثقاب لكثرة ما أقوم  
به من عمل بغير راحة ولا مهادنة •

وأنجزت أخيرا كل شيء في موعده ، حتى اذا جاء اليوم المشؤم  
رأيت رسولا يصل الى مسكني فجأة ، فيقول لى : « تعال حالا ، فان  
نيودوز نيكولايفتش فى حالة سيئة جدا • • • فأسرعت أركض ، حتى اذا  
وصلت رايت نيودوز نيكولايفتش ملففا بكل أنواع الملابس ، ورأيتهم  
يضعون على رأسه أضمدة مبللة بالخل ، ورأيته يصيح : آه ••• آواه  
••• آه ••• آواه •

قال لى حين أبصرنى :

— ايه يا عزيزى ••• ما عسى نصير اليه من مصير ؟ سوف أموت ،  
فلمن أديع أسرتهى كلها وجميع أطفالى ؟

وكانت امرأته موجودة هنالك مع الاطفال ، وكانت ماريا تبكى ••  
فلما رأيت هذا المشهد أخذت أبكى أنا أيضا • فطلب اليهم عندئذ أن  
يخرجوا جميعا ، وأمرنى أن أغلق الباب ، ولبثنا معا على انفراد • قال :

— لى رجاء عندك •

— ما هو ؟

— اسمع يا بنى العزيز • أريد وأنا على فراش الموت أن أبوح لك  
باعتراف : ان الخزنة ناقصة بعض المال ، وقد سددت بعض النقص من  
مالى أنا • انى لأنألم كثيرا حين أتذكر أن أناسا أشرارا اتهمونى لديك  
زورا وبهتان ••• لقد غشوك يا عزيزى ، فاقض شعرى منذ ذلك اليوم  
حزنا وكعدا • وسيصل المفتش قريبا ، والخزنة التى يقوم عليها هذا  
المسكين ماتفايف ناقصة سبعة آلاف روبل • وسأطالب أنا بسداد المبلغ ،

اذ ما الذى يمكن أن يجذوه لدى ماتفايف ؟ انه تعيس بائس بدون هذا ،  
وليس فى وسعنا أن نطالبه بشىء اذا أردنا الانصاف ... وانى لأوثر أن  
أكون مسئولاً عن الأمر وحدى •

قلت لنفسى :

... يا لهذا الرجل ما أنبل نفسه !

وأضاف يقول :

– ولست أريد أن آخذ ما لا من ابنتى ، لأن بائنتها شىء مقدس ما  
ينبى أن تمتد اليه يد • وانى لأملك بعض المال ، ولكنه ليس فى حوزتى  
فقدنا جهازاً ، فما عسانى صانعا لأرتق الفتق بأقصى سرعة ممكنة ؟

لم أستطع أن أكبح جماح نفسى مزيداً من الكبح ، وهأنذا أركع  
أمامه قائلاً :

– ايه يا من أحسنت الىّ وأنعمت علىّ ! ... لقد جهلت حقيقتك ،  
ولم أقدرك قدرك • وسوس لى بعض الاشرار أن أكتب تلك الوشاية  
اللعيئة ، فاغفر لى ، وسامحنى ، واليك مالك أردته اليك معتذراً •

فنظر الىّ والدموع فى عينيه ، وقال :

– هذا ما كنت أتوقعه منك يا بنى • وهنا ما أحب أن أعرفه فيك •  
لقد غفرت لك قبل الآن حين رأيتُ دموع ابنتى ، أما الآن فان قلبى كله  
يعفو عنك • لقد شفيت جروح نفسى ، وانى لأباركك الى الأبد !

– لقد باركنى يا سادتى • وركضت أنا الى البيت أحمل المال لأعيده  
اليه • قلت له :

- خذ يا أبتاه ! المبلغ كامل الا من خمسين روبلا انفقتها فى بعض حاجاتى •

فقال لى :

- لا بأس ... فاكتب اذن طلبا مؤرخا بتاريخ سابق ، تلتمس فيه سلفةً على راتبك بمقدار خمسين روبلا • فأقوم أنا بما يجب أن أقوم به تجاه الرؤساء ، قائلا اننى أعطيتك هذا المبلغ سلفةً على راتبك •  
ما رأيكم يا سادتى ؟ لقد كتبت له هذا الطلب •

سأله أحدهم :

- فكيف انتهى الأمر كله بعد ذلك ؟

فأجاب المهرج يقول :

- انتهى بالموافقة على ما تضمنته تلك الورقة اللعينة التى كتبها كذبةً لأول نيسان ( أبريل ) • ففى الغداة تلقيت جوابا رسميا محتوما بالخاتم الرسمى وفيه يقال لى ان استقالتى قد قبلت ، وان على أن أهيبء حساباتى وأن أعيدها الى المصلحة وأن أذهب الى حيث أشاء أن أذهب •

- كيف ؟

- وأنا أيضا صحت يومئذ قائلا : كيف ؟ لقد أخذت أذناى تطنان ، وأخذ قلبى يرتجف ، ثم أسرع الى تيودوز نيكولايفتش • ولم يلبث الحديث أن جرى بيننا على الفور •

سألته :

... ما هذا كله ؟

- ماذا تعنى ؟

- قبول الاستقالة ♦

- أى استقالة ؟

- اليك ما تلقينه الآن ♦

- فعلا ♦♦♦ لقد 'قبلت' استقالتك ♦♦♦

- ولكننى لم أقدم استقالة فى يوم من الايام ♦♦

- كيف ؟ ألم تقدمها مؤرخة فى أول نيسان ( أبريل ) ؟

يا لحماقتى !! ♦♦♦ كنت قد تركت له الورقة التى دهبجت عليها كذبة

أول نيسان ( أبريل ) ♦♦♦

قلت :

- تيودوز نيكولايفتش ♦♦♦ أنت أنت من تراه عيناي الآن ؟

- أنا ؟ طبعا ! ثم ماذا ؟ يؤسفنى جدا يا سيد أنك قد راودتلك الرغبة

فى ترك العمل بالمصلحة بهذه السرعة • كان يجدر بشاب مثلك أن يجب

الاستمرار فى العمل ، أما أنت أيها السيد فان رأسك تميل مع كل ريح ،

وان آراءك تتقلب من ساعة الى ساعة • على كل حال ، كن مطمئنا من

ناحية الشهادة التى سأعطيها لك • سأكتب لك شهادة جيدة : فلقد فعلت

كل ما يجب من أجل أن تستحقها ♦

- ولكنها كانت مزحة يا تيودوز نيكولايفتش ، ولئن أعطيتك تلك

الورقة لقد كان ذلك كله عبثا لم أقصد منه الا أن أضحكك ♦

- ها ♦♦♦ مزحة ؟ منذ متى يمزح الناس فى شئون العمل وأمور

الخدمة ؟ اعلم أيها السيد أن مزحات من هذا النوع يمكن أن تؤدي بك يوماً الى سيربيا • والآن وداعاً أيها السيد • ليس في وقتي متسع للحديث معك • لقد وصل المفتش ، وواجبات العمل هي في المقام الأول ؛ فإذا كنت أنت تحب المزاح ، فأنا مشغول بالعمل • وأعود فأقول لك انك تستطيع أن تعوّال على شهادة حسنة في حقك ••• ها ••• وأحب أن أبلغك اننى قد اشتريت منزلاً ••• وسنجهزه قريباً ••• فأرجو أن لا أراك على بابي • أتمنى لك سفراً ميموناً أيها السيد •

ركضت الى مسكني ، فوصلت الى جدتي وأنا أصرخ : « لقد ضعنا ••• يا جدتي • » • فأخذت جدتي تعول دون أن تعرف ما النبأ • وفي الوقت نفسه رأينا خادماً تيودوز نيكولايفتش يصل حاملاً قفصاً يتوآب فيه زرزور : هو هدية كنت قد أهديتها الى خطيبتى • لقد أعادوه الينامع بطاقة كتب عليها : كذبة نيسان ( أبريل ) •

— وما حدث بعد ذلك ؟

— ماذا تتوقعون أن يحدث ؟ لقد لقيت تيودوز نيكولايفتش في أحد الأيام ، وكنت مستمداً كل الاستعداد لأن أعلن له رأيي فيه صريحاً ، وأن أعيب عليه صفاره •••

— هل فعلت ؟

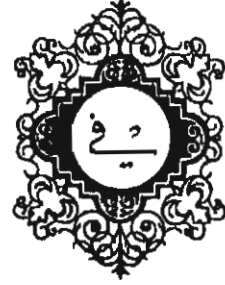
— لم أستطع •

السيرة الشريفة

١٨٤٨



«السارق الشريف ( Tchestnyl vor )  
كتب دوستوفسكى هذه القصة في ربيع  
١٨٤٨ ، ونشرت في مجلة « حوليات  
الوطن » ، نيسان ( ابريل ) ١٨٤٨ ، مج  
٥٧ ، تحت عنوان « اقصيص شيخ عابر  
سبيل » ، وكانت تضم قصتين : ١ -  
« الجندي المتقاعد » ، ٢ - « السارق  
الشريف » . ولكن دوستوفسكى حين اعد  
طبعة أعماله الأولى سنة ١٨٦٠ حذف القصة  
الأولى التي لم يكن راضيا عنها ولم يبق الا  
الثانية .



ذات صباح ، بينما كنت أهم أن أخرج الى مكتبي ، دخلت على آجرا فينا ، طبختي وغسالتني وخادمتي في آن واحد ، وأجرت معي الحديث على دهشة شديدة مني ؛ ذلك أنني حتى هذا الصباح لم أكن قد سمعت منها غير هذه الكلمات : « ماذا يجب أن أهيب للعشاء » • انها ممحوة دائما ، صموت دائما ، حتى لأستطيع أن أقول انها خلال ست سنين لم تنطق بكلمة واحدة زيادة على ذلك السؤال ، بحضورى في أقل تقدير • بدأت تقول فجأة :

- اسمع يا سيدى ••• هناك شيء أريد أن أطلبه منك • يحسن بك أن تؤجر الحجرة الصغيرة •••
- أية حجرة صغيرة ؟
- الحجرة الصغيرة القريبة من المطبخ • أنت تعرف أى حجرة أعنى •
- لماذا يحسن بى أن أؤجرها ؟
- لأن هناك أناسا آخرين عندهم مستأجرون • واضح لماذا •

- ولكن من يستأجرها ؟

- من يستأجرها ؟

- ولكن يا ماتوشكا ليس فى هذا الركن متسع حتى لسرير •  
فمن ذا الذى يستطيع أن يعيش فى هذه الحجرة ؟

- هل يجب على من يستأجرها أن يعيش فيها ؟ يكفى أن يكون له  
فيها مكان للنوم ••• ثم هو يعيش قرب النافذة •

- أية نافذة ؟

- أية نافذة ؟ كأنك لا تعرف أن هناك نافذة ! نافذة حجرة المدخل •  
يقيم الساكن هناك ليخيط أو ليعمل شيئا آخر • وقد يجلس على كرسى •  
ان عنده كرسيًا وطاولة وكل شيء •

- ولكن من هو هذا المستأجر ؟

- رجل طيب • رجل رأى كثيرا • وساعد له وجبات طعامه •  
وسأكنفى منه بثلاثة روبلات للسكن والطعام جميعا •

وأخيرا ، بعد جهود كثيرة ، علمت أن هناك رجلا ، متقدما فى السن ،  
قد أقنع أجرافينا بأن تسمح له بالعيش فى المطبخ مستأجرا •

وكانت أجرافينا ، اذا استقر فى رأسها رأى ، لا يمكن أن يخرج  
منه شيء • وكنت أعلم أنها لن تدعنى هادئا مالم تحصصل على ما تريد  
الحصول عليه • ومتى أصبح أمر من الأمور لا يجرى على ما تحب ،  
أصبحت كثيرة الوجوم شديدة الكآبة والحزن • وكانت تبقى على هذه  
الحال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، وفى أثناء هذه الفترة يهمل المطبخ  
ويضيع الغسيل ، ولا تنظف الأرض ، ويسير كل شيء فى المسكن مقلوبا •  
وكنت قد لاحظت منذ زمن طويل أن هذه المرأة الصموت لا تستطيع أن

تتخذ قرارا ، ولا أن تلبث على رأى نابع من ذاتها • ولكن اذا اتفق  
عرضا أن نبت فى دماغها الضعيف شئ يشبه أن يكون رأيا أو قرارا ،  
فإن الحيلولة دون تنفيذ هذا الرأى أو هذا القرار يقتل روحها تنالا الى  
حين غير قصير • لذلك ، ولما كنت أضغ هنوتى فى المقام الأول ، فقد  
وافقت فورا • قلت لها :

— هل عنده أوراق على الأقل ، هل عنده جواز سفر أو شئ من هذا  
القبيل ؟

— كيف لا ؟ ••• لا شك أن عنده كل ما يجب • هو رجل طيب ،  
رأى كثيرا • وقد وعد أن يدفع ثلاثة روبلات •

وفى الغداة ، ظهر فى مسكنى ، مسكن الرجل العازب ، مستأجر  
جديد • والحق أن هذا لم يسؤنى ، حتى لقد سررتى • لقد كنت على  
وجه العموم أعيش فى عزلة تشبه أن تكون كاملة • فليس لى أصدقاء ،  
وقلما أخرج ؛ وأنا أحيا منذ عشر سنين حياة ناسك ، حتى ألفت العزلة  
والاعتكاف • ولكن من الواضح أن عشر سنين أو خمس عشرة سنة من  
هذه العزلة نفسها ، مع آجرافينا نفسها ، فى هذا المسكن نفسه ، مسكن  
العازب ، من الواضح أن هذا كله يجعل الحياة باهتة لا لون لها • ولذلك  
فإن مجيء انسان آخر ، انسان مسالم ، هو فى مثل هذه الظروف هبة من  
السماء •

ولقد صدقت آجرافينا • فالستأجر الجديد كان انسانا رأى كثيرا  
بالفعل • ان جواز سفره يشير الى أنه جندى مسرّح • على أنه كان فى  
امكانى أن أحزر ذلك حتى دون النظر فى جواز السفر • فما أسهل أن  
يقدر المرء ذلك •

كان جارى الجديد أستافى ايفانوفتش انسانا طيبا حقا ، فسرعان ما

تفاهمنا • والشئ الذى أمتنى فيه بخاصة هو ان آستافى ايفانوفتش كان يجيد رواية القصص اجادة مدهشة ، ولا سيما المغامرات التى شارك فيها • وواضح أن قصاصا من هذا النوع هو فى حياة فقيرة رتية كحياتى يمكن أن يعد كنزا ثمينا • ولقد قص على ذات مرة قصة من هذا الطراز أثرت فى نفسى تأثيرا كبيرا • واليكم المناسبة التى روى لى فيها هذه القصة •

كنت فى يوم من الأيام وحدى بالمسكن ، بعد أن خرج آستافى وخرجت أجرافينا لبعض شئونهما ؛ فاذا بى أسمع ، وأنا فى غرفتى ، وقع أقدام شخص يدخل البيت • لا شك أن الداخل كان شخصا غريبا • فمضيت أرى من الداخل ، فاذا أنا فعلا أمام رجل فى حجرة المدخل ، رجل مربع القامة لا يرتدى الا سترة برغم برودة جو الشتاء •

– ماذا تريد ؟

– هل الموظف ألكسندروف هنا ؟

– لا أعرف • مع السلامة •

– كيف ؟ لقد قال لى البواب انه يسكن هنا •

كذلك قال الزائر وهو ينسحب محاذرا نحو الباب :

– اذهب يا صاحبى اذهب •

وفى الغداة ، بعد العشاء ، بينما كان آستافى ايفانوفتش يجرب على ردنجاتنا كان يخطئه لى ، دخل أحد حجرة المدخل من جديد ، ففتحت الباب • فاذا أنا أرى الشخص الذى جاء بالأمس يتناول معطفى من على المشجب بهدوء ، ويضعه تحت ابطه ويندفع خارجا بسرعة • كانت أجرافينا تنظر اليه فأغرة الفم من الدهشة دون أن تفعل شيئا لتمنع هذه السرقة •

وركض أستافى ايفانوفتش يلاحق السارق ، ثم عاد بعد عشر دقائق  
لاهنا ، صفر اليدىن • لقد استطاع السارق أن يهرب • قال أستافى  
ايفانوفتش :

- لم يسعنى الحظ ••• على كل حال ، الحمد لله على أنه ترك لى  
معطفى ، والا لبقينا من غير شىء ••• وكان « دبّرنا » تماما ••• هذا  
• اللص •

وقد بلغ أستافى ايفانوفتش من الانصاف لما حدث أننى حين نظرت  
اليه نسيت السرقة • ولم يستطع أستافى ايفانوفتش بعد ذلك أن يفيق  
من هول الصدمة • فهو يدع عمله فى كل لحظة ويأخذ يديء ويعيد  
متحدثنا عما وقع ، متسائلا كيف وقع ، قائلا : أياكون السارق أمام أعيننا ،  
على بعد خطوتين منا ، ثم يستطيع أن يسرق المعطف ، ثم يعرف كيف  
يهرب فلا نقبض عليه ؟ ويسكت أستافى ويستأنف عمله ، ولكنه ما يلبث  
أن يدعه من جديد ، ليعود الى الكلام فى الموضوع مرة أخرى • وأخيرا  
مضى الى البواب يعيد سرد القصة له ، ويقرّعه على أن أمورا كهذه تقع  
فى فناء المنزل الذى يحرسه • ثم عاد الى أجراءينا ، فقرّعها وأنبها هي  
أيضا • ثم استأنف عمله وهو يدمدم بين أسنانه متسائلا كيف أمكن أن  
يقع هذا • « كان هو هنا ••• وكنت أنا ههنا ••• وعلى مرأى منى ،  
وعلى بعد خطوتين منى ، استطاع أن يأخذ المعطف ••• » ، النخ • الخلاصة  
أن أستافى ايفانوفتش قد اضطرب أشد الاضطراب ، وغضب أشد  
• الغضب •

قلت له فى المساء وأنا أقدم اليه قدحا من الشاي :

- لقد عرف السارق كيف « يدبرنا » يا أستافى ايفانوفتش •

وكنت أريد من ذلك أن أجعله يعيد سرد حكاية المعطف المسروق ،

هذه الحكاية التي أصبحت مسلية مضحكة من كثرة ما أعيد سردها ، ومن عمق الصدق الذي كان يتجلى فى كلام راويها •

– لقد « دبرنا » يا سيدى • وأنا زعلان جدا ، رغم أن السارق لم يسرق معطى أنا • لا شىء يثير حنقى كما يثيره لص يا سيدى • غيره يقترض منك ، أما هو فيسرق ثمرة عملك وجهدك وعرقك ووقتك • أف ••• أصبحت لا أطيق التفكير فى هذا الموضوع من فرط ما يفظنى ••• ولكن قل لى يا سيدى : كيف لا أراك غضبان ؟ أتراك لا تأسف على ضياع رزقك ؟

– بلى يا يا أستافى ايفانوفتش • ان المرء ليؤثر أن يحرق أشياءه بنفسه على أن يدعها لسارق • حقا ان الانسان لا يجب أن ••

– لا يجب ماذا ؟ ومع ذلك هناك لص ولص ••• هناك سارق وسارق ••• فأنا يا سيدى قد اتفق لى أن وقعت على سارق شريف ••• كيف يكون سارق شريفا ؟ هل يمكن أن يكون سارق شريفا ؟

– طبعا يا سيدى • صحيح أنه ليس هناك لص شريف ••• ولكننى أردت أن أقول انه كان يلوح لى أن ذلك الرجل كان شريفا وقد سرق • ان المرء يرئى لحاله •

– كيف حدث ذلك ؟

« وقع هذا منذ سنتين يا سيدى • فى ذلك الوقت لبثت بلا وظيفة خلال ما يقرب من سنة بكاملها • وكنت فى وظيفتى الأخيرة قد انعدت صلة بنى وبين انسان تيمس ، بائس ، انسان منهار ••• التقينا ذات يوم فى خمارة • كان مدمنا ، عاطلا ، كسلان ••• عمل خلال فترة من الوقت فى مكان ما ، ثم طرد من عمله منذ مدة طويلة بسبب ادمانه على السكر • لقد كان انسانا شقيا بائسا ، رث الثياب ، يرتدى أسمالا بالية وأطمارا

لا يمكن أن أصفها لك ... ان المرء ليتساءل حين يراه : ترى أهو يلبس تحت معطفه قميصا ؟ كل ما كان يقع بين يديه كان ينفقه في شرب الخمره . ولكنه لم يكن صاحبا عريدا ... كان حلو الطبع دمث الخلق طيبا هادئا كل الهدوء ، حتى لقد كان يشعر بخجل دائم ، فهو شديد الحياء . كل ما هنالك أن المسكين كان يحب أن يشرب ، والناس تلاحظ فيه ذلك فتصدق عليه . وعلى هذا النحو انما انعقدت الصلة بيني وبينه . أعنى أنه تعلق بي وتشبث باذيالى ... وأنا من جهتي كان يستوى عنده أن يكون سكيما او أن لا يكون سكيما ... المهم أنه ارتبط بي ارتباط كلب بصاحبه ... أذهب الى هنا فيتبعني ... وأذهب الى هناك فيمشي ورائي ... ولم تكن قد التقينا الا مرة واحدة ! في أول الأمر اضطررت أن أذن له بالمبيت عندي ليلته . كان يحمل جواز سفر سليمان قلت لنفسي : طيب ... لا بأس ... فليت عندي هذه الليلة ، وفي الليلة التي بعدها اضطررت أن أسمح له بالمبيت عندي أيضا ... وفي اليوم الثالث بقى النهار كله واقفا الى حافة النافذة ... حتى اذا جاء المساء لبث للمبيت . قلت لنفسي : « لقد تعلق بي الرجل ... وسيكون عليّ أن أقدم له الطعام والشراب عدا المبيت ... أنا رجل فقير ، وهذا رجل عاطل كسلان يتعلق بي ! ... »

« وقبل أن يتشبث بي كان قد فعل هذا الشيء نفسه مع أحد الموظفين . أنشعب فيه ، فكأنا يشربان معا . ولكن ذلك الموظف مات لا أدري بأى مرض .

• كان اسم الرجل ايميليان ، ايميليان ايلتس . فكرت وفكرت ... ثم قلت لنفسي : ما العمل معه ؟ أطرده ؟ ذلك أمر قاس ، فالرجل فقير بائس . ان وضع الانسان المنهار يحز في النفس كثيرا . وكان هو صموتا



لا يطلب شيئاً ، بل يظل جالسا يحدق فيك كما يحدق كلب . أنظر ماذا يستطيع أن يفعله الادمان على السكر بالانسان ! وفكرت مزيدا من التفكير . تساءلت : كيف أقول له اذهب يا ايميليان ، فليس لك ههنا مكان ، لأنك لم تقع حيث يجب أن تقع ، فأنا امرؤ فقير لن ألبث أن يموزني ما أسد به رمقي ، فلا أستطيع والحالة هذه أن أعيلك ؟ . . . ثم فكرت مزيدا من التفكير أيضا ، فتساءلت : ما عساه يعمل اذا قلت له هذا الكلام ؟ وتصورت النظرة التي سيلقيها على حين يسمع هذا مني ؟ وتصورت كيف سيقى جالسا زمنا طويلا دون أن يفهم شيئا ؟ وتصورته ناهضا عن حافة النافذة بعد أن فهم معنى ما قلته له ، متناولا منديله الذي ما زلت أراه الى هذه اللحظة ، وهو منديل ذو مربعات حمراء ، ممزق ، كان يحمله دائما معه ويضع فيه لا يدرى الا الله ماذا ، وتصورته يعدل معطفه على جسمه ليستقر فيه استقرارا مريحا ، وليتقي به البرد مخفيا ثقبه ، لأنه انسان حساس . . . وتصورته يفتح الباب ويخرج الى السلم وقد فاضت عيناه دموعا ، فقلت لنفسى : لا . . . ما ينبغي أن يضيح الرجل . . . لقد أشفقت عليه ، ورنيت لحاله .

« ثم فكرت مزيدا من التفكير ، فتساءلت : « وماذا أفعل أنا ؟ تم قلت له : « انتظر يا ايميليان . انك لن تبقى طويلا عندي . . . فقريبا أسافر من هنا ، ولن تجدني اذا عدت . . . » وسافرنا يا سيدي . قال لي مولاي الكسندر فيلمونوفتش - الذي مات بعدئذ يا سيدي ، رحمه الله - « أنا راض عنك جدا يا أستافى ، وحين تعود ، فلن ننسك . سوف نستبقيك عندنا . وكنت أنا أعمل لديهم رئيسا للخدم . لقد كان رجلا شهما طيبا . ولكنه مات في تلك السنة نفسها . فلما دفناه ، أخذت أمتعتي وبعض المال وقلت لنفسى : « الآن سأستريح » . وسكنت لدى امرأة عجوز . استأجرت عندها ركنا هو الركن الوحيد الذي كان خاليا . كانت المرأة العجوز قد

عملت مربية للأطفال ، وهى تملك الآن ريعا صغيرا • قلت لنفسى : «طيب» •  
« وداعا يا ايمليان ، يا صديقى ، لن تجدنى بعد الآن • • • » فهل تصدق  
يا سيدى ؟ لقد عدت الى البيت فى ذات مساء من زيارة رفيق من رفاقى ،  
فماذا رأيت ؟ رأيت ايمليان ! كان قاعدا على صندوقى ، واضعا منديه ذا  
المربعات الحمراء قربه • وكان يرتدى معطفا ، وينتظر • • • ومن أجل أن  
يعطد الملل كان قد استعار من العجوز كتابا من كتب الادعية والصلوات  
أمسك به مقلوبا وجعل ينظر • • • فاذا هو يرانى ! سقطت يداى من فرط  
الدهشة • قلت لنفسى : « اذن لا مفر • • • لماذا لم أطرده طردا من أول  
مرة ؟ » وأسرعت أقول له : « هل جئت بجواز سفرك يا ايمليان ؟ » •  
« وجلست يا سيدى ، وأخذت أسأله هل يضايقنى وجود هذا  
الأبله كثيرا ؟ • • • وبعد تفكير طويل ، وبعد تقليب الأمر على وجوهه  
المختلفة ، انتهت الى أن وجوده لن يزعجنى ازعاجا شديدا • قلت لنفسى :  
هى كسرة خبز فى الصباح ، وحتى تبدو له مشهية يمكن شراء قليل من  
الثوم • وفى الظهر خبز ونوم أيضا • وفى العشاء نوم مع قليل من خمر  
الكفاس ، فاذا أضيف الى ذلك شئ من حساء الملفوف كان هذا عيدا لنا  
كلينا • وأنا لا آكل كثيرا • ومن المعروف أن من يشرب كثيرا لا يكاد  
يأكل شيئا • فما هو فى حاجة الى غير البيذ أو الحمرة • وقلت لنفسى  
عندئذ : « ولكنه سيدمرنى بالشرب » • غير أن فكرة أخرى راودتى  
فجأة يا سيدى ، واستولت على عاطفة جديدة استيلاء تاما • قلت لنفسى :  
لو ذهب ايمليان ، لما طقت الحياة • • • لذلك قررت أن أكون له بمثابة  
أب ، بمثابة محسنٍ اليه منعم عليه • وسوف أنقذه ، سوف أمنعه من  
الدمار ، سوف أحمله على الأقالع عن ادمان السكر • قلت بينى وبين  
نفسى : « انتظر يا ايمليان • • • سوف ترى • • • » • ثم أضفت أقول  
له : « طيب يا ايمليان • • ابق • • ولكن عليك بعد اليوم أن تطيعنى • • »

وعدت أقول لنفسي : « سوف أبدأ بتعويده العمل • ولكن على مهل •  
يجب في أول الأمر أن يتسلى قليلا ••• وسوف ألاحظه ، فأعرف أى  
نوع من أنواع العمل يستطيع أن يمارسه • • وأنت تعرف يا سيدى  
أنه لا بد ، فى أى نوع من أنواع العمل ، أن يكون المرء قادرا عليه ،  
مؤهبا له • لذلك بدأت بملاحظته ومراقبته ودراسته • ولكن جميع  
أوهامى ما لبثت أن تبددت • لقد بدأت فى أول الأمر يا سيدى أقول له  
كلاما طيبا : « اسمع يا ايميليان ايلتس ••• فكر قليلا ••• عليك أن  
تعمل شيئا ما ••• كفاك كسلا ••• أنظر الى الاسمال الرثة والاطمار  
البالية التى تلبسها ••• ان معطفك يكاد يكون كالصفاة من كثرة تقوبه •  
لقد آن لك أن تحاول تغيير حالك ا » •

« وكان ايميليان جالسا مطرق الرأس يصغى الىّ دون أن يقول  
شيئا • انه لا يعرف أن يقول كلمة معقولة • أصغى الى طويلاّ طويلاّ  
طويلاّ ، ثم تنهد •  
سألته :

— مالك تنهد ؟

فأجاب :

— لا شيء يا أستاذ ايفانوفتش ••• لا تقلق • هل تعلم يا أستاذ  
ايفانوفتش ؟ لقد تضاربت امرأتان اليوم فى الشارع • كانت احدهما  
قد قلبت للأخرى سلة العنب التى كانت تحملها ••• قلبتها عرضا •

— طيب ؟

— وعندئذ ثارت نائرة الاخرى فقلبت لها سلة عنبها وأخذت

• تدوسه •

– وبعد ذلك يا ايمليان ايلتشي ؟

– هذا كل شيء يا أستاذ ايفانوفتشس ... هذا ما حدث .

– هذا ما حدث ! ولكن ما قيمة هذا ؟ ...

وقلت لنفسى : « مسكين ايمليان ! ... » .

– وهناك أيضا سيد سقطت منه ورقة نقدية على رصيف شارع جوروخوفايا ... لا بل شارع سادوفايا ... ورأى ذلك فلاح فقوال : هذا من نصيبى ... ولكن فلاحا آخر كان قد رأى ذلك قال : « بل هو نصيبى أنا ... لقد رأيتها قبلك » .

– وبعد ذلك ؟

– بعد ذلك تضارب الفلاحان يا أستاذى ايفانوفتشس . فأخذ الشرطى الورقة النقدية وردّها الى صاحبها ، وهدّد الفلاحين بسوقهما الى قسم الشرطة ...

– طيب ، ما قيمة هذا ؟ أى شأن وأية خطورة فى هذا كله ؟

– لا شيء . .. يا أستاذى ايفانوفتشس ... لقد ضحك الناس كثيرا .

– آه يا ايمليان . ... لقد بعت روحك بقرش ... هل تعلم ماذا سأقول لك ؟

– ماذا يا أستاذى ايفانوفتشس ؟

– سأقول لك ان عليك أن تشغل نفسك بعمل من الاعمال . حقا ... يجب عليك أن تعمل شيئا ما ... قلت لك مائة مرة : ارحم نفسك .

- ولكن أى عمل أعمل يا أستافى ايفانوفتش ؟ لست أعلم ما الذى أستطيع أن أعمله ؟ وما من أحد يريدنى •

- ولماذا طردت من الخدمة ؟ هه ؟ لماذا طردت من وظيفتك يا ايمليان ؟ لأنك تشرب •••

- بالمناسبة يا أستافى ايفانوفتش ••• ان فلاس ، الحازن قد استدعى اليوم الى المكتب •

- لماذا استدعى ؟

- لا أعلم يا أستافى ايفانوفتش • ولكن ما دام قد استدعى فهذا يدل على أنه كان يجب استدعاؤه •

قلت لنفسى : « آه ••• لقد ضعنا كلانا يا ايمليان ••• ان الله هو الذى يعاقبنا على خطايانا ••• ما عسى يفعل المرء بانسان كهذا الانسان ؟ »

« على أن ايمليان كان فتى ماكرا ••• كان يصنعى الى ، ولكنه يضعجر فى آخر الامر ، لذلك كان اذا رأى متعكر المزاج يتناول طعامه ويفيب فلا أرى له أثرا • ويظل يتسكع طول النهار فى مكان ما ، ثم يعود فى المساء وقد أخذ منه السكر كل مأخذ • أما من الذى كان يهب له مالاً ليشرب ، أما من أين كان يأتى بالمال ليشرب ، فذلك أمر لا يعلمه الا الله ••• وليس الذنب ذنبى •••

« قلت له فى ذات يوم : ايمليان ايلتش ، كفاك سكرًا ، هل تفهم ؟ وإذا عدت الى البيت اليوم سكران ، فستقضى الليل كله على السلم ، ولن أدعك تدخل ، • • »

« وفى الغد مكث ايمليان فى البيت • وكذلك فعل غداة غد • ولكنه

عاد فغاب فى اليوم الثالث • وانتظرتة ، وانتظرتة طويلا ، فلم يعد •  
فاخذت أشعر بقلق والحق يقال ، وأشفقت عليه • ساءلت نفسى : « ماذا  
فعلت ؟ لقد أخففته ، فأين ذهب المسكين ؟ لعله لن يعود أبدا • يا رب ! »  
« وانقضى الليل ولم يعد • فلما استيقظت فى الصباح ذهبت الى  
الدھليز ونظرت فاذا هو نائم هناك • كان نائما هنالك ، مسندا رأسه على  
الدرجة الاولى من درجات السلم ، ويكاد يكون متجمدا من شدة  
البرد •

— ماذا دهاك يا ايمليان ؟ ما هذا يا رب ! أين كنت يا ايمليان ؟ لماذا  
أنت هنا ؟

— لقد غضبت منى فى ذلك اليوم يا أستاذى ايفانوفتش ، فقلت انك  
ستدعنى أنام فى الدھليز ••• لذلك لم أجرؤ أن أدخل ، ونمت هنا ••  
« كنت أعلى من شدة الخنق وشدة الشفقة فى آن واحد •  
قلت له :

— ولكن كان فى وسعك يا ايمليان أن تجد لنفسك عملا آخر غير  
حراسة السلم •

— أى عمل يا أستاذى ايفانوفتش ؟

قلت مفتاظا أشد النبط :

— ولكن أيها الشقى ••• لو أنك تعلمت الخياطة مثلا ••• أنظر  
الى معطفك ! انه ثقب لا أكثر ••• لو تناولت ابرة فأخذت تمسده  
التقوب ••• ويل لك أيها الشقى ، أيها السكير •••

« فلما قلت له ذلك يا سيدى تناول ابرة • وكنت قد قلت له ذلك

مازحا • ولكنه خاف وأطاعنى • فاذا هو يخلع معطفه ، ويأخذ يحاول  
ادخال الخيط فى سم الابرة • وطبيعى أن عينيه لا تبصران جيدا •  
لقد كانتا محمرتين احمرارا شديدا ••• وكانت يدها ترتعشان • دفع  
الخيط ، ثم دفعه فلم يدخل الخيط فى سم الابرة ••• وطرف عينيه ،  
وبلل الخيط بريقه ، وفتله بأصابعه ••• ولكن جهوده كلها ذهبت عبثا •  
فعدل عن المهمة ونظر الى "

— ماذا تفعل يا ايمليان ؟ لقد قلت لك ذلك من أجل أن أشعرك  
بالخجل ••• كان الله فى عونك ••• ابق عندى • ولكن دعك من  
الحماقات • لا تتم بعد اليوم على السلم ••• لا تنهى •••  
— ولكن ماذا أستطيع أن أفعل يا أستافى ايفانوفتش ؟ أنا أعلم أننى  
دائما سكران ، وأننى لا أصلح لشيء • ولكن يحزننى أن أغضبك أيها  
المحسن الى "

« وفجأة أخذت شفاته الحائلتان ترتعشان ، وجرت على خده الاسفر  
دمعة • وارتجفت هذه الدمعة لحظة على لحيته الشمشاء ، ثم أخذت  
العبرات تتساقط من عينيه سيلا غزيرا ••• مسكين ايمليان ••• شعرت  
عندئذ كأن خنجرأ قد أغمد فى قلبى •••  
قلت فى نفسى :

— مسكين يا ايمليان ، لن تصلح لشيء يوما • وسوف تضيق  
نفسك •

« ولا داعى يا سيدى لأن أطيل قصتى ، فان القصة كلها تافهة ،  
بأسة ••• لا تستحق أن يطنب المرء فى سردها ••• أقصد يا سيدى  
أنك غير مستعد لأن تشتريها كلها بقرشين ، أما أنا يا سيدى ، فأننى  
مستعد لأن أدفع مبلغا كبيرا من المال ، لو كنت أملك هذا المبلغ ، فى  
سبيل أن لا يقع ما وقع •••

« كان عندي يا سيدي سروال ... لعنه الله من سروال ...  
سروال جيد أزرق ذو مربعات ... كان قد أوصاني عليه ملاك من  
الآرياف ، ثم رفض أن يأخذه بحجة أنه ضيق جسدا ، فبقى السروال  
عندي . قلت لنفسي : « هو شيء ثمين ، لو بتمه في سوق الثياب القديمة  
لجاءني بخمسة روبلات . على كل حال أستطيع بثمنه أن أصنع سروالين  
لسيدين من سان بطرسبرج ، وصديرة أيضا ... » . وأنت تعلم يا  
سيدي أن كل شيء حسن لرجل غبي تافه من أمثالنا . ولكن حدث في  
ذلك الوقت أن ايمليان وقع في حالة من الهمود والخمول . نظرت  
فرأيته لا يشرب يوما ، ثم لا يشرب في اليوم الذي يليه ، فإذا جاء اليوم  
الثالث كان منهارا انهيارا كاملا . ان المرء ليشفق عليه ، وتأخذه به  
رحمة . قلت أخاطبه بيني وبين نفسي : « لعلك يا عزيزي ستعود الى  
جادة الصواب ، والى طريق الرب . . لعلك قد سمعت صوت العقل ،  
فقلت لنفسك : كفى ! » .

« ذلك يا سيدي ما كنا قد وصلنا اليه من حال . ويومئذ حلَّ عيد  
كبير . وذهبت الى الكنيسة لصلاة الغروب . . فلما عدت الى البيت  
وجدت صاحبي ايمليان قد جلس الى حافة النافذة وهو كاليت سكرأ .  
انه جالس هناك يتهزئ . قلت : ها . . . ها . . . مرحى . . . يافتي !»

ومضيت أبحث عن شيء في الصندوق . . ونظرت فإذا أنا لا أجد  
السروال . وبحثت عن السروال في كل مكان فما وجدته . وبعد أن  
نشرت البيت كله ، أيقنت انه مفقود ، فكأن خنجرًا قد نفذ في قلبي .

أسرعت الى العجوز وأمطرتها بوابل من اللوم . ولكنني لم أقل  
شيئا لايمليان رغم أن حالة السكر التي هو فيها تشير الى أنه هو الجاني .



قالت لى المعجوز :

- لا ياسيدى ••• سامحك الله ••• ماعسانى صانعة بسروالك •••  
هل فى وسعى أن ألبسه • ومنذ مدة سرق لى رجل تنورة ••• على كل  
حال أنا لا علم لى بشيء عن السروال •

سألها :

- من جاء الى البيت ؟

فقالت :

- لا أحد • كنت هنا طول الوقت • وخرج ايمليان ايلتشن ثم عاد  
•• ها هو ذا ، فأسأله •

قلت له :

- ايمليان ، أترك أخذت سروالى الجديد ••• السروال الذى  
تعرفه ••• السروال الذى خطته للملائك ثم لم يرض أن يأخذه ؟  
- لا يا أستاذ ، لم أخذه •

قلت لنفسى : « ما هذا الأمر • ثم طفقت أبحث من جديد • لم أعر  
على شيء • وما يزال ايمليان حيث كان ، جالسا فى مكانه يترجج •  
وجلست أمامه يا سيدى ، هكذا ، على الصندوق • ونظرت اليه على حين  
غفلة • فرأيتنى أقول لنفسى : « انه هو » • كان قلبى يحترق • واحمر  
وجهى • وفى تلك اللحظة نظر الى ايمليان هو أيضا • قال :

- لا يا أستاذى ايفانوفتش • لم آخذ سروالك • لملك تظن أنتى  
••• أنتى ••• ولكنى لم أخذه •

- ولكن أين ذهب اذن يا ايميليان ايلتس ؟

- لا يا أستافى ايفانوفتش ، لم أره ...

- ماذا تقول يا ايميليان ايلتس ؟ هل يمكن أن يفقد من تلقاء

ذاته ؟

- ربما يا أستافى ايفانوفتش ...

وبعد ذلك نهضت واقتربت منه وأشعلت المصباح وشرعت أعمل •  
كنت أحضّر صديرةً لموظف يقطن تحت بيتنا • وكان قلبي يخفق •  
وكان صدرى يحترق احتراقاً • وأحس ايميليان الغضب قد استولى  
علىّ ، وأحسّ أنّ الشرّ آتٍ من بعيد ، كما يحس الطائر فى السماء  
بهبوب العاصفة •

قال ايميليان بصوت مضطرب :

- هل تعلم يا أستافى ايفانوفتش ؟ لقد تزوج آتیب بروفوروفتش  
اليوم بامرأة الحوذى الذى مات منذ مدة قصيرة ...

« نظرت اليه ، ربما فى شيء من غضب • ففهم ، ونهض ، واقترب  
من السرير ، وأخذ يبحث عن شيء ما • كنت أراقبه • ظل ينبش مدة  
طويلة ، ويدمدم فى الوقت نفسه قائلاً : لا أجِد شيئاً ، فأين اختفى  
السروال اذن ؟ سأرى ... » واندس ايميليان تحت السرير • فلم أعد أطيع  
صبراً ، فقلت :

- ماذا دهالك يا ايميليان ، مالك تجر نفسك هذا الجرّ على

ركبتك ؟

- أبحث عن السروال ... فلعله يكون تحت السرير ... لعله

سقط تحت السرير •

– ولكن يا سيدي ( قلت له يا سيدي من شدة الحنق ) ، لماذا  
تحمل نفسك كل هذا العناء في سبيل انسان مسكين مثلي ، وتعب  
ركبتك ؟

– ولكن يا أستاذي ايفانوفتش \*\*\* أنا \*\*\* ما \*\*\* لا شيء .  
لعلنا واجدوه في مكانٍ ما اذا نحن أحسننا البحث والتنقيش .  
قلت :

– اسمع يا ايميليان ايلتش .

– ماذا يا أستاذي ايفانوفتش ؟

– أغلب ظني أنك سرقتَه وانتهى الامر ، كما يفعل لص أو سارق ،  
لتشكرني .

« الى هذه الدرجة غضبت يا سيدي حين رأيته يزحف نفسه على  
ركبته فوق أرض العرقة .

– لا يا أستاذي ايفانوفتش .

« وظل رأدا تحت السرير . لبث هنالك زمنا طويلا . ثم خرج  
♦♦ نظرت اليه . فإذا هو مصفر الوجه اصفرارا شديدا . ونهض فجلس  
على حافة النافذة ، وظل على تلك الحال قرابة عشر دقائق . ثم قال :

– لا يا أستاذي ايفانوفتش .

ونهض فجأة ، حزينا كخطيئة ، ودنا مني ( ما أزال أراه في خيالي  
الى الآن ) ، وقال لي : لا يا أستاذي ايفانوفتش . لم آخذ سروالك . وكان  
يرتمش ، وكان يلطم صدره ، وكان صوته يختلج متهدجا . أخذت حاله  
تخيفني . قلت :

- طيب يا ايميليان ايلتش • لا تحدثن° فى هذا الامر بعد الآن •  
سامحنى اذا كنت قد عاتبتك خطأ ، ووجهت اليك اللوم كما يفعل غيبي  
أحمق • سحقا للسروال • لن نموت من ضياع السروال • ان لنا ، والله  
الحمد ، أذرا تعمل ، فلن نسرق ، ولن نستعطى صدقة من غريب ، من  
انسان مسكين ، وسنكسب رزقنا بكده يميننا وعرق جبيننا •••

« كان ايميليان يصنى الى واقفا أمامى • ثم جلس • ولبث على هذه  
الحال طوال السهرة لا يتحرك • وقد رقدت على سريرى حين كان  
لا يزال جالسا فى ذلك المكان نفسه لا يتزحزح عنه • وفى الصباح فقط  
انما رأيت أنه كان قد تمدد على الارض العارية متلفا بمعطفه وحده •  
لقد أبى حتى أن يضطجع على السرير •

« ومنذ ذلك الحين يا سيدى أصبحت لا أحبه • حتى أنني فى  
اليوم الاول قد كرهته • لكن ابنى قد سرقنى ، بل وأهاننى وشتمنى •  
كنت أقول لى نفسى : « ويل لك يا ايميليان ! » • أما هو ، يا سيدى ، فقد  
ظل أسبوعين كاملين لا ينقطع عن الشراب • صار كالمسعود ادمانا • فما  
أن يطلع الصباح حتى يخرج ، ثم لا يعود الى البيت الا فى الليل • ولم  
أسمعه ينطق بكلمة واحدة خلال هذين الاسبوعين • لعل الالم كان  
يحز فى نفسه ، فهو يشرب ليطيش عقله ويفرق ألمه • وأخيرا انتهى  
الامر • انقطع ايميليان عن السكر • لعله أنفق كل ما كان معه • وهاهوذا  
يستقر على حافة النافذة • أذكر أنه ظل جالسا صامتا ثلاثة أيام بأسرها !  
وكيف ؟ كانت عيذاه أشبه بنبوع يا سيدى ، حتى كأنه لا يشعر هو  
نفسه بتدفق دموعه • ما أشد ما يؤلم نفس المرء يا سيدى أن يرى رجلا  
مسنا ، شيخا مثل ايميليان ، يبكى حزنا وألما •

قلت له :

- ما بك يا ايمليان ؟

كان يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه • لم أكن قد خاطبته  
بكلمة واحدة منذ افتقاد السروال •

قال :

- لا شيء يا أستاذى ايفانوفتش •

- كان الله فى عونك يا ايمليان ! ليضع كل ما يمكن أن يضع ،  
ولكن لماذا أنت جالس هذه الجلسة كيوم •

« لقد آلمنى وضعه •

قال :

- هكذا يا أستاذى ايفانوفتش ••• ليس الامر هذا ••• وانما  
أريد أن أجد عملاً ما •••

- أى عمل يا ايمليان ايلتش ؟

- لا فرق عندى ••• لعلنى أجد وظيفة ما ، كما كنت فى الماضى •  
لقد ذهبت الى فيدوسى ايفانوفتش ••• ليس يحسن أن أكون عالة عليك  
يا أستاذى ايفانوفتش ••• ولعلنى أرد اليك كل شيء اذا أنا وجدت  
عملاً ••• نعم سأرد اليك كل شيء ••• حتى نعم الخبز سأرده  
اليك •••

- كفى يا ايمليان ، كفى ! ••• قد مضى ما مضى فلا تتحدثن فيه  
بعد الآن • ولنعش كما كنا نعيش من قبل •

- لا يا أستاذى ايفانوفتشس ... ربما كنت أنت ... ما تزال ...  
ولكننى لم آخذ سروالك \*

- طيب \* اتفقنا \* كان الله معك يا ايمليان ...

- لا يا أستاذى ايفانوفتشس ... طبعاً لم يعد فى امكانى أن أعيش  
عندك ... يا أستاذى ايفانوفتشس ...

قلت :

- ولكن من ذا الذى يطردك من هنا يا ايمليان ، حرسك الله ؟ أنا  
طردتك ؟

- لا ... ولكن لا يليق أن أعيش عندك كما اعيش الآن يا أستاذى  
ايفانوفتشس ... الأفضل أن أنصرفى ..

« ذلك ما قاله حزينا يهين نفسه ... وظل يردد هذا الكلام نفسه  
... ثم اذا هو ينهض فعلاً ويأخذ يرتدى معطفه \*

- ولكن الى أين تذهب يا ايمليان ؟ اسمع يا ايمليان ! الى أين  
عسك تذهب ؟ ...

- لا يا أستاذى ايفانوفتشس \* وداعاً \* لا تحاول أن تبقىنى عندك \*  
أنا ذاهب يا أستاذى ايفانوفتشس \* أنت لست الآن كما كنت من قبل \*  
قال ذلك وقد طفق يبكى من جديد \*

قلت :

- لماذا تظن أننى لست الآن كما كنت من قبل ؟ أنا لم أتغير ...  
أنت الذى تغيرت فأصبحت غيباً كطفل \* اذا عشت وحدك فستهلك  
يا ايمليان ايلتشس \*

– لا يا أستاذى ايفانوفتش \*\*\* أنت الآن تقفل صندوقك حين  
تخرج • وأنا أرى هذا فأبكى • لا \*\*\* دعنى أنصرف • ذلك أفضل  
يا أستاذى ايفانوفتش • وسامحنى اذا كنت قد أسأت اليك •

« وانصرف يا سيدى • انتظرت يوما ، فيوما آخر • • وقلت لنفسى :  
« لا بد أنه عائد هذا المساء • • ولكنه لم يعد • وانقضى اليوم الثالث ،  
ولم يعد أحد • خفت • استبدى القلق • أصبحت لا أشرب ولا أكل  
ولا أنام • انهارت نفسى تماما • ومضيت فى اليوم الرابع أبحث عنه •  
لم أذع خمارة الا وذهبت أبحث عنه فيها • وسألت أترابه تاه ! وقلت  
لنفسى : « لعله سقط ميتا فى مكان ما من فرط السكر ، فهو يرقد الآن  
جثة تنسأ ! » • وعدت الى البيت مضطربا لا أنا بالحى ولا أنا بالميت •  
وقررت فى الغداة أن أمضى باحثا عنه • ولعنت نفسى لأننى تركت هذا  
الاحمق ينصرف من بيتى بارادته • ولكن عند الفجر تقريبا من اليوم  
الخامس ( وكان اليوم يوم عيسد ) صرَّ الباب \*\*\* فنظرت فاذا ايميليان  
يظهر \*\*\* انه هو الذى يدخل ! كان مزرق اللون ، متسخ الشعر ،  
كأنه نام فى الشارع ، وكان هزيلا ضامرا كمسما •

« خلع معطفه ، وجلس على صندوقى ونظر الى • كنت سعيداً  
بعودته ، الا أن نوعا من القلق والخوف كان يخنق نفسى أكثر من ذى  
قبل • أقصد يا سيدى أنه لو وقع لى أنا أمر من هذا القليل لأثرت أن  
أفطس كما يفطس كلب على أن أعود هذه العودة • أما ايميليان فقد عاد •  
لا شك أنه يؤلم المرء أن يرى انسانا على مثل هذه الحال • لذلك أخذت  
أواسيه ، وأعزبه ، وأدله • قلت :

– هيه يا ايميليان • يسعدنى أنك رجعت • ولو تأخرت قليلا لمضيت  
أبحث عنك اليوم أيضا فى الخمارات • هل أكلت ؟

– أكلت يا أستافى ايفانوفتش •

– حقا ؟ اسمع يا صديقى ••• لقد بقى بعض الحساء من أمس •  
انه مرق • واليك خبزنا وثوما ، فكل ، وما هذا كله بكثير •

« قدمت له الطعام ، فلاحظت عندئذ أنه لم يأكل شيئا منذ ثلاثة أيام ، وذلك من شدة اقباله على الطعام وشراسته فى التهامه • معنى هذا أن الجوع هو الذى اضطره الى الرجوع • رق قلبى له ، ورأفت به • نظرت اليه وقلت لنفسى : « سأذهب الى خمارة فأجيئه بقليل من الخمر ، ثم نتصالح » • وقلت له : كفى يا ايمليان ••• لم يبق فى نفسى شئ من زعل •

وجئته بالخمر ، وقلت له :

– هاك يا ايمليان ••• فلنشرب قليلا بمناسبة العيد ••• هل لك بقليل من الخمر ؟ بقليل من الخمر تصح الابدان !

فمد يده يتناول القدح بشراة • ها هوذا يمسك القدح ، ويهم أن يفرغه فى جوفه • ولكنه ما يلبث أن يتوقف على حين فجأة • كان القدح يرتعش فى يده ••• وها هو ذا يرد القدح الى المائدة ••

– ماذا يا ايمليان ؟

– لا ••• يا أستافى ايفانوفتش •••

– ماذا ؟ ألا تريد أن تشرب ؟

– ولكننى ••• يا استافى ايفانوفتش ••• لن أشرب بعد اليوم  
قط •••

– ماذا ؟ أتريد أن تنقطع عن الشراب تماما أم تريد أن تنقطع عن الشراب اليوم فحسب ؟



« صمت ايميليان • ونظرت اليه ، فرأيته يضع رأسه بين يديه •  
قلت :

– ماذا بك يا ايميليان ؟ أنت مريض ؟

– نعم ••• أحس بأننى مريض •

« أرقدته على السرير • ونظرت • كانت حالته سيئة حقا • ان  
رأسه محترق بالحمى • ولبثت قربه طول النهار • وازدادت حاله سوءا  
أثناء الليل • صنعت خليطا من خمرة الكفاس والزبدة والثوم ، وأضفت  
الى الخليط قطعا صغيرة من الخبز ، وقلت له :

– اليك هذا يا ايميليان • حاول أن تأكل قليلا ••• فلعل ذلك أن  
ينفعك •

هز رأسه رافضا وقال :

– لا •• لن أكل اليوم •

« وحضرت له شيئا من الشاي • كانت المعجوز متعبة • لم يتحسن  
حاله • قلت فى نفسى : « عبث ••• ان حالته سيئة • » •

« ومضيت فى اليوم الثالث أبحث عن طبيب • كنت أعرف طبيبا  
اسمه كوستوبرافوف • عرفته حين كنت أعمل عند أسرة يوسامياجين •  
وكان قد عالجنى من مرض ألمّ بى • جاء الطبيب ، فبعد أن فحص  
المريض قال : « نعم ، ان حالته سيئة ••• ولم يكن ثمة ما يدعو الى  
احضارى ••• على كل حال يمكن أن نصف له سفوفا ••• » •

والحق أننى لم أجزّعه السفوف ••• وكنا فى اليوم الخامس •

« انه راقد هناك ، أمامى ، يشارف على النهاية من حياته • وكنت

جالسا على حافة النافذة أخيط • أشملت العجوز المدفأة • كنا نحن  
الثلاثة صامتين • وكان قلبي ينفطر ألما حين أنظر اليه • وكنت أعلم انه  
ينظر الى ••• كنت أحس منذ الصباح أنه يريد أن يقول لى شيئا  
ولكنه لا يجرؤ ••• وأخيرا نظرت اليه أنا أيضا • فقرأت فى عيني  
المسكين قلقا رهيبا • انه لا يحوّل بصره عنى • ولكنه حين لاحظ أننى  
نظرت اليه أشاح بعينيه •

– أستافى ايفانوفتش !

– ماذا يا ايمليان ؟

– اذا بيع معطى مثلا ، فهل يجىء بئمن كبير ؟

– لا أدرى يا ايمليان • قد يباع بثلاثة روبلات •

« كذلك قلت له يا سيدى • ولكن الواقع أن المعطى لا يمكن أن  
يباع بقرش واحد • ولو عرضت على احد أن يشتريه لظن أنك تضحك  
عليه وتسخر منه وتحقره ، اذ تريد أن تبيعه قاذورة كهذه القاذورة •  
وانما قلت لايمليان ان المعطى قد يباع بثلاثة روبلات مواساة له لا أكثر  
••• وأجابنى ايمليان قائلا :

– لقد قدّرت يا أستافى ايفانوفتش أنه سيباع حتما بثلاثة روبلات •

ذلك أنه من جوح يا أستافى ايفانوفتش • فكيف تقول انه « قد » يباع  
بثلاثة روبلات ••• كيف تشك فى أنه سيباع بثلاثة روبلات قطعا ؟ ••

قلت :

– لا أدرى يا ايمليان ايلتش • ولكن اذا أردت أن تبيعه ، فيجب

أن تطلب ثمنا له ثلاثة روبلات على الأقل ••• حتما •••

« وبعد صمت قصير ، نادانى ايمليان مرة أخرى :

– أستافى ايفانوفتشى !

– ماذا يا ايمليان ؟

– حين أموت عليك أن تبع معطى • فليس من الضرورى أن أدفن به • ساقى بدون ••• ان للمعطف قيمة ••• ان من الممكن أن يستفاد منه •••

« انقبض قلبى يا سيدى انقباضا لا أستطيع أن أصفه لك • رأيت الخوف الذى يسبق الموت • وصمتنا من جديد • وانقضت ساعة كاملة على هذه الحال ••• ونظرت الى ايمليان ، فرأيته ينظر الىّ هو ايضا • فلما التقت نظراتنا خفض عينيه من جديد •

– هل تريد أن تشرب قليلا من الماء يا ايمليان ايلتشى ؟

– نعم ••• اسقنى ماء يا أستافى ايفانوفتشى ••• بارك الله فيك ••  
ناولته ماءً ، فشرّب وقال :

– شكرا يا أستافى ايفانوفتشى •

– ألا تريد شيئا آخر يا ايمليان ايلتشى ؟

– لا يا أستافى ايفانوفتشى ••• لا شىء ••• ولكن •••

– ماذا ؟

– ولكن •••

– ماذا يا ايمليان ؟

– شىء واحد أريد أن أقوله ••• السروال ••• أنا أخذت السروال  
يا أستافى ايفانوفتشى •••

– طيب يا ايميليان ... عفا الله عنك أيها المسكين ، ولتتم هادىء  
البال مطمئن النفس ...

« كان صدرى أنا يختنق يا سيدي ... وسالت على خدىء  
دموع • وتحولت ببصرى عن ايميليان ...

– أستافى ايفانوفتش ! ...

هكذا نادانى ، فنظرت اليه ، فرأيت أنه يريد أن يتكلم • انه يبذل  
جهداً ويحرك شفثيه ... وفجأة احمر احمراراً شديداً ونظر الى • فما  
هى الا لحظة قصيرة حتى اصفر اصفرارا شديدا ، شديدا ، شديدا ...  
ورمى رأسه الى وراء ، وتنفس تنفسا عميقا ، وردّ روحه الى الله ..

البطل الصغير

١٨٤٨

« البطل الصغير » (Malen'ki gheroi)  
كتب دوستويفسكي هذه القصة  
سنة ١٨٤٨ ، بينما كان معتقلا في  
قلعة بتروبالوفسكايا بسبان  
بترسبرج ، ونشرت في مجلة  
« حويات الوطن » في شهر آب  
( أغسطس ) ١٨٥٧ باسم مستعار  
هو : م.ي.



ذلك العهد ، كنت فى نحو الحادية عشرة من  
عمرى • أذن لى أن أسافر لاقامة قصيرة فى  
الريف فى شهر تموز (يوليو) عند أحد الأقرباء  
فى قرية يملكها • كان قد اجتمع فى القرية  
خمسون مدعوأ من المدعوين • الجو مرح صاحب ، وكان الاحتفال  
لا يريد أن ينتهى أبدا • وكان المضيف كان قد آلى على نفسه أن يبذل  
بأقصى سرعة ثروته الواسعة ، وقد نجح أخيرا فى البر بيمينه ، فبذل أمواله  
حتى آخر قرش • ان موسكو قرية ، وهؤلاء زوار جدد يصلون فى كل  
لحظة ، فالذاهبون يحل محلهم القادمون ، والاحتفال ما ينفك يعظم •  
المتع تتلاحق والألعاب لا تنتهى ، فتارة هى جولات على صهوات الخيل  
فى البرية ، وتارة هى رحلات الى الغابات والى النهر ، أو هى نزعات أو  
مأدب غداء فى الحقول أو ولائم عشاء على الشرفة الواسعة من المنزل  
الاقطاعى العريق ، وهى شرفة تحف بها ثلاثة صفوف من نواذر الأزهار  
تعطر بشذاها طراوة الليل • والاضاءة الساطعة المتلألئة تسكب على  
سيداتنا الجميلات مزيدا من السحر والفتنة ، فوجوههن منتشرة ، وأعينهن  
ملتزمة ، وأحاديثهن مرحة ، وضحكاتهن رنانة كصوت أجراس صغيرة •

وثمة موسيقى ورقص وأغان ، فاذا تلبدت السماء بالغيوم ، أخذوا يلعبون ألعابا شتى ، فمن لوحات حية ، الى القاء الاحاجي ، الى تبادل الامثال • وقد شكلوا فرقة مسرحية ، فكان عدة مدعوين يمثلون الدور الأول فى المسرحيات • وطبيعى أن النعائم والأقاويل كانت تجرى فى طريقها • فلولاها لقلت البهجة فى هذا المجتمع ، ولتعطل انطلاقه ، ولما من الضجر ألوف الأشخاص • ولكننى ، وأنا فى الحادية عشرة من عمري ، لم أكن أدرك ذلك ، لأن ذهني كان يتصرف الى غير هذا • وانما أتبع لى فيما بعد أن أتذكر بعض الامور • كان المظهر المتلألئ للوحة يستطيع وحده أن يخطف بصرى ، بصر الطفل ، وكانت هذه الحركة الحية الشاملة وهذا اللألاء وهذا الصخب الجديدان اللذان لا عهد لى بهما من قبل ، كان كل ذلك يبلغ من ادھاشى واذھالى فى الأيام الأولى أننى كنت منصعقا مبھوتا ، حتى لكأن رأسى مقلوب •

أعود فأقول اننى كنت فى الحادية عشرة من عمري • ولا شك أننى لم أكن الا طفلا ، لم أكن أكثر من طفل • وكانت هاته السيدات الجميلات لا يخطر ببالهن أن يسألن عن سنى وهن يداعبننى ويلاعبننى • ولكن الأمر الغريب أننى منذ تلك السن كانت تبتأحنى عاطفة لا تعليل لها فى نظرى • كان شىء مجهول لا عهد لى بمثله يمس قلبى ويحرقه ، ويحمله على الحفقان خوفا ، ويلهب خدى بحمرة مبالغته • وكان يجرجنى بل يهدنى هداً ما كنت أتمتع به من ميزات يتمتع بها الأطفال • وكنت فى بعض الأحيان أعتزل المجتمع بتأثير حزن مبرح يملككنى على حين فجأة ، محاولا بذلك أن أسترد أنفاسى وأن أتذكر شيئا لا أدري ما هو ، شيئا أكون قد ظننت أننى فهمته ثم اذا بى أساء فجأة ، ولكنه لا غنى عنه لحياتى ووجودى •

وكنت أحس أننى أخفى شيئا لا أستطيع أن أكاشف به أحدا ،



لأننى أشعر منه بالحجل والعمار الى حد ذرف الدموع . ولم ألبث أن شعرت بعزلتى ووحدتى وسط هذا الاعصار الذى يحيط بى . وكان نمة أطفال آخرون ، ولكنهم جميعا أصغر منى كثيرا ، أو أكبر منى كثيرا ؛ على أننى لم أكن أحفل بذلك كثيرا . وطبعى أنه لم يقم لى شىء فى هذا الظرف الذى كنت أتمتع فيه بميزات خاصة . كنت فى نظر جميع هاته السيدات طفلاًّ يحين أن يلامسنه ملاعبات كما تلامس عروس من عرائس الأطفال . وكانت واحدة منهن خاصة ، وهى شقراء لذيذة ذات شعر رائع لم أر له نظيراً منذ ذلك الحين ، يبدو انها آلت على نفسها أن لا تدعنى وشأنى مطمئن البال . كان واضحاً أن الضحكات التى كانت تثيرها حولنا تصرفاتها الغريبة التى تشبه تصرفات تلميذة فى المدرسة تحدث لها أكبر متعة . وكان هذا يبعث فى نفسى الحيرة والاضطراب . كانت جميلة جمالا رائعا باهرا . ولم تكن تشبه فى شىء تلك الشقراوات الصغيرات اللواتى يتصفن بالحياء والخفر والرهافة كبيضات الفئران ، أو كبنات الرهاة . انها أميل قليلا الى الامتلاء ، وليست بالطويلة كثيرا ، ولكن قسما وجهها الدقيقة كانت أخاذة فائنة . ان فى هذا الوجه لسطوعا يخطف البصر ، حتى لكأنها كلها لهب سريع خفيف . فعيناها الواسعتان تومضان كالبرق وتلتزمان التماع الماس . اللهم انى لا أبادل مثل هاتين العينين الزرقاوين بعينين سوداوين من عيون حسناوات الأندلس ! ان شقراوى هذه لتساوى حقا تلك السمراء الجميلة الشهيرة التى تغنى بها فى شعر رائع شاعر كبير أقسم أنه مستعد أن يموت اذا سمح له أن يلمس بطرف أصابعه خمار حسائه . أضف الى ذلك أن حسنائى أنا كانت بين حسناوات العالم بأسره أشدهن مرحا وأكثرهن ضحكا رغم انقضاء خمس سنين على زواجهما . كانت البسمة لا تبارح شفيتها التضييرتين ، كأنها كم من أكمام الورد الأرجوانى العطر التى لم تكد

تفتتح عند أول شعاع سقط عليها من أشعة الشمس والتي لا تزال  
تخضلها أنداء الصباح •

اتذكر انهم اقاموا حفلة تمثيلية غداة وصولي • كانت القاعدة ملأى •  
ولم يكن هنالك مكان واحد خال • فاضطرت ان البث واقفا ، لاننى  
جئت متأخرا • واذ أغرتنى التمثيلية المسلية فقد تقدمت متسللا الى  
الصفوف الاولى ، الى أن توجهت فى مكان مستندا الى مقعد كانت تشغله  
احدى السيدات • انها شقراىى التى لم أكن قد عرفتها بعد • وها هو ذا  
بصرى يتلبث مصادفة على كتفيها المدورين الرائعين الفاتنين البضين كأنهما  
رغوة الزبد • والحق ان هذا المنظر لم يهزنى أكثر مما هزنى منظر  
قبة ذات أشرطة حمراء كانت تغطى الشعر الأبيض من رأس سيدة  
محترمة جالسة فى الصف الأول • والى جانب الشقراء كانت تجلس  
آنسة مسنة هى فيما لاحظته بعد ذلك واحدة من تلك العوانس تساير  
ركب النساء الشابات الجميلات اللواتى يحيط بهن الشبان • فلما لاحظت  
هذه العانس نظرتى ، مالت على أذن جاريتها ودمدمت لها بوضع كلمات  
ضحكة ، فالتفتت الشقراء ، فاذا بشعل من نار ترمى بها عيناها فى هذا  
الجو الذى يشبه الظلام ، واذا أنا أتفض من الدهشة مذعورا كمن  
أصابة حرق • ابتسمت الحسناء ، وسألتنى وهى تلقى على نظرة ماكرة :

– هل يعجبك التمثيل ؟

– نعم •

بذلك أحببتها وأنا أتفرس فيها مبهوتا • ولاح عليها أن ذلك سرها •

قالت :

– ولكن لماذا تبقى واقفا ؟ لسوف يتعبك الوقوف • أليس لك

مكان ؟

— كلا ••• فالقاعد كلها مشغولة •

قلت لها ذلك وأنا أهتم بنفسى فى هذه المرة أكثر من اهتمامى بعينيها  
الساطعتين • وقد أفرحنى حقا أن أجد آخر الأمر قلبا طيبا يذهب عنى  
الملل •

— تعال الى هنا واجلس على ركبتي •

قالت ذلك بسرعة • وكان واضحا أنها تخضع لأية فكرة مجنونة  
تنبجس فى رأسها الطائش • فقلت متحيرا ذاهل اللب :

— على ركبتيك؟ •••

سبق أن ذكرت للقارىء أن الامتيازات التى كنت أتمتع بها قد  
أخذت تهيننى ، وأخذت توقظ فى نفسى وساوس • وأضيف الآن الى  
ذلك أن هذا الامتياز الجديد الصادر عنها استخفافا واستهزاء قد تجاوز  
جميع الحدود • ثم اننى وأنا الصبى الحجول الكثير الحياء قد أصبحت الآن  
شديد الخشية مع النساء • لذلك بلغ اضطرابى أقصاه •

— نعم على ركبتي • لم لا ؟

كذلك ألت تقول ، وهى تنفجر ضاحكة مقهقهة ، لا يدرى الا الله  
لماذا ! لعلها قد سرها اكتشافها كما سرها اضطرابى الشديد الذى حاولت  
أن تثيره •

احمر وجهى وأنا أجيل طرفى محاولا أن أهرب • ولكنها سبقتنى •  
فأسكت يدي لتمنعنى من الهروب وجذبتنى اليها ، وأخذت تشد على يدي  
بأصابعها الصغيرة الفارحة التى لا ترحم • فكدت أصرخ من الألم • ولكننى  
كظمت صرختى مصعرا وجهى تصعيرات لا شك أنها كانت مضحكة كثيرا •  
وقد أحزنتنى كل الحزن بل أرهبنى أن أرى سيدة تبلغ من الغرابة والحبت

ما يجعلها تقول افوالا حقاء للصيبة الصغار ، وتقرصهم على مرأى من الناس دون اى داع الى ذلك . ولا شك ان هيتى قد عبرت عن فرط حيرتى واضطرابى . ذلك ان هذه الشيطانة كانت تضحك امام أنفى مقهقهة ، وقد هزها فرح شديد لنجاحها فى ادخال الاضطراب والارتباك الى قلب صبى مسكين . أصبحت فى حالة يرئى لها من الكرب واليأس . ذلك ان جميع الناس قد التفتوا الينا ضاحكين ، فكنت أحترق نسعورا بالحجل والعار . وكانت تستبسل فى عقف أصابعى لتحملنى على الصراخ ، ولكننى لحرصى على تفادى جرسه لا مخرج لى منها ، كنت قد قررت ان أتحمّل الألم كاسبارطى . واشتدت بى الحميا فى آخر الأمر حتى بلغت أقصى حدودها ، فأخذت أجاهد محاولا سحب يدى ، ولكن خصمى كان أقوى منى ، فلما أصبحت لا أطيق أن أحمّل الألم مزيدا من الاحتمال صرخت ، وكانت هى لا تنتظر الا هذا ، فلم تلبث أن تركت يدى وتحولت عنى كأن شيئا لم يكن ، مثلها كمثل التلميذ الذى كان يطمم بقدمه رفيقا له أضعف منه من وراء ظهر المعلم ، فما ان هرع المعلم نحو مصدر الضجة كالعقاب حتى تحول المعتدى عن ضحيته ساخرا ، واصطنع هيئة من لم يفعل شيئا ، وعاد الى كتابه مستغرقا فيه .

ومن حسن الحظ ان انتباه الجمهور كان مشدودا فى تلك اللحظة الى صاحب الدار الذى كان يمثل الدور الرئيسى فى مسرحية هزلية من تأليف سكريب . وكان الجمهور يصفق للممثل ، فاتهزت أنا هذه الفرصة وتسللت الى خارج الصف ، واعتصمت وراء عمود فى الطرف الآخر من القاعة ، أرمى الحسناء الماكرة بنظرات مروعة . كانت لا تزال تضحك مغتبية فمها بمنديلها ، باحثة عنى بنظرها . لاشك أنها كانت نادمة على أن معركتنا المفاجئة المجنونة قد انتهت بسرعة ، ولا شك أنها أخذت تفكر منذ ذلك الحين بأمازيح جديدة .

هكذا تعارفنا • وأصبحت منذ ذلك المساء لا تدعنى وشائى لحظة ، بل تظل تلاحقنى وتمذبنى • وكانت أمازيحها تقوم على محاولة احراجى وادخال الاضطراب فى نفسى باعلان شغفها بى وجنونها تولها بحبى • وكنت أنا صيبا متوحشا حقا ، فكان يؤلمنى ذلك اشد الايلام ، ويدفعنى الى البكاء • حتى لقد أوشكت مرارا أن أتماسك بالايدي مع صاحبتى القاسية المعجبة بى الهائمة بگرامى • ويبدو أن اضطرابى كان يشجعها على الامعان فى مناكدتى ، لا تاخذها بى رحمة ؟ وكنت لا أعرف كيف أهرب منها • وكان الضحكات التى كانت تثيرها حولنا كانت تشحذ قريحتها فهى ما تنفك تبكر المزيد من أنواع الجنون • على أن الناس قد أخذوا يلاحظون ان امازيحها قد اصبحت مسرفة • والواقع أن فى امكان المرء أن يقول انها كانت تسمح لنفسها بالافراط فى هذه الامازيح مع صبي منلى •

غير أن طبعها كان كذلك • لقد خلق منها زوجها طفلة مدللة حقا • كان زوجها هذا رجلا قصيراً شديد السمنة شديد الحمرة غنياً كثير الأعمال دائم الحركة لا يطيق أن يستقر فى مكان فهو يذهب الى موسكو كل يوم لأعمال ، وربما ذهب فى اليوم الواحد مرتين • انه ليصعب على المرء أن يجد وجهاً كوجه هذا الرجل بشاشةً جذلى وطيبة مضحكة ، على شرف واستقامة دائما • وكان حبه امرأته يجعله من الضمف بحيث يشفق عليه المرء حين يراه • كان يحبها حب العابد معبوده •

وكان لا يضايقها فى شئ • ان لها طائفة من الأصدقاء والصواحب • اذ أن الذين لا يحبونها قلة • فلم يكن طيشها يدفعها الى التشدد فى اختيار سداقاتها ، رغم أنها فى حقيقة الأمر أكثر استقامة ورسانة مما قد يتراعى للمرء بعد الذى ذكرته عنها • وكان بين صاحباتها امرأة شابة كانت تؤثرها حسناؤنا بالحب على غيرها ، وهى تمت اليها بقربى بعيدة وكانت

هذه المرأة الشابّة موجودة معنا أيضاً . ان رابطة مرهفة رقيقة العاطفة كانت تجمع بين هاتين المرأتين ، رابطةً يجدها المرء أحياناً بين طبيعتين متعارضتين تعارضاً واضحاً أحدهما أقل صرامة ونقاءً من الآخر ، فهو يخضع للتأني خضوعاً ذليلاً ، ويعترف بتفوقه عليه ويمتلئ قلبه صداقة له . فمن جهة أولى نرى عاطفة رحيّة الصدر متسامحة الى أبعد الحدود ، ومن جهة أخرى نرى عاطفة يمازجها احترام يمضي الى حد الخوف من فقدان الاعتبار في نظر الشخص الذي يحظى بالاعجاب كما تمازجها رغبة قوية في النفاذ مزيجاً من النفاذ الى الصميم من قلب هذا الشخص .

والصديقتان في عمر واحد . ولكن جمال الأولى يختلف عن جمال الثانية كل الاختلاف . ان في جمال السيدة م . . . شيئاً خاصاً يميزها عن جمهرة حسان النساء . ان قسماً وجهها تجذب اليها القلوب جذبا لا سبيل الى مقاومته ، وتوقظ في نفس كل انسان نوعاً من الاهتمام بها والاحترام لها . ان هنالك وجوها وهبت لها الطبيعة هذه النعمة : يحس المرء حين يجالسها بأنه قد ارتفع على ذاته ، فهي توقظ في النفس شعوراً بالحرية والعذوبة . ومع ذلك فان عينيها الواسعتين الممتلئتين نارا وقوة حزنتان ، وان نظرتها نظرة خجلى قلقة ، حتى لكانها في خوف دائم من وقوع خطر أو نزول مصيبة . ان هذا الخوف الغريب يسكب على وجهها الهادىء هدوءاً ايطالية ويضفي عليه أسمى وكأبة يملنان من القوة أن الحزن يتسرب الى نفس من ينظر اليها ويتأملها . ان الجمال الكامل الطاهر في هذا الوجه الشاحب الناحل يوحى بصورة الطفولة التي ما تزال قريبة جداً ، يوحى بها واضحة كل الوضوح كما يوحى بطمأنينة هادئة وثقة كبيرة وربما بسعادة بريئة . وان بسمتها المترددة تجذبك اليها جذبا رفيقا ، وتدافع عنها ، وترفع قدرها ولو رأيتها من بعد . ولكن هذه الفتاة المتسانة كانت تبدو صموتا مغلقة رغم أن من المستحيل على المرء أن يجد انسانا

أكثر منها تجاوبا مع آلام الآخرين وأكثر منها انتباها الى عذاب الناس •  
ان فى هذا العالم نساء يعشن حياة راهبات من راهبات المحبة والاحسان ،  
فمن كان يتألم استطاع أن يقبل عليهن جريئا بنير تردد فائض القلب أبداً  
لا يخفى عنهن شيئاً ولا يخشى ان يضقن ذرعا بأقباله عليهن • وقلما  
يعرف الناس كنوز الحب الصابر والشفقة والغفران التى تنطوى عليها  
قلوب أمثال هاته النسوة الطاهرة النقية الجريحة هى نفسها فى كثير من  
الأحيان ، لأنها كلما أمعت حبا أمعت ألماً ، على اخفائها عذابها عن عيون  
الناس • ان الالم العميق يصمت ويتخفى • وان أمثال هذه المخلوقات  
لا تأذن لنفسها أن تسمثر أو أن تنفر من الشر مهما يكن بشعاً ومهما  
يبلغ من العفونة • ان من يقاربهن يجد لديهن عوناً وسنداً وكأنهن على  
كل حال انما خلقن للحب البطولى •

كانت السيدة م • • • فارعة القامة مرنة الجسم ممشوقة القد • وكانت  
حركاتها بطيئة منسقة بل فضمة تارة ، ومنطلقة حية عنيفة كحركات  
الأطفال تارة أخرى ، على كونها متواضعة خجلى حتى لكأنها عزلاء ، دون  
أن يبدو مع ذلك أنها تطلب حماية أو تسأل نجدة •

سبق أن قلت ان المناكدات الظالمة التى كانت تعاملنى بها الشقراء  
الماكرة توقضى فى كثير من الضيق والحرع والانزعاج وتجرحنى أعمق  
الجرح • وكان لهذا سبب آخر ، سبب خفى غريب كنت أحرص على  
كنمانه حرص البخيل على ماله ، سبب كان مجرد التفكير فيه يجعلنى ألهم  
قلقا وخوفا فى ركن قاتم لا تسلل اليه النظرة الفاحصة أو الساخرة التى  
تلاحقنى بها امرأة وغدة زرقاء العينين حين أدخلوا الى نفسى مضطرب  
الرأس قلق البال • لقد كنت عاشقا ! لكم أن تقولوا ان هذا مستحيل  
ولكننى أسألکم عندئذ لماذا اذن كان هنالك وجه وحيد بين جميع الوجوه  
التي تحيط بى يلفت انتباهى ، ولماذا كنت وأنا الصبى الذى لا يسعى كثيرا

الى صحبة النساء أتابع ذلك الوجه بصرى دون انقطاع ، اتابعه وحده دون سواه ؟ ولقد كان ذلك يحدث فى مساء خاصة ، حين تجسنا رداة الجوف فى غرفنا ، فاعتصم عاطلا فى ركن من القاعة ، واذ لم يكن احد باستثناء مضطهدتى يكلمنى الا نادرا ، فلقد كنت اشعر بضجر رهيب . كنت اثناء ذلك ادرس الوجوه واصفى الى الاحاديث التى لم اكن افهم منها كلمة واحدة فى كثير من الاحيان ، ففى تلك اللحظات كانت النظرات العذبة والابتسامة الحلوة والجمال اللتان فى السيدة م . . . ( فهى التى عشقتها ! ) تسحر انتباهى المفتون لا يدري الا الله لماذا ، وتحديث فى نفسى آثرا غريبا لذيذا لا يمضى . . . كنت لا استطيع ان احول نظرى عنها ساعات برمتها ، فعرفت جميع حركاتها وسكناتها ، وجميع اهتزازات صوتها الفضى ، المحجب قليلا مع ذلك ! والشئ الغريب ان هذه الملاحظات كانت تبعث فى نفسى قدرا غريبا من حب الاستطلاع ، فكأنتى امضى وراء سر

أحاول اكتشافه .

وكانت السخريات تؤلمنى أكثر ما يكون الألم وتهيننى أشد ما تكون الاهانة اذا شهدتها السيدة م . . . فاذا اتفق أن انطلقت فهههات الجمع ضاحكة منى فشاركته فيها السيدة م . . . على غير ارادة منها ، هربت من عدوتى الظالمة المستبدة وأنا فى ذروة الكرب والكمد ، ومضيت أقضى بقية السهرة معتزلا منفردا متوحشا لا أجرؤ أن أعود الى الظهور فى القاعة . على أننى كنت لا أفهم أنا نفسى بعد شيئا من هذا الحجل والانفعال الذى أعانيه . فقد كانت هذه العواطف جميعها تجرى تحت سطح الشعور من نفسى ؛ ولم اكن بعد قد تخاطبت بكلمتين مع السيدة م . . . وذلك من قلة جرأتى . ولكن ، فى ذات مساء ، بعد نهار كان ثقيل الوطأة على نفسى ، تخلفت عن الموكب أثناء النزهة ، ثم تسللت أسير فى الحديقة وقد أخذ التعب منى كل مأخذ . وفيما كنت أمشى فى طريق معزول تحف به الأشجار ، لمحت



السيدة م . . . . . جالسةً على مقعد . كان رأسها مائلا على صدرها ، وكانت تشد منديلها بحركات آلية على غير شعور منها ، وكانت غارقة في تأملاتها فلم تسمع وقع خطواتي .

فلما لمحتني ، نهضت عن المقعد بسرعه قوية ، وحولت وجهها : فرايت انها كانت تبلى . ثم ابتسمت لى بعد ان جففت دموعها ، وسرنا معا نحو البيت . لا اتذكر الموضوع الذى دار عليه حديثنا ، ولكننى اعلم انها كانت ترسلنى فى كل لحظة ، متعللة بألف حجة وحجة ، فهى تارة تسألنى أن أقطف لها وردة ، وتارة تطلب منى أن أمضى لأرى من ذا الذى يعدو على صهوة الجواد فى طريق الأشجار المجاور . وكانت منى ابتمدت عنها تقرب منديلها من عينيها لأن دموعها المتمردة التى تتجسس فى قلبها كانت تفرق عينيها البائستين . كان واضحا أن صحبتي لها تثقل على نفسها . لقد أدركت أننى شهدت 'المها' . ولكنها لم تكن قادرة على السيطرلة على نفسها . وقد غضبت من نفسى أشد الغضب ، ولغنت خرافتى وقلة تبصرى . وعيننا حاولت أن أبتعد عنها دون أن يدل هذا الابتعاد على أننى قد رأيت دموعها ، فكنت أسير الى جانبها مرتبكا أشد الارتباك ، حزينا لأجد ما أقوله لها .

لقد هزنى هذا اللقاء فظلمت ألاحظ المرأة الشابة طوال السهرة ، مبالنا فى الاستطلاع والتصلص لا أحول عنها بصرى لحظة من اللحظات . وقد أدركت هى ذلك فابتسمت لى وكانت تلك الابتسامة هى الوحيدة التى افتر فمها عنها فى ذلك المساء . كان الحزن لا يبارح وجهها الذى أصبح الآن شاجبا شديد الشحوب . وكانت تتحدث مع سيدة طاعنة السن هى عجوز خبيثة الطبع حادة المزاج لم يكن أحد يجيبها ، ولكن كان جميع الناس يخشونها ، بسبب هوسها فى التجسس على

الجميع ، ويسبب لسانها الذى لا ينقطع عن تلفيق الاقاويل والنمائم ، فهم مضطرون جميعا الى مداراتها ومراعاتها شاعوا أم أبوا .

فى نحو الساعة العاشرة من المساء ، ظهر السيد م . . . فلاحظت كيف ارتجفت السيدة م . . . حين ظهور زوجها هذا الظهور الذى لم يكن فى الحسبان ، وازداد شحوبها حتى صار اشد بياضا من بياض منديلها . ولاحظ اخرون غيرى هذا ايضا . وسمعت الى جانبي شذرة من حديث افهمنى ان الامور لا تجرى كلها على ما تحب السيدة م . . . المسكينة . قالوا ان زوجها غير عليها غيرة عطيل ، وان غيرته هذه ليس مبعثها الحب بل الغرور . انه قبل كل شىء رجل اوربى ، رجل عصرى ، محشو الرأس بأفكار جديدة يباهى بها ويدل بها على الناس . وهو طويل القامة ، قوى البنية ، اسود الشعر ، له لحيتان صغيرتان على الخدين . . . يعبر وجهه الدموى عن الاكتفاء بالنفس . وأسنانه بياض كالسكر ، وحركاته ومشيته ومظهره تنطبق كلها على ما يتميز به من يوصف بأنه « جتلمان » كامل . وكان يقال عنه انه رجل « ذكى » ، فهذه الصفة انما يوصف فى بعض الاوساط نوع " من البشر يسمنون على حساب الآخرين ولا يقومون بعمل البتة بل يقضون أوقاتهم فى فراغ ولهو ويملكون فى مكان القلب قطعة من شحم . ان هؤلاء الناس يؤكدون أن مصائب معقدة غاية التعقيد قد « أضنت عقريتهم » ، وهم يبذلون هذه الجملة المنتفخة التى أصبحت من طول الاستعمال ومن فرط ما يعمد اليها أصحابنا السمان هؤلاء تظاهرا بنبل العواطف ، يبذلونها لكل قادم جديد كأنها « كلمة سر » . ولأن هؤلاء السخفاء لا يجدون عملا يقومون به ولا يبحثون من جهة أخرى عن عمل يقومون به ، فانهم يريدون أن يوهمو الناس بأن قلوبهم تنطوى على أشياء عميقة جدا ( والحق أن أمهر الجراحين وأبرعهم ما كان لهم أن يعرفوا هذه الاشياء العميقة على وجه

( اذفه ) • ان امثال هؤلاء الناس يستعملون جميع ما اوتوا من غرائز  
 ليستخفوا بالآخرين وليسخرؤا منهم ، فاحكامهم عمياء وصلفهم مفرط لا  
 حدود له • انهم لا يزيدون على رصد اخطاء من حولهم ، ومراقبة  
 ما فيهم من جوانب الضعف • واذا كانت طبيتهم لا تفوق طيبة محارة  
 من محار الماء فان معاشرتهم للآخرين يحكمها الحذر ويسيطر عليها حب  
 النروى والتبصر • وهم بذلك فخورون • وانهم لا يتعاضد بان البشر  
 كافة باستثنائهم اناس حمقى يستطيعون هم عند الحاجة ان يعصروهم كما  
 تمصر برتقالة أو اسفنجة ، فانهم يحسبون انفسهم سادة العالم ، ويحسبون  
 العالم مدينا لهم مرهوناً بهم متوقفاً عليهم • وانهم يعتبرون هذا الوضع  
 ثمرة ما يملكون من ذكاء وما يتصفون به من خلق قوى وازادة صلبة  
 وطبع فذ • وهم فى سلفهم هذا الذى لا حدود له لا يسلمون بان لهم  
 عيوباً او اخطاء •• انهم يشبهون أولئك الأوغاد أمثال تارتوف أو فالستاف  
 الذين ينتهون الى الاقتناع من فرط ما خادعوا ومكروا وغشوا بأن من  
 حقهم أن يظهرؤا مخالطين ، ثم هم من فرط ما أفتعوا الآخرين بذلك  
 أصبحوا يعتقدون مخلصين بأنهم أناس شرفاء مستقيمون • انهم لا يملكون  
 الوسائل الضرورية لامتحان ضميرهم امتحانا صادقا كريما ، ولنقد انفسهم  
 بأنفسهم نقداً نزيهاً نبيلاً • ان جلودهم أسمك وأغلظ من أن تتقبل مثل هذا  
 الامتحان أو مثل هذا النقد • ان شخصيتهم الفذة وذاتهم المتفوقة هما فى  
 نظرهم أشبه باله العمونيين «مولوك» أو اله الفينيقيين «جمل» • فما وجدت  
 الطبيعة العنيفة ولا وجد الكون كله الا ليكون مرآة خلقت ليستطيع الاله  
 الصغير أن يرى نفسه فيها فيعجب بها • وهذا يمنهم من أن يروا كل  
 ما ليس عداهم ، وذلك هو السبب فى انهم يرون جميع الاشياء من  
 جانبها الكريه البغيض • ان هؤلاء الناس يملكون لكل مناسبة من  
 المناسبات جملة مهياة جاهزة هى عدا ذلك على « الموضة » ، وتلك عندهم

قمة البراعة • ويكونون قد اسهموا هم في خلقها ناشرين في جميع  
المفارق مزاعم لا تقوم على اساس من الصحة ، لكنهم يقدرون انها  
ستصيب نجاحا ورواجا ، فهم اناس لا تموزهم الشمامة والخذاقة • وهم  
ينسبون الى انفسهم هذه الجمل فيوهمون انهم صانعوها ، ويكثرون خاصة  
من التعبيرات التي تفصح عن محبة عميقة للبشر والتعريفات التي تحدد  
العطف على الانسان تحديدا يتصف بالتعقل والحكمة ، ويكثرون من  
ادانة الاندفاع الرومانسى اى ادانة الجمال والحق في كثير من الاحيان ،  
الحق والجمال اللذين تساوى ذرة منهما من القيمة أكثر مما تساوى  
أشخاصهم الرخوة الرخصة كلها • أما البحث عن الحقيقة فانهم  
يجهلونه كل الجهل ، وهم يصدون عن كل ما يتطور وينضج • كذلك  
عاش الرجل السمين حياته بطرا بلا جهد يبذله ، جاهلا ما يقاسيه  
الانسان من عناء في كل عمل يقوم به • لذلك فويل ثم ويل لك اذا انت  
هاجمت عواطفه ، فانه لن يغفر لك ذنبك أبدا ، وسيحمل لك الحقد  
مدى الحياة ، وسيشعر بأكبر المتع حين ينتقم منك • الخلاصة ان بطلنا  
لم يكن أكثر من كيس ضخم منفوخ محشو جملا جاهزة وصيفا مهياة  
وعناوين من جميع الأنواع •

على أن السيد م ••• كان يمتاز بخاصة تثير الالتفات ، فهو رجل  
حاضر النكته بارع الحديث ، وهو قصاص يتحلق حوله الناس في  
الصالونات • ولقد كان في ذلك المساء مبتهجا مرحا مسرورا بلا سبب  
ظاهر • واذا ظفر بتركيز انتباه الناس حوله فقد سيطر على الحديث •  
ولا كذلك السيدة م ••• فقد كان يبدو عليها من الالم والحزن ماجلنى  
أتوقع أن تختلج على أهدابها الطويلة دموع ، فكان ذلك كله يحزننى  
أشد الحزن كما سبق أن قلت • وقد انصرفت حائرا طائش اللب ،  
ووافانى في الليل كابوس مزعج اذ حلمت بالسيد م •••

وفى صباح الند نوديت الى التمرن على اللوحات الحية التى كنت  
أشارك فيها بدور صغير . وكان موعد عرض اللوحات الحية وتمثيل  
المسرحية واقامة الحفلة الراقصة بعد بضعة أيام احتفالا بعيد ميلاد الابنة  
الصغرى لصاحب الدار . وكان ينتظر أن يأتى ما يقرب من مائة شخص  
من موسكو والقرى المجاورة لحضور هذا العيد الذى ارتجل ارتجالا  
تقريبا . ومن أجل ذلك كان المنزل مليئا بالحركة والصخب وكان علينا  
أن نقوم بعمل كثير . ان التمرن على المشاهد بملابس التمثيل قد حدد  
موعد ساعة مبكرة من الصباح ، لأن المخرج ، وهو الرسام الشهير ر . . .  
صديق صاحب الدار وضييفه ، كان بعد أن أخذ على عاتقه لصداقته بصاحب  
الدار أن يؤلف اللوحات الحية وأن يخرجها وأن يمرتنا كذلك عليها ،  
كان عليه أن يسرع الى المدينة لشراء بعض الاشياء الضرورية للحفلة .  
فلم يكن ثمة وقت يجوز أن يضع ، وكانت اللوحة التى على أن أمثل  
فيها مع السيدة م . . . مشهدا من القرون الوسطى عنوانه « ربة القصر  
وخادمها الغلام » .

فلما اجتمعت بالسيدة م . . . شعرت باضطراب عميق . كنت على  
يقين أنها فائزة فى عيني الخواطر والشكوك والتخمينات التى قامت فى  
ذهنى البارحة . وكنت أخشى عدا ذلك أن أكون قد قارفت خطيئة اذ  
فاجأت دموعها وألمها ، فكنت أقول لنفسي : انها ستنتظر الى نظرة شزراء  
حتما لأننى اطلعت على سرها من حيث أرادت أن تخفيه . ولكن كل  
شيء قد جرى بغير نكد والله الحمد : كل ما هنالك أنتى ظللت مهملا لا  
يظن أحد الى . لم تكن السيدة م . . . مهتمة لا بالتمرين ولا بشخصي ،  
بل كانت ذاهلة ، وكان يبدو عليها الحزن والتفكير . كان واضحا أن  
هماً كبيراً يملأ جوانب نفسها ، فلما فرغنا من التمرين أسرعنا أبداً  
ملاسى ثم خرجت بعد عشرة دقائق الى الشرفة التى تفضى الى الحديقة .

فإذا أنا أرى السيدة م . . . . تخرج الى الشرفة من باب آخر . وفى تلك اللحظة نفسها كان يتقدم نحونا زوجها عائدا من الحديقة بعد أن صحب فيها طائفة من السيدات ثم عهد بهن الى « فارس مرافق آخر » . ان التقاء الزوجين لم يكن فى الحسبان فيما يبدو ، فما ان رأت السيدة م . . . . زوجها حتى ظهر عليها أنها ضيقة الذرع بهذا اللقاء ، وحتى حركت يدها بإشارة تدل على التملعل والاسف . أما زوجها الذى كان يسير قبل ذلك صافراً غير حافل بشئ ، ملاعباً لحيته ، فانه قد توجهم وعبس وتفرس فى زوجته بنظرة فاحصة ، ثم سألها وهو ينظر الى الشمسية والكتاب الذى كان بيدها :

– أنت ذاهبة الى الحديقة ؟

فأجابته وقد احمرت قليلا :

– بل الى الغابة .

– وحدك ؟

– بل معه .

كذلك قالت وهى تومىء الى بصوت متقطع مشن هو الصوت الذى يصطنعه المرء حين يُنطق بكذبه الاولى .

– هم . . . . كنت منذ برهة هناك أصحب جماعة بكاملها . انهم يتجمعون فى الجناح المزهر ليرافقوا السيد ن . . . . انه مسافر هل تعلمين ؟ . . . . ان مشكلة مزعجة تحمله على السفر الى أوديسا . وابنة عمك ( يقصد الشقراء ) تضحك وتبكي فى آن واحد ، فلا يفهم المرء ما بها ، ثم انها قالت لى ، لا أتذكر الآن لأى سبب ، انك قد ثرت عليه ولم تشائى مرافقته . . . . لترهات طبعاً ؟

– هي مزحة •

بذلك أجابته السيدة م ••• وهي تهبط درجات الشرفة •

وأضاف السيد م ••• يقول وقد صعّر خدّه ناظرا الىّ من خلال  
نظارة يحملها بيده :

– أهذا هو اذن فارسك المخلص الأمين ؟

فصمت أقول منزعجا من نظارته ومن سحريته :

– أنا خادمها الغلام •

قلت ذلك وضحكت أمام أنفه ثم هبطت الدرجات الثلاث بقفزة

واحدة •

دمدم السيد يقول وهو يتعد :

– نزهة سعيدة •

ومنذ أن أوامات الىّ السيدة م ••• وهي تخاطب زوجها ، فقد  
اقربت منها بطبيعة الحال ، كما لو كنت حقا الشخص الذي لا يفارقها ،  
وكما لو كنت قد تمودت هذه النزحات اليومية معها • ولكنني لم أستطع  
أن أفهم سبب اضطرابها وسبب كذبتها الصغيرة • وقد أصبحت لأستطيع  
أن أنظر اليها وجهاً لوجه ، ومع ذلك فقد أخذت أرشقها بنظرات سريعة  
صغيرة مستطلعة ساذجة • غير أنها لم تكن تحفل لا بنظراتي ولا بتساؤلي  
الآخرس ، كما كان شأنها كذلك أثناء التمرين • ان تعبير وجهها  
واضطرابها ومشيئها ، ان ذلك كله يدل على عذاب تعانسه في أعماق  
نفسها • كانت تسرع في سيرها وتحث الخطى وتلتفت نحو الحديقة  
ترصد ممرات الأشجار ومنافذ الغابة الصغيرة قلقة • وكنت أنا أيضا  
أتوقم شيئا ما • وفجأة دوّت وراينا أصوات وقع حوافر الخيل • انها

جماعة من الفرسان والقارسات يرافقون السيد ن . . . الذي يتركنا فجأة  
على غير توقع .

وكانت بين السيدات تلك السيدة الشابة الشقراء التي أشار السيد  
م . . . منذ قليل الى دموعها الهائلة ، ولكنها كانت عندئذ تضحك على  
عادتها كصبية صغيرة ، وهي تعدو على صهوة حصانها الجميل الاكمت .  
رفع السيد ن . . . قبسته ، ولكن دون أن يتوقف ودون أن يخاطب  
السيدة م . . . بكلمة واحدة . وسرعان ما غاب الراكب عن أبصارنا .  
ونظرت الى السيدة م . . . فكدت أصرخ من فرط الدهشة : لقد كانت  
متجمدة شاحبة كمنديلها ، وكانت تتفرق في عينيها دموع كبار ، والتقت  
نظراتنا مصادفةً فأشاحت عنى وقد احمر وجهها وظهر عليها النغم  
والانزعاج . لقد كان وجودى يضايقها . ذلك واضح وضوح الشمس  
ولكن كيف عساني أنسحب ؟ . . .

وفجأة غيرت رأيها ففتحت كتابها وقالت لى دون أن تنظر الى :  
- أوه ! لقد أخطأت فحملت المجلد الثانى من الكتاب ، فهل لك  
أن تجيئنى بالمجلد الاول ؟

قالت ذلك متظاهرةً بأنها لم تلاحظ هذا الا فى تلك اللحظة .  
كيف لا أفهم أن دورى قد انتهى ؟ لقد كان يستحيل عليها أن  
تصرفنى بخشونة مباشرة ، فاحتالت على الأمر بالكتاب .  
مضيت بالكتاب ثم لم أعد ، وظل المجلد الاول ساكنا على المنضدة  
فى ذلك الصباح .

ولكننى كنت كروح معذبة ، وكان قلبى ينبض ذعرا ورجسا .  
وحاذرت أن أقابل السيدة م . . . ولكننى فى مقابل ذلك أخذت أسبر



بنهم شديد وجه زوجها الذى يعبر عن الاكتفاء والثقة كأننى كنت أتوقع  
أن اجد فيه الآن شيئاً خاصاً • لست أفهم شيئاً من هذا النهم المضحك  
الى الاستطلاع • كل ما أتذكره أن مشاعرى فى ذلك الصباح قد أسرت  
نفسى واغرقتنى فى دهشة غريبة • والحق أن النهار كان فى أوله ، وقد  
جاء حافلاً بالاحداث بعد ذلك فعلاً •

تناولوا طعام الغداء فى ذلك اليوم مبكرين • ذلك أنهم سيقومون  
برحلة الى القرية المجاورة فى المساء نشدانا للبهجة فى عيد قروى  
سيحتفل به هناك • وكان علينا أن نهيب أنفسنا لهذه الرحلة • والحق  
أننى ظلمت أحلم بهذه الرحلة أياما ثلاثة ، وكنت أتوقع منها متعا كثيرة  
ومباهج لا تحصى • واجتمعوا بعد الغداء على الشرفة لاحتساء القهوة ،  
فحرصت على التسلل فى اثرهم واختبأت وراء الصفوف الثلاثة من  
المقاعد يدفنى الى ذلك ما كان يجيش فى نفسى من حب الاستطلاع ،  
ولكننى لم أرد أن أظهر للسيدة م ••• وشاءت الصدفة أن تصغى بجوار  
شقرائى الرهية التى كان جمالها فى ذلك المساء يشرق بمزيد من السناء  
والضياء • كان جمالا فذا • ان هناك أمورا تقع للنساء لا أدرى لماذا ولا  
أدرى كيف ! ولكنها تقع فى بعض الاحيان ••• كان بيننا فى تلك  
اللحظة قادم جديد يعبد شقراءنا ويلازمها ، هو شاب شاحب الوجه فارغ  
القامة وصل من موسكو كأنما ليحل محل ن ••• الذى كانت الاشاعات  
تقول عنه انه مجنون غراما بشقراءنا • أما هذا السيد فان العلاقة بينه  
وبينها كانت كالعلاقة بين بنديكت وبياتريس فى مسرحية شكسبير « ضجة  
كبيرة فى غير طائل » \* •

الخلاصة أن حسناءنا كانت فى ذلك اليوم مشرقة المزاج منطلقة  
الاسارير فأمازيحها رقيقة وهزلها رشيق مملوء ثقة بريئة وجرأة مقبولة،

وهي شديدة الاطمئنان الى اعجاب الناس بها ، على لطف وذوق وفى غير صلف ، فكان نجاحها نجاحا كبيرا حقا . كان المعجبون بها والمصغنون اليها يحيطون بها وقد امتلات نفوسهم نشوة ، وكانت هي فى تلك الساعة فتاة آسرة ساحرة اكثر من اى وقت مضى ، فما من كلمة تنطق بها الا وتلقف طائرة ، فتنقل بين الناس من واحد الى واحد ، وما من دعايه من دعاباتها الا ويستمتع بها كل فردٍ من افراد الحفل ، وكان أحدا من هؤلاء الناس كان لا يتوقع منها كل هذا الذوق المرفه وكل هذا التأنق الساطع وكل هذه البديهة الحاضرة والقريحة الحصبة والفكاهة الحلوة . ان احسن مزايا هذه المرأة كانت فى الحياة الجارية تختفى وراء نزوات شاذة وبدوات طائشة فما يفتن الى هذه المزايا أحد أو تظل أمرا مشكوكا فيه مختلفا عليه ، لذلك أثار انتصارها فى هذا اليوم دمةً تعبر عن دهشة قوية واعجاب شديد . ولقد وقع حادث أسهم فى نجاحها ، للدور الذى مثله فيه زوج السيدة م . . . . فقد قررت هذه الشيطانة أن تنقض عليه بهجومها لأسباب لا شك أنها كانت تعدها هامة ، فما كان أشد فرحة جمهرة الناس ولا سيما الشباب منهم عند ذلك . أخذت تمطره بوابل من ملح لطيفة وسخريرات لاذعة مفحمة معا ، تصيب هدفها رأساً ولا تدع للخصم مجالا للهروب منها ، كأنها سهام تجهز على الضحية العاجزة بانارة حنقه الشديد وغيظه الفظ .

يخيل الى - دون أن أستطيع القطع بذلك - أن هذا المشهد لم يرتجل ارتجالا بل هبىء سلفا . وكانت هذه المباراة الحامية الوطيس قد بدأت أثناء الغداء . واذا كنت أصف المباراة بأنها كانت حامية الوطيس فلأن السيد م . . . لم يلقى سلاحه ولم يستسلم الا بعد زمن . لقد استجمع كل ما يملك من حضور البديهة حتى لا يُغلب وحتى لا يقع فريسة للضحك عليه والهزاء به . وقد جرت المعركة وسط قهقهات

لا تنقطع تطلق من حناجر المستمعين والمشاركين فلم يبق وضع السيد م ٠٠٠ اليوم على ما كان بالأمس • وحاولت السيدة م ٠٠٠ عدة مرات ان تنسى صديقتها الطائشة التي كانت تريد في اغلب الظن ولا سيما حين جعلت لى دورا فى هذه المسخرة أن تخلع على الزوج الغيور جميع ما عرف عن « بارب بلو » من أصباغ زائفة •

لقد حدث هذا فيجأة على نحو يثير اشد الضحك : لقد اتفق فى تلك اللحظة أن كنت على مرأى من جميع الناس ، كأنما على قصد ، دون أن أفكر فى سوء ، ناسيا جميع ما اتخذت من احتياطات أخيرة ، فها هى ذى تجعلنى على حين بفتة فى المحل الاول من معركتها مع الخصم عدوا للسيد م ٠٠٠ أو غريما له مقتونا بامراته موله القلب بها • وها هى ذى الشقراء الرهيبة تحلف أنها تملك البراهين على ذلك ، وأنها فى هذا الصباح نفسه قد رأت فى الغابة ٠٠٠

لم يتسع الوقت لانهاثها كلامها فسرعان ما قاطعتها فى أخرج لحظة ، وكانت هذه اللحظة مقدرة سلفا ومهيأة لأن تكون هى الخاتمة المضحكة أحسن تهيئة هزليه ، فإذا بانفجار من ضحك لا يغالب يشب تحيةً للكنكة • ورغم أن دورى أنا فى هذه المزحة لم يكن أبشع دور فقد بلنت من الاضطراب والاهتياج والذعر أننى وثبت من خلال صفى المقاعد لاهنا من شعورى بالخجل والعار وتقدمت الى الامام وصحت أخاطب جلاذتى الشقراء بصوت تكسّره دموعى ويقطعه استيائى :

— ألا تستحين ؟ ٠٠٠ تقولين كذبة مشينة كهذه الكذبة ، جهارا ، هنا بحضور جميع هاته السيدات ؟ ٠٠٠ أمام جميع الرجال ٠٠ ماعسامهم يقولون ؟ تتصرفين تصرف طفلة أنت الشخص الكبير ٠٠٠ أنت المرأة المتزوجة ٠٠٠

لم أكن قد أنهيت كلامي بعد حين انطلق التصفيق • لقد أحدث  
ردى هذا موجة عارمة من الصخب • فان برأتى وسذاجتى ودموعى  
وكونى كمن يدافع عن السيدة م ••• قد أطلق ضحكا جهنميا • والحق  
أنى ما زلت الى الآن حين أتذكر هذا الحادث تتابى نوبة من الضحك  
مجنون •

وهرعت أخرج متدلى الرأس مصعوق النفس مخيئا وجهى ، حتى  
لقد قلبت الطبق الذى كان الخادم داخلا به على القوم فسقط من يديه على  
الارض • واسرعت الى غرفتى فاتزعت المفتاح من القفل وجبست نفسى  
داخل الغرفة • وسرعان ما اقبلت طائفة من جميلات النساء تحاصر  
غرفتى فى تلك اللحظة نفسها • كنت أسمع ضحكاتهن الرنانة وزقزقاتهن  
التي تشبه زقزقات طائر السنونو وهن يضرعن الى بصوت واحد أن  
أفتح لهن الباب حالفات أنهن لا يردن بى سوءا ، وأنهن لا يرغبن الا  
فى اغراقى بالقبل • وهل هنالك تهديد أشد هولاً من هذا التهديد !  
لذلك ظللت معتصما بغرفتى دافنا وجهى فى المخدات محترقا من شعورى  
بالعار ، لا أجيب ولا أفتح الباب ولا أحس بشيء ولا أسمع شيئا كما  
يمكن أن يكون صبي فى الحادية عشرة •

ولكن ما العمل الآن ؟ ان كل ما قد حرصت على اخفائه قد انكشف  
وأزيع عنه الحجاب ! لقد غمرت بالعار وتلطنح شرفى الى الابد •••  
الحق أنى لم أكن أستطيع أن أحدد على وجه الدقة ما كنت أخشاه وما  
كنت أود أن أخفيه • غير أن هنالك شيئا ما ، شيئا لا يعرف ولا يُحدد  
كنت أخشاه وأرتعش قلما متى تصورت أن ينكشف • كنت أجهل حتى  
ذلك الحين هل يجب اعتبار ذلك الشيء حسنا أو سيئا ••• هل يجب  
اعتباره مدعاة فخر أو مدعاة خزي ••• هل يجب اعتباره أمرا محمودا

او امرا مدموما . . . . وهانذا اكنشف منذ برهه على الم وعذاب ، ان هذا  
الشيء مضحك ومعيب ، وشعرت فى الوقت نفسه بغيريتى ان حكما  
لهذا الحكم خاطيء غير انسانى ، ولكننى كنت محطما منهسارا ، وكان  
اضطراب كبير يجتاح فكرى ، وكنت عاجزا عن الاعتراض على هذا  
الحكم القاسى ، بل كنت عاجزا عن التفكير اصلا . كل ما هنالك ، اننى  
شعرت بقلبي طلعينا مقروحا فى قسوة ، فكنت اسكب دموع العجز .  
اننى مهتاج النفس اغلى استياءً وغضباً لا عهد لى بمثلها من قبل ، ذلك  
ان هذا الحادث كان اول حزن كبير اصابنى . . . . اقول هذا بغير مبالغه  
. . . . وكان اول طعنة خطيرة نالتنى فى حياتى . لقد جرحوا اول عاطفة  
غامضة بريئة فى الطفل الذى كنته ، وأساءوا الى حياءٍ طاهر جدا ،  
واستخفوا ضاحكين بأول شعور عميق بالجمال . وطبيعى أن هؤلاء  
الهازئين لم يكونوا يعرفون شيئا عن هذه الآلام المبرحة التى قامت فى  
نفسى . ولبت مستلقيا طريح القلق والكرب الشديد يتتابنى حر " وبرد"  
متلاحقان . وكان هنالك سؤالان يعيشان القلق فى روى : ما الذى  
رأته ؟ ما الذى أمكن أن تراه هذه الشقراء الخبيثة الشريرة فى الغابة  
مما يتصل بى وبالسيدة م . . . . ؟ . . . . ثم كيف أستطيع بعد اليوم أن  
أحتمل نظرة السيدة م . . . . دون أن أموت خزيا وكمدا ؟ . . . .

وهذه ضوضاء مفاجئة تقوم فى فناء المنزل فتوقظنى أخيرا من هذه  
الحالة التى كنت فيها شبه غائب عن شعورى ، فنهضت واقتربت من  
النافذة . ان الفناء كله يعج بالركبات والخيول والخدم المنهمكين فى  
العمل . كان واضحا انهم يتهيئون للمرحيل . حتى أن بعض الاشخاص  
كانوا قد امتطوا صهوات جيادهم ، وكان بعضهم الآخر يركب العربات ،  
فتذكرت ، فجأة ، الرحلة التى كانوا قد أزمعوا القيام بها ، فأخذت

ابحث بنظري عن حصاني وقد استبد بي القلق : لم يكن حصاني هناك •  
واذن فقد نسوي • لم اطق أن أصبر مزيدا من الصبر ، فاسرعت أخرج  
من غرفتي ناسيا عاري واللقاات الاليمة التي ستقع لي •

وكان ينتظرنى با رهيب • ان ضيوفا جديدا كانوا قد وصلوا فشنغلوا  
جميع الاماكن واخذوا جميع الجياد • وكان على أن أذعن • وقفت على  
درجات المدخل متلما من هذه المصيبة الجديدة انظر حزينا كئيبا الى  
موكب العربات المتنوعة الكثيرة والى الفرسان الايقين الذين تنواب من  
تحتهم الخيول القوية •

وكان أحد الفرسان قد تاخر ، فهم لا ينتظرون الا وصوله حتى  
يبدأوا السير • كان حصانه يقضم لجامه ويضرب الارض بحافره ويشب  
حدةً وغيظا • وكان هنالك سائسان يمسان أزمة الحصان فى حذر ،  
وكان جميع الحضور يقفون من الحصان على مسافة •

ان حادثا مؤسفا هو الذى يمنى من الرحيل مع الآخرين • فقد  
مرض حصانان أحدهما حصاني • ولم يسىء هذا الى وحدي • فقد  
اتضح أن الرجل الشاب الشاحب كان يعوزه حصان هو أيضا • وقد  
عرض عليه صاحب البيت ، تفاديا للمشاكل ، مهرا جموحا غير مروض  
وأضاف يقول له ابراءً لذمته ان ركوب هذا المهر أمر مستحيل ، وانه  
كان عليه أن يبيعه منذ زمان طويل ، بسبب توحش طبعه ، اذا وجد من  
يقبل شراؤه • فلما سمع الرجل الشاب هذا الكلام أعلن أنه مستمد  
لركوب أى حصان فى سبيل أن يستطيع الاشتراك فى الرحلة ، وانه  
فارس ألف ركوب الخيل • عندئذ لزم رب الدار الصمت • وأظن الآن  
أنتى لمحت على شفتيه عندئذ ابتسامةً ملتبسةً مليئةً بالمكر • وبانتظار هذا  
الفارس الواثق من نفسه المطمئن الى حسن ركوبه الخيل كان صاحب

الدار يفرك يديه احديهما بالاخري نافذ الصبر ، وهو يلقي نظرات في اتجاه الباب • وكان مشاعره كانت تنتقل الى خدم الاصطبل الذين كانوا يشعرون بزهو شديد لانهم سيعرضون على المشاهدين حصانا قادرا على ان يقتل انسانا بغير سبب • فكانت اعينهم المحملقة تنظر هي ايضا نحو الباب الذي سيظهر منه الزائر المتهور ، وتمبر عن معنى المكر نفسه الذي كانت تعبر عنه عينا مولاهم • وكان الحصان نفسه كان يشعر بأن ثمة مؤامرة عليه ، فهو يبدو متكبرا متعجرفا وفحا ، وكأنه يدرك أن عشرات العيون المستطلعة تراقبه ، فهو ( مثله في ذلك مثل الشرير الذي لا سييل الى اصلاح خلقه والذي يعتز بما يقارف من أعمال إجرامية ) يبدو فخورا بسمعته السيئة ، متأهبا لتحدي الجريء الذي سيحاول الاعتداء على استقلاله •

وظهر الشاب الجريء أخيرا يهبط الدرجات وهو يدس يديه في قفازيه مسرعا ، خجلا من تأخره ، ولم يرفع الشاب عينيه الا حين أمسك عرف الحصان ، ولكنه فوجيء بوثة الحصان هائجا حائقا ، وبالناس المدعورين يصيحون به محذرين • فيطيش لبه ويتراجع الى الوراء ويأخذ ينظر مذهولا الى الحصان الذي كان يرتجف كورقة في مهب الريح ويصهل سهيل الفضب مجيلا عينيه المحققنين دما • لقد شب الحصان منتعبا على قائمته كأنه يهم أن يطير في الهواء جارا حارسيه •

وجم الشاب واحمر وجهه ارتباكا ونظر الى السيدات الخائفات ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

— هذا حصان رائع جدا • واضح أن ركوبه لا بد أن يهيء للفارس متعة عظيمة •• ولكن ••• ولكنني لن أركبه •••

كذلك أكد لصاحب الدار وهو يتسم ابتسامة عريضة صريحة  
تناسب وجهه اللطيف الذكي ...

فأجابه صاحب الحصان متهيجا كل الابتهاج مصافحا يد الزائر .  
بحرارة يمازجها عرفان قائلا :

- اننى اعدك مع ذلك فارسا ممتازا ... أقسم لك على ذلك ...  
لأنك ادركت فورا طبيعة الحصان الذى اردت ركوبه ( اضاف ذلك  
برصانة ووقار ) • هل تصدق اننى أنا الذى خدمت فى سلاح الفرسان  
مدة ثلاثة وعشرين عاما قد استقضى هذا الكسلان عن ظهره على الارض  
ثلاث مرات ، أى عدد المرات التى حاولت فيها ركوبه ... يا عزيزى  
تأنكرىد ( اضاف ذلك يخاطب الحصان ) ليس بيننا فارس من مستواك  
هنا • قد يكون فارسك رجلا مثل ايليا مورومس \* يبقى ثلاثين سنة فى  
قريته كسيحا بانتظار أن تفقد جميع أسنانك • هيا أرجعوه الى الاصطبل!  
كفى تخوييفا للناس ! ما كان ينبغى اخراجه •

بذلك ختم رب الدار كلامه وهو يفرك يديه ويبدو على وجهه

الرضى •

يجب أن نذكر هنا أن تأنكرىد الذى يزدرد طعامه عند صاحب  
الدار لم يكن عديم الفائدة له • فلئن فقد هذا الفارس الشيخ بفضله  
ما كان يتمتع به من شهرة الفارس ، لأنه دفع مبلغا ضخما ثمن هذا المهر  
الذى لا يصلح لشيء والذى لعله لم يكن يرضيه فيه الا جماله • • فلقد  
كان سعيدا كل السعادة بأن تأنكرىد عرف كيف يحتفظ بشممه وأنه  
يرعب فارسا جديدا من حين الى حين ، فيحرز بذلك مزيدا من أكاليل  
الغار •



صاحت الشقراء التى كانت تحرص أشد الحرص على صحبة  
فارسها تقول :

- ألا تجيىء اذن ؟ أخائف أنت حقا ؟

فاجاب الشاب :

- نعم •

- أصحيح ما تقول ؟

- اسمعى ! أنت تصرين حقا على أن 'تدق' عنقى ؟

- اذن خذ حصانى •• لا تخش شيئا ، انه طيع جواد ••• لن  
يأخرنا هذا كثيرا ••• سنبادل السرجين فى طرفة عين ••• ساجرب انا  
تاكريد • فليس يمكن أن يكون دائما قليل الكياسة واللباقة الى هذا  
الحد •

وما ان قالت الشقراء ذلك حتى فعلت ، فاذا هى تقفز عن حصانها •

- أنت لا تعرفين تاكريد اذا ظننت أنه سيأذن لك بركوبه ، ثم  
اننى لا أسمح لك بأن تتعرضى لدق عنقك ! انها لخسارة ان تدق  
عنقك •

كذلك قال صاحب الدار باللهجة الخشنة القاطعة التى ألفت  
اصطناعها فلانا أنه يبرهن بذلك على الطيبة التى يتصف بها محارب شهم  
يحب ارضاء النساء •

ذلك هوى من أهوائه الغريبة ، وتلك فكرة من فكره الأبيرة  
معهودة فيه •

قالت الشقراء وقد لمحتنى :

- هيه ! أنت أيها البكّاء ! ما دمت ترفب هذه الرغبة كلهسا فى  
المجىء معنا فهلا حاولت أن تركب هذا الحصان ؟

قالت ذلك وهى تومىء الى تانكريد لتيفلنى وربما لتحقق آخر نصر  
على .

ثم أضافت تقول وهى تلقى نظرة مختلصة على السيدة م . . . التى  
كانت عربتها قريبة كل القرب :

- فأنت طبعا لست مثل . . . أنت بطل شهير . . . أنت تستحق أن  
يستبد بك الهلع .

وحين اقتربت الشقراء الجميلة منا تنوى ركوب تانكريد كان الكره  
والحقد قد اغرق قلبى . . . ولكننى لا أستطيع ان اصف ما شعرت به  
حين ألت بوجهى ذلك التحدى . ان نظرتها الى السيدة م . . . فد اطاشت  
صوابى فاذا بفكرة مفاجئة تنبجس فى رأسى . . . لقد تمّ هذا كله فى  
لحظة واحدة ، لحظة قصيرة ، كأنفجار بارود ، كقطرة طفح بها الكيل .  
ثارت روحى ثورة قوية ، وطميت أن أغلب جميع خصومى دفعة واحدة ،  
أن أثار لئسى منهم جميعا على مرأى من الناس ، لأعلمهم كيف يقدروننى  
حق قدرى . ترى هل حدثت معجزة فى تلك اللحظة فعلمتنى تاريخ  
القرون الوسطى الذى لم أكن أعرف عنه شيئا حتى ذلك الحين ، فاذا  
بفكرى المفلوب رأسا على عقب يعج فجأة بتهاويل الفرسان والمغامرين  
والابطال والحساوات وقرقعات السيوف وصيحات الاعجاب وتصفيق  
الجماهير ، والصرخة الوجلى وسط هذه الضجة كلها تصدر من قلب  
خائف أحب الى النفس المتكبرة من ظفر مجيد . . . الحق أننى أجهل

هل مرت هذه الصور كلها بخيالى حقا ام ان الامر لا يعدو ان يكون  
توجسا لما يوشك ان يقع من حماقات لا مفر منها \* \* \* المهم أن قلبى قد  
وثب من مكانه فاذا انا اقفز من على الدرجات ، وأجدنى أمام تانكر يد  
وجها لوجه ، وأصيح مخاطبا الشقراء بلهجة متكبرة وقحة ، وقد أعمتني  
الحمى وخنقني الانفعال واحترق خدائى وفاضت دموعى :

ـ أتخسبين أنك تخيفيننى ؟ اذن سترين \*

ـ أمسكت عرف الحصان قبل أن يتسع وقت أحد للقيام بأية حركة  
من أجل صدئ عن ذلك ، ووضعت قدمى فى الركاب ، فاذا بالحصان  
يرفع رأسه فى هذه اللحظة نفسها ويشب منتصبا على قائمته ثم يشب وئبة  
جبارة منتزعا نفسه من بين يدى الخادمين المبهوتين المتجمدين ، وينطلق  
طائرا كالاعصار \* ولم يستطع الضيوف الا أن يطلقوا صرخة \*

الله يعلم كيف أمكننى أن أضع القدم الاخرى فى الركاب الثانى  
بينما كان الحصان طائرا ذلك الطيران \* والله يعلم أيضا كيف لم أرخ  
اللجام \* انطلق تانكر يد بى من باب السور وانعطف يمنا واندفع لايحفل  
بالطريق الذى يعدو فيه وسمعت ورائى فى تلك اللحظة صياح خمسين  
صوتا ، فبعث هذا الصياح فى قلبى الخائف القلق من الرضى والزهو  
والعجب ما يجعلنى لا أنسى تلك اللحظة من حياة طفولتى \* لقد ازدحم  
سيل من الدم فى رأسى فأعمانى وخنق خوفى \* كنت خارجا عن طورى \*  
وأحسب أن ذلك كله كان فيه شئ من الفروسية حقا \*

على أن هذا كله لم يستغرق الا لحظة قصيرة \* ولولا ذلك لما أمكن  
انقاذ الفارس \* لقد سبق أن تعلمت ركوب الخيل \* ولكن الحصان  
الذى كنت أركبه يوم تعلمت ركوب الخيل كان أقرب الى الحمل منه

الى الحصان • ولو قد اتسع وقت تانكريد لقلبي عن السرج لسقطت  
حتما • ولكن ما حدث هو ان صخرة كبيرة على حافة الطريق اربعت  
الحصان فجأة • فاستدار على حين بغثة استدارة تبلغ من القوة انى لا  
افهم كيف لم اسقط على الارض مهشم العظام • واسرع تانكريد نحو  
باب السور وهو يهز راسه هذا حائقا ويتواثب وتواثبا جامحا ، كان نمرا  
كان ينشب براته وانيابه فى ظهره ، فلو قد دام الامر لحظة واحدة  
لرماى على الارض • ولكن الفرسان كانوا قد هبوا الى نجدتى ، فبعضهم  
سد طريق الحقل وجاء اخران فاقتربا منى اقترابا بلغ من الالتصاق  
أنهما أوشكا أن يسحقا قدميَّ وهما يضغطان الحصان بين جنبى حصانيهما ،  
واستطاعا أن يستوليا على الزمام •

أزلت عن السرج أصفرَ اللون مشعثَ الوجه مرتجفا كقشة ،  
تماما مثل تانكريد الذى تجمد وهبط بكل جسمه الى الورا حتى لكان  
حافريه قد غاصا فى الارض • وكان زفير من نار يخرج من منخريه •  
انه مضطرب أشد الاضطراب ، لا ينفك عن الارتجاف والارتعاش ،  
كأنما صعقته هذه الاهانة وهذه المسبة اللتين ألحقهما به صبي ، ولم  
يستطع أن يعاقبه عليهما • ومن حولنا كانت تترجع صيحات دهشة وفلق  
وتعجب •

وفى هذه اللحظة بينما كنت أجيل بصرى فيمن حولى التقت نظرتى  
بنظرة السيدة م ••• القلقة الشاحبة • فخفضت عينى وقد احمر وجهى  
احمرارا شديدا كأنما اجتاحنى لهيب قوى فخبجت واضطربت من  
عاطفتى نفسها • ولكن الناس كانوا قد لاحظوا هذه النظرة • كانوا قد  
أدركوها • كانوا قد تلقفوها • كانوا قد سرقوها • فالتفتت جميع الاعين  
نحو السيدة م ••• التى أُخِذَت على حين غرة قاهر وجهها هى الأخرى

وهزتها انفعال قوى برىء على غير ارادة منها ، فكانت تحاول أن تخفي  
احمرار وجهها ببسمة فى شفتيها .

وطبعى ان من يرى هذا المنظر لله من الخارج لا بد ان يضحك  
•• غير ان نزوة ساذجة غير متوقعة قد انقذتني من ضحك الناس كافة ،  
اذ أسبغت على هذه المغامرة كلها لونا خاصا فان تلك المرأة التى كانت  
أصل هذه البليدة كلها اعنى خصمى اللدود ، حسنائى الطاغية ، قد  
أسرعت الى تعانقنى وتقبلى • انها لم تصدق عينيها حين تجرأت فقبلت  
تحديها ورددت على استفزازها لحظة ألفت نظرة على صديقتها • وحين  
طار بى تانكريد كانت أشبه بالميتة خوفا وندامة • وقد انتهى الآن كل  
شئ ، وأدركت هى أيضا نظرتى المجدفة الى السيدة م ••• ولاحظت  
اضطرابى ، ووجد رأسها الرومانسى علة خفية لموقفى فهزتها حركتى  
الفروسية • انها الآن فخورة بى تشدنى الى صدرها منفعة فرحة •  
وها هى ذى ترفع نحو الذين يحيطون بها وجها صغيرا ساذجا متوحشا  
ترتعش فيه دمتان صغيرتان كالبلور ، وتقول بصوت رصين لا عهد لأحد  
به فيها من قبل وهى تشير الى غير متبهة الى اعجاب الذين كانوا يتأملونها  
مفتونين مسحورين :

- لا تضحكوا أيها السادة ! فالامر جد ليس فيه ما يضحك •

هذه الاندفاع السريعة وهذه الهيئة الجادة البريئة وهذه الدموع  
فى العينين الضاحكتين عادة ، هذا كله بلغ من قوة التأثير أن الناس  
أصبحوا من نظرتها وأقوالها الحارة وحركتها الجميلة كمن مستهم  
كهرباء ، فهم الآن يحتضنونها بأبصارهم احتضانا حريصين على أن لا يفوتهم  
شئ من تفاصيل هذا المشهد الملهم • حتى صاحب الدار اعترف فيما بعد

وهو يحمر احمرارا شديدا أنه كاد يقع فى غرام هذه الحسناء حينذاك .  
وطبيعى أنى رقيت بعد ذلك الحادث الى رتبة فارس وبطل .

- دلورج ! توجنبرج ! \*

كذلك ارتفع صياح الاعجاب من حولى • وكانوا يصفقون •  
وأضاف رب الدار يقول :

- أرايتم الى هذا الجيل الجديد ! ...

وصاحت الشقراء :

- سيجىء معنا ! لا بد أن يجيىء معنا ! يجب أن نجد له مكانا • •  
سيجلس الى جانبي •

ولكنها لم تلبث أن تداركت تقول ضاحكة وقد تذكرت اصطدامنا  
الاول :

- لا • • لا • • هذه غلطة • •

ولكنها كانت وهى تضحك تلاعب يدي فى رقة وحنان من قبيل  
الملاطفة •

وصاح الآخرون يقولون :

- طبعا • • طبعا • • يجب أن يجيىء معنا • • لقد استحق مكانه •

وسرعان ما 'دبر' كل شىء • فان العانس التى عرفتنى بالشقراء  
الجميلة وافقت على تلبية طلب الجميع ولا سيما الشبان أن تبقى فى البيت  
لتخلى لى مكانها ، وافقت على ذلك آسفة متحسرة ، وهى تبسم اخفاءً  
لما قام فى نفسها من غيظ مكظوم • وقالت لها صديقتى الجديدة ، أعنى  
عدوتى القديمة ، قالت لها صائحة وهى تعدو على صهوة جوادها الشرس

وتضحك كطفل : انها تحسدها ، انها تقبظها على بقائها في المنزل ، وانها كان يسرها أن تبقى في المنزل لأن المطر سينهمر حتما فيلنا جميعا .

وقد تحففت بئونها ، حتى لقد أخذ المطر يهطل مدرارا فاختفت نزهتنا واضطررنا ان تلبث بضع ساعات في أكواخ الفلاحين ، ثم عدنا الى المنزل في مساء رطب . وكان بي شيء من الحمى . وقد ادھش السيدة م . . . أثناء عودتنا أن رأنتي لا أرئدى الا صدرة بسيطة وان رات عنقي عارية . ولكن وقتي لم يتسع حين الرحيل للاتيان بمعطني . وهاهي ذى ترفع يافة قميعى الى فوق . وتربط طرفيها بدبوس ثم تنضو وشاحها الحريري الارجواني الصغير فتلف به عنقي لتحميني من الزكام ، فعلت ذلك بسرعة عظيمة حتى أن وقتي لم يتسع لأن أشكر لها صنعها .

فلما وصلنا الى البيت والتقيت بها في الصالون الصغير بصحبة صديقتها الشقراء والشاب الشاحب الذي أصبح معروفا بأنه فارس بارع ما دام قد رفض ركوب تانكريد ، مضيت أشكرها وأرد اليها وشاحها ، وكنت بعد كل هذه الاحداث التى وقعت أشعر بضيق ، وأتمنى أن أصعد الى غرفتي ، لأنأمل على مهل ، ولأرى المشاعر التى كانت تزدهم في نفسى بشىء من الوضوح . وقد احمر وجهى على عادتي حين مددت اليها الوشاح .

قال الشاب وهو يضحك :

.. أحلف أنه كان يتمنى أن يحتفظ بالوشاح . ان المرء ليقرأ في عينيه انه آسف لفراقه .

.. تماما .

كذلك أضافت الشقراء ، وقد ظهرت في وجهها حسرة واضحة .

وأخذت تهز رأسها • ولكنها لم تلبث أن سكنت حين نظرت إليها السيدة  
م ••• نظرة رصينة ، لأنها لم تحب استمرار صاحبها فى الهزل •

وابتعدت مسرعا • وأدركنى المرأة الشابة الشقراء فى الغرفة  
المجاورة فتناولت يدي بمودة ومجبة فقالت لى :

- كان فى وسعك أن تحتفظ بالوشاح اذا شئت ! كان يكفى أن  
تقول انك أضعته فینتهى الامر ! انك لم تحسن التصرف يا سخيف •  
ولطمتنى باصبعها على ذقنى لطمة خفيفة • وضحكت بينما احمر  
وجهى احمرارا شديدا • قالت :

- ألسنت صديقتك الآن ؟ لقد انتهى الصراع بيننا •• اتفقنا ؟

فضحكت وضغطت أصابعها الصغيرة دون أن أجيب •

- ما بك ؟ لماذا أنت شاحب ؟ انك ترتعد ••• فهل بك حمى ؟

- نعم ••• انى أحس بأنى مريض قليلا •••

- مسكين أيها الصغير • هذه ثمرة المشاعر العنيفة • هيا ارقد فى

فراشك دون أن تنتظر العشاء ، وغدا يصلح كل شيء • تعال !

قالت ذلك وقادتني الى غرفتى وأحاطتني بما لا حصر له من أنواع

الرعاية والعناية • ثم تركتني لأخلع ثيابي ، وهرعت تجيئني بقليل من

الشاي ، فلما رقدت حملت اليّ غطاء دافئا • تأثرت كثيرا • ودهشت

كثيرا من رعايتها هذه • لعل هذا كان من نتائج ذلك النهار • ولكنى

حين افترقنا عانقتها عناقا شديدا كما يعانق المرء أحب أصدقائه اليه

وأقربهم مودة عنده • وقد كدت أبكى وأنا أشد نفسى اليها من فرط

ازدحام المشاعر الاخيرة فى قلبى المضنى ، فلما لاحظت صديقتى الجديدة



انفعالى ، انفعلت هي أيضا ، وهمست تقول وهي تنظر الى نظرة رقيقة  
عذبة :

- أنت صبي طيب جدا • لا تغضب مني بعد الآن ، أرجوك •••

اتفقنا ؟

والخلاصة أننا أصبحنا منذ ذلك الحين صديقين وفيين يحمل كل  
واحد منا لصاحبه أرق العاطفة •

استيقظت في ساعة مبكرة • ولكن الغرفة كانت منذ تلك الساعة  
المبكرة غارقة في شمس ساطعة • وقد نلت نصيبي من الراحة ،  
واسترددت قوتي وبأسي ، كأن حمى الامس لم تكن ، وشعرت بفرح  
لا يوصف ، ووثبت من السرير • وحين تذكرت حوادث الليلة البارحة  
ترامى لى اننى مستعد لأن أهب كل شيء فى العالم فى سبيل أن أعانق  
أو أن أقبل فى هذه اللحظة صديقتى الجديدة ، شقراءنا الحسنة ، كما  
فعلت بالامس • ولكن جميع من بالمنزل كانوا ما يزالون نياما • فارتديت  
ملابسى بسرعة ، ونزلت الى الحديقة ، ومضيت من هناك الى الغابة  
الصغيرة متسللا عبر المواضع التى كانت فيها الخضرة أكثف ما تكون ،  
وكان فيها عبق الأشجار أحفل بشذى الصنوبر ، وكانت فيها أشعة  
الشمس تتلاعب مرحة فرحة سعيدة باختراق ظلال الاوراق هنا وهناك •  
لقد كان صباحا جميلا •

تسللت هكذا خلال الأشجار شيئا بعد شيء ، حتى وصلت أخيرا  
الى الطرف الآخر من الغابة • ان نهر موسكوبا يجرى على مسافة ما  
يقرب من مائة متر عند أسفل الجبل • ورأيت الحصادين يقطعون الهشيم  
على الضفة المقابلة فتلبثت أنظر الى صفوف المناجل الحادة التى تتلألأ  
ساطعة عند كل حركة من حركات الحصادين ، ثم تخفتى كأنها حيات

من نار تنوارى بين الاعشاب • وكان الهشيم الذى يجد عند جنوره  
يتطاير اكداسا صغيرة كثيفة تصطف بعد ذلك اخايد طويلة • لا ادري  
كم قضيت من الوقت فى تأمل هذا المشهد حين ثبت الى رشدى على حين  
فجأة اذ ابصرت فى الغابة الصغيرة الواقعة على مسافة عشرين خطوة عند  
الفسحة الممتدة بين الطريق الكبير والقصر حصانا يضرب الارض بحوافره  
واقفا فى مكانه نافد الصبر • ترى هل سمعت وصول الفارس أم أن  
الضجة دغدغت أذنى زمنا طويلا دون ان تستطيع انتزاعى من استرسالى  
فى الاحلام ! لا أدري ! ولكننى أعرف أننى شعرت عندئذ بحيرة  
واضطراب ، فدخلت الغابة الصغيرة فسمعت أصواتا صغيرة خافتة • حتى  
إذا أرحت فى رفقٍ أغصان أواخر الشجيرات التى تحف بالفسحة رأيتنى  
أثب متراجعا الى الوراء مصعوبا من الدهشة • لقد رايت ثوبا ابيض  
أعرفه ، وسمعت صوتا عذبا ترجع فى قلبى كألحان الموسيقى • انها  
السيدة م ••• كانت واقفة قرب فارس يكلمها بسرعة من على سهوة  
جواده • وما كان أشد دهشتى حين عرفت فى الفارس السيد ن •••  
الذى تركناه فى صباح أمس على حين غرة ، والذى تحدث عنه السيد  
م ••• لقد قالوا انه سافر الى مكان بعيد جدا ، فلا غرابة اذا دهشت  
أشدّ الدهشة حين رأيته بيننا فى مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح  
منفردا بالسيدة م •••

كانت شديدة الانتعاش قوية الانفعال كما لم أرها على هذه الحال  
من قبل ، وكانت تلمع على خديها دموع وكان الشاب ممسكا يدها يقبلها  
مائلا عليها • لقد وصلت فى لحظة الوداع • كان يبدو عليها التعجل •  
وأخيرا مدّ الرجل الى المرأة الشابة طرفا مختوما سئل من جيبه ثم  
حضرها بذراعه وقبلها قبلة طويلة دون أن ينزل على الارض • وبعد

لحظه ، لكن حصانه لكزة مفاجئة فطار الحصان كالسهم • ظلت السيدة م ••• تشيعة بنظرها الى أن غاب ، ثم اتجهت نحو المنزل مطرقة شاردة اللب حزينة ، وثابت الى رشدها بعد بضع خطوات فأسرعت تزيح شجيرات الأدغال وسارت فى طريق الغاية •

تبعثها مضطربا أشد الاضطراب مصعوقا مما رايت • كان قلبى يخفق خفقانا فويا ، وكنت مشدوها مذهولا ، وكنت على وجه الخصوص حزينا حزنا رهيبا ، ما زلت أتذكر ذلك • ان ثوبها الابيض يظهر لى من حين الى حين خلال الخضرة • وكنت أمشى مسلوب الارادة دون ان أحوّل عنها بصرى رغم خوفى أن تكتشف وجودى • ووصلت أخيرا الى المر الذى يفضى الى الحديقة • وبعد لحظة سرت أنا فى هذا الطريق أيضا ، فما كان أشد دهشتى حين لمحت على الرمل الاحمر الظرف المختوم فمرفته فورا •

التقطت الظرف • انه لا يحمل أية كتابة • وهو ثقيل الوزن يبدو أنه يضم عدة أوراق من أوراق الرسائل •

ماذا يعنى هذا الظرف ؟ لا شك أنه يضم تعليق السر ••• لعله يقص ما كان السيد ن ••• لا يستطيع أن يأمل الافصاح عنه أثناء لقائهما القصير • ان السيد ن ••• لم ينزل عن صهوة حصانه ، فهل تراه كان مستمجلا ، أم تراه كان يخشى أن يفتضح أمره فى ساعة الوداع ؟ ••• الله وحده يعلم ذلك •••

وقفت ورميت الرسالة على الارض ظاهرة للابصار عسى أن تلاحظ السيدة م ••• فقدانها فتعود أدراجها باحثة عنها فتجدها • ولكننى بمد أن انتظرت بضع دقائق دون طائل عدت فتناولت الرسالة

فوضعتها فى جيبي واستأنفت متابعة المرآة الشابه • وادركتها فى الحديقة عند الطريق الذى يحف به صفاى من الاشجار • كانت تمشى بخطى سريره شاردة اللب خافضة العينين • وكنت لا أعرف ماذا يجب على أن أفعل • آقترب منها وأمد اليها الرساله ؟ • لو فعلت ذلك لكان برهانا على أننى أعلم كل شىء ، ولفضحت نفسى منذ أول كلمه • وكيف يمكن أن أنظر اليها عندئذ وكيف يمكن أن تنظر الى ؟ لبثت انتظر عسى أن تثوب الى وعيها فتأخذ تبحث عن الرساله الضائمه فتعود أدراجها ••• أن فى وسعى اذا حدث ذلك أن أسقط الرساله فى الطريق دون أن تلاحظ هى ذلك • ولكن لا ، فها نحن نقرب من المنزل الى حيث نرى مقلبه •••

وكان سكان الدار قد استيقظوا مبكرين فى ذلك اليوم كانما على قصد ، لأنهم بعد اخفاق زحله الامس ينون القيام بنزهة جديدة ، وذلك ماكنت أجهله • ان الجميع يتهبأون للرحيل ويتناولون طعام الافطار على الشرفه • فمن أجل أن لا يرانى أحد مع السيده م ••• تأخرت عشر دقائق ، وقمت بجوله فى الحديقة فوصلت المنزل بعدها بمدة طويله ، فرأيتها قلقة شاحبه الوجه تذهب وتجيء على الشرفه مصالبه ذراعيها على صدرها ، محاوله جهدها أن تتغلب على خوفها الذى كان يلوح مع ذلك فى عينيها ومشيتها وجميع حركاتها • نزلت الدرجات عدة مرات متقدمه فى اتجاه الحديقة عدة خطوات باحثة بنظرة طائسه عن شىء على رمل الممرات وعلى الشرفه • لم يخامرنى أى شك : لقد لاحظت ضياع الرساله فظنت أنها سقطت منها فى مكان قرب المنزل • نعم ! لا ريب أن الامر كذلك ، لا ريب أنها واثقه من ذلك ! وقد لاحظوا شعوبها وقلقها فكانوا يسألونها عن صمتها ، وكانت مضطرة أن تمازح ، وأن تضحك ، وأن تتظاهر بالمرح ، ثم هى تلقى من حين الى حين نظره على

زوجها الذى كان يتحدث عند آخر الشرفة مع سيدتين ، فنتابها رعدة  
ويجتأحها اضطراب ، تماما كما حدث لها مساء وصوله . وقفت بعيدا عن  
الآخرين ، واضعا يدي فى جيبي ممسكا بالظرف ضارعا الى القدر ان  
يلفت انتباه السيدة م . . . الى . . . عسى أن اشجعها ، أن أهدي .  
روعا ، ان اومى اليها بنظرة مختلصة . . . ولكن حين نظرت الى  
مصادفة ارتعشت وحفظت بصرى .

لم يخطئ فلنى فى أنها معذبة . وما زلت أجهل سرها الا ما رأيته  
بنفسى وفصحته على القارى . لعل روايتها تختلف عما قد يفترضه  
المرء لاول وهلة . لعل تلك القبلة كانت قبلة وداع . لعلها كانت المكافاة  
الاخيرة الضعيفة على تضحية ارتضاها المضحى فى سبيل طمانينتها وفى  
سبيل شرفها . لقد سافرن . . . وتركها ربما الى الابد ! وهذه الرسالة  
التي امسكها بيدي : من ذا الذى يعلم ماذا تتضمن ؟ كيف يمكن الحكم  
فى الامر ؟ ومن يحق له ان يدين ؟ لا شك مع ذلك ان انكشاف السر  
على حين فجأة يمكن أن يكون كارثة تنزل بها وصاعقة تصيب حياتها .  
ما زلت ارى وجهها فى تلك اللحظة : يستحيل أن يتألم المرء ألما اقسى  
من هذا الالم ! أى عذاب يمكن أن يساوى عذابها وهى تتوقع ما تتوقع ؟  
أى عذاب يساوى عذابها وهى تحس وتعلم علم اليقين وتنتظر انتظار  
المرء تنفيذ حكم الاعدام فيه أن تلك الرسالة ستلنقط وستفرض ما دام  
الظرف خلوا من أية كتابة ؟ انها الآن تتصور نفسها بين القضاة الذين  
سيحكمون عليها . بعد قليل ستصبح وجوههم الضاحكة الملاطفة مهددة  
متوعدة لا ترحم ! ان فى وسعها أن تقرأ على هذه الوجوه السخرية  
القاسية والاحتقار البارد ، ثم تقضى ليلة لا آخر لها ولا رجاء فيها . . .

صحيح أننى كنت فى ذلك الأوان لا أفهم هذه الأشياء كما أفهمها

اليوم • ولم أكن أستطيع الا أن أخمن وأن أوجس وأن أقلق • ولكن  
أيا كان سرُّ هذه المرأة فإن اللحظات الاليمة التي شهدتها والتي لن  
أساها ما حييت ، تكفّر عن أشياء كثيرة ، اذا كان ثمة ذنب يجب التكفير  
عنه حقا •

وها هي ذى اشارة الرحيل تدوى فرحة • الضيوف يذهبون  
ويجيئون ويتحركون مشرثرين ضاحكين • وبعد قليل ستفرغ الشرفة •  
وأعلنت السيدة م ••• أنها مريضة ، ورفضت الذهاب مع الزاهيين •  
الحمد لله على أنهم كانوا جميعا مستعجلين الرحيل ، فلم يتسع وقت أحد  
منهم لمضايقتها بالقاء الاسئلة واسداء النصائح • قال لها زوجها بضع كلمات  
فأجابته مؤكدة أنه لا داعى الى القلق وان صحتها لن تلبث أن تتحسن  
وأنها ستزل الى الحديقة ••• معى •

ونظرت الى • هذه فرصة • احمر وجهى فرحا • وسرنا معا •

أخذت تسير فى نفس الطرق ونفس الممرات التي سارت فيها عند  
عودتها الى المنزل فى الصباح ، وكانت تحاول أن تتذكر خط المسير الذى  
اتبته ، وكانت تنظر الى أمام محدقة لا تحوّل بصرها عن الارض ، ولا  
تخاطبنى بكلمة ، حتى لكأنها نسيت وجودى •

فلما بلغنا الموضع الذى التقطت فيه الطرف والذى ينتهى عنده  
الطريق ، توقفت وقالت لى بصوت واهن شاحب انها تشعر باعياء وانها  
ستقفل راجعة الى المنزل ، ولكنها ما ان وصلت الى باب السور حتى  
توقفت جامدة تتأمل ، وطافت على شفتيها ابتسامة حزينة ، ثم عادت  
أدراجها مهدودة القوى عازمة مدعنة ، ناسية أن تنبئنى بما عقدت النية  
عليه ، فلم أعرف ماذا أعمل ، وقد مزق القلق قلبى تمزيقا •

ومضينا بل قل اننى قدتها الى المكان الذى سمعت فيه وقع حوافر  
الحصان ، وما دار بينهما من حديث • وكان يوجد على مقربة من شجرة  
ضخمه من اشجار الدردار مقعد مقدود فى صخرة كبيرة يلتف عليها  
البلاب وينبت حولها ياسمين الحقل وزهر النسرين ( كانت هذه  
الغابة تكثر فيها الجسور الصغيرة والمراشش والمفاور وما الى ذلك من  
مفاجات ) جلست السيدة م ••••• والقت نظرة ذاهلة على المنظر الرائع  
الذى يمتد امامنا • فتحت كتابها ، وظلت جامدة لا تقلب الصفحات ولا  
تقرا حتى لتسبه ان تكون فأقده وعيها • بلغت الساعة التاسعة والنصف ،  
وفوق راسنا فى سماء عميقة زرقاء كانت تسطع شمس رائحة كانها  
منصهرة فى لهيها نفسه • والحصادون قد ابتعدوا فلا تكاد تراهم  
الابصار ، وأخايد لا نهاية لها من الهشيم المقطوع تبعهم ، وأبخرة عطرة  
تصل لنا يحملها نسيم خفيف ، ومن حولنا تترجع تلك الموسيقى التى  
لا تنقطع ، موسيقى أولئك الذين « لا يزرعون ولا يحصدون » وانما هم  
طلقاء كالهواء الذى تشقه أجنحتهم الفرحة • ان كل زهرة وكل عشبة  
كانت بعطائها أشداها جميعا كأنها تعلن غيبتها وهناءتها لرب السماء •  
ونظرت الى المرأة المسكينة التى كانت وحدها كالميتة وسط هذه الحياة  
الطافحة الفياضة • ان دمتين كبيرتين نابعتين من قلب حزين تتلألآن على  
أهدابها • وكان فى وسعى أن أنعش وأن أسعد هذا القلب المسكين القلق  
الخائف ، ولكننى لا أدرى كيف أقوم بالخطوة الاولى • كنت أتألم  
وأحترق رغبة فى مخاطبتها ومواجهتها، فكان خدائى يشتعلان كلما هممت  
بذلك •

وفجأة أشرقت فى ذهنى فكرة • لقد وجدت حيلةً فاتعمشت

• نفسى

قلت لها فجأة بلهجة تبالغ من الفرح أن السيدة م . . . رفعت رأسها  
تحوى وحدقت فى :

- سأقطف لك باقة من أزهار . . . هل تريدين ؟  
- اذا شئت !

كذلك أجابت بصوت واهن مع ابتسامة ضعيفة ثم أكبت على كتابها  
من جديد •

صحت وأنا أنطلق فى البرية فرحا :

- ذلك أنه سيقطعون العشب هنا فلن تبقى بعد ذلك أزهار !

وشرعت اعمل فرحا فما هى الا برهة حتى كانت اليافه المتواضعة  
مهيأة • لو فعلت ذلك فى المنزل لكان فعلى فى غير محله ! ولكن ما اشد  
فرحى حين كنت أقطف الازهار ! كنت أنتزع زهر النسرين والياسمين  
البرى وانا فى مكائى • وغير بعيد منى كان ثمة حقل فمخ ناضج •  
كنت أعرف ذلك ، فهرعت أقطف منه أزهارا أخرى أضم اليها سنابل  
طويلة ثقيلة مذهبة • وعلى مقربة من حقل القمح عثرت على نوع آخر  
من الازهار ، فكانت بافتى تضخم • ووقعت بعد ذلك على زهرات زرق  
كانها الجريسات شكلا ، وعلى قرنفلات من قرنفل الحقول ، وجنيت كذلك  
عددا من أزهار صفراء على حافة النهر ، وحين قفلت راجعا آخر الامر  
فدخلت الغابة الصغيرة تناولت منها أوراقا عريضة ساطعة الخضرة ألف  
بها الأزهار • وهنالك عثرت مصادفة على كشة كبيرة من أزهار البنفسج  
الصغير ، وعلى مقربة من ذلك واتانى الحظ فاهتديت الى بنفسجات مدفونة  
فى العشب فضحها شذاها الفواح ، وكانت ما تزال مغطاة بالندى • ربطت  
الباقة بعشب مفتول وأخفيت فى داخلها الرسالة وغطيتها بالأزهار حتى  
لا ترى •



وأحسست فى طريق عودتى الى السيدة م . . . . أن الرسالة ما تزال  
ظاهرة فدفعتها الى داخل الباقة حتى أصبح لا يرى فى الباقة شئ .  
ومضيت الى السيدة م . . . . فقدمت اليها الباقة . كان وجهى ملتعبا  
كالنار ، ووددت لو أدفنه فى يدي وأهرب ، لكنها وقد نسيت أنى مضيت  
لآتيها بأزهار ، مدت يدها بنير شعور دون أن تنظر الى الأزهار ، ووضعته  
على المقعد خافضةً عينيها وكأنها فى غيبوبة .

كاد هذا الاخفاق أن يبكيني . « آمل على الأقل أن لا تنسى  
الازهار ! » كذلك قلت لى وأنا أتمدد على العشب مسندا رأسى الى  
ذراعى اليمنى متظاهرا بالوسن . ولكننى كنت أنظر اليها خلسة وأتظر .  
انقضت عشرة دقائق ، فكنت أرى السيدة م . . . . تزداد شحوبا  
لحظةً بعد لحظة ، وفجأة وقع حادث مبارك أسعفنى :

انها نحلة ذهبية كبيرة قادتها الينا الريح من حسن حظى ، فبعد  
أن دندنت فوق رأسى طارت نحو السيدة م . . . . فهشت السيدة م . . . .  
عليها بيدها . ولكن النحلة ظلت تتحرش بها ، فما كان من السيدة م . . . .  
فى آخر الامر الا أن تناولت باقى وهزتها أمامها ، فاذا بالرسالة تنزلق  
فى هذه اللحظة من بين الأزهار ، فتسقط على الكتاب المفتوح .

انقضت خائفا . ولبثت السيدة م . . . . صمًا من الدهشة برهةً  
من الزمن ، تنظر تارةً الى الرسالة وتارةً الى الأزهار التى فى يدها ،  
وهى لا تصدق عينيها . وفجأة احمر وجهها ونظرت الى . . . . لكننى حين  
لمحت نظرتها أغمضت عيني كما لو كنت نائما . ما كان فى وسعى أن  
أنظر اليها وجها لوجه فى تلك اللحظة بحال من الاحوال ! كان قلبى

يخفق خفقان قطاة بين يدي صبي من صبيان القرية أشعث الشعر  
لا أدري كم لبث على هذه الحال قبل أن أجرؤ على فتح عيني \*

فلما فتحتها أخيرا رأيت السيدة م \*\*\* تقرأ الرسالة محتسرة  
الخددين ملتمة العينين هادئة الوجه ، ترتش كل قسمة من قساماتها  
فرحا \* فقدرت أن الرسالة تحمل الى قلبها السعادة \* لقد تبدد المهام  
كالدخان ، واعتراي أنا احساس مؤلم عذب قبض صدري \* كان يشق  
على نفسي أن أخفي عواطفى \*

لن أنسى فى حياتى تلك اللحظة \* ودوت أصوات تنادى من قريب  
على حين فجأة :

- السيدة م \*\*\* ناتاليا .. ناتاليا \*\*\*

فأسرعت السيدة م \*\*\* تنهض دون أن تجيب واقتربت منى ومالت  
على \* أحسست نظرتها وارتعشت أهدابى ، ولكننى سيطرت على نفسى  
فلم أفتح عيني ، وحاولت أن أتففس بمزيد من الهدوء ، بينما كان قلبى  
يخفق خفقانا شديدا \* ولا مست خدى زفرة " محرقة \* لقد مالت على  
السيدة م \*\*\* مزيدا من الميل كأنما لتمتحننى ، وتساقطت على احدى  
يدى " ، على يدي التى كانت ممدودة فوق صدري ، تساقطت قبلات  
ودموع " \*

- ناتاليا \*\*\* ناتاليا \*\*\* أين أنت ؟

كذلك ارتفع الصياح قربنا \*

- حا \*\*\* لا

كذلك قالت السيدة م \*\*\* بصوتها الغضى المحجج الذى كان يرتعش  
بسبب دموعها والذى كان يبلغ من الخفوت أن أحدا غيرى لم يسمعه \*

وفضحني قلبي أخيرا فأغرق الدم وجهي • وفي تلك اللحظة نفسها  
أحرقت شفتي قبلة حارة عنيفة ، فأطلقت صرخةً ضعيفة ، وفتحت  
عيني • كان هنالك شيءٌ " يمتنى من الرؤيا هو الوشاح الأرجواني  
الصغير مفروشا على وجهي كأنما ليحميني من الشمس ! وما هي الا لحظة  
حتى كانت السيدة م ••• قد غابت فلا أسمع الا وقع خطواتها وهي  
تبتعد • كنت وحيدا ••• أمسكت بالوشاح وأغرقته قبلا وقد اضطرم في  
نفسى فرح شديد • كنت كالمجنون ••• اننى أتنفس بصعوبة ، مستندا  
بيدى الى العشب • ورحت أنظر بعين ذاهلة محسدا في الروابي التي  
تبرقشها الحقول أمامي ، وفي النهر المتلوى الذي يشق طريقه من بعيد  
يغمره الضياء بين الذرى والقرى ، وفي الغابات الزرق التي لا تكاد تراها  
العين والتي تشبه أن تكون دخانا عند حافة السماء المتوهجة • وشيئا  
فشيئا هدأ هذا الصمت العذب الذي توحى به طمأنينة المنظر الرائع ،  
هدأ اضطرابي وسكّن روعى • أصبحت أتنفس بسهولة ، ولكن نفسى  
كلها كانت تفيض أسىً شجيا ممتعا في آن واحد • كانت نفسى تهتز  
بشعور واضح ونبوءة بينة ، وترتشف في انتظار خائف فرح معا وتنبض  
نبض جريح ••• وانبجست من عيني دموع تفيض عذوبة • ودفنت وجهي  
في يدي واستسلمت بلا مقاومة لأول اكتشاف من الهام قلبي ، واستسلمت  
للتنبؤ الغامض بطبيعتى ••• استسلمت لذلك كله وأنا أرتعش ارتعاش  
قشة فى مهب الريح ••• لقد انتهت طفولتى الاولى فى تلك اللحظة •

وحين رجعت الى البيت بعد ساعتين ، لم أجد فيه السيدة م ••• لقد  
سافرت الى موسكو مع زوجها على أثر حادث غير متوقع ، ثم لم أرها بعد  
ذلك أبدا •

# قصة في تسع رسائل

١٨٤٧

« قصة في تسع رسائل »  
( Romane v deviaty pismah )

كتبها دوستوفسكي في ليلة من ليالى  
شهر تشرين الاول ( اكتوبر ) ،  
١٨٤٥ ، ونشرت في مجلة « المعاصر »  
في شهر كانون الثانى (يناير) ١٨٤٧

## من بيتر ايفانوفتش الى ايفان بتروفتش

### السيد المحترم والصديق العزيز ايفان بتروفتش

هأنذا الاحقك منذ ثلاثة أيام ، يا صديقى العزيز جدا ، لحاجتى الى التحدث اليك فى أمر هام ، ثم لا أقع لك على أثر فى أى مكان • بالامس كنا فى زيارة عند سيميون الكسيثس ، فقالت زوجتى فى حقك نكتة فكهة ، اذ شبهتكما أنت وزوجتك تانيا بتروفنا ، بأسرة من اليهود الضارين فى الارض ، فانه ما انقضى على زواجكما ثلاثة أشهر ، وهاتما تهملان منزلكما فلا تكادان تمكثان فيه • لقدضحكنا كثيرا ، ولكن على مودة لكما طبعا • ولكننى أقول لك جادا يا صديقى العزيز ان أمرى يقلقنى كثيرا • قال لى سيميون الكسيثس : لعله فى الحفلة الراقصة بنادى « الجمعية المتحدة» • فتركت زوجتى عند سيميون الكسيثس وطرت الى النادى • ان فى الأمر ما يضحك ويبكى فى آن واحد • تصور وضعى : لقد ذهبت الى النادى وحدى غير مصطلح زوجتى • وهذا ايفان آندريتش يلقانى فى الدهليز ، فما ان يربنى وحيدا حتى يستتج من ذلك - ياله من شقى !- أننى

أحب حفلات الرقص حبا جارفا • فيمكنني من ابطي محاولا أن يقودني  
الى أحد المراقص ، قائلا ان « الجمعية المتحدة » لا مكان فيها لرقص ، وان  
رائحة العطر قد صدعت رأسه • لم أجدكما لا أنت ولا تاتيانا بتروفنا •  
ويحلف لي ايفان أندريتش أنكما ذهبتما الى مسرح ألكسندريسكى  
لمشاهدة تمثيلية « شقاء العاقل بعقله » \* •

وطرت الى هنالك • فلم أجدكما أيضا • وقدرت في هذا الصباح أن  
ألقاكما عند تشستوجانوف • فخاب ظني مرة أخرى • ويرسلني  
تشستوجانوف الى بريالكين ، فما عثرت لكما على أثر كذلك • الخلاصة  
أن البحث عنكما قد أرهقني • لذلك أكتب اليك ، فما من سبيل آخر •  
وليست القضية قضية أدب مع ذلك ( أنت تفهمني ! ) • ان من المستحسن  
أن تتصارع بوضوح وبأقصى سرعة ممكنة • من أجل هنا أرجوك أن  
تجئ الى مع تاتيانا بتروفنا لتناول الشاي • ولسوف تسر عزيزتي آنا  
ميخايلوفنا بزيارتكما سرورا عظيما • وبالمناسبة ، يا صديقي العزيز جدا ،  
فانتى أحب ، ما دمت أكتب اليك ، أن أذكرك بشئ • اننى مضطر أن  
أعتب عليك قليلا يا صديقي المحترم • لقد دبرت لي مزحة طائشة بمض  
الطيش ••• أيها الشيطان ! فى حوالى منتصف الشهر الماضى جئتنى بأحد  
أصدقائك ، أو جين نيقولايتش ، وزكيتة لي بكثير من الحرارة ، وتلك  
عندى أقدس تزكية ، فأبهجنى كثيرا أن أسرك ، ففتحت لصديقك ذراعى  
وبيتى • ولكننى لم أكن أعلم ما معنى أن يوضع جبل فى عنقى ••• يا لها  
من قضية جميلة ! لا يتسع وقتى الآن لأن أشرح لك الأمر كله ، وهذه  
على كل حال أمور لا تكتب فى رسالة • ولكننى أرجوك ، يا صديقي  
الخييب ، أن توحى الى صديقك الشاب ، بلباقة ونعومة ، كأنك تذكر  
الأمر عرضا ، كأنك تمر به مرورا عابرا ، أن توحى اليه ، همسا فى الأذن ،

وشوشة ناعمة ، أن فى العاصمة بيوتا أخرى كثيرة غير بيتى • لقد طفح الكيل يا عزيزى ! اننى أركم لك ضارعا يا عزيزى ، على حد تعبير صديقنا سيمونيفتشس ••• ليس معنى هذا أن الفتى قليل الأدب ، كثير العيوب ، لا ••• انه شاب لطيف محبب • ولكننى سأشرح لك الأمر حين نلتقى فنستطيع الكلام • وبانتظار ذلك ، أتوسل اليك ، يا عزيزى المحترم ، اذا أنت رأيته ، أن تهمس فى أذنه أن ••• أنت تعلم ماذا ، يا صديقى المحترم جدا • كان يمكننى أن أتولى ذلك بنفسى ، ولكنك تعرف طبعى : لم أستطع أن أعزم أمرى ••• ثم انك أنت من قدمه الى • على كل حال سأشرح لك التفاسيل هذا المساء • والآن ، الى اللقاء • وأظن ••• الترخ •

حاشية : ابنى الصغير مريض منذ ثمانية أيام ، وحالته تسوء مزيدا من السوء • ان أسنانه تنبت • زوجتى لا تتركه لحظة • وهى حزينة • تعال اذن • سيسرنا مجيئك كثيرا يا صديقى العزيز جدا •

٢

من ايفان بتروفتشس الى بيتر ايفانوفتشس

السيد المحترم جدا بيتر ايفانوفتشس

تلقيت رسالتك أمس ، فقرأتها فدهشت أشد الدهشة • لقد بحثت عنى يعلم الله أين ، بينما كنت أنا فى بيتى منتظرا ايفان ايفانوفتشس تولوجونوف حتى الساعة العاشرة من المساء • ما ان وصلت رسالتك حتى ركبنا عربة أنا وزوجتى ، باذلين فى ذلك مالا كثيرا ، فوصلنا اليكم فى نحو



الساعة السادسة والنصف • لم تكن فى بيتك • استقبلتني زوجتك •  
انتظرتك حتى العاشرة والنصف • ثم مضيت مع زوجتى ، فاستأجرت  
عربة ، باذلا مالا جديدا • أوصلت زوجتى الى البيت ، ومضيت الى منزل  
بيربالكين آملا أن أجده هناك • ولكن خاب ظنى • عدت الى بيتى ؛ لم  
أستطع أن أغمض جفنى طول الليل ، من شدة القلق • وفى صباح الغد  
طرقت بابك ثلاث مرات ، فى الساعة التاسعة ، ثم فى الساعة العاشرة ، ثم  
فى الساعة الحادية الحادية عشرة • دفعت أجر ثلاث عربات •

حين قرأت رسالتك كان من حقى أن أدهش • انك تحدثنى عن  
أوجين نيكولايتش ، وتطلب منى أن أوحى اليه ••• ولكنك لا تذكر  
شيئا عن الأسباب • اننى أحبذ حذرك ، ولكن ليس كل الورق سواء ،  
وما أنا بالرجل الذى يعطى زوجته أوراقا لتستعملها فى شأن من شئون  
المنزل • اننى لا أفهم معنى رسالتك • ثم لماذا تفحمنى فى هذا الأمر ؟  
اننى لا أحشر أنفى فى كل شأن من الشئون • كان فى وسعك أن توصل  
دونه بابك • يجب أن تتصارع تصارحا حاسما • اننى لا أملك من الوقت  
ما أضيعه سدى • أضف الى ذلك أننى فى ضيق ، ولا أدرى ماذا يمكن  
أن أضطر اليه اذا أهملت التزام الشروط التى اتفقنا عليها • ليست الرحلة  
طويلة • ولكنها تكلف نفقات كثيرة • زوجتى تشكو : انها تريد معطفا  
من المخمل على الموضة •

أما عن أوجين نيكولايتش ، فاننى أسارع فأبلغك أننى سألت عنه  
بافل سيميتش بيربالكين ، فعرفت أنه يملك خمسمائة نفس \* فى اقليم  
ياروسلاف ، وأنه سيرث عن جدته ثلاثمائة نفس أخرى • لا أعرف مقدار  
ثروته على وجه الدقة • أقدر أنك تعرفه • أرجوك أن تحدد لى موعدا

ثابتا • لقد التقيت أمس بايفان أندريتشس فزعم لك أنني كنت مع زوجتي  
في مسرح الكسندرسكى • كذب ! •••  
يشرفنى أن •••

حاسية : امرأتى حامل • انها عصبية ، وهى فى بعض الأحيان  
سوداوية • يتفق أحيانا أن تطلق على المسرح طلقات بندقية ، أو أن  
تسمع أصوات رعود مصطنعة ، لذلك أحاذر أن آخذها الى المسرح حتى  
لا تجزع • لعلك تدرك ذلك • ثم اننى لست من هواة المسارح على كل  
حال •

### ٣

من بيتر ايفانوفتشس الى ايفان بتروفتشس

صديقى المحترم جدا ايفان بتروفتشس !

أعتذر ثم أعتذر ثم أعتذر ألف مرة • ولكننى أبادر فأبرىء نفسى •  
أمس ، فى نحو الساعة السادسة ، كنا بصدد الحديث عنك (بمجة ومودة) ،  
فاذا برسول من عمى ستيفان ألكسيثش يصل مسرعا ليلفنا أن عمى فى  
حالة سيئة • فمن أجل أن لأرعب زوجتى أسرعرت أذهب الى عمى دون  
أن أقول شيئا • فوجدت عمى لا تكاد تنفس ، على أثر سكتة أصابتها  
فى الساعة الخامسة تماما ، وهى نالت سكتة تصاب بها فى غضون سنتين •  
وقد مسرح كارل فيدورثش ، طيب الأسرة ، أنها قد تموت فى تلك الليلة  
نفسها • فانظر أيها الصديق العزيز جدا كيف صار حالى • قضيت الليل

كله واقفا قلقا ينهش الحزن قلبى • وفى الصبح ، وقد هدنى التعب هبما  
وتحطمت جسما وروحا ، تمددت على ديوان ، دون ان يخطر ببالى ان  
أبول لاحد ان يوقظنى فى ساعة مبكرة من الضحى ، فاذا انا اظلم نائما  
حتى الساعة الحادية عشرة والنصف • كانت عمى قد تحسنت حالها •  
فذهبت الى زوجتى • مسكينة ا كانت يائسة من رؤيتى • تناولت لقمة  
طعام عجلا ، وقبلت ابنى ، وطمانت زوجتى ، وخففت اليك : لاأحد ••  
الا أوجين نيكولايتش • عدت الى بيتى ، وتناولت القلم ، وأخذت أكتب  
اليك هذه الرسالة التى بين يديك • لا تزعل منى يا صديقى العزيز •  
عدنى مذنباً ، ولكن لا تحقد على • أخبرتتى زوجتك أنك لا بد أن تذهب  
فى هذا المساء الى أسرة سلافيانوف • سأكون هنالك قطعاً • وسأنتظر  
نافد الصبر • وأظلم ••• الخ •

حاشية : ابنا الصغير يحزننا كثيرا • لقد وصف له كارل فيدورثش  
دواء • انه يشن ويتأوه • وظل طوال نهار أمس لا يعرفنا • بدأ اليوم  
يسترد وعيه ، ولكنه لا ينقطع عن الدمدمة : بابا ••• ماما ••• بيو •••  
قضت امرأتى الصباح كله غارقة فى دموعها •

## ٤

من ايفان بتروفتش الى بيتر ايفانوفتش

السيد المحترم جدا بيتر ايفانوفتش ••

أكتب اليك من منزلك ، فى غرفتك ، على مكتبك • أنا فى انتظارك  
منذ ساعتين ونصف • اسمح لى أن أعلن بصراحة ، يا بطرس ايفانوفتش ،  
رأى فى مسلكك • من رسالتك الأخيرة استنتجت أن أسرة سلافيانوف

كانت تنتظرك وقد دعوتنى ان اجىء الى هناك ، فجئت ، ولبت خمس ساعات ، ثم لم تظهر . . . انا مهرج ؟ قل لى . . لا . . لا . . اسمح لى يا سيد . . . وجئت اليك فى الصباح املا ان اجدك ، لم افعل كما يفعل « بعضهم » حين يبحثون عن الناس لا يدرى الا الله اين ، بدلا من ان يجيئوا الى بيوتهم فى ساعة مناسبة . لم تكن فى بيتك . لا أدرى ما الذى يمنى ان اقول لك حقائقك كلها . انك تسوف وتماطل فى تنفيذ بعض ما اتفقنا عليه ، ولا استطيع بعد تقليب الامر على وجوهه المختلفة الا ان الاحظ ان فيك ميلا خارقا الى المكر والحيلة . انى ارى اليوم هذه الحقيقة واضحة : لقد برعت فى احكام الحيلة . وحسى برهانا على ذلك ما يلى : فى الاسبوع الماضى استرددت منى استردادا غير مشروع الرسالة التى تعترف فيها ، ولو اعترافا غامضا جدا ولا شك ، بما تم الاتفاق عليه بيننا فيما يتصل بظروف تعلمها انت حق العلم . انك تخشى الادلة فتزيلها . ولكننى لا اسمح لك ان تعدنى غيا أحقق . وأنا ما زلت اعد نفسى كذلك ، والناس جميعا من رأى . انى أفتح عينى . انك تريد ان تنهرب من الموضوع بحكاية أوجين نيكولايتش تلك ، فاذا حاولت أن ألقاك ، بدعوة منك أنت ، حددت لى مواعيد كاذبة واختفيت . أترارك تأمل أن أمل وأكل آخر الأمر ؟ لقد أردت أن تكون لك على منة تقديم خدمات لم تنسها اذ زكيتنى لعدد من الأشخاص ، وعندئذ أدخلت الأمور بعضها فى بعض وعقستها حتى بلغت هدفك فاقترضت منى مبالغ طائلة دون أن تعطينى وثيقة باقتراضها . . . ذلك منذ ثمانية أيام . . . ثم اختفيت عن الأبصار فما يقع أحد لك على أثر . أترارك تعول على أننى مسافر قريبا الى سمبرسك ! أترارك تقدر أن تظل تنهرب الى أن يحين موعد سفرى ، فأسافر قبل أن تنتهى الى حل ؟ ألا فاعلم اذن . أقول لك جهارا وأقطع على نفسى عهدا - أننى مستعد أن أبقى فى

بترسبرج شهرين آخرين ٠٠٠ ولكننى ساعثر عليك ٠٠٠ اقسام لاعثرن عليك • اختتم رسالتى هذه مبلغا اياك انى ، اذا لم تلب مطلبى فى هذا اليوم ، كتابه اول الامر ، وحديثا بينى وبينك بعد ذلك ، اذا لم تذكر فى رسالتك الشروط الرئيسيه التى اتفقنا عليها ، واذا لم تشرح لى مافى ذهنك من خواطر بصدد أوجين نيكولايتش ، فسأضطر الى اتخاذ اجراءات ستسوؤك كثيرا ، ولست أحبها أنا أيضا ٠٠٠

واسمح لى أن أظل ٠٠ الخ ٠٠٠



### من بيتر ايفانوفتش الى ايفان بتروفتش

١١ تشرين الثانى ( نوفمبر )

#### صديقى العزيز جدا المحترم جدا ايفان بتروفتش !

لقد أحزنتنى رسالتك حزنا عميقا • ألا تستحى ، يا صديقى العزيز الظالم ، أن تتصرف هذا التصرف مع انسان هو أخلص الناس لك ، متعجلا هذا التعجل ، لا تشرح الاسباب ، ولا تخشى أن تجرح كرامتى ؟ ولكننى أبادر فأرد على اتهاماتك • واذا كنت لم تجدنى بالأمس ، يا ايفان بتروفتش ، فلأننى نوديت فجأة الى بيت عمى التى كانت تحتضر • ولقد ماتت فى الساعة الحادية عشرة والنصف من الليلة البارحة • وأجمع الرأى على اختيارى لترؤس الاحتفال بالجنائز • فلم أستطع من كثرة العمل لا أن أراك فى هذا الصباح ولا أن أكتب اليك سطرا • وانه ليؤسفنى حقا أن يقع بيننا سوء التفاهم هذا • أما ماقلته عن أوجين نيكولايتش عرضا على

سبيل المزاح فقد بالغتَ كثيرا في الاهتمام به • فليست المسألة على هذا القدر من خطورة الشأن • وتحدث عن المال وعن القلق الذي لعله يساورك بصدده • ولكنني مستعد لأن ألبى رغباتك العظيمة • ولأقل عابراً أن الثلاثمائة روبل التي أخذتها منك في الأسبوع الأخير ليست من باب الاقتراض ، يجب أن أذكرك بهذا ، ولو كانت قرصاً لوقعت لك ايصالاً من غير شك • أما الأمور الأخرى التي جئت على ذكرها في رسالتك فلا أحب أن أسفّ إلى حيث أناقشها أو أرد عليها • وما ذلك كله الا سوء تفاهم مرده الى سلوكك المألوف وتصرفك المعتاد ، والى صراحتك الطبيعية أيضا • أنا أعلم أن طبيعتك المنطلق لا يطبق أى تردد ، ولسوف تكون البادىء بمدّ يدك الىّ •

لقد أخطأت يا ايفان بتروفتش ، أخطأت خطأ فادحاً •

اننى مستعد لأن أجيء اليك معتذراً رغم أنك جرحتنى • ولكن المتاعب والهموم قد بلغت من ارهاقي منذ أمس اننى أكاد أموت تعباً ، ولا أكاد أستطيع الوقوف على قدمي • ومما زاد شقائي أن زوجتي مريضة راقدة في سريرها • اننى أخشى أن يكون مرضها خطيراً • أما صغيري فقد تحسنت صحته ولله الحمد •

ولكننى أدع الآن القلم • ان الاعمال تناديني وهى كثيرة •• واسمح لى يا صديقى العزيز جدا أن أظل ••• الخ •••

## من ايفان بتروفتش الى بيتر ايفانوفتش

١٤ تشرين الثاني ( نوفمبر )

السيد المحترم بيتر ايفانوفتش !

صبرت ثلاثة أيام ، محاولا ان انتفع بهذا الوقت • لكننى ، وأنا أحس أن اللطف والآدب والوداعة هى أولى واجبات الانسان المتمدن ، تحاشيت منذ رسالتى التى بعثتها اليك فى اليوم العاشر من هذا الشهر ، أن أذكرك بنفسى ، أولا لأدع لك الوقت اللازم للقيام بواجباتك المسيحية تجاه المرحومة عمتك ، وثانيا لانصرافى الى بعض التأملات والتحريرات بصدد قضية ملحة مستعجلة • وهأنذا أصارحك الآن مصارحة حاسمة •

أعترف لك بلا موارد ولا مخاللة أننى عند قراءتى رسالتيك الأوليين ظننت أنك لم تفهم نياتى ، لذلك حاولت أن أراك لأشرح لك الأمر صراحة • قلت لنفسى : ان القلم خداع ، فلعل تعبيرى كان غامضا ، فأخطأت فهمه • أنت لا تجهل أننى امرؤ لا يجيد تكلف الآداب ، وأننى أتجنب التظاهر الأجوف والتصنع الكاذب • لقد علمتلى تجربة طويلة أن المظهر يضلل ، وأن الأسمى كثيرا ما تختبئ تحت الازهار • ولكنك فهمتلى فى حقيقة الأمر ، ولئن لم تحب بما كان ينبغى أن تجيب به ، فلقد كان ذلك منك نفاقا ورياء ، لأنك قد صممت سلفا على أن لا تفى بعهد الشرف الذى قطعته على نفسك ، ولو أدى ذلك الى قطع علاقات الصداقة بيننا • ولقد برهنت على هذا بسلوكك المشين معى ، وهو سلوك يسىء الى مصالحى وما كنت لأتوقمه منك قط • كنت لا أريد أن أصدق هذا ، الى أن جاء اليوم الذى نحن فيه ، ذلك أننى ، وقد فتنت عن حقيقة

علاقتنا فى أول الامر بمظاهرك الرقيقة وحديثك الأنيق وحسن فهمك للأعمال والمصالح ، كنت أظنك صديقا وكنت أعدك رفيقا حقا • ولكننى أدرك الآن أن كثيرا من الناس يخفون وراء مظاهر الادب الكاذب المناق والمرائى ، صفات رديئة وخصالا مسمومة ، فهم يستعملون كل ذكائهم فى ايقاع أكبر أذى فى الآخرين • انهم يخشون الورق والقلم ، ويضرون بمن يتعاقدون معهم بدلا من أن يسعوا الى نفع الوطن ونفع أقرانهم •

ان سوء نيتك يتضح ، أيها السيد ، من الوقائع الدامغة •

فأولا ، بينما كنت أصف لك وضعى بلغة واضحة دقيقة ، أيها السيد ، وبينما كنت أسألك عن معنى غمزاتك فيما يتعلق بأوجين نيكولايتش ، لزمتم أنت الصمت ، وتهربت من كل ايضاح ، مضيغا الى ذلك اغافلتى واحناقى بشكوك مسيئة وشبهات مهينة •

وبعد لجوثك الى وسائل من هذا القليل لا يحصى عددها ، كتبت تقول لى ان ذلك كله يحزنك • وأخيرا ، بينما كانت الدقائق والثوانى ثمينة عندى الى أقصى حد ، سادك أن أمضى باحنا عنك فى كل مكان بالعاصمة ، وأخذت تكتب الىّ ، تحت ستار الصداقة ، رسائل تهرب فيها عامدا من الكلام فى موضوعنا ، وتروح تثرثر تضليلا فى كل أمر من الأمور ، متحدثا عن مرض زوجتك الغالية ، وعن اهتمام الطبيب بمعالجة ابنك الذى تئبت أسنانه ، مصرا على العودة الى هذه التفاصيل فى كل رسالة من رسائلك اصرارا لا حياء فيه •

طبعا ، أنا أسلّم بأن آلام الابن تؤلم قلب الأب • ولكن فىم التحدث عن هذه الأمور ، بينما هنالك أمر أخطر شأننا وأهم منزلة يجب أن تكتب الىّ فيه ؟ وكنت أصمت ، وكنت أنتظر • أما وقد انقضى الوقت فإن واجبى يقضى علىّ أن أشرح ما بنفسى • وأخيرا فانك وقد عبثت بى اذ



حددت لى مواعيد كاذبة عدة مرات ، قد جعلت منى مهرجا لك ودمية بين  
يديك . وذلك ما أرجو أن تعتقد أننى لا أرتضيه قط .

لقد حددت المواعيد واحدا تلو اخر ، ثم لم تف بأى موعد منها ،  
متعللا بالسكته التى أصيبت بها عمك ، متخذا منها ذريعة لم تستح أن  
تسب استعمالها . وقد علمت أثناء هذه الأيام الثلاثة أن عمك قد أصيبت  
بالسكته فى مساء اليوم السابع من الشهر ، قيل منتصف الليل ، واذن فانت  
لم تتورع عن تدنيس العلاقات العائلية باتخاذها ذريعة لمخادعة غريب ا  
هذا وان عمك لم تمت فى الوقت الذى ذكرته كذبا بغير حياء ، بل ماتت  
بعده بأربع وعشرين ساعة .

ولو شئت أن أحصى مخادعاتك لما فرغت من احصائها. وأنت تسمينى  
صديقك العزيز ! بغية ان تخدعنى ما فى ذلك ريب .

وأصل الآن الى مخادعتك الكبرى ، الى هذا السكوت العنيد عما  
يتصل بمصالحنا المشتركة ، الى سرقتك المشينة للمرسالة التى كنت قد  
شرحت فيها ، ولو شرحا غامضا جدا ، ما تم الاتفاق عليه بيننا بشأن ذلك  
القرض الذى أكرهتنى عليه ومقداره ثلاثمائة وخمسون روبلا أخذتها منى  
بغير ايصال ؛ وكذلك الى تلك الوشايات والنمايم التى تديمها فى الناس  
عن صديقنا المشترك أوجين نيكولايتش . واضح أنك أردت أن توهمنى  
أنه امرؤ لا يمكن الحصول منه على شيء ، وأنه من هذه الناحية لا خير  
فيه البتة . ولكننى أعرف أوجين نيكولايتش ، وأعده شابا جم التواضع  
ممتاز السلوك ، يستحق الاحترام الشامل . أنا أعرف أنك كنت فى كل  
مساء ، خلال خمسة عشر يوما ، تبيع منه عشرات الروبلات بل ومائة  
روبل أحيانا فى المقامرة بالورق . وأنت اليوم تنكر هذا كله ، ثم لاتكتفى  
بنسيان العناء الذى لقيته من أجلك ، بل تشتصب أيضا مالى ، مضللا اياى

بعود مقاسمتى الارباح ، معنيا نفسك من الاعتراف بفضلى ، لا يمنك  
عن هذا حرص على الاستقامة والوفاء ، بل تعمد الى الكذب والافتراء  
أيضا لتقده فى اسنان أدخلته منزلك ؛ مع أنك تزعم أنت نفسك أنه أول  
أصدقائك وأنتك تحله بينهم فى منزلة الصدارة ، رغم وضوح نياتك ،  
ورغم أن كل انسان يعرف ما قيمة صداقتك !

أختم الآن رسالتى ، معتقدا أن هذه الشروح كافية • واليك  
الخلاصة : اذا وصلتك رسالتى هذه ، فلم تبادر على الفور الى دفع  
الثلاثمائة وخمسين روبلا ، بالإضافة الى المبالغ الاخرى التى هى من حقى  
باعترافك وعودك ، فسألجا الى جميع الوسائل الممكنة التى تكفل استرداد  
مالى ، ولو اضطررت أن أعمد فى سبيل ذلك الى القوة • وأنا أعلن لك  
أننى أملك وثائق يستطيع خادمك المطيع أن يستعملها فيلحق باسمك  
ضرا بالنا وأذى لا دواء له ولا بره منه •

واسمح لى أن أبقى ... الخ ••



من بيترو ايفانوفتش الى ايفان بتروفتش

١٥ تشرين الثانى (نوفمبر)

ايفان بتروفتش !

حين قرأت رسالتك الغريبة التى لا تصدر الا عن فلاح ، خطر  
بألى أول الأمر أن أمزقها اربا اربا • ولكننى قررت بعدئذ أن أحفظ بها

من باب الطرافة • ثم اننى آسف أسفا صادقا لما وقع بيننا من سوء التفاهم •  
وقد أردت أن لا أرد على رسالتك ، ولكن الضرورة تجبرنى أن أفعل •  
يجب أن أصرح لك انه سيسوءنى جدا أن أراك بعد اليوم فى منزلى •  
وان امرأتى تشاركنى هذا الشعور : فصحتها مضطربة ، ورائحة القار  
تصعب رثتها • وهى ترد الى زوجتك الكتب التى أعارتها اياها : « دون  
كيتشوت دو لامانش » ، مع أجزل الشكر • أما حذاءك ( الكاوتشوك )  
فيؤسفنى أن أقول لك اننا لم نثر عليهما فى أى مكان • لقد بحثنا عنهما  
طويلا فلم نجدهما • سأشتري لك حذاءين عوضا عنهما •

ومن جهة أخرى ، يشرفنى أن •• الخ ••



( فى اليوم السادس عشر من شهر تشرين الثانى - نوفمبر - تلقى  
بيتر ايغانوفتشس بالبريد رسالتين • فلما فض الطرف الاول وجد فيه بطاقة  
مطوية عدة طيات ، من ورق وردى اللون طرى ، مكتوبة بخط زوجته ،  
موجهة الى أوجين نيكولايتشس ، مؤرخة فى ٢ تشرين الثانى • والطرف  
لا يضم شيئا غير تلك البطاقة • وها هو ذا يقرأ البطاقة ) •

« عزيزى أوجين • لم أستطع أمس • ان زوجى لم يغادر البيت طول  
السهرة • تعال غدا فى الساعة الحادية عشرة تماما • زوجى مسافر الى  
تسارسكوى فى العاشرة والنصف ، ولن يعود قبل منتصف الليل • ظللت  
مقابلة حائقة الليل كله • أشكر لك ما تزودنى به من حكايات وما تبعته  
الى من رسائل • ما أكثرها قراطيس ! أهى التى تكتب اذن كل هذا ؟

الكتابة جميلة الاسلوب على كل حال • شكرا • أرى أنك تحبني •  
لا تزعل بسبب الليلة البارحة • وتعال ناشدتك الله ! »

• آ •

( ويفض بيتر ايفانوفتش الطرف الثاني ، فيقرأ : )

بيتر ايفانوفتش !

ما كان لى ، من تلقاء نفسى ، أن أضع قدمى فى بيتك • لقد كان من  
غير المفيد تسويد كل تلك الصفحات من الورق فى سبيل ذلك •  
سأسافر فى الاسبوع المقبل الى سميرسك • ويبقى لك صديقك  
العزیز جدا ، المحترم جدا ، أوجين نيكولايتش • أتمنى لك السعادة !  
أما عن حذامى ، فذع عنك هذا الهم •

٩

( فى اليوم السابع عشر من شهر تشرين الثانى - نوفمبر - تلقى  
ايفان بتروفتش بالبريد رسالتين • فلما فاض الاولى أخرج منها بطاقة  
مكتوبة على عجل • الكتابة بخط زوجته ، والرسالة موجهة الى أوجين  
نيكولايتش ، مؤرخة فى ٤ آب - أغسطس - • ولا يضم الطرف شيئا آخر  
غير تلك الرسالة • ويقرأ ايفان : )

وداعا يا أوجين نيكولايتش ، وداعا ! أسأل الله أن يعوضك خيرا •  
كن سعيدا • أما أنا فحظى رهيب • لتكن مشيئة الرب • لولا عمتى لكنت  
كلى لك • لا تضحك منى ولا من عمتى • سأزوج غدا • لقد سرَّ عمتى

كثيرا أن 'وجد شاب طيب يقبل أن يتزوجني بلا مهر أقدمه • لقد  
أنعمت النظر اليه اليوم أول مرة • يبدو لي أنه انسان طيب القلب • انهم  
يستعجلوننى • وداعا وداعا يا حبيبي الغالى ! تذكرنى ••• تذكر من لن  
تسالك مدى الحياة • وداعا • هأنذا أوقع رسالتى هذه كما وقعت رسالتى  
الأولى •• هل تتذكر ؟

### ثانياً

( وفى الرسالة الثانية يجد ايفان بتروفتش ما يلى : )

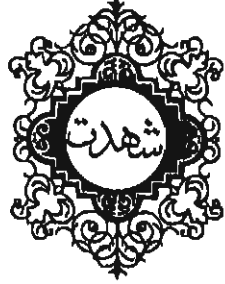
ايفان بتروفتش ! غدا يصلك حذاءان جديدان ( من المطاط ) ليس  
من عادتى أن آخذ من جيوب الآخرين أى شىء ؛ لا ولا أريد أن ألمّ  
من الشوارع أوراقا بالية •

يسافر أوجين نيكولايتش الى سميرسك \* فى غضون أيام ، فان  
أعمال هامة تناديه هنالك • وقد رجائى أن أبحث له عن رفيق يصحبه فى  
رحلته : هل تريد أن تصحبه ؟

# شجرة عيد الميلاد والأزواج

١٨٤٨

« شجرة عيد الميلاد والزواج »  
(Iolka i svadba) ، كتبت سنة  
١٨٤٨ ، وظهرت في « حويات  
الوطن » ، ايلول (سبتمبر) ١٨٤٨»  
« الزواج »  
مج ٦٠ ؛ بعنوان « شجرة عيد الميلاد



فى هذه الأيام الأخيرة زواجا، لا بل سأحدثكم عن  
شجرة عيد الميلاد • صحيح أن حفلة الزواج التى  
رأيتها منذ قليل كانت رائعة وقد أعجبت بها اعجابا  
شديدا ولكن الحفلة الاخرى حفلة عيد الميلاد  
كانت شاققة أكثر منها أيضا وسترون من قراءة هذه القصة لماذا ذكرنى  
هذا الزواج بشجرة عيد الميلاد •

منذ خمس سنين تقريبا شهدت حفلة أقامها أصحابها بمناسبة عيد  
الميلاد • ان الشخص الذى دعانى الى حضور هذه الحفلة رجل كبير من  
رجال الاعمال يملك رساميل ضخمة وتحميه شخصيات كبيرة وله علاقات  
كثيرة حتى لأستطيع أن أقول ان هذه الحفلة التى أقيمت للأطفال لم تكن  
الا عذرا اصطنعه الاباء ليجتمعوا فيتناقشوا فى شؤون تتصل بالمصالح كأنما  
على صدفة وبغير ميعاد •

واذ كنت غريبا عن الاعمال وشؤونها فقد قضيت سهرتى بعيدا عن  
هذه المناقشات بعض البعد مهتما بالنظر والملاحظة خاصة •

لذلك لم ألبت أن لاحظت مدعوا آخر كان يبدو عليه انه قد وقع



مثلى فى وسط هذه الحفلة وقوعا فى غير محله ولا زمانه ، انه شخص  
فارح القامة نحيل الجسم كثير الجرد أنيق الملبس ومع ذلك كان يبدو بعيدا  
عن كل فرحة لأنه سرعان ما انتحى ركنا وكف فمه عن الابتسام وقطب  
حاجبيه السوداوين الكثيفين تقطيا يدعو الى القلق •

وكان واضحا أنه لا يعرف أحدا فى الصالة عدا صاحب البيت وانه  
رغم سأمه وضجره كان قد قرر أن يمثل حتى النهاية دور رجل سعيد •

وقد علمت فيما بعد انه رجل من الريف قد جاء الى المدينة لعمل  
ضخم من الأعمال • واذ كان يحمل الى رب المنزل كتاب توصية فقد  
كان رب المنزل يحميه ويرعاه دون أى نوع من المبالغة مع ذلك ، وقد دعاه  
الى هذه الحفلة التى أقامها للاطفال من باب اللطف والادب •

لم يلعب الحضور بالورق ولم يقدم اليه أحد سيكارا ولا خاطبه أحد  
بحديث ( لعلهم عرفوا الطائر من ريشه ) لذلك اضطر صاحبنا حتى يظهر  
بمظهر الوقار والأبهة أن يأخذ بتمليس لحيته فى غير توقف أو انقطاع  
وهما لحيتان جميلتان حقا على كل حال ولكنه قد بلغ من الجرد والاجتهاد  
فى هذا التمليس أن من يراه يتصور أن اللحيتين قد وجدتا فى هذا العالم  
أولا ثم عين هذا السيد لتمليسهما بعد ذلك •

وفى ما عدا هذا الشخص الذى كان يشارك هذه المشاركة فى فرحة  
صاحب الأعمال الكثيرة بأسرته التى تتألف من زوجة وخمسة صبية صغار  
أصحاء الجسم من وفرة الغذاء ، ثبت انتباهى على سيد آخر من نوع  
مختلف كل الاختلاف •

انه شخص وقور كانوا ينادونه باسم جوليان ماستاكوفش وكان  
واضحا من أول نظرة انه يعامل معاملة ضيف ذى قيمة خاصة وشأن كبير:

كان أهل المنزل ما ينفكون يغمرونه بألوان الرعاية وضروب المراجعة فهم 'يعنون به أشد العناية ويقدمون اليه الشراب ويحيشونه بكثير من الناس يعرفونه بهم • حتى لقد لاحظت أن رب البيت قد ذرف دموع الفرح حين تفضل جوليان ماستاكوفتش فقال انه منذ زمن طويل لم يقض لحظات ممتعة كهذه اللحظات التي قضاها في هذه الحفلة •

يجب أن أترف بالخوف الذي شعرت به من وجودى وجها لوجه مع شخصية تبلغ هذا المبلغ من خطورة الشأن وعلو المقام لذلك رأيتى بعد أن أعجبت بالأطفال أنسحب الى صالون صغير واعتصم وراء كتلة من النباتات كانت تشغل نصف الحجرة تقريبا •

وكان لا يبدو على الأطفال أنهم يولون توصيات مربياتهم ونصائحهن أية قيمة فهم لا يريدون قطعا أن يشبهوا الكبار فى شيء من الأشياء • وقد وجدتهم لطافا محبين الى قلبى وما هى الا بضعة دقائق حتى كانوا قد جردوا الشجرة كلها مما علق بها من أنواع السكاكر وضروب الحلوى ثم شرعوا يخربون اللعب فى همة ونشاط حتى قبل أن يعلموا من صاحب كل لعبة من هذه اللعب •

كان بين الأطفال صبى صغير أجعد الشعر اسود العينين مال اليه قلبى ميلا خاصا وقد قرر أن يقتلنى ببندقته الخشبية مهما كلف الامر فطاردى حتى مخبئى غير أن أخته التى تبلغ من العمر احدى عشرة سنة هى التى لفتت انتباهى أكثر من سائر الأطفال : انها جميلة جمالا رائعا وهى صامتة شاحبة ذات عينين واسعتين حالمتين • وأغلب الظن أن أحد الأطفال قد ضايقها لأنها وقد لجأت الى الصالون الصغير الذى كنت فيه قد اعتصمت

بركن من أركانه تعنى بعروستها ولا تحفل بشيء عداها • وكنت قد سمعت بعض المدعويين يصفون أباهما بأنه تاجر واسع الثراء وسمعت أحدهم يقول ان بائنتها تبلغ ثلاثمائة ألف روبل • وفيما كنت أنظر الى الجماعة التي اهتمت اهتماما خاصا بهذا النبأ الاخير وقع نظري على جوليان ماستاكوفتش فرأيته واضعا يديه وراء ظهره مائلا برأسه الى جانب يصغى الى ثرثرة هؤلاء السادة بانتباه شديد ولم يسغى فيما بعد الا أن أعجب أشد الاعجاب بحكمة صاحب المنزل في توزيع الهدايا على الاطفال فان البنية التي تملك منذ الآن بائنة قدرها ثلاثمائة ألف روبل قد تلقت أجمل عروس من المرائس الموزعة على الاطفال وهكذا دواليك - فقيمة اللعبة التي تعطى لكل طفل من الاطفال تنقص بمقدار نقصان ثراء أبويه • وكان أتس الاطفال حفا صبي في العاشرة من عمره نحيل الجسم أحمر اللون مبقع الوجه فقد كان نصيبه من الهدايا كتابا لا قيمة له يتحدث عن عظمة الطبيعة ويتكلم عن الدموع والمواطف وما الى ذلك ولا يضم أية صورة •

وسرعان ما علمت أن الصبي الصغير هو ابن معلمة أولاد صاحب الدار وهي أرملة فقيرة لم يكن لها الا هذا الصبي الوجمل المبهوت •

كان يرتدى قميصا صغيرا فقيرا من نسيج قطنى أصفر اللون فلما أخذ هديته لبث يطوف زمنا طويلا حول اللبب الأخرى وكان واضحا أنه يحب أن يتسلى مع سائر الأطفال ولكنه لا يتجرأ أن يفعل ذلك لشعوره بأنه دونهم •

اننى أحب ملاحظة الأطفال كثيرا وأرى أن أهم ما يلفت النظر فيهم هو هذه المظاهر الاولى من حياتهم المستقلة • لقد لاحظت أن هذا الصبي الاحمر الذى ألهب حماسه منظر اللبب التي أهديت الى الاطفال الآخرين وخاصة المسرح الذى لعله كان يحب أن يمثل عليه دورا قد عزم أمره

على أن يرتكب بمض الدنيا الصغيرة فما هو ذا يتسهم وينادى الاطفال الآخرين ويعطى تفاحته لصبي سمين كان يحمل منديلا مليئا بأنواع الحلوى وما هو ذا بعد ذلك لا يأبى أن يكون دابةً يركبها واحد من رفاقه لاشئ، الا أن لا يرى نفسه مبتعدا عن المسرح ولكنه رغم هذه التنازلات لم يلبث ان تلقى اللطمة من صبي أكبر منه ، ومع ذلك لم يجرؤ أن يبكي لأن أمه المعلمة قد وصلت فأمرته ان لا يمنع الاطفال من اللعب فاذا هو يلطو عند الباب زمنا ثم يلحق بالبت الصغيرة التي لا شك أنها طيبة جدا لأنها لم تطرده وأخذ الاثنان يعملان جادين فى الباس العروس الصغيرة .

\*\*\*

ظللت معتصما بمكانى وراء كتلة النباتات زهاء نصف ساعة أضفى الى حديث الصبي الصغير والبنية ذات البائة التي تبلغ ثلاثمائة ألف روبل وانى لكذلك اذا بى أرى جوليان ماستاكوفتش يدخل على حين فجأة . لقد انتهر فرصة المعركة التي شبت بين الاطفال فى الصالون الكبير فليجأ الى الصالون الصغير وكنت قد رأيت منذ برهة يتحدث حديثا طويلا مع والد عروس المستقبل الغنية ورأيتة يفكر تفكيرا عميقا وكأنه يعد على أصابعه مدمدما .

— ثلاثمائة . . . ثلاثمائة . احدى عشرة سنة ثلاث عشرة سنة . . . ست عشرة سنة ! المجموع خمس سنين . فاذا حسبنا الفائدة على أساس أربعة فى المئة فضرربنا خمسة فى اثنى عشر كان لدينا ستين ولنفرض أن المبلغ كله سيبصيح أربعمائة ألف . . . نعم . . . ولكن هذا الوغد لا يقرض حتما بفائدة أربعة فى المئة بل بفائدة ثمانية بل بفائدة عشرة اذن سيبصيح المبلغ على الاقل خمسمائة ألف عدا الكسور . فلما انتهى الرجل الوجيه من حساباته مخط وأراد أن يترك الحجره لكن بصره

وقع فجأة على الفتاة الصغيرة وأغلب الظن أن النباتات كانت تخفيها وراءها  
اخفاء تاما لأنه لم يبصرني ولكنني سرعان ملاحظت اضطرابا خاصا يرتسم  
على قسما وجهه • ترى هل كان ذلك بتأثير الحساب أم كان نتيجة شيء  
آخر غير هذا تماما؟ ومهما يكن من أمر فقد فرك يديه راضيا مسرورا  
وحين ألقى نظرة حاسمة على خطيبة المستقبل ازداد اضطرابه •

وقبل أن يتجه الى المكان الذي كان فيه الطفلان ألقى نظرة فاحصة  
خاطفة على ما حوله ثم اقترب منهما سائرا على رؤوس الاصابع كأنه يشعر  
بأنه يقارف انما ثم انحني وهو يتسهم ابتسامة متكلفة اللطف أشرق بها  
وجهه المدور لطبع قبلة رقيقة على رأس البنية •

فاذا بالبنية التي لم تكن تتوقع هذا الهجوم المفاجيء تطلق صرخة من  
فرط الدهشة •

قال هامسا :

— ماذا تفعلين هنا يا حلوة ؟

وتلفت حوايه مرة أخرى ثم لامس خد الصبية •

قالت :

— نلعب •

فرشق جوليان ماستاكوفتش الصبي بنظرة خالية من البشاشة •

وقال لها :

— معه ؟

ثم التفت الى الصبي وقال له بلهجة خشننة :

— عليك أن تذهب الى الصالون أيها الصغير •

فلما رأى جوليا ماستاكوفتش ان الصبي ظل صامتا لا يحول عنه بصره ، نظر الى ما حوله من جديد ثم مال على الفتاة وقال لها :

- هذه عروسة أليس كذلك يا طفلتى الصغيرة ؟

- نعم عروسة •

هكذا أجابت البنية التى كان واضحا انها متضايقه •

- وهل تلمين يا طفلتى العزيزة من أى شيء صنعت عروستك ؟

أجابت الفتاة خافضة رأسها :

- لا لا أعلم •

- لقد صنعت بقطع من قماش يا عزيزتى الصغيرة •

وهنا رمى جوليان ماستاكوفتش الطفل بنظرة قاسية مرة أخرى

وقال له :

- عليك أن تذهب الى رفاقك •

التصق الطفلان أحدهما بالآخر : كان واضحا أنهما لا يريدان أن

يفترقا •

سأل جوليان ماستاكوفتش الفتاة بصوت أشد خفوتا :

- وهل تلمين لماذا أهديت اليك هذه العروسة ؟

- أعلم •

- لأنك طفلة رقيقة جدا •

قال الوجه ذلك وقد أصبح اضطرابه غير خاف ثم نظر حواله

وزاد فى خفض صوته الذى أصبح الآن يرتعش :

- هل ستحييني أيتها الطفلة الصغيرة العزيزة اذا جئت أزور  
أهلك ؟

وأراد جوليان ماستاكوفتشس أن يقبل البنية مرة أخرى ولكن الصبي  
الصغير الأحمر حين رأى البنية توشك أن تبكى أمسك بذراعيها وأخذ  
ينشج باكيا هو نفسه ، شفقة عليها •

عندئذ احمر وجهه صاحبنا الوجيه احمرارا شديدا من فرط الغضب  
وصاح يقول للفتى :

- اذهب من هنا أيها الولد الغليظ • اذهب الى رفاقتك •

فصرخت الفتاة تقول من خلال دموعها :

- لا ما ينبغي له أن يذهب • اذهب انت • دعه • دعه •••

\*\*\*

سمع جوليان ماستاكوفتشس ضجة على الباب فانتفض ثم نهض • ولكن  
الصبي الصغير كان أشد ذعرا منه فكان يحاول أن يبلغ الباب ومضى يمشى  
فى رفق ملاصقا للجدران وارتأى صاحبنا الوجيه ان من المستحسن أن  
يترك الصالون الصغير هو أيضا حتى لا يوقف حوله شبهاة • كان وجهه  
احمر بلون القرمز فلما نظر الى نفسه فى المرآة عابرا ظهر عليه اضطراب  
شديد • أترأه استحي من تعجله ؟ انه وقد أغراه الحساب الذى أجراه  
على أصابعه قد تصرف تصرف طفل محاولا مواجهة موضوع أحلامه التى  
لن يمكن أن تستحيل الى واقع الا بعد خمس سنين •

وتبعت الرجل المحترم الى قاعة الطعام • فرأيت مشهدا غريبا : رأيت  
جوليان ماستاكوفتشس محمر الوجه من الغضب يحاول تخويق الصبي  
الصغير الذى لا يعرف أين يختبئ •

— ماذا تعمل هنا يا غليظ؟ امض... امض... يا تافه • أسرق  
الفاكهة؟ هيا امض يا ساقط، أقول لك امض •

كان الصبي في حالة رعب شديد فقرر أن يقوم بعمل يائس: حاول  
أن يختبئ تحت المائدة ولكن صاحبا الذي يلاحقه أخرج من جيبه منديلا  
ملويلا واخذ يهزه تحت المائدة •

يجب علينا أن نلاحظ هنا أن جوليان ماستاكوفتش كان رجلا ممتلئ  
الجسم من حسن الغذاء مصبوغ الوجه بحمرة زاهية قصير القامة ذا كرش  
مدور فوق فخذين سمينتين جدا •

فكان العرق يتصبب من وجهه وكان يلهث لهاثا قويا ويتحرك بغير  
طائل • ثم أصبح كالمسحور من شدة الشعور بالغضب أو ربما من شدة  
الشعور بالغيرة، من يدري!

ولم أستطع أن أكظم ما بنفسى فانطلقت بضحكة قوية هومرية  
وعندئذ انما فطن جوليان ماستاكوفتش الى وجودى فشرع بحرج شديد  
ظهر واضحا في وجهه رغم وقاره لا سيما وأن رب الدار ظهر عبر الباب  
المقابل في تلك اللحظة وخرج الصبي من تحت الطاولة يمسح ركبتيه أما  
جوليان ماستاكوفتش فقد أسرع يحمل الى أنفه المنديل الذي كان يمسكه  
بيده •

دهش المضيف من رؤيتنا نحن الثلاثة على هذا الوضع الغريب فألقى  
علينا نظرة قلقة لكنه وهو الرجل الذي يعرف الحياة سرعان ما انتهر  
الفرصة ليتقرب الى الوجيه • قال وهو يوميء الى الصغير الاحمر:

— هذا هو الصبي الصغير الذي تشرفت بالتحدث اليك في شأنه •  
— ها... ها... ها •

كذلك قال جوليان ماستاكوفتش وهو لما يتخلص من انفعاله بعد •



وتابع الآخر يقول بلهجة التوسل :

- انه ابن معلمة الأولاد وهي أرملة فقيرة مات عنها زوجها الذى كان موظفا شريفا لذلك أرجوك يا جوليان ماستاكوفتشن اذا كان فى وسعك ...

فقاطعته الرجل القصير المدور يقول بحدة :

- لا .. لا .. اعذرني يا فيليب اليكسيفتشن • هذا مستحيل • لقد سألت • لا يوجد مكان • واذا كان ثمة مكان فهالك عشرات يستحقون أكثر منه • متأسف جدا • متأسف جدا •••

قال صاحب الدار :

- خسارة ! انه صبي لطيف صموت مطواع •

أجاب جوليان ماستاكوفتشن وقد عقف فمه ساخرا :

- بل هو ولد سيء قدر •

ثم أضاف ينهر الولد قائلا :

- اذهب • ماذا يبقيك هنا ؟ الحق برفاقتك •

ثم لم يستطع أن يضبط نفسه فرماني أنا بنظرة قلقه •

فشعرت بأن من المستحيل على أن لأبالي فضحكت فى وجه الرجل المدور ، فلما رأى ذلك منى التفت الى صاحب الدار يسأله عن هذا الفتى الغريب من هو •

ودمدا بضع كلمات فيما بينهما ثم خرجا •

وعدت الى الصالون أنا أيضا •

فرأيت الرجل العظيم يحيط به صاحب الدار من جانب وصاحبة الدار من جانب آخر ويتحلق حوله الاباء والامهات وهو يتحدث فى همة وحرارة الى سيده جاموا به اليها • كانت هذه السيدة ممسكة يد الفتاة الصغيرة التى جرى بينها وبين جوليان ماستاكوفتش قبل ذلك بعشرة دقائق المشهد الذى اسلفنا وصفه • انه الان يطنب نثاءً على جمال الطفلة وعلى مواهبها النادرة وتربيتها الفذة والأم تسمع كلامه مخضلة العينين بالدموع ورأيت الأب كذلك ترتجف شفتاه بابتسامة يشيع فيها التسائر ورأيت صاحب الدار يعجز عن اخفاء فرحه العظيم بما يسمع من هذا الكلام الجميل وانضم الضيوف أنفسهم الى هذه الحماسة وكانت ألحاف الأطفال قد انقطعت حتى لا تعكر هذا الحديث وشاع جو الاحترام حتى فى هواء الصالة •

وسمعت أم الطفلة وقد تأثرت الى أعماق نفسها بألوان النساء التى كملت لابنتها سمعتها تدعو الرجل العظيم بألفاظ مختارة وجمل أنيقة أن يتفضل بأن يسبح على أسرته شرف صداقته الثمينة • فأجاب جوليان ماستاكوفتش بانفعال صادق وسرعان ما أخذ جميع المدعوين يزجون النساء بغير حدود لصاحب الدار وصاحبة الدار والتاجر وزوجته وابنتهما ولا سيما لجوليان ماستاكوفتش •

– هل هذا السيد متزوج ؟

كذلك أسرعت ألقى هذا السؤال على واحد من الضيوف كان أقربهم من جوليان ماستاكوفتش •

فاذا بالرجل المدور الذى لا شك أنه سمع سؤالى يلقى على نظرة خبيثة تشقلنى شقلاً •

– لا •

بهذا أجايبى جارى مستاء من هذا السؤال أشد الاستياء لأنه يعده  
سؤالا فظا ليس على شيء من اللباقة أما أنا فكنت قد ألقيت هذا السؤال  
عامدا عن قصد \*

\*\*\*

منذ بضعة أيام مررت أمام الكنيسة فلفت انتباهى حشد كبير من  
العربات \* رأيت جمهرة من الناس متجمعة فى الميدان تتحدث عن زواج  
عظيم \* كان جو النهار قائما وكان الثلج يهطل ضعيفا \* وتملكنى حب  
الاستطلاع فدخلت الى المعبد باحثا بنظري عن العريس لأراه : انه رجل  
قصير مدور سمين ذو كرش ناتئ ، على صدره أوسمة كثيرة \* كان  
يسرع الخطى ويتحرك من مكان الى مكان ويصدر الأوامر تلو الأوامر \*  
وسرت أخيرا فى الجمهور دممة : وصلت العروس \*

استعملت كوعى فاتخذت لى مكانا فى الصف الأول ووقع ببصرى  
على جمال رائع فى فجر ربيع \* كانت مع ذلك شاحبة اللون حزينة \*  
وكانت تطوف بنظرتها الذاهلة على من حولها وتراعى لى أن عينها حراوان  
من البكاء \* ان ما فى قسماط وجهها من طهارة ونقاء يذكران بجمال  
تماثيل القدماء من أهل اليونان ، يضى على حسنها أبهة لا تغالب \* غير  
أن شيئا من طفولة ، شيئا من سناجة لا حدود لها كانت تمازج هذه  
القسوة وهذا الحزن وكأنها تستنجد \* وسمعت الناس يقولون انها لم  
نكد تبلغ السادسة عشرة من عمرها \*

حين نظرت الى العريس عرفت فيه صاحبى الطيب الشهم جوليان  
ماسناكوفتش الذى لم أره منذ خمس سنين ثم التفت ببصرى نحو الفتاة  
و \*\*\*

يا رب ! ... لم أحاول أن أرى مزيدا بل هرعت نحو الباب  
لأخرج ، تلاحقني دمدمة غامضة تصدر عن الجمهور •

وسمعت أحدهم يقول :

- ان بائنة العروس خمسمائة ألف روبل ... عدا الكسور •

فلما صرت في الشارع قلت لنفسي :

- صدق الحساب •

زوجة آخر، وزوج تحت السرير

١٨٤٨

ظهر القسم الأول من قصة « زوجة آخر وزوج تحت السرير »  
الثاني ( يناير ) ١٨٤٨ ، في مجلة « حوليات الوطن » بعنوان  
« زوجة آخر » ( وهو القسم الذي يتضمن مشهرا في  
الشاعر ) . أما القسم الثاني فكان عنوانه « الزوج القيود » ،  
ولم ينشر في تلك المجلة نفسها الا في شهر كانون الأول  
١٨٤٨ ، مج ٦١ ، ولكن المؤلف جمع القصة تحت عنوان  
واحد في طبعه ١٨٦٠ .

## الفصل الأول



فضلك يا سيدي ، هل أستطيع أن أسألك ؟  
ارتعد الشاب الذي كان سائرا في الطريق حين  
سمع هذا السؤال ، وصدق بشيء من الخوف الى  
الشخص الذي يرتدى معطفا من فراء والذي  
خاطبه على هذا النحو بسرعة وسط الشارع في الساعة الثامنة من المساء .  
وأتم تعلمون أنه حين يتجه أحد من سكان المدينة بالكلام ، في الشارع ،  
الى ساكن آخر من سكانها لا يعرفه ، فان الثاني لا بد أن يجزع .

ارتعد الشاب اذن ، وألم به ذعر .

وتابع الرجل ذو المعطف كلامه يقول :

— معذرة اذا أزعجتك .. ولكنني .. في الحقيقة .. أجهل ..  
لا شك أنك ستغفر لي .. أظن أنك أدركت أن عقلي مضطرب بعض  
الاضطراب .

لاحظ الشاب الذي يرتدى سترة ، لاحظ عندئذ أن مخاطبه الذي

يرتدى معطفا كان غسريب الهيئة شاذا بعض الشيء . ان وجهه المقطب  
شاحب ، وان صوته مرتعش ، وان أفكاره تائهة حتما ، وان أقواله متعترية  
مرتبكة لا تخرج من حلقه الا فى عناء . كان واضحا أنه يصعب عليه  
كثيرا أن يتقدم برجاء ذليل الى شخص غريب لعله أدنى منه شأنا ، سواء  
من ناحية الرتبة أو من ناحية الطبقة . ولكن كان لا بد له حتما من أن  
يتوجه اليه بهذا الرجاء . ولا شك أن هذا الطلب من جانب بورجوازي  
يلبس معطفا أنيقا هذه الأناقة ، ويرتدى « فراكا » جميلا هذا الجمال  
بلونه الأخضر القاتم الذى تزيه سلسلة من الأوسمة ، لا شك أن هذا  
الطلب شيء غير لائق ، وفعل طائش غريب . ولقد كان واضحا أن الرجل  
كان غير راض عن نفسه بسبب أناقة ردايه . ومع ذلك سسيطر على  
اضطرابه وثاب الى صوابه بجهد ارادى ، وقرر أن يختم ، على أكرم نحو  
ممکن ، هذا المشهد الكريه الذى أثاره ، قال :

- اعذرني ... اننى خارج عن طورى ... صحیح أنك  
لا تعرفنى .. اغفر لى ازعاجى اياك .. لقد عدلت عن رأيى ...  
قال ذلك ورفع قبضته مجييا ، وابتعد بخطى سريعة .  
قال له الآخر :

- ولكن يا سيدى ..

غير أن لابس المعطف كان قد غاب فى الظلام ، تاركاً صاحب السترة  
مشدوها مذهولا . فقال هذا لنفسه : يا له من نموذج عجيب !

وزال انشداهه أخيرا ، وعاد سييد نفسه ، وتذكر سبب تجوله ،  
فأخذ يذرع الرصيف ذاهبا آيبا ، لا يحول بصره عن باب منزل من المنازل  
ذى عدة طوابق . كان الضباب يتكاثف ، فكان الشاب يرتاح الى ذلك



ويسر به ، لأن الضباب سيخفي ذهابه وإيابه عن أعين الناس ، الا عن  
عيني حوذى كان مرابطا فى ذلك المكان نفسه فقد يراه \*  
- معذرة ألف مرة !

ارتعد الشاب من جديد \* ان مخاطبه هو ذلك الشخص نفسه الذى  
يرتدى معطف الفراء \* وها هو ذا يبدأ كلامه :

- أعود اليك مرة أخرى \* \* فمعذرة \* \* ولكنك \* \* ولكنك \* \* \*  
حتما \* \* رجل صاحب قلب نبيل - لاتحسبني رجلا رفيع المنزلة الاجتماعية  
\* \* \* ثم اننى أعرف \* \* \* ولكن انظر الى الزاوية الانسانية \* \* أمامك  
يا سيدى رجل مضطر ان يتقدم اليك برجاء ذليل \* \*

- ما حاجتك \* \* \* اذا كان فى وسمى \* \* \*

- لعلك ظننت أننى سأطلب مالا !

كذلك قال الرجل المجهول الغريب \* وانعقت شفثاه واصفر وجهه  
وأطلق ضحكة هستيرية \*

- العفو \*

- لا \* \* واضح أننى أزعجتك \* \* معذرة \* \* أنا نفسى حمل ثقيل  
على نفسى \* \* لاحظ انك ترانى فى حالة اختلال \* \* فى حالة تشبه أن  
تكون جنونا فلا تستنتج من ذلك \* \* \*

أجاب الفتى وقد نفذ صبره :

- حقا حقا أنت فى هذه الحالة \*

ومع ذلك أوماً برأسه يشججه \*

– ما أشد ما تتغير الأمور ... شاب فى مية الصبا يذكرنى بما أنا عليه ، كأننى طفل مهميل ... لقد فقدت عقلى حتما . قل لى بصراحة كيف أبدو لك وأنا على هذا الوضع من المذلة والهوان ؟ ..

احمر وجه الشاب ولزم الصمت .

– اسمح لى بسؤال صغير : هل رأيت سيدة ؟ ... ذلك طلبى كله .

هكذا قال أخيرا لابس المعطف بصوت قاطع .

– سيدة ؟

– نعم سيدة .

– مرت سيدات كثيرات .

قال الرجل الغريب وهو يتنسم ابتسامة مرة .

– طبعا ... هأنذا أهدر كثيرا ثم لا أسألك عما أريد ... عفوك ا أردت أن أعرف هل رأيت سيدة ترتدى معطفا من فراء الثعلب وقبعة من المخمل القاتم اللون مع خمار اسود .

– لا لم أر سيدة كهذه ... لا أظن أنتى رأيت سيدة بهذه الأوصاف ...

– معذرة اذن .

أراد الشاب أن يسأل الرجل المجهول ولكن هذا غاب من جديد تاركا مخاطبه كالمصوق مرة أخرى .

« شيطان يأخذه » ! كذلك قال الشاب بينه وبين نفسه ، وقد ظهر الحنق فى وجهه واضحا . ورفع ياقة سترته مغناظا ، واستأنف سيره على

الرصيف ذاهبا آيبا ، مارا أمام باب المنزل ذى الطوابق الكثيرة ، ولكن على حذر . كان الغضب يجتاح نفسه ، وتسامل :

« لماذا لا تخرج ؟ تو شك الساعة أن تكون الثامنة » • ودقت الساعة الثامنة فى البرج فعلا •

« آه شيطان يأخذك أخيرا » •

— عفوك •••

— عفوك انت أيضا ! لقد اندسست بين ساقى اندساسا أرعبنى •

• كذلك قال الشاب وهو يقطب حاجبيه ، واعتذر مرة أخرى •

— ها قد عدت اليك ا لا شك انى أبدو لك قلقا شادا •

— أرجوك ! كفى كلمات لا فائدة منها ا اشرح ما بنفسك بسرعة •

انى ما زلت أجهل ما تريد •

— أنت مستعجل ؟ اسمع : سأقص عليك كل شيء صادقاً مخلصاً

دون أقوال لا طائل تحتها ولا فائدة منها • ما العمل ؟ ان الظروف تجمع

أحيانا بين أناس تختلف طباعهم اختلافا كبيرا • ولكننى ألاحظ أن نفاذ

الصبر يستولى عليك أيها الشاب ••• لذلك فهأنذا ••• على أننى لا أعرف

كيف أقول •• اننى أبحث عن سيدة •• اذن لن أخفى شيئاً •• ما أريده

هو أن أعرف أين ذهبت هذه السيدة ••

أما من هى فما أظن أنك فى حاجة الى معرفة اسمها أيها الشاب •

— طيب •• كمل •••

— طيب •• ولكن لهجتك معى •• معذرة •• لعلنى أذيت شعورك

حين ناديتك بقولى أيها الشاب • ولكننى لم أكن أتصور أنك •• الخلاصة

إذا كنت تستطيع أن تقدم لى خدمة كبرى فالسألة هى .. انها سيده ..  
أقصد .. سيده شريفة من أسرة ممتازة تربطنى بها صداقة .. كلفنى  
أحدهم .. هل تفهم ؟ .. أنا لست متزوجا .  
- ماذا أيضا ؟

- ضع نفسك فى مكانى أيها الشاب . آه ! معذرة هأنذا أعود فأناديك  
بقولى أيها الشاب ... ان جميع الدقائق ثمينة .. تلك المرأة هى ...  
ولكن ألا تستطيع أن تقول لى من يسكن هذا المنزل ؟  
- هو .. يسكنه ناس كثير .  
- طبعا ! أنت على حق تماما .

كذلك قال السيد الذى يرتدى معطفا وهو يضحك قليلا حفاظا على  
المظاهر ، وتابع يقول :

- أنا أحس أننى مرتبك قليلا .. ولكن لماذا تتخذ فى مخاطبتى  
هذه اللهجة ؟ أنت ترى اننى أعترف صادقا مخلصا واننى أوغل ...  
فاذا كنتَ اسانا متكبرا فقد رأيت من مذلتى مافيه الكفاية . أنا أتكلم عن  
سيده شريفة السلوك .. أقصد خفيفة .. معذرة .. اننى أوغل ..  
كأننى ألق قصة مما يكتبه الادباء ! هل فهمت ؟ شئ من نوع قصص  
بول دو كوك ... والبلاء قد جاء من بول دو كوك هذا . تلك هى  
المسألة .

ألقي الشاب نظرة مليئة بالشفقة على الرجل الذى يرتدى معطفا من  
فراء والذى كان زائغ العينين تماما يحدق اليه ويتسم له ابتسامة بلهاء  
ممسكا حافة معطفه بيد مرتعشة دون سبب .  
سأله الشاب وهو يتراجع قليلا الى وراء :

- تريد أن تعرف من يسكن هنا ؟
- قلت ان السكان كثير •
- اعرف أن صوفيا أوستايفينا خاصة تسكن هنا •
- نطق الشاب بهذه الكلمات مدمدا وكأنه يشعر بشفقة •
- هل رأيتَ اناك على اطلاع أيها الشاب ؟
- لا ••• أبدا •• أوكد لك اننى لست أعرف شيئا •
- لقد علمتُ من الطباخة منذ هنيهة أنها تأتي الى هنا ، ولكنها لا تأتي الى صوفيا أوستايفينا ••• انها لا تعرفها •
- لا تعرفها ؟ معذرة اذن •
- طبعا ، ذلك كله لا يخفيك أيها الشاب •
- كان الرجل الغريب يتكلم بسخرية مرة •
- قال الشاب متمتماً :
- اسمع ! أنا أجهل فى الواقع سبب حالتك الراهنة • ولكن أغلب الظن أن امرأة تخونك ! تكلم بوضوح !
- فابتسم الرجل مؤمناً على كلام الشاب •
- قال الفتى :
- الآن سنستطيع أن نتفاهم •
- وبدا كأنه يحرك رأسه بنصف تحية لطيفة •
- لقد أصبتَ مقتلئ ؟ ومع ذلك ذلك أعترف لك •• هذه هى المسألة •

ولكن من ذا الذى لا يقع له هذا ؟ ان تجاوبك قد أثر فى نفسى تأثيرا عميقاً .. أنت تعلم أن هذا الأمر شائع بين الشباب ... أنا لست شابا طبعاً ... ولكنها العادة ... حياة الزوية ... الأمر شائع بين الكهول العازبين .

– شائع طبعاً .

– ولكن فى أى شىء أستطيع أن أساعدك ؟

– هبها تتردد الى صوفيا أوستايفنا .. على كل حال أنا لا أعلم بعد على وجه اليقين الى اين ذهبت هذه السيدة ، كل ما أعلمه أنها الان فى هذا المنزل . ولكننى اذ لاحظت ذهابك واياك مراراً بينما كنت انا اذرع الرصيف الثانى ذهابا وايابا أيضا .. قلت لنفسى .. الخلاصة .. اننى أنتظر هذه السيدة .. وأنا على يقين انها هنا ، وأود لو ألقاها فأشرح لها سوء هذا السلوك وحقارته .. أنت تفهمنى ، أليس كذلك ؟

– ثم ؟

– أنا لا أفعل هذا من أجل نفسى .. لا يذهبن بك الظن الى ان .. هى زوجة رجل آخر .. وزوجها ينتظر هناك على جسر فونزيسنسكى .. ان رغبته هى أن يقبض عليها متلبسة بالجرم ولكنه لا يعزم أمره ... وهو ما يزال لا يصدق ، كسائر الأزواج على كل حال . ( وهنا ابتسم الرجل صاحب المعطف ابتسامة خفيفة ) وأنا صديقه وأنا رجل محترم ولا يمكن أن أكون الشخص الذى تظن ...

– طبعاً .. طبعاً .. وبعد ؟ أنا أصغى اليك ...

– اننى أراقبها بغير انقطاع ، أنا مكلف بهذا ! يا للزوج المسكين !

•• ولكننى اعلم أن السيدة الشابة مأكرة • ان كتب بول دو كوك \*  
موجودة دائما تحت مخدتها • وأنا واثق انها ستجد مهريا ما فتسل خفية  
دون أن يراها أحد • أعترف لك أن الطباخة هى التى أبلغتني عن زيارتها  
هنا • لقد وثبت كالمجنون حين علمت ذلك • أريد ان أقبض عليها • وأنا  
أشتبه فيها منذ زمن طويل • لذلك أردت أن أسألك ••• كنت أنت تسير  
هنا • هل أنت •• هل أنت •• كيف أقول ؟

– ولكن ماذا تريد أخيراً ؟

– نعم •• اننى لم أشرف بمعرفتك ، ولا أتجرأ أن أكون كثير  
الفضول • من أنت ؟ لتتعارف على كل حال •• اذا سمحت •• هى فرصة  
ممتعة ! •••

قال الرجل ذلك منفعلًا انفعالا شديدا ثم صافح الشاب مصافحة  
حارة وأضاف يقول :

– كان ينبغي أن أفعل هذا منذ البداية • ولكننى نسيت اللباقة •

وبينما كان يقول هذا الكلام كان يلقى نظرات قلقة حوله ويمضى  
يمنة ويسرة بخطفى قصيرة ويمسك يد محدثه فى بعض اللحظات كأنسان  
ضائع •

وتابع يقول :

– أردت أن أتجه اليك كما يتجه صديق الى صديقه ••• اغفر لى  
هذه الحرية التى سمحت بها لنفسى ••• وددت لو أرجوك أن تسير فى  
الجهة الأخرى ••• فى جهة الشارع الصغير •• هنالك مدخل الخدمة ••  
سأتجول أنا هنا حول المدخل الرئيسى وبذلك لن تستطيع أن تفلت منا •  
كنت أخشى أن لا أستطيع القبض عليها وحدى •• وأنا لا أريد أن

أخطئها • فمتى رأيتها فاستوقفها ونادى •• أوه ! أنا مجنون • الان فقط  
أدرك حماقة هذا الاقتراح ، وأدرك انه غير لائق •

- لا •• لك ما تشاء ••

- سامحني •• اننى خارج عن طورى ، تائه كما لم أكن كذلك فى  
يوم قط • اننى أحسن كأننى أمام قضاة • وهأنذا أعترف لك صريحا  
صادقا أيها الشاب بأننى ظننتك فى أول الامر عشيقها •

- بتعبير آخر بسيط •• انت تريد أن تعرف ماذا أفعل هنا !

- أيها السيد المحترم ! سيدى العزيز ! حاشا أن أعتقد أنك  
عشيقتها •• أنا أرفض أن أوسخ نفسى بمثل هذا الشك ، ولكن •• هل  
تحلف لى بأنك لست عشيقها ؟

- ما دمت تريد ذلك فأنا أحلف لك اننى العشيقة ، ولكننى لست  
عشيقة زوجتك ••• ولو كنت عشيقها لما رأيتنى فى الشارع ، ولكنك  
الآن معها •

- زوجتى ! من قال لك انها زوجتى أيها الشاب ؟ أنا عازب • أقصد  
اننى أنا العشيقة •

- لقد قلت لى ان زوجها ينتظر تحت جسر فوزه سنسكى •

- طيبا •• آه •• اننى أخلط كل شىء ، هنالك روابط أخرى •••  
ثم يجب أن تعترف أيها الشاب أن شيئا من خفة الطبع وضعف الارادة ،  
أقصد •••

- طيب •• طيب •• أكمل •

- بتعبير آخر أنا لست زوجها أبداً •



- أصدقك • ولكن اذا شئت الصراحة ، فانى أنتيك الآن عن  
عزمك ، لأننى أريد أن أهدأ أنا نفسى • ومن أجل هذا انما ترانى صريحا  
معك هذه الصراحة كلها على أى حال • لقد ضايقتنى • انك تخرجنى •  
أعدك بأن أناديك ، وأتوسل اليك مع ذلك أن تترك لى هذا المكان ، وأن  
تبتعد • انا نفسى أنتظر •

- اتفقنا • لك ما تشاء • سوف أبتعد ، مراعياء نفاذ الصبر فى قلبك  
الملتهب • أنا أفهم هذا أيها الشاب • ما أكثر ما أفهمك الآن !

- طيب ••• طيب •••

- الى اللقاء ••• ومعذرة أيها الشاب على كل حال ••• هناك كلمة  
أخيرة ••• لا أعرف كيف أقولها ••• احلف لى مرة أخرى بشرفك انك  
لست العشيق •  
- آه يا رب •

- سؤال أخير • هل تعرف اسم زوج عشيقتك ، أقصد زوج السيدة  
التي تحبها •

- أعرفه طبعاً ، وهو ليس اسمك ، حسبك هذا •

- فكيف عرفت اسمى ؟

- اسمع ! دعنى وشأنى ! انك تضيع وقتك ا سيتسع وقتها للهرب  
الف مرة • ماذا دهالك ؟ ان السيده التي تبحث عنها ترتدى معطفاً من فراء  
الثعلب ، وقبعة من مخمل • أما المرأة التي أنتظرها فهى ترتدى معطفاً ذا  
مربعات وقبعة من قطيفة زرقاء • ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ ماذا تريد  
أيضاً ؟

- قبة من قطيفة زرقاء ؟ انها ترتدى هى أيضاً معطفاً ذا مربعات  
وقبعة زرقاء •

كذلك صاح الرجل الذي كان مصراً على أن لا يُعْتَقَ الآخر .  
وعد أدراجه .

- شيطان يأخذك ! أنت تجهل اذن أن هذا يمكن أن يقع ؟ ولكن  
لماذا احتاج ؟ ان صاحبتى لا تمر بهذا المكان .

- أين صاحبتك اذن ؟

- ما شأنك انت ؟

- اعترف لك بأننى ما زلت ...

- ألا تستحي ؟ ان لصاحبتى أصدقاء هنا فى الطابق الثانى المطل  
على الشارع .. هل يجب على أن أطلعك على أسماء الناس ؟

- غريب ! أنا أيضاً لى أصدقاء فى الطابق الثانى تطل نوافذ بيتهم على  
الشارع .. انه جنرال .

- جنرال ؟

- جنرال . ولماذا أخفى عنك ؟ انه الجنرال بولو فتسين .

- ها .. طيب . ليس أصحابى أصحابك .. هو ! شيطان يأخذهم  
جميعا .

- ليسوا هم أنفسهم ؟

- لا .

وصمت الرجلان وحدث كل منهما الى الآخر مذهولاً .

- لماذا تنظر الى هكذا ؟

كذلك صاح الشاب متناظراً وهو يحاول أن يهز حالة الحلم والذهول  
التي كان فيها •

• اضطرب الآخر •

• - أترف •••

• لا •• هذه المرة اسمح لي •• اسمح لي •• يجب عليك أخيراً  
أن تنظر الى الامور نظرة عاقلة • فضيتنا مشتركة ••• اشرح لي من هم  
الذين تعرفهم هناك ؟

• - تقصد من هم الأصدقاء ؟

• - نعم الأصدقاء •

• - أنت ترى اننى أحسن من عينيك أننى حذرت •

• لا •• لا •• أنت أعمى ؟ أما هنا بالقرب منك ولست بالقرب  
منها • ماذا يهمنى على كل حال • تكلم ••• أو لا تقل شيئاً ••• افعل  
ما يحلو لك •

• دار الفتى مرتين على كعبيه غاضباً وهز ذراعه •

• - أرجوك ! ما هذا بشيء ذى بال • سأقص عليك كل شيء بصدق  
وأمانة • فى أول الامر كانت زوجتى تجيء وحدها الى هنا • انها قريبتهم •  
ولم يكن لدى أية شبهة • وأمس التقيت بصاحب المعالي الجنرال فأبلغنى  
انه غير مسكنه منذ ثلاث أسابيع و ••• لا ••• انها ليست زوجتى ، بل  
زوجة شخص آخر ••• زوجة الشخص الذى ينتظر على جسر  
فونسنسكى •• هذه السيدة قالت أول أمس انها ذاهبة اليهم فى هذا المسكن  
نفسه • أما الطباخة فقد حكى لى ان شاباً اسمه بوبينستين قد استأجر  
المسكن من صاحب المعالي الجنرال •

- يا للاسم اللعين !

- سيدى العزيز .. أنا خائف ... أنا خائف ..

- ما شأنى بمخاوفك ؟ اسمع ! هذا شخص قد مر من هناك \*

- أين ؟ أين ؟ ما عليك الا أن تصيح : ايفان أندريفتش ، فأهرع  
مسرعاً \*

- طيب اتفقنا \* يا للاسم اللعين !

صاح الشاب :

- ايفان اندريفتش \*

- ها آنذا ! هه ... من ؟ ماذا ؟ ...

كذلك هتف ايفان اندريفتش وهو يعود أدراجه لاهتاً :

- لا ، لا شيء وانما أردت أن أعرف ما اسم هذه السيدة ؟

- جلافه ...

- جلافيرا ؟

- لا ليس هكذا تماماً \* اعذرني ... لا أستطيع أن أقول لك  
اسمها \*

شعوب وجه السيد المحترم شحوباً شديداً وهو ينطق بهذه  
الكلمات \*

- طبعاً ليس اسمها جلافيرا ... أنا أعلم ان اسمها ليس جلافيرا \*  
والاخرى ليس اسمها جلافيرا أيضاً \* ولكن من الذى معها ؟

- أين ؟

- فوق .. شيطان يأخذك .

قال الشاب ذلك وقد جن جنونه حنقاً فهو لا يطبق صبراً على  
الاستقرار فى مكانه .

- كيف عرفت انها تسمى جلافيرا ؟

- وبعد ؟ ألن أتخلص منك اذن أبداً ؟ ألم تقل لى منذ هنيهة ان  
صاحبك ليس اسمها جلافيرا ؟

- لهجتك يا سيدى العزيز ...

- دعك من لهجتى الآن . أهى زوجتك أم لا ؟

- أنا لست متزوجاً . على أننى لا أسمح لفسى بما تسمح لنفسك  
به من اهانة رجل محترم ومن ذكر اسم الشيطان فى مخاطبة اسان مؤدب  
مهذب جدير بكل احترام . انك ما تنفك تكرر قولك يا للاسم اللعين ..  
شيطان يأخذك .. شيطان يأخذك .

- هذا أنا ! افهمنى جيداً ! شيطان يأخذك .. أعود فأقولها .

- الحنق يعميك .. وهأنذا أسكت ... ربا .. ما هذا ؟ ماذا  
أسمع ؟

- أين ؟

سُمت فى تلك اللحظة ضجة وقهقهات . هما فتاتان تهبطان درجات  
المدخل . هرع الرجلان مقبلين عليهما .

هتفت الفتاتان متعجبتين : « لا ! انظرى اليهما ! ماذا تريدان ؟ »

– ماذا دهالك ؟

– ليستا هما •

– ها ••• حسبتماننا غيرنا ا يا حوذى ا

– الى أين أنت ذاهبة يا أمسة ؟

– الى بوكروف •• اصعدى يا أنموشكا ، سأوصلك •••

– انتظرى •• سأجلس فى هذه الجهة • هيا يا حوذى •• وحاذرا

أسرع ما استطعت الاسراع •

مضى الحوذى •

– من أين كاتتا آتيتين ؟

– ما رأيك فى أن تصعد ؟

– الى أين ؟

– الى بيت بويينيتسين •

– لا •• لا يجب ••

– لماذا ؟

– كان يمكن أن أصعد ، ولكنها قادرة على أن تبرىء نفسها •••

على أن تلف وتدور ••• ائنى أعرفها ا لسوف تؤكد أنها جاءت الى هنا

عامدةً من أجل أن تضبطنى مع أخرى •• فأكون فى آخر الأمر أنا

المذنب • ولكن لا أدرى •• ما رأيك أن تصعد أنت الى العجنرال ؟

– ولكنه انتقل من هذا المنزل •

- هذا لا يهم ! ألا تفهم ؟ لقد ذهبت هي الى هناك • فما عليك الا أن تفعل مثلها ، هل فهمت ؟ اخترع •• كأنك تجهل أن الجنرال انتقل من هذا المنزل •• وكأنك جئت تبحث عن زوجتك فى منزله ، الخ •••  
- ثم ؟ انى لا أعرف من الذى يجب أن أضبطه عند بوينتسين •••  
ليس لدى أية فكرة عن هذا الشخص الغب •••

- طيب ••• ولكن أية فائدة تجنيها من ضبط المجرم متلبساً بالجريمة ؟ هلاً فكرت فى هذا الامر •

ما هذا الذى تقوله يا رجل ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ دعنا •• دعنا •• عجيب ! أتراك لا تخجل ولا تستحي أيها الرجل المضحك الغبى ؟

- لست أفهم حرصك على ••• أنت تريد أن تعلم ؟

- أعلم ماذا ؟ ماذا ؟ اذهب عنى •• لا أريد أن أراك •• هياً اغرب عن وجهى ، اذهب عنى ، دعنى وشأنى !

- أيها السيد العزيز •• انك تكاد تنسى نفسك •

كذلك صاح لابس معطف الفراء وقد تملكه كرب شديد •

قال الشاب وهو يركز أسنانه ويتقدم حائفاً نحو لابس المعطف :

- وهبنى أنسى نفسى ••• ماذا يهمك هذا ؟ وأمام من أنسى نفسى ؟

نطق الشاب بهذا السؤال الاخير ممولاً وهو يرفع قبضتى يديه •

- ولكن اسمع لى يا سيدى العزيز •

- مز أنت ؟ أمام من أنسى نفسى ؟ ما اسمك ؟

- لماذا يجب على أن أجيبك أيها الشاب ؟ ما أنت فى حاجة الى

معرفة اسمى ... لا أستطيع أن أذكر لك اسمى ... هياً ... افعل  
ما يحلو لك ... أنا مستعد لكل شيء .. ولكن ثق أنني أستحق أن أخاطب  
مخاطبة أكثر أدباً وتهذيباً • ما ينبغي للمرء أن يفقد هدوء أعصابه ، حتى  
ولو كان في ذروة الألم • انك ما تزال شاباً !

- ماذا يهمنى أن تكون أنت عجوزاً ! أنت أول عجوز في هذه  
الحياة ؟ اذهب عنى ! ما الذى يجعلك تجرى هنا ؟

- أنا لست عجوزاً أبداً ! أين ترى أنني عجوز ؟ لعلك ظننت ذلك  
من رتبتى ؟ ثم اننى لا أجرى •

- هذا واضح • ولكن هيا اذهب من هنا !

- لا لن أتركك • ليس من حقك أن تمنعنى من البقاء معك • ان  
لى صلة بالقضية مثلك • اننى معك أ ...

- اخفض صوتك ... اخفض صوتك ... اسكت !

اجتاز الرجلان درجات المدخل ، وصعدا الى الطابق الثالث • كان  
السلم مظلماً •

- انتظر ! هل معك ثقاب ؟

- ثقاب ؟ أى ثقاب ؟

- هل تدخن سيجارا ؟

- طبعاً ... معى سيجار ، معى سيجار ... انظر ! انتظر ...

اضطرب لابس المعطف •

- آ ... يا للغيب ... هذا هو الباب فيما أظن ...



— هذا •• هذا •• هذا ••

— هذا هذا •• لماذا تعول ؟ اخفض صوتك !

— يا سيدى العزيز •• على مضض انما أ •••• انك لشخص وقع  
وكفى •

• اشتعل عود الثقاب •

— وصلنا • هذه هى البطاقة النحاسية • أقرأ عليها اسم بوينستين •  
هل رأيت ؟ بوينستين ؟

— رأيت ، رأيت •

— اخفض صوتك • هيّا بنا • لقد انطفأ •  
انطفأ ؟

— هل يجب أن نقرع الباب ؟

— طبعاً يجب •

• كذلك قال لابس المعطف •

— اقرع الباب •

— لا •• لماذا أنا ؟ اقرع انت •

— جيان !

— أنت الجيان !

— هلاًّ ذهبت عنى !

— أكاد أندم على أننى أفضيت اليك بسر •• أنت ••

— أنا ؟ قل : أنا ؟

- أنت استغللت حيرتى واضطرابى \*\*\* لاحظت حالة القلق الشديد  
الذى أنا فيها \*\*\*

- هلاً سكت أخيراً ! أرى أن الأمر كله سخيـف وكفى •

- ماذا تصنع هنا اذن ؟

- وأنت ، ماذا تصنع أيضاً ؟

- يا لهذه الأخلاق !

كذلك قال لابس المعطف •

- أمثلك يتكلم عن الاخلاق ؟ أنت لا تستطيع أن \*\*\*

- ولكن هذا الأمر غير أخلاقى •

- أى أمر هو غير أخلاقى ؟

- فى رأيك أن كل زوج تخونه امرأته فهو أبله •

- أأنت اذن زوجها ؟ ألم تقل ان زوجها ينتظر على جسر

فوزنسكى ؟ ما لك ولهذا الموضوع اذن ؟ لماذا تحشر نفسك فيه ؟

- أظن أنك أنت الشيق •

- اسمع • اذا ظلمت تعزف على هذا الوتر ، فسأجدنى مضطرا لأن

أعترف بأنك أنت الأبله •

- تقصد اننى أنا الزوج •

كذلك قال لابس المعطف وهو يتراجع كمن تلقى صفة •

- هس •• اسكت ا •• هل تسمع ؟

• انها هي

• لا

• الظلام شديد

وساد صمت شامل ، ثم سُئمت ضجة صادرة من مسكن  
بوينستين •

قال لابس المعطف هامساً :

• لماذا نهين نفسنا يا سيدى العزيز ؟

• ولكن ألسنت أنت الذى أردت ذلك ، ألسنت أنت الذى أوقمت  
نفسك يا غيبى ؟

• أنت حمستنى •

• اسكت •

• انك ما زلت شابا جدا ، اعترف بذلك •

• هلاً سكت !

• لا أستطيع الا أن أوافقك : الزوج فى هذه الحالة أبله •

• سوف تسكت أم لا ؟

• ولكن لماذا هذا الاستهزاء الشرير بزواج تيس ؟

• انها هي •

• فى تلك اللحظة انقطعت الضجة فى المسكن •

• هي ؟

– هي ، هي ، هي • ولكن لماذا تضطرب أنت ؟ انها ليست زوجتك •

قال لابس المعطف مدممًا منتحبًا :

– سيدى العزيز ، سيدى العزيز ••• طبعًا انا فى حالة غير عادية •••  
لقد لاحظت مذلتى بما فيه الكفاية • الان ليل ، ولكن غدا ••• على انا  
قد لا نلتقى غدا ، رغم اننى لا اخشى ان نلتقى ••• ولكن الزوج ليس أنا  
على كل حال ، الزوج صديقى الذى ينتظر على جسر فونسنسكى •••  
نعم ، هو الزوج • انها زوجته هو ، انها زوجة رجل آخر غيرى • رجل  
تميس ، أؤكد لك • اننى اعرفه حق المعرفة • واذا شئت رويت لك كل  
شئ • أنا صديقه كما أمكنك أن تلاحظ ذلك • كم من مرة قلت له :  
لماذا تتزوج يا عزيزى ؟ ان لك مركزاً ، وأنت فى يسر ، وأنت رجل  
محترم ، ولسوف تعرض كل شئ للخطر فى سبيل امرأة مغناج ! أليس  
كذلك ؟ فكان يجيبنى بقوله : بل سوف أتزوج • فلا شئ كسعادة الأسرة  
••• فانظر الى سعادة الأسرة التى كان يحدثنى عنها ! بالأمس كان هو  
الذى يئب للأزواج قرونًا ••• واليوم يكال له الصاع صاعين ••• معذرة  
اذا قلت هذا ••• ولكن الضرورة هى التى انتزعت منى هذا الشرح •  
انه شقى • انه يشرب الصاب الآن •••

ما كاد الرجل يفرغ من هذا الكلام حتى فاضت عيناه بالدموع • ولم  
تكن ذلك تمثيلاً ! •••

– نعم ••• شيطان يأخذكم جميعاً ••• ما أكثر هؤلاء الحمقى ، ولكن  
أنت ، من أنت ؟

كان الفتى يصر<sup>3</sup> بأسنانه حنقا وهو يلقي هذا السؤال •

– هيّا اعترف بنفسك بعد هذا كله •

... لقد كنت صريحا ونييلا معك ... على حين أن طريقتك ...

... ما اسم أسرتك ؟

... لماذا تريد أن تعرفه ؟

... أوه !

... لا يمكنني أن أذكر لك اسم أسرتي ...

قال الفتى :

... هل تعرف شابرين ؟ شابرين !!

... ماذا ؟ أى شابرين ؟

... كان يبدو أن الفتى يستهزئ بالسيد لابس المعطف .

... هل فهمت ؟

أجاب لابس المعطف مذهولاً :

... كلا . . . كلا . . . لم أفهم شيئاً البتة . هو رجل محترم على كل

حال . اننى أغفر لك قلة أدبك التى مردها الى عذاب النيرة .

... انه رجل خدّاع ، انه انسان مرتشٍ ، هو سارق لص . وسوف

يُحكّم عليه قريباً .

قال السيد لابس المعطف وقد اصفر وجهه اصفرارا شديدا :

... عفوك . انك لا تعرفه أبداً . الآن أرى أنك تجهله تماماً .

... صحيح أنتى لم أره يوماً . ولكننى أعرف أناساً قريين منه ...

هذا الرجل الذى هو ينبوع ...

- ينبوع أى شىء يا سيدى العزيز ؟ اننى مضطرب أشد الاضطراب  
أنت ترى ذلك ♦

- انه أبله ، غيور ، عاجز عن مراقبة امرأته | هذا هو ... اذا  
شئت أن تعرف ذلك ♦

- اسمح لى أن أقول لك انك مخطيء أشد الخطأ أيها الشاب ♦

- آه ... ♦♦♦

- أوه ... ♦♦♦

وجاءت ضجة من مسكن بوينستين ♦ وكان الباب قد أخذ يُفتح ♦  
وسُمت أصوات ♦

قال لابس المعطف :

- لا ♦♦ ليست هى ♦ الآن عرفت كل شىء ♦ ليست هى ♦

وكان ممتع الوجه كأنه ميت ♦

- اسكت ♦

وأسند الشاب ظهره الى الحائط ♦

- أنا منصرف يا سيدى ♦ انها ليست هى ♦ أنا سعيد جداً ♦

- عظيم ♦ امض ♦ امض ♦ انصرف ♦

- لماذا تبقى أنت ؟

- وأنت ؟

وُفتح الباب ، فلم يطلق لابس المعطف صبراً ، ولم يستطع أن يسيطر  
على نفسه ، فهرول يهبط السلم ♦

ومرّت أمام الشاب سيدة يصحبها رجل ، فشعر الشاب بقلق يخفق قلبه .. سمع صوت المرأة التي يعرفها ، ثم سمع صوتاً أجش ، صوت رجل شعر شعوراً غامضاً بأنه يعرفه .

قال الصوت الأجش :

- لا ضير .. سوف آبر بأن تتقدم العربية .

- حسن جداً .

- ليس المكان بعيد .. هي لحظة فحسب .

وبقيت السيدة وحيدة .

هتف الشاب لابس السترة يقول وهو يمسك يد السيدة :

- جلافيرا ! أين عهدك ؟

- آه .. ولكن من أنت ؟ لملك تفجوروف ! ماذا أنت صانع هنا ؟

- مع من كنت ؟

- مع زوجي .. هيأ اذهب ، انصرف ... سوف يرجع حالا ..

كنا عند .. عند أسرة بولوفستين . اذهب ، انصرف ، ناشدتك الله ...

امض ...

- لقد انتقلت أسرة بولوفستين من هذا المنزل منذ ثلاثة أسابيع .

أنا على علم بكل شيء .

- آه ...

وأسرعت السيدة تنزل نحو المدخل . فأدركها الشاب .

قالت السيدة :

- من أبنائك بذلك ؟

- زوجك يا سيدتى ، ايفان أندريفتش ، هو الآن هنا ، انه مائل  
أمامك يا سيدتى ♦♦

وكان ايفان اندريفتش قرب درجات المدخل حقا ♦

هتف السيد لابس المعطف ، وهو يهرع نحوها متظاهرا بالفرح :

- أوه ! هذه أنت يا جلافيرا ♦ رباه ! يا لها من مصادفة ! كنت عند  
أسرة بولوفستين ، تصورى ♦♦♦ أنت تعلمين أنهم يسكنون الآن قرب  
جسر اسماعيلوفسكى ♦ قلت لك ذلك ♦ ألا تتذكرين ؟ وهناك استأجرت  
عربة ، فثارت ثائرة الخيل ، فأسرعت تعدو عدواً مجنوناً ، فتحطمت  
العربة ♦♦♦ فسقطت على مسافة مائة متر من هذا المكان ♦♦♦ وقد أوقف  
الحوذى ♦ وكنت خارجاً عن طورى ♦ ومن حسن الحظ أن السيد  
تفجوروف ♦♦♦

- كيف ؟

كان الشاب لابسُ السترة أقربَ الى تمثال صخر منه الى السيد  
تفجوروف ♦

- رآنى السيد تفجوروف هنا وتفضّل باصْحطابى ♦ ولكنك الآن  
موجودة ، ولم يبق علىّ الا أن أعبر لك عن شكرى وامتنانى يا ايفان  
ايلتش ♦

مدت السيدة يدها للفتى المشدوه ، وصافحت يده ، بل وقرصتها ♦

- يا سيد تفجوروف ، لقد سبق أن سررنا بلقائك فى الحفلة



الراقصة التي أقامتها أسرة سكورلوبوف . أظن اننى حكيت لك ذلك ،  
أترك نسيته يا حبيبي ؟

تمتم الرجل الذى خاطبته السيدة بقولها : يا حبيبي ، تمتم يجب :  
... طبعاً ما نسيت ... اذا صدقت ذاكرتى ... سعيد جداً بمعرفتك  
... سعيد جداً \*

قال ذلك وصافح يد السيد تفوجورف .  
... من معك ؟ ما معنى هذا ؟ اننى أسمع ...  
لقد سُمع الصوت الأجنس .  
وهذا رجل طويل القامة جداً يقف أمام الثلاثة ، وهذا هو يضع  
نظارة على عينه ويحدثق الى الزوج \*  
تمتمت السيدة تقول :

... أوه ... سيد بوبينستين ! من أين أنت آتٍ ؟ يا لها من مصادفة !  
تصور أن الخيل كادت تقتلنى منذ دقيقة ... أقدم لك زوجى ، جان !  
... السيد بوبينستين ... فى الحفلة الراقصة عند أسرة كاربوف .  
... سعيد جداً ... ولكن يا صديقتى سأخذ عربة على الفور .  
... خذ عربة يا جان . ما زلت أرتعش الى الآن . أخشى أن أمرض .  
اليوم ، فى الحفلة الراقصة التكرية ( قالت ذلك مخاطبةً تفوجورف ) .  
الى اللقاء ، الى اللقاء يا سيد بوبينستين ! لعلنا نلتقى غدا فى حفلة أسرة  
كاربوف ..

... لا ... معذرة ... لن أكون هنالك غداً ، ما دامت الأمور تجري  
هذا المجرى اليوم . غداً .

وجمجم السيد بويبتسين يقول كلمات غير مفهومة ، وحيًا وهو يحدث صريراً بحذائيه ، وركب عربته ، وانصرف • اقتربت المركبة : فجلست السيدة • توقف لابس المعطف ، وبدا كأنه لا ينوى التحرك ، وشخص ببصره الى لابس السترة مصعوقًا • أما هذا الاخير فقد ابتسم ابتسامة أقرب الى البلاهة •

- لا أردى •••

- معذرة ••• سعيد بمعرفتك •

كذلك قال الشاب محيياً •

- سعيد كل السعادة •

- ولكن ألم تفقد أحد حذاءيك المطاطين ؟

- أنا ؟ فعلاً ••• أشكرك ، شكراً ••• فى نيتى شراء غيرهما منذ

مدة طويلة •

قال الشاب معبراً عن أشد التملق :

- القدمان تمرقان دائماً فى أحذية المطاط هذه !

- ألا تستطيع يا جان أن تسرع قليلاً •

- حقاً ••• القدمان تمرقان • فوراً ، حالاً ، يا عزيزتى • حديث

شائق • تمرقان فعلاً ، كما لاحظت • ولكننى •• معذرة •

- العفو !

- سعيد جداً بمعرفتك •••

ركب السيد لابس المعطف المركبة ••• وتحركت المركبة • وبقي

الشاب كالتسمّر فى مكانه ، يرشق العربية بنظرات مذهولة •

## الفصل الثاني



هنالك حفلة في مساء الغد تقدمها الأوبرا الإيطالية \*  
دخل ايفان أندريفتش الى القاعة دخول قبلة •  
لم يكن في يوم من الأيام شغوفاً بالموسيقى هنا  
الشغف • كان من عادة ايفان أندريفتش أن يغط

في النوم ساعة أو ساعتين في حفلات الأوبرا الإيطالية • حتى لقد كان  
يقول لأصدقائه أحياناً ان النوم أثناء الغناء ممتع لذيد • غير أن أشهراً طويلة  
قد انقضت على آخر موسم ، والآن ، وا أسفاه ! ان ايفان أندريفتش  
لا يستطيع النوم حتى في بيته • ومع ذلك فقد دخل القاعة الخاصة  
بالمشاهدين دخول قبلة • حتى أن الفتاة التي توصل الداخلين الى مقاعدهم  
ارتعشت خائفة حين رآته ، بل انها ألقت نظرة ثابتة على أحد جيوبه وهي  
على مثل البقين من أنها ستري قبضة خنجر • يجب أن نذكر في هذه  
المناسبة أنه كان قد تشكل حزبان يتعصب كل منهما لغنية يدها المغنية  
الأولى ، فأما الحزب الاول فهو حزب البوريسيين ، وأما الحزب الثاني  
فهو حزب الفريزولتيين • وكان الحزبان يبلغان من حب الموسيقى أن

الفتيات اللواتي يوصلن الداخلين الى مقاعدهم أصبحن يخشين وقوع ما لا تحمد عقباه بين افراد الحزبين حول كل ما يتصل باحدى المنيتين جمالاً وسموا . لذلك تذكرت الفتاة حين رأت هذه الحماسة كلها لدى رجل أشيب الشعر مشرف على الخمسين من عمره ، أصلع جاد ، تذكرت رغم ادارتها الكلمات الرفيعة التي نطق بها هاملت \* ، الامير الدنمركي قائلاً :

وإذا الكهولة أرعدت

ما القول في عهد الشباب !... .

قلت ان الفتاة ألقت نظرة مواربة على الجيب الجانبي من رداء الرجل وهي تخشى أن يقع بصرها على خنجر . ولكن لم يكن في الجيب الا محفظة ، ولا شيء عداها .

حين وثب ايفان أندريفتش داخلاً الى المسرح ، شمل جميع شرفات البلكون الثاني بنظرة سريعة ... . ويا للهول ! لقد أحسن أن قلبه يوشك أن يتوقف عن الخفقان : كانت زوجته هنالك . وكان مكانها في احدى الشرفات ، مع الجنرال بولوفتسين وامراته وأختها ، وكذلك مساعد الجنرال ، وهو شاب شاطر جداً . وكان هناك رجل مدني أيضاً ... . ركز ايفان أندريفتش كل انتباهه ، وكل حدة بصره . ولكن الرجل المدني لم يلبث أن اختبأ وراء مساعد الجنرال ، وليث في الظلام .

انها هناك ، مع أنها كانت صرخت بأنها لن تجيء .

هذا المكر الذي أصبح يظهر لدى جلافيرا منذ زمن ، كان يعذب ايفان أندريفتش . وكان هذا الشاب المدني قد أخذ يلقي ايفان أندريفتش الى هوة الكرب والكمد . وتهالك ايفان أندريفتش على أحد المقاعد طائش اللب .

يجب أن نذكر أن مقعد ايفان أندريفتش كان يقع تحت بينوار ،  
وأن الشرفة اللعينة التي في البلكون الثاني كانت فوق هذا الينوار ؛ بحيث  
أن المسكين كان لا يستطيع أن يرى شيئاً قط مما يجري فوق رأسه .  
لذلك كان في ذروة القلق والغم ، وكان يغلي غليان الماء في السماور .  
ظل غائباً عن وعيه شارد اللب طوال الفصل الاول ، عاجزاً عن سماع أى  
نعمة . يقال ان للموسيقى ميزة هي أن المرء يستطيع أن يجعل التأثيرات  
الموسيقية منسجمة مع أى احساس يحسه . فمن كان فرحاً ادرك في  
اصوات الموسيقى فرحاً ، ومن كان حزيناً ادرك فيها حزناً وألماً .  
فكذلك كانت الموسيقى في اذان ايفان اندريفتش زوابع واعاصير تصصف .  
ومن تمام الشقاء ان صرخات رهيبه كانت ترتفع امام ايفان اندريفتش  
ووراءه وعلى جانبيه ، وكانت هذه الصرخات من القوة بحيث ان ايفان  
اندريفتش احس بقلبه يوشك ان ينفجر . وانهى الفصل اخيراً . ولكن  
في اللحظة التي اسدلت فيها الستارة ، وقع لبطلنا حادث لا يستطيع أى  
قلم ان يصفه .

انه ليحدث في كثير من الاحيان أن تسقط ورقة برنامج الحفلة من  
البلكونات . فاذا كانت التمثيلية ممله ، وكان المشاهدون يتأهبون ، فان  
سقوط الورقة يحدث لهم لذة كبيرة ، فاذا هم يتابعون في كثير من الشوق  
والاهتمام تطايرها الهين وترنحها المترجح هابطة من أعلى الى المقاعد .  
ولا بد لهذه الورقة أن تسقط حتماً على جمجمة لم تكن تتوقع ذلك .  
وانه لمن الشائق حقاً أن يلاحظ المرء كيف تحمر هذه الجمجمة عندئذ ،  
لأنها تحمر حقاً . لذلك فأننى أخاف دائماً من المناظير التي تضعها السيدات  
في كثير من الأحيان على حافة الشرفات ، ويتراءى لى أنها تهم أن تسقط  
أيضاً من لحظة الى أخرى على رأس من الرموس . ولكن هأنذا أتحدث عن  
حوادث مفاجئة ليس هذا أو ان الحديث عنها . لذلك أنصح بها لقصص

الجرائد التي تأخذ على عاتقها ان تجنينا جميع الاكاذيب ، وتقينا من جميع الشرور ، وتبعدنا عن جميع ضروب السام الذي يستبد بنا في بيوتنا •

ولكن الحادث الذي وقع لصاحبنا ايفان اندريفتشس لم يسبق أن وصف في اى مكان • ان الشيء الذي سقط على راسه الاصلع لم يكن ورقة برنامج الحفلة • وانى لاعترف بأننى أشعر بالحجل - أليس الأمر مخجلاً حقاً - حين أذكر ان راسه المحترم كان عارياً ، أى يكاد يكون خالياً من الشعر كل الخلو • وعلى هذا الرأس ، رأس ايفان اندريفتشس ، النيور الغاضب الحائق ، انما سقط ذلك الشيء الذى ليس فيه حشمة ، وهو رسالة غرامية رقيقة معطرة • لذلك فان ايفان اندريفتشس المسكين الذى لم يكن متأهباً لوقوع حادث مزعج الى هذا الحد ، ارتعش ارتعاش من أحسن بوجود فأرة أو حيوان صغير مقترس على جمجمته •

لا يمكن للمرء أن يخطئ في ادراك المضمون الغرامى لهذه الرسالة • انها بطاقة معطرة ، تشبه كل الشبه تلك البطاقات التي تصنفها الروايات ، وهى مطوية طياً يمكن من دخولها فى قفاز سيدة • ولقد سقطت البطاقة على رأس ايفان اندريفتشس مصادفة ولا شك ، وذلك لحظة مدّها لصاحبها • لعل صاحبها كان قد طلب ورقة برنامج الحفلة ، ولعل البطاقة أخفيت فى ورقة البرنامج ببراءة ، فالبطاقة قد مدت اذن ليدين معروفين ، ولكن ها هى ذى حركة غير مقصودة من مساعد الجنرال ( الذى سارع يعتذر عن خرافته بلباقة ) تسقط البطاقة من اليد الصغيرة المرتعشة اضطراباً ، فاذا الشاب المدنى الذى كان يمد يديه نافذ الصبر ، يستلم ورقة برنامج الحفلة التي لا ينتظرها ، بدلاً من البطاقة التي ينتظرها على أحر من الجمر •

حادث غريب ، مزعج ، ذلك أمر لا جدال فيه ،،،، ولكن لاشك  
فى أنه أشد ازعاجاً لايفان آندريفتشس .

تمتم ايفان آندريفتشس يقول وقد بلّله عرق بارد وأخذ يكرمش  
البطاقة فى راحتي يديه :

– مقدّر ، مكتوب ! ،،، الرصاصة تبحث عن الجاني ،،، على  
الجاني تدور الدوائر ،، ولكن لا ،،، فيم أنا جان ؟ ،، ليس هذا هو  
القول الماتور الذى يصدق على حالتى ،، هنالك قول ماتور آخر : « على  
الشقى ماكار ،،، الخ الخ ،، ، »

ما أكثر الخواطر المتفرقة المتنوعة المتناقضة التى تجرى وتشابك  
وتتداخل فى الراس فى مثل هذه الحادثة المفاجئة . لبث ايفان اندريفتشس  
مسمّراً فى مكانه ، متجمداً ، لا هو حى ولا هو ميت كما يقولون . كان  
مقتنعا بان القاعة كلها على علم بشقائه ، مع أن الحماسة للمغنية التى كان  
الجمهور يستيعددها الغناء كانت فى تلك اللحظة نفسها تبلغ حد الهذيان .  
ان ايفان آندريفتشس لا يجرؤ أن يرفع عينيه ، وان وجهه كالأرجوان  
احمراراً من شدة الاضطراب .

التفت نحو رجل أنيق مضحك جالس على يساره ، فقال له :

– لقد غنت غناءً رائعاً .

فلم يزد الرجل الأنيق الذى كان كالمجنون حماسةً والذى كان  
يصفق بيديه ويضرب الأرض برجليه ، لم يزد على أن رماه بنظرة سريعة،  
ثم عاد يصفق تصفيقاً شديداً ، ويعول منادياً باسم المغنية . فارتاح ايفان  
آندريفتشس الذى لم يسمع قبل ذلك يوماً مثل هذا الصراخ ، ارتاح الى  
ذلك أشد الارتياح وسُرَّ به أكبر السرور . قال لنفسه وهو ينظر الى

وراء : « انه لم يلاحظ شيئاً » ، ورأى عندئذ مشاهداً ضخماً ، كان جالساً خلفه ، رآه ينهض ويدبر له ظهره وينظر الى الشرفات . فقال لنفسه مطمئناً :

- لا شك أن كل شيء يجري مجرى حسناً .

وكان واضحاً أنه ما من أحد أمامه قد لاحظ شيئاً . وألقى نظرة مواربة ، خجلى ، ملأى بالامل ، على أقرب بينوار من مقعده ، فرأى سيدة أنيقة جداً قد وضعت منديلاً على فمها ، وانقلبت على ظهر المقعد ، وزاحت تضحك ضحكاً مجلجلاً .

جميعهم ايفان أندريفتشس يقول :

- أوه . . . . يا لهؤلاء النساء !

وهرع نحو المخرج سائراً على أقدام المشاهدين .

وانتبه أترك الآن للقراء أن يحكموا على ايفان أندريفتشس هل كان على حق في تلك اللحظة فعلاً ؟ انكم تعلمون أن « المسرح الكبير » يضم أربعة طوابق من الشرفات ورواقاً . فلماذا التسليم يقيناً بأن هذه البطاقة قد وقعت من احدى الشرفات ، ومن شرفة بعينها ؟ أليس فى الطابق الخامس سيدات أيضا . ولكن الهوى أعمى ، والغيرة أشد الأهواء عماوة على الاطلاق .

أسرع ايفان أندريفتشس الى صالة الاستراحة ووقف أمام أحد المصاييح ، وفض الرسالة فقرأ ما يلي :

« حالاً » ، بعد انتهاء الحفلة فوراً ، فى شارع ج . . . ، عند ناصية الطريق المسدودة « . . . سكنى » ، منزل ك . . . ، الطابق الثانى ، على يمين السلم . تعال حتماً ، ناشدتك الله ! » .



لم يتعرف ايفان أندريفتش خط كاتب الرسالة ، ولكن لم يكن نعمة مجال للشك : هو ضرب موعداً « يجب عليه أن يفاجئ العشيقيين ، يجب عليه أن يضبطهما ، أن يستأصل الشر من جذوره . » تلك كانت الفكرة الأولى التي راودت ذهن ايفان أندريفتش . حتى لقد خطر بباله أن يضبطهما في هذا المكان نفسه فوراً في الشرفة . ولكن كيف يفعل ؟ صعد ايفان اندريفتش الى الطابق الثاني ، ولكن الحكمة لم تلبث أن أنزلته . واذ لم يعرف حقاً ما عساه صانعا بشخصه ، أسرع نحو الجهة المقابلة ، ونظر من خلال الباب المفتوح من شرفة خالية الى الشرفات التي تواجهها . فماذا رأى ؟ كانت الشرفات بكاملها في الطوابق الخمسة مليئة بسيدات شبابت ورجال شباب . فمن الممكن ان تكون البطاقة قد سقطت من اى طابق من هذه الطوابق . ولكن ما من برهان كان يمكن ان يحمل ايفان اندريفتش على تشير رايه . ظل يركض من ممر الى ممر طوال الفصل الثاني ، دون ان يستطيع سيلا الى الهدوء والسكينة والطمأنينة . حتى لقد خطر بباله ان يذهب الى فاطم التذاكر في المسرح املاً ان يعلم من هذا الرجل اسماء الاشخاص الذين يحتلون شرفات الطوابق الاربعه ، ولكن شبك قطع التذاكر كان قد اغلق . واخيراً عاد الصباح الشديد والتصفيق المسعور . لقد انتهت الحفلة . واستعيدت المغنية ، وسمع صوتان في الرواق هما صوتا رئيسي الحزبين . ولكن بال ايفان أندريفتش كان مشغولاً بشيء آخر . كان قد اتخذ قراره فيما يتعلق بالسلوك الذي ينبغي له أن يسلكه . لبس معطفه وطار متجهاً صوب شارع ج . . . لسوف يكتشف فيه الشخصين فيقبض عليهما متلبسين بالجرم ، وسوف يكون في هذه الليلة أقوى ارادة وأصلب عوداً مما كان في الليلة البارحة على كل حال .

لم يجد ايفان عناية في الاهتداء الى المنزل . وفيما كان يجتاز درجات

المدخل اذا بشخص اتيق مضحك ، لابس معطفاً ، يندفع فجأة فيسبقه  
 فى دخول باب العمارة ، ويصعد درجات السلم أربعاً أربعاً حتى الطابق  
 الثالث . فاعتقد ايفان أندريفتش أنه تعرف فيه ذلك الرجل المدنى الذى  
 كان فى شرفة المسرح ، رغم أنه كان يستحيل عليه أن يميز وجه الرجل  
 الأتيق فى المسرح تمييزاً واضحاً . انقبض صدر ايفان . ووصل الرجل  
 الأتيق الى الفسحة الثانية من السلم . وسمع ايفان أندريفتش الباب يفتح  
 وهو على هذه الفسحة الثانية . ان الشخص لم يقرع الجرس ، فلا شك  
 انهم كانوا ينتظرون قدومه . وغاب الرجل الأتيق فى البيت . ووصل  
 ايفان الى الفسحة الثالثة قبل اغلاق الباب . فخطر بباله فى اول الامر أن  
 يمكث فى العتبة يفكر فيما يجب عليه أن يعمل ، وأن يتأمل ملياً ، وأن  
 يزم أمره أخيراً على القيام بفعل حاسم . ولكنه سمع فى هذه اللحظة  
 نفسها جلجلة عربية على باب مدخل العمارة . وفتح الباب الكبير فى قرعة  
 كبيرة ، وسمعت أصوات أقدام ثقيلة . كان الرجل الذى نزل من العربية  
 ودخل العمارة يسعل سعالاً شديداً ، ويتنفس بصعوبة . فلم يتردد ايفان  
 أندريفتش ، فدفع الباب ، فاذا هو فى داخل البيت وقد بدت عليه أهبة  
 الزوج المهان . أقبلت عليه خادمة مضطربة أشد الاضطراب ، ثم ظهر  
 خادم آخر . ولكن احجام ايفان أندريفتش عن المضي فى سبيله كان أمراً  
 مستحيلاً . فيها هو ذا ينتقل من غرفة الى غرفة كالتقبلة . فبعد أن اجتاز  
 حجرتين مظلمتين دخل فجأة الى غرفة النوم ، فاذا هو يرى نفسه أمام  
 امرأة شابة رائحة الجمال تحدق اليه مروعة مذعورة . كان يبدو عليها  
 أنها أصبحت لا تفهم ما يجرى من حولها . وهذه خطوات يُسمع وقمها  
 منذ الآن فى الدهليز المجاور . كان أحد يتجه قدماً نحو غرفة النوم .

- يا رب ! انه زوجى .

كذلك صاحبت السيدة وهي ترفع ذراعها • واصفر وجهها اصفرارا  
شديداً •

ادرك ايفان اندريفتش انه ضل طريقه • لقد تصرف كطفل ،  
كفسي ابله • كان عليه ان يفكر مزيدا من التفكير وان يتروى مزيدا من  
التروى وهو على السلم • ولكن ليس في وسعه الان الا ان يدعن • وفتح  
الباب ، ودخل الزوج الذى لا بد انه كان رجلاً ضخماً ما دام تقيس  
الخطى • لا ادرى ما الذى فاله ايفان اندريفتش فى حق نفسه فى تلك  
اللحظة • ولا ادرى ما الذى منعه من ان يتقدم نحو الزوج راساً ،  
فيترف له بخطئه ، ويمتد اليه ، وينصرف • صحيح أن ذلك ما كان ليم  
على نحو مشرف مجيد ، ولكنه لو فعل لاستطاع على الأقل ان يهرب  
هروبا نبيلاً سريعاً • ولكن ايفان اندريفتش لم يفعل ذلك ، بل تصرف  
مرة اخرى كطفل ، كانه يحسب نفسه دون جوان أو لوفلاس ! فما هو ذا  
يختبئ ، أولاً وراء ستارة السرير ، ثم ما هو ذا يشعر بخوف يخفقه خنقاء  
فيتهاوى على الارض ويزحف متسللاً تحت السرير كقارة • لقد أثر  
فيه الخوف أكثر مما أثر فيه العقل • ان ايفان اندريفتش الذى هو زوج  
مخدوع أيضاً ، أو زوج يمد نفسه مخدوعاً ، لم يطق أن يتحمل هذا  
اللقاء بزوج آخر • ها هو ذا اذن تحت السرير ، لا يفهم كيف جرت  
الأمر • ولكن الشيء الذى أدهشه أكثر من أى شيء آخر هو أن السيدة  
لم تظهر أية معارضة • فلا هى صرخت حين ظهر لها هذا الشخص  
الغريب المسن ، ولا هى احتجت حين رأته يختبئ • فى غرفة نومها • الحق  
أنها بلغت من الدهشة أنها فقدت القدرة على استعمال الكلام •

دخل الزوج وهو يندب ويشخر ، فألقى على زوجته تحية المساء  
بصوت متمب ، وتهاوى على مقعد كأنه كان قد حمل كيساً من حطب • ثم

سعل سعالاً طويلاً أبيض • أما ايفان أندريفتشس الذى تحول من نمر ضاراً الى حمل وديع ، واصبح خائفاً هادئاً ساكناً كفارة صغيرة أمام هرة ، فانه اصبح لا يكاد يستطيع التنفس من شدة الرعب • وكان فى وسعه مع ذلك أن يدرك من تجربته الشخصية أن الأزواج الذين تسمى اليهم زوجاتهم ليسوا يعضون جميعاً • ولكنه لم يفكر فى هذا ، سواء لضعف خياله او لأى ضعف آخر • وحاول ، فى رفق وحذر وتلمس ، أن يستقر تحت السرير على نحو يوفر له أكبر قدر ممكن من الراحة • فما كان أشد دهشته حين لامس شيئاً ما ، وحين أحس بهذا الشيء يتحرك ويمسكه من ذراعه هو أيضاً • لقد كان هنالك رجل آخر محتبب • تحت السرير ! •••

دمدم ايفان أندريفتشس يسأل :

من أنت ؟

فقال الرجل الغريب بصوت خافت جداً :

– لا تظن أننى سأذكر لك اسمى • ارقد ، واصمت ، ما دمت قد أصبحت هنا •••

– ولكن •••

– اسكت !

قال الرجل الزائد ذلك ( وهو زائد لأن رجلاً واحداً تحت السرير كان يكفى كل الكفاية ) ، وضغط ذراع ايفان أندريفتشس ضغطاً بلغ من القوة أن ايفان أوشك أن يصرخ من شدة الألم •

– أيها السيد العزيز ! •••

– هُسن •••

- لا تضغط هذا الضغط الشديد والا صرخت !

- أتحدك أن تصرخ ... حاول ...

احمر ايفان أندريفتش خجلاً • كان الرجل المجهول حاقاً قاسياً  
لعله انسان تلقى ضربات من القدر مرارا ، ومرت به مواقف محرجة هذا  
الاحراج احيانا كثيرة • أما ايفان أندريفتش فانه غر ، وهذه الامور  
جديدة عليه ، لذلك كان يشعر باختناق في صدره • وكان الدم يغلي في  
عروقه وينبض في سدغيه • على أنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً ،  
فبد له من البقاء على هذه الحال مضطجماً على صدره جاعلاً وجهه في  
الارض • كان لا بد لايفان أندريفتش من الخضوع • فسكت •

بدأ الزوج يخاطب زوجته ، فقال لها :

- يا حبيبتى الصغيرة ، يا كنزى الجميل ، لقد كنت عند بافل  
ايفانوفتش ، وقد أخذنا تبادل ال ... كح كح ( وهنا وافت العجوز نوبة  
سعال ) • أخذنا • كح كح • ان ظهري • كح كح • ما هذا  
السعال ؟ كح كح كح .

وظل العجوز يسعل سعالاً شديداً مدة طويلة •

وتمتم أخيراً يقول والدموع في عينيه :

- ان ظهري يؤلمني • يا لهذه البواسير اللعينة ! • لا أطيق وقوفاً  
ولا قعوداً • يستحيل عليّ أن أجلس • كح كح •

وكان يبدو أن نوبة السعال هذه كانت تريد أن تستمر مدة أطول  
من عمر الشيخ نفسه • فلما لاح أنها سكنت ، أخذ الشيخ يجمع بكلام  
غير مفهوم البتة •

- - سيدى العزيز ، ناشدتك الله ... ابتعد قليلا •
- كذلك قال الشقى ايفان آندريفتش هامساً •
- - الى أين تريد منى أن أذهب ؟ ليس فى المكان متسع •
- - ولكن يستحيل علىّ أن أبقى على هذا الوضع • هذه أول مرة فى حياتى أجدنى على هذه الحال الصعبة •
- - وأنا أيضا •• هذه أول مرة فى حياتى أجدنى مع جارٍ مزعج الى هذه الدرجة من الازعاج •
- - ومع ذلك أيها الفتى ••
- - اسكت !
- - أسكت ؟ ان سلوكك غير مهذب على كل حال ، أيها الشاب •
- لا بد أنك شاب ، اذا لم يخطىء ظنى ••• أنا أكبر منك سنًا •
- - اسكت •
- - أيها السيد ، انك تنسى نفسك ، انك لا تعرف من تخاطب •••
- - أخاطب رجلاً مختبئاً تحت سرير •
- - نعم ولكن المفاجأة والخطأ هما اللذان قادانى الى هذا المكان •••
- أما أنت فان اللا أخلاقية هى التى قادتك الى هنا •••
- - ذلك ما تخطىء فيه •
- - أيها السيد ، أعود فأقول لك اننى أكبر منك سنًا •
- - أيها السيد ، اعلم أننا هنا متساويان ••• أطلب منك أن لا تمسّ وجهى •

- سيدى العزيز •• انى لا أميّر شيئاً • اعذرنى • المكان ضيق •

- لماذا أنت سمين هذه السمنة كلها •

- يا رب ! اننى لم أوجد طوال حياتى فى ظرف ذليل الى هذا

الحد •

- نعم ••• ولكن يستحيل عليك أن تكون أحسن حالا •

- سيدى العزيز ، سيدى العزيز ••• أنا لا أعرف من أنت ، ولا

أفهم كيف أمكن أن يقع هذا كله ••• ولكن الخطأ هو الذى جاء بى

الى هنا •• وأنا لست من تظن •••

- ما كنت لأظن فيك شيئاً لولا أنك تتحرك كل هذا التحرك ،

وتضطرب كل هذا الاضطراب ، فاسكت اذن ، ولا تقل شيئاً •

- سيدى العزيز ، اذا لم تتعد قليلا ، فلسوف تصينى نوبة قلبية ••

وسوف تكون مسئولاً عن موتى ، أحلف لك • أنا رجل محترم ، رب

أسرة • حقاً ليس فى وسعى أن أبقى على هذه الحال •

- ولكنك دسست نفسك بنفسك • فماذا تريد ؟ طيب •• تقدم •

هاتناذا أفسح لك مكاناً • يستحيل أن أفعل أكثر من ذلك •

- أيها الفتى النبيل ، سيدى العزيز • الآن أرى أنى أسأت الظن

فيك والحكم عليك •

كذلك قال ايغان !ندريفتش شاكرآ لصاحبه أنه أفسح له مكاناً •

وتمطى محركا أطرافه المتخدره • وأضاف يقول :

- أنا أفهم أنك محصور فى مكان ضيق جداً ، ولكن ما العمل ؟

وانتى لألاحظ أنك ترى فى رأياً سيئاً .. فاسمح لى أن أعسل سمعتى  
أمامك ، اسمح لى أن أقول لك من أنا ... اننى جئت الى هنا رغم ارادتى ،  
ولم أجيء الى هنا للفرض الذى قد تتصوره ... اننى خائف خوفا رهيباً .  
- هلاً سكت أخيراً ؟ ألسنت تدرك اذن أن الأمور ستفسد اذا هم  
سمعونا ؟ هشت .. انه يتكلم .

وفعلا كانت نوبة سعال الشيخ قد انتهت .

استأنف الشيخ كلامه يقول بصوت شاكٍ :

- يا كزى الغالى ، يا عزيزتى .. لقد .. كح كح ... آه ...  
يا للشقاء ! ... ان فيدوسى ايفانوفتشس يؤكد أن على ان أشرب مغلى  
حشيشة الجرح ، أن على أن أجرب هذا العلاج . هل تسمعين  
يا عزيزتى ؟

- اسمع يا صديقى !

- قال لى اذن ان على أن أشرب مغلى حشيشة الجرح . فأجبتة :  
نقد جربت العلق . فقال لى : لا يا الكسندر دميانوفتشس ... حشيشة  
الجرح أفضل ، فهى تهدى السعال ، أوكد لك ... أحلف لك .. كح  
كح .. أوه .. يا رب ! .. ما رأيك يا عزيزتى الغالية ؟ كح كح ..  
يا رب .. كح كح .. اذن هل تعتقدن أن مغلى حشيشة الجرح أفضل ؟  
كح كح .. آه .. كح كح .

قالت الزوجة :

- أظن أن شرب هذا المغلى لن يضرك .

- طبعا لن يضرنى . وقد قال لى : لملك مصاب بالسل . ولكننى



أجبتة : بل هو شيء من التهييج في المعدة • ما رأيك أنت يا عزيزتى ؟ كح  
كح •• هل تظنين أننى مصاب بالسل ؟

- ما هذا الكلام الذى تقوله ؟

- نعم •• السل •• ولكن يا عزيزتى •• عليك أن تخلى ملابسك  
•• يجب أن تنامى •• كح كح •• وأنا اليوم •• كح كح •• مصاب  
•• بزكام ••

قال ايفان أندريفتش :

- هوف •• ناشدتك الله •• ابتعد قليلا أيضا •

- حقا ان أمرك ليدهشنى •• ماذا دهاك ؟ ألا نستطيع أن نترقد  
ساكنًا ؟

- أنت حاقد على حقدًا قاتلاً أيها الشاب ••• لقد أهنتى الآن ••  
اننى أرى هذا •• لا شك أنك عشيق هذه السيدة •  
- اسكت •

- لن أسكت • لن أسمع لك بأن تصدر الى أوامر • انك أنت  
العشيق حتما • فاذا اكتشف أمرنا ، فلن أكون مجرماً فى شيء • اننى  
أجهل الأمر جهلاً تاماً ، اننى غريب عنه فلا صلة لى به •••

قال الشاب وهو يصر بأسنانه :

- اذا لم تسكت فسوف أقول انك أنت الذى جئت بى الى هنا •  
وانك عمى تدمر نفسك وتبدد مالك ••• وبهذا لن يظن أحد أننى أنا  
عشيق هذه السيدة •

– سيدى العزيز .. انك تسخر منى وتستهزى بى .. لقد أنفدت

• صبرى •

– هشت .. اتنى أجبرك على الصمت • أنت كارثة نزلت على ..  
قل لى ما الذى جاء بك الى هنا ! .. لولاك لكان فى وسعى أن أبقى على  
هذه الحال حتى الصباح ، ثم أستطيع أن ألوذ بالفرار •

– ولكننى لا أستطيع أن أمكث مضطجعا هذا الاضطجاع حتى الند  
.. اتنى رجل عاقل .. ولى علاقات كثيرة .. ما رأيك ؟ هل تظن أنه  
سيقضى الليلة هنا ؟

– من ؟

– هذا الشيخ ؟

– حتما • ليس جميع الأزواج يشبهونك • ان منهم من يبيت فى

• بيته •

صاح ايفان آندريفتش وقد تجمد رعباً :

– سيدى العزيز .. سيدى العزيز .. ثق اننى لا أبيت فى غير  
بيتى .. هذه أول مرة يقع لى فيها هذا الامر • يا رب ! ولكننى الأحظ  
أنك تعرفنى • من أنت أيها الشاب ؟ قل لى فوراً ، أضرع اليك ، باسم  
الصدقة البريئة ، قل لى من أنت ؟

– اسمع .. سأستعمل معك العنف والقوة ..

– ولكن اسمح لى ، اسمح لى أن أروى لك ، أيها السيد العزيز ،  
اسمع لى أن أشرح لك كل هذه القصة المشثومة ..

– لن أسمع أى شرح ، لا أريد أن أعرف شيئاً • اسكت ، والا ..

- لا أستطيع ، حقا لا أستطيع ...

وأعقبت ذلك معركة صغيرة تحت السرير ، وصمت ايفان  
أندريفتش •

- يا كنزى الغالى ، لكأن ههنا قطعاً توشوش ...

- قطع ؟ ما هذه الاختراعات ؟

كانت السيدة لا تعرف ماذا تقول لزوجها • انها لم تستطع بعد أن  
تنوب الى رشدها ، وأن تتخلص من الدهول الذى استبد بها • ومع ذلك  
فقد ارتعشت وأصاحت بسممها •

- أية قطع تعنى ؟

- قطع ، يا حمامتى الصغيرة •• لقد دخلت فى أحد الأيام الى  
غرفتى •• فاذا أنا أرى فاسكا \* جالسة تموء : مياو •• مياو •• مياو ••  
وتشخر • قلت لها عندئذ : ما بك يا فاسكا ؟ فعاتت فاسكا تموء : مياو ••  
مياو •• مياو •• وظلت كذلك طول الوقت كأنما هى تدمدم • قلت عندئذ  
لنفسى : « آه •• يا أجدادى ! أتراها تتبألى بالموت ؟! » ••

- ما هذه الترهات التى تقولها اليوم ؟ ألا تستحى ؟

- طيب • ليس هذا بشيء • لا تزعلى يا عزيزتى •• أنا أرى أنك  
ستشقين اذا مت ، ستكونين نعيسة •• لا تزعلى ! •• أوه •• ما قلت هذا  
الا لأقول شيئاً ما •• عليك يا صغيرتى أن تخلى ملابسك وأن ترقدى •  
وسأمتك أنا هنا أثناء رقادك ••

- فى الوقت متسع ، أرجوك •

- طيب • لا تزعلى • ولكن أؤكد لك أن ههنا فئراناً •

- هذا ما كان ينقص .. فتران وقطط \* لا أدري حقا ما الذى  
دهاك !

- أنا .. سخافات .. حماقات .. اننى لا .. كح كح .. لا ..  
كح كح .. كح كح .. آه .. يا رب ! كح كح ..  
دمدم الشاب يقول :

- هل سمعت ؟ لقد أحدثت من الصخب ما جعله ..

- لبتك تعلم ماذا جرى لى ا ان أنفى ينزف \*

- طيب فلينزف أنفك ولتسكت أنت \* انتظر انصراف الشيخ \*

- أيها الفتى ، ضع نفسك فى موضعى .. اننى لا أعرف من  
الشخص الذى أنا راقده قربه \*

- لن تتحسن حالك اذا عرفت من هو \* هل تظن أننى أحرص على  
أن أعرف اسمك ؟ طيب .. ما اسمك ؟

- وقيم أقول لك اسمى ؟ .. ان ما يهمنى هو أن أشرح هذه  
الطريقة السخيفة التى بها ..

- هنت .. لقد عاد يتكلم \*

- أوكد لك يا حبيبتى أن هنا فتراناً .. ألا تسمعين همهمة ؟

- لا .. هو القطن قد وضعته فى أذنيك مقلوباً \*

- بمناسبة القطن ، هل تلمين أن هناك ، فوق .. كح كح ..  
فوق .. كح كح ..

دمدم الفتى يقول :

- فوق ؟ كنت أظن أنا فى الطابق الأخير .. أنحن اذن فى الطابق الأول ؟

قال ايفان أندريفتشس وهو يرتعش ارتعاشا شديدا من قمة رأسه الى أخمص قدميه :

- ماذا تقول أيها الشاب ؟ قل لى ، أرجوك ، لماذا تهتم هذا الاهتمام كله .. أنا أيضا كنت أظن أنا فى الطابق الأخير . قل لى ناشدتك الله هل هناك طابق آخر فى العمارة .

قال الشيخ وقد انقطع سعاله أخيراً :

- أحلف لك أن أحدا يتحرك .

تمتم الشاب وهو يقبض على يدى ايفان أندريفتشس :

- هشت .. هل سمعت ؟

- أيها الشاب ! انك توجع يدى . اتركنى .

- هشت ! ...

وساد الصمت من جديد بعد صراع قصير .

قال الشيخ :

- صادفتُ اذن امرأة جميلة شابة ...

- ماذا ؟

- ألم أقل لك من قبل اننى صادفت على السلم سيدة جميلة شابة ؟

ها ••• لعلنى أغفلت أن أذكر لك ذلك ••• ان ذاكرتى ضعيفة ••• هى  
حشيشة الجرح •• كح كح ••  
- ماذا ؟

- على أن أشرب مغلى حشيشة الجرح ••• يؤكدون لى أن صحتى  
ستتحسن اذا أنا شربته •• كح كح كح •• ستتحسن صحتى ••  
قالت الزوجة :

- قلت انك صادفت امرأة جميلة اليوم ••  
- هه ؟

- امرأة جميلة ؟

- من قال لك ذلك ؟  
أنت •

- أنا ؟ متى ؟ ها •• نعم ••

دمدم الشاب يقول ساخراً من ضعف ذاكرة الشيخ :  
- انه لومياا ا

- سيدى العزيز ، اننى أرتعد رعباً • يا رب ! ما هذا الذى أسمعته؟  
هى قصة الأمس تماماً ، قصة الأمس بعينها •••  
- هشت •••

- ها نعم نعم تذكرت ! يا لها من مأكرة ••• وكانت عيناها صغيرتين  
••• وكانت تضع على رأسها قبعة زرقاء •

.. قبة زرقاء .. أوه .. أوه ..

.. انها هي \* هي تضع على رأسها قبة زرقاء \* يا الهى !

كذلك صاح ايفان أندريفتش \*

سأله الفتى بصوت خافت وهو يضغط يديه :

.. هي ؟ من هي ؟

فقال ايفان أندروفتش بدوره آمراً :

.. هشت ! ..

.. آه ! يا رب ! يا رب !

.. على كل حال يمكن أن يضع كل انسان على رأسه قبة زرقاء ..

واذن ..

وتابع الشيخ كلامه يقول :

.. ويا لها من امرأة فاجرة ! انها تأتي الى هنا لزيارة أصدقاء لا أدري

من عساهم يكونون ! .. ليتك ترين ما تنصف به من رقة وعذوبة

فى نظراتها ! وهناك أصدقاء آخرون يصعدون الى بيت أولئك الاصدقاء ..

قاطعته السيدة تقول :

.. ما هذا الكلام الممل \* فيم تمنيك هذه الأمور ؟

.. طيب طيب \* لا تزعلي \* سأسكت ما دمت تريدين ذلك \* يبدو لى

أنك مبتكرة المزاج فى هذا المساء ..

كذلك قال الشيخ بصوت شاك حزين \*

قال الشاب :

- ولكن كيف دستت نفسك هنا ؟  
- أرايت ؟ أصبح الأمر يهملك الآن بعد أن كنت لا تريد أن تسمع  
كلامى •

- على كل حال ، لا تقل شيئاً اذا شئت !

- لا تزعل أيها الشاب ••• لقد أصبحت لا أعرف ماذا أقول •••  
كل ما هنالك أننى •• لا شك أن ثمة شيئاً خفياً يجعلك •• ولكن من  
أنت أيها الشاب ؟ شىء مجهول طبعاً •• ولكن من أنت ؟ رباه ! أصبحت  
لا أعرف ماذا أقول ••

قاطعه الشاب قائلاً :

- أوه •• كفاك ! أرجوك !

- سأروى لك كل شىء ، كل شىء • قد تظن أننى لن أقصّ عليك  
شيئاً ، وأننى حاقد عليك • لا • كل ما فى الأمر أننى حزين ••• ذلك  
كل ما فى الأمر • ولكن ناشدتك الله قل لى كل شىء أنت أيضاً ، من  
البداية : كيف وقعت هنا ؟ بأية معجزة ؟ أما أنا فلن أغضب ، أحلف لك •  
هذه يدى تعاهدك ؟ ولكن يوجد غبار كثير هنا ، وقد اتسخت يدى ، على  
أن هذا لا ينفى صدق عواطفى نحوك •

- دعنى من يدك ! يستحيل على المرء أن يتحرك أية حركة • انه  
يزعجنى بيده •

قال ايفان أندريفتش فى نوبة من مذلة حزينته بالسة :



– سيدى العزيز ، انك تكلمنى كما لو كنت ... كما لو كنت نعلًا  
باليآ ...

وكان صوت ايفان آندريفتش متضرعًا • وأردف يقول :

– كن أكثر أدبًا وتهذيبًا •• كن أكثر لطفًا ومودة ••• وسأقص  
عليك كل شىء ••• أنا مستعد أن أدعوك الى تناول طعام العشاء فى بيتى •  
حقًا أنا مستعد لذلك • وسوف نكون أصدقاء • ولكن يستحيل أن نبقى  
كلانا راقدين هنا • انك مخطىء أيها الشاب • انك تجهل •

ثأماً الشاب يتساءل وقد بدا عليه الاضطراب :

– متى صادفها يا ترى ؟ لعلها تنتظرنى الآن ••• هى فى انتظارى  
حتمًا • يجب علىّ أن أخرج من هنا •••

– هى فى انتظارك ؟ من هى فى انتظارك ؟ يا رب ! عمّن تتكلم أيها  
الشاب ؟ أنت تقدر أن هناك ، فوق ، فى الطابق الأعلى ••• يا رب !  
يا رب ! ماذا فعلت حتى أعاقب هذا العقاب ؟!

وحاول ايفان آندريفتش أن يقلب على ظهره من قبيل الحزن  
والألم •

– لماذا يعينك أن تعرف من هى ؟ يا الله •• ألا فليحدث ما يحدث !  
•• أما أنا فسأسحب •••

– أيها السيد العزيز ، ماذا تفعل ؟ وأنا ، وأنا ؟ ما عسانى صانعًا ؟  
كذلك همس ايفان آندريفتش وهو يشبث مستميتًا بأطراف ستره  
جاره •

– ما شأنى بك ؟ سوف تبقى وحدك •• فإذا لم تشأ ذلك فسأقول

انك عمى ... عمى الذى بدأ ماله ... وعندئذ فلن يظن الشيخ أننى  
عشيق امرأته .

- مستحيل أن أكون عمك أيها الشاب ، هذا غير طبعى . لن  
يصدقك حتى طفل صغير هكذا ...

همس ايفان أندريفتش بهذه الكلمات يائساً .

- اذن لا تترنر بعد الان ، واليـث ساكنا كميت . امكث على هذه  
الحال طول الليل، وفى الصباح تخرج بطريقه من الطرق . ولن يلاحظك  
عندئذ أحد . . اذا هرب واحد فلن يتصور أحدا أن هناك آخر محتبباً .  
لسنا هنا عشرة . على انك تساوى وحدك اننى عشر رجلا ... تقدم أو  
أخرج .

- أنت لا تحفل بى أيها الشاب ... فما رأيك اذا سعلت ؟ يجب  
على المرء أن يتنبأ بكل شىء ...

- هشت ...

- ماذا هنالك ؟ يخيل الى أننى أسمع جلبة فوق ...

كذلك تتمم الشيخ يقول ، وكان قد بدا لحظة أنه غفا .

- أسمع أنت ؟

- فوق ؟

- أنت تسمع أيها الشاب ، ان الجلبة فوق ...

- نعم أسمع .

- يا رب ! سوف أخرج أيها الشاب .

- ليكن لك ما تريد • أما أنا فأبقى • سيان عندي • هل يهمني أن  
يفسد كل شيء • اسمع • اننى أقدر أنك زوج تخونه امرأته • تلك هى  
القصة كلها •

- ما هذا الكلام السيء ؟ أنت تفترض هذا حقاً ؟ ولكن لماذا ،  
لماذا تتصور أننى زوج •• أنا لست بمتزوج ••

- لست بمتزوج ؟ يا سلام ! •••

- ربما كنت العشيق !

- العشيق ؟ حلو •••

- يا سيدى العزيز ، يا سيدى العزيز •• طيب •• سأقص عليك  
كل شيء • سوف تفهم بلائى وحزنى • لست أنا الزوج • أنا غير متزوج •  
أنا عازب ، مثلك • ولكنه صديقى ، هو رفيق من رفاق الطفولة ••• قال  
لى : « اسمع •• أنا شقى •• لقد شربت الصاب •• » فقلت له : « ولكن  
لماذا تشبه فيها ؟ » • لماذا لا تصنى الى كلامى ؟ هلاًّ أصغيت الى ما أقصه  
عليك ؟ قلت له : « ان الغيرة شيء مضحك ، الغيرة آفة » ، فأجاب يقول  
لى : « أنا انسان شقى تميمس ! لقد شربت الصاب ! هل فهمت ؟ •• » •  
عندئذ قلت له : « لقد كنت رفيق طفولتى • وقد قطفنا أزهار اللذات  
معا •• » • رباه ! أصبحت لا أعرف ماذا أقول • انك تضحك أيها الشاب •  
انك تفقدنى صوابى •

- بل لقد فقدت صوابك وانتهى الأمر • أنت مجنون •

- كنت أحس أنك ستقول هذا الكلام •• اضحك •• اضحك أيها  
الشاب • أنا أيضا كانت لى غزواتى فى أيام الشباب ، وكنت أعرف الاغراء  
والانغواء •• أوه ! لسوف يحترقن دماغى أخيراً •

- ولكن قولى لى يا عزيزتى ... يخيّل الى أنّى أسمع عطساً فى بيتنا ! أنت التى تعطسين يا حبيبتى ؟

بذلك تتم الشيخ يسأل امرأته •

فقدمت الزوجة تقول متطملة :

- أوه .. ما هذا يا رب !

و'سمع تحت السرير صوت :

- هشت ..

فقال الزوجة مذعورة :

- لا شك أنهم يخطون فوق •

والحق أن الضجة قد ازدادت قوة تحت السرير •

قال الزوج موافقاً :

- حقا .. فوق .. قلت لك ان ذلك الشاب المتأنق .. كح كح ..

ذلك الشاب المتأنق ذا الشاربين الصغيرين • آه .. يا رب ! ظهري ! ..

لقد صادفت ذلك المتأنق ذا الشاربين الصغيرين ...

- أهو ذو شاربين صغيرين ؟ لملك اذن أنت ذلك الشاب !

كذلك دمدم ايفان آندريفتش •

- أى شاب ؟ يا رب ! ساعة تنزل عليك .. اننى هنا بقربك !

فكيف يمكن أن يكون قد صادفنى ؟ هلاً تركت وجهى وشأنه !

- لا شك أن نوبةً قلبية ستصيبنى • هذا مؤكد •

وفى تلك اللحظة سُمعت جلبةً صادرة من الطابق الأعلى فعلاً •

همس الفتى سائلاً :

- ما هذا ؟

- سيدى العزيز ... اتنى أموت ذعراً ... أموت رعباً ...  
أنجدنى •

- اسمعى يا عزيزتى ، انها جلبة "حقاً" ... جلبة جهنمية ... وهى  
فوق غرفة نومك تماما • ما رأيك فى أن نرسل أحداً ينبههم ؟  
- لا ينقصنا الا أن نفعل هذا •

- أوه •• كما تشائين • انك عصبية جداً فى هذا المساء •

- يا رب ! الأفضل أن تمضى الى سريرك فتمام •

- ليزا ... لقد أصبحت لا تحييننى •

- بل ما زلت أحبك • ولكننى متعبة جداً •

- طيب طيب •• سامضى •

- لا •• لا •• لا تذهب •• بل اذهب •• اذهب •• اذهب ••

كذلك صاحت الزوجة تقول لزوجها الشيخ •

- ولكن ماذا بك حقاً ؟ اذهب •• لا تذهب ! كح كح •• على

كل حال ، سوف أمضى أنام •• كح كح •• يا لبنيات بانافيدين هاته ••

كح كح •• هاته البنيات •• كح كح •• لقد رأيت عند احدى الصغيرات

عروسة ، لعبة من نورنبرج •• كح كح ••

- وصلنا الى الحديث على العرائس ، على اللعب •••

- كح كح •• عروسة حلوة جداً •• كح ••

همس الشاب يقول :

- انه يودّع • ألا فلينصرف ، لنهرب على الفور • هل تسمعني ؟  
أفرح اذن !

- أسأل الله أن يستجيب لأمنيّك !

- هذا درس نافع لك •

- أيها الشاب ، أي درس تعني ؟ انسى أحزر ما تعنيه ••• ولكنك

ما تزال شاباً • ولا تستطيع أن تلقى على درساً •

- مع ذلك سألقنك درساً •• اسمع ••

- آه •• سوف أعطس •••

- اياك ، حذار أن تمطس •••

- ما حيلتي ؟ الرائحة رائحة فأرة •• حقاً لا أستطيع ••• اسحب

منديلي من هذا الجيب ، ناشدتك الله •• يستحيل علىّ أنا أن أقوم بأية

حركة • يا رب ! يا رب ! ماذا فعلت حتى أعاقب هذا العقاب ؟

- إليك منديلك • وسأقول لك الآن سبب العقاب الذي تلقاه • أنت

غيور • استندت على أسباب لا أدري ما هي ، فجعلت تركض كمن مسّه

جن ، ودخلت حائقا كالمجنون لدى غرباء ، وسببت فضيحة !

- أنا لم أسبب أية فضيحة •

- أسكت !

- أيها الشاب ، ليس من حقتك أن تلقى علىّ مواعظ وأن تسدى الىّ

بنصائح • ان سلوكي خير من سلوكك •

- اسكت \*

- أوه ! يا رب ! يا رب !

- انك تسبب فضيحة ، انك ترعب سيده قد يصيبها من ذلك مرض \*  
وانك لنلقى الى القلق والاضطراب شيخا محترما يعذبه السعال ، ويحتاج  
الى الهدوء أكثر من اى شىء آخر \* \* ولماذا كل هذا ؟ لانك تصورت  
سخافات لا يدري الا الشيطان ما هى ، فجعلت تركض هنا وهناك يمنة  
ويسرة \* \* هل فهمت ؟ هل ادركت الى اية قصة سيئة هويت ؟ أنت  
تشعر بذلك ؟

- أشعر بذلك يا سيدى العزيز ، ولكن ليس من حقت أن \* \* \*

- اسكت \* لا قيمة للحق هنا \* هل تدرك أن هذا كله يمكن أن  
ينتهى الى مأساة ؟ هل تدرك أن هذا الشيخ الذى يحب زوجته يمكن أن  
يفقد عقله حين يراك تخرج من تحت السرير ؟ ولكن لا \* \* \* انك لن  
تستطيع أن تحدث مأساة ! واذا خرجت من هنا فلن يزيدوا حين يرونك  
على أن ينفجروا ضاحكين مقهقين ! وددت لو أراك فى ضوء الشموع !  
لسوف يكون منظره مضحكا حقا !

- وأنت ؟ أنت أيضا مضحك جداً فى هذا الطرف \* وددت لو أراك  
أنا أيضاً \*

- ما سيلك الى ذلك ؟

- لا شك أيها الشاب فى انك امرؤ خالٍ من الاخلاق !

- أوه \* \* أتتكلم عن الأخلاق ؟ وأنى لك أن تعرف سبب وجودى  
هنا ؟ ان الخطأ هو الذى قادنى الى هذا المكان ، لقد ضللت طريقي الى  
الطابق الذى كنت قاصداً اليه \* ولا أدري لماذا سُمح لى بالدخول الى

هنا • أغلب الظن أنها كانت تنتظر أحدا هي أيضا - ولست أنت من كانت تنتظره حتماً • واختبات تحت السرير حين سمعت خطواتك الغبية ورأيت الذعر في وجه السيدة • ثم ان الظلام كان سائدا • ولكن فيم أبرد نفسي أمامك ؟ أنت عجوز غيور مضحك ••• أما لماذا أبقى تحت السرير ، فلملك تظن أنني خائف أن أخرج ! لا يا سيدي ، لو أردت ذلك لفعلتسه منذ مدة طويلة ، ولئن كنت لا أتحرك فما ذلك الا شفقة عليك ورحمة بك • فلو خرجت أنا لأصبحت أنت كالحطبة أمامهم لا تعرف ماذا تقول •

- لماذا أكون كالحطبة ؟ لماذا تشبهني بحطبة ؟ كان في وسعك أن تجد تشبيها آخر أيها الشاب ! ولماذا لا أعرف ماذا أقول ؟ لسوف أظل محتفظاً برأسي على كفتي •

- أوه •• هذا كلب أخذ ينبح •

- انك لم تقطع عن الثرثرة فأيقظت الكلب الصغير من نومه • هذه هي الكارثة •

وفعلا ، فإن الكلب الصغير الذي تملكه السيدة والذي كان حتى ذلك الحين نائما في ركنه على مخدة ، قد استيقظ فجأة • وأخذ يتشمم وجود غرباء ، وهرع يمضى تحت السرير نابحاً •

دمدم ايفان أندريفتشي :

- يا رب ! يا لهذا الكلب من غبي •• لسوف يفضح أمرنا • هذه لعنة •

- طبعاً •• ذلك يمكن أن يحدث من فرط خوفك •

صاحت ربة البيت تتأدى كلبها :





– ماذا فعلت أيها اللص ؟ لسوف تضيعنا • لماذا تقبض عليه ؟ يا رب !  
انه يخنقه | لا تخنقه • دعه •• اتركه •• اتركه ايها الشيطان •• أنت  
تجهل اذن ما يمكن أن تفعله سيدة اذا قتل كلبها ! لسوف تسلمنا كلينا اذا  
أنت قتلت كلبها •

ولكن ايفان أندريفتش أصبح لا يسمع شيئاً • لقد استطاع أن  
يقبض على الكلب الصغير ، واستطاع بفعل دفاع مشروع أن يمسك  
بخنقه ، فما كان من الكلب الا أن صرخ صرخة شاكية ، ثم لفظ روحه •

همس الشاب يقول :

– لقد ضنا !

وصاحت المرأة تنادى كلبها :

– آميشكا ، آميشكا ! يا رب ! ماذا فعلوا بعزيزي آميشكا ؟  
آميشكا ! هنا ! آه من اللصوص ، آه من الهمج ! يا رب •• انى ليفمى  
على •••

صاح الشيخ وهو يثب عن مقعده :

– ماذا هنالك ؟ ما الذى يجرى ؟ ما بك يا كنزى الغالى ؟ آميشكا !  
تعال هنا ! آميشكا •• آميشكا •• آميشكا ! ( نادى الكلب وهو يصفق  
أصابعه ) ••• الى هنا يا آميشكا ! الى هنا ! يستحيل أن تكون القطعة فاسكا  
قد أكلته ! يجب جلدها ، هذه القطعة ، يا حبيبتى • يا لها من قطة رعناء !  
انا لم نجلدها منذ أكثر من شهر ؟ ما رأيك ؟ سوف أستشير غداً  
براسكوفيا زاخارييفا • ولكن ماذا بك يا عزيزتى ؟ انك شاحبة الوجه  
ممتعة اللون ! أوه ! •• ناس •• ناس !

وقام الشيخ يركض فى العرفة •

وأعولت السيدة تقول وقد تهالكت على أريكة :

- لصوص •• شياطين ••

فهتف الشيخ يسألها :

- من ؟ من ؟

- هناك ! هناك ! يوجد أشخاص ••• يوجد غرباء ! هناك تحت السرير • آه ! يا رب ! أميشكا •• أميشكا ! ماذا صنعوا بك يا أميشكا ؟

- يا رب ! أشخاص ؟ أميشكا ! أيها الخدم •• أيها الخدم ! تعالوا

تعالوا •• مَنْ هنا ؟ من هنا ؟ أيها الخدم ! •••

وأمسك الشيخ شمعة ومال تحت السرير •

- مَنْ هنا ؟ مَنْ هنا ؟ أيها الخدم ! أيها الخدم !

لبث ايفان أندريفتش ساكناً فى مكانه قرب جثة الكلب الصغير لا هو بالحى ولا هو بالميت ! ولكن الشاب كان يتابع بصره أيسر حركات الشيخ • ودار الشيخ فجأة حول السرير ، وانحنى قرب الحائط • فما هى الا ثمانية واحدة حتى خرج الشاب من تحت السرير ، واندفع يهرب ، بينما كان الزوج يبحث عن ضيوفه فى الجهة الأخرى من فراش الزوجية •

دمدمت السيدة تقول حين رأت الشاب :

- يا الهى ! من أنت ؟ لقد ظننتك •••

فأجابها الشاب بصوت خافت :

- الشيطان ما يزال هناك • هو الذى قتل أميشكا •

هتفت المرأة :

- أوه ! ...

ولكن الشاب كان قد هرب \*

- أوه ! يوجد أحد هنا \* اننى أرى حذاء \*

كذلك صاح الشيخ وهو يمسك قدم ايفان أندريفتش \*

صرخت السيدة :

- قاتل .. قاتل .. سفاح .. سفاح .. آمى .. آمى ..

وصرخ الشيخ وهو يضرب الأرض بقدميه :

- اخرج .. اخرج .. اخرج ! من أنت ؟ قل من أنت ! يا رب !

يا رب ! ما أغرب هذا الشخص !

- الهم لصوص \*

هتف ايفان أندريفتش وهو يخرج من تحت السيرير :

- ناشدتك الله .. ناشدتك الله يا صاحب المظلي ، لا تبادر رجالك !

لا تستدع أحداً يا صاحب المظلي ! ليس لهيبك أية فائدة ! لا داعي إلى

ذلك ! لن يكون عليك أن تطردنى ! أنا لست ذلك الرجل ! أنا انحناء

طبعي جدا . لقد وقع هذا كله خطأ يا صاحب المظلي ! سأشرح لمالك

كل شيء فوراً \*

قال ايفان أندريفتش ذلك ، وشخر وأجهش باكياً . ثم أردف

يقول :

- هي المرأة .. لا أعنى زوجتى .. لا .. بل زوجة رجل آخر

•• أنا لست بمتزوج ! ولكن الزوج صديقي ، هو رفيق من رفاق  
الطفولة •••

صرخ الشيخ يقول وهو يضرب الأرض بقدميه :  
- أى رفيق من رفاق الطفولة ؟ أنت لص ، جئت هنا سارقاً ! ما من  
رفيق من رفاق الطفولة !

... لا •• لست بلص يا صاحب المعالي • أنا حقاً رفيق من رفاق  
الطفولة •• ذلك خطأ عارض •• لقد وصلت الى هنا مصادفة من المدخل  
الآخر •

- ولكننى أرى أيها السيد من أين خرجت الآن !

... يا صاحب المعالي • أنا لست ذلك الرجل • أنت مخطئ • أكرر  
أنك ترتكب خطأ قاسياً يا صاحب المعالي • انظر الى تفهم من بعض العلام  
والامارات أننى لست بلص • يا صاحب المعالي ، يا صاحب المعالي ( كذلك  
أخذ يصيح ايفان آندريفتش ضامناً يديه احديهما الى الأخرى ) وأنت  
يا سيدتى ، افهمينى ••• أنا الذى خنقت آميشكا ••• ولكننى لست مذنباً  
أحلف لك اننى لست مذنباً • ان زوجتى هى المذنبه • أنا رجل تيس  
•• لقد شربت الصاب •

- ولكن اسمع : فيم يهمنى أن تكون قد تجرعت كأساً •• ولعلك  
قد تجرعت كئوساً عدة لا كأساً واحدة ؟ هذا ظاهر من حالتك • ولكن  
كيف أمكنك أن تدخل الى هنا ؟

هكذا صرخ يقول الشيخ مضطرباً مرتعشاً ، ولكنه مقتنع مع ذلك  
بأن ايفان آندريفتش لا يمكن أن يكون فى الواقع لصاً • وأردف يسأله :  
- اننى أسألك : كيف دخلت الى هنا دخول لص ؟

- لست لصاً يا صاحب المعالي • أحلف لك اننى لست سارقاً •  
ذلك كله ثمرة غيرتى • سوف اقص عليك كل شيء يا صاحب المعالي ،  
سوف اروي لك كل شيء أميناً صادقاً ، كما يروى ابن لاييه ••• فانت  
فى سنٍ يمكن أن تجعلك بمثابة أبى ؟

- ما هذا الذى تقول ؟ أى سن ؟

- لعلنى اسات اليك يا صاحب المعالي ا سيدة شابة فى ميعه الصبا ••  
ورجل فى عمرك •• حقاً انه منظر يسر العين يا صاحب المعالي • ان المرء  
ليفتبط حقاً حين يرى اتحاداً كهذا الاتحاد •• فى زهرة العمر • ولكن  
لا تستدع رجالك •• ناشدتك الله ، لا تناد أحداً ••• انهم لن يفهموا  
شيئاً • أنا أعرفهم •• أقصد •• لا أريد أن أقول ان علاقاتى المعتادة هى  
علاقات بالخدم • أنا أيضاً عندى خدم يا صاحب المعالي ، وهم لا ينفكون  
يسخرون ويستهزئون •• هؤلاء الحمير ! •• يا صاحب السمو ••  
لا أظن أننى أخطأت •• أعتقد اننى أخاطب أميراً •

- لا يا سيد ، لست تتخاطب أميراً •• أنا ما أنا • أرجو أن لا تحاول  
استماتنى بالتملق قائلًا « يا صاحب السمو » هذه •• كيف اندستت هنا  
أيها السيد ؟ كيف اندستت ؟

- يا صاحب السمو ، أقصد يا صاحب المعالي ••• عفواً ••• كنت  
أظن أنك صاحب سمو •• لقد أخطأت •• هذا يحدث • انك تشبهه شيئاً  
كبيراً الامير كوروتكوخوف الذى تشرفت بلقائه عند صديقى السيد  
بوزيريف • هانت ذا ترى أننى أعرف أمراء أيضاً • لقد صافحت يد أمير  
عند صديقى • فلا تستطيع أن تحسب اننى من تظن •• لست بسارق •  
لا تناد أحداً يا صاحب السعادة •• اذ ما الذى يمكن أن يحدث لو فعلت ؟  
- ولكن كيف جئت الى هنا ؟ من أنت ؟

هكذا صرخت السيدة • فنتى زوجها على سؤالها قائلاً :

- نعم ، من أنت ؟

ثم التفت الشيخ الى زوجته يقول لها :

- ألا ما كان أغبائى يا كنزى الغالى ! لقد تصورت أن قطننا فاسكا  
هى التى كانت تعطس تحت السرير ، بينما كان هذا الرجل هو الذى  
يعطس ! •••

ثم عاد الشيخ يسأل ايفان وهو يضرب الارض بقدميه :

- من انت ؟ هلاً تكلمت !

- لا استطيع ان اتكلم يا صاحب المعالى • انتظر ان تنتهى من كلامك  
•• اننى اصغى الى امازيحت الفكه الطريفة : اما فيما يتعلق بى ، فذلك  
حكايه مضحكه جدا يا صاحب السعادة • ساقص عليك كل شىء • لاتستدع  
الناس • عاملتى معامله نبيلة • ليس بالامر الخطير أننى كنت تحت السرير ،  
ولم أفقد بسبب ذلك شيئاً من كرامتى • هى قصة مضحكة جدا جدا  
يا صاحبة المعالى ( قال ايفان ذلك ملتفتا الى السيدة الشابة بوجه ضارع  
متوسل ) ••• لا سيما أنت يا صاحبة المعالى ••• لا بد أن تضحكى كثيرا  
متى عرفت القصة • تصورى رجلا غيورا على مسرح • انه أمامك الآن •  
هأنذا أذل نفسى ، بمحض ارادتى • صحيح أنني قتلت أميشكا ••• ولكن  
••• يا رب ! أصبحت لا أعرف ماذا أقول •

- ولكن كيف دخلت الى هنا ؟

- استفدت من الظلمة يا صاحب المعالى ••• يؤسفنى جدا أننى فعلت  
ذلك ••• سامحنى يا صاحب المعالى • أسألك الصفح والمغفرة بكثير من

المذلة • ما أنا الا زوج أسى • اليه • لا يخطرنبً ببالك يا صاحب المعالى  
أننى أنا العشيق • لست أنا العشيق • ان زوجتك امرأة فاضلة ، اذا سمحت  
لى بأن أقول هذا • انها طاهرة بريئة •

صرخ الشيخ وهو يضرب الارض بقدميه من جديد :

– ماذا ؟ كيف ؟ ما هذا الذى تجرؤ أن تقوله ؟ هل فقدت عقلك ؟  
ما هذه الجرأة فى الكلام على زوجتى ؟

وصاحت السيدة تقول وقد فاضت عيناها دموعا :

– هذا اللص ، هذا القاتل التى خنت آميشكا ! ... انه يجرؤ أيضا

••• أن

– يا صاحب المعالى ، يا صاحب المعالى ، أنا لا أقول الا حماقات !

كان ايفان آندريفتش أقرب الى الموت منه الى الحياة •

وتابع يقول :

– ما أنا الا أبله معتوه ! انظر الى نظرتك الى عقل مضطرب! أحلف  
لك أنك ستخدمنى اذا فعلت ذلك •• كان يمكن أن أمد اليك يدى ولكننى  
لا أتجاسر •• اننى لم أكن وحدى •• أنا العم •• أنا عمه •• أقصد انه  
يستحيل أن أعدّ أنا العشيق ••• رباه ! عدت أقول سخفا ••• لا تزعلى  
يا صاحبة المعالى ( كذلك صرخ ايفان آندريفتش مخاطبا الزوجة ) • أنت  
سيدة • وأنت تعرفين ما هو الحب •• الحب عاطفة رقيقة مرهفة •• هأنذا  
أهرف أيضا •• أريد أن أقول فقط اننى رجل عجوز ، أقصد اننى رجل  
مسن لا شسوخ هرم ، فلا يمكن والحالة هذه أن أكون عشيقك • ان  
رتشاردسون \* هو العشيق •• أقصد لوفلاس •• آه ما أغبانى ! ولكن



هانت ترى يا صاحب المعالي اننى رجل مثقف ، وأنتى أعرف الادب • انك  
تضحك يا صاحب المعالي • وانتى سعيد جدا بأننى بمثت فيك الضحك  
يا صاحب المعالي ! آه ... ما أسعدنى يا ضحاكك •

صاحت المرأة تقول وهى تنفجر مقهقهة :

- انه لرجل مضحك حقا •

قال الشيخ مفتتا بضحك امرأته :

- مضحك جدا • يستحيل ان يكون لصا يا حبيبتى • ولكن كيف  
دخلت الى هنا ؟

- أمر غريب فى الواقع ... أمر غريب جدا يا صاحب المعالي • هى  
رواية حقا • كيف ؟ فى غياهب الليل ، فى عاصمة ، رجل تحت سرير ••  
أمر غريب •• أمر شائق عجيب •• من نوع رينالدو رينالدينى \* من بعض  
الوجوه ! ولكن ليس هذا بشئ ••• ليس هذا كله بشئ • يا صاحب المعالي  
•• ساقص عليك القصة كاملة • أما أنتى يا صاحبة المعالي ، فسأتيك بكلب  
صغير آخر ، كلب صغير فريد فى نوعه ••• له وبر طويل وقوائم قصيرة  
•• حتى ليعجز عن السير خطوطين دون أن يتشر بوره حين يرى كفن فاذا  
هو يسقط • ويكفيه السكر طمانا • سأجيتك به يا صاحبة الشعادة ،  
أحلف لك •••

لم تتمالك السيدة عن الانفجار ضساحكة ، فتهاتوت على مقدمها  
مقهقهة :

- قد قد قد ! ان نوبة عصية توشك أن تواتينى ••• هذا مؤكد •  
رباه ! كم هو مضحك هذا الرجل •

- حقا ... كح كح كح ... مضحك ومتسخ جدا ! ... كح  
... كح

- يا صاحب المعالي ! اننى فى ذروة السعادة • وددت لو أمد لك  
يدى مصافحا ، ولكننى لا أجرؤ يا صاحب المعالي • لقد هرقت كثيرا ، أنا  
أشعر بذلك ... أما الآن فان عينى تتفتحان • أنا واثق ان زوجتى  
بريئة طاهرة • لقد أسأت الظن فيها •

صاحت السيدة تقول وقد امتلأت عينها دموعا من فرط الضحك :

- زوجته ؟ زوجته ؟

قال الزوج :

- متزوج ؟ أهو حقا متزوج ؟ ما كان ليخطر ببالي هذا أبدا •

- يا صاحب المعالي ... ان امرأتى هى المذنبه ... أقصد أننى أنا  
المخطئ ، لأننى شككت فيها ... كنت أعلم أن موعدا قد ضرب هناك ،  
فوق ، فى الطابق الاعلى ... كنت قد ضبطت رسالة تدل على ذلك ...  
ثم أخطأت سبيلى الى الطابق الاعلى ، فاذا أنا هنا تحت السرير •

- هو ، هو ، هو ، هو !

- ها ، ها ، ها ، ها !

- هو ، هو ، هو ، هو !

لقد فهقه ايفان أندريفتش هو أيضا حتى كاد يهتق من الضحك •  
ليتك تعلمون مدى سعادتى ! أوه ! ما أمتع أن أرى أننا جميعا على وفاق ،  
وانا جميعا مقتبطون ! وزوجتى أيضا بريئة كل البراءة • أكاد اكون على  
يقين من هذا • لأنها بريئة حقا ، أليس كذلك يا صاحب السعادة ؟

ضحك الشيخ ، ثم سعل :

- ها ! ها ! ها ! كح كح ...

واستطاع أخيرا بعد أن سيطر على ضحكه أن يقول :

- هل تعلمين من هي يا حبيبتى ؟

- من هي ؟ ها ها ها ! من هي ؟

- هي تلك الجميلة الغاتة التي تنظر نظرات رقيقة الى ذلك الشاب

المتأنق • أراهن انها هي زوجته !

- لا يا صاحب المعالي ، انا متأكد أنها ليست هي ... متأكد كل

التأكد ...

صاحت السيدة وقد كفت عن الضحك :

- فلماذا تضيع وقتك اذن ؟ هيا اسرع ، فمسالك تلاقهما الآن معا ؟

- حقا يا صاحب المعالي ، سوف أطير طيرانا • ولكننى لن أجد أحدا

يا صاحب المعالي • ليست هي • أنا أعرف ذلك سلفا • انها الان فى البيت

• أما أنا ••• فما أنا الا رجل غيور أعمته الغيرة ••• ما رأيك يا صاحبة

المعالي ؟ هل تعتقدين أننى سأجدهما هنالك معا ؟

- هو ! هو ! هو ! •••

- هي ! هي ! هي ! كح كح ...

قالت السيدة :

- أسرع ، أسرع ••• وفى أثناء عودتك ، تعال الينا فقص علينا

ما جرى ••• أو تعال غدا ، فذلك أفضل • وجىء بها الينا • اننى أريد

أن أتعرف اليها •

– الى اللقاء يا صاحبة المعالي • الى اللقاء • سوف أجيء بها حتما ،  
وانتى لسعيد بمعرفتك • يسرنى ويسعدنى أن تنتهى الامور هذه النهاية  
التي لم تكن فى الحسبان ، وأن تنحل المشكلة على أفضل نحو ممكن •••  
– والكلب الصغير ذو الوبر الطويل ! اياك أن تنسى الكلب الصغير  
قبل كل شيء •

– سأجيئك به يا صاحبة المعالي ، سأجيئك به حتما ، سأجيئك به •  
كذلك قال ايفان آندريفتش عائدا الى الغرفة بسرعة ، لأنه كان قد  
انصرف بمدّ أن ودّع • وتابع يقول :

– سأعود بالكلب الصغير حتما • انه حلو جدا • كأن صانع حلوى  
قد صنعه من سكر • وسترين • انه يركض فيتمش بشعره فيسقط • هو  
كذلك • أوكد لك • حتى لقد كنت أقول لزوجتى : « لماذا هو يسقط  
دائما على الارض يا عزيزتى ؟ » فقالت تجيبنى : « لأنه صغير جدا » • انه  
من سكر يا صاحبة المعالي • اننى سعيدا جدا بمعرفتكم •

قال ايفان اندريفتش ذلك ثم حيا وخرج •

– يا سيد ، يا سيد ! انتظر ! ارجع !

هكذا نادى الشيخ صاحبنا ايفان آندريفتش • فله ايفان آندريفتش  
مرة ثانية الى الغرفة •

– اسمع ! انى لم الأخط قتلنا فاسكا ؟ ترى هل رأيتها حين كنت  
تحت السرير ؟

– لا ••• لم الأخطها يا صاحب المعالي • على كل حال سأكون سعيدا  
جدا ، وسيسرفنى أن أهرقها •

- هي أيضا مصابة بزكام ، وما تنفك تعطس ••• يجب جلدتها •
- طبعاً يا صاحب المعالي • العقوبات التأديبية ضرورية للحيوانات  
الاهلية •

- ماذا ؟

- أقول ان العقوبات التأديبية ضرورية للحيوانات الاهلية •
  - طيب اذهب • بارك الله فيك • كنت اريد فقط ان •••
- حين وجد ايفان اندريفتش نفسه في الشارع ، ظل ساكناً جامداً خلال زمن طويل ، كأنسان يتوقع ان يتهوى على الارض من لحظة الى اخرى بسكنة قلبية • نزع قبعته ، وجفف العرق البارد عن جبينه ، وقطب حاجبيه ، وبدا عليه التفكير والتأمل ، ثم اسرع راكضاً في اتجاه بيته •
- فما كان أشد ذهوله حين علم في منزله أن جلافيراً قد عادت من المسرح منذ زمن طويل • وكانت قد عانت آلاماً شديدة في أسنانها ، وطلبت طبيباً ، وعالجت نفسها بعلق • وكانت جلافيراً راقدة في سريرها تنتظر ايفان أندريفتش •

لطم ايفان أندريفتش جبينه • ثم ذهب الى مخدع زوجته •

- أين تقضى وقتك يا هذا ؟ هلاً نظرت الى نفسك فرأيت في أية حالة أنت ! يا لوجهك من وجه ! أين كنت ! أين دسست نفسك ؟ ألا فكثرت قليلاً أيها السيد ؟ امرأتك تموت وتضرب في المدينة كلها باحثة عنك عسى أن تثر لك على أثر ! أين كنت ؟ أكنت تريد أيضاً أن تقبض على متلبسة بالجرم المشهود ؟ أكنت تحاول أن تمنعني من الذهاب الموعد المضروب ؟ الموعد المضروب مع لا أدري من ! ••• عيب أيها السيد عيب ••• لسوف يشير اليك الناس بالاصابع قريباً !

قال ايغان آندريفتشى :

ـ كنزى الغالى !

ولكنه كان من فرط الانزعاج والحرج أنه اضطر أن يخرج منديله من جيبه . لقد قطع جملته التى بدأها ، فلا هو يعثر على فكرة يعبر عنها ، ولا هو يجد كلمة يقولها . . . . فما كان أشد ذهوله ، وذعره ، ورعبه ، حين سحب منديله من جيبه ، فاذا بالمرحوم آميشكا يسقط على السجادة . لم يكن قد لاحظ أنه حين كان يزحف تحت السرير ، وهو فيما هو فيه من كرب ، قد دسَّ آميشكا فى جيبه . كان ايغان اندريفتشى يرجو من ذلك أن يمحو كل أثر من آثار جنايته ، وأن يهدم كل دليل يبرهن على جرمه ، وأن يتفادى بذلك العقاب الذى يستحقه .

صاحت الزوجة تسأله :

ـ ما هذا ؟ كلب صغير ميت ؟ من أين جئت به ؟ ماذا فعلت ؟ يارب !  
من أين هو آتٍ ؟ ماذا صنعت ؟ أين كنت ؟ أجب بسرعة : أين كنت ؟  
قال ايغان آندريفتشى وهو يحس أنه ميت أكثر من آميشكا :

ـ كنزى الغالى . . . . عزيزتى

ولكننا سندع بطلنا هنا للمرة القادمة . لسوف اكمل ،  
فى يوم من الأيام ، أيها القراء الأعزاء ، قصة الواع الشقاء  
وضروب المحن التى رمى بها القند صاحبنا ايغان اندريفتشى .  
اعترفوا على كل حال بأن القبرة آفة لا نفتخر ، بل بليه من  
البلايا .

# حواش

## تقديم

### الصفحة

١٠ \* يعدد دوستويفسكى هنا سلسلة من الموضوعات الرومانسية :  
« أرنست تيودور آميرى هوفمان » ( ١٧٧٦ - ١٨٢٢ ) : أحد كبار الشعراء الرومانسيين الألمان ؛ « ليلة سان بارتلمى » تمثل مذبحه البروتستانت فى باريز فى ٢٤ آب (أغسطس) ١٥٧٢ ، وقد صورها الشاعر بروسير ميرميه فى « وقائع عهد شارع التاسع » ؛ « ديان فرنون » : بطله رواية والتر سكوت التى عنوانها : « روب روى » ؛ الاستيلاء على قازان من قبل حنا الرابع سنة ١٥٥٢ ؛ « كليبر موفبراى » : احدى شخصيات والتر سكوت فى روايته « امواه سان رومان » ؛ « ايلفى دينز » ؛ احدى شخصيات والتر سكوت ايضا فى « أرض ميد لوثيان » ؛ « مجمع الاحبار » الذى أمر باحراق جان هوس سنة ١٤١٥ ؛ مشهد يقفله الاموات فى اوبرا « روبير الشيطان » من تأليف مايربير ( ١٨٣٠ ) ؛ قصيدة جوته « مينا » ترجمها الى الروسية الشاعر جوكوفسكى ؛ « برندا » قصيدة رومانسية للشاعر الأعمى ايفان كوزلوف ( ١٧٧٩ - ١٨٤٠ ) ؛ الصالون الأدبى للكونتيسة الكسندرين فورونتزوفا ( ١٨١٨ - ١٨٥٦ ) ؛ « دانتون » أحد كبار رجال الثورة الفرنسية ؛ « كليوباتره » و«رامها » موضوع قصيدة بوشكين التى عنوانها : « ليالى مصر » ؛ « البيت الصغير فى كولومنا » : من اعمال بوشكين أيضا ، حيث يصف الشاعر انساناً فقراء الحال يعيشون فى ضاحية من ضواحي سان بطرسبرج .

## نيتوتشكا

٢٦ \* اسم نرفانوفا مشتق من النعت نرفانوى ومعناه من جاء بشير دعوة . وكثيرا ما كان يطلق على أولاد السفاح .

## الصفحة

- ٢٨ ★ كان كبار السراة من الروس فى القرن الثامن عشر وفى النصف  
الأول من القرن التاسع عشر يقيمون فى أملاكهم مسارح وينشئون  
جوقات موسيقية تتألف غالباً من خدم وأقنان ، وأحياناً من  
أحرار .
- ٣٦ ★ ياجور ، هو الشكل الشعبى لاسم جيورجى ، ياجورى .
- ٥٦ ★ ترسيت : شخصية فى الياذة هوميروس تتصف بسعة الحيلة  
وسلاطة اللسان .

## الليالى البيضاء

- ٢٧٨ ★ شارع نفسكى ، وحديقة الصيف ، والأرصفة : أماكن ثلاثة  
للتنزه فى بطرسبرج .
- ٢٧٨ ★ « قناة فونتانكا » تجتاز وسط المدينة .
- ٢٧٩ ★ « بالوان امبراطورية السماء » : كان اللون الأصفر هو اللون  
الرسمى للصين .
- ٢٨٠ ★ جزر كامنى وآبتكارسكى وبترهوف : أماكن اصطيف قريبة  
من بطرسبرج ، يصطاف فيها الأغنياء ، أما بارجولوفو ، فهى  
على مسافة خمسة عشر كيلو متراً من المدينة ، فى الطريق المؤدى  
الى فنلنده .
- ٣٠٠ ★ « الهة الأحلام » ، يصفها دوستويفسكى هنا بالألفاظ التى  
يصفها بها الشاعر الرومانسى فاسيلى جوكوفسكى ( ١٧٨٣ -  
١٨٥٢ ) .
- ٣٠١ ★ راجع حاشية الصفحة ١٠ .
- ٣١٣ ★ « ايفانوييه » ، الرواية الشهيرة التى كتبها والتر سكوت ، وقد  
ترجمت الى الروسية مراراً .
- ٣١٤ ★ « حلاق اشبيليه » ( ١٨١٦ ) : لقد مثلت أوبرا روسيىنى هذه  
كثيراً فى روسيا .



## الصفحة

٣١٥ \* « روزين » : اشارة الى مشهد من حلاق اشبيليه ، وفي ذلك  
المشهد تتولى ووزين نقل رسالة الى فيجارو من وواء ظهر ولي  
أمرها .

## بروخارتشين

- ٣٥٤ \* « بروخارتشين » اسم مشتق من فعل Prohartchit  
ومعناه « أنفق » ؛ فيكون اسم هذا الرجل البخيل : السيد  
« منفق » .
- ٣٦٣ \* فرضت الامتحانات المهنية على الموظفين الذين لا يحملون الشهادات  
سنة ١٨٠٩ ، من قبل الوزير سبيرانسكي ، ولكن تطبيقها أهمل  
بعد ذلك .
- ٣٦٦ \* سوق تولكوتشي ( ومعناها سوق التزاحم أو التداخل ) .
- ٣٨٩ \* ياروسلاف ايلتشي هو مأمور قسم الشرطة بالمى .

## الجارة

- ٤٣١ \* ستنگا ( ستبيان ) رازين ، زعيم ثورة القوزاق والفلاجين سنة  
١٧٦١ .
- ٤٣٨ \* ياروسلاف ايلتشي هو مأمور قسم الشرطة بالمى .
- ٤٤٣ \* « كوشماوف » : اسم مشتق من الكلمة الفرنسية Gauchmar  
ومعناها الكلبوس وقد دخلت اللفظة الروسية .
- ٤٤٦ \* « فى العقوبة » : المقصود هنا العقاب الكهربى ، فاللذين يقتلون  
بغير تعمد كانوا يعاقبون بهذا العقاب ، فيمنعون من تناول  
الخبز المقدس ومن دخول الكنائس عدة سنين .
- ٤٤٩ \* « فيليم ايميليا نوفتشي » : لعله مدير الشرطة بالعاصمة .
- ٥٠٨ \* « تلميذ الساحر » ، أسطورة من القرون الوسطى عرفها  
دوستويفسكى عن طريق قصيدة جوته التى ظهرت سنة ١٧٩٧  
بهذا العنوان .

## المهرج

### الصفحة

- ٥١٣ \* « المهرج » ( بولزونكوف ) : اسم مشتق من كلمة بولزون ومعناها « مذل نفسه » ، ففي الاسم إشارة الى الصفة التي اختارها المهرج لنفسه بإرادته .
- ٥٢٤ \* « ماريا المصرية » ، نموذج الخاطئة التي غفر لها .
- ٥٢٨ \* أولى كلمات قصيدة ك . ماتيوشكوف التي عنوانها « فراق » نظمها الشاعر سنة ١٨٦٢ ثم لحنت وأصابت رواجاً كبيراً .

## البطل الصغير

- ٥٨٩ \* بنديكت هو عشيق بياتريس في ملهاة شكسبير « ضجة كبيرة في غير طائل » .
- ٥٩٦ \* ايليا مورومتس ، بطل من أبطال الملاحم الروس ، أقوى فرسان سان فلاديمير . قضى الثلاثين الأولى من سنى عمره كسيحا في قريته كارانشاروفو ، ثم شفثه ، بمعجزة ، ملائكة منسكرة بمظهر حجاج .
- ٦٠٢ \* الفارس النبيل « دولورج » هو بطل قصيدة شيللر « القغاز » ، وقد ترجها الى الروسية جوكوفسكى ؛ والفارس « توجنبرج » بطل آخر في قصيدة لشيللر .

## قصة في تسع رسائل

- ٦٢٠ \* العنوان الأصلي : « الفكر يجلب الشقاء » ، وهى مسرحية شهيرة من تأليف جريبويدوف ، كتبها سنة ١٨٣٠ ، وكانت تمثل كل خريف فى « مسرح الكسندرين » بسان بطرسبرج .
- ٦٢٢ \* « خمسمائة نفس » : الى أن ألغيت الفنانة سنة ١٨٦١ كان تقدر قيمة ارض من الأراضى لا بمساحتها بل بعدد « نفوسها » ، أى بعدد الأقتان البالغين الخاضعين للضرائب .

٦٢٤ \* سميرسك ، مقاطعة الفولجا ، وطن كارامازين وجوتشاروف وأوليانوف لينين ، وتسمى الآن أوليانوفسك .

### زوجة آخر . . . وزوج تحت السرير

٦٦١ \* روايات بول دو كوك ترجمت الى الروسية وراجت قراءتها راجا كبيرا . وكان الناقد الشهير بيلنسكى يقدر فيها اتجاهها الواقعى .

٦٨١ \* كانت الأوبرا الايطالية رائجة فى سان بطرسبرج فى ذلك العصر وفى خلال فصل الشتاء من سنتى ١٨٤٧ - ١٨٤٨ حظيت مغنيتان كبيرتان بنجاح كبير فقسمتا الناس حزبين فبعضهم أنصار تيريزا جيوجلى بورسى ، وكانوا يلقبون « البورسين » ، وبعضهم أنصار ارمينيا فريزولينى وهم « الفريزولينيين » .

٦٨٢ \* يستشهد دوستويفسكى بأقوال هاملت بطل مسرحية شكسبير ( الفصل ٣ ، المشهد ٥ ) وقد عرفها فى الترجمة الروسية التى قدمها نيقولاس بولفوى سنة ١٨٣٧ .

٦٩٧ \* « فاسكا ، فاسنكا » ؛ من الأسماء التى تطلق على القطة .

٧١٨ \* يخلط ايفان أندرفتشس هنا بين اسم المؤلف الانجليزى رتشاردسون وبين اسم لوفلاس الشخصية المغوية فى الرواية التى كتبها رتشاردسون بعنوان « كلاريا هارلو » ؛ وقد ترجمت هذه الرواية الى الروسية وقرئت كثيراً .

٧١٩ \* رينالدو رينالدينى ، بطل رواية المسانية كتبها فولبيوس ( ١٧٦٢ - ١٨٢٧ ) وترجمت الى الروسية والتشرت فى روسيا انتشارا كبيرا فى تلك الآونة . والبطل يمثل رجلا كريما جوادا من اللصوص قطاع الطرق .

# فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم
	<b>نيتوتشكا نرفانوها</b>
٢٧	الفصل الأول
٥٨	الفصل الثاني
٨٥	الفصل الثالث
١١٦	الفصل الرابع
١٣١	الفصل الخامس
١٥٩	الفصل السادس
١٩٠	الفصل السابع
٢١٧	الفصل الثامن
	<b>الليالي البيضاء</b>
٢٧٧	الليلة الأولى
٢٩٢	الليلة الثانية
٣٠٩	قصة ناستنكا
٣٢٤	الليلة الثالثة
٣٣٤	الليلة الرابعة
٣٤٨	الصباح
٣٥٣	بوخارتشين



## الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الأول</u>	<u>المجلد الأول</u>
الفقراء	المجلد الشامن
المثل	الجريمة والعقاب - ١.
قلب ضعيف	<u>المجلد التاسع</u>
<u>المجلد الثاني</u>	الجريمة والعقاب - ٢.
نيتوتشكا نزفانوفنا	<u>المجلد العاشر</u>
الليالي البيضاء	الأبلة - ١.
بروخاروشين	<u>المجلد الحادي عشر</u>
الجارا	الأبلة - ٢.
المهريج	<u>المجلد الثاني عشر</u>
السارق الشريف	الشياطين - ١.
البطل الصغير	<u>المجلد الثالث عشر</u>
قصة في سبع رسائل	الشياطين - ٢.
شجرة عيد الميلاد والزواج	<u>المجلد الرابع عشر</u>
زوجة أخرا ورجل تحت السرير	المرامق - ١.
<u>المجلد الثالث</u>	<u>المجلد الخامس عشر</u>
قريبة ستيبانتشيكوفوسكانها	المرامق - ٢.
حلم العم	قصص
<u>المجلد الرابع</u>	<u>المجلد السادس عشر</u>
مذلولون مهانوت	الأخوة كارامازوف - ١.
<u>المجلد الخامس</u>	<u>المجلد السابع عشر</u>
ذكريات من منزل الأموات	الأخوة كارامازوف - ٢.
<u>المجلد السادس</u>	<u>المجلد الثامن عشر</u>
في قبوي	الأخوة كارامازوف - ٢.
قصة اليممة	
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف	
التمساح	
<u>المجلد السابع</u>	
المقامر	
الزوج الأبدي	

# دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين الميائنين" فاذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية " التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف. سربروفيف